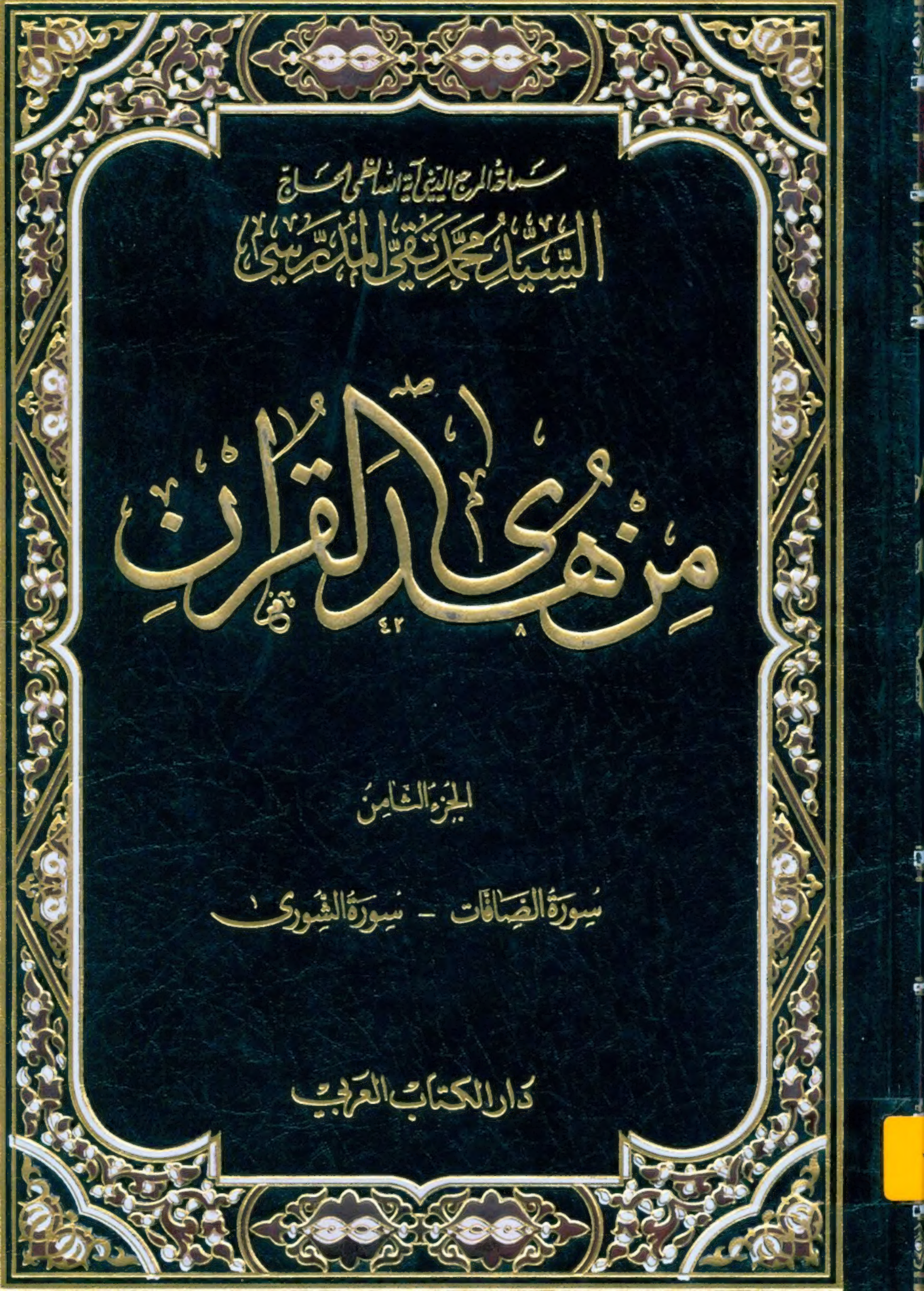
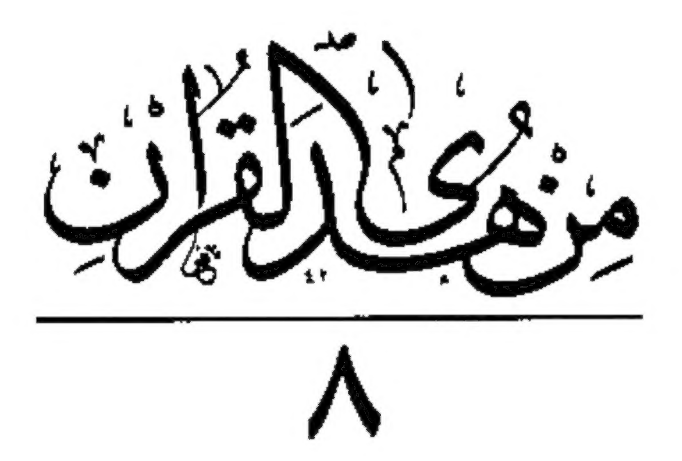


سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي
من هدى القرآن
الجزء الثامن
سورة الصافات - سورة الشورى
دار الكتاب العربي


الكاظمين الغيظ


من هدى القرآن
٨

سماحة المرجع الديني آية الله العظمى الحاج
السيد محمد تقي المدرسي



من هدى القرآن

الجزء الثامن

سورة الصافات - سورة الشورى

دار القارئ

الطبعة الثانية

١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م

■ الكتاب: من هدى القرآن ١/ ١٢.

■ المؤلف: سماحة المرجع الديني آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي.

■ الطبعة: الثانية، تاريخ النشر: ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، (طبعة محققة ومنقحة ومزيدة).

■ إخراج وتنسيق: زكي حسن أحمد

■ zakiht@gmail.com

■ الناشر: دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون: ٠٣/٤١٣٢٥٦ - ٠٣/ ٩٠٢٩٤٤

Email:dar_alkari@hotmail.com

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ الطَّاهِرِين

سُورَةُ الصَّافَّات

* مكيّة.

* عدد آياتها: ١٨٢.

* ترتيبها النزولي: ٥٦.

* ترتيبها في المصحف: ٣٧.

* نزلت بعد سورة الأنعام.

فضلُ السُّورة

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأَهَا بَرِئَ مِنَ الشَّكِّ وَالنِّفَاقِ فِي الدِّينِ».

(المصباح للكفعمي: ص٤٤٧)

الإطار العام

آفاق العلاقة بين الخالق والخلق

تهدينا سورة الصافات بآياتها السامية إلى ذات الأفكار والحقائق التي كانت الآيات السابقة في سورة (يس) تؤكد عليها بإضافات أخرى، وأسلوب أدبي نفسي جديد.

تبدأ آياتها بذكر الملائكة التي تصطف انتظاراً لأمر الله تعالى، وبذلك سميت بسورة (الصافات)، كما تحدثنا الآيات الأخيرة منها عن الجن والملائكة، وشبهات الجاهليين حول علاقتهما بربهما، فقد زعموا بأن لهما علاقة نسبية بالله (الآية: ١٥٨)، وذهب بعضهم بعيداً؛ إذ قالوا بأن الجن نتيجة مباشرة لعلاقة زوجية بين الملائكة وربهم -تعالى عما يشركون-.

بينما تحدثنا السورة في أواسطها عن الأنبياء عليهم السلام، والعلاقة بين السياقين أن القرآن حينما بَيّن خطأ الجاهليين الفظيع في تصورهم حول علاقة الملائكة والجن بالله كان لابد من الإشارة لنفس الخطأ الذي وقع فيه الآخرون عندما تصوروا بأن هناك علاقة مشابهة بين الله والرسل، انطلاقاً من تقييمهم للمعجز الذي طالما تكرر على يد الأنبياء عليهم السلام من دون الآخرين، فاتخذوا ذلك دليلاً على أنهم أبناء الله، ولهذا نجد الآيات تطيل الحديث حول هذا الموضوع مؤكدةً بأن نبوة هؤلاء لم تكن بأسباب ذاتية تكوينية فيهم، إنما أعطاهم الرب هذه المنزلة الرفيعة لما وجده فيهم من عمق الإيمان، وصدق العمل، وشجاعة الإقدام، والإحسان إلى الناس. ولعل الحديث عنهم عليهم السلام في هذه السورة المباركة يتصل بهذا الجانب من حياتهم، نفياً للبدع الجاهلية.

من هنا؛ نستطيع القول بأن الخط العام لسورة الصافات هو بيان العلاقة السليمة بين الله عز وجل وسائر خلقه، التي تتجسد من جهته في الإنشاء، والخلق، والإبداع، والرزق، و... . أما ما دون هذه العلاقة، فإن هناك معراجاً واحداً يتقرب من خلاله الخلق لربهم، وهو الإيمان والعمل الصالح.

وحين نتدبر في جملٍ بصائر السورة تتجلى لنا المسؤولية بأظهر صورها، والتي تصعقنا عند قول الرب: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾.

فالشرك بالله من خلال الاعتقاد بربوبية الملائكة أو الجن أو الآلهة المزيفة الأخرى، له مبرر نفسي، وهو محاولة التملص من المسؤولية.

ويوم القيامة، هو يوم ستتجلى فيه المسؤولية بشكل واضح وأكيد، حيث الصيحة العظيمة؛ فإذا بالظالمين قيام ينظرون عذاب الله، وهناك تتجلى المسؤولية التي طالما تهربوا منها في الدنيا، فتسقط تبريراتهم التي زعموا بأنهم قادرون على جعلها وسيلة للتخلص من جزاء أعمالهم.

ويبقى أن من أبرز أدلة المسؤولية في الدنيا، وجود الجزاء. فلو كنا في مجتمع يحكمه الظلم، ثم سكتنا عنه، فشملنا الذل والبلاء، فإن ذلك دليل مسؤوليتنا عن الوضع، حتى لو بررنا ذلك بثقافة الجبر أو فلسفة الانتظار.

ومحور المسؤولية هو الذي يوصل محاور السورة ببعضها، وأبرزها ثلاثة محاور:

الأول: نفي الأنداد الذين يتخذهم الجاهلون آلهة لعلهم ينصرون. إن غايتهم من عبادة الآلهة التنصل من جزاء أفعالهم،ولكن هيهات! فالملائكة صافون لربهم صفاً، والشياطين محجوبون عن السماء، وتترصدهم الشهب، والمستكبرون محضرون لحساب عسير.

الثاني: الأنبياء والأولياء عليهم السلام عباد الله المكرمون، فلا يشفعون إلا لمن ارتضى، ولا يمكن التعويل عليهم لمواجهة سنن الرب،كيف وإنما بلغوا درجاتهم هذه بأنهم عباد الله المخلصون، الذين أخلصوا ولاءهم لقيادتهم الشرعية، وأخلصهم الله سبحانه من شوائب الشرك وآثار الضغوط الإجتماعية والتاريخية.

الثالث: نسف قواعد التبرير التي يعتمد عليها المجرمون في اقتراف المآثم، حيث يزعمون أنهم كانوا مجبورين.

وتتصل الصور التي ينقلها القرآن إلينا من يوم المسؤولية والجزاء بهذا المحور.

والنسق القرآني يجعل المحور الأول والأخير متدرجين، ثم يذكر بالمحور الثاني الذي يأتي كشاهد مبين لهما، ذلك أن القرآن يضرب للحقائق الأمثال، ومن أروع أمثلته حياة الأنبياء عليهم السلام، الذين أمرنا بأن نسلم عليهم بكرة وعشياً،ليتخذهم المؤمنون قدوةً مناراً، كالنبي إبراهيم عليه السلام الذي كان من شيعة شيخ المرسلين نوح عليه السلام.

وحينما يبين لنا القرآن المجيد حقيقة أو حكماً، لا يلبث أن يضرب لذلك أمثلة عديدة، ليس للإيضاح فحسب، إنما لبيان الأبعاد والحدود أيضاً، ذلك لأن النفس البشرية قادرة على تحوير الألفاظ وتفريغها من معانيها الحقيقية، وتحويلها إلى ألفاظ قشرية غير مؤثرة، بل وقد تعطي معانٍ غريبة عن المعنى الحقيقي.

فلكي لا يأتي بعض المفسرين القشريين، أو بعض من تسوّل لهم أنفسهم تبرير الأفعال والانحرافات للناس، ويفسروا القرآن على أهوائهم وآرائهم، لم يترك ربنا كلمة في القرآن الحكيم إلا وأوضحها بالأمثلة التاريخية التي لا يمكن نكرانها أو تبديلها وتأويلها إلى غير مضامينها.

ويبدو أن القرآن الكريم أراد أن يبين المعنى الحقيقي والواقعي للتشيع، الذي هو رفض الجبت الداخلي بالتوحيد الخالص، ورفض الطاغوت الخارجي بمقاومة الانحراف الاجتماعي والسياسي والثقافي و.. . في الواقع القائم، والذي هو صورة ظاهرية للجبت الداخلي، ثم التسليم لله والتضحية والاستقامة في سبيله.

ثم يذكرنا الله عز وجل في النهاية بالمعنى الحقيقي للإخلاص، وهو أن يكون الإنسان بعيداً عن العوامل والضغوط المضادة للحق.

فالمجتمع في بعض الأحيان يعصر المؤمنين، ويضغط عليهم باتجاه، وطاعة الله والأهداف التي يتطلعون إليها تضغط عليهم باتجاه معاكس. فيكون واجبهم التحدي بالإيمان والتوكل، وأن يعرفوا بأن عنوان نبوة الأنبياء والمرسلين وأبرز أعمالهم هو تحديهم للواقع الاجتماعي الفاسد، وأن نجاحهم في هذا التحدي هو سبب سموهم.

وفي الآيات الأخيرة يلخص ربنا عِبَر هذه السورة، ومن أظهرها أن عباد الله المخلصين هم الذين أخلصهم ربهم وأخلصوا أنفسهم له، فلم تؤثر فيهم العوامل التي جرت على غيرهم.

قل نعم وأنتم داخرون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ (٢) زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ (٣) ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا (٤) وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٥) ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ (٦) شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ (٧) ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (٨) ﴿١٨﴾﴾.

---

(١) والصافات صفاً: كل شيء بين السماء والأرض لم يضم قطريه فهو صاف، ومنه الطير صافات إذا نشرت أجنحتها، وقيل جمع صافة وهي الملائكة التي تصف أقدامها للصلاة والإطاعة أو أجنحتها حال الصعود والهبوط، وصفاً تأكيد له.

(٢) فالزاجرات: الزجر الصرف عن الشيء، وهنا يقصد بها الملائكة التي تزجر الكفار حين قبض أرواحهم أو تزجر من أمر الله.

(٣) مارد: المارد الخارج إلى الفساد العظيم، وهو من وصف الشياطين وهم المردة، وأصله الانجراد، ومنه الأمرد الذي لا شعر له، فالمارد المنجرد من الخير.

(٤) دحوراً: الدحور الدفع بالعنف يقال دحر يدحر دحراً ودحوراً.

(٥) واصب: الدائم الثابت.

(٦) الخطفة: الخطف هو سلب الشيء خلسة بسرعة.

(٧) لازب: اللازب واللازم بمعنى واحد، أي طين يلتصق باليد وهو الطين الصافي.

(٨) داخرون: صاغرون أذلاء، من دخر بمعنى صغر وذل.

هدى من الآيات:

يَنصبُّ الحديث في هذا الدرس حول الملائكة ويوم البعث، ويربط الموضوعين ببعضهما أن الإنسان قد يكفر بالجزاء رأسا حين لا يؤمن بيوم الجزاء، وقد يكفر به بصورة غير مباشرة، وذلك حين يزعم أن الملائكة يشفعون له عند الله لأنهم أبناؤه سبحانه.

وما دام السياق يكرس روح المسؤولية فلا بد من معالجة هذين الموقفين معا، لأنهما يشتركان في المحصلة النهائية، وهي التنصل من المسؤولية.

فالشرك بالله من خلال الاعتقاد بربوبية الملائكة أو الجن أو الآلهة المزيفة الأخرى، له مبرر نفسي هو محاولة التملص من المسؤولية. إن من الصعوبة على الناس تحملها، مع علمهم بها، فلكي يتخلصوا -بزعمهم- من حدية أوامر الله، ويتهربوا من الالتزام بالدين، تراهم يبحثون عن مبرر نفسي لأنفسهم مما يدفعهم للتصور بأن الملائكة أو الجن أو الصالحين كعيسى عليه السلام سوف يدفعون سخط الرب وعذابه عنهم بالشفاعة أو الفداء.

ويوم القيامة هو يوم تتجلى فيه المسؤولية بشكل واضح وأكيد، وتأليه هؤلاء للملائكة والجن و الأنبياء، يأتي لحل إشكالية ذلك اليوم، ولكن هيهات، لهذا أكد ربنا في نهاية هذا الدرس مسؤولية الإنسان الحتمية بقوله: ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ ﴾.

بينات من الآيات:

[١-٣] يصور لنا السياق في مطلع هذه السورة الكريمة مشهدا من الغيب حيث تصطف الملائكة في السماوات العلى، بما لا يعلم عددها إلا الله عز وجل، انتظارا لتلقي الوحي من ربها، ثم تنزل به إلى حيث يأمرها زاجرة ما يعترضها من العقبات، تتنزل به وتتلوه على النبي، ومن هنا يمكننا القول بأن تنزيل الوحي ليس مخصصا بجبرائيل إنما يوجد معه ملائكة آخرون يؤدون الدور نفسه، وفي القرآن نجد تعبير رسل الله، يعني تارة الملائكة التي تهبط بالوحي، ويعني تارة أخرى الملائكة الذين يتوفون الأنفس، بينما يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ [السجدة: ١١]. يعني بذلك عزرائيل، وبجمع الآيات إلى بعضها نستوحي بأن ملك الموت الأعظم زعيم لِنَزَعَةِ الروح، أما بقية الملائكة فهم أعوانه على ذلك، كما أن جبرائيل الملك الأعظم -الذي يتنزل بالوحي على الأنبياء والرسل- زعيم لطائفة من الملائكة الذين يؤدون المهمة نفسها.

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ يقسم الله بالملائكة التي تصطف انتظارا لأمره ووحيه، ثم تهبط

لإنفاذ أمر الرب، زاجرة العقبات في طريقها، كالطبقات الموجودة بين الأرض والسماء، والشياطين التي تحاول استراق السمع أو حجب الله عن أنبيائه ورسله ﴿ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴾ كما أن من صفاتها تلاوة الوحي على الأنبياء، والتلاوة من التتالي أي التتابع مما يدل على أن وحي الله لهم لا ينزل مرة واحدة، إنما يتنزل مفرقا، وذلك مما تستدعيه الحكمة في التغيير ﴿ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴾.

[٤] فالملائكة إذن ليسوا آلهة من دون الله، إنما هم مسلَّمون لأمره، وحملة وحيه إلى الخلق، فلا تصح عبادتهم، وإنما عرَّفنا الله بجانب من دور الملائكة وهو شيء من الغيب، لأن إشراك طائفة من الناس بالملائكة نابع من جهلهم لحقيقة هذا الخلق، لهذا نجد القرآن بعد هذا التعريف المختصر والبليغ في الوقت نفسه، ينطلق لتأكيد حقيقة التوحيد قائلا: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴾ ويلاحظ ورود ثلاثة تأكيدات على هذا الأمر، هي: القسم وهو أعظمها وإن التوكيدية واللام في عبارة لواحد، الواقعة في جواب القسم.

[٥] ولكي لا يشبع الإنسان ميوله الفطرية نحو العبودية للرب باعتقادات باطلة تجاه الكون وبعض المخلوقات بيَّن الله بأن كل ما في الكون هو مخلوق مفتقر إليه في وجوده، وهذا البيان يعطي البشر شعورا بالانسجام مع الطبيعة من حوله وهو يعبد ربه، وعلى العكس من ذلك لو أشرك بالله ﴿ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴾ ولعل الحقائق العلمية القائلة بأن لكل نجم وكوكب مدارا خاصا به، فمشرقه ومغربه يختلف فيه عن غيره، تكشف عن جانب من هذه الآية التي جاءت كلمة المشارق فيها جمعا.

وهناك احتمال آخر لمعنى الكلمة هو: أن رحلة الشمس من عام إلى آخر (أو بالأحرى حركة الأرض السنوية حول الشمس) تستدعي وجود مشارق لها بعدد أيام السنة. ولعل تخصيص المشارق دون المغارب بالذكر إنما هو بسبب أن عبَّاد الشمس يسحرهم شروقها فيعبدونها فيها، ولذلك استدعى التأكيد على أن الله هو رب المشارق.

[٦] أما عن الكواكب التي يتخذها فئام من الناس معبودا من دون الله، إما لما يرون من اعتقادهم أن ظهورها وغيابها يؤثر في حياة البشر، أو لانبهارهم بروعتها، فإن القرآن يوضح دورها في السماء فيقول: ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا ﴾ القريبة من الأرض.. ﴿بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ﴾ هذه الكواكب قد تكون موجودة في السماوات الأخرى، ولكنها لا تكون زينة لها، بسبب انعدام الأوكسجين والهواء من فضائها، مما يمنع بقاء الضوء أو انعكاسه.

[٧] وبالإضافة إلى هذا الجمال يشير السياق إلى القوة والمتانة في خلق السماء، حيث جعل فيها الرصد والحرس، يمنعون نفوذ الشياطين إلى الملأ الأعلى ﴿ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴾.

[٨] وتهدم هذه الآية الكريمة العقيدة الباطلة، التي تقول بمعرفة الجن لجميع الأقدار التي جرت في الماضي، وما تجري الآن، وما ستقع مستقبلا، لأنهم يتصلون بالغيب ويطلعون عليه، وينفي القرآن ذلك نفيا مباشرا بقوله: ﴿ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ لا يستطيعون التجسس أو استراق السمع من الله، وهو يوحي للملائكة بما يقدِّره ويقضيه، لتباشر تنفيذها بإرادته تعالى ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ يقذفهم حرس السماء بأسلحتهم لو حاولوا النفوذ واختراق الحجب، فهم في يقظة دائمة.

[٩] ويدحرون الشياطين ﴿ دُحُورًا ﴾ عند تسللهم لاستراق السمع، كما يكتب عليهم ذنبا يجمع إلى جرائمهم الأخرى، فينالون بذلك العذاب الشديد في النار بعد الحساب ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾، قال الإمام الباقر عليه السلام: «﴿عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أَيْ دَائِمٌ مُوجِعٌ قَدْ خَلَصَ إِلَى قُلُوبِهِم»[١].

[١٠] والشياطين يسعون جهدهم للحصول على بعض المعلومات من السماء من أجل إضلال أهل الأرض بها، بعد تضمينها الأفكار الباطلة، وما عند الكهنة والمنجمين من الأخبار الصائبة هو من هذا النوع، فهم يجلبون ثقة الناس بهم، من خلال الجزئيات الصحيحة حتى يثقون بكل ما يصدر عنهم من الباطل ﴿ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ وفي الآية وآيات أخرى مشابهة دلالة على أن الشياطين تتمكن من الحصول على بعض الأخبار، من خلال مغامراتها المستمرة.

كما نستوحي من الآية وآيات أخرى أيضا في القرآن أن حديثا يدور لدى الملأ الأعلى عما يجري في الدنيا، متى ينزل المطر، متى تحدث الزلازل، و.. . ولا ريب أن للظواهر الواقعة مستقبلا إرهاصاتها ودلالاتها، ولعل الحاسة السادسة، والنظر المغناطيسي، والانتقال التلقائي، والتنبؤات الصحيحة، والأحلام، وحتى بعض أبعاد السحر والكهانة والعرافة و.. و.. تدل على وجود مبشرات ومنذرات قبل وقوع الحوادث. أما الذين يزعمون بأنهم يتبعون الجن والشياطين فإنهم مخطئون، لأن الجن أساسا لا يملكون من علم الغيب شيئا، حيث يمنعهم حرس السماء من ذلك.

[١١] وبعد هذه المقدمة البليغة التي حطمت أسطورة الشرك بالجن، والتصور بأنها آلهة من دون الله، يخلص السياق إلى تساؤل من شأنه أن يهز نفوس الكفار والمشركين وعقائدهم من الأعماق، ويبعثهم على التسليم للرسالة وعقائدها الصائبة لو أرادوا ذلك.

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٦، ص٣٧٦، تفسير القمي: ج٢ ص٢٢١.

يقول تعالى: ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ ﴾ أيها الرسول واسألهم. والإستفتاء هو استطلاع الرأي.. ﴿أَهُمْ ﴾ يعني الكفار والمشركين.. ﴿أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴾ ولتفسير هذه الآية ثلاثة أوجه:

الأول: أن المعني بالتساؤل هم الملائكة، ولا يملك الإنسان إجابة سوى الاعتراف بتفوقها الذاتي عليه من حيث القوة، فهي أقوى حتى من الجنة، التي يتصورها الإنسان لضعفه أنها آلهة، فهي من جهة القياس أولى بادعاء الألوهية والتمرد على الله، لكننا نجدها خاضعة له مسلمة لأمره، فلماذا إذن هذه النزعة نحو الربوبية في بعض بني البشر أو التكبر، وهم ضعفاء في الخلقة حيث عنصرهم الطين اللازب؟!

الثاني: أن المقصود بالخلقة الشديدة هم الجن، وما داموا أضعف من مقاومة قدرة الله وعذابه فلماذا يشرك البعض بهم، وهذا الأمر يستوجب العذاب الأليم الذي لا تحتمله أبدانهم الطينية الضعيفة؟!

الثالث: أن الآية تشير إلى سائر خلق الله في الكون، كالسماوات والأرض والكواكب حيث تتجلى آثار قدرة الله، التي دفع التشكيك فيها بالإنسان إلى الكفر بالبعث، فإذا ما تفكر الإنسان في خلقها وثق بقدرة ربه، وبالتالي آمن بيوم البعث، وهذا أظهر الوجوه فيما يبدو لي.

[١٢] ومشكلة الإنسان تجاه الحقائق الكبيرة أنه لا يستوعبها إلا إذا اتصف بسعة الأفق والتعقل، وكلما كان العقل كبيرا كان صاحبه أقدر على اكتساب المعرفة، وعقل الحقائق، والإمام علي عليه السلام يقول: «**يَا كُمَيْلَ بْنَ زِيَادٍ إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا**»[1].

والعاقل حينما يصغي للحقائق أو يشاهدها يتعجب منها ولكنه يصدقها، فلا يكذبك لو قلت له بأن الدلفين يستخدم الآن في عمليات التجسس أو أن العلم الحديث اخترع جهازا فلق به رأس البعوضة. أما الجاهل فهو لا يكذب الحقائق وحسب، بل ويستهزئ بصاحبها، ويسخر منه، وقد يوصمه بالجهل والجنون، وفي الوقت الذي يدل موقف الإعجاب على نمو العقل، وسعة الصدر، واستيعاب الحقيقة، فإن موقف السخرية دليل على ضيق الأفق، وجمود الفكر، والقرآن يصف الرسول بالإعجاب، بينما يصف الكفار والمشركين بالسخرية ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴾.

[١٣] ومن شواهد تحجر قلوبهم، وجمود عقولهم، أنهم لا ينتفعون بالذكر، وقد يتعمدون التغافل عن الحقيقة ﴿ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ ﴾ والتذكير هو إثارة معلومات الإنسان في ذاكرته مما

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٤٧.

يدل على أن عقل الإنسان يحتوي على حقائق كثيرة لو استثاره صاحبه.

[١٤] وهؤلاء ليس فقط لا يعودون إلى ذاكرتهم إذا استثيرت، إنما يرفضون الانصياع للحق مع ظهور الآيات والشواهد عليه، وأعظم من ذلك جرأة على الله أنهم يستثيرون الناس للسخرية على الحق ﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴾.

وقد تكون في الآيات إشارة إلى ثلاث مراحل يمر بها هؤلاء في رفضهم للحق:

الأولى السخرية بالحق لمجرد رؤيته.

الثانية: قسوة القلب، وهي نتيجة للسخرية حيث تتراكم عليه الحجب، فلا يعود صاحبه قادرا على التفاعل مع التذكرة، ومطابقة الحق الخارجي مع الفطرة البشرية والعقل.

الثالثة: محاربة الحق ومحاولة صد الناس عنه.

[١٥] ومن أجل أن يبرر هؤلاء كفرهم بالحقيقة، ويضلون الناس عنها يلجؤون إلى إثارة الشبهات حول الحقائق:

الشبهة الأولى: حاولوا من خلالها تشكيك الناس في أصل الرسالة ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ واختاروا تشبيهها بالسحر، لأنه أقرب الأمور وأشبهها للحق ظاهريا، ومن قصة النبي موسى عليه السلام يتضح لنا أن حبال السحرة خُيِّلت للناس أنها تسعى، إلا أن الفرق بين السحر والحق أن السحر لا واقع له، بينما الحق واقع قائم.

[١٦] **الشبهة الثانية**: قالوا: كيف يُبعثُ الإنسان بعد أن يصير ترابا وأعضاء ممزقة؟! لأنهم يريدون حياة لا مسؤولية فيها، وهذا الاعتقاد يلتقي مع عبادتهم للجن وسائر الشركاء الذين يعبدونهم ليرفعوا عنهم المسؤولية بالشفاعة ﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾.

[١٧] ثم يضيفون استهزاءاً وسخرية: ﴿ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ الذين تلاشوا في التراب؟!

[١٨] فيجيبهم الله على لسان نبيه صلى الله عليه وآله إذ يترفع عن مخاطبتهم تحقيرا لهم وإصغارا، وهكذا لا نجد في القرآن ولا آية واحدة، تشتمل على خطاب مباشر من الله للمشركين والكفار على صعيد الدنيا: ﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ أي ساجدين مستسلمين للإرادة الإلهية، حيث تنتهي الحياة الدنيا وحرية الإنسان تباعا لها، ولا يبقى هناك إلا العمل والحساب، حيث تتجلى المسؤولية التي لا محيص منها تجليا تاما.

وقفوهم إنهم مسؤولون

﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَل لَّمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾﴾

هدى من الآيات:

يحدثنا السياق في هذه المجموعة من الآيات عن جوانب من اليوم الآخر، حيث الصيحة العظيمة فإذا بالظالمين قيام ينظرون وينتظرون عذاب الله. وهناك تتجلى المسؤولية، التي طالما تهربوا منها في الدنيا، فتسقط تبريراتهم التي زعموا بأنهم قادرون على جعلها وسيلة للتخلص من جزاء أعمالهم.

والتي من بينها إلقاء المسؤولية واللوم على الآخرين، إذ يدعي البعض بأنه كان مكرها

ومجبورا من قبل السلطات أو القوى الاجتماعية.

ومن أبرز أدلة المسؤولية في الدنيا وجود الجزاء، وهكذا لو كنا في مجتمع يحكمه الظالم ثم سكتنا عنه فشملنا الذل والبلاء، فإن ذلك دليل مسؤوليتنا عن الوضع، حتى لو بررنا بثقافة الجبر أو فلسفة الانتظار.

ولكي يعمق القرآن شعورنا بالمسؤولية، ولا يدع التبريرات تحجبنا عن هذا الأمر الخطير، والأساسي في حياة البشر، يصور لنا مشاهد من يوم القيامة، ويثير فيها جانبا من التبريرات، التي يتشبث بها الظالمون آنذاك، مع ردها ردا قاطعا، وكل ذلك في صورة حوار بينهم وبين الله والملائكة، وإنما يرينا السياق هذه المشاهد من الآخرة لكي تنعكس على حياتنا الدنيوية في صورة إحساس نفسي وعملي عميق بالمسؤولية.

بينات من الآيات:

[١٩] ﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴾ الزجرة تعبير آخر عن النفخة، وهي صوت يصدره أحد الملائكة بإذن الله فيميت الناس أو يبعثهم للحياة، كيفما أراد تعالى، وقد يفهم من ذلك أن انبعاث الحياة في الأرواح والعظام الميتة بحاجة إلى تفاعلات سريعة جدا، وهذا ما توفره الزجرة، التي تبعث الناس أحياءً وفي كامل وعيهم للحساب، وإذا كان الإنسان في الدنيا يخلق جاهلا ثم يتدرج في المعرفة ليصل إلى حد من الكمال، فإنه يوم البعث وبعد الزجرة ينهض بقوة كاملة، ووعي تام.

[٢٠] وأول نظرة يلقيها الظالمون إلى ما حولهم، تكفيهم علما بمصيرهم، حيث الويل والثبور، وقد كانوا محجوبين عن هذه الحقيقة في الدنيا، بسبب ذنوبهم وتكذيبهم بالرسالة الإلهية. ومن طبيعة البشر أنه لا يعترف بوقوعه في الخطأ والهلكة إلا قليلا، وفي اللحظات التي ييأس ويفقد فيها أدنى أمل بإمكانية التبرير. فالظالمون إذن يحاولون أن لا يعترفوا بخطئهم أو ضعفهم، وهلكتهم في الدنيا. ولكنهم يومئذ لا يملكون سوى الاعتراف، ونبذ التبريرات التي تشبثوا بها في الدنيا للفرار من المسؤولية.

﴿ وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ ﴾ الدين هو مجموع الفروض والواجبات التي فرضها الله على الناس، كإقامة الصلاة والعدل و.. و.. و بالتالي فإن الدين هو المسؤولية، وقد تهرب هؤلاء منها ولم يتحملوها، لكنهم وجدوها يوم البعث هي الحاكمة، فعلموا بأنهم هالكون وخاسرون، معنى الدين هنا خصوص الجزاء بقرينة الإضافة لليوم وقرينة مقام المقال.

[٢١] ويؤكد لهم المنادي من قبل الله -وهو أحد الملائكة- هذه الحقيقة، وأن هذا اليوم ليس للجزاء وحسب، إنما هو يوم الجزاء العادل، الذي يفصل فيه بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ وفي الآية إشارة صريحة بأن التكذيب هو الذي دفع بهؤلاء إلى عدم تحمل المسؤولية، بل إلى الظلم والجور، فمن الطبيعي أن الإنسان الذي يشعر بأنه لا يجازى على أعماله السيئة سوف يتمادى فيها، ومن هذا المنطلق يكون الإيمان بالآخرة حجر الزاوية في توازن فكر وسلوك الإنسان.

[٢٢-٢٣] ثم يأمر الله بجمع العاصين إلى بعضهم، وإدخالهم النار، وهم ثلاثة أنواع:

١- الظالمون، وهم الذين يظلمون أنفسهم ويظلمون الآخرين.

٢- الآلهة المزيفة التي يعبدها الظالمون من دون الله، كالأصنام الجامدة، والأخرى المتحركة، أمثال الطغاة، وأصحاب المال، وعلماء السوء.

٣- الأزواج، وقد قال بعض المفسرين: إن المقصود بالكلمة ظاهرها وهي الزوجة، وهذا يعني أن الزوجة لا يمكنها أن تبرر عدم تحمل المسؤولية بأن زوجها لا يقبل أو لا يسمح لها بذلك، وإلا فإنها سوف تلقى العذاب وتدخل معه إلى النار.

وثمة تفسير آخر للكلمة وهو: إن المقصود بالأزواج هم الأشباه والنظائر، ويعني ذلك أن كل جماعة تتجانس مع جماعة أخرى في عملها فإنها تحشر معها، كالخمارين والنمامين فإنهم يحشرون مع أمثالهم.

ويبدو أن الأزواج هم النظائر المكملة لبعضها، ويقال لمثنى الحذاء والنعل زوج، لأنهما يتكاملان و يؤلفان شيئا واحدا، ومن هنا فإن كلمة الأزواج تشمل أولئك الذين يسكتون عن الظلم ويرضون بأفعالهم، لأن الظلم زائدا السكوت عنه والرضى به يتكاملان ويلدان واقع الظلم والتخلف والإرهاب، وإذا صح هذا التفسير فإن القرآن يقسم الناس إلى ثلاث فئات:

الأولى: أئمة الظلم والجور وما يرمز لهم من الأصنام الجامدة.

الثانية: أتباع أئمة الظلم، وأشياعهم الذين ينفذون الظلم مباشرة، كالجند وأجهزة الاستخبارات والإعلام و...

الثالثة: الساكتين عن الطواغيت وأعوانهم من سائر الناس، وهؤلاء جميعا يجمعون ويساقون إلى النار بأمر الله إذ يقول يوم القيامة: ﴿۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ونستلهم من هذه الآية -كما من آيات عديدة أخرى- أن أعظم ما يسأل عنه

الناس يوم القيامة الولاية، فهم مسؤولون عن القيادة التي كانوا يتبعونها، والآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله، كالطاغوت السياسي والثقافي والاقتصادي، وبالتالي النظام الاجتماعي الذي كانوا يخضعون له.

﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ ولعلنا نفهم من قوله تعالى: ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ﴾ أن الذين تقدم ذكرهم يحشرون إلى جهنم عميانا عمى ماديا، تجسيدا للعمى المعنوي الذي اختاروه لأنفسهم في الدنيا، وفي ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٢]. فهم بحاجة إذن إلى من يدلهم على صراط النار، ويهديهم إلى حيث يستقر بهم المصير.

[٢٤] ولكن هل ينتهي كل شيء؟ كلا.. إنما يوقف هؤلاء للحساب، والحساب أبرز تجليات العدالة الإلهية والمسؤولية البشرية، فمن جانب يدخل العصاة الجحيم وهم قانعون بعدالة الله، وأن هذا المصير جاء نتيجة لعملهم لا نتيجة لظلم، ومن جانب آخر يصلون إلى اليقين بالمسؤولية التي أنكروها في الدنيا ﴿وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ عن أفكارهم، وأقوالهم، وأعمالهم، وقبل كل ذلك عن إمامهم وخطهم الديني والسياسي العام.

[٢٥] وأول الأسئلة التي توجه إليهم: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ فمن عادة الإنسان في الدنيا أنه يقدم على الظلم وعموم الخطيئة اعتمادا على الآخرين، فالشرطي الذي يعتقل المجاهدين يعتمد على مسؤول فرقته، وهذا الآخر بدوره يعتمد على مدير الشرطة، وهكذا دواليك، ويشكل الجميع شيئا واحدا هو جهاز ما يسمى بالأمن أو الحزب الحاكم الذي يعتمد أفراده في الظلم على بعضهم. وهؤلاء تتقطع بهم الأسباب والروابط يوم القيامة، كما تقدمت بذلك الآية الكريمة، وهذه الفكرة لا تنفعنا على صعيد ذلك اليوم وحسب حيث نطلع على مشهد منه، بل يجب علينا في الدنيا -انطلاقا من هذه المعرفة- أن لا نظلم أحدا اعتمادا على أحد.

[٢٦] إن من نعتمد عليهم في ظلمنا لن ينفعونا بشيء في الآخرة، بل لن ينفعوا أنفسهم، إذ سيستسلمون أمام الإرادة الربانية، التي طالما تمردوا عليها بجهلهم في الدنيا، وهذه إشارة إلى حاكمية الرب المباشرة في ذلك اليوم ﴿بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾ ومن لا يستسلم لإرادة الله باختياره فإنه يخضع لها بالرغم منه.

[٢٧] ولأن الظلمة وأعوانهم اعتادوا على حياة التبرير، ولعلها أنقذتهم من الجزاء في بعض المواضع من الحياة الدنيا، فإنهم يحاولون التشبث بها في الآخرة أيضا، طمعا في التنصل من المسؤولية، ومن ثم الهرب من الجزاء والعدالة الإلهية، وأنى لهم ذلك؟

والقرآن يصور تجليا للتلاوم، ومحاولة التبرير، من خلال عرضه الرائع لحوار يدور بين

المستضعفين والمستكبرين، التابعين والمتبوعين ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ وهم التابعون.. ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وهم المُتبعَوُّن وأئمة الظلم -حسبما يبدو-.. ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ من أجل معرفة المسؤول عن الظلم، وبالتالي عن المصير السيئ الذي صار إليه الجميع.

[٢٨] أما المستضعفون الظالمين لأنفسهم فقد خاطبوا المستكبرين: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ هنا يحاول التابعون رفع المسؤولية عن كاهلهم بعذرين:

الأول: قالوا إننا لم نكن نبحث عن الكفر والظلم، ولا نسعى إليهما إنما أنتم الذين حملتم الوزر إلينا، فكنتم تأتوننا ولم نكن نأتيكم.

الثاني: ثم ادعى هؤلاء بقولهم: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أنهم كانوا مجبرين على اتباع الظلمة، ولعل اليمين تشير إلى القوة لا إلى الجهة اليمنى التي تخالف الشمال، وقد استخدم القرآن هذه الكلمة تعبيرا عن القوة، قال تعالى: ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾[الحاقة: ٤٥]. يعني القوة، وإنما استخدمت اليمين للتعبير عن القوة لأن قوة الإنسان تتجلى عادة في يمينه.

[٢٩-٣٠] وأمام هذا الموقف من المستضعفين ضد المستكبرين يدافع الآخرون عن أنفسهم، وفي دفاعهم بيان للواقع كما هو، كما كان في اتهام أولئك إشارة لأسلوب الطغاة في تضليل الناس. فأئمة الكفر والظلم يرفعون التهمة عن أنفسهم بثلاثة أمور تنطوي على الإشارة لقابلية الانحراف عند الإنسان:

الأول: ﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ وحينما لا يكون الإنسان مؤمنا بعقيدة ما، ولا ملتزما بمبدأ ما، إنما يعيش خور العزيمة وضعف الإرادة والفراغ الثقافي والقيادي في ذاته، يكون عرضة للانحراف.

ألف: لأن الطغاة يستخدمون شتى ألوان الضغط عليه حتى يخضعوه لأهوائهم، يرغِّبونه ويمنّونه ثم يهدِّدونه ويتوعَّدونه ثم يضلّونه ويغوونه، فكيف يصمد -من دون الإيمان بالله والثقة بنصره- أمام كل هذا الضغط؟.

بـــاء: يستحيل على البشر بطبيعته أن يعيش الفراغ، فهو إن لم يعتقد بالإسلام مثلا ويصرف ماله وطاقاته من أجله، فإنه سوف يعتقد بمبدأ آخر وسيصرف طاقاته في سبيله، وفي الحديث قال الإمام الباقر عليه السلام: «**وَمَا مِنْ عَبْدٍ يَبْخَلُ بِنَفَقَةٍ يُنْفِقُهَا فِيمَا يُرْضِي اللهَ إِلَّا ابْتُلِيَ أَنْ يُنْفِقَ أَضْعَافاً فِيمَا يُسْخِطُ اللهَ**»[1]. أما المؤمن فهو يتحدى

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٥ ص٢٧٤.

الاعتقادات الباطلة بإيمانه، ويقاوم الأفكار التبريرية والثقافية السلبية بثقافته الرسالية، ويرفض الانتماء لحزب الشيطان وقيادة الطاغوت بانتمائه لحزب الله والقيادة الرسالية، فيجد قوة مادية - إلى جانب قوته المعنوية - لمواجهة ضغوط المستكبرين.

الثاني: نفى المستكبرون أن تكون لهم سلطة لا تقهر على المستضعفين من أتباعهم ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ إن ما يكمل مسيرة الطغاة هو قابلية الاستغلال الموجودة عند الناس، فالطاغوت هو عامل خارجي للظلم والانحراف، أما العامل الأساسي فيكمن في الواقع السلبي السائد في المجتمع، كالخوف، والجهل، و التفرق، والظلم الاجتماعي، أما الله فإنه لم يفرض سيطرة أحد من الناس بصورة تكوينية أبدا.

الثالث: المجتمع الذي يظلم بعضه بعضا، فيأكل قويه حقوق ضعيفه، ويستغل الغني الفقير، ويبتز تجاره المستهلكين فيه، يكون تربة مناسبة لنمو الأنظمة الجائرة فيه، لأن المجتمع الذي يقوم أساسا على الظلم لا يسلم فيه أحد منه، بل سوف يتصاعد الظلم فيه حتى يبلغ قمته المتمثلة في النظام السياسي فيُوَلَّى أعتى الظلمة أموره، ويكون مصداقا للآية الكريمة: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾[الأنعام: ١٢٩].

إن النظام السياسي هو الجانب البارز من العملة بينما جانبها الآخر هو الفكر والسلوك، والعادات والأعراف الاجتماعية. والطاغوت يشعر -بدوره- أنه قائم بسلبية مجتمعه، ولهذا يقوم بتعميقها ونشرها. ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ وتفسر هذه الآية تفسيرا عميقا الحكمة المعروفة «كما تكونون يولى عليكم»، وربما لذلك حذر أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته المعروفة قائلا: «**لَا تَتْرُكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيُوَلَّى عَلَيْكُمْ شِرَارُكُمْ ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ**»[1].

[٣١] وهنالك لا يجد الظالمون بدا من الاعتراف باستحقاق العذاب، وهذا هو معنى المسؤولية في قول الله: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ فالتبرير في الدنيا لا ينفع الإنسان في الآخرة إنما يورده النار. ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ لقد سبقت كلمة ربنا على المستكبرين بالغواية والضلالة، والعذاب بالنار، ولا يمكن لمن يتحدى رسالات ربه الاهتداء إلى الحق، لأن المصدر الوحيد لنور الهداية فضل الله، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

[٣٢] ثم بيّن المستكبرون أنهم بدورهم كانوا غاوين، وأن اتباع المستضعفين لهم كان يؤدي بهم للمزيد من الغواية. وهكذا يتحمل المستضعفون كامل المسؤولية عن ضلالتهم لأنهم

(١) نهج البلاغة: وصية: ٤٧.

اتبعوا رجالا ضالين. وهل ينتظر لمن اتبع ضالا أن يهتدي السبيل؟

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ إن أبسط أحكام العقل وأوضحها هو ضرورة اتباع الهداة المهديين، وهؤلاء الذين يقلدون أو يتبعون الضالين يحتج عليهم ربهم بهذا الحكم الذي هداهم إليه العقل بوضوح شديد.

[٣٣] وردا على تبريرات هؤلاء وأولئك يؤكد القرآن بأن الظلم المشترك بين المستكبرين بجورهم، والمجتمع بسكوته وسلبيته، سوف يؤدي إلى المصير الواحد، والجزاء الجامع، وهذا بالضبط معنى المسؤولية. ﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ ولعل الآية الكريمة تشير إلى فكرة هامة، من شأنها -لو فهمها الإنسان، وتعمق فيها، وعمل بها- أن تزكي نفسه وتربيها على الإيمان، وهي أن يحمل كل فرد نفسه المسؤولية ويتهمها باستمرار، أنى كان دور الآخرين، وهذه من صفات المتقين الذين وصفهم إمامهم علي عليه السلام بقوله: «**وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ لَا يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِمُ القَلِيلَ ولَا يَسْتَكْثِرُونَ الكَثِيرَ فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ ومِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ إِذَا زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي ورَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي اللَّهُمَّ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ واجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ واغْفِرْ لِي مَا لَا يَعْلَمُونَ**»[١].

ونعرف دور هذه النظرة من المؤمن تجاه نفسه إذا عرفنا طبيعة النفس البشرية التي تعيش التبرير والأعذار وتسعى للفرار من ثقل المسؤولية، وبكلمة: لا بد أن نعرف بأن ذهاب الظالمين إلى النار، وتحملهم العذاب الأليم، لا يعني براءتنا، بل قد يكون دليلا على العاقبة الواحدة لهم ولنا، إن كنا ساكتين عنهم، راضين عن فعالهم.

[٣٤] وحتى لا يتصور الإنسان بأن هذا الحديث ينصرف إلى جماعة كانت في التأريخ الغابر بالذات، وأن الإشارة إليهم كانت بالضمير الغائب﴿ فَإِنَّهُمْ﴾ يلحق القرآن حديثه عنهم بتأكيد مستقل على أن هذا المصير يشمل كل مجرم، فعاقبة المجرم الذي يخالف سنن الله، ويتبع هوى النفس، و يعبد ذاته، ويلحق الأذى بغيره، العذاب الأليم ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴾.

[٣٥] من هم هؤلاء المجرمون؟ وما هي صفاتهم؟ وكيف نتقي مصيرهم الأليم؟

ينساب السياق في بيان ذلك تمهيدا لبيان من يخالفهم وهم المتقون، لتكتمل الصورة لمن أراد النجاة، ويحق القول على الجاحدين. وأعظم ميزات المتقين التوحيد، كما أن الشرك بالله أخطر ذنوب المجرمين، الذين يرفضون التسليم للإله الواحد، ويتخذون الأنداد من دون الله. إن رفض السلطات الفاسدة، والأنظمة المنحرفة، والتقليد الأعمى لرجال ضالين، الشرط

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٩٣.

الأول لرسالات الله. ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ فهم ليسوا على الخطأ وحسب، إنما ويتصورون أنفسهم على الحق، ولو جاءهم من يُبيِّن خطأهم رفضوه، وأخذتهم العزة بالإثم، وهذه من العقد النفسية الخطيرة التي ينبغي للإنسان اجتنابها، ذلك أن المقياس في الإيمان بالله هو التسليم للحق في كل الأحوال متى تبيَّن، ولو خالف العرف الاجتماعي أو اعتقادات الفرد وسيرته السابقة. ولا شك أن اعتراف الإنسان الفرد أو الأمة بخطئه الذي قد يستتبع التغيير الجذري في الحياة أمر صعب جدا، ولكنه يأخذ به إلى العاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة، ومن أمثلة هذه الحقيقة على صعيد الأمم قوم يونس عليه السلام الذين قال الله عنهم: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [يونس: ٩٨].

ومن أمثلتها على صعيد الأشخاص التي تبين صعوبة الأمر نذكر هذه القصة المؤثرة من التاريخ، ففي بحار الأنوار: «عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي حَمْزَةَ قَالَ كَانَ لِي صَدِيقٌ مِنْ كُتَّابِ بَنِي أُمَيَّةَ فَقَالَ لِي: اسْتَأْذِنْ عِنْدَ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام فَاسْتَأْذَنْتُ لَهُ عَلَيْهِ فَأَذِنَ لَهُ فَلَمَّا أَنْ دَخَلَ سَلَّمَ وجَلَسَ ثُمَّ قَالَ جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنِّي كُنْتُ فِي دِيوَانِ هَؤُلَاءِ القَوْمِ فَأَصَبْتُ مِنْ دُنْيَاهُمْ مَالًا كَثِيراً، وأَغْمَضْتُ فِي مَطَالِبِهِ. فَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: **لَوْ لَا أَنَّ بَنِي أُمَيَّةَ وَجَدُوا مَنْ يَكْتُبُ لَهُمْ ويَجْبِي لَهُمُ الفَيْءَ ويُقَاتِلُ عَنْهُمْ ويَشْهَدُ جَمَاعَتَهُمْ لَمَا سَلَبُونَا حَقَّنَا ولَوْ تَرَكَهُمُ النَّاسُ ومَا فِي أَيْدِيهِمْ مَا وَجَدُوا شَيْئاً إِلَّا مَا وَقَعَ فِي أَيْدِيهِمْ**. قَالَ فَقَالَ الفَتَى: جُعِلْتُ فِدَاكَ فَهَلْ لِي مَخْرَجٌ مِنْهُ؟ قَالَ عليه السلام: **إِنْ قُلْتُ لَكَ تَفْعَلُ؟** قَالَ: أَفْعَلُ. قَالَ عليه السلام لَهُ: **فَاخْرُجْ مِنْ جَمِيعِ مَا اكْتَسَبْتَ فِي دِيوَانِهِمْ فَمَنْ عَرَفْتَ مِنْهُمْ رَدَدْتَ عَلَيْهِ مَالَهُ ومَنْ لَمْ تَعْرِفْ تَصَدَّقْتَ بِهِ وأَنَا أَضْمَنُ لَكَ عَلَى اللهِ عَزَّ وجَلَّ الجَنَّةَ.**

قَالَ فَأَطْرَقَ الفَتَى رَأْسَهُ طَوِيلًا ثُمَّ قَالَ: قَدْ فَعَلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ!. قَالَ ابْنُ أَبِي حَمْزَةَ: فَرَجَعَ الفَتَى مَعَنَا إِلَى الكُوفَةِ فَمَا تَرَكَ شَيْئاً عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ إِلَّا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى ثِيَابِهِ الَّتِي كَانَتْ عَلَى بَدَنِهِ قَالَ فَقَسَمْتُ لَهُ قِسْمَةً واشْتَرَيْنَا لَهُ ثِيَاباً وبَعَثْنَا إِلَيْهِ بِنَفَقَةٍ»(١)

[٣٦] ولأن العمل بمضامين التوحيد صعب هكذا، نجد الكثير من الناس يستكبرون ولا يستمعون للموعظة، وتأخذهم العزة بالإثم، بل يتهمون صاحب الرسالة بأرخص التهم، كما قالوا للأنبياء أنهم شعراء (ونفوا بذلك منهم الحكمة والاهتداء) ثم قالوا إنهم مجانين، كما إنهم اتهموا الرسل بحب الرئاسة، وإن دعوتهم إلى الله ليست سوى وسيلة للتآمر عليهم. ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴾. وهكذا يجب أن يعرف الرساليون صعوبة الإصلاح الحقيقي المتمثل في التوحيد، ويتفهموا العقبات التي تعترضهم في الوصول إليه، حتى لا يصيبهم

(١) بحار الأنوار: ج٧٢، ص٣٧٥.

الإحباط أو اليأس حينما يصطدمون بالرفض في بادئ الأمر. فالأنظمة الطاغوتية وحتى بعض الناس سوف لا يكتفون برفض دعوتهم، بل سوف يثيرون الشبهات حول أشخاصهم.

[٣٧] ويجب على الرساليين أن يقيموا مسيرتهم على مقياس الحق، وهو القرآن وسنة الرسول ﷺ وأهل بيته عليهم السلام، ليزدادوا ثقة برسالتهم، وليعرفوا أخطاءهم حتى لا يعتبروا موقف الناس والأنظمة مقياسا لمعرفة الحق، لأن الناس بجهلهم وسلبيتهم النفسية، والأنظمة بعدائها، سوف يثيرون زوابع من الشتائم والدعايات المغرضة ضدهم. ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ ﴾ والحق يدل بذاته على ذاته، فإن لكل حق حقيقة، وعلى كل صواب نورا. وفرق واضح بين الحق الذي يدعو إليه النبي والشعر الذي لا يدعو إلى شيء، وليس سوى إثارة الخيال، وترديد الأفكار الشائعة، وتمجيد العادات الجاهلية. ولأن مقياس الجاهليين لم يكن الحق إنما التراث والواقع القديم لم يجدوا التقاء ولا انطباقا بين ما عندهم وبين الرسالة الإلهية. ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وعادة يدعي أصحاب الباطل أنهم ينتمون إلى الرسالات الأولى، وإنما ينتمون إلى أهوائهم، والقرآن يردهم بأن النبي يصدق المرسلين، فرسالته ليست سوى تجديد لتلك الرسالات، ولو صدقوا في انتماءهم إليها لآمنوا بهذه أيضا.

وبالتدبر في الآيتين (٣٥-٣٦) يمكننا القول بأن هناك سببين رئيسيين وراء كفر هؤلاء بالرسالة، هما الاستكبار على الحق، والمقاييس الخاطئة لمعرفته.

[٣٨] وفي نهاية الدرس يؤكد الله للكفار والمشركين (المجرمين) أنهم سوف يذوقون العذاب. ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴾ والآية تشير إلى أن الله يحشر المجرمين في تمام وعيهم وإحساسهم المادي والمعنوي، من أجل تذوق العذاب بأعمق ما يمكن للإنسان.

[٣٩] وإلى جانب هذا التأكيد على العذاب، نجد تأكيدا آخر على العدالة الإلهية، وأن الجزاء بقدر أعمال البشر بل هو ذات أعمالهم. ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ والآية تعمق وتؤكد في نفس الإنسان مسؤوليته التامة عن كل ما يصدر عنه، من قول وعمل وسلوك. قال الرسول ﷺ: «لَمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فِيهَا قِيعَاناً ورَأَيْتُ فِيهَا مَلَائِكَةً يَبْنُونَ لَبِنَةً مِنْ ذَهَبٍ ولَبِنَةً مِنْ فِضَّةٍ ورُبَّمَا أَمْسَكُوا فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لَكُمْ قَدْ أَمْسَكْتُمْ قَالُوا حَتَّى تَجِيئَنَا النَّفَقَةُ فَقُلْتُ ومَا نَفَقَتُكُمْ قَالُوا قَوْلُ المُؤْمِنِ سُبْحَانَ اللهِ والحَمْدُ للهِ ولَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ واللهُ أَكْبَرُ فَإِذَا قَالَ بَنَيْنَا وإِذَا سَكَتَ أَمْسَكْنَا»[1] والذي يشعر بهذه الحقيقة -أن مستقبله رهين عمله- سوف يسعى جهده لتصحيحه وإتقانه وبنائه وفق ما يريده الله سبحانه.

---

(١) وسائل الشيعة: ج٧ ص١٨٨.

إلا عباد الله المخلصين

﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ[1] ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ[2] ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِى قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ[3] ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ[4] ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ

---

(١) معين: المعين الماء الجاري النابع من العين.

(٢) ينزفون: أي يسكرون فليس في خمر الجنة سكر، من نزف إذا ذهب عقله، أو بمعنى يطردون من نزف بمعنى طرد فالشرب لهم دائم لا ينقطع مهما أرادوا.

(٣) لمدينون: أي مجزيون بأعمالنا، من دانه بمعنى حاسبه وجازاه.

(٤) شجرة الزقوم: هي شجرة صغيرة الورق مُرّة تكون بتهامة، شبهت بها الشجرة التي تنبت في النار لتكون ثمرتها قوتاً لأهل النار.

عَلَيْهَا لَشَوْبًا[1] مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى الْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ[2] ﴿٧٠﴾

هدى من الآيات:

بعد تكريس المسؤولية المتجلية في الجزاء يوم القيامة، وقطع الأعذار الواهية التي يتشبث بها المستضعفون، يبيّن القرآن حال عباد الله المخلصين، الذين أخلصوا ولاءهم لقيادتهم الشرعية، وأخلصهم الله من شوائب الشرك وآثار الضغوط التي تنقسم إلى نوعين:

الأول: ضغط المجتمع المتجلي في قرين السوء.

الثاني: الضغط التاريخي المتمثل في الآباء.

لهؤلاء عباد الله المخلصين رزق معلوم (غير منقطع وهو جزاء أعمالهم المعلومة عند ربهم) فواكه (كرزق مادي) وهم مكرمون (كرزق معنوي) وهم في جنات النعيم يجلسون على سرر متقابلين يتجاذبون أطراف الحديث لفراغ بالهم ومشغولون بالتالي بلذّة المؤانسة يطاف عليهم بكأس من معين بيضاء لذة للشاربين لا فيها هلاك ومرض، وإلى جنبهم الحور كأنهم بيض مكنون تتلألأ بشرتهن إشراقا.

وتكتمل النعم عندهم حين يطلعون على قرناء السوء الذين حاولوا عبثا إغواءهم، وبعد أن يبيّن السياق هلاك أولئك من كفرهم بالجنة، ينقل خطاب المخلصين لهم بأنه لولا نعمة الله لكانوا من المهلكين، ثم يسدل الستار على هذا المشهد بعد أن يقرروهم أفما نحن بمعذبين؟ ويذكرنا القرآن بأن ذلك هو الفوز العظيم الذي لمثله فليعمل العاملون.

ويكشف عن مشهد آخر حيث شجرة الزقوم، التي هي حسب الظاهر ذنوب أهل النار تصبح طعاما لهم هناك وهي فتنة في الدنيا للظالمين وهي تنبت في أصل الجحيم، ولكن فروعها في بيوتهم، أما طلعها فكأنه رؤوس الشياطين (الذين خدعوهم بها في الدنيا). إنهم يأكلون منها حتى يملؤوا بطونهم كما أكلوا المال الحرام. ثم يشربون عليها ماء حميا يقطع أمعاءهم، كما شربوا الشراب الحرام في الدنيا، ثم يعودون جميعا إلى الجحيم. كل ذلك لأنهم اتبعوا آباءهم وهرعوا إلى آثارهم يقلدونهم فيها على غير هدى.

---

(١) لشوباً: الشوب هو خلط الشيء بما ليس منه وهو شرٌّ منه، والمعنى شراباً مشوباً ليس بصافٍ.
(٢) يهرعون: أي يسرعون في تقليدهم.

بينات من الآيات:

[٤٠] بعد حديثه عن مصير المجرمين، يذكرنا القرآن بمشهد مشرق من الآخرة حيث عباد الله المخلصون، في جنة ملؤها النعيم والرحمة والتي لا تعطى عبثا إنما بثمن، وأول وأهم ثمن يشتري به العبد الجنة هو الإخلاص، وإذا كان العمل بذاته صعباً، فالإخلاص فيه أصعب، لأنه يعني الانقطاع نفسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا و...، عما سوى الله، حفاظا على حقيقة التوحيد. فقد يصلِّي الإنسان لأن الصلاة تدرُّ عليه الربح، وترفعه درجة في الناس، وتعطيه قوة في الجسم وما أشبه، فهو يصلي نتيجة لتفاعل عدة عوامل دفعته بهذا الاتجاه، فإذا انعدمت هذه العوامل، أو وجدت أخرى تعاكس مسيرة الصلاة كما لو وجد نفسه في بلد أجنبي لا يصلِّي أهلها، أو صعبت عليه الصلاة لنعاس شديد أو برد أو حر فإنه يتركها وربما يحاربها، لأن الذي يصلِّي لإرضاء الناس، سوف يشرب الخمر حين يكون فيه رضا الناس، ومن هذا المنطلق صار الإخلاص أهم من العمل وكميته. قال الإمام علي عليه السلام: «**تَصْفِيَةُ العَمَلِ خَيْرٌ مِنَ العَمَلِ**»[1]. وقال عليه السلام: «**تَصْفِيَةُ العَمَلِ أَشَدُّ مِنَ العَمَلِ وتَخْلِيصُ النيَّةِ مِنَ الفَسَادِ أَشَدُّ عَلَى العَامِلِينَ مِنْ طُولِ الجِهَادِ**»[2].

والإخلاص هو أن تعمل في كل الظروف بنية صافية بعيدا عن التأثر بالعوامل المضادة للعمل، وهذا ما لا يدركه أحد إلا حينما تكون شخصيته (ثقافة وسلوكا) مصوغة بالقيم الرسالية الصحيحة، وليس بالظروف والضغوط أو ردود الفعل والمصلحة.

وربما لذلك قال القرآن ﴿ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام، وليس المخلصين بكسرها. والمخلَص هو الذي أخلصه الله وصفىَّ نفسه وحياته من الشوائب والمؤثرات، حتى أصبحت أعماله كلها لوجه الله وحده لا شريك له. ولعل الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧]. تهدينا إلى ذات المفهوم.

والشيء الذي يبني عليه الإسلام أساس الإخلاص هو الاستمرار فيه. وإلا فإن الإنسان، كل إنسان قد يعيش لحظة يخلص فيها لله عمله ودعاءه، فالعمل الواحد لا يقبل منفردا، إنما يضم إلى عموم مسيرة الإنسان. والذي لا شك فيه أن الواحد لا ينعت بخلق ما إلا إذا صار عادة له وسلوكا. فالذي يصوم شهر رمضان المبارك، وفي الأثناء، أو بعده وقبله يغتاب الناس ويأكل المال الحرام، أو يترك جانبا من الدين كالجهاد لا يكون متقيا. فصومه لا يقبل ولا يكون

(١) بحار الأنوار: ج ٧٥، ص ٩٠.
(٢) الكافي: ج٨، ص٢٢.

مخلصا من هذه صفته، لأن تأثره بدوافع الغيبة يشير إلى أن شخصيته لم تزل مزيجا من الإيمان والكفر، فبينما ينطلق صومه من قاعدة الإيمان في نفسه، تنطلق الغيبة من دوافع الكفر.

وإنما يدخل الله الجنة الذين اخلصوا إيمانهم وعملهم بالمعنى المتقدم بغير حساب، ومن سواهم يدخلهم بعد الحساب والتطهير، وعلى هذا جاء في الأخبار: أن من المؤمنين من يلبث في النار مئات، وبعضهم عشرات السنين، كل بنسبة انحرافه، ورواسب الكفر التي يجب أن تطهر قبل الدخول في الجنة. وفي الرواية قيل للإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «مَرَرْنَا بِرَجُلٍ فِي السُّوقِ وَهُوَ يُنَادِي أَنَا مِنْ شِيعَةِ مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ الْخُلَّصِ وَهُوَ يُنَادِي عَلَى ثِيَابٍ يَبِيعُهَا مَنْ يَزِيدُ فَقَالَ مُوسَى عليه السلام: **مَا جَهِلَ وَلَا ضَاعَ امْرُؤٌ عَرَفَ قَدْرَ نَفْسِهِ. أَتَدْرُونَ مَا مَثَلُ هَذَا شَخْصٌ؟. قَالَ: أَنَا مِثْلُ سَلْمَانَ وَأَبِي ذَرٍّ وَالْمِقْدَادِ وَعَمَّارٍ وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُبَاخِسُ فِي بَيْعِهِ وَيُدَلِّسُ عُيُوبَ الْمَبِيعِ عَلَى مُشْتَرِيهِ وَيَشْتَرِي الشَّيْءَ بِثَمَنٍ فَيُزَايِدُ الْغَرِيبَ يَطْلُبُهُ فَيُوجِبُ لَهُ ثُمَّ إِذَا غَابَ الْمُشْتَرِي قَالَ: لَا أُرِيدُهُ إِلَّا بِكَذَا بِدُونِ مَا كَانَ طَلَبَهُ مِنْهُ.**

أَيَكُونُ هَذَا كَسَلْمَانَ وَأَبِي ذَرٍّ وَالْمِقْدَادِ وَعَمَّارٍ حَاشَ لله أَنْ يَكُونَ هَذَا كَهُمْ وَلَكِنْ مَا يَمْنَعُهُ مِنْ أَنْ يَقُولَ: إِنِّي مِنْ مُحِبِّي مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ وَمَنْ يُوَالِي أَوْلِيَاءَهُمْ وَيُعَادِي أَعْدَاءَهُم»[1] ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾.

[٤١] والقرآن يحدثنا عن جانب من الرزق، الذي يصير إليه المخلصون لا حصرا إنما إشارة، وإلا ففي الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على بال بشر. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ والمعلوم هو الشيء المعروف المحدد بالمعرفة، ويبدو أن رزق المخلصين يكون معلوما بالجنة فلا ينقطع حينا ويتصل حينا، ويكون معلوما لأنه جزاء أفعالهم وهي معلومة عند ربهم، وقالوا إن معنى ذلك أن رزق المخلصين يأتيهم كاملا كما يريدون ويتصورون بعلمهم، وهذه الإرادة والميول تنتقل بإرادة الله إلى أذهان الخدم، فيأتونهم بما يريدون قبل أن يطلبوه، قال رسول الله صلى الله عليه وآله في: «﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ﴾ **يَعْلَمُهُ الْخُدَّامُ فَيَأْتُونَ بِهِ أَوْلِيَاءَ اللهِ قَبْلَ أَنْ يَسْأَلُوهُمْ إِيَّاهُ**»[2].

[٤٢] ويفصّل القرآن في ذكر الرزق، تشويقا لنا للإخلاص، وللمخلصين على الاستقامة. ﴿فَوَاكِهُ﴾ يشبعون بها حاجاتهم الكمالية، أما حاجاتهم الضرورية فقد قال البعض أن أجسامهم خلقت للبقاء فلا تحتاج إلى طعام حاجة ضرورية، ويحتمل أن يكون توفر الفواكه لديهم يغنيهم عن الطعام الضروري، أو ليس أكل الجنة دائما وظلها؟

---

(١) بحار الأنوار: ج ٦٥ ص ١٥٧.

(٢) الكافي: ج٨ ص٩٩.

وتنضم إلى هذه اللذات أعظم نعمة يشعر بها المؤمنون المخلصون، وهي الكرامة من عند الله، فهم يأكلون الفواكه وشعورهم عميق برضى الله عنهم. ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ ولعلنا نستوحي من كلمة ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ أن المخلصين يفدون إلى الجنة على رزق معلوم ومحدد، لكن الله يكرمهم كل حين ليزدادوا فضلا من عنده. وفي الحديث: «**فَإِنَّهُمْ لَا يَشْتَهُونَ شَيْئاً فِي الْجَنَّةِ إِلَّا أُكْرِمُوا بِهِ**»[1].

[٤٣] ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ والجنة هي البساتين الكثيرة الزرع والشجر، بحيث تلتقي فيها الأغصان والأوراق فتختفي أرضها، تحت ظلال الأوراق والكلمة تفيد التنوع، لأن الجنة لا تطلق على النوع الواحد من الزرع، أما كلمة النعيم فهي مبالغة في النعمة للكثرة والجودة.

[٤٤] ولأن المؤنس من الحاجات النفسية للبشر، فقد جعل الله المؤمنين يأنسون ببعضهم في الجنة فإذا بهم كما يصفهم القرآن: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

[٤٥] وفي الأثناء، حيث يدور الكلام بين عباد الله ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ وهو ألذ الشراب، خمرا كان أو ماء أو غيرهما، كما إنه المعين الذي لا ينضب، فتارة يكون الشيء لذيذا لكنه ينتهي بسرعة، وتارة يكون لذيذا ولا ينتهي.

[٤٦] ويجتمع إلى لذة الشراب جماله وجمال كأسه تأكيدا لها، فالكأس من الفضة اللامعة. ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ وقد يكون البياض وصفا للمعين، قال الحسن البصري: «خَمْرُ الْجَنَّةِ أَشَدُّ بَيَاضاً مِنَ اللَّبَنِ»[2].

[٤٧] وهذا الشراب خال من العيوب فلا يمله المؤمنون أو يرفضونه. ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ وهو السكر أو الإرهاق الذي يلحق بالشارب فيغتال عقله وقواه، أو المرض الذي ينتهي به إلى الموت، و منه الاغتيال وهو القتل سرا، هذا من جانب، ومن جانب آخر لا يبعد المؤمنون عن شراب الجنة بنضوبه، أو بإرادة أخرى تفرض عليهم. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ ويقال نزف الماء إذا أبعد وأزيح عن العين.

[٤٨] ومن نعيم المخلصين، الأزواج المطهرة في القصور. ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾ وللقصر ثلاثة تفاسير:

الأول: أن القاصرات هن النساء اللاتي ينحصر نظرهن إلى أزواجهن، وبالتالي تحد

---

(١) الكافي: ج٨ ص٩٩.

(٢) مجمع البيان: ج٨، ص٦٩٢.

شهوتهن في أزواجهن، فأنظارهن قاصرة عن غيرهم.

الثاني: القاصرة الطرف هي قليلة الشعر في حاجبيها، وهذا من جمال المرأة.

الثالث: وقال المفسرون قاصرات الطرف اللواتي أرسلن نظرهن إلى الأرض تواضعا وحياء، وهذه من الصفات الحسنة في المرأة.

أما العِيْن فهي جمع عيناء، والعيناء واسعة العين شديدة وكبيرة السواد فيها، وناصعة البياض، وهذه هي الأخرى من الصفات الجمالية الحسنة في المرأة. ولعله لذلك كان شعراء العرب قديما، يُشبِّهون في غزلهم عيون النساء بعيون البقر الوحشي (المها) التي تشتمل على نسبة من هذه الصفات.

[٤٩] ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ والمكنون هو المحفوظ، فهن محفوظات لم يمسهن أحد قبلهم، ومن صفات البيض عندما يجمع إلى بعضه، أنه ينصع بالبياض، حتى ليكاد يضيء، وفي ذلك إشارة لجمال بشرتهن.

والملاحظ أن الآيات الكريمة تعرضت بالذكر لمجموعة غرائز في الإنسان بينها غريزة الأكل والشرب والجنس، التي يجد الإنسان حوافز ودوافع داخلية وخارجية على إشباعها، وربما أشبعها بالحرام، وذلك تطميعا لنا في ما عند الله، حتى نترفع عن الأكل الحرام المشوب بالذلة بذكر رزق الجنة وكرامته، وعن الشرب الحرام بالرغبة في شرابها، وعن اللذة المحرمة بذكر حورها الحسان. جاء في بيان دعائم الإيمان على لسان الإمام علي عليه السلام ما يدل على ذلك إذ قال: «**فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ**»[1].

[٥٠] ويعرِّج القرآن من الجانب الآخر ليطلعنا على حال المكذبين بالرسالات، العاصين لله، ليشجعنا ذلك الرجاء على الطاعة، وليمنعنا هذا الخوف عن المعصية، ويدخل السياق إلى هذا الموضوع، من خلال عرضه لجانب من حديث المخلصين الذين جلسوا على سررهم يستريحون لبعضهم البعض، بالحديث عن النعيم الحاضر وعن الحياة السابقة. ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ والإقبال هنا دلالة على الاشتياق لبعضهم، وللحديث الذي يدور بينهم.

[٥١] ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ يعني الرفيق.

[٥٢-٥٣] ولم يكن صالحا، بل كان يدعو إلى النار، وليس شرطا أن الصديق الذي يعنيه القرآن بهذه الآيات هو الذي يصرح بكفره وضلاله فيدعو لنبذ الدين واقتراف المعصية، بل

(١) الكافي: ج٢، ص٥٠.

يشمل المعنى كل قرين توحي رفقته وسلوكياته أو أقواله إلى الكفر. ﴿يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ أي مسؤولون ومجازون، وهذا الاعتقاد هو الذي يسوق البشر للظلم والانحراف، لأنه لا يعتقد بمسؤولية تجاه أقواله وأعماله.

[٥٤] ومن كمال النعم وتمام السرور معرفة الإنسان بأنه قد نُجِّيَ من شر عظيم ومهلكة لم ينج منها الآخرون، فما أعظم لذة من تحطمت به السفينة في عرض البحر وابتلعت أمواجه الهادرة كل من فيها سواه حيث تعلق بخشبة وقاوم الأمواج، واستبسل في السباحة حتى نجّاه الله في اللحظة الأخيرة. إنه سوف يزداد إحساسا بالراحة كلما تذكر الحادثة، واستحضر صورة الأمواج التي كانت تتلاحق على خشبته، وكان ينادي أصحابه إليها فلم يستجيبوا له بغياً منهم وجهلاً، وشهد مهلكهم بغيهم. أليس كذلك؟ هكذا يتم الله نعمته على المؤمن وهو يتذكر قرناء السوء الذين قاوم تضليلهم وضغوطهم فذهبوا إلى النار، ونُجِّيَ هو منها. وهاهو يراهم يتقلبون فيها يائسين وهو في الجنة من المكرمين. ﴿قَالَ﴾ لرفاقه المخلصين. ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ أي هل أنتم تتكلفون الاستطلاع حتى نعرف مصيره؟

[٥٥] ولكنه لفرط شوقه أخذ يبحث عنه شخصيا دون انتظارهم. ﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِى سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ يعني وسطها، حيث يتركز العذاب والحريق وتحوطه النار من كل جانب كما كان في الدنيا محاطا بالذنوب والمعصية، ولعل التطلع هناك هو تكلف الذهاب إلى ناحية وإلا فأهل الجنة لا يسمعون حسيس النار.

[٥٦] وهناك يكتشف المؤمن مدى خطورة الصديق السيئ. ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ والتردي هو السقوط من شاهق، وفي هذا إشارة إلى أن المخاطب في واد سحيق من النار.

[٥٧] ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ في العذاب، وتتمثل النعمة الإلهية هذه في الأسباب التي تؤدي بالإنسان إلى النجاة من الانحراف، ومن ثم من عواقبه، كالعقل والرسالة والمرشدين للحق، ولا شك أن أعظم نعم الله على البشر هي نعمة الهداية.

[٥٨-٥٩] ويشير القرآن على لسان المؤمنين إلى أخطر فكرة يحاول المنحرفون من خلالها إضلال الناس، والتأثير على المؤمنين، وهي فكرة الكفر بالآخرة حيث الجزاء الأوفى. ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ على الأخطاء والذنوب؟!

[٦٠] ولعل الله هو الذي يلقي في قلوب أوليائه من أهل الجنة، أن يشرفوا على النار للاطلاع على أهلها، لكي يشعروا عميقا بلذة الهداية والطاعة والنعيم، ذلك أن من طبيعة الإنسان إحساسه بالحقائق عن طريق معرفة نقائصها، لهذا نجد المؤمن وقد اطلع على قرين

السوء في العذاب، بينما يتعمق وعيه بعظمة نعم الله عليه يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ نعم إن طريق الحق مليء بالعقبات والمصاعب، ولكنه الأفضل مادام ينتهي إلى الجنة ورضى الله.

[٦١] وكخلاصة لكل ما تقدم من ذكر الجنة والنار، يؤكد القرآن بأن الهدف الصحيح، الذي يجب على الإنسان العمل له، هو الوصول إلى الجنة، لأنها الهدف الأعظم الذي إذا حققه الفرد فقد فاز، وإلا فهو لم يحقق شيئا، قال الإمام علي عليه السلام: «مَا خَيْرٌ بِخَيْرٍ بَعْدَهُ النَّارُ وكُلُّ نَعِيمٍ دُونَ الجَنَّةِ مَحْقُورٌ وكُلُّ بَلَاءٍ دُونَ النَّارِ عَافِيَةٌ»[1]. ويقول تعالى: ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾.

وقد نستوحي من التدبر في الآيات الكريمة: أن الإنسان يواجه في حياته نوعين من الضغوط:

الأول: الضغط القادم من المجتمع المعاصر، الذي يتجلى بصورة واضحة في قرين السوء، فمثلا إذا عاش المؤمن في مجتمع يستخف بالصلاة فلا بد أن يتعرض لضغط هذا المجتمع باتجاه ترك الصلاة ذلك أن للمجتمع -أي مجتمع- قوة هائلة باتجاه التجانس معه، وفرض قيمه الخاصة على أفراده بالتربية والتثقيف أو الترغيب والترهيب، ولكن ما هو رأس الحربة في ضغط المجتمع على الفرد؟ إنه الصديق، إذ يكون حلقة الوصل بينه وبين سائر أبناء المجتمع. وهكذا ينبغي أن يصمد الإنسان أمام ضغوط أصدقائه وقرنائه ولو كان على حساب صداقتهم، فهذا أبو ذر رضي الله عنه يقول بالرَّبذة: «مَا تَرَكَ الحَقُّ لِي صَدِيقاً»[2].

[٦٢] **الثاني**: الضغط القادم من الأجيال السابقة، ويتجلى هذا الضغط بصورة مركزة في الأب، ذلك أن الإنسان لا يرى الأجيال السابقة ولا التاريخ الماضي، ولكن ذلك يصله عبر أبيه.

ويبدو أن القرآن -حتى الآية السابقة- حدثنا عن الضغط الأول، أما بقية الآيات من هذا الدرس فهي إشارة إلى الضغط الآخر، يقول تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا﴾ أي الجنة التي هي عاقبة المؤمنين المخلصين. ﴿أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ التي هي عاقبة المكذبين؟! وكأن القرآن بهذا التساؤل الذي جاء بعد عرض العاقبتين، يخيّرنا بين الجنة والنار، بإثارة تفكيرنا نحو الإجابة عن هذا التساؤل، أما عن معنى شجرة الزقوم ففيه تفسيران:

الأول: أن قريشا لما سمعت هذه الآية، قالت قريش: ما نعرف هذه الشجرة، فقال أبو جهل لجاريته: يا جارية! زقمينا. فأتته الجارية بتمر وزبد، فقال لأصحابه تزقموا

(١) الكافي: ج٨، ص٢٢.
(٢) بحار الأنوار: ج٣١، ص١٧٩.

بهذا الذي يخوفكم به محمد، فيزعم أن النار تنبت الشجرة، والنار تحرق الشجرة فأنزل الله سبحانه: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾[1].

الثاني: وهو الأقرب، أن الإنسان يأكل في الدنيا من هذه الشجرة، ولكنه لا يشعر أنه يأكل منها إلا في الآخرة حيث يكشف الله عن بصره، ويرى الحقائق بواقعها، فالكذب، وأكل أموال الناس، وشرب الخمر.. كل ذلك ورق في شجرة الزقوم التي يطعم منها أهل النار.

وفي سورة الواقعة التي تعالج جانبا من موضوع هذه السورة إشارة واضحة لهذا المعنى إذ يقول تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ﴾ [الواقعة: ٥١-٥٥]. ثم يؤكد هذا المعنى في آخر السورة إذ يقول عز وجل مخاطبا المكذبين بالقرآن والضالين: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

[٦٣] ولا ريب أن الكذب وأكل أموال الناس وسائر الشهوات التي يواجهها الإنسان، تجعله على مفترق الطريق، بين الحق والباطل، والجنة والنار، وبالتالي فهو مبتلى وممتحن أمامها، ولا شك أيضا أن هذه الأمور بشعة كبشاعة شجرة الزقوم التي هي التجلي الحقيقي لهذه المعاصي، ولكن الإنسان يتجاهل ذلك، أو يغفل عنه فينجرف مع شهواته، ليزرع بذنوبه أشجار الزقوم فتكون طعامه في الآخرة. ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِّلظَّالِمِينَ﴾ أما المؤمن فهو لا يفتتن بها، إنما يرتفع بإيمانه عن حضيض المعصية ليزرع لنفسه بعمل الصالحات الجنان الواسعة.

[٦٤] وبعد الإشارة إلى شجرة الزقوم وطبيعتها الفاتنة في الدنيا، يصوِّرها لنا القرآن بواقعها في الآخرة، حيث الجزاء المتجانس وعمل الإنسان. ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ﴾ وقد روي: «أن الله تعالى يجوعهم -يعني أهل النار- حتى ينسوا عذاب النار من شدة الجوع فيصرخون إلى مالك فيحملهم إلى تلك الشجرة وفيهم أبو جهل فيأكلون منها فتغلي بطونهم كغلي الحميم»[2]. وفي رواية: «إنها شجرة عظيمة لأهل النار عامة، ولها في كل منزلة من الجحيم غصن يأكل منه الذين يعذبون فيها».

[٦٥] ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ والطلع حمل النخلة في بدايته، يخرج من بين الليف والخضر، وهو يشبه غمد الخنجر في أوله وأقربة السيوف قبل أن يتشقق عن شماريخ البسر

(١) مجمع البيان: ج٨، ص ٥٧٤.
(٢) بحار الأنوار: ج٨، ص٢٥٧.

والرطب، وربما سمي طلعها لطلوعه بما يشبه طلوع الهلال، أو لأنه أول ما يطلع من الثمر.

[٦٦] ولأن أصحاب النار يشعرون بضراوة الجوع ولا يجدون ما يأكلون، فإنهم يأكلون طلع الزقوم وثمرها. ﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ كما ملؤوا بطونهم بالحرام في الدنيا.

[٦٧] وبعد الأكل من الزقوم يحسُّون بأشد العطش، فيطلبون الماء فيشربون السوائل الحارة ليطفئوا حرارة النيران التي أكلوها، وإذا بها تزيدهم عذابا إلى عذابهم ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ وفي الرواية: «... فيستسقون فيسقون شربة من الماء الحار الذي بلغ نهايته في الحرارة فإذا قربوها من وجوههم شوت وجوههم فذلك قوله: ﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾ فإذا وصل إلى بطونهم صهر ما في بطونهم»[1].

[٦٨] إنهم يتصورون الماء الذي يطلبونه سوف يخرجهم من هذا العذاب والاحتراق ولكنه ينتهي بهم إلى ذات العذاب. ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ ولعل هذه الحالة من النهم إلى الزقوم والحميم في النار تجسيد لنهمهم في الدنيا بأكل أموال الحرام، ومداومة الشراب الحرام، أعوذ بالله منهما.

[٦٩-٧٠] وفي النهاية يُصرِّح السِّياق بالضغط التأريخي، الذي يتسبب في إضلال الكثير من الناس. ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ وكان يفترض فيهم أن لا يتبعوهم بل يبحثوا عن الحق، وتوجهنا الآية إلى ضرورة المسيرة الواعية في حياة الإنسان، حيث ينبغي له أن ينظر ويفكر فيها، فيلتزم الحق عن وعي لا عن وراثة وعادة، ثم ما يدري الفرد أو المجتمع أن مسيرته خاطئة، والله يقول: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ [عبس: ٢٤]. أي إلى غذائه الجسمي والروحي ليتأكد من سلامته، ولكن هؤلاء لم يتعبوا أنفسهم في البحث عن الحق، إنما اتبعوا الآباء وتأثروا بهم. ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ ولم يقل القرآن يهرعون (بالفتح)، لأن حركة الإنسان باتجاه التقليد ليست حركة إرادية بصورة كاملة، إنما هي مجموع دوافع ذاتية، وضغوط خارجية من الآخرين، والآية تُبيِّن الضغط الذي يمارسه الآباء على أبنائهم لكي يتبعوهم.

فعلى الإنسان إذن أن يقطع السبب المباشر، فهو إذا لم يتأثر بذروة الضغط التأريخي المتمثلة في الآباء فلن يتأثر بالجيل السابق، وإذا لم يتأثر بذروة الضغط الاجتماعي المتمثل في الأقران فلن يتأثر بالمجتمع المعاصر، والترفع عن هذه الضغوط، هو الذي يسمو بالإنسان إلى الخلوص التوحيدي.

---

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص٢٥٧.

إنا كذلك نجزي المحسنين

﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ (٧٢) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ (٧٣) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (٧٤) وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢) ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ[1] (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١) فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٢) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ

---

(١) يزفون: يسرعون في المشيء، فإن زفّ بمعنى الإسراع في المشيء لنيل مطلوب أو الانتقام من عدوّ وما أشبه.

﴿١٠٣﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

حينما يبين لنا القرآن حقيقة أو حكما، لا يلبث أن يضرب لذلك أمثلة عديدة ليس للإيضاح وحسب، إنما لبيان الأبعاد والحدود أيضا، ذلك لأن النفس البشرية قادرة على تحوير الألفاظ وتفريغها عن معانيها الحقيقية، وتحويلها إلى ألفاظ قشرية غير مؤثرة، بل وقد تعطي معاني غريبة عن المعنى الحقيقي.

فلكي لا يأتي بعض المفسرين القشريين، أو بعض من تسوِّل لهم أنفسهم تبرير الأفعال والانحرافات للناس، ويفسروا القرآن على أهوائهم وآرائهم، لم يترك ربنا كلمة في القرآن الحكيم إلا وأوضحها بالأمثلة التاريخية التي لا يمكن نكرانها، أو تبديلها وتأويلها إلى غير مضامينها.

وإذ ذكرنا الله في الدروس الماضية بعباده المخلصين، الذين يدخلون الجنة بغير حساب، كنا بحاجة إلى الأمثلة التاريخية التي من شأنها إحاطتنا بصفاتهم وخططهم والطريق إلى هذه القمة السامقة، فربما زعمنا أننا من المخلصين، أو مَنَّيْنا أنفسنا بذلك، ولكن القرآن يقطع طريق التمني، حينما يضرب لنا أمثلة من حياة أنبياء عظام كنوح وإبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، ويبين لنا مواقفهم الربانية في تحدِّي الجبت والطاغوت، ليقول لنا: بأن من لا يتحدَّى الجبت الداخلي، فيصرع هوى نفسه، لا يستطيع أن يتحدَّى الطواغيت ويصرعهم.

ولأن هذه السورة تعالج في جانب منها مرض الاستكبار، الذي يتعالى المبتلى به على الحق كذبا وزورا، وتوضح كيف أنه سينتهي بالإنسان إلى جهنم إنها توضح -في مقابل الاستكبار- صفة الإحسان، فبينما تعني الأولى المبالغة في حب الذات والتمحور حولها، تعني الأخرى التنازل عنها وعما يملك الإنسان من الطاقات والقدرات في سبيل الحق والناس. إن الإحسان هو خروج الفرد عن ذاته، ودخوله في رحاب المجتمع، و كما يدخل الاستكبار الإنسان النار، ويجعله لعنة الأجيال، فإن الإحسان يدخل صاحبه الجنة، ويخلد ذكره الحسن ومديحه على ألسن الناس في كل أفق وزمان.

والقرآن في هذا الدرس، يؤكد بأن المحسن ليس يجازى من قبل الله في الدنيا والآخرة وحسب، وإنما يمشي ثناؤه كالطيب بين الناس، وقد أكد ربنا هذه الحقيقة في أكثر من آيتين لنبيِّه إبراهيم عليه السلام، مما يدل على أهمية دور الإحسان في رسالة الأنبياء ونبوتهم عليهم السلام.

بينات من الآيات:

[٧١] بعد أن يُبيّن القرآن في الآيتين الأخيرتين من الدرس السابق دور الضغط من قبل الآباء في حياة الأجيال، يبين لنا هنا أن هذه مشكلة البشر منذ القديم. ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ بذات العامل، وهو الاتباع الخاطئ للآباء.

[٧٢] ولكن الله بعث لهم الأنبياء والمرسلين، يحذرهم من عاقبة الضلال بإنذار، لعلهم يهتدون للحق. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾.

[٧٣] لكنهم كذبوا النذر، وحاربوا الأنبياء، فدمرهم الله، وأبقى آثارهم وأخبارهم ليكونوا عبرة لمن بعدهم. ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ وهذه مسؤولية الإنسان في إقبال التأريخ، أن يستفيد منه لحياته ومستقبله، وحين يدعو الله نبيه للنظر فيه، فإن وعي التأريخ يعطي الرساليين ثقة بأنفسهم وخطهم، وبصيرة في التحرك. وبالتدبر في هذه الآيات والآية التي تليها يمكننا القول بأن القرآن يختصر الدورات الحضارية في هذا المقطع.

[٧٤] إن الله ليس يهب الجنة للمخلصين وحسب، بل وينصرهم في الدنيا وينجيهم من الهلكات. ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ ونستوحي من الآية: أن الذين ينجون من أنواع العذاب الإلهي والنقمات، هم المخلصون وحسب، حتى جاء في الأحاديث أن الصواعق لا تصيب المؤمنين الذاكرين، ومعنى ذلك أننا لو قسمنا الناس إلى ثلاثة: الكفار، والمخلصين، وآخرين بينهم، فإن المخلصين وحدهم الناجون، أما الكفار فيخلدون في النار، و الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا يعذبون كل حسب عمله.

[٧٥] وكمثال على نجاة المخلصين يذكرنا الله بنبيه نوح عليه السلام، والذي آمنوا معه، فقد دعا نوح ربه على قومه فأرسل عليهم الطوفان، فما نجا منه غير نوح ومن آمن معه وركب السفينة، ممن أدخلهم القرآن مع أهله في مقابل إخراجه كنعان منهم، ليهدينا إلى أن النسب الحقيقي بين الإنسان والآخرين هو تجانس القيم والعمل في الحياة بينه وبينهم، أما الاعتبارات الأخرى فهي غير سليمة. قال أبو عبد الله عليه السلام: «**إِنَّ اللهَ قَالَ لِنُوحٍ:** ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾[هود: ٤٦]. **لأَنَّهُ كَانَ مُخَالِفاً لَهُ وَجَعَلَ مَنِ اتَّبَعَهُ مِنْ أَهْلِهِ**»[١].و يبدأ القرآن بذكر نوح عليه السلام لأنه كما يسميه المؤرخون الأب الثاني للبشرية بعد آدم عليه السلام.

﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ﴾ ولكن ماذا أراد نوح عليه السلام من ربه عز وجل حين

(١) تفسير العياشي: ج٢ ص١٥١.

ناداه؟

قال بعض المفسرين: أنه أراد هلاك قومه حينما عصوه، واستدلوا بقوله تعالى عن لسانه عليه السلام: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]. وقال آخرون: أنه أراد من الله أن ينقذه من الكفار بعد سنين من الدعوة والأذى الذي يلحقه بسببها. وربما تفسر الآية بأنه عليه السلام أراد من ربه الهداية وتشريفه بالرسالة لإنقاذ الناس، فربما كان الأنبياء عليهم السلام يعرفون بأنهم سوف يبعثون، ولكن لا يتنافى ذلك مع عدم معرفتهم متى سيكون بعثهم، ولهذا نجدهم في البدء يتعجبون أو يخافون، فلم يكن النداء الذي انبعث من جانب الطور الأيمن أمرا عاديا بالنسبة لموسى عليه السلام، وكذلك نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله، حينما نزل عليه جبرائيل بالرسالة أول مرة، ذهب إلى البيت وتدثر.

وحينما يدعو الأنبياء ربهم بالهداية والبعثة، يستجيب لهم وقد هيؤوا أنفسهم لتحمل مسؤوليات هذا العمل العظيم، والله سبحانه أعطى نوحا عليه السلام أكثر مما كان يتوقعه وربما هذا معنى قوله: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾.

[٧٦] وبعد أن استجاب الله لنوح بالرسالة وأيّده على قومه المنكرين بالطوفان الذي علا الأرض حتى غمر الجبال العالية، أنجى نوحا والذين آمنوا معه. ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾.

[٧٧] وربما أسمى الله الغرق بالكرب العظيم لأنه من أفظع صور الموت للإنسان فكيف وهو مقدمة لعذاب النار الخالد؟، وتركيز القرآن على أهل نوح عليه السلام عند التعرض لقصصه، لأن الله حفظ بهم النوع البشري عن الانقراض، وأهم من ذلك جعل فيهم النبوة، والكتاب وهما الحبل الممتد بين الناس وربهم. ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾.

قال الإمام الباقر عليه السلام في تفسيرها: «الحَقُّ وَالنُّبُوَّةُ وَالكِتَابُ وَالإِيمَانُ فِي عَقِبِهِ وَلَيْسَ كُلُّ مَنْ فِي الأَرْضِ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ وُلْدِ نُوحٍ، قَالَ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[هود: ٤٠]. وَقَالَ أَيْضاً: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [الإسراء: ٣]»[١]. ومضى نوح وبقي ذكره الطيب تتوالى الأجيال بالسلام عليه.

[٧٨-٧٩] ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ۝٧٨ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وكان من الممكن أن تجعل صيغة الكلمة: وتركنا عليه سلاما. إلا إن الصيغة طورت لتكون كلمة السلام تامة حتى يجري على لسان كل قارئ للقرآن سلام خاص لنوح عليه السلام.

(١) بحار الأنوار: ج١١، ص٣١٠.

[٨٠] لقد استجاب الرَّب لنوح لأنه كان محسنا. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وهذا الجزاء سنة إلهية ذلك أن من يحسن للناس يذكره الناس بالمدح والخير، فكيف وقد أخذ الله على نفسه أن يجزي المحسنين بذلك؟

والملاحظ أن الله وبعد ذكر هباته لنوح عليه السلام الذي جعله مثلا للعبد المخلص وهي، استجابة دعائه، و نجاته وأهله والمؤمنين معه، وجعل البشرية من ولده والنبوة فيهم، وإخلاده بالذكر الحسن على ألسن الناس، ذكرنا بصفة الإحسان فيه، وذلك ليطلعنا على التفسير الحقيقي للإخلاص بأنه المنطلقات التوحيدية الخالصة، التي تتحول إلى سعي وعمل يتجاوز القيام بالواجب إلى الزيادة والإحسان.

[٨١] والإيمان بالله هو أعظم دافع للإنسان نحو الإحسان، وهكذا نعت ربنا نوحا عليه السلامبعد الإحسان بالإيمان لأنه أصل كل خير وفضيلة فقال: ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ والمؤمن لا يتخوف من البذل والإنفاق للآخرين في سبيل ربه، لأنه يعلم بأن كل ما ينفقه سوف يعود عليه أضعافا مضاعفة ويزداد إحسانا كلما تعمق إيمانه بأن مستقبله في الدنيا والآخرة رهين عمله وتضحياته. إن السبيل إلى الإحسان، الذي هو الطريق إلى المكاسب الجسيمة، كالتي ظفر بها نوح عليه السلام، هو الإيمان بالله عز وجل وبجزائه الأوفى.

[٨٢] ثم إن المنجي الحقيقي لنوح ومن آمن معه لم تكن السفينة التي صنعوها، فلو أن الكافرين ركبوا سفنا أكبر وأفضل منها، لم تكن لتنقذهم من الغرق في موج كالجبال، وماء منهمر كالأنهر من السماء، إنما نجوا بإيمانهم الذي تميزوا به عن غيرهم، وإنما أمر الرَّب نبيه والمؤمنين بصنع الفلك، إثباتا لمسؤولية الإنسان في الحياة وتأكيدا لها، وإلا فإنه قادر على إنقاذهم بكلمة من عنده. ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ وهم الكفار.

[٨٣] ثم يأتي لنا القرآن بمثل من الآخرين، الذين ترك فيهم سلاما على نبيه نوح عليه السلام، وهم الذين جسدوا امتدادا لرسالته في البشرية عبر التأريخ، من الأنبياء والرسل، والصالحين. ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ والشيعة هم الذين يتبعون شخصا أو خطا ما، فيقال لهم شيعة فلان. وقال المفسرون: إن الضمير في شيعته يعود إلى نوح عليه السلام، فيكون المعنى أن ممن سار على دربه كان إبراهيم عليه السلام. وقال آخرون: إنه يعود إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله والواقع أن التشيع للحق ومتابعة رسل الله واحد، فسواء نسب إلى نوح عليه السلام أو إلى محمد صلى الله عليه وآله أو إلى أوصيائه الطاهرين فإنه نهج واحد وصراط مستقيم، إذ الكل ينطق عن الله تعالى.

[٨٤] والقرآن يبين المعنى الحقيقي للتشيع، الذي هو رفض الجبت الداخلي بالتوحيد

الخالص، ورفض الطاغوت الخارجي بمقاومة الانحراف الاجتماعي والسياسي والثقافي و.. . في الواقع القائم الذي هو صورة ظاهرية للجبت الداخلي، ثم التسليم لله والتضحية والاستقامة في سبيله. بلى؛ إن إبراهيم عليه السلام من شيعة نوح عليه السلام أو شيعة الرسول صلى الله عليه وآله. ولكن كيف وصل إلى هذا المقام الرفيع؟.

يجيبنا القرآن عن ذلك بـ: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ وهو الذي سلم من كل الأمراض، كالحسد والحقد والجبن والخوف، التي يسميها القرآن بالأغلال، إذ يحدثنا عن أهداف بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وآله فيقول: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وهذه الأمراض والأغلال إنما تتفرع من شجرة الشرك بالله، وإنما سماها القرآن بالأغلال والأسر تارة وبالمرض تارة أخرى، لأن الأغلال والأسر كما المرض، كلها تقعد الإنسان وتكبل عقله وطاقاته الخيرة. وقال علي بن إبراهيم في قوله: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال: «الْقَلْبُ السَّلِيمُ مِنَ الشَّكِّ»[1]. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «وَكُلُّ قَلْبٍ فِيهِ شِرْكٌ أَوْ شَكٌّ فَهُوَ سَاقِطٌ وَإِنَّمَا أَرَادُوا الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا لِتَفْرُغَ قُلُوبُهُمْ لِلْآخِرَةِ»[2]. وهذا التفسير يتناسب مع سياق الآيات الذي يحدثنا عن العباد المخلصين.

[٨٥] ولن يصبح القلب إبراهيمياً خالصا من الشرك، إلا إذا تعالى على العوامل الأساسية التي تؤثر سلبياً عليه، بل وقاومه، إذ لا بد للإخلاص من حقيقة خارجية، وهي محاربة الشرك، وهكذا كان إبراهيم عليه السلام، حيث حارب الانحراف الاجتماعي المتمثل في الخط الشركي لأبيه وقومه، والانحراف السياسي الذي جسده الطاغية نمرود. ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ ولم يكن سؤاله استفساريا، إنما كان يستنكر الانحراف الاجتماعي القائم، وهذا ما يجب على الإنسان تجاه أبيه ومجتمعه، فليس من السليم أن يستقبل منهما كل شيء، ويفقد استقلاله أمامهما، إنما يتقبل الجيد ويعترض على ما هو سلبي بالأسلوب المناسب.

والنبي إبراهيم عليه السلام مثل للثائر الرافض للخطأ الاجتماعي، ولخطأ الآباء، والله يأتي به حجة على الذين أشركوا بهما فحكى عنهم القرآن: ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ [الصافات: ٦٩-٧٠]. فإبراهيم عليه السلام -على خلاف هؤلاء- تحمل مسؤوليته، وأعمل عقله ولم يقدس الأشخاص ولا التراث على حساب القيم.

[٨٦] واهتدى عليه السلام إلى زيف الشركاء، وضلال الثقافة التي انتهت بالمجتمع إلى هذه النهاية الموغلة في الانحراف. ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ والإفك هو الكذب المبالغ فيه.

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٢٢٣، بحار الأنوار: ج١٢ ص٢٩.
(٢) الكافي: ج٢ ص١٦.

قال المفسرون: إنما قدَّم كلمة ﴿أَئِفْكًا﴾ وهي مفعول مطلق، للعناية الخاصة بها ولبيان أن كل تبريراتهم لعبادة الآلهة خاطئة فليسوا هم إلا كاذبين. وهذا يمثل قمة التحدي، من إبراهيم عليه السلام لذلك الضلال المنتشر بين قومه.

[٨٧] ثم سأل قومه بعد بيان خطأ الشرك، وهو يبين لهم الإله الحق: ﴿فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وهكذا تكون حركة الرساليين قائمة على هدم الفكر والواقع الباطل، وبناء الفكر والواقع الحق بدلها. ويبدو أن إبراهيم عليه السلام وجههم -بهذه الكلمة- إلى المنهج السليم للتخلص من ضغوط الشرك، والتوجه إلى الله. فمن تصور آيات الله وتذكر أسماءه وصفاته علم بأنه لا يرضى لعباده الكفر والشرك، وأنه يعاقب عليه أشد العقاب، وأنه ينتصر للذين يقاومون المشركين. وكذلك نظن أن كلمات المفسرين هنا في أبعاد الظن قد تكون جميعا من أبعاد الآية بالرغم من أن كل واحد منهم ذهب إلى بعد منها وظنه المراد الوحيد منها.

[٨٨-٨٩] ولأن نبي الله إبراهيم عليه السلام جوبه بالرد، والأذى خطط لعمل واقعي يبلغ من خلاله الرسالة بشكل أعمق أثرا، وما دام يعرف بأن الأصنام باطل فما يضره أن يبادر هو بنفسه لتحطيمها، ولو لم يكن المجتمع قد اقتنع بذلك.

﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ وكان قد اختار يوم عيدهم فرصة سانحة للقيام بمهمته، وخادعهم إذ أظهر لهم معرفته بالنجوم وذلك اتباعا لمنهج التقاة والعمل السري وتغطية على ما سيقوم به في المستقبل، وقد استفاد عليه السلام في ثورته من العادة الاجتماعية القاضية بالاعتقاد بالنجوم، حيث كان قومه يتشاءمون أو يتفاءلون من خلال نظرهم إليها. وقد نهى الإسلام عن الاعتقاد بما يقوله المنجمون إلا ما كان يستند على دليل منطقي. وغاية معقولة. قال الإمام علي عليه السلام: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وتَعَلُّمَ النُّجُومِ إِلَّا مَا يُهْتَدَى بِهِ فِي بَرٍّ أَوْ بَحْرٍ فَإِنَّهَا تَدْعُو إِلَى الكَهَانَةِ والمُنَجِّمُ كَالكَاهِنِ والكَاهِنُ كَالسَّاحِرِ والسَّاحِرُ كَالكَافِرِ والكَافِرُ فِي النَّارِ**»[١].

ويبدو أن علم النجوم بذاته غير محرم إلا أن جعل خرافات المنجمين في مقام رسالات الله والعمل بالنجوم من دونها هو المحرم، فقد جاء في الحديث عن عبد الملك بن أعين: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: إِنِّي قَدِ ابْتُلِيتُ بِهَذَا العِلْمِ فَأُرِيدُ الحَاجَةَ فَإِذَا نَظَرْتُ إِلَى الطَّالِعِ ورَأَيْتُ الطَّالِعَ الشَّرَّ جَلَسْتُ ولَمْ أَذْهَبْ فِيهَا وإِذَا رَأَيْتُ الطَّالِعَ الخَيْرَ ذَهَبْتُ فِي الحَاجَةِ. فَقَالَ عليه السلام لِي: **تَقْضِي**»[٢].

---

(١) وسائل الشيعة: ج١١ ص٣٧٣.

(٢) أي تقضي وتحكم بقبول ما آمرك.

قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ عليه السلام: **أَحْرِقْ كُتُبَكَ**»[١]. وجاء حديث آخر مأثور عنه عليه السلام أنه قال بعد أن سئل عن النجوم: «**هُوَ عِلْمٌ قَلَّتْ مَنَافِعُهُ وكَثُرَتْ مَضَارُّهُ لَا يُدْفَعُ بِهِ المَقْدُورُ ولَا يُتَّقَى بِهِ المَحْذُورُ إِنْ خَبَّرَ المُنَجِّمُ بِالبَلَاءِ لَمْ يُنْجِهِ التَّحَرُّزُ مِنَ القَضَاءِ**»[٢]. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «**مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ سَقِيماً وَمَا كَذَبَ إِنَّمَا عَنَى سَقِيماً فِي دِينِهِ مُرْتَاداً**»[٣].

وحينما نقرأ الأحاديث الواردة في تفسير هذه الآية الكريمة، نجدها تؤكد على رفع الشبهة القائلة بأن التقية حرام لأنها تضطر العاملين للكذب، بل إنها من دين الله ويستدل الأئمة على ذلك بالقرآن الحكيم. «عَنْ أَبِي بَصِيرٍ قَالَ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: **التَّقِيَّةُ مِنْ دِينِ الله. قُلْتُ: مِنْ دِينِ الله؟!. قَالَ عليه السلام: إِي واللهِ مِنْ دِينِ الله وَلَقَدْ قَالَ يُوسُفُ عليه السلام: ﴿أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾ واللهِ مَا كَانُوا سَرَقُوا شَيْئاً. ولَقَدْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ عليه السلام: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ واللهِ مَا كَانَ سَقِيماً**»[٤].

ولعل نظر إبراهيم عليه السلام إلى النجوم في ذلك المجتمع الزراعي الذي اعتقد بأنها ذات تأثير حاسم في حياته كان للإيحاء إليهم بأنه يؤمن بها كما يؤمنون، فيبعد عن نفسه شبهة الكيد بأصنامهم فلا يأخذوه إلى عيدهم عنوة ويفشلوا خطته. وقال: ﴿سَقِيمٌ﴾ تورية إذ إنه من دون تحطيم الأصنام كان سقيما، أو ليست الأصنام كانت تعبد من دون الله جهارا، فكيف لا يكون مريض القلب مهموم الفؤاد، دائم الكآبة وهو لما يقض على الأصنام بينما يفهم القوم المرض فيكون عذراً للغياب عن عيدهم.

وهكذا شأن الأنبياء عليهم السلام والمعصومين عليهم السلام حال التقية يستخدمون التورية وليس الكذب وإن أباحته الضرورة المسوغة للتقية.

ولعل هذا هو مراد الإمام الصادق عليه السلام أنه كان سقيما في دينه، إذ لا ريب أن إبراهيم عليه السلام كان مخلصا طاهرا حنيفا وهو الذي قال عنه الرب: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

[٩٠] وبالفعل نجح نبي الله في مهمته، حيث اطمأن القوم إلى كلامه وذهبوا جميعا إلى عيدهم. ﴿فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ وفي هذا التعبير إفصاح عن مدى الاطمئنان من قبل القوم، حيث وصفهم القرآن بالإدبار، ولو لم يكونوا كذلك لكانوا يلتفتون إلى ورائهم فلا يصح وصفهم به. والحركة الناجحة هي التي يتمكن أفرادها من التغطية على تحركهم بحيث يسلبون النباهة والحذر من العدو ليفاجئوه بالضربة القاضية، وفي الوقت نفسه لا يتركون أثرا يدل على خطتهم.

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٢ ص٢٦٧.
(٢) وسائل الشيعة: ج١٧ ص١٤٣.
(٣) بحار الأنوار: ج١١ ص٧٦.
(٤) الكافي: ج٢ ص٢١٧، تفسير العياشي: ج٢ ص١٨٤.

[٩١-٩٢] وقد عمد إبراهيم عليه السلام بعد أن اختار الوقت المناسب، والأسلوب الناجح، لتوجيه ضربته للواقع الفاسد، فتسلل إلى موطن الأصنام سرا وهدمها. ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴾ إن الذي لا تتوفر فيه إرادة الأكل والنطق كيف يكون بمستوى الربوبية التي تستدعي القدرة على الخلق؟!

وفي مطلع الآية نجد كلمة﴿ فَرَاغَ ﴾التي عبر بها الله عن وثوب إبراهيم عليه السلام على الأصنام، وهي من البلاغة بمكان رفيع، إذ تفيد معنيين، هما المكر والشدة، وهكذا كان إبراهيم عليه السلام. وراغ مستأسدا في الله يحطم رموز الباطل، ومما يتضح من نصوص التأريخ أن آزر -أبا إبراهيم بالتربية- كان سادنا للأصنام وبيده مفاتيح بيتها، فلما ذهب مع القوم للعيد سلم المفاتيح بيد إبراهيم فكانت كل الظروف مواتية لتنفيذ خطته، ومن نافلة القول أنه يتبيَّن من تاريخ البابليين بأن القوى الحاكمة للجماهير في زمنهم هما طائفتان، طائفة السدنة والكهنة التي تمثل القوة الدينية، وطائفة السلاطين التي تمثل القوة السياسية، وكانتا تتعاونان على استغلال الناس واستعبادهم، ولعل الأصنام كانت لديهم مجرد وسيلة للسيطرة على المحرومين.

[٩٣] ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴾ وقد أراد إبراهيم عليه السلام من تحطيمهم أن يوجه ضربة للقوتين، وللثقافة المتخلفة التي تحكم المجتمع و تسهل لهما السيطرة عليه، ولعل التعبير باليمين للدلالة على شدة الضرب بلا تردد أو خشية.

[٩٤] وهذا بلا شك يعتبر تحديا عنيفا للمجتمع، جعل إبراهيم عليه السلام يقف أمة لوحده بما يختص به من اعتقاد وثقافة وسلوك، في مقابل مئات الآلاف من الناس، ولا غرابة فإن رسالة الله والتوكل عليه تحملان الفرد الواحد على التحدي ولو لأمة بأجمعها دون أن يضعف أو يستوحش، لأن إرادة المؤمن أقوى من الجبل، لأن الجبل تحطمه الفؤوس بينما لا تنال من إرادة المؤمن شيئا، وما دام المؤمن على الحق يجب أن لا يخشى الباطل ولو اتبعه الناس جميعا. ﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ لأنه الوحيد الذي بقي في المدينة، ولأن بيده كانت مفاتيح بيت الأصنام. والزَّف تعبير عن مشية معينة، تشبه انطلاقة مشية النعامة، ولعلها توحي بضرب الأرجل على الأرض، مع سرعة واهتمام.

[٩٥-٩٦] ولكنه بقي رابط الجأش، وعازما على المواجهة. ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ والخالق هو المعبود الحقيقي الذي يجب على الإنسان التسليم والانقياد له. في البدء أخلص إبراهيم عليه السلام نفسه فأخلصه الله من تأثير الأجيال السابقة المتمثلة في عمه آزر، ثم أخلصه من الخوف والتسليم للطاغوت بل للمجتمع، فهو عليه السلام بدأ من الصفر حيث لا ناصر له إلا ربه، فضرب مثلا على الإخلاص، بانطلاقه في حركته من الإيمان بالله، والعمل بوحيه، بعيدا عن أي دافع آخر.

[٩٧] ولأن إبراهيم عليه السلام تحدى الانحراف بهذا المستوى، والأسلوب الخطير، عزموا على قتله بأبشع صورة ممكنة في نظرهم، لكي لا يفكر الآخرون في السير على نهجه، وهذا هو ديدن الطغاة إلى اليوم. ﴿ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ وكان نمرود وسائر القوى التي تهددها حركة إبراهيم عليه السلام قد اتفقوا على إشعال نار عظيمة ثم يلقونه فيها بالمنجنيق، علما بأن نارا أقل من التي أشعلوها بكثير، كانت كافية لتحويله -في الظروف العادية- إلى رماد، ولكنهم أرادوا أن يورِّطوا جميع الناس في مواجهة النبي عليه السلام بجمعهم الحطب لها. ونحن نجد حالة التعبئة العامة التي يعلنها الطغاة عندما تواجه سلطاتهم أخطارا حقيقية، ويعملون المستحيل لإشراك الناس فيها بغية أمرين:

الأول: إلهاء الناس عن حقيقة ما يجري.

الثاني: توريط الناس في الجريمة حتى لا يميلوا ناحية المصلحين.

ففرعون دعا الناس إلى الاجتماع في يوم الزينة ليشهدوا غلبة السحرة في ظنه، وأصحاب الأخدود جلسوا على حافتيه يشهدون ما يفعلون بالمؤمنين.

[٩٨] ولكن يد الله فوق أيديهم، وإرادته غالبة ينصر بها عباده المؤمنين، فقد أحبط الله عملهم، و أفشل مخططاتهم. ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ لقد كانوا يهدفون من وراء القضاء على إبراهيم أن تتم لهم السلطة والسيطرة، بإثبات قوتهم القمعية وصحة أفكارهم، ولكن الله أوصلهم إلى نقيض تطلعاتهم. وكلما كان كيد الكفار والطغاة أشد، كانوا أعمق فشلا وخزيا.

[٩٩] أما إبراهيم عليه السلام فقد مضى في طريق الجهاد قُدُماً حيث هاجر في سبيل الله، ولعله كان قادرا على البقاء في تلك المدينة لأنه تحدى طواغيتها وانتصر عليهم، لكنه لم يَرَ أن يعاشر الكفار، بل أراد أن يبني مجتمع الإيمان بعيدا عن البيئة المنحرفة. ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ يعني مهاجر في سبيل الله، ومن الطبيعي أن من يهاجر مجاهدا سوف يهديه ربه إلى الحق والخير، وربما هذا هو تفسير هذه الآية الكريمة: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

[١٠٠] وكان هَمُّ إبراهيم وتطلُّعه الآخر أن يلتحق به في الدرب آخرون يؤمنون به ويحملون رسالته فقال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ وقد حدد لنا نبي الله بهذه الكلمة، نوعية الطموح الذي ينبغي للإنسان أن يتطلع إليه، وهو يبحث عن أولاد أو عن أنصار وأتباع للرسالة، وذلك بأن يبحث عن النوع لا عن الكم وحسب.

[١٠١] ومما لا شك فيه أن للدعاء أثرا حاسما في النتائج التي يصل إليها الإنسان، فالذي يخلص نيته ويحسن عمله ويدعو الله سوف يعطيه ما تقرُّ به عينه، وهكذا فعل ربنا مع نبيه عليه السلام.
﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ أي عالم عاقل حكيم لا تهزّه النوائب.

[١٠٢] وهنا أراد الله أن يبلو خليله إبراهيم، ومدى تسليمه له. ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ﴾ والبلوغ بمعنى الوصول للسعي أو التمكن منه. ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ﴾ ووضع ولده أمام القرار الحاسم والصعب، وكان بإمكانه عليه السلام -كسائر الناس الذين يلتفون على أحكام الله للتهرب من مسؤوليتها- أن يتهرب هو أيضا، بحجة أن الأمر كان مجرد حلم رآه في المنام، ولكنه يعلم أن الرؤيا لون من ألوان الوحي عند الأنبياء، ويجب عليه العمل وفقه. والذي لا ريب فيه أن إسماعيل عليه السلام كان أعز ما يملكه إبراهيم عليه السلام في حياته بعد الإيمان بالله، فأراد ربنا أن يمتحن مستوى تضحيته في سبيله، فوجده مسلما وهكذا كان ولده عليه السلام ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ ويتضح لنا من هذه الآية أن الأنبياء لا يتجاوزون الامتحانات الإلهية بالإعجاز إنما يتذوقون مرارتها وصعوباتها، فهذا إسماعيل عليه السلام يصرح عن حاجته لمشيئة الله حتى يتجاوز أهواء نفسه، وإلى الصبر حتى يقاوم صعوبات الامتحان.

[١٠٣] ﴿فَلَمَّآ أَسْلَمَا﴾ لله تعالى، فصدّق الأب الرؤيا، واستجاب الابن إلى والده. ﴿وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ﴾ يعني أضجعه على الأرض، وفي الخبر «**فَلَمَّا عَزَمَ** -إبراهيم عليه السلام- **عَلَى الذَّبْحِ قَالَ: يَا أَبَتِ خَمِّرْ وَجْهِي وشُدَّ وَثَاقِي**»[١]. وكان هدف إسماعيل عليه السلام من ذلك أن يمضي أبوه في تنفيذ أمر الله، فلا تثنيه عاطفة الأبوة لو لاح له وجهه.

[١٠٤-١٠٥] وفي تلك اللحظة جاءه النداء الإلهي: ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ﴾ وتجاوزت الامتحان فكانت العاقبة في صالحه فهو لم يخسر دنياه، إذ فدى الله ولده بالكبش، وعمّر آخرته حيث أطاع الله، وهو عز وجل يؤكد بأن هذه عاقبة كل المحسنين المطيعين لأوامره سبحانه. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين يخرجون من قيود الذات والهوى، والعلاقات السلبية ويتوجهون بكلهم إلى ربهم عز وجل. وفي تفسير هذه الآية قال الإمام الصادق عليه السلام: «**مَا بَدَا للهِ بَدَاءٌ كَمَا بَدَا لَهُ فِي إِسْمَاعِيلَ أَبِي إِذْ أَمَرَ أَبَاهُ بِذَبْحِهِ ثُمَّ فَدَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ**»[٢].

---

(١) الكافي: ج٤ ص٢٠٧. تفسير القمي: ج٢ ص٢٢٤.
(٢) بحار الأنوار: ج٤ ص١٠٩.

إن هذا لهو البلاء المبين

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ (١) ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾

(١) الغابرين: الباقين الذين أُهلكوا، وأغابر الباقي قليلًا بعد ما مضى، ومنه الغبار لأنه يبقى بعد ذهاب التراب قليلاً.

هدى من الآيات:

في هذه المجموعة من الآيات يذكّرنا الله عز وجل بالمعنى الحقيقي للإخلاص، وهو أن يكون الإنسان بعيدا عن العوامل والضغوط المضادة للحق، ويضرب لنا على هذه الفكرة أمثلة في حياة الأنبياء، كإبراهيم وولده إسماعيل، وكإسحاق، وموسى، وهارون عليهم السلام وهكذا من حياة الأنبياء الآخرين، من بني إسرائيل الذين انتخبهم الله بعد أن عرّضهم لأصعب الامتحانات والفتن، فوجدهم صالحين صادقين مخلصين.

وبالرغم من أن كل نبي تعرض لفتنة خاصة، إلا إنهم يشتركون في بلاء عام واجهوه جميعا بصلابة الإيمان والمعرفة بالله، وتحدي الأوضاع الاجتماعية والسياسية المنحرفة في مجتمعاتهم، فضغط الاجتماع على الإنسان وشعوره الداخلي الذي يسوقه نحو التكيف مع الآخرين، من أهم وأخطر الضغوط التي يواجهها في الحياة، وهذا ما جعل بعض العلماء يدعون لعبادة المجتمع، أو ما يسمى بالحتمية الاجتماعية، وحتى الذين يقولون بالحتمية الطبقية، أو الاقتصادية، أو ما أشبه فإنهم ليسوا بعيدين عن القول بهذه الحتمية، والفارق أن هؤلاء يركزون في نظرياتهم على جانب منها، بينما يؤكد بعض علماء الاجتماع على كافة أبعادها، ونحن لا نسميها حتمية، بمقدار ما نسميها عصرا وضغطا من قبل المجتمع على الإنسان.

فالمجتمع في بعض الأحيان يعصرك، ويضغط عليك باتجاه يتناقض مع طاعة الله، والأهداف التي نتطلع إليها، وواجبك تحدّيه بالإيمان والتوكل، وأن تعرف بأن عنوان نبوة الأنبياء والمرسلين، وأبرز أعمالهم هو تحديهم للواقع الاجتماعي الفاسد، وأن نجاحهم في هذا التحدي هو سبب ارتقائهم، ولهذا أيضا نجد القرآن الحكيم يؤكد على هذه الحقيقة في كثير من سوره وآياته.

بينات من الآيات:

[١٠٦] النبي إبراهيم عليه السلام جاء لكي ينسف عادة جاهلية كانت شائعة ذلك اليوم وهي ذبح الأبناء أمام الأصنام تقربا لها، وما كانت هذه العادة مقتصرة على فلسطين وحدها، ففي مصر أيضا كانوا ينتخبون ملكة الجمال من بين بناتهم ليلقوا بها مع بداية الربيع في النهر الذي كانوا يقدسونه لتذهب ضحية عقيدة جاهلية. تقول: بأن إله البحار يريد أن يتزوج، فلا بد أن نختار له أجمل بناتنا لكي تهدأ المياه ولا يحدث فيضانا يخرب بيوتنا ويهلك مزارعنا.

وهذه العادات ليست بعيدة عن واقعنا المعاصر، لأنها مهما اختلفت في ظاهرها تلتقي في

نقطة مركزية واحدة هي التضحية بالأبناء من أجل الأهداف التافهة.

إن الله أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه ثم عوضه بالذبح العظيم ليقضي على هذه العادة الجاهلية، ويبدِّل بها سنة إلهية حسنة، جرت لدى البشرية إلى هذا اليوم، وهي ذبح الأنعام في منى عند الحج وفي غيرها، و حينما بدا لله أن يفدي نبيه بالكبش جعل الحادث يمر بوقائع إعجازية عجيبة، فقد كانت السكين تلتوي كلما أدناها إبراهيم من رقبة ولده عليهما السلام وكانت تفت الصخرة لو ضربها، ولكنها تعجز عن التأثير في جلد رقبة إسماعيل الرقيق بحدِّها. ولهذه القصة عبرتان أساسيتان:

الأولى: أن على الإنسان التضحية بابنه وبأفضل علاقاته من أجل الدين وفي سبيل الله.

الثانية: وأن يرفض من جهة أخرى التضحية بأولاده من أجل الآلهة المزيفة، حجرا كانت أو بشرا ممن يريدون بلوغ مآربهم وشهواتهم الرخيصة على جسر من دماء شباب الأمة وأفلاذ أكبادها.

إن مقاومة إبراهيم عليه السلام للانحراف الاجتماعي كان أمرا صعبا، وصار أعظم صعوبة حينما جعل الله الطريقة لمقاومته هو ذبح أعز الناس عليه وهو ابنه عليه السلام، وقد وصف الله هذا الامتحان بقوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ﴾ وإنما سمي مبينا لأنه يكشف مستوى الإيمان، ويبيِّن حقيقة الإنسان.

[١٠٧] وبالفعل كشف لنا هذا الامتحان مدى إخلاص النبي إبراهيم عليه السلام وتسليمه لله. هو وولده الذي فداهما الرَّب بذبح من عنده تنزَّل به جبريل الأمين. ﴿ وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ﴾ وبهذا الذبح سنَّ عليه السلام سنة سار عليها المؤمنون إلى اليوم، فهم يذبحون الهدي بمنى وفي كافة أنحاء العالم اقتداء به، ولعله لذلك سمي عظيما. بل لعله -كما هو مروي[1] في بيان الذبح العظيم وجهة عظمته- السبط الشهيد الإمام الحسين بن علي عليه السلام الذي ذبح على النهر عطشانا بكربلاء فداء لدين الله، ومقاومة للعادات الجاهلية الأموية.

[١٠٨-١٠٩] وكرامة لإبراهيم الخليل في الدنيا قبل الآخرة، جعل الله له ذكرا حسنا عند البشرية باختلاف مذاهبها وعقائدها، ولخصَّ ربنا هذه الكرامة في كلمة واحدة هي: السلام على إبراهيم. ﴿ وَتَرَكۡنَا عَلَيۡهِ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ (١٠٨) سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ﴾ ومما تجدر الإشارة إليه أن الاستحباب الشرعي في السلام على الأنبياء والصالحين يقتضي تقديم الصلاة على محمد وآله عليهم السلام ثم يذكر الطرف المراد ذكره. فيقول الذي يريد الصلاة على عيسى: على نبينا وآله عليهم السلام،

(١) نور الثقلين: ج٤ ص٤٢٩.

إلا نبي الله إبراهيم فإن المستحب ذكره أولاً ثم الثناء على نبينا وآله، فتكون جملة القول: (على إبراهيم وعلى نبينا وآله الصلاة والسلام).

[١١٠] ولكن هذا الجزاء الذي يحصل عليه الأنبياء ليس بسنة خاصة بهم، إنما ضمن العدالة الإلهية التي تشمل البشرية كلها، فلأن إبراهيم كان محسنا استحق هذه الكرامة. ﴿ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ ونستوحي من هذه الآية فكرتين:

الأولى: أن الجزاء الحسن ليس قصرا على الأنبياء وحدهم، إنما يلقاه كل محسن في كل زمان ومكان، و أن الكرامة الحقيقية لا ينالها الإنسان إلا بالكفاءة والسعي (والإحسان) وأن جهود المؤمن لن تضيع، فربنا يحفظ لكل عمله ويجازيه عليه إنْ في حياته أو بعد الوفاة، وما هذا الجزاء الدنيوي إلا دليلا على الجزاء الأعظم في الآخرة.

الثانية: أن الإحسان إلى الناس يجازيه الرَّب بالولاية عليهم، فأحق الناس بالناس أحبهم لهم وأكثرهم إحسانا إليهم.

[١١١] وربنا عز وجل يجازي من كان محسنا على إحسانه ويقدِّره، حتى ولو لم يكن مؤمنا، لأن الإحسان بذاته محمود عنده، وقد قال سبحانه: ﴿ هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠]. فكيف إذا كان المحسن مؤمنا؟ بالطبع سوف يجازى أكثر في الدنيا والآخرة، لأن إحسانه للناس ليس من أجل سمعة طيبة أو جزاء مادي عاجل، بل يزيد في رصيده الأخروي، فهذا إبراهيم عليه السلام وقد سنَّ الأضحية لله فتنامى ثوابه بقدر ما اقتدى به الآخرون، إذن فالمؤمن يحصل على الجزاء بمقتضى سنتين، سنة الإحسان، وسنة الإيمان، لهذا يؤكد الله على إحسان نبيه إبراهيم عليه السلام ثم يعود للتأكيد على إيمانه فيقول: ﴿ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾ فجزاؤه مضاعف إذن.

[١١٢] يزعم البعض أن الذي يخالف المجتمع الجاهلي، سوف يعزل ويتجاوزه التيار ثم يكون أبتر ولا يبقى له أثر، ولكن العكس تماما نجده في تأريخ الأنبياء، فبالرغم من مخالفتهم جموع الكافرين فإن الله سبحانه أهلك أعداءهم، وبارك في ذريتهم، ونشر ثناءهم على كل لسان وفي كل زمن. فهذا إبراهيم عليه السلام يحنف عن قومه لوحده حتى يكون لوحده أمة قانتا لله، ولكن انظر إلى العاقبة فأين أولئك الذين خالفوه؟ أما هو فهذا امتداده المبارك في ذريته وتابعيه. ﴿ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ فصلاح الوالدين ينعكس على الأجيال التي تنسل منهما، عبر طائفة من السنن الإلهية كالوراثة، والتربية، وتأييدات ربانية.

[١١٣] ثم بارك الله لإبراهيم ولإسحاق. ﴿ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ ﴾ فقسم من العرب

وربما نصفهم من إبراهيم وهم أولاد إسماعيل، وبنو إسرائيل من ولده إسحاق. فهو عليه السلام ليس أبا الأنبياء وحسب إنما هو أب لشعبين عظيمين أيضا، ثم يؤكد ربنا إلى جانب ذكره البركة التي أسبغها على إبراهيم وولده إسحاق أن ذلك ليس مبررا لمن أراد من ولدهما أن يضفي على نفسه صبغة القداسة، فيدّعي الأفضلية لا لشيء إلا أنه ينسل منهما، لأن قيمة الإنسان الحقيقية تنبعث من عمله هو لا من حسبه ونسبه. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ لأنه أحسن. وليس لأنه ينتمي للمحسنين، كما يوجد من بينهم المنحرفون الظالمون. ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ﴾.

[١١٤-١١٥] ويضرب لنا القرآن مثلا من واقع المحسنين من هذه الذرية المباركة، فيقول: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ بالنبوة وهما من ذرية إسحاق. ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وإذا كان الغرق صورة من الكرب لأنه من غضب الله، فإن ظلم فرعون وجنوده صورة أخرى لا تقل فظاعة عنها. ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾.

[١١٦] إضافة إلى النجاة من الكرب على فرعون وجنوده. ﴿فَكَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ بلى؛ قد يتسلط الطغاة على البلاد، ويفشل المؤمنون في كثير من المحاولات للإطاحة بهم، ويقدمون التضحيات، ولكن العاقبة تكون لهم، وإذا كانت للباطل جولة فإن للحق دولة. ومهما تكن الظروف معاكسة، والظاهر يوحي بغلبة الباطل إلا إن الحق أهله هم المنصورون.

[١١٧] ولكي يحافظ موسى وهارون على مكتسبات النصر، ويديروا شؤون بني إسرائيل أنزل الله عليهما التوراة منهجا للحياة. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ ومن صفات الرسالات الإلهية أنها واضحة، كالقرآن الذي يصفه الله بقوله: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧]. وهذه الفكرة تنسف أساس فكرتين:

الأولى: الذين اتخذوا منهج التكلف لآيات الله، بتفسيرها تفسيرات معقدة. واشترطوا في فهمه ما لم يُرشد له وحي أو سنة، ليجعلوا القرآن ممتنعاً عن الفهم من قبل الناس، كأن الرّب تعالى لم يجعله ميسراً للفهم.

الثانية: الذين نسبوا النقص إلى القرآن الحكيم، فجعلوا فهمه محتاجاً لمناهج دخيلة عليه وعلى دين الله تعالى، بأن اشترط بعضهم قديماً ثقافة الاغريق، واشترط بعضهم حديثاً الثقافات البشرية المعاصرة.

والحق أن الرّب تعالى يسّرهُ لفهم الناس، ولا يحتاجون إلا لعقولهم الفطرية ومعرفة بلغة القرآن. نعم الفهم العميق كما في سائر العلوم موكول للعلماء، وفي القرآن هم العلماء ذوو الدراية بمعارف أهل بيت النبوة عليهم السلام.

فإذن الوسائط في معرفة القرآن أولاً في المعرفة العميقة التخصصية، وثانياً ليست هي الثقافة البشرية، وإنما المعارف الإلهية بتعليم محمد ﷺ وآل محمد عليهم السلام.

[١١٨] هنا نعمتان متدرجتان تتواليان على المؤمنين إحداهما توفير فرصة الهداية بإنزال الوحي، والأخرى هداية الله لهم بعد تقبلهم للوحي والتزامهم بشرائعه. وإذا كانت النعمة العامة تعم الناس جميعا إذ إن ربنا يبعث إلى كل قرية نذيرا فإن النعمة الأخرى تخص المؤمنين فقط، ولذلك خص ربنا موسى وهارون بالهداية قائلا: ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾.

[١١٩-١٢٠] ويوصل الله سياق الحديث عن موسى وهارون بالسياق العام للسورة، الذي يحدثنا عن جزاء عباد الله المخلصين والمحسنين، وذلك من خلال الإشارة إلى جزائهما ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ ولا يمكن لأحد أن ينكر دور الإرادة الإلهية في تخليد ذكر هؤلاء الأنبياء الذين مر على وفاتهم آلاف السنين، فلولا ذكرهم الذي تضمنته رسالات الله، هل كان أحد في هذا العصر يعرف هذه التفاصيل عن حياتهم؟ و أكبر دليل أننا لا نعرف عن حياة الأنبياء الآخرين الذين لم تتعرض لذكرهم الرسالات شيئا مع أن عددهم (١٢٤٠٠٠) نبي ورسول، ويؤكد القرآن في سورة هود ذلك بعد أن يذكر قصة نبي الله نوح عليه السلام ويقول: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود ٤٩].

إن أحداث التاريخ كانت تتلاشى من ذاكرة البشر وكل جيل يأتي ينسى جزءا منها حتى تنتهي تماما. إن البشرية لفترة ليست بالبعيدة لم تكن قد وصلت إلى التقدم العلمي الذي يمكنها من المحافظة على كل ذلك، بالإضافة إلى أن كثيرا من الأقوام كانوا يتعرضون للانقراض والهلاك الجماعي فيموت معهم تاريخهم، إن علم الآثار القائم اليوم يطلع علينا كل حين بمعلومات عن أقوام لم تكن البشرية تعرف عنهم شيئا، ولكن الله يخلد ذكرى الأنبياء العظام بفضله ويترك السلام عليهم يتوالى ليل نهار. ونعود للآية لنتساءل ماذا ترك ربنا على موسى وهارون؟

أولاً: إن الله حافظ على رسالتهما في الحياة، إذ أبقى مشعل الهداية الذي تحمّلا الجهاد به والدعوة إليه، يتلقفه الصالحون من ورثتهما على طول التأريخ دون أن يسقط يوما.

ثانياً: جعل ذكرهما الحسن يطبق الخافقين ولا يزال إلى الأبد.

[١٢١-١٢٢] ولأن الله ذكر هذه القصص توضيحا وتأكيدا للحقيقة المحورية في هذه السورة عاد ليؤكدها، وتلك الحقيقة هي أن العاقبة للمحسنين. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولا بد أن نلاحظ بأن هذه الآية تأتي بعد ذكر

مجموعة حقائق من حياة كل نبي فمن حياة نوح عليه السلام ذكر النجاة، ومن حياة إبراهيم عليه السلام ذكر الذرية الصالحة، ومن حياة موسى عليه السلام ذكر النصر والهداية، وأشركهم في الذكر الحسن الذي لخصه في السلام عليهم، ومعنى ذلك أن جزاء المحسنين لا ينحصر في الذكر الحسن، بل يشمل كل هذه الأمور وما سيأتي ذكره في القصص الأخرى. وقد يكون تلخيص القرآن لحياة هؤلاء ليس من باب الحصر إنما أراد أن يشير لنا في هذه السورة إشارات مختصرة، أما التفاصيل فيمكننا التعرف إليها من خلال مراجعتنا للسور الأخرى.

[١٢٣] ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ويبدو أنه من أنبياء بني إسرائيل، قيل أنه عاش في منطقة بعلبك بلبنان، وإنما سميت بذلك لأن أهلها في ذلك الزمان كانوا يعبدون إلها لهم يسمى بعلا. يقول صاحب المنجد: «بعل: اسم أطلق على عدة آلهة سامية أشهرها معبود فينيقي، هو إله الخصب والتناسل) وبعلبك محافظة البقاع يدل اسمها الحالي على اسمها الفينيقي: بعل البقاع»[1].

[١٢٤] ويلخص القرآن رسالة إلياس في ثلاثة أمور هي:

الأول: الدعوة إلى تقوى الله عز وجل. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ وهذه دعوة جميع الأنبياء لأقوامهم، لأن مشكلة الإنسان الحقيقية هي ابتعاده عن ربه وضعف إيمانه به، ولا سبيل للبشرية إلى معالجة انحرافاتها ومشاكلها إلا بالإيمان والتقوى.

[١٢٥] **الثاني**: ولكي يتصل الإنسان بربه ويكون متقيا، يجب أن يتغلب على مشكلة الشرك لهذا نجد إلياس في الوقت الذي يدعو قومه لتقوى الله يأمرهم بنبذ الآلهة المزيفة. ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴾ والخلق هنا ليس بمعنى الإنشاء من لا شيء، إنما يعني الصناعة والتغيير التي يستطيع الإنسان على شيء منها، ولكن الله أفضل الخالقين، فهو الأولى بالعبادة ويبدو أن ذكر صفة أحسن الخالقين هنا لأن القوم كانوا ينسبون النسل لإلههم بعل، فأمرهم النبي إلياس بتقوى الله من ذلك ورفض هذه الخرافات التي تقف دون تقدمهم وتكاملهم.

[١٢٦] **الثالث**: محاربة الاتباع الخاطئ للآباء.. ويبدو أن التقاليد كانت عميقة الجذور في مجتمع إلياس عليه السلام والسبب أن الله إذ لخص دعوته أشار إلى الآباء مما يدل على نوع المعاناة التي كان يعيشها. ﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أراد من ذلك بيان دور الآباء في الضغط على الأبناء ليشركوا بالله أو يكفروا به، وهل يُغيّر الواقع و الحقيقة كفر الناس؟ كلا..

---

(١) المنجد، كتاب الأعلام: ص ١٣٦، الطبعة ٢٦.

فالله هو رب الآباء وإن كفروا أو أشركوا به، ويجب على الأبناء أن يتجاوزوا خطأهم، ويتركوا هذه الأنداد ويتوجهوا إلى ربهم الحق.

[١٢٧] ثم يعرض لنا السياق النتيجة التي صار إليها قوم إلياس عليه السلام، فقد كذبوا رسولهم وأصروا على انحرافهم. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أمام العدالة الإلهية لينالوا جزاءهم المتمثل في عذاب الله.

[١٢٨] وتستثني الآيات من العذاب القوم المخلصين، وهم الذين تمحَّضوا في الطاعة ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ أما الذين يلحق بإيمانهم بعض الشك، وبأعمالهم بعض السلوكيات المنحرفة فإنهم يحضرون للحساب والجزاء كلا بنسبة شكه وانحرافه.

[١٢٩-١٣٠-١٣١-١٣٢] كان ذلك جزاء المكذبين، أما الرسول الذي صدق برسالته، وبلغها لهم، وتحمل من أجلها العناء والتضحيات، فإن جزاءه على الله الكرامة ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ۝١٢٩ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ[1] ۝١٣٠ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٣١ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ﴾ وقد تجسد إحسان ﴿إِلْيَاسَ﴾ في رسالته التي حملها لقومه، وإذا كانوا قد قابلوه بالرد والتكذيب، فإن الله لا يضيع لديه عمل محسن أبدا، وتأكيد القرآن على صفة الإيمان في النماذج التي يضربها من حياة الأنبياء دون صفة النبوة والرسالة، حتى لا يتصور متصور أنه إذا صار محسنا فقد لا يجني ثمرة لإحسانه باعتباره ليس بنبي، فالعبودية والإيمان صفتان ممكنتان لكل شخص إذا أراد وسعى.

[١٣٣] ويسوق لنا القرآن مثلا آخر على نجاة المخلصين من حياة النبي لوط عليه السلام وهو من أهل بابل بعثه الله في غير قومه. ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ وقد جاء ليعالج الوضع الفاسد الذي يعيشه قومه، والذي من أبرز مظاهره الفساد الخلقي، وذلك برسالة ربه، لكنهم رفضوه ورفضوا رسالته فكان مصيرهم كسائر الأقوام الذين يكذبون الأنبياء أن دمرهم الله.

[١٣٤-١٣٥-١٣٦] ومع أن حياة لوط عليه السلام تشتمل على الكثير من الدروس والعبر، إلا أن القرآن في هذه السورة يدعونا للتفكير في لحظة نجاته ومن آمن معه من أهله، ودمار الآخرين الذين كذبوا به، لأن هذا الجانب يلتقي مع السياق العام لهذه الآيات. ﴿إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ۝١٣٤ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ﴾ وقد قيل أنها زوجه، وقصة هلاكها هي: أن الله أمر لوطا ومن معه حينما يخرجون من القرى المؤتفكة أن لا يلتفتوا وراءهم، لأن ذلك يعبِّر عن

---

(١) الأمالي للصدوق، ص٤٧٢: عن علي عليه السلام «في قوله عز وجل: ﴿سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ﴾ قَالَ: يَاسِينُ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله وَنَحْنُ آلُ يَاسِينَ».

الشفقة على المهلكين، والتشبث بالمال وحب الوطن من دون الله، فالتفتت زوجه وسعت في تحذير أهلها فأهلكت معهم. ﴿ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴾ بأن قَلَبَ جبرائيل عليه السلام عليهم الأرض عاليها سافلها وأهلكهم جميعا.

[١٣٧-١٣٨] وإذا كان هؤلاء الأقوام قد انقرضوا بأجسامهم وحضاراتهم فقد بقيت منهم العبرة والسعيد من اتعظ بتجارب غيره. ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ أكان هذا المرور على بقايا الآثار، أو من خلال آيات القرآن الحكيم، فقد قال أبو الربيع الشامي: سألت أبا عبد الله (إلى قوله) فقلت: «فقوله عز وجل: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴾ قال عليه السلام: **تَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ فِي القُرْآنِ إِذَا قَرَأْتُمُ القُرْآنَ تَقْرَأُ مَا قَصَّ اللهُ عَزَّ وجَلَّ عَلَيْكُمْ مِنْ خَبَرِهِمْ**»[1].

ومشكلة الناس الذين يكررون تجارب الآخرين الخاطئة فيصيبهم ما أصابهم، ليس قلة التجارب والعبر، إنما قلة الاعتبار، فالآثار والقصص التاريخية كفيلة باستثارة عقل الإنسان وإعطائه البصيرة في الحياة، و لكنه يعطل عقله عن التفكير فيها، وفي بعض النصوص التاريخية أن العرب كانوا يمرون بقوافلهم أثناء تجارتهم إلى الشام على قرى لوط إلا إنهم لم يستفيدوا من هذه الموعظة التي لا تحتاج إلا إلى القليل من التفكير ليقرأها الإنسان.

وهذه التذكرة من القرآن الحكيم بضرورة الاعتبار من التأريخ، تؤكدها الآيات عند ذكرها لقصص الماضين، وذلك لكي يعلم من يقرأ القرآن، بأن هذه القصص ليست للتسلية وجمع المعلومات إنما هي للهداية والموعظة والاعتبار.

(١) الكافي: ج٨ ص٢٤٨.

سبحان الله عما يصفون

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩) إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١) فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) ۞ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ [1] وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥) وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ [2] (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ (١٤٧) فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨) فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ (١٥٦) فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٧) وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٥٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) ﴾

هدى من الآيات:

بعث الله نبيه يونس بن متى إلى مدينة نينوى بالموصل، فبلغ الرسالة وأرشدهم للحق بعد أن بيَّن لهم انحرافهم، ولكنهم لم يستمعوا إلى دعوته، فما صابرهم كثيرا ودعا عليهم فغضب الله عز وجل عليه، لكن حساب الخطأ على الأنبياء يكون بمستوى المسؤولية التي يتحملها النبي. فالرَّب يُعدُّ تركهم الأولى معصية كما سَمَّى تناول آدم من الشجرة عصياناً، بل

(١) بالعراء: المكان الخالي الذي لا نبت فيه ولا شجر.
(٢) يقطين: شجر القرع، وقيل كل شجر لا ساق له.

في قصة أحد الأنبياء الذي حاربه قومه فاختفى في جذع شجرة، ولما دلَّهم الشيطان عليه قطعوا جذعها بالمنشار، فأصابه من حدها فقال: «آه». فأوحى الله إليه إن عدت لها مرة أخرى محوت اسمك من ديوان الأنبياء، ولا ريب أن لحظة الوقوع في الخطأ لرفع الله عنهم العصمة ليتصرفوا بطبيعتهم البشرية المجردة، ولعله لحكمة معينة هي إظهار بشريتهم عليهم السلام.

وهكذا غضب الله على نبيه يونس بسبب تركه للأولى، وسرعة الدعاء على قومه، الأمر الذي جعله مستحقا عند الله الاعتقال، فسجنه في بطن الحوت في ظلمات ثلاث، في قصة خلاصتها أنه وصل إلى البحر هاربا من قومه، وركب سفينة مليئة بالمسافرين، وفي عرض البحر حيث طغى ماؤه وهاج موجه، و تخوف الجميع من غرقها، فقال ربان السفينة: إن عبدا آبقا موجودا في سفينتنا، وكانت عادتهم الاقتراع في مثل هذه الظروف ومن يظهر اسمه في القرعة هو الذي يلقى في البحر ليخف وزن السفينة، وكانت القرعة ولثلاث مرات تتجه إلى يونس بن متى فرموه في عرض البحر، فتلقفه الحوت الذي ابتلعه وبقي في بطنه.

ولم ينقذ يونس عليه السلام من هذا المأزق إلا بتضرعه لله واعترافه بخطئه ﴿ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. إذ أمر الله الحوت أن يقذفه على الساحل وخرج من بطنه وقد اهترأ جلده، فأنبت الله له شجرة اليقطين ذات الأوراق الكبيرة، فشفي وخرج ليمارس مسؤولية التبليغ من جديد.

وتهدينا هذه القصة كما القصص الماضية، إلى الحقيقة التي سبق أن ذكر بها السياق القرآني، وهي أن العباد المخلصين بشر وليسوا أولادا لله سبحانه، ولا آلهة، وذلك خلافا لما يصفهم به المشركون، كما أنهم لم يوصفوا بتلك الصفات المثلى إلا بما سعوا وأحسنوا، وقد اعترضتهم -كما يحصل ذلك لأي إنسان آخر- الصعاب والمشاكل، ولو كانوا كما يصفهم المشركون لتجاوزوها، والحال أنهم لولا رحمة الله لكانوا من الهالكين.

بلى، إن ربنا سبحانه ترك عليهم سلاما دائما على كل لسان لما امتلكوا من صفات جعلتهم أئمة وقادة. ولعل هذا التأكيد على السلام عليهم لكي يتخذوا قادة، ولكي يعرف الناس حدود إكرامهم للأنبياء فلا يغلوا فيهم حتى مقام الربوبية، ولا ينزلونهم إلى مستوى العلماء والمفكرين، وأخيرا لكي يفسر القرآن سبب إكرام الناس للأنبياء فلا يحرفه الضالون عن سبيل التوحيد.

بينات من الآيات:

[١٣٩-١٤٠] ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴾ والآبق هو الهارب، والمشحون المتلئ.

[١٤١] ولما أبحرت السفينة وخاف أهلها من الغرق اقترحوا أن يقترعوا، ليلقوا واحدا من ركابها في البحر تخفيفا لوزنها. ﴿فَسَاهَمَ﴾ النبي يونس عليه السلام بعد أن وافقهم. ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ والمدحض هو الذي لاحظ له، وقد خسر القرعة ثلاث مرات.

[١٤٢] فلما كان الأمر كذلك ألقي في البحر. ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ والمليم الذي يأتي من التصرفات ما يستحق عليه اللوم.

[١٤٣-١٤٤] ولكن يونس أدرك خطأه الذي هو عبارة عن ترك الأولى واعترف به إذ لم يصبر على قومه، ودعا عليهم قبل أن يستأذن الرّب تعالى كما هو شأن الأنبياء. وهنا ندرك عظمة نبينا صلى الله عليه وآله إذ أذن له مراراً وتكراراً فكان صلى الله عليه وآله يدعو لهم بالهداية والمغفرة. وتجدر الإشارة إلى أن دعاء يونس عليه السلام على قومه كان تجربة عنيفة للقوم مهدت لتوبتهم.

وهكذا ربما كان عدم التدخل الإلهي لمنع يونس عليه السلام من الدعاء -ودعاء الأنبياء مستجاب- تمهيداً لحصول تجربتين للقوم وللنبي عليه السلام، وفي عاقبتهما أن تحققت الهداية. والله لطيف لما يشاء وهو أحكم الحاكمين.

فالنبي يونس عليه السلام اهتدى إلى طريق التوبة ورضا الله وهو الاستغفار والتسبيح - وهكذا يجب علينا نحن حينما نقع في المعصية- وبهذا تجاوز النبي عليه السلام محنته ليخلف للبشرية درسا في معالجة الخطأ. ولولا أنه أصلح خطأه لأحاط به ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ وذلك بأن يكون قبره في بطنه.

[١٤٥] ولكن الله أخرجه من بطن الحوت بعد توبته. ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي مريض والسقم شدة المرض، أما العراء فهي الصحراء.

[١٤٦] ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ لأنه ربما كان يحتاج إلى الظل كعلاج إلى سقمه، قال الإمام علي عليه السلام: «**وَأَمَرَ الْحُوتَ أَنْ تَلْفِظَهُ فَلَفِظَتْهُ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ وَقَدْ ذَهَبَ جِلْدُهُ وَلَحْمُهُ وَأَنْبَتَ اللهُ عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَهِيَ الدُّبَّاءُ فَأَظَلَّتْهُ مِنَ الشَّمْسِ فَشَكَرَ، ثُمَّ أَمَرَ اللهُ الشَّجَرَةَ فَتَنَحَّتْ عَنْهُ وَوَقَعَتِ الشَّمْسُ عَلَيْهِ فَجَزِعَ فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ يَا يُونُسُ لِمَ لَمْ تَرْحَمْ مِائَةَ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ وَأَنْتَ تَجْزَعُ مِنْ أَلَمِ سَاعَةٍ؟! فَقَالَ: يَا رَبِّ عَفْوَكَ عَفْوَكَ، فَرَدَّ اللهُ بَدَنَهُ وَرَجَعَ إِلَى قَوْمِهِ وَآمَنُوا بِهِ**»[1]. ويبدو أن الشجرة لم تكن تظله وحسب، وإنما كان يتداوى بها من مرضه، لأن ثمر هذه الشجرة -وهو القرع- بارد طبعه كما يقولون ينفع الجسم الملتهب.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٤ ص٣٨٢ ب٢٦، تفسير القمي: ج١ ص٣١٨.

[١٤٧] وهكذا نهض يونس من مرضه ليمارس عمله الجهادي من جديد بوحي من الله عز وجل، الذي بعثه ليعيد التجربة مع قومه. ﴿ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴾ ولم يحدد القرآن عدد هؤلاء بالضبط، لأن المجموعة البشرية المتواجدة في منطقة ما، تزيد وتنقص لعوامل مختلفة من بينها الولادة والموت، ومن بينها الهجرة من المجتمع وإليه.

[١٤٨] وحينما عاد يونس عليه السلام إلى قومه هذه المرة نجح في تغييرهم. ﴿فَـَٔامَنُوا۟ ﴾ وصاروا مثلا للأمة التي استفادت من تجربتها السلبية في ارتقائها وتقدمها، فقد حدَّد قوم يونس عليه السلام وهم يرون العذاب على الأبواب المسؤول عن هذا الواقع، فلم يبرِّروا لأنفسهم ولم يعاندوا، إنما تحملوا المسؤولية وتواضعوا للحق فرفعهم الله وأرسل عليهم الخير والبركة. وليس بالضرورة أن يكون العذاب غماما ولا خسفا من غضب الله، فقد يكون هو التمزق والفقر والتخلف والمشاكل النفسية والاجتماعية، وكلها موجودة الآن في واقع الأمة الإسلامية، وواجبها أن تغيِّر واقعها ليغيِّر الله ما هي عليه من التخلف إلى التحضر والازدهار. ولا يكون ذلك إلا بالإيمان، فهذه أمة يونس عليه السلام يحكي الله عنها إذ آمنت قائلا: ﴿فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ فلم تبق هذه المتعة والبركة طويلا، لأنهم لم يحافظوا على عاملها الأساسي وهو الإيمان فهم ظلوا في متعتهم إلى حين وجود الإيمان بينهم.

[١٤٩] وبعد أن يختم ربنا قصص الأنبياء التي أكد فيها على عبوديتهم له نفيا لادعاء المشركين بأنهم آلهة، وذلك من خلال الآية الكريمة: ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾، التي تمثل عاملا مشتركا بين القصص كلها، ينفي من الجانب الآخر مجموعة من التصورات التي اختلقها المشركون حول الملائكة والجن، وأهمها زعمهم بأنها نسب لله عز وجل كوسيلة لتأليهها. ونجد في السياق أمرا من الله إلى رسوله باستفتاء المشركين في ذلك. ﴿ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴾ والاستفتاء هو أخذ الفتيا والرأي.

[١٥٠] ولو سألهم الرسول لقالوا بلى، ولكن على أي دليل يستند قولهم، هل شاهدوا خلق الملائكة؟ ﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ الذي يرى شيئا بعينه يمكنه أن يدَّعي صدق ما رآه، ويكون ادعاؤه منطقيا، بينما لم يشهد هؤلاء خلق الملائكة حتى يعرفوا ماهيتها، وهذه الآية تنسف فكرة الجاهلية من الأساس حول الملائكة، حيث تُهدينا إلى أنها مجرد ظن لا دليل عليه وبعبارة، إن في هذه الآية وما يليها إشارتين مهمتين:

الأولى: أن الادعاءات بدون سند وبرهان هو محض الجهل. وكثير من تخرصات البشر هي في أمور لم تصل معارفهم ومناهجهم لها.

الثانية: أن الأنوثة والذكورة من خصائص الكائنات الحية المعهودة في عالمنا. ولا يصح

القياس بين عالمين مختلفين. من هنا فإن فكرة أنوثة الملائكة في منتهى الغباء.

[١٥١-١٥٢] ومع أن ظاهر الآيتين الماضيتين حول الملائكة، أنهما تعالجان فكرة أنوثة الملائكة، إلا أن هدف القرآن من الحديث هو نسف الاعتقاد بألوهيتها، ذلك أن بعضا من المشركين تصوروها تولدت من الله فهي آلهة أيضا، وإنما دخل السياق لهذا الموضوع من زاوية الحديث عن طبيعة الملائكة وماهيتها، ليبيِّن لنا بأن تصورات الجاهليين خاطئة ليس في تحديد دور الملائكة وحسب وإنما يجهلون حتى ماهيتها، وكل ما هنالك من أفكار لديهم حولها فإنها مجرد ظنون لا دليل منطقي عليها. ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ إن الاعتقاد بولادة الله الذي نشأ أصلا في أرضية ثقافية تتسم أولاً بالهروب من ثقل المسؤولية، وثانياً لكي يشبع الإنسان غروره وكبره وتطلعه إلى مقام الربوبية. إن هذا الاعتقاد - برَّره أدعياء الحكمة والفلسفة فوضعوا له نظريات الحلول والاتحاد، ووحدة الوجود، ومهما حاولوا تبريرها فهي إفك داخلي في نفوسهم، وكذب فظيع على ألسنتهم. إن المشركين يعلمون بكذب دعواهم فاجتمع في هذا الادعاء القبح الفاعلي إلى جانب القبح الفعلي.

[١٥٣] ويتساءل القرآن من جديد: ﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾.

[١٥٤] إن استصدار هذا الحكم على الله سبحانه، لا ينطبق مع أبسط قواعد الحكم المنطقية. ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾.

[١٥٥-١٥٦-١٥٧] والإنسان حينما يريد الحكم على قضية ما، إما أن يرجع إلى ضميره، أو إلى حجة أخرى كالعقل والعلم، وهؤلاء لا يراجعون ضميرهم بالتذكر ولا يرجعون إلى حجة قاطعة أخرى. ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴾ إذا بلغ الإنسان حدا -بالاعتماد على البراهين والشواهد القاطعة- أن اعتقد حتى ولو بهذه الفكرة الباطلة في واقعها. فإنه معذور عند الله، ولكنه تعالى أبى أن يجعل الحق باطلا لا ريب فيه، ولا الباطل حقا لا ريب فيه، وذلك بما زرع في الإنسان من ضمير، وبما وهبه من عقل، وأنزل عليه من كتب، وبعث له من رسل، وجعلها جميعا فرقانا له في الحياة في كل أمورها وقضاياها. ﴿ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ إذا كانت مزاعمكم هذه تعتمد على دليل فأين هو الدليل؟.

[١٥٨] وفي نهاية الدرس يُعرِّج القرآن على فكرة باطلة أخرى لينسفها نسفا وهي تأليه الجن. ﴿ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ فعبدوا الجن، وعبدوا السحرة والكهنة التي تدَّعي الاتصال بها، أو تتصل بها فعلا ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ ولو كانت الجن آلهة كما يتصور المشركون، لما أحضروا للعذاب كسائر العصاة من الخلائق وذلك يدل بوضوح

على أنهم مخلوقون وليسوا بآلهة. وذِكر الله لحضور الجنة للعذاب يضرب أفكار المشركين في الصميم، ذلك أن للشرك بصورة عامة جذراً مشتركاً، هو محاولة التخلص من المسؤولية، عبر الاعتقاد بأشياء وقوى أنها تخلص الإنسان من عذاب الله، وإذا كانت الجنة لا تخلص نفسها فكيف تنقذ البشر.

[١٥٩] وتعالى الله وتنزه عن هذه الأفكار المنحرفة. ﴿ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾.

[١٦٠] وفي الوقت الذي ينسف القرآن فكرة تأليه الجن، ينسف من جانب الاعتقاد السائد لدى البعض من أن الجن يذهبون إلى النار جميعا، وذلك حينما يستثنى من الحضور في العذاب المؤمنين المخلصين منهم. ﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ كما تتضمن الآية تأكيد في كلمتها الأولى على عبودية الجن لا ألوهيتهم.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون

﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ [1] (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ (١٦٥) وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَإِن كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (١٧٠) وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٤) وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٥) أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦) فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ (١٧٧) وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ (١٧٨) وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٢)﴾

هدى من الآيات:

في الدرس الأخير يلخص ربنا عِبَرَ هذه السورة، ومن أظهرها أن عباد الله المخلصين هم الذين أخلصهم ربهم، وأخلصوا أنفسهم له، فلم تؤثر فيهم العوامل التي جرت على غيرهم.

في الآيات الأولى من هذا الدرس ينفي القرآن الحكيم التعلق الشركي بالملائكة عبر التأكيد على عبوديتهم لله، وتسليمهم لأوامره التي ينتظرونها، تتنزل من عنده إليهم، ثم ينسف فكرة الجبر مكذبا الذين يدعون بأنهم مضطرون للشرك بالشياطين، إذ لا جبر في الدنيا على الإنسان، إنما هو الذي يختار طريقه، وأفكاره، واعتقاداته بكامل حريته، وهذه الحرية هي التي

(١) بفاتنين: الفاتن الداعي إلى الضلال، أي لا تتمكنون من إضلال الناس على خلاف الله سبحانه.

تحمّله المسؤولية الكاملة تجاه تصرفاته، والأوامر التي يوحيها الله لرسله بأن لا يبالغوا في تبليغهم الرسالة للكفار والمشركين تلتقي مع فكرة الاختيار، فالكفار والمشركون هم المسؤولون عن اختيارهم، وليس من واجب المبلغ للرسالة أن يفرض عليهم اختيارا معينا.

وتنتهي السورة بما صار ختاما لأحاديث الصالحين وهي الآيات الثلاث الأخيرة التي مطلعها تنزيه الله سبحانه، ثم الثناء على رسله، وأخيرا تخصيصه بالحمد.

بينات من الآيات:

[١٦١-١٦٢] إن أفكار الشرك بألوانه المختلفة خاطئة، والإنسان غير مجبور على الاعتقاد بها، ولكنه لكي يرفع عن نفسه المسؤولية يزعم بأنها مفروضة عليه، ولا خيار له إلا قبولها بسبب الضغط أو الإغراء، والقرآن ينقض فكرة الجبر هذه، فيقول: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ﴾ وكلمة ﴿عَلَيْهِ﴾ فيما يبدو تدل على الجبر، فكأن القرآن يقول: إنكم لا تجبرون أحدا على اتباعكم فيما تعبدون لا بالإغراء ولا بالضغط، لأن كلمة الفتنة تتسع لمعنى البلاء، والضغط، والإكراه، كما تعني الإغراء والتزيين، وعموما فإن الفتنة هنا بمعنى الجبر.

وإذا نظرنا في أحوال الذين يعبدون الآلهة من دون الله -من اتباع السلاطين، والأحزاب، وعبدة الأثرياء، والوجهاء، وأدعياء الدين- لرأيناهم يبرّرون جميعا شركهم بأنهم مجبورون، وأنه لا سبيل لمقاومة الطاغوت، ولا الهروب من شبكات الأحزاب، ولا مقاومة تجويع المترفين، وتضليل الوجهاء، و أدعياء الدين.

كلا.. ربنا الذي خلق خلقه أعطى لخلقه الحرية والقدرة على الرفض، ولكن الشيطان يسول العبودية، و يزينها له.

[١٦٣] فالآلهة المزعومون ليسوا بقادرين على جبر الناس مهما حاولوا، بلى، إنهم يضغطون عليهم، ولكن يبقى القرار الحاسم بيد الإنسان، وإنما يستجيب لهم من تتواجد فيه مقومات الشرك والكفر. ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ﴾ وذلك دليل حرية الإنسان، وأنه غير مضطر للانحراف، وأن عليه الجزاء شخصيا، لأن الذي يتجاوب مع فتنة المشركين يصلى النار بنفسه ولا يغنون عنه شيئا، وهذا أعظم شاهد على مسؤولية الإنسان، كما هو أفضل علاج لداء التسويف والتبرير، فلو علم المبرِّرون، وأولو الأعذار الواهية أنهم يذاقون العذاب فعلا برغم تبريرهم وأعذارهم، فإن ذلك يقتضي ارتداعهم.

[١٦٤-١٦٥-١٦٦] ويُعرِّج السياق مرة أخرى لينقل لنا رد الملائكة عليهم السلام على أباطيل

المشركين حولهم في آيات ثلاث:

- ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعۡلُومٌ﴾ والمقام هنا قد يعني المنزلة، فالملائكة يتفاضلون فيها، وأعظمهم الروح. وقد يعني ﴿مَقَامٌ﴾ الدور، فلكل ملك دور يختلف عن الآخرين. إذ منهم من هو مختص بقبض الأرواح، ومنهم من وُكِّلَ بالسحاب والمطر وهكذا. ومقام الملائكة ودورهم معلوم عند الله وعند الملائكة، وكونهم الموكلين بشؤون الحياة وإدارتها لا يرفعهم إلى مقام الربوبية أبدا، كما لا يقفزون إلى دور آخر للقيام مثلا بالشفاعة لهذا، وقضاء حاجة ذاك إلا بأمر الله.

- ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ كالجند. ينتظر الجميع أوامر ربه لينفذوها، ولا يحيدون عنها قيد أنملة، ولعل أهم ما يصطف له الملائكة هو عبادة الله، وذروتها التسبيح والتنزيه.

- ﴿وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ﴾ ينزهونه -عز وجل- عن كل ما لا يتناسب ومقام الربوبية، عن الوهن والجهل، وعن الشركاء التي زعم الجاهلون بأن الملائكة منهم.

[١٦٧-١٦٨-١٦٩] ومن الناس من يتهرب من المسؤولية ببعض التمنيات، وتعليق قيامه بالواجب ببعض الشروط المستقبلية، فإذا قيل لهم: لماذا لا تصلوا؟ قالوا: سوف نفعل ذلك إذا ذهبنا إلى الحج، أو إذا كبرنا.. وبعضهم يلقي بالمسؤولية على الله سبحانه، ويقول لأن الله لم يوفقني فإني لم أهتد إلى الصلاح، ولو أن الله بعث إلينا رسولا فسوف نكون أهدى من غيرنا.

﴿وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ﴾ قولا مجردا، لا يتجاوز لقلقة اللسان. ﴿لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ نهتدي به، ونسير في الحياة على ضوئه. ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ لكن هل يمكن للإنسان أن يدرك هذه المنزلة الرفيعة بمجرد التمنيات؟ كلا.. إذ لا بد لبلوغها من السعي، لأنه وحده الذي يحول الآمال إلى واقع.

[١٧٠] ولأن هؤلاء يعيشون مجرد التمنيات، وإنما قالوا ذلك لتبرير انحرافاتهم فقد جاءهم القرآن، و كان يفترض فيهم أن يتبعوه ليصلوا إلى سماء الإخلاص. ﴿فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ﴾ وتبينت حقيقتهم بأن كلامهم مجرد أمنيات غير جادة، وهذه طبيعة كل الذين يسوفون التوبة، ويعلقون إصلاح أنفسهم على شروط غير متحققة، ويعيشون في حلم المستقبل دائما، وهذا التسويف يُرديهم إلى الهاوية. ﴿فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ﴾ فهم يقولون: سوف نعمل، فيقول لهم القرآن: بل سوف تعلمون أن إضاعة فرصة العمر الوحيدة لم تكن في مصلحتكم أبدا. وفي طيات هذا التعبير تهديد مبطن بالعذاب، وقد يكون عدم التصريح بنوعيته وكيفيته أبلغ وأرهب في

النفوس، حيث تتفاجأ بألوان من العذاب لم تتوقعها أو تحسب لها حسابا.

[١٧١-١٧٢] إن تشبث فئام من الناس بمختلف التبريرات كالأفكار الجبرية، والانتظار الساذج للفرار من مسؤولية الإيمان بالرسالة يجب أن لا يوهن الرساليين أو يسلبهم الثقة بنصر الله لهم، لأنه سبحانه أراد الانتصار لمبادئه ولمن يؤمن ويلتزم بها، ولو كان ظاهر الحياة هو تسلط الطغاة المنحرفين، فإن الله غالب على أمره، وما سيطرتهم إلا محدودة. ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ فليس كلام الله عن نصرهم شيئا جديدا، إنما هو قديم سبقت بواقعيته أحداث التأريخ، فما من رسالة إلا وأظهرها الله، نعم. قد يقدم أصحابها شيئا من التضحيات، أو يطول بهم الانتظار برهة من الزمن. لكن العاقبة تكون في صالحهم ونجاح مسعاهم، ويلاحظ توالي التوكيدات اللفظية على ذلك في هذه الآية وفي التي تليها أيضا.

[١٧٣] وهذا النصر لا يختص بالأنبياء شخصيا، إنما ينتصر كل من يمثل جبهة الحق، ويحمل مشعل الرسالة الإلهية على امتداد التأريخ وفي كل أفق. ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ وجند الله هم المؤمنون.

[١٧٤] ولكن متى ينصر الله عباده المؤمنين؟

ينصرهم حينما ينفصلون ويتميزون عن الكفار والمنافقين. ماديا ومعنويا، لهذا جاء الأمر الإلهي للرسول بذلك. ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ والحين هنا يعني الوقت الذي يأتي فيه الأمر للرسول والمؤمنين بالهجوم عليهم وقتالهم، في ظل رعاية الله ونصره.

[١٧٥] وفي الأثناء التي ينفصل المؤمنون المجاهدون عن الكافرين والمنافقين بالهجرة -مثلا- ينبغي لهم أن يراقبوهم، ويكونوا شهودا على الواقع، وكل حركة تنشد التغيير لا بد لها من مراقبة الواقع، و دراسة العدو. ﴿وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ إنهم - بدورهم - سوف يرون العذاب ويلاقونه من عند الله أو بأيدي المؤمنين. وفي الآية معنى التوكيد على العاقبة لرسل الله وجنده، فكأنها أمام أعين الجميع يبصرها الصالحون فيفرحون بها، ويبصرها الكفار فيزدادون بها غيضاً وحنقا.

[١٧٦] وعذاب الله لا يأتي للإنسان حسب تمنياته، حتى يحتج الكافرون على كذب الرسالة بأنهم تحدوا الله، فلم يرد عليهم، كلا.. إنما يرسل ربنا العذاب حسب حكمته سبحانه. ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ وماذا يستعجلون من عذاب الله، إنه الدمار الشامل، والهزيمة الماحقة، والنار المحيطة، والهوان الأليم.

[١٧٧] إن هذا التحدي التام من قبل الكافرين لربِّ العزَّة إنما هو بسبب جهلهم بقدرته، وطبيعة العذاب الذي ينزله على الملحدين. ﴿ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ ﴾ الغضب الإلهي متجسدا في العذاب الدنيوي، يعقبه عذاب الخلد في الآخرة. ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ وغضب الله أكثر ما ينزل في الصباح، والكفار في كامل قوتهم ويقظتهم، وذلك ليشعروا بحقارتهم، وليذوقوا العذاب بأقصى ما يمكن للإنسان، ذلك زيادة في السوء لهم، لأنهم ليس لم يستجيبوا للنذر وكذبوها فحسب، إنما بارزوا الله تحدياً ومحاربة، والقرآن يكرر الإشارة إلى الصباح كزمن للعذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

[١٧٨] ويرجع السياق مرة ثانية للتؤكيد للرسول على ضرورة تركه للكفار وهجرهم، وانتظار الفرج الإلهي. ﴿ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي حين يحين موعد الانتقام الإلهي منهم، بتحطيم كبريائهم، ونصر رسوله عليهم.

[١٧٩] ويبيِّن السياق أن عاقبة النصر لرسوله، والهزيمة للكفار واقعة لا ريب فيها حتى لكأنها أمام بصر الجميع. ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴾ حينما نتلوا القرآن نجد آيات كثيرة منه تؤكد على الرسول بأن لا يقتل نفسه بتحميلها بالغ الهم من أجل الذين يرفضون الرسالة، وأن مسؤوليته تنتهي بتبليغ رسالته، وهذا الأمر يهم المؤمنين الذين يسيرون في خط الرسول ﷺ أيضا، فواجبهم هو أن يكيفوا أنفسهم وسلوكهم في الحياة حسب تعليمات ربهم أثناء الدعوة إليه، فإن آمن الناس التحقوا بهم، وإن كفروا فهم وشأنهم، وليس مطلوبا أن يبالغوا أكثر من اللزوم في هدايتهم، لأن ذلك قد يصرفهم عن بعض الواجبات، ويؤخر مسيرتهم باعتبارهم سوف يصرفون جهودا مكررة بالأولى لهم أن يبذلوها في أعمال وخطط أخرى تقدم العمل خطوة إلى الأمام.

[١٨٠] وختاما لهذه السورة التي عالج سياقها موضوع الشرك، وبعض الأفكار الخاطئة، والتصورات التي اعتقد بها المشركون نجد تنزيها لله عزَّ وجلَّ بأكرم الألفاظ وأجلها عنده تعالى وهي لفظة﴿ سُبْحَٰنَ ﴾. إن دعوة القرآن للمؤمنين بأن لا يبالغوا في وعظ المشركين لا تعني أن يرضوا بهم وبما يدعون و يعملون، إنما يجب عليهم التسبيح تنزيها لله وذلك لكي لا يتأثروا بشركهم، لأن من طبيعة البشر تأثره بأفكار الآخرين ولو جزئيا، فإذا لم يكونوا قادرين على أن يتخذوا موقفا عمليا أو قوليا فليسبحوا ربهم في قلوبهم تسبيحا كثيرا. ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ الناس على اختلاف أديانهم ومذاهبهم الفكرية يصف كل جماعة منهم ربه بوصف لا يليق ومقام الربوبية، ولكن عباد الله المخلصين هم الذين يصفونه بما يليق به عبر التسبيح.

وقد اختلف المفسرون والفقهاء في تحديد أفضل كلمات الذكر، فمنهم من قال: إنه «الْحَمْدُ للهِ»، وقال آخرون إنه: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» وجماعة ثالثة قالوا: «اللهُ أَكْبَرُ» هو أعظمها، والذي -يبدو لي- أن كلمة «سُبْحَانَ اللهِ» هي أعظمها وأثقلها وزنا عند الله، لأن طبيعة الإنسان طبيعة مرتكزة في الجهل بمعناه الشامل، وبالتالي في الابتعاد عن الله، وهذا ما يدعوه إلى تصور الخالق حسب طبيعته، فإذا به يصوِّره محدودا، عاجزا، جاهلا، مركبا -مثلا- انطلاقا من نظرته إلى نفسه والأشياء من حوله، ثم إن روعة جمال الطبيعة، وتزيين الشهوات التي تدعو النفس إليها، وسيطرة الجبارين والمترفين كل ذلك قد يبعد المؤمن عن ربه، ويجعله يشرك به شركا خفيا، مما يجعله يحتاج إلى تكرار التسبيح. وكلمة المخلصين «سُبْحَانَ اللهِ» التي تلهج بها ألسنتهم هي اعتراف بالعجز عن معرفة كنه الله، إلا المعرفة التي تخرجه عن حدِّ التعطيل والتشبيه والتي دعا إليها أئمة الهدى عليهم السلام، وهذا يبعدهم عن العقائد الضالة.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وتَعَالَى خَلَقَ اسْماً بِالْحُرُوفِ غَيْرَ مُتَصَوَّتٍ وبِاللَّفْظِ غَيْرَ مُنْطَقٍ وبِالشَّخْصِ غَيْرَ مُجَسَّدٍ وبِالتَّشْبِيهِ غَيْرَ مَوْصُوفٍ وبِاللَّوْنِ غَيْرَ مَصْبُوغٍ مَنْفِيٌّ عَنْهُ الأَقْطَارُ مُبَعَّدٌ عَنْهُ الْحُدُودُ مَحْجُوبٌ عَنْهُ حِسُّ كُلِّ مُتَوَهِّمٍ مُسْتَتِرٌ غَيْرُ مَسْتُورٍ فَجَعَلَهُ كَلِمَةً تَامَّةً عَلَى أَرْبَعَةِ أَجْزَاءٍ مَعاً لَيْسَ مِنْهَا وَاحِدٌ قَبْلَ الآخَرِ فَأَظْهَرَ مِنْهَا ثَلَاثَةَ أَسْمَاءٍ لِفَاقَةِ الْخَلْقِ إِلَيْهَا وحَجَبَ مِنْهَا وَاحِداً وهُوَ الِاسْمُ الْمَكْنُونُ الْمَخْزُونُ فَهَذِهِ الأَسْمَاءُ الَّتِي ظَهَرَتْ فَالظَّاهِرُ هُوَ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى وسَخَّرَ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ اسْمٍ مِنْ هَذِهِ الأَسْمَاءِ أَرْبَعَةَ أَرْكَانٍ فَذَلِكَ اثْنَا عَشَرَ رُكْناً»[1].

وسئل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ما تفسير سبحان الله؟ قال: «يَا أَبَا الْحَسَنِ مَا تَفْسِيرُ سُبْحَانَ اللهِ قَالَ هُوَ تَعْظِيمُ جَلَالِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ وتَنْزِيهُهُ عَمَّا قَالَ فِيهِ كُلُّ مُشْرِكٍ فَإِذَا قَالَهُ الْعَبْدُ صَلَّى عَلَيْهِ كُلُّ مَلَكٍ»[2]

[١٨١] وكما للمؤمن علاقة بالله شعارها التسبيح، ومحتواها العبودية والطاعة، فإن له برسله علاقة أيضا ولكن شعارها السلام، وواقعها الحب والاقتداء ضمن المسيرة الواحدة. ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ ووجود علاقة السلام بينك وبين المرسلين دليل على المسيرة الواحدة، والتوافق في الحياة، وقبل أن يسلم الإنسان على الرسل يجب أن ينظف قلبه ليرتفع إيمانه إلى هذا المقام العظيم، والذي لا يطهر نفسه وعقله وسلوكه، وبالتالي يسير على خطى الأنبياء، فإنهم بريئون منه، لأنه حينئذ يحارب فكرهم بفكره المنحرف، وقيادتهم بطاعته للطاغوت، وخطهم بالانتماء إلى الخطوط المضادة لرسالات الله.

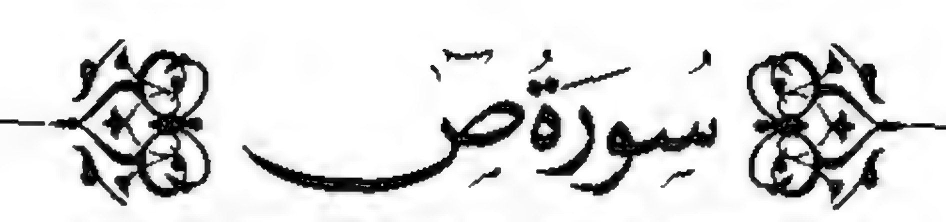
(١) الكافي: ج١ ص١١٢.
(٢) مستدرك الوسائل: ج٥ ص٣٢٢.

[١٨٢] وإذا كانت انطلاقة الإنسان بالتسبيح الحقيقي لله، ومسيرته وحركته مستوحاة من رسالات الأنبياء، والتأسي بهم، فإن العاقبة ستكون حسنة، تدفع الإنسان نحو الشكر والحمد على ما سيلقاه من هدى وبركة وجنان نتيجة ذلك، ذلك أن نهاية المسيرة في سبيل الله هي الطمأنينة والرضى، وقد أشار لها تعالى إذ قال: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾[الضحى: ٥]. وقال أيضا: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ (ولا تطمئن النفس إلا بذكر الله) ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾[الفجر:٢٧-٢٨]. وعموما فإن المؤمن بطبيعته الرسالية يكون راضيا بقدر الله وقضائه، إيمانا منه بأن ما يختاره له الله بحكمته أصلح مما يتطلع إليه، فهو يحمده في الشدة والرخاء.

﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وفي هذه الآية إشارة إلى أساس علاقة الإنسان بالآخرين من البشر، فهي لا تشبه علاقته مع الله ولا مع الأنبياء، ولكنها علاقة الإحساس الواحد بالعبودية لله.

وقد وردت الروايات مؤكدة على استحباب قراءة هذه الآيات الثلاث في نهاية كل مجلس يجلسه العبد أو يتحدث فيه. عن الأصبغ بن نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «**مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكْتَالَ بِالمِكْيَالِ الأَوْفَى فَلْيَقُلْ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقُومَ مِنْ مَجْلِسِهِ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ العِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى المُرْسَلِينَ والحَمْدُ لله رَبِّ العَالَمِينَ**»[1].

(١) الكافي: ج٢ ص٤٩٦.



سورة ص

* مكية.

* عدد آياتها: ٨٨.

* ترتيبها النزولي: ٣٨.

* ترتيبها في المصحف: ٣٨.

* نزلت بعد سورة القمر.

فضل السورة

عن أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ ص فِي لَيْلَةِ الجُمُعَةِ أُعْطِيَ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ مَا لَمْ يُعْطَ أحَداً مِنَ النَّاسِ إِلَّا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ أَوْ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وأَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ وكُلَّ مَنْ أَحَبَّ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ حَتَّى خَادِمَهُ الَّذِي يَخْدُمُهُ وإِنْ كَانَ لَمْ يَكُنْ فِي حَدِّ عِيَالِهِ ولَا فِي حَدِّ مَنْ يَشْفَعُ لَهُ».

(وسائل الشيعة: ج٧ ص٤١٢)

الإطار العام

الشرك أساس الضلالات

الشرك بالله إطار لكل الضلالات والجرائم، ولجميع الذنوب والأخطاء، وتكاد سور القرآن جميعاً تعالج هذا الداء الذي هو جذر كل داء، إلا أن عوامل الشرك عديدة، والمعالجات القرآنية مختلفة بحسبها.

فمن أهم العوامل التي تدعو الناس إلى الكفر بالرسالة، ومحاربتها، وبالتالي الانحراف عن الخط المستقيم، هو تقديس الواقع القائم، أو ما يسمى بالتقليد، حيث يعتقد المجتمع بأن (ما لم يكن لا ينبغي له أن يكون)!.

فالواقع شيء قائم، بينما الرسالة فكرة جديدة.

ثم إن أصحاب المصالح -على اختلاف مشاربهم- يدافعون عن الواقع القائم ويهاجمون الرسالة، خشيةً على مصالحهم.

وربما يكون الدفاع عن الواقع إصرار أعمى وعناداً جاهلاً..

وإننا نستلهم من خلال التدبر في آيات هذه السورة الكريمة (سورة ص) على أنها من جملة القرآن الذي يشتمل على الذكر والتذكير، ويعالج الحالة الشركية التي تخلقها السلطة، والثروة، والشهرة في نفس الإنسان، فإذا به تأخذه العزة بالإثم، وينطلق في سبيل الشقاق عن الحق، وعبادة آلهة القوة والغنا، رغم عظمة القرآن وقدرته الهائلة على التغيير والتأثير على الإنسان.

في افتتاحية هذه السورة نقرأ: إن الذين كفروا في عزة وشقاق، وسرعان ما ينذرهم الرب بمصير الذين أهلكهم من قبل، ويذكرنا بمحور ضلالتهم، حيث أنهم تعجبوا من حذف

الآلهة، والأمر بعبادة إله واحد، كما أنهم استهانوا بالرسول انطلاقاً من مقاييسهم المادية.

ويعالج القرآن هذه الحالة ببيان حقارة ما يملكون (من قوة ومن غنىً)، إذا قيس بملك السماوات والأرض،وبخزائن رحمة الرب العزيز (الآيات: ١-١١).

أما خاتمة السورة؛ فتذكرنا بقصة إبليس الذي رفض السجود لأبينا آدم عليه السلام اعتزازاً بعنصره الناري، وكيف أن هذه العزة الآثمة كانت وراء هلاكه وهلاك تابعيه إلى يوم القيامة، حيث يحشرون في نار جهنم حشراً (الآيات: ٧١-٨٨).

و بين تلك الفاتحة وهذه الخاتمة يسرد السياق نمطين من القصص:

الأول: قصص المكذبين الهالكين يشير إليها بمجرد إشارة (الآيات: ١٢-١٦)، بينما يفصل القول في النمط الثاني الذي وهب الله لهم الرب ملكاً واسعاً، وثروة عريضة، ولكنهم لم يغتروا ولم يشاقوا الله بها كداود وسليمان عليهما السلام، ثم إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم السلام، ويبين أنهم فازوا بنعيم الدنيا وحسن ثواب الآخرة، بالإضافة إلى الذكر الحسن عبر التاريخ (الآيات: ١٧-٥٤). وفي مقابل هؤلاء يذكرنا السياق بمصير المكذبين الذين أقحموا في نار جهنم ليتخاصموا مع بعضهم، وبالذات يتخاصم التابعون مع المتبوعين (الآيات: ٥٥-٧٠).

و من خلال قصص الأنبياء وتقديرهم، وبيان الحكومات العادلة التي أقاموها في الأرض، وبالذات قوله الله عز وجل لداود عليه السلام: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

ومن خلال بيان هلاك إبليس بسبب رفضه السجود لآدم عليه السلام، وبيان هلاك المستضعفين بسبب تسليمهم للمستكبرين،نستطيع -من خلال كل ذلك- أن نعرف أن مراد السورة بيان زيف السلطات القائمة على أساس القوة والثروة، وسائر القيم المادية الأخرى، وضرورة إقامة حكومة العدل الإلهية القائمة على أساس أمر الله وخلافته، وأن أساس الولايات الباطلة العزة والشقاق، بينما أساس الولاية الربانية الحق.

إن فتنة القوة في الحياة؛ فتنة كبيرة وخطيرة، ومن تخلص من غرورها، فإنه يتغلب على سائر الفتن بصورة أسهل.. ذلك أن الإنسان يقتحم الصعاب ويركب الأهوال والمخاطر من أجل السلطة، فإذا تنازل عنها أو بلغها ولم يسخرها إلا في سبيل الخير، فإنه آنذاك سينتصر على أهوائه وعلى الضغوط المحيطة به.

وفي الوقت الذي حدثتنا هذه السورة عمن صرعتهم هذه الفتنة فراحوا يعتزون بقوتهم ويتحدون ربهم ويعتزون بآلهتهم التي تمثل رموز ومظلات سلطتهم، ويخالفون ولاية الله

باسمها، وهم الملأ من الكفار، يضرب لنا هذا الدرس القرآني مثلاً حياً من واقع النبي داود عليه السلام الذي تجاوز هذه الفتنة رغم امتلاكه القوة الظاهرية.

ونستوحي من إعطاء الله السلطة وولاية الأمر لداود عليه السلام بعد استقامته على الحق، أنه تعالى لا يعطي ولايته إلى كل سلطان، إنما للذين يمتلكون ناصية الملك ولا تمتلكهم.

وتعالج آيات أخرى من السورة موضوع الصبر الذي اشتهر به النبي أيوب عليه السلام ولكن في إطار الحديث عن العلاقة السليمة بالسلطة والثروة والعافية، هذه النعم التي ينبغي أن لا تستعبد البشر، فلا يستبد به الغرور إذا رزق منها شيئاً،ولا يقتله اليأس إذا زويت عنه.

ثم تضرب لنا الآيات التي تليها مثلاً من واقع أصحاب النار الذين عصوا الله وحاربوا المؤمنين وطغوا في الأرض.

وفي الآيات الأخيرة من السورة -وكعادة القرآن الكريم- يؤكد السياق على الموضوع الأساسي فيها،وذلك ضمن بيان ما جرى بين رب العالمين والملائكة، ثم بينه وبين إبليس. ومغزاه الكشف عن طبيعة الإنسان والأسباب الحقيقية التي تهبط به وترديه، فإذا به وقد كرّمه الله تعالى على كثير من الخلق ينتهي إلى أسوءِ مصير.

بل الذين كفروا في عزة وشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ[١] ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ[٢] ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ[٣] ﴿٧﴾ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى ۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُوا۟ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ[٤] ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾﴾

---

(١) شقاق: مخالفة، مشتق من شق كأنه في شق وطرف والخصم في شق وطرف آخر.

(٢) ولات حين مناص: أصل لات لا، وإنما زيدت عليه التاء، بمعنى ليس، ومناص من النوص وهو التأخر، يقال ناص ينوص إذا تأخر، والمعنى ليس وقت ندائهم واستغاثتهم وقت التأخر العذاب والنجاة منه.

(٣) اختلاف: الكذب والافتراء الذي لا أساس له، فهو يخلقه ويصنعه بغير دليل.

(٤) أصحاب الأيكة: وهم قوم شعيب، وقد كانت إلى جنبهم أيكة، وهي الشجر المزدحم إلى بعضه والملتف على بعضه.

هدى من الآيات:

من أهم العوامل التي تدعو الناس إلى الكفر بالرسالة ومحاربتها، وبالتالي الانحراف عن الخط المستقيم، هو تقديس الواقع القائم أو ما يسمى بالتقليد، حيث يعتقد المجتمع بأن ما لم يكن لا ينبغي أن يكون، فالواقع يجب أن يبقى. ويقوّي هذا العامل أمران:

الأول: أنه واقع قائم بينما الرسالة فكرة جديدة لما تتحول إلى واقع.

الثاني: أن بعضا من أفراد المجتمع وخاصة الملأ والمترفون، يدافعون عن الواقع القائم ويحاربون الرسالة، لأنهم يخشون على مصالحهم من أي تبدل أو تحول.

وقد يكون عامل البقاء على الحالة الراهنة، نابعا من اعتزاز الإنسان المبالغ بواقعه والمتمثل في الإصرار والعناد الأعمى على المحافظة عليه، وهو ما يعبر عنه السياق القرآني مرة بكلمة عِزَّة، ومرة أخرى بما قاله الكفار لبعضهم إذ تآمروا على العناد والصبر على الباطل.

ولعلاج هذه الحالة ينبغي بيان الضعف للإنسان، وأن الذي يملكه الآن لا يعد شيئا إذا قورن بما يغنمه لو تقبل الرسالة وأصلح أوضاعه، وبالتالي دعوته إلى التغير نحو حياة أفضل. وهذا من أهم أساليب الأنبياء في التغيير، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام مشيراً إلى أساليبه في الدعوة: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٢]. وفي موقع آخر من القرآن نجد تجليا صريحا لهذا الأمر أيضا. يقول تعالى مشجعا الناس على الإيمان برسالته: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

بينات من الآيات:

[١] ﴿ص﴾ حرف يفيد الابتداء به التنبيه، وهو يشير إلى القرآن الكريم، ومن أبعاده أنه رمز بين الله وأوليائه فهم يختصون بفهمه، وعن الصادق عليه السلام: «إِنَّهُ مِنْ أَسْمَاءِ الله تَعَالَى»[١]. ثم يقسم ربنا بالقرآن العظيم، مشيرا إلى أهم ما تشتمل عليه آياته الكريمة وهو الذكر. ﴿وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ﴾ وقد سمى الله كتابه فيه بالذكر عشرات المرات، وهنا يسميه ﴿ذِي الذِّكْرِ﴾ فما هو معنى الذكر؟.

---

(١) رواه ابن عباس، نور الثقلين: ج ٤، ص ٤٤٢.

لقد خلق الله الإنسان مستقيما بفطرته، التي أودعها الإيمان بكلياته الكبرى، بالله واليوم الآخر، وبضرورة الصدق والوفاء والأمانة وسائر القيم الإنسانية النبيلة التي هي محط توافق البشرية و.. ولكن عوامل مختلفة من بينها ضغط الشهوات والمجتمع تدعوه إلى الانحراف. ويأتي القرآن ليذكره بها ينساه أو يغفل عنه بسبب تلك العوامل ليعود إلى رشده المتمثل في (الطريق المستقيم) الذي هو الحالة الطبيعية للإنسان، على خلاف الانحراف الذي يجسِّد الشذوذ في الحياة. فالقرآن يستثير العقل من خلال التفكير، وفسر البعض الآية بالذكر الطيب والسمعة الحسنة. و يبدو أن التفسير الأول أقرب.

[٢] ومع عظمة القرآن وقدرته الهائلة في التغيير والتأثير على الإنسان، لكن الكفار لا يتأثرون به، لأن التذكرة وحدها لا تنفع إذا كان جهاز استقبالها وهو العقل قد احتجب بالأهواء والغباء الذي هو من أهم الحجب التي تمنع البشر من الانتفاع بالتذكرة، وتدعوه إلى الإصرار على الانحراف. ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴾ أما أنت أيها الرسول فعلى الحق، من هنا قال بعض المفسرين أن المقسم به محذوف تقديره ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ (إنك تحمل للناس ذكرا)، ويدل على هذا الحذف التصريح به في مثيله من سورة يس إذ قال ربنا:﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [يس: ١-٢]. وإنما صار الحذف هنا لدلالة الآية الثانية على المحذوف المقسم به.

وهذه الآية تبين العامل في رفض الكافرين للتذكرة ألا وهو العزَّة والشِّقاق، والعزَّة هو تصور الإنسان نفسه أنه وصل من القوة والمنعة ما لا يحتاج معه إلى الحق، أو إلى ربه، فيبقى يصر على انحرافه بل ويعتز بالخطأ. يقول ربنا في آية كريمة: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [البقرة: ٢٠٦]. ورفض هؤلاء للحق ليس نابعا من قوة المنطق لأنهم يرفضونه بدون أي مبرر معقول، ولكنه نابع من منطق القوة التي يخضع لها أكثر الناس وإنما لم يستجب كفار قريش للرسول اعتزازا بقوتهم. بلى، إن من أعقد مشاكل الإنسان أنه لا يعترف بخطئه حين يتبين له الحق غرورا وخشية بأن يجلب له ذلك المهانة فتراه يعتز بباطله الذي كان عليه. أما الشقاق فهو الشذوذ فمع أن الكون كله قائم على الخضوع لله وحتى جسد الإنسان يخضع لآلاف القوانين التي تخضع هي بدورها لمشيئة الرَّب. ترى الكفار ومن يلتقي معهم من المذنبين والعصاة يشقون عصا الطاعة ولا ينسجمون مع الحق الذي تقوم عليه الحياة.

[٣] والإنسان المؤمن يجب أن لا يضعف ولا يشكك في خطه حينما يرى الأغلبية منشقة عنه، لأن المقياس هو الحق وليس الناس. ولو أنه درس الحياة لاطمأن إلى نهجه، لأنه حينئذ

سيجد الكون بما فيه من خلق وسنن يسيران معه. وكذلك لو قرأ التأريخ لاهتدى إلى نفس الحقيقة، وحتى المجاميع التي يعاصرها سوف تخضع لله شاءت أم أبت، وإذا لم تختر ذلك عن وعي وإرادة حرة، فسوف تجبر عليه بإرادة الله وبسننه التي أجراها على الخلق أجمعين.

ولكي نؤمن بهذه الحقيقة يدعونا ربنا إلى النظر في التأريخ، فهو مليء بالشواهد الدامغة عليها، فأولئك الذين رفضوا رسالات الله، ولم يخضعوا لها ولرسله أهلكهم ولم تغن عنهم قوتهم شيئا.

﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ القرن الناس الذين يعيشون مقارنين مع بعضهم زمانا ومكانا، وكم أداة استفهام تدل هنا على الكثرة. والله إذ أدخل هذه الأداة في التعبير أراد أن يهدينا إلى أن هذه السنة لم تتجل مرة واحدة وحسب فالتأريخ كله شواهد عليها وكانت هذه السنة الإلهية جديرة بأن تتعظ بها الأمم إلا إنها تكتشف خطأها متأخرا حين لا تنفع التوبة.

﴿فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ قالوا: لات كان في الأصل لا (لنفي الجنس أو المشبهة بليس) ثم أضيفت إليها التاء لتأكيد النفي كما تضاف إلى ثَمَّ ورُبَّ للغاية ذاتها. والمناص المنجى والغوث يقال ناصه ينوصه إذا أغاثه.

هكذا يصور القرآن وضعهم حين ينادون بالاستغاثة والتوبة والتألم حال نزول العذاب، ولقد أطلق القرآن لكي يذهب بنا الخيال إلى كل تلك المفردات لندائهم الميؤوس، ولكن ذهب وقت الغوث. أو ليست الفرصة فاتتهم إلى الأبد؟! وتلك عاقبة الاعتماد على القوة، والاعتزاز بغير الحق، فهذه الأمم اعتمدت على منطق القوة في الحياة، ورفضت الخضوع إلى المنطق والحق، وغفلت أن للحق قوة لا تُحدُّ هي قوة الله عز وجل، وقد أبى الله تشريعيًّا وتكوينيًّا أن ينتصر الباطل على الحق وأن تكون العاقبة إلا في صالح الرسالات وحملتها.

[٤] وللتمثيل على عزة الكافرين وشقاقهم، وصدودهم عن الذكر والموعظة، يحدثنا عن واقع المشركين وموقفهم من رسالة الإسلام ﴿وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ لأنهم كانوا يتصورون الرسول يختلف عن الناس، فكفروا به إذ لم يتفق مع مقاييسهم التي تريد الرسول قويا وذا مال كثير لا أن يكون من وسطهم الاجتماعي، وطبقتهم المالية وهذا التصور ناتج عن اعتزازهم بالقوة والمال لا بالحق، فهما عندهم القيمة الأساسية في الحياة. ولأن منطقهم أضعف من أن ينال من قيم الرسالة أشكلوا وعابوا على الرسول، ليس في أخلاقه فهو باعترافهم جميعا كان في الذروة، ولكن على وضعه المادي والاجتماعي. ولم يكن هذا التبرير كافيا لرفضهم قيادته وزعامته فقد جاءهم بالحق والآيات، ولا بد لهم من تبرير آخر ليتهربوا من المنطق الحق المتمثل

في رسالته، فصاروا من العجب إلى الكفر. ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ واختاروا كلمة ساحر لأن السحر أقرب الأشياء للحق ظاهرا، وإن كان واقعا أبعدها، وكانت هذه التسمية للهروب من ضغط المعجزة.

والواقع: أن ذات اتهام المشركين للرسالة بأنها سحر شاهد على صدقها، إذ إنه دليل على أن الرسالة كانت ذات جاذبية تشبه في قوتها جاذبية السحر عندهم، كما إنها كانت خارقة ذات آيات عجزت قواهم البشرية عن الإتيان بمثلها، مما دعاهم للافتراء عليها بأنها سحر. فإذا عرفنا مدى الفرق بين السحر والرسالة في أن الساحر لا يفلح، وأنه لا يبني حضارة، وأن كلامه لا يكون موافقا للعقل والفطرة، بينما الرسول يعكس ذلك كله، عرفنا كيف كان اتهامه بالسحر دليل صدقه.

[٥] ويهدينا القرآن مرة أخرى إلى شذوذ الكافرين (شقاقهم) وعزتهم، بالإشارة إلى اعتراضهم على دعوة النبي التوحيدية، فمع أن الوحدة حق يهتدي إليه الإنسان بفطرته وتتطلع إليه الأمم المتحضرة، ولكنهم يرفضونها اعتزازا بواقع التمزق القائم عندهم. ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ ومن الآية نستوحي بأن التوحيد ليس هداية للناس للحق وحسب، بل هو العلاج الحقيقي للفرقة، ذلك أن منشأ التفرقة في أية أمة هو الشرك الكلي أو الجزئي فهذا الفريق إنما ينشق عن البقية لأنه يؤمن بفكرة وقيادة ما، فالرايات القبلية، والعصبيات العشائرية، والحدود الجغرافية، والمصالح القومية، والاختلاف العنصري والطائفي، وما أشبه كل أولئك عوامل اختلاف الناس وشقاقهم. وإذا أمعنت النظر رأيت كل واحد منها ينتهي إلى تقديس شيء من دون الله. وإنما الآلهة رموز تلك المقدسات. أرأيت الناس حين يقدسون العلم الوطني يعبدون قطعة قماش أم حدود الوطن؟ كذلك حين كان الجاهليون يعبدون الأصنام التي كانت ترمز إلى عصبياتهم العشائرية فإنما كانوا يعبدون قيم العشيرة.

وهذا نستنتجه من التدبر في الآيات (٢-٥) ففي الوقت الذي يذكر القرآن الشقاق في مجتمع الجاهلية في الآية الثانية، يشير هنا إلى تعدد الآلهة فيه، وفي نصوص التأريخ نجد أنه كان في الكعبة وحدها (٣٦٠) صنما لكل قبيلة صنمها المختص بها، ولكي يجمع النبي الناس ويوحدهم طرح رسالته التوحيدية كبديل عن الأفكار الشركية، وكسر الأصنام لأنها كانت رمزا للتفرقة (الشقاق) والعزة (بالإثم-الكبر).

ولعل أحدنا يستنكر على الكفار والمشركين رفضهم لتلك الرسالة التوحيدية، ولكننا نجد اليوم وبعد (١٤) قرنا، أناسا يسخرون ممن ينادي بكسر الحدود المصطنعة التي أوجدها الأعداء بيننا، وهي لا تعدو أن تكون بدائل عن الأصنام التي علّقها الجاهليون على الكعبة.

وليس رفض هكذا دعوة يأتي بسبب أن الرافضين لا يجدونها حقة، وإنما لاعتزازهم بالواقع الفاسد، حيث تقوم دولة على كل قطعة أرض ويرتفع علم ويتسلط حاكم مغرور.

[٦] ولا شك أن أول من يسعى للإبقاء على الواقع القديم برموزه الصنمية هم أصحاب الوجاهة الاجتماعية، والصدارة السياسية، والثروات المسروقة لأنهم إنما يستعبدون الناس، ويمتصون جهود المجتمع من خلال هذا الواقع الفاسد، فأية محاولة للتغيير تعني تقويض مصالحهم وهكذا تراهم يهبون للدفاع عنه، ومحاربة الفكر الجديد، بشتى الأساليب ومن أبرزها إثارة العزة بذلك الواقع. ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾ وهم المستكبرون في المجتمع، والذين يقودون المعارضة ولا زالوا ضد الأنبياء والحركات التغييرية، وهمهم الأكبر الإبقاء على التخلف فإذا بهم يدفعون عجلته بهذا الاتجاه. ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ﴾ ويوحون للناس بأن مسيرتهم تقدمية وصحيحة بالتضليل والتجهيل. ولكن لأن فطرة الإنسان تخالف الباطل، ولأن الباطل تقف ضده كل عناصر الوجود وسننه فإن قبوله صعب نفسيا وعمليا على البشر، لهذا أكد الملأ على ضرورة الصبر. ﴿وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾ كما أن من أساليب الطغاة في جر الناس إلى معارضة المصلحين، أنهم يحاولون إقناعهم بأنهم يستهدفون مصالحهم ومقدساتهم، فإذا نهضت طلائع المجتمع للثورة، وقامت ببعض الأعمال الجهادية قالوا للناس: «بأن هذه الأعمال لا تستهدف السلطة وحدها إنما تستهدف أمن المواطن واستقراره أيضا، وبالتالي فمسؤولية القضاء على المخربين (في زعمهم) هي مسؤولية الجميع» ويؤكدون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾ وهناك تفسيرات عديدة لهذه الكلمة نذكرها تباعا:

ألف: وهو الذي يبدو أقربها أن الملأ أرادوا من هذه الكلمة أن الاستمرار على عبادة الآلهة شيء مطلوب وحميد، اعتزازا بالباطل والإثم ذلك أن من سلبيات النفس البشرية أنه يصعب عليها فردا وأمة التراجع عن الخطأ حتى لو تبيَّن له.

بـاء: أن الملأ أرادوا بهذه الكلمة تشويه شخصية الرسول ﷺ، فكأنهم قالوا بأن هدفه من الرسالة والإنذار هو المنافع الشخصية التي يريدها لنفسه. وهذه من الطغاة، أنهم يتهمون المصلحين بذلك.

جيم: أن هذا المقطع من الآية هو كلام الله سبحانه وهو رد على قول الكافرين تعليقاً على دعوة التوحيد ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾.

[٧] ويوصل السياق بيانه لأساليب الملأ في التضليل عن الحق. ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ إن الشرعية والقدسية في نظرهم تكون للدعوة التي تنتمي إلى الواقع وتتجانس معه،

لا التي تنطوي على الحق والعلم، وما دامت الأجيال الغابرة تنفي صحة هذا الفكر فهو خطأ إذن. وهذا ضرب من الرجعية لأن مجتمعا يعتمد هذه المقاييس لن يبدع ولن يتقدم خطوة إلى الأمام. ثم حكموا على الرسالة الإلهية بالباطل فقالوا: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ أي جديدة الحدوث متقطعة الجذور عن التأريخ، ودعوتهم هذه لتفنيد الدين خطأ من زاويتين:

الأولى: أنهم اعتمدوا في تقييمهم للرسالة على النظرة الشيئية لا المنطقية، فمن البديهي أن تكون النتيجة ضلالتهم!.

الثانية: أنهم لم يبحثوا عن شرعية الرسالة وجذورها من خلال نظرة شاملة لتأريخ البشرية، ولو فعلوا ذلك لم يَعُدُّوها اختلاقا، لأنها تلتقي مع (١٢٤٠٠٠) دعوة في التاريخ جاء بها الأنبياء والمرسلون منذ قبل، ولكنهم قيموها من واقع جيل واحد فقط.

وجاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام في نزول الآية قال: «**أَقْبَلَ أَبو جَهْلِ بْنُ هِشَام ومَعَهُ قَوْمٌ مِنْ قُرَيْشٍ فَدَخَلُوا عَلَى أَبِي طَالِب فَقَالُوا إِنَّ ابْنَ أَخِيكَ قَدْ آذَانَا وآذَى آلِهَتَنَا فَادْعُهُ ومُرْهُ فَلْيَكُفَّ عَنْ آلِهَتِنَا ونَكُفُّ عَنْ إِلَهِهِ قَالَ فَبَعَثَ أَبوطَالِب إِلَى رَسُولِ الله صلى الله عليه وآله فَدَعَاهُ فَلَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وآله لَمْ يَرَ فِي البَيْتِ إِلَّا مُشْرِكاً فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى ثُمَّ جَلَسَ فَخَبَّرَهُ أَبو طَالِب بِمَا جَاءُوا لَهُ فَقَالَ: أَوهَلْ لَهُمْ فِي كَلِمَةٍ خَيْرٍ لَهُمْ مِنْ هَذَا يَسُودُونَ بِهَا العَرَبَ ويَطَئُونَ أَعْنَاقَهُمْ فَقَالَ أَبو جَهْلٍ نَعَمْ ومَا هَذِهِ الكَلِمَةُ فَقَالَ تَقُولُونَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ قَالَ فَوَضَعُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وخَرَجُوا هُرَّاباً وهُمْ يَقُولُونَ ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِمْ: ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ﴾**»[1].

[٨] ثم صرحوا بما تنطوي عليه نفوسهم تجاه الحق، وقالوا لو أنزلت الرسالة علينا لآمنا بها فنحن أولى بالنبوة منه لأن عندنا المال والرجال والوجاهة، ونحن أصلح لقيادة المجتمع منه، وليس من المعقول أن ينزل الذكر على هذا الفقير اليتيم والضعيف، وأن نسلم لقيادته!. وغاب عن أذهانهم أن الصفات المطلوبة في الرسول القائد ليست التي يتصورونها، إنما القيادة لذي العلم والتقوى والأخلاق، ثم إن الله هو الذي يُعيّن الرسول لا عامة الناس ولا خاصتهم من الملأ ﴿أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وينسف الله كل أعذارهم للكفر بالحق مبيّنا الأسباب المركزية الداعية إليه و هي:

الأول: أنهم لم يستفيدوا من ذكر الله، سواء الذي يتجلى في كتابه، أو في تاريخ القرون الماضية، أو على لسان الآخرين. ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّن ذِكْرِى﴾ والذي يشك في هيمنة الله تعالى

---

(١) الكافي: ج٢ ص٦٤٩.

ينعكس شكه على جزئيات الإيمان وكلياته.

الثاني: عدم خوفهم من العذاب، لأنهم لم يتذوقوه، ولم يستفيدوا من تجربة الذين وقعوا فيه قبلهم. ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ ويستفاد من ﴿لَّمَّا﴾ أن عذابهم مرتقب.

[٩-١٠-١١] **الثالث:** غرور المال والقوة اللذان أحاطا بهم، فصاروا ينظرون إلى جميع الأمور من خلالها، فإذا بهم لا يرون حاجة للرسالة في أنفسهم. ويحطم ربنا كبرياءهم هذا عن طريق مقارنة ما بحوزتهم بما عند الله من الملك والقوة. ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ﴾ كلا.. ومن خزائن الله الرسالة التي ينزلها على من يشاء من عباده المخلصين. ثم إن الذي عندهم مهدد بأن يسلبه الله بعزته، بل هو هبة من الله لهم وليس ملكا ذاتيا. ثم لندع مقايسة ما يملكه هؤلاء بما عند الله، ولننظر ماذا يملكون من ظاهر الحياة الذي هو جزء ضئيل من ملكه تعالى: ﴿أَمْ لَهُم مُّلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ وربنا يذكر هؤلاء بحقارة ما يملكون وعظمة ما يملكه الله، لأنهم -كما تقدمت الإشارة- يعتمدون على منطق القوة، فأراد الله أن يوضح لهم بأنه الغالب في قوة المنطق وفي منطق القوة أيضا.

إن هذا الإنسان الذي يتهالكه الغرور فيتحدى ربَّه أَضعف ما يكون عن تحمل أدنى تحد فالسلطان المتكبر يقتله الله بجرثوم تعجز أحدث الأجهزة عن اكتشافه، وقد يسلب منه كل ما يملك بين عشية وضحاها. ومما يذكر في التاريخ أن الناس ثاروا على خليفة من الخلفاء العباسيين ففقؤوا عينه، وجردوه من ملابسه و صادروا كل ما تملكه من أموال المسلمين، حتى وقف يتسول على باب المسجد من الناس.

وربنا من فوق عرشه يتحدى المتكبرين؛ يقول: اجمعوا قواكم المادية والبشرية والعلمية، وابحثوا عن كل سبب من أسباب القدرة، فإن مصيركم لن يكون إلا كمصير الأقوام السابقة، حيث كذبت الرسل و تحدت الحق فدمرها الله. ﴿فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ﴾ فمهما اعتمدوا على أسباب القوة (العدد والعدة والخبرة) فإن المؤسسات العسكرية تنهار بفعل الإرادة الإلهية المباشرة أو المتجلية على أيدي المؤمنين. وجند مبتدأ، و﴿مَّا﴾ أداة للتقليل أراد بها الله تحقير قوتهم، وهنالك إشارة للمكان البعيد الذي قد يستخدم للتحقير أيضا، فيكون المعنى كقولنا أن هنالك جندا ما مهزومون من الأحزاب، وفي الروايات كان المقصود في التأويل من الآية هم المشركون في مكة وقد تحزَّبوا لحرب الإسلام، فبشر الله نبيه بهزيمتهم وغلبته عليهم.

[١٢] ومن أجل أن يستقيم الرسول في طريق الدعوة للحق، ويقاوم تحديات الكافرين،

يُذكّره بمعاناة الأنبياء مع الأقوام السابقة، وأن هؤلاء سوف يهزمون كما حدث لأولئك. ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ فتكذيبهم ليس جديدا، ثم يذكر بمجرد الإشارة، مجموعة من الأقوام: ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ و إنما سُمِّي فرعون بذي الأوتاد لأنه كان إذا غضب على أحد وتد رجليه ويديه ورأسه على الأرض أو في خشبتين متقاطعتين على شكل الصليب، أو في جذوع النخل، وقيل أن سبب التسمية كثرة جنوده وجيوشه السائرة فكانوا إذا نصبوا الخيام في معسكراتهم، وأثناء استراحتهم في الطريق صارت كثيرة جدا وهكذا أوتادها[1].

[١٣] كل تلك الأقوام كذبوا رسلهم، وأيضا: ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ وهم قوم شعيب عليه السلام. ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ فأين ذهب أولئك سوف يذهب هؤلاء أيضا.

[١٤] فهم أحزاب يختلفون مع بعضهم في طبيعة الحياة، والمكان والقوة والضعف ولكنهم يجمعهم أمران هما: التكذيب بالحق والرسل، والعقاب الإلهي الذي لحق بهم بسببه. ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ وقد تكون هذه الآيات تمثيلاً للحقيقة التي طرحتها الآية (٣) عن هلاك القرون السابقة.

[١٥] والدمار الذي لحق بتلك الأقوام لم يكن أمرا طارئا، إنما ينسجم مع الحق الحاكم في الحياة، والمتمثل في إرادة الله والسنن التي وضعها في الكون. والحق هو الحق، والحياة هي هي بأساسياتها، فلن يشذ عن هذه النتيجة كل من يمشي في ركاب المكذبين وخطهم في أي زمان ومكان. ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ﴾ سواء كفار قريش أو سائر طواغيت التاريخ الذين يتحكمون في مصائر الشعوب، ويحاربون الله والإسلام ما ينتظر هؤلاء جميعا؛ ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ وليس بالضرورة أن تكون الصيحة من جبرائيل أو أحد الملائكة الغلاظ عليهم السلام، بل قد تكون الصيحة رصاصة يطلقها المجاهدون على المستكبرين، وقد تكون ثورة شعبية جذرية تأكل الأخضر واليابس من كيانهم. وفواق بمعنى الرجوع، ومنه فواق الناقة إذا رجع لبنها إلى الضرع بين الحلبتين، وإفاقة المريض من المرض إذا رجع إلى صحته، وهؤلاء حينما ينزل بهم العذاب لا تقبل رجعتهم للحق. وهذه الكلمة نجد تفسيرها في قوله تعالى في الآية الثالثة ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣].

إذن فاعتماد الإنسان على قوة المال والجند واعتزازه بهما في مقابل الحق أمر خطير يجرُّه إلى الهلاك، بشذوذه عن الحق في الحياة.

---

(١) مجمع البيان: ج ٧ ص ٦٠٢.

يا داود: إنا جعلناك خليفة

﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧) إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (٢٠) ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ (٢٥) يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)﴾

هدى من الآيات:

إن فتنة القوة في الحياة فتنة كبيرة وخطيرة، ومن تخلص من غرورها فإنه يتغلب على سائر الفتن بصورة أسهل، ذلك أن الإنسان يقتحم الصعاب ويركب الأهوال والمخاطر من أجل السلطة، فإذا تنازل عنها أو بلغها ولم يسخِّرها إلا في سبيل الخير، فإنه آنذاك ينتصر على

أهوائه، وعلى الضغوط التي تحيط به.

وفي الوقت الذي حدثتنا هذه السورة عمن صرعتهم هذه الفتنة، فراحوا يعتزون بقوتهم ويتحدون ربهم و يعتزون بآلهتهم التي تمثل رموز سلطتهم، ويخالفون ولاية الله باسمها وهم الملأ من الكفار، يضرب لنا هذا الدرس القرآني مثلا حيا من واقع داود عليه السلام الذي تجاوز هذه الفتنة. فبالرغم من أنه امتلك القوة الظاهرية في الأرض، كما سخرت له الطيور والجبال والحديد، إلا إنه لم يغتر بقوته بل صار يتقرب إلى الله اللحظة بعد اللحظة من خلال تسبيحه المستمر وآنئذ جعله الله خليفة في الأرض تشريعيا وواقعيا.

ونستوحي من إعطاء الله السلطة وولاية الأمر لنبيه داود عليه السلام بعد استقامته على الحق، أنه تعالى لا يعطي ولايته إلى كل سلطان، إنما للذين يمتلكون ناصية الملك ولا تمتلكهم.

بينات من الآيات:

[١٦] عادة ما يستعجل الكفار عذاب الله، ويتحدون الأنبياء قائلين: إذا كانت دعوتكم صادقة فاسألوا ربكم أن يصب علينا العذاب. والسياق القرآني في هذه السورة يترك إجابة تحدّي الكافرين، ويوجهنا إلى دراسة التاريخ، لأنه تعالى أجرى الحياة وفق سنن حددها واختارها بعلمه وحكمته، ولن يغيرً الله سننه كلما تحداها الجاهلون فهو يدير شؤون الخليقة حسب الحكمة لا حسب ردود الفعل تعالى ربنا عن ذلك علوا كبيرا. بلى قد يغيرّ الله سُنَّة ما في ظروف خاصة لأن ربنا لا يعجزه شيء وأمره فوق السنن والقوانين، ولكنه مع ذلك يتصرف بعلم وحكمة. ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ والقِط الحظ والنصيب فهؤلاء يسألون الله أن يوافيهم بما يستحقون من العذاب لكي يكتشفوا أنهم فعلا على الباطل. ولكن الله لا يستجيب لهذه الدعوة دائما وذلك لأمور:

الأول: أنه عز وجل رحيم بعباده، فلو قادهم الجهل يوما إلى الكفر والتحدي لا يأخذهم بالعذاب، وذلك أن الإنسان قد يجهل حينا ثم يكتشف خطأه ويعود إلى ربه.

الثاني: لأن ذلك يخالف حكمة الحياة، فالله خلقها للامتحان وذلك يقتضي أن لا يكون العذاب مباشرة بعد الذنب، ولو فعل الله ذلك لما عصاه أحد، ولكن الطاعة التي يريدها الله هي التي تكون بدافع المعرفة به، و الخوف من مستقبل المعصية، والتطلع إلى نتائج الطاعة. يقول تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وقال: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [النحل: ٦١].

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لَمَّا رَأَى إِبْرَاهِيمُ عليه السلام مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ التَفَتَ فَرَأَى رَجُلًا يَزْنِي فَدَعَا عَلَيْهِ فَمَاتَ ثُمَّ رَأَى آخَرَ فَدَعَا عَلَيْهِ فَمَاتَ حَتَّى رَأَى ثَلَاثَةً فَدَعَا عَلَيْهِمْ فَمَاتُوا فَأَوْحَى اللهُ عَزَّ ذِكْرُهُ إِلَيْهِ يَا إِبْرَاهِيمُ إِنَّ دَعْوَتَكَ مُجَابَةٌ فَلَا تَدْعُ عَلَى عِبَادِي فَإِنِّي لَوْ شِئْتُ لَمْ أَخْلُقْهُمْ إِنِّي خَلَقْتُ خَلْقِي عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ عَبْداً يَعْبُدُنِي لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئاً فَأُثِيبُهُ وَعَبْداً يَعْبُدُ غَيْرِي فَلَنْ يَفُوتَنِي وَعَبْداً عَبَدَ غَيْرِي فَأُخْرِجُ مِنْ صُلْبِهِ مَنْ يَعْبُدُنِي»[1].

الثالث: لكي تتم الحجة على الناس، فهم مع الفرصة التي يمنحها الرَّب لهم في الدنيا يسألونه الرجعة بعد الموت ليستأنفوا العمل قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

وقال بعض المفسرين: إن معنى قِط النصيب وإنهم أرادوا نصيبهم من الجنة (لا من العذاب) استهزاء وسخرية وإنهم كذبوا بذلك بثالث الأصول الدينية (المعاد) بعد أن كذبوا بأولها (التوحيد) عندما قالوا: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ [ص: ٥]. وكذبوا بالثاني (النبوة) عندما قالوا: ﴿ أَءُنزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنۢ بَيْنِنَا ﴾ [ص: ٨].

وسواء هذا أو ذاك، فإن الله لم يستجب لأهوائهم، بل ضرب مثلا من واقع داود عليه السلام الذي عجل الله له جزاءه في الدنيا (وقطه) دون أن ينقص من أجره في الآخرة شيء.

[١٧] وهكذا ينبغي للرساليين أن لا يهتموا بكلام من هذا النوع، وإن كان ذلك صعبا بالذات إذا كان يمس بمقدساتهم، لهذا يوصي الله نبيه بالصبر. ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ثم يوجهنا السياق إلى مَثَلٍ من التاريخ، وبالتحديد من حياة داود عليه السلام يناقض غرور هؤلاء الكافرين بالسلطة والذي جرَّهم لتحدي الله عزَّ وجلَّ. ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ وحين يذكر النبي إخوته السابقين من الأنبياء، يستأنس بهم وبصبرهم في الضراء والسراء، و بتعاليهم على مؤثرات الحياة الدنيا وحين يذكر النبي لنا صبر الأنبياء وذكرهم وأنهم الأوابون إلى الله في كل حال حتى عندما تزدحم على أبوابهم زخارف الدنيا، فإنه يَسُنُّ أمامنا سُنَّة سالكة، وطريقا معبدا علينا الاستقامة عليه، والصبر على كل أذى فيه. دعنا إذا نذكر داود، فهو القوي ذو الأيدي، واليد: القوة، وداود يملك أسباب القوة وعواملها فهو قوي من جهة فعبر عنه القرآن بذي الأيدي، واليد كناية عن القوة والقدرة، وهو من جهة أخرى مؤمن وعلامة إيمانه التوبة

(١) الكافي: ج٨، ص٣٠٥.

ومن الصعب على البشر أن يجمع بين هاتين الصفتين، لأن صاحب القوة عادة ما تستهويه زخارف الحياة ويركض وراءها، حتى ولو خالفت الحق. وكما يحتاج المؤمن للقوة حتى ينفذ خططه في الحياة ويبلغ أهدافه وتطلعاته، فإنه يحتاج إلى الإيمان، وذلك لكي يعود تائبا إلى ربه بدافع الإيمان كلما جرَّته القوة إلى ساحل الغرور والمعصية.

[١٨-١٩] وتحدثنا الآيات عن جانب من القوة التي بلغها داود عليه السلام في حكمه، فقد أخضع له الحياة بشقيها الجامد والمتحرك، وهكذا تخضع الحياة إلى كل من يتبع الحق، لأنه بالإضافة إلى قوة الغيب التي تعينه حينذاك، يهتدي به إلى الأسباب والقوانين التي يمكنه تسخيرها، فلقد سقطت الحجب بينه وبين حقائق الخليقة، فإذا بها تستجيب له. ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ وكل شيء يسبح الله بصورة مستمرة، ولكن لا نفقه تسبيحه كما يقول تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]. وقد جعل الله الجبال تسبح عندما يسبح داود عليه السلام ولعلنا نستوحي من الآية أنه أعطي الطاقات الموجودة فيها، كالأحجار الكريمة والوقود. ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ يعني مجموعة له يستفيد منها كيفما يشاء. وربما كان الإنسان قديما يستغرب لو سمع بهذه الآيات، أما وقد تقدمت البشرية في العلم، فهي تعتمد الآن الجبال في كثير من الشؤون، كما أن هناك محاولات - نجح الكثير منها - للاستفادة من الطيور في مجالات الحياة المختلفة، وتوجد الآن تجارب جادة للاستعانة بها في الشؤون الطبية والعسكرية، ومن قصة سليمان عليه السلام التي مرت في سورة سبأ يتبين أنه كان عليه السلام يبعثها للاستكشاف.

[٢٠] وبالإضافة إلى هذه القوى المادية والإمكانات التي تدخل كعنصر فعال في سيطرة داود وسلطانه، كان الله يزيده قوة وتمكنا يوما بعد يوم، ولو كان ظالما لما زاده مرور الأيام إلا ضعفا وَوَهنا. ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ بمختلف أسباب القوة هذا من الناحية المادية. أما من الناحية التشريعية والإدارية فقد أعطي ما يقوي حكمه وسلطانه أيضا. قال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ والحكمة تعني أن يحيط الإنسان علما بالخليقة وبنفسه ويعرف: كيف يتصرف فيها تصرفا سليما. أما فصل الخطاب فهو الكلام الذي يفهم الطرف الآخر الحقيقة بما يقطع دابر الشك، ويزيل حجاب الجهل فداود عليه السلام إذا يصيب الحق بحكمه ويبينه أفضل البيان بخطابه، وهذان الأمران من أهم ما يلزم المدير المسؤول سواء في موقع خطير كالولاية، أو أقل من ذلك كالأسرة والمؤسسة الاجتماعية أو غيرها. والنصوص الإسلامية تؤكد على ضرورة اختيار الأسلوب الأنسب كما تؤكد على المحتوى يقول تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥].

قصة الخصمين مع داود عليه السلام

[٢١] ويعود بنا السياق ليضرب لنا مثلا من حياة داود عليه السلام تتجسد فيه أوبته إلى الله عز وجل، وذلك في قصة حدثت له. فبينما كان قائما يصلي في محرابه إذ اقتحم الجدار عليه شخصان، ولم يأتياه من الطريق الطبيعي وهو الباب. ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾ وصيغة السؤال هنا تستثير في الإنسان حب الاطلاع وتشد مسامعه للسائل حيث يستفهمه عن شيء لا يعرفه، لا سيما والمسؤول عنها قصة طريفة هي التسلق على سور المحراب، بهدف التقاضي عند صاحبه فهل سمعت أعجب نبأ منها؟

[٢٢] وتتصل فصول القصة ببعضها في أسلوب معجز من التعبير والعرض، وتسلط الآيات الضوء على النقاط والمواقف المهمة منها، والتي تنسجم مع أهداف وقوعها في هذا السياق القرآني، حيث الحديث عن السلطة وعن الملك الأواب. بالطبع لما دخل هذان الخصمان على داود، وبهذه الطريقة أخذته الخشية. ﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾، لماذا فزع داود مع أن الخوف من الناس ليس مناسبا للأنبياء؟

ربما أراد ربنا أن يذكر هذه النقطة في مقابل بيانه لسعة ملك داود ليقول للبشر مهما بلغتم من القدرة فأنتم بالتالي بشر ولن تصبحوا آلهة والبشر بطبيعته يخاف، ويجهل و.. و.. فلماذا يغتر الإنسان إذن، ويعتز بما يملك؟ فهذا داود الملك المسخر له الطيور والجبال، والنبي الكريم عند ربه يفزع حين يتسور عليه المحراب رجلان.

إن داود عليه السلام أوجس خيفة في نفسه ولعله ظهرت على ملامحه علائم الخوف والوجل. ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ وعرضوا عليه أمرهم قالوا: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي جارَ واعتدى. ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا﴾ أرادا منه أن يقضي بينهما، ولكنهما اشترطا أن يكون حكمه: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ وأضافوا شرطا آخر فقالوا: ﴿وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ فليس المهم أن يقضي الحاكم بالحق وحسب، إنما لا بد أن يكون وصوله إلى الحق بطريق سليم، كأن يعتمد على الأصول الشرعية لاستنتاج الحكم، حتى يهدي المتخاصمين للحق أولا، وليخرجوا من عنده راضين مقتنعين بالقضاء ثانيا.

[٢٣] وبعد أن أكملوا عرض جملة شروطهم، بدأ صاحب النعجة الواحدة يعرض الموضوع على داود عليه السلام انتظارا للحكم وفقها. قال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾(١)

---

(١) والنعجة هي أنثى الضأن والنواعج من النساء البيضاوات، وقد أوردنا الشطر الثاني من التعريف لاتصاله بتفسير لهذه الآية يتبناه البعض من المفسرين.

وربما كان يطمع أن يتمها مئة، أو لأنها أنثى فأراد أن تلد له. ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ أضمها إلى نعاجي وأتحمل مسؤوليتها، واستمال قلبي بحديثه الذي اشتمل على المدح والإطراء. ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ أي غلبني بحججه وحيله فقبلت ذلك.

[٢٤] وبعد أن أنهى المدعي كلامه بادر داود عليه السلام وأصدر الحكم ضد الطرف الثاني، من دون الاستماع إلى دفاعه ودون أن يطالب بالبينة. ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ ومضى السياق يستوحي عبرة جانبية للقصة متمثلة في خطر الشراكة بين الأطراف، وأن الضمان الوحيد لتجنب هذا الخطر هو الإيمان. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ ويُستثنى من قاعدة الظلم والاعتداء التي هي ديدن أكثرية الشركاء المؤمنون الصالحون: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ والذي يدفع أولئك للاعتداء هي أهواؤهم وشهواتهم، المتمثلة في مجموعة من الصفات السلبية، كالحسد والطمع، وحب الدنيا. و.. و.. أما المؤمنون فإنهم يتغلبون على كل ذلك بالإيمان الذي يحصنهم، وبالعمل الصالح الذي يثبت الإيمان ويعودهم على فعل الخير. ولكن القليل هم المؤمنون الذين يصرعون شهواتهم.

معنى الفتنة

وبهذا الاستطراد أنهى داود عليه السلام القضية لصالح صاحب النعجة الواحدة، أما بقية الآية فهو إضافة من عند الله عز وجل تتضمن نقدا لتصرفه عليه السلام وبيانا بدر منه وأخيرا موقفه من موعظة الله له. ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ ماذا كانت فتنة الله لداود عليه السلام التي انتبه إليها وتصورها فورا، إذ إنها جاءت في صورة نزاع بين اثنين كانا في الواقع ملكين أراد الله أن يعلم من خلال قضيتهما طريقة القضاء لداود؟

في هذه الآية قولان:

الأول: وهو يتناسب مع موقف اليهود والتوراة المحرف من الأنبياء عليهم السلام وخلاصته: أن الذين تسوروا هم الملائكة وكان الهدف امتحان داود عليه السلام فهو لم يعرف بأنهم ملائكة، ثم إنهم لم يريدوا من طرحهم للنزاع أن يحكم لهم داود في النعاج بالمعنى الظاهر والمتعارف لأنهم أساسا لا يملكون نعاجا، ولم تحدث لهم قضية من هذا النوع، إنما أرادوا صرفه إلى قضية اجتماعية ولكنه لم يتوجه إلى مقصدهم في البداية، ثم أدرك ذلك فتاب إلى ربه توبة نصوحا.

والقضية الاجتماعية هي أنه كانت لديه (٩٩) امرأة بين حرة وأمة، فعشق زوجة جميلة لرجل من بني إسرائيل يقال له (أوريا) فأراد أن يتزوجها لتتم له مئة زوجة، فقدمه في إحدى

الحروب ليقتل ويتم له الأمر فقتل، وتزوجها داود عليه السلام. فأرادت الملائكة أن تبين له خطأه هذا.وهذا التفسير يحبذه المنحرفون والملوك الذين يفتشون عند أدعياء الدين ما يبرر لهم انحرافهم، وما يبرؤوا به أنفسهم من الظلامات التي يرتكبونها.

وقد نقل الفخر الرازي في تفسيره الكبير أنه حضر في بعض المجالس، وحضر فيه بعض أكابر الملوك، وكان يريد أن يتعصب لتقرير ذلك القول الفاسد والقصة الخبيثة لسبب اقتضى ذلك، ويمضي الفخر الرازي في بيان فساد هذا الرأي وإسكات ذلك الملك.

وهذا القول مردود عليه في أكثر الروايات نظرا لما فيه من المسّ بكرامة الأنبياء وتقواهم فعن الشيخ الصدوق رحمه الله، بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام، أنه قال لعلقمة: «**يَا عَلْقَمَةُ إِنَّ رِضَا النَّاسِ لَا يُمْلَكُ وَأَلْسِنَتَهُمْ لَا تُضْبَطُ وَكَيْفَ تَسْلَمُونَ مِمَّا لَمْ يَسْلَمْ مِنْهُ أَنْبِيَاءُ اللهِ وَرُسُلُهُ وَحُجَجُ اللهِ عليهم السلام أَ لَمْ يَنْسُبُوا يُوسُفَ عليه السلام إِلَى أَنَّهُ هَمَّ بِالزِّنَا!. أَ لَمْ يَنْسُبُوا أَيُّوبَ عليه السلام إِلَى أَنَّهُ ابْتُلِيَ بِذُنُوبِهِ!. أَ لَمْ يَنْسُبُوا دَاوُدَ عليه السلام إِلَى أَنَّهُ تَبِعَ الطَّيْرَ حَتَّى نَظَرَ إِلَى امْرَأَةِ أُورِيَا فَهَوَاهَا وَأَنَّهُ قَدَّمَ زَوْجَهَا أَمَامَ التَّابُوتِ حَتَّى قُتِلَ ثُمَّ تَزَوَّجَ بِهَا...**»[1].

وقال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**لاَ أُوتِيَ بِرَجُلٍ يَزْعُمُ أَنَّ دَاوُدَ تَزَوَّجَ بِامْرَأَةِ أُورِيَا إِلا جَلَدْتُهُ حَدَّيْنِ حَدّاً لِلنُّبُوَّةِ وَحَدّاً لِلإِسْلَامِ**»[2].

ونجد هذا الرأي مكتوبا في التوراة الموجودة في أيدي اليهود، وهذا دليل على أنها محرفة، وإلا كيف تنسب إلى نبي من أنبياء الله هذه التهمة الرخيصة، وهو يؤتمن على رسالة الله وعباده؟

والأكثر اشكالية في الأمر أن هذا الرأي تسرب إلى كثير من التفاسير، وحينها يقتبس البعض أفكاره في تفسير القرآن من التوراة المحرفة، وينسب للأنبياء هذا الظلم والانحراف، بل هذا الشذوذ -عندها لا يرى ضيرا إذا حكم الأمة رجل كالمتوكل العباسي، أو يزيد بن معاوية بن أبي سفيان- لأنه إذا كانت ثقافتنا مشوبة بهذه الأفكار الباطلة، فإنها سوف تدعونا لاتباع السلاطين والملوك الظلمة على أنهم خلفاء لله وأمناء على الرسالة.

الثاني: في تفسير الآية فهو: أن الفتنة التي تعرض لها داود عليه السلام، هو مبادرته لإصدار الحكم من دون سؤال صاحب النعجة الواحدة عن البينة، ولا الاستماع إلى رأي المدعي عليه، إذ لا يجوز للقاضي -من الناحية الشرعية والمنطقية- أن يصدر حكما في قضية ما قبل التحقيق

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٧، ص٢.

(٢) متشابه القرآن: ج١، ص٢٤٩.

فيها، والنظر في سائر الحيثيات التي تتصل بها.

يقول الإمام الرضا عليه السلام -بعد أن ضرب بيده على جبهته من هول الفرية على نبي الله داود عليه السلام-: «إِنَّا للهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ راجِعُونَ، لَقَدْ نَسَبْتُمْ نَبِيّاً مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ إِلَى التَّهَاوُنِ بِصَلَاتِهِ حَتَّى خَرَجَ فِي أَثَرِ الطَّيْرِ ثُمَّ بِالْفَاحِشَةِ ثُمَّ بِالْقَتْلِ. فَقَالَ يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ فَمَا كَانَتْ خَطِيئَتُهُ فَقَالَ عليه السلام: وَيْحَكَ إِنَّ دَاوُدَ إِنَّمَا ظَنَّ أَنْ مَا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَلْقاً هُوَ أَعْلَمُ مِنْهُ فَبَعَثَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ الْمَلَكَيْنِ فَتَسَوَّرَا الْمِحْرَابَ فَقَالَا: ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ‎ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ فَعَجَّلَ دَاوُدُ عليه السلام عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ فَقَالَ ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ فَلَمْ يَسْأَلِ الْمُدَّعِيَ الْبَيِّنَةَ عَلَى ذَلِكَ وَلَمْ يُقْبِلْ عَلَى الْمُدَّعَى عَلَيْهِ فَيَقُولَ مَا تَقُولُ فَكَانَ هَذَا خَطِيئَةَ حُكْمِهِ لَا مَا ذَهَبْتُمْ إِلَيْهِ أَ لَا تَسْمَعُ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

فَقُلْتُ يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ فَمَا قِصَّتُهُ مَعَ أُورِيَا فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: إِنَّ الْمَرْأَةَ فِي أَيَّامِ دَاوُدَ عليه السلام كَانَتْ إِذَا مَاتَ بَعْلُهَا أَوْ قُتِلَ لَا تَتَزَوَّجُ بَعْدَهُ أَبَداً وَ أَوَّلُ مَنْ أَبَاحَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ أَنْ يَتَزَوَّجَ بِامْرَأَةٍ قُتِلَ بَعْلُهَا دَاوُدُ عليه السلام فَتَزَوَّجَ بِامْرَأَةِ أُورِيَا لَمَّا قُتِلَ وَانْقَضَتْ عِدَّتُهَا مِنْهُ فَذَلِكَ الَّذِي شَقَّ عَلَى النَّاسِ مِنْ قِبَلِ أُورِيَا..»[1].

﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴾ إنه لم يترك فرصة لوساوس الشيطان وتسويفاته، إنما بادر مباشرة، إلى الاستغفار والتوبة، وأي باب للتوبة أوسع من الصلاة والدعاء. ألم يقل الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[الفرقان: ٧٧]. و قال في الصلاة: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ﴾[البقرة: ٤٥].

[٢٥] وحينما وفر عليه السلام شروط التوبة في نفسه، من صدق الندم، وإصلاح ما فسد، والضراعة إلى الرّب بقلب منكسر، استجاب الله له. ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ التوبة تزيل خطأ الإنسان، وتمحو آثاره السلبية، سواء على مستوى الفرد أو المجتمع، بل وتقدمه خطوات إلى التوبة تزيد الإنسان حصانة، وتقيه خطر الهلاك بالذنوب والأخطاء. وليس أضر على الإنسان من ذنب يعتز به، وخطأ يصر عليه مستكبرا.

وأهم معطيات التوبة أنها ترفع الإنسان درجات عند ربه، وتورثه المنازل الرفيعة في الجنة. ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ وهذا خلاف لتصورات الإنسان السلبية من أن

---

(١) بحار الأنوار: ج١١، ص٧٢.

التوبة تسبب له الذلة، وأن العزة بالإثم هي الأفضل، لأنها في نظره السبيل للرفعة.

والقرآن إنما يضرب لنا مثال الاعتراف بالخطأ والتوبة منه، من واقع النبي داود العالم الذي بلغ وولده سليمان ذروة السلطة، لأن التوبة تصعب على الإنسان حينما يكون في موقع متقدم من المجتمع، كما لو كان والدا بالنسبة لأسرته أو كان عالما أمام تابعيه، وتصل الصعوبة ذروتها إذا كان حاكما وعالما في مستوى داود عليه السلام. ولعل هذا من حكم تعرض الأنبياء للفتنة، وأن الله يكِلَهُم إلى أنفسهم فيرتكبون الهفوات، ثم يتوبون إلى الله ليكونوا قدوات صالحة للبشرية في حقل التوبة -وهو أعظم حقل- كما هم قدوات في سائر الحقول. ولا بد لنا ونحن نخوض الصراع أن نتذكر هؤلاء العظماء كما أمرنا الله حتى لا يتكبر أحدنا على النقد والاستماع إلى آراء الناس في تصرفاته وبالتالي لكي لا يتعالى أحدنا على المجتمع باسم أنه يمثل طليعته المتقدمة.

[٢٦] أهم شروط الحاكم الذي يتصرف في دماء الناس وأموالهم، تمحوره حول الحق، ولكن كيف يعرف صدق الحاكم الذي يدَّعي أنه يحكم بالحق؟ إنما عندما يخالف هواه ويتراجع عن قرار اتخذه إذا عرف أنه كان مخاطئاً، ويعترف أمام الناس بذلك ويتوب إلى الله، ويصلح منهجه. من هنا نجد السياق القرآني يذكرنا بأن الرب استخلف عبده داود عليه السلام في الأرض بعد أن ابتلاه وعرف أنه يخالف هواه ويتراجع عن الخطأ إذا عرفه. ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إن الأرض وما فيها من بشر وإحياء وتراب أمانة الله في عنقك، وعنق كل حاكم ولا تصان هذه الأمانة إلا بتحكيم الحق، أما لو تحكم الباطل فسوف تفسد الأرض ومن عليها من الأحياء والناس قال تعالى يصف الذي يتبع الباطل في حكمه: ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ [البقرة: ٢٠٥].

ولهذا عقب القرآن مبينا أهم وظائف الحاكم وما يتصل به من مؤسسات تشريعية وقضائية وتنفيذية قائلا: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ ولكي يلتزم الحاكم بالحق يجب أن يتجاوز أهواءه وشهواته، حتى لا تنعكس علاقاته الاجتماعية، ولا ضغوط الناس وإغراءاتهم على آرائه في الحكم. ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ ومن أجل أن نعرف معنى من معاني هذه الآية الكريمة تكفينا نظرة واحدة لواقع المسلمين، الذين صاروا ضحية لأهواء الحاكمين في الأمة، أوليس أبعدوا الإسلام عن الحكم لأنه يتناقض مع أهوائهم، ولأنهم لا يجدون فيه مبرِّرا لنزواتهم وتصرفاتهم المنحرفة؟؟ وهذا هو الضلال.

ومن هذه الآية الكريمة استوحى الحديث الشريف (ولاية الفقيه) قال الإمام الصادق عليه السلام حسب رواية الإمام العسكري عليه السلام: «**فَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنَ الْفُقَهَاءِ صَائِناً لِنَفْسِهِ حَافِظاً**

لِدِينِهِ مُخَالِفاً عَلَى هَوَاهُ مُطِيعاً لِأَمْرِ مَوْلَاهُ فَلِلْعَوَامِّ أَنْ يُقَلِّدُوهُ»(١). ثم يهدد ربنا أولئك الذين يبتعدون عن الحق والسبيل المستقيم بسبب أهوائهم فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ وقال يوم الحساب ولم يقل القيامة، لأن الذي ينسى أنه محاسب أمام الله على كل حركاته وسكناته، و على أهوائه بالخصوص، يفقد اتزانه وضوابطه في الحياة فيخالف الحق ويتبع الهوى من دون حساب.

أخطاء الأنبياء عليهم السلام

وكلمة أخيرة: لماذا نجد في القرآن تشهيرا بالأنبياء وأخطائهم كقوله تعالى عن آدم عليه السلام: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١]. أو عن النبي يونس عليه السلام: ﴿سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. وعن داود: ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩﴾[ص: ٢٤]. وعن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾[الفتح: ٢].

الجواب: هناك حكم كثيرة، من أبرزها معرفة الناس أن الأنبياء ليسوا بآلهة فلا يرفعونهم إلى مقام الرَّب. هكذا جاء في كتاب الاحتجاج للطبرسي رحمه الله في حديث طويل عن أمير المؤمنين عليه السلام يقول فيه: «وَأَمَّا هَفَوَاتُ الأَنْبِيَاءِ وَمَا بَيَّنَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ وَوُقُوعُ الكِنَايَةِ عَنْ أَسْمَاءِ مَنِ اجْتَرَمَ أَعْظَمَ مِمَّا اجْتَرَمَتْهُ الأَنْبِيَاءُ مِمَّنْ شَهِدَ الكِتَابُ بِظُلْمِهِمْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ أَدَلِّ الدَّلَائِلِ عَلَى حِكْمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ البَاهِرَةِ وَقُدْرَتِهِ القَاهِرَةِ وَعِزَّتِهِ الظَّاهِرَةِ لِأَنَّهُ عَلِمَ أَنَّ بَرَاهِينَ الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام تَكْبُرُ فِي صُدُورِ أُمَمِهِمْ وَأَنَّ مِنْهُمْ [مَنْ] يَتَّخِذُ بَعْضَهُمْ إِلَهاً كَالَّذِي كَانَ مِنَ النَّصَارَى فِي ابْنِ مَرْيَمَ فَذَكَرَهَا دَلَالَةً عَلَى تَخَلُّفِهِمْ عَنِ الكَمَالِ الَّذِي تَفَرَّدَ بِهِ عَزَّ وَجَلَّ أَ لَمْ تَسْمَعْ إِلَى قَوْلِهِ فِي صِفَةِ عِيسَى حَيْثُ قَالَ فِيهِ وَفِي أُمِّهِ ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ يَعْنِي أَنَّ مَنْ أَكَلَ الطَّعَامَ كَانَ لَهُ ثُفْلٌ وَمَنْ كَانَ لَهُ ثُفْلٌ فَهُوَ بَعِيدٌ مِمَّا ادَّعَتْهُ النَّصَارَى لِابْنِ مَرْيَمَ»(٢).

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٧ ص١٣١.

(٢) الاحتجاج: ج١ ص٤٢٩ احتجاج الأمير عليه السلام على الزنديق.

أم نجعل المتقين كالفجار

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ (٢٨) كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ (٢٩) وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ (٣٠) إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ [١] ٱلْجِيَادُ [٢] (٣١) فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ [٣] (٣٢) رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ [٤] مَسْحًۢا [٥] بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ (٣٣) وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً [٦] حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ (٣٧) وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ (٣٨) هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩) وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ (٤٠)﴾

---

(١) الصافنات: جمع الصافنة من الخيل، وهي التي تقوم على ثلاث قوائم وترفع إحدى يديها حتى تكون على طرف الحافر وهي من علامة الجودة.

(٢) الجياد: جمع جيد وهي الفرص الأصلية النجيبة، ونجابة الفرس بعرفانها صاحبها، وسرعة سيرها، والاهتمام بخلاص راكبها من المشكلة التي يقع فيها.

(٣) توارت بالحجاب: الشمس غابت واستترت تحت الأفق.

(٤) فطفق: شرع.

(٥) مسحاً: قطعاً بالسيف، وقيل معناه مسحاً باليد وأن سليمان جعل يمسح أعراف الخيل وعراقيبها بيده.

(٦) رخاء: لينةً بدون عنف.

هدى من الآيات:

عندما طالب الكفار بتعجيل حسابهم والإسراع في إعطائهم نصيبهم (من الثواب أو العقاب) قال ربنا لرسوله الكريم: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ ومن خلال قصة داود عليه السلام ذكرنا كيف عجل الله له الجزاء في الدنيا متمثلا في الملك والذكر الحسن، مما هدانا به إلى أن العمل الصالح جزاءه الأوفى (في الدنيا أو العقبى) وهاهو السياق يبلغ بنا إلى الجواب الفصل لسؤال أولئك الذين أنكروا النشور ويقول: إن قصة داود عليه السلام تدل على أن الحق هو محور الخليقة، فداود بلغ ما بلغ لأن الله يحكم بالحق (و من الحق جزاء المحسن بالحسن) وليس هذا سوى مثل لكل تقديرات الرب، ومنهج تدبيره للخليقة (حيث إنها قائمة جميعا على قاعدة الحق) وهذا بالتالي يهدينا إلى أن المتقين ليسوا كالفجار لأن تساويهما يتنافى والحق الذي قامت به السماوات والأرض. وهكذا لا بد من الجزاء الأوفى في الآخرة.

هذا من جانب، ومن جانب آخر يتنافى مبدأ الحق وخلافة الفجار في الأرض.

لأن هكذا خلافة لا تبلغ أهم أهداف الحياة وهو تطبيق الحق، وبهذه الآيات ينفي ربنا نفيا قاطعا كل الأكاذيب والأفكار الباطلة التي حاول محرفو التوراة أو من اقتبس منهم إلصاقها في نبيه داود عليه السلام حين اتهموه في تقواه ونزاهته. ثم يدعونا الله للتدبر في القرآن مما نجد مثيلا لهذا الأمر في سورة المائدة في موضوع الخلافة، لأننا حينما نعرض تصوراتنا وأفكارنا على كتاب الله، فسوف تتبين لنا أن خلافة الظالمين لا تنسجم ومجمل بصائره وهداه.

ثم يحدثنا القرآن عن جانب من حياة سليمان بن داود عليهما السلام، الذي تجاوز هو الآخر فتنة السلطة، فلم تخرجه زينتها من خط الطاعة والإنابة، بل كان يزداد خضوعا لربه تعالى، لأنه يعتبر كل شيء نعمة إلهية تستوجب الشكر. وبذلك ضرب مثلا للسلطان الصالح كما فعل والده من قبل.

بينات من الآيات:

[٢٧] في الآيات السابقة بَيَّن ربنا صفات الخليفة الذي يجعله في الأرض (حيث ذكرتنا الآيات بعشرين صفة حسنة في خليفة داود) ومن أبرزها حكمه بين الناس بالحق.

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ كيف يتخذ الباطلَ الرَّبُّ الذي لا يجعل خليفة في الأرض إلا الصالحين الذين يمتحنهم أشد الامتحان حتى يحكموا بالحق. إن آيات

الحكمة البالغة تتجلى في أصغر شيء خلقه الله، في النحلة والنملة، في الشعر والوبر، في الخلية الواحدة، في الذرة الواحدة، في البروتون والإلكترون. فكيف لا تتجلى الحكمة في مجمل خلق السماوات والأرض؟! أم كيف يخلقهما الله باطلا بلا حكمة بلا هدف بلا تقدير؟! سبحان الله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا. ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ لأنهم قيمّوا الحياة بأفكار الكفر المسبقة لم يهتدوا إلى الحق. ومع ذلك لم يصلوا في نفيه إلى حد قطعي (العلم) لأنهم أينما نظروا وإلى أي شيء منها وجدوا فيه آثار القدرة والحكمة. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ لأن الله خلق السماوات والأرض بالحق، فإنه لن يدع الكفار سدى بل لا بد أن يجازيهم بأعمالهم التي تجاوزت كل حد معقول في مخالفة الحق بل لهم الويل والثبور.

[٢٨] وتبيانا لهذه الحقيقة يهدينا الرب إلى أن سُنَّة الحق القائمة في كل شيء مخلوق تأبى تساوي المتقين الذين يتجنبون العذاب، وأسبابه وعوامله. والفجار الذين لا يبالون أي واد يقتحمون، وأي ضلالة يتيهون فيها، وأي جريمة يرتكبونها. ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وبذلك كسبوا الحسنات. ﴿كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ويبدو أن تخصيص المفسدين بالذكر ينسجم وقصة داود عليه السلام المتمثلة في شروط خليفة الله في الأرض. وأن الخليفة الشرعي ليس كل من ملك الأمور بالقوة، إنما الذي يملكها بالحق. و لهذا لا بد من التفريق بين حاكم وحاكم، خلافا لما ذكره البعض من أن الحاكم الشرعي هو الذي حكم بالسيف، سواء كان مصلحا أم مفسدا، والواقع أنهم أرادوا تبرير مواقفهم من بعض أحداث التأريخ ورجاله، فهم يؤمنون بأن عليا عليه السلام ومعاوية سواء، بينما يرفض ذلك منطق القرآن. هل الإمام علي عليه السلام الذي يطوي نهاره صائما وليله قائما عابدا، ويتقاسم قوته مع الفقراء، بل ويؤثرهم على نفسه وعياله ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨]. ويعدل في الرعية يستوي هو والذي يغتصب حقوق الآخرين، ويسفك دماء الناس، ويتلاعب بمقدرات الأمة؟! كلا.. إن السلطة سلاح ذو حدين، فهي إذا تسلمها المؤمنون تصبح وسيلة للإصلاح والإعمار، أما لو كان العكس، فإنها، تمسي معولا يهدم المنجزات ويحطم الطاقات. وربنا في هذه الآية لم يقابل ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بجماعة معينة ﴿كَٱلْفُجَّارِ﴾ مثلا، إنما قابلهم بالمفسدين في الأرض، ليبيّن لنا بأن كل سلطة غير سلطة المؤمنين هي مفسدة في الأرض. ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ إن ذلك لا يصح ولا يكون ما دام الحق هو أساس الحياة ومقياسها. إلا أن تتبدل هذه المعادلة، وهذا ليس إلا في ظن الكافرين.

[٢٩] والحق يتجلى في السماء والأرض وما بينهما. وآيات القرآن هي التجلي الآخر للحق، ومن تدبر في القرآن وجد أنه الكتاب الناطق بما يجد في آيات الخليقة، فإذا أعد قلبا واعيا تبصر أنه كتاب أنزله خالق السماء والأرض، لأنه ليس سوى صورة صافية للخليقة.

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ وحدد الله لهذا الكتاب غايات سامية فقال:

١- ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ فالقرآن أنزل لكي يعطي للإنسان المؤمن البصيرة والرؤية السليمة في الحياة. وهذا لا يمكن بالمطالعة السطحية، بل لا بد من تفكر عميق في الآيات.

٢- والهدف الآخر بعد إدراك البصيرة أن تنعكس على حياة الإنسان فيتذكر بها ويصحح من خلالها في التفكير، وفي العمل منهجه. ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لأن العاقل هو الذي يعرف قيمة القرآن، وأهميته، وهو الذي يتعرف إلى بصائره. ولاشك أن الذي يحكم عقله في الحياة هو الذي يستفيد من القرآن، أما الآخر الذي تحكمه شهواته فلن يتذكر به أبدا.

ونتساءل: ما هي صلة هذه الآية بالسياق؟

ونجيب:

أولاً: بأن استنباط منهج الخلافة الإسلامية من القرآن صعب مستصعب لا يحتمله إلا من امتحن الله قلبه بالإيمان، وعرف أنه لا يمكن أن يعترف بالقرآن بسلطة تجانب قيمة الحق، ومنهج التوحيد. أوليست السلطة السياسية تجسد قيم المجتمع. فكيف تستطيع سلطة فاسدة تطبيق قيم القرآن الإصلاحية؟! وهكذا أشار السياق إلى ضرورة التدبر والتذكر لتبصر هذه الحقيقة التي تتراكم عليها حجب الشهوات و الضغوط.

ثانياً: بأن منهج القرآن في توعية الإنسان باليوم الآخر منهج فريد، ولا يبلغ فهمه غير الذين يتدبرون في آيات الكتاب ويتذكرون بها.

[٣٠] وينقلنا السياق إلى قصة سليمان عليه السلام بعد أن استوحى عبر قصة داود عليه السلام وتلتقي القصتان في أنهما مثل لتجاوز الإنسان فتنة السلطة والقوة. ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ فميزة سليمان وعظمته الحقيقية ليست في انتمائه إلى رجل عظيم كداود عليه السلام ولا في سلطانه إنما في عبوديته لله سبحانه. ولو لم يكن من أهل الإيمان لما امتدحه في كتابه. فبه استطاع أن يتجاوز أكبر فتن الحياة، وهي فتنة السلطة فقد ملك عليه السلام ما لم يملكه أحد من الناس ولن يملكه من بعده، ولكنه لم يغتر بزينة الدنيا، إنما تجاوزها وتوجه لله، يتعبد ويضع نفسه في موقع المذنب ثم يتوب وهو المعصوم من الذنوب وإنما يعظم ربه عز وجل. وكيف يتكبر هؤلاء على ربهم وهم يعلمون بأن ما عندهم من فضله، وأن طريق الاستزادة هو المزيد من التذلل له والتضرع إليه؟!

[٣١] وتجسيدا لآية سليمان وتعبده لله، يعرض لنا القرآن صورة من حياته عليه السلام ﴿ إِذْ

عُرِضَ عَلَيۡهِ بِٱلۡعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلۡجِيَادُ ﴾ وهي الخيول المروضة من أجودها، وكانت يستعرضها سليمان كلما أراد الجهاد.

[٣٢] وفي ذات يوم استعرضها وربما لكثرتها بقي معها طويلا حتى كادت أن تغيب الشمس وفاتته فضيلة صلاة العصر، ولم يكن حينها وهو يعدُّ العدة للجهاد مشغولا بأمر من أمور الدنيا، ومع ذلك استغفر ربه وعده تقصيرا يستوجب التوبة. ﴿ فَقَالَ إِنِّيٓ أَحۡبَبۡتُ حُبَّ ٱلۡخَيۡرِ عَن ذِكۡرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾ وكونه سلطانا لم يمنعه من الاعتراف بالخطأ، ولو كان بمقدار ترك الأولى بسبب عمل خير آخر يحبه الله. فالمعنى شغلني الجهاد عن الصلاة، والاثنان واجبان، إلا أن الصلاة أفضل، وهل يجاهد المؤمنون إلا لإقامتها؟

[٣٣] ولما توجه سليمان عليه السلام إلى فوات الوقت الفضيل للصلاة، استراح عن الجهاد فقضى صلاته، ثم عاد ثانية، فقال: ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ يعني جياد الخيل، لكي يستمر في تفقد الجيش. ﴿ فَطَفِقَ مَسۡحَۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلۡأَعۡنَاقِ ﴾ وكان المسح على أعناق الخيل وسيقانها عند أهل الخبرة طريقا لمعرفة الجيد منها، وكان سليمان عليه السلام بعد إجراء هذه يقسمها على أفراد جيشه مما يدل على اهتمامه به.

قال ابن عباس: «سَأَلْتُ عَلِيّاً عليه السلام عَنْ هَذِهِ الآيَةِ فَقَالَ: مَا بَلَغَكَ فِيهَا يَا بْنَ عَبَّاسٍ؟ فَقُلْتُ: سَمِعْتُ كَعْباً يَقُولُ: اشْتَغَلَ سُلَيْمَانُ بِعَرْضِ الأَفْرَاسِ حَتَّى فَاتَتْهُ الصَّلاةُ فَقَالَ رُدُّوهَا عَلَيَّ يَعْنِي الأَفْرَاسَ وَكَانَتْ أَرْبَعَةَ عَشَرَ فَأَمَرَ بِضَرْبِ سُوقِهَا وَأَعْنَاقِهَا بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهَا فَسَلَبَهُ اللهُ مُلْكَهُ أَرْبَعَةَ عَشَرَ يَوْماً لِأَنَّهُ ظَلَمَ الخَيْلَ بِقَتْلِهَا. فَقَالَ عَلِيٌّ عليه السلام: كَذَبَ كَعْبٌ لَكِنِ اشْتَغَلَ سُلَيْمَانُ بِعَرْضِ الأَفْرَاسِ ذَاتَ يَوْمٍ لِأَنَّهُ أَرَادَ جِهَادَ العَدُوِّ ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ﴾ فَقَالَ بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ المُوَكَّلِينَ بِالشَّمْسِ ﴿ رُدُّوهَا عَلَيَّ ﴾ فَرُدَّتْ فَصَلَّى العَصْرَ فِي وَقْتِهَا، وَإِنَّ أَنْبِيَاءَ اللهِ لَا يَظْلِمُونَ وَلَا يَأْمُرُونَ بِالظُّلْمِ لِأَنَّهُمْ مَعْصُومُونَ مُطَهَّرُونَ»[1].

[٣٤] ثم إن القرآن يحدثنا عن الفتنة التي تعرض لها سليمان عليه السلام، فقد تمنى على الله أن يكون له ولد يرثه كما ورث داود عليه السلام لكن الله لم يستجب له إنما أسقط على كرسيه جسدا ميتا أجهضته امرأته. ﴿ وَلَقَدۡ فَتَنَّا سُلَيۡمَٰنَ وَأَلۡقَيۡنَا عَلَىٰ كُرۡسِيِّهِۦ جَسَدٗا ﴾ كناية عن الابن الميت، وكان يتمنى أن يجلس على كرسيه ولد يحكم بعده، فتأثر بعض الشيء لذلك، ولكنه فكر في نفسه ورجع إلى ربه. ﴿ ثُمَّ أَنَابَ ﴾.

[٣٥] وقد عدَّ موقفه هذا -وهو النبي- زللا، وأن هذه فتنة عليه أن يتجاوزها بالدعاء

(١) بحار الأنوار: ج١٤ ص١٠٣.

والاستعانة بالله، لأنه علم أن عدم تحقيق الله لأمنياته يدل على أن ذلك ليس من المصلحة أبدا. ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي﴾ أن تمنيت عليك مالا يتفق مع حكمتك لأن علمي قاصر عن إدراك ذلك ثم طلب من الله شيئا آخر غيّر من خلاله أمنيته، قال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ وفي هذه الآية الكريمة تتبيَّن آداب الدعاء عند الأنبياء عليهم السلام.

ففي البداية يجب أن يعرف العبد بأن ما سيطلبه من الله ليس حقا له على الله استوجبه بعمله أو عبادته، إنما هو هبة يعطيها له الرب من عنده تفضلا إن شاء أو يمنعها، وبالإضافة إلى تناسب هذا الأدب ومقام الربوبية، فإنه يعطي المؤمن مناعة ضد ردود الفعل المحتملة لو لم يستجب له. ثم إن الطلب يجب أن يكون عظيما وكبيرا، وينبغي للإنسان أن يطلب من ربه وهو القادر العزيز الكريم مطالب جسيمة، فيخرج من نظرته البشرية المحدودة التي تفرض عليه آمالا محدودة، ويدعو الله انطلاقا من معرفته بصفاته وأسمائه الحسنى. فهذا سليمان عليه السلام يدعو الله أن يهبه ملكا عظيما لا ينبغي لأحد من بعده.

ويستوحى من السياق أن سليمان عليه السلام طلب من الله بديلا عن الأولاد الذين حرم منهم، بأن يختصه برحمة إلهية خاصة لتمضي الأجيال تذكره به، أو ليس الإنسان يستمر بعقبه وبما اختص به. فسأل الله من الملك ما لم يعط أحدا ولا ينبغي لأحد، وفعلا خصه الله بتسخير الجن والريح والطير له، كما تقرر الآيات التالية، وبالاسم الأعظم حسبما نقرأ في آيات أخرى[1].

ولكن ليس الملك لذات الملك وللذة الحياة الدنيا، إنما أراد من خلال الملك والسلطان أن يقيم حكومة الله في الأرض، ليقضي على واقع الشرك السياسي والاجتماعي وغيرهما، وينصر المؤمنين ويهدي المستضعفين إلى الحق، وأي طموح أعظم من هذا الطموح؟!.

إن سليمان كان يعرف أنه نبي ويسير على الحق، لهذا سأل الله الملك والقوة لتحقيق أهداف رسالته. و من يطلع على حياته يجدها جهادا من أجل إعلاء كلمة الله، ولعل الإشارة إلى الجياد في هذه السورة المباركة تهدينا إلى هذه الحقيقة. وفي سورة النمل حيث انتهت القصة بإسلام بلقيس وقومها صورة من حياته المليئة بالجهاد.

الثالث من آداب الدعاء: أن ينتهي بالثناء والحمد لله وذلك بذكر أسمائه الحسنى وفي مقدمها اسم ﴿الْوَهَّابُ﴾ الذي ذكره أكثر الأنبياء في دعواتهم، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

[٣٦] وقد استجاب الله لدعوة نبيه، بتمييز ملكه بما لا يتكرر مستقبلا. ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ

---

(١) وأيضاً راجع: الحديث رقم ٥٦ من تفسير نور الثقلين: ج ٤، ص ٤٥٩-٤٦٠.

﴿الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ فهي تجري كيفما يريد، وأينما يريد.

وجاء في تفسير علي بن إبراهيم حديث مأثور عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «خَرَجَ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ ومَعَه ثَلَاثِمِائَةِ أَلْفِ كُرْسِيٍّ عَنْ يَمِينِهِ عَلَيْهَا الإِنْسُ وَثَلَاثِمِائَةِ أَلْفِ كُرْسِيٍّ عَنْ يَسَارِهِ عَلَيْهَا الجِنُّ وَأَمَرَ الطَّيْرَ فَأَظَلَّتْهُمْ وَأَمَرَ الرِّيحَ فَحَمَلَتْهُمْ حَتَّى وَرَدَتْ إِيوَانَ كَسْرَى فِي الْمَدَائِنِ ثُمَّ رَجَعَ فَبَاتَ فَاضْطَجَعَ ثُمَّ غَدَا فَانْتَهَى إِلَى مَدِينَةِ تَرْكَاوَانَ [بَرْكَاوَانَ] ثُمَّ أَمَرَ الرِّيحَ فَحَمَلَتْهُمْ حَتَّى كَادَتْ أَقْدَامُهُمْ يُصِيبُهَا الْمَاءُ وَسُلَيْمَانُ عَلَى عَمُودٍ مِنْهَا فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: هَلْ رَأَيْتُمْ مُلْكاً قَطُّ أَعْظَمَ مِنْ هَذَا وَسَمِعْتُمْ بِهِ فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا وَلَا سَمِعْنَا بِمِثْلِهِ فَنَادَى مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ ثَوَابُ تَسْبِيحَةٍ وَاحِدَةٍ أَعْظَمُ مِمَّا رَأَيْتُم»[1]

[٣٧] والى جانب الريح أخضعت له الشياطين وكانت مهمتهم البناء والأعمار وكانوا يستخرجون المعادن من البحار ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ وليس بالضرورة أن يكون المقصود من الغوص المعنى المتعارف فقط، وهو النزول إلى قعر البحر للصيد واستخراج الطاقات الكامنة فيه، بل تنسحب الكلمة كما كلمة البناء على المعنى المتقدم أيضا.

[٣٨] وكان سليمان يوزع المهام على الشياطين، فيعملون كيفما يريد، ومن يتمرد فإنه يجازى بالسجن. ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ﴾ ويبدو من الآية أن الشياطين كانوا يصفدون جماعات جماعات فيقرن بعضهم بعضا، ويحتمل أنهم كانوا يعتقلون كل فرد مع قرنائه في المعصية والمخالفة. المهم أن سليمان بهذه السيطرة والهيمنة على الجن نسف الأفكار الجاهلية حول ألوهيتها.

[٣٩] وفي نهاية الدرس يشير ربنا إلى ملك سليمان فيقول: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ ويفوضه فيه بتصرف كيفما بدا له. ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي أعط للناس مما تملك أو امنعهم، ولا أحد يحاسبك وهذا أعلى مراتب التفويض.

[٤٠] ويختتم الدرس بحقيقة هامة، هي أن أهم مما يملكه الإنسان في الدنيا، قربه من الله وثوابه عنده. ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾.

وكلمة أخيرة: من أبعاد رسالة القرآن الكريم تصحيح رؤى البشر تجاه الرسل ورسالاتهم، ذلك أن الشيطان يثير الوساوس في مصدر الإصلاح، وينبوع الفضائل (الرسل ورسالاتهم) فإذا به يلصق التهم بالأنبياء لإسقاط شخصياتهم في أعين الناس، ويحرِّف قيم الدين وقد يجعلها بتأويلها سببا للضلالة.

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٢٣٨، بحار الأنوار: ج١٤ ص٧٢.

والله سبحانه يبعث بين الحين والآخر رسالة ورسولا لتجديد ما درس من معالم دينه الحق لكي لا تزول فرصة الهداية للناس.

وهكذا حرَّفت أهواء بني إسرائيل التوراة والإنجيل، وأوَّلت النصوص حول القيم، ولفَّقت التهم حول الأنبياء عليهم السلام. وانزل الله كتابه المجيد تبيانا لكل شيء وتنزيها لمقام الرسل عليهم السلام. وهكذا نجد في القرآن بيانا لقصص الأنبياء -وبخاصة تلك التي نقلت على غير وجهها- ثم تفسيرا حسنا لموارد الغموض من حياتهم عليهم السلام.

ومما يؤسف له: أن طائفة من المفسرين راحوا ينقلون الأحاديث الإسرائيلية ويخوضون في أعراض الأنبياء خوضا وبالتالي ينقضون ما عقده القرآن، ويخالفون ما أراده، ويسيرون تماما بعكس اتجاهه. بينما كان ينبغي أن يلتزموا أدب القرآن في الحديث عن الرسل، الذي يتجلى في سورتي الصافات وص بأجلى صورها.

إني مسني الشيطان بنصب وعذاب

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا[1] فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ[2] ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ[3] ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

هدى من الآيات:

في مواضع أخرى من القرآن تعرضت الآيات لقصة أيوب عليه السلام بمناسبة الحديث عن الصبر، (الجانب المعروف من حياته عليه السلام)، حتى لقد شاع المثل «صبر أيوب»، أما في هذه السورة فإن القصة تأتي في سياق الحديث عن العلاقة السليمة بالسلطة والثروة والعافية، هذه

---

(١) ضغثاً: ملء الكف من الشماريخ والحشيش.

(٢) ولا تحنث: الحنث هو نقض العهد المؤكد بالحلف.

(٣) أتراب: أقران على سن واحد ليس فيهن عجوز ولا هرمة، وقيل أمثال في الحسن ومقدار الشباب، وقيل أتراب في أعمار أزواجهن.

النعم التي ينبغي أن لا تستعبد البشر، فلا يستبد به الغرور إذا رزق منها شيئا، ولا يقتله اليأس إذا زويت عنه.

وما تلتقي فيه قصة سليمان وأيوب عليهما السلام، أنهما يهديانا إلى تجسيد للنفس الربانية التي لا تبطر بالنعمة والملك كنفس سليمان، ولا تيأس إذا فقدت متع الدنيا كنفس أيوب عليه السلام. وبالرغم من أن هذين المثلين من حياة شخصيتين إلا إنهما -في الواقع- شخصية واحدة، حيث المؤمن هو الذي يتعالى على زينة الدنيا متطلعا إلى رضوان ربه، فيشكر حينما يظفر بها، ويصبر حينما تفوته.

لقد كان أيوب ذا مال وأهل كثير وسمعة طيبة بين الناس، وهو يُسخرّ كل ذلك من أجل عمل الصالحات، فإذا به يفقد ماله وأهله، ويصاب في جسده بمرض فتركه كل من حوله، ولم تبق معه إلا زوجته الوفية رحمة بنت يوسف بن يعقوب عليهم السلام، والتي ضربت مثلا في الصبر مع زوجها والوفاء له، إذ كانت تعمل في البيوت وتخدم الناس لتأتي له بالطعام والشراب.

إلا أنه عليه السلام بقي صابرا شاكرا الله على النعمة، وما زاده الابتلاء إلا صبرا، ورجاء للفضل في الدنيا والآخرة. وهكذا يكون المتقون كما وصفهم سيدهم علي عليه السلام فقال: «**نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي الْبَلَاءِ كَالَّتِي نُزِّلَتْ فِي الرَّخَاءِ**»(١). ولعل السبب في ثبات شخصية المتقين واستقامتها أنهم يستمدون مقوماتها من الرسالة الإلهية الثابتة لا من الظروف والعوامل المادية المتغيرة.

أما زوجة أيوب عليه السلام الوفية - والتي لم تكن بعصمة الأنبياء مع مكانتها وإيمانها فقد جاء لها إبليس متمثلا في هيئة البشر، وقال لها إنني طبيب ماهر وأستطيع أن أداوي زوجك ولكن بشرط واحد، هو أن يقول لي بعد شفائه إنني شافيته، فقبلت حبا في زوجها النبي، فجاءت مسرعة وأخبرت أيوب بالأمر فغضب عليها، وحلف يمينا أن يضربها مئة جلدة.

وهكذا أتم أيوب امتحانه ودعا ربه فاستجاب له، وخفف عن زوجه حين أمره بأن يأخذ ضغثا و يضربها به وأعاد عليه أهله وماله ومكانته وأبقى ذكره لنا منارا وهدى.

بينات من الآيات:

[٤١] يمكن للشيطان أن يمس الإنسان بالسوء في جانبي الحياة «المعنوي والمادي» ولكن ذلك لا يكون بالجبر والإكراه، لأن البشر حر ومختار، إنما يضغط عليه وقد يمسه من ذلك شيء من التعب والألم. وإذا تحدى الإنسان ذلك واستقام رغم المشقة فإنه ينتصر على إبليس

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٩٣.

لأنه كما وصفه القرآن: ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلۡطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوۡنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشۡرِكُونَ ﴾ [النحل: ١٠٠-١٠١]. وفي موضع آخر تنقل لنا الآيات تصريحا عن الشيطان نفسه. تقول الآية: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصۡرِخِكُمۡ وَمَآ أَنتُم بِمُصۡرِخِيَّ إِنِّي كَفَرۡتُ بِمَآ أَشۡرَكۡتُمُونِ مِن قَبۡلُۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾[إبراهيم: ٢٢].

إن كون الإنسان من المؤمنين لا يعني أنه لا يتعرض إلى وساوس إبليس وضغوطه، وحتى الأنبياء تعرضوا لضغوطه ومحاولاته الدائمة للإغواء، إلا أنهم لم يستجيبوا له ولو ألحق بهم الأذى والمشقة. و هكذا كانوا قدوة للبشرية.

قال بعض المفسرين (كما نقل الرازي في تفسيره الكبير): إن أنبياء الله أرفع من أن يمسهم الشيطان بالنصب و العذاب[1]. والحقيقة أن هذا الأمر جائز في مجال الامتحان لأنهم عليهم السلام بعثوا قدوات للبشرية، وليس صحيحا أن نبعد النظرة الواقعية عن حياتهم، فنؤول الآيات في ذلك إلى غير مضامينها. فننفي تعرض يوسف للسجن، وموسى للإهانة، ونبينا للأذى، حتى قال عن نفسه: «**مَا أُوذِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ مَا أُوذِيتُ**»[2].

مع أن ذلك هو من صميم حياتهم وعنوانا عريضا في تأريخهم الرسالي، باعتبارهم أنبياء!

ولو راجعنا آيات القرآن والأحاديث لوجدناها تؤكد على أن الأنبياء هم الأولى بالبلاء، بل إنهم لم يصلوا إلى هذا المقام الرفيع إلا من خلاله. وقد روي عن الرسول صلى الله عليه وآله وقد سئل: أي الناس أشد بلاء؟ فقال صلى الله عليه وآله: «**الأَنبِيَاءُ ثُمَّ الصَّالِحُونَ ثُمَّ الأَمْثَلُ فَالأَمْثَلُ مِنَ النَّاسِ**»[3].

نعم إن الشيطان لا يتسلط على عقول الصالحين وقلوبهم، أما الجوانب المادية من حياتهم فهو قادر على سلبهم إياها لو أراد الله امتحانهم فيها، كما ابتلى في ذلك نبيه أيوب عليه السلام.

قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَبْتَلِي الْمُؤْمِنَ بِكُلِّ بَلِيَّةٍ ويُمِيتُهُ بِكُلِّ مِيتَةٍ ولَا يَبْتَلِيهِ بِذَهَابِ عَقْلِهِ أَمَا تَرَى أَيُّوبَ كَيْفَ سُلِّطَ إِبْلِيسُ عَلَى مَالِهِ وعَلَى وُلْدِهِ وعَلَى أَهْلِهِ وعَلَى**

(١) راجع تفسير الرازي: ج٢٢ ص٢٠٨.
(٢) بحار الأنوار: ج٣٩ ص٥٥.
(٣) بحار الأنوار: ج ١٢ ص ٣٥٥.

كُلِّ شَيْءٍ مِنْهُ ولَمْ يُسَلَّطْ عَلَى عَقْلِهِ تُرِكَ لَهُ لِيُوَحِّدَ اللهَ بِهِ»[١]. والقرآن في هذه السورة يدعو النبي الأكرم ﷺ، وكل مؤمن يسير في خطه إلى تذكر تلك الأحداث والمواقف من تاريخ الرسل والرسالات، وأن تكون حاضرة في ذهنه أبدا ليستعين بذكرها على مواجهة مصاعب الحياة ومشاكلها من أجل الاستقامة في طريق ذات الشوكة.

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ الذي كان في نعيم من الدنيا، ثم انتقل منه إلى الفقر والمرض، لكنه استقام بعبوديته لله ولم يكفر، لأنه كأي مؤمن مخلص ينظر للحياة بنور الله، فهو لا يضره إن فقد كل نعيمها وبقي له الإيمان، كما لا يجد لها طعما لو جمعت له لذاتها ولكنه فقد جذوة الإيمان من قلبه وعمله. وقد تجلت عبودية أيوب عليه السلام في الغنى بشكره، وفي الفقر بصبره واستقامته.

﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾ أي اذكر من حياة أيوب هذا الموقف العظيم حين دعا ربه في الضراء، وهذا الموقف عظيم لأن من الصعب على الإنسان وهو تتوارد عليه الضغوط والمشاكل من كل جانب أن يخلص توجهه إلى ربه الأحد، فهو حينما يجد مس الفقر والجوع ربما يعتقد بأن الغني أو الحاكم هو الذي ينقذه من هذه الورطة، وحينما يحوطه المرض غالبا ما يتصور بأن علاجه عند الطبيب لا بسببه، وهكذا يقع في الشرك، لكن أيوب تجاوز كل ذلك وحافظ على إيمانه وتوحيده الخالص.

[٤٢] ولم يكن البلاء الذي تعرض له أيوب بسبب ذنب عمله، فهو معصوم مطهر عن المعصية، وما أراد الله من ابتلائه: «**إِلَّا رَحْمَةً لِيُعَظِّمَ لَهُ الثَّوَابَ وَجَعَلَهُ عِبْرَةً لِلصَّابِرِينَ وَذِكْرَى لِلعَابِدِينَ فِي كُلِّ بَلَاءٍ نَزَلَ لِيَأْتَسُوا بِهِ بِالصَّبْرِ وَرَجَاءِ الثَّوَابِ**»[٢]. فلما أتم الله الابتلاء واظهر صدق نبيه ومعدنه رفعه عنه، وعوضه عما فقده بما هو خير منه ليعرفنا ربنا بأن العاقبة للمتقين الصابرين. ﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ قال الإمام الرضا عليه السلام: «**فَرَكَضَ بِرِجْلِهِ فَانْفَجَرَتْ لَهُ عَيْنٌ فَدَخَلَ فِيهَا فَاغْتَسَلَ فَأَذْهَبَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ كُلَّ مَا كَانَ بِهِ مِنَ البَلَاءِ**»[٣].

[٤٣] وبالإضافة إلى إشفائه من الأمراض والعلل التي لحقت بجسمه، رد الله عليه ما فقد من الأهل سواء الأبناء أو الأقرباء. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ أي تضاعفوا فإذا كانوا عشرين صاروا أربعين، وقد حملت هذه الآية على عدة تفاسير:

الأول: أن أهله ماتوا فأحياهم الله، وأضاف إليهم مثلهم.

---

(١) الكافي: ج٢ ص٢٥٦.
(٢) بحار الأنوار: ج١٢ ص٣٦٠.
(٣) المصدر السابق: ص ٣٦٦.

الثاني: أن الله عوضه عمن مات من أهله ببنين وبنات آخرين.

الثالث: أن أهله تفرقوا عنه لما أصابه من بلاء، فجمعهم الله له وعطف قلوبهم عليه.

ولكن الروايات أكثر ما تؤكد على الرأي الأول، ومنها قول الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية: «**فَرَدَّ اللهُ عَلَيْهِ أَهْلَهُ الذِيْنَ مَاتُوا قَبْلَ الَبلِيَّةِ وَرَدَّ عَلَيْهِ أَهْلَهُ الذِيْنَ ماتُوا بَعْدَ مَا أَصَابَهُمُ البَلَاء كُلَّهُم أَحْيَاهُمُ اللهُ تَعَالَى لَهُ فَعَاشُوا مَعَهُ**»[1].

وبعد هذا البيان يصف الله رفعه البلاء عن نبيه بأنه ذو فائدتين:

الأولى: تعود على أيوب ذاته، وقد سماها رحمة فقال: ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ لأيوب، وقد تمثلت هذه الرحمة في شفائه من المرض ورد ما فقده عليه.

الثانية: تعود على عموم الرساليين والمتعقلين، وتتمثل في العبر والدروس التي خلفتها القصة.

﴿وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ وأهم درس يستفاد من هذه الآيات، هو أن لا ننهزم أمام مشاكل الحياة وضغوطها، فإذا ما بقي الإنسان قويا في نفسه، مقاوما للآثار النفسية والروحية للأزمات والمشاكل، فإنه لن يتأثر بها. وحتى يتمكن من ذلك يجب أن تكون علاقته بالحياة وما فيها قائمة على أساس أنها وسيلة، لا علاقة شيئية باعتبارها هدفا بذاتها، وأنه إذا لم يصل إلى أهدافه وطموحاته من طريق ما، فسوف يحصل عليها عن طريق آخر. فإذا خسر وسيلته أو فشل فيها فليبق على أهدافه وإرادته، لأنه بجهده وتحركه واستقامته قد يحصل على ما هو أفضل مما فقده، أو فشل المرات الماضية في تحقيقه والوصول إليه، هذا إذا نظر للهزائم والنكسات التي تمر عليه في الحياة نظرة موضوعية، فهي حينئذ ستزيده قوة ومناعة ضد الهزائم، وإصرارا على تسخير الحياة بصورة أفضل، وعلى ضوء التجارب الماضية.

وهذا أيوب عليه السلام يزداد إصرارا على خطه في الحياة، كلما تفاقم بلاؤه، دون أن يستجيب إلى وساوس الشيطان، التي كانت تستهدف إضعاف إرادته والنيل من إيمانه وتقواه.

[٤٤] وحينما حلف أن يضرب زوجه الوفية مئة جلدة، أمره الله أن يجمع في يده مئة شمراخ من عذوق النخل، ويضربها ضربة واحدة. ليرفع عنه حرج الحلف بالله من جهة، وحتى لا تتأذى زوجه من جهة أخرى. ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ﴾ يقول الإمام الصادق عليه السلام: «**فَأَخَذَ مِائَةَ شِمْرَاخٍ فَضَرَبَهَا ضَرْبَةً وَاحِدَةً فَخَرَجَ مِنْ يَمِيْنِهِ**»[2].

---

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٢٤١ .
(٢) بحار الأنوار: ج١٢ ص٣٤٤.

وقد استفاد الفقهاء من هذا التفسير للآية الكريمة وأحاديث أخرى حدا شرعيا قالوا فيه بأن الزاني إذا كان مريضا لا يحتمل بدنه الجلد، فإنه يضرب مئة جلدة بهذه الطريقة ويسقط عنه الحد المتعارف. وفي الخبر «إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أُتِيَ بِرَجُلٍ كَبِيرٍ قَدِ اسْتَسْقَى بَطْنُهُ وَبَدَتْ عُرُوقُ فَخِذَيْهِ وَقَدْ زَنَى بِامْرَأَةٍ مَرِيضَةٍ فَأَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأُتِيَ بِعُرْجُونٍ فِيهِ مِائَةُ شِمْرَاخٍ فَضَرَبَهُ ضَرْبَةً وَاحِدَةً وَضَرَبَهَا ضَرْبَةً وَاحِدَةً وَخَلَّى سَبِيلَهُمَا وَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾»(١).

وبعد أن أمر الله أيوب عليه السلام بضرب زوجه -كما تقدم- أداء للعهد الذي قطعه على نفسه أكد له ضرورة الوفاء بالالتزامات التي يتعهد بها المؤمن تجاه ربه فقال: ﴿وَلَا تَحْنَثْ﴾ أي لا تمل إلى الباطل بترك الوفاء بالقسم ومخالفته، إذ ينبغي للإنسان المؤمن أن يفي بالتزاماته و عهوده التي يقطعها مع ربه على نفسه، فكثير من الناس حينما يمرضون أو يتعرضون للمشاكل، يدعون الله أن يعينهم ويرفع عنهم ذلك، وينذرون تقربا له أن لو رفعها سيفعلون كذا وكذا من الصالحات، و لكنهم بمجرد أن يصحوا أو تنتهي مشاكلهم يتناسون نذورهم وتعهداتهم. ثم على الإنسان أن لا يتعهد بما لا يقدر عليه، حتى لا يلحقه الإثم بحنثه. فهذا الإمام علي عليه السلام يأتيه رجل حلف أن يزن الفيل فقال: «وَلِمَ تَحْلِفُونَ بِمَا لَا تُطِيقُونَ»(٢).

وبعد ذلك يمتدح ربنا نبيه أيوب عليه السلام مركزا على أمور في شخصيته:

الأول: صبره، حيث عرَّضه الله لألوان الابتلاءات فاستقام وتحمل. ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ﴾

الثاني: إخلاصه في العبادة وتوبته، فلم يدعه البلاء للكفر بالله، ولا إلى عبادة غيره من الشركاء المزيفين. ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ يؤوب إلى الله ويتقرب إليه كلما ازداد بلاؤه.

[٤٥] وبعد أن اختتم السياق قصة أيوب وصبره، واستقامته أمام كل الضغوط، شفعها بالدعوة إلى ذكر بعض الأنبياء والتفكير في تأريخهم لأخذ العبر والدروس منه، إذ ينبغي للرساليين أن ينظروا في تاريخ قادتهم وإخوانهم الذين سبقوهم، ويلاحظوا معاناتهم واستقامتهم لله، فإن ذلك يزيدهم إيمانا بخطهم الرسالي، وثقة بأنفسهم وتحركهم واستقامة

(١) تهذيب الأحكام: ج١٠ ص٣٢.

(٢) وسائل الشيعة: ج٢٣ ص٢٨٤: «...فَأَمَرَ (الإمام عليه السلام) بِقُرْقُورٍ فِيهِ قَصَبٌ فَأُخْرِجَ مِنْهُ قَصَبٌ كَثِيرٌ ثُمَّ عَلَّمَ صَبْغَ المَاءِ بِقَدْرِ مَا عُرِفَ صَبْغُ المَاءِ قَبْلَ أَنْ يُخْرَجَ القَصَبُ ثُمَّ صَيَّرَ الفِيلَ فِيهِ حَتَّى رَجَعَ إِلَى مِقْدَارِهِ الَّذِي كَانَ انْتَهَى إِلَيْهِ صَبْغُ المَاءِ أَوَّلًا ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يُوزَنَ القَصَبُ الَّذِي أُخْرِجَ فَلَمَّا وُزِنَ قَالَ عليه السلام: هَذَا وَزْنُ الفِيلِ».

على الطريق.

﴿ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴾ ما يحتاجه الإنسان لبلوغ التكامل القوة والرؤية، فبقوته يحقق ما يراه. ويبدو أن ظاهر الآية يدل على وجود الأيدي (القوة) عند الأنبياء والأبصار (الرؤية) إلا أن باطنها القوة في الإيمان، والبصيرة في الدين، وهكذا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «**أُولي القُوَّةِ فِي العِبَادَةِ وَالبَصَرِ فِيْهَا**»[1].

والجدير بالملاحظة أن ربنا اكتفى هنا بالدعوة إلى تذكر هؤلاء العظماء، دون أن يعرض لنا مشاهد من حياتهم نعتبر بها، وهكذا في موارد كثيرة من القرآن، وذلك لأسباب:

الأول: أن مجرد تذكر الرسالي بأنه ينتمي إلى خط فيه هؤلاء العظماء الذين أسسوا تأريخ المجد للبشرية، هو أمر مفيد جدا، يعطيه الإيمان والثقة والاستقامة بالرغم من كل العوامل والظروف المضادة، إذ لا يشعر وهو يعاني من الرفض والحرب بشتى صورها بالضعف والوحدة، وهو يشعر بانتمائه إلى هذا الخط، وإلى هذا التأريخ العظيم.

الثاني: أن القرآن وحدة واحدة، ويكمل بعضه بعضا، فيمكن لقارئه أن يجد في سورة الصافات تفصيل ما أشارت إليه سورة محمد صلى الله عليه وآله، وهكذا بالنسبة لسائر السور مع بعضها، وعلينا ألا نكون من الذين اتخذوا القرآن عضين، فصارت نظرتهم إليه نظرة تجزيئية، بل نسعى لمعرفة آيات القرآن من خلال نظر شمولي إليها جميعا.

[٤٦] ثم إن القرآن عرض أهم ما يستفاد من حياتهم، لكي يؤكد بأن القصص التي يوردها ليست للتسلية أو مجرد زيادة المعرفة بالتأريخ إنما هي للتعلم والموعظة. يقول تعالى عن إبراهيم وإسحاق ويعقوب: ﴿ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ﴾ حينما يقرأ الإنسان أو يسمع عن حياة العظماء، أول ما يجب أن يتطلع إلى معرفته هو سر عظمتهم، لا لكي يعرف وحسب بل لكي يأخذ بأسباب العظمة أيضا، وسبب عظمة هؤلاء ورفعة شأنهم، هو الإيمان الخالص بالآخرة وتذكرها، الذي كان يزيدهم بعدا عن المعصية وقربا إلى الطاعة. أوليس ربنا يقول في سورة الممتحنة: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ ثم تتواصل الآيات إلى قوله تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِيهِمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴾ [الممتحنة: ٣ - ٦]. إن العوامل الأخرى لم تتدخل في صياغة شخصية هؤلاء، إنما بقي ذكر الآخرة وحده خالصا هو الذي يؤثر فيهم، فحينما آمنوا بالله تعالى، وتحملوا

(١) تفسير القمي: ج٢ ص٢٤٢.

مسؤولياتهم الرسالية لم يتطلعوا إلى مطامع دنيوية من خلالها، ولو تداخلت عوامل أخرى في ذلك لم يرتقوا إلى هذه المنزلة من الإخلاص.

[٤٧] ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ أي اصطفاهم الله وكانوا من أفضل العباد عنده وأخلصهم له، لأن الإخلاص نفسه على درجات.

[٤٨] ويخلّد القرآن أسماء طائفة أخرى من الأنبياء، ويدعونا لذكرهم. ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ وقد يكون السبب في ضم هؤلاء الثلاثة إلى بعضهم، وأولئك إلى بعضهم في الآيات المتقدمة، هو اختلاف منزلة الفريقين عند الله، وأن الفريق الأول هم الأفضل وذلك بدلالتين:

١ - انتماء إبراهيم عليه السلام إلى المجموعة الأولى وأفضليته ظاهرة لأنه من أولي العزم.

٢- السياق القرآني الذي وصف أولئك بالمصطفين أولا والأخيار ثانيا، بينما اقتصر في مدح هؤلاء بكلمة ﴿ٱلْأَخْيَارِ﴾.

[٤٩] ويؤكد القرآن في نهاية الدرس الذي تختم به القصص الهدف منها، وأهميتها لمن أراد التقوى. ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ﴾ ليشتمل على موعظة، ينتفع بها المؤمنون حيث يتأسون برسل الله. الأمر الذي يبلغ بهم الفوز والفلاح. ﴿وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ والمآب هو المكان الذي يستقر فيه الإنسان فهو يعود إليه كلما خرج منه. وهنا المآب بمعنى العاقبة و النهاية. وفي الآية تطمين للمؤمنين بأن الأمور في صالحهم مهما كان ظاهرها معاكسا.

[٥٠] ويبين الله هذه العاقبة فيقول: ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ وهي أفضل الجنان وفيها الخلود، ومآب المتقين إلى أفضل جنان الله في الآخرة. ﴿مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾ حينما يقدمون عليها، والذي يفتح أبواب الجنة هو الإيمان والدعاء والعمل الصالح، فهي مفتحة للمتقين والمؤمنين فقط لا لغيرهم ممن لم يعملوا الصالحات.

[٥١] ﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا ﴾ على الأرائك وهذه دلالة على مدى الاطمئنان الذي يلاقونه فيها. ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ جزاء لهم على إيمانهم وأعمالهم، وتعويضا عما فاتهم من نعيم الدنيا ولذاتها في سبيل الله.

[٥٢] ومن أعظم ما يستلذ به المؤمنون في الجنة هم الحور العين، ولعل تركيز القرآن على ذكر الحور في حديثه عن ثواب المؤمنين، ينطلق من أن أصعب الفتن التي يتعرضون لها في الحياة الدنيا هي فتنة الشهوة الجنسية، ولكي يتجاوزوا إغراءها وضغطها يذكرهم الله بعاقبة ذلك،

حيث الظفر بالحوريات في الجنة. ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ فهن لا ينظرن إلى غير أزواجهن، وينظرن إلى الأرض احتراما لأزواجهن وتواضعا. وهن أتراب أي المتماثلات سواء في السن، أو في كونهن أبكار غير مطموثات، ويقال فلانة ترب لفلانة إذا أريد التساوي بينهما في العمر، وهكذا يتساوى عند المؤمن الميل إلى كل واحدة دون تفضيل واحدة على الأخرى لأنهن جميعا القمة في الجمال والروعة.

[٥٣] ثم إن الله يدعونا للعمل والاستقامة في سبيله ولكن بطريق غير مباشر وذلك حينما يعدنا بالجزاء المتقدم الذكر. ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ ولأن المسافة بين هذا الثواب والإنسان تتمثل في الإيمان وعمل الصالحات، فإن الآية تشتمل طبيعيا على الدعوة إلى ذلك. وقد استخدم القرآن كلمة الحساب تأكيدا لهذه الحقيقة، ولو كان الجزاء يحصل بلا عمل فلماذا الحساب إذن؟!

[٥٤] ويتميز نعيم الآخرة عن نعم الدنيا، ذاتيا بالتنوع والجودة، وزمنيا بالخلود، فالنعمة تزداد و تتجدد دائما. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ وما دام الله باقيا فإن رزقه للمؤمنين لا ينتهي.

إن ذلك لحق تخاصم أهل النار

﴿هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ[1] ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾

هدى من الآيات:

الآيات القرآنية آيات مثاني متشابهات، ومن معاني هذه الكلمة أنها تجري على أساس المقابلة، الجنة والنار، والصالح والمفسد والخير والشر و.. و.. ولا يعرف الشيء بأبعاده وحدوده إلا بمقارنته مع أضداده، فالنهار يعرف بالليل، والحياة تعرف بالموت، والغنى بالفقر.

ولكي يعرِّفنا ربنا بنعيم الجنة يحدثنا عن عذاب جهنم التي يستقر فيها ذوو العقائد والأعمال المناقضة لأصحاب النعيم، ومن خلال الآيات التي وردت في كل القرآن يتضح أن

---

(١) غساق: ما يقطر من جلود أهل النار وسمي غساقاً لشدة سواده فهو يشبه ظلمة الليل، قال تعالى: ﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ إلى ظلمته.

المسافة بين العاقبتين منعدمة تماما، فليس ثمة منطقة أخرى بينهما، لهذا يكفي الإنسان حتى يدخل الجنة أن يخرج نفسه من النار، وكما قال الله: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وهنا في هذه السورة وبعد أن يبيّن القرآن الحكيم أمثلة واقعية من التأريخ عن الذين أخلصوا لله في معتقداتهم وأعمالهم، فأصبحوا بذلك قدوة وأئمة في الصالحات، فمنهم من صبر وتجاوز إغراء السلطة والمال كداود وسليمان عليهما السلام ومنهم من صبر على البلاء حتى صار مضرب المثل كأيوب عليه السلام فنالوا الجنة على ذلك. بعد ذلك كله يضرب لنا مثلا من واقع أصحاب النار الذين عصوا الله، وحاربوا المؤمنين، وطغوا في الأرض. وكما أن الأنبياء يشفعون لأتباعهم ويدخلونهم الجنة لا يدخل هؤلاء النار بمفردهم إنما يجرُّون معهم كل من انتمى إليهم، واتبع خطهم في الحياة، وهناك يتخاصم التابع والمتبوع تخاصما عنيفا، يلقي من خلاله كل طرف المسؤولية على الطرف الآخر، وكان ينبغي أن يحدث هذا الصراع في الدنيا، بأن يتمرد الإنسان على أئمة الكفر، ويرفض حكم الطغاة، أما وهو لم يفعل ذلك فلن ينفعه تخاصمه في يوم الحساب شيئا وقد فوَّت على نفسه فرصة الاختيار السليم، والعمل الصالح في دار الابتلاء.

إن السبب الذي يدعو أكثر الناس لاتباع الطغاة، والانسجام مع الواقع المنحرف الذي يصنعونه في المجتمع ليس عدم معرفتهم بخطئه، إنما لا يتمردون عليه هربا من صعوبات الصراع ومسؤولياته، وإذا استطاعوا ذلك في الدنيا فإنهم يجدون مرارة الصراع في نار جهنم، حيث الظروف القاسية، والعذاب الأليم المستمر.

إن ربنا يقسم في هذه الآيات بأن الصراع في النار حق - كما أكد ذلك في الدنيا في مواقع أخرى من القرآن- والتخاصم الذي يشتعل لظاه هناك هو دليل على ترك الإنسان الالتزام بمسؤوليات الصراع في هذه الحياة، والذي لا يختار الحق بإرادته يخضع له على الرغم منه، وقد ترك هؤلاء مكافحة الظلم، فها هم يكافحونه هناك في النار.

بينات من الآيات:

[٥٥] كما ركَّزت الآيات في أذهاننا مشهد الجنة وبالتالي جزاء المخلصين تذكّرنا في المقابل بعاقبة الطغاة. ﴿ هَـٰذَا ﴾ اسم إشارة يتضمن دعوة للذي يتلو القرآن بالنظر في عاقبة المتقين، والتفكير في جزائهم، ولكن ينبغي أن لا يغفل عما أعد للظالمين من العذاب، وذلك من أجل أن يحفظ توازن نفسه وعقله بين الرجاء والخوف. ﴿وَإِنَّ لِلطَّـٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ وتقابل هذه الآية

الآية (٤٩) التي وردت في الدرس الماضي، فللمتقين العاقبة الحسنة عند الله، وللطغاة عاقبة السوء والشر، وليس المقصود من الطاغية هنا السلطان الجائر وحده، وإن كان هو التجسيد الأوضح والأشمل للطغيان، إنما جنوده وأجهزته أيضا، إذ لولاهم لما قدر على الظلم والفساد، بل لعلنا نعمم الحكم على سائر معاني الطغيان، فكما يطغى الإنسان في الحياة السياسية فإنه يطغى كذلك في الحياة الاجتماعية، فيظلم جاره وأسرته والناس، ويظهر من أحاديث مستفيضة في تفسير الآية أن المعني بالطاغين هم سلاطين الجور، بينما المعني بما يلي هم أتباعهم ومن سار على دربهم.

[٥٦] وتفصّل الآيات في ذكر عاقبة الطغاة، زيادة في التخويف لعل الإنسان يثوب عن الباطل، ويهتدي للحق رغبة في الثواب، ورهبة من العذاب. ﴿جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا﴾ قال بعض الفلاسفة القدماء -يتبعهم بعض الجهلة اليوم-: إن أهل النار يتعودون على عذابها فلا يعودون يتأثرون به، وجَسَّدوا هذه الفكرة المنحرفة في هيكل حيوان زعموا بأنه يلتهم النار، أما القرآن وهو الحق فإنه يخالف هذه الخرافة مؤكدا بأن المجرمين يتذوقون العذاب، وكلمة ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ تعني أنهم تمسهم جهنم مسا.

﴿فَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ وهو المكان الذي يمهد ويهيأ لهم وكأنهم مهَّدوا لأنفسهم فراشا من النار في جهنم، بلى؛ تمهيد الأرضية لسلطانهم تجسد في ذلك اليوم في تمهيد جهنم لهم.

[٥٧] ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ والحميم هو الحرارة الشديدة، أما الغسّاق فهو كما جاء في بعض كتب اللغة: القيح النتن، وفي الرواية عن الإمام أبي جعفر عليه السلام قال: «**الغَسَّاقُ وَادٍ فِي جَهَنَّمَ فِيهِ ثَلاثُمِائَةٍ وَثَلاثُونَ قَصْرٍ فِي كُلِّ قَصْرٍ ثَلاثُمِائَةٍ وَثَلاثُونَ بَيْتٍ، فِي كُلِّ بَيْتٍ أَرْبَعُونَ زَاوِيَةً فِي كُلِّ زَاوِيَةٍ شُجَاعٌ (الحية العظيمة المخيفة) فِي كُلِّ شُجَاعٍ ثَلاثُمِائَةٍ وَثَلاثُونَ عَقْرَباً فِي جُمْجُمةِ كُلِّ عقرَبٍ ثَلاثُمِائَةٍ وَثَلاثُونَ قُلَّةِ سَمٍّ، لَوْ أَنَّ عَقْرَباً مِنْهَا نَضَحَتْ سَمَّهَا عَلَى أَهْلِ جَهَنَّمَ لَوَسِعَتْهُمْ بسَمّها**»(١).

[٥٨] ﴿وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ﴾ ولا يقتصر العذاب على هذين النوعين إنما هو أنواع وأساليب مختلفة كثيرة، ونستوحي من هذه الآية أن أنواع العذاب كثيرة جدا، إلا أن بعضها يتلازم مع بعض، كما يتلازم الحميم مع الغساق ويكمله.

[٥٩] وبعد أن يدخل الطغاة النار وينتهي كل واحد إلى موقعه، الذي يضيق به، يجدونه آخرين من أشباههم وأتباعهم الذين انخدعوا بهم يدخلون معهم إلى جهنم ويقال لهم. ﴿هَٰذَا

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٢٤٢.

﴿فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ﴾ واحتمل أن يكون المراد من الآخر: الفوج الآخر، وهم أزواج ومشابهون للفوج الأول، ويكون ذلك تمهيدا للحديث التالي عنهم، وهذا يتشابه وما ذكرناه في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾ [الصافات: ٢٢].

والاقتحام هو الدخول في الشيء بشدة كالمسمار الذي لا مكان له في الحائط فتدخله المطرقة قسرا، ولأن الطغاة يتعذبون من ضيق المكان، وأن النار تضيق عليهم كضيق الزج بالريح [١] كما جاء في حديث الرسول ﷺ فإنهم ينادون بهم، لهذا وعلى خلاف ما يقوله صاحب البيت لضيفه فإنهم يقولون: ﴿لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡ﴾ أي لا مكان يسعهم، ولا نفس تقبل بحلولهم، والرحب هو المكان الوسيع، فكأنهم أرادوا القول: بأن المكان ضيق ويضيق أكثر بهم، وعللوا لعنهم وسبهم لهم بأنهم أهل جهنم، وهل يرحب بمن سيصلى نارا؟!

﴿إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ﴾ وهذا ما يؤكده ربنا بقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

[٦٠] ويبدأ حينئذ الصراع العنيف بين الطرفين، الذي ينتهي إلى التخاصم والتقاتل، وفي البين يلقي البعض المسؤولية على البعض الآخر. ﴿قَالُواْ﴾ الأتباع وهم يردون على كلام الطغاة، حيث تتحول التحية وأعراف الاستقبال إلى سباب بينهم. ﴿بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡ﴾ لأنكم السبب ومنكم الأذى والعذاب، ويواصل التابعون شجارهم مع الطغاة وهم يحاولون تبرير موقفهم، والتهرب من المسؤولية. ﴿أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَا﴾ إذ أغريتمونا باتباعكم، وظللتمونا بمختلف الوسائل حتى صرنا إلى هذا العذاب. ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ﴾ أي ساء المكان الذي نستقر ونثبت فيه، ويقال: فلان قرر أن يفعل كذا إذا ثبت فكره على رأي معين فهو غير متردد، بل حاسم وقاطع في أمره. وهذه الكلمة تدل على الخلود في النار، وحين يكون المنزل الأخير سيئا فساء مصيرا.

[٦١] ويطلب التابعون من الله أن يزيد العذاب على الطغاة، جزاء لهم على جرائمهم التي مارسوها بأنفسهم، وعلى المعاصي التي مارسها التابعون بضغوطهم وتضليلهم. ﴿قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ﴾.

[٦٢] ثم يلتفتون إلى بعضهم ويتساءلون: لماذا لا نجد فلانا وفلانا -يقصدون بعض المؤمنين- في النار؟! ﴿وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالٗا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلۡأَشۡرَارِ﴾ وهناك تنكشف لهم أخطاؤهم، ففي البدء اكتشفوا أن القيادة التي اتبعوها كانت منحرفة، والآن تبين لهم أيضا

(١) نور الثقلين: ج ٤ ص ٤٦٧ والزج: كما يبدو هو القربة.

أن مقاييسهم في الحياة وتقييمهم للآخرين هي الأخرى كانت خاطئة، وكان ينفعهم ذلك لو عرفوه في الدنيا وعملوا على إصلاح أنفسهم، ولكنهم رفضوا الرسالة واتبعوا الأهواء.

[٦٣] ويُردُّ أهل النار عدم رؤيتهم لمن كانوا يتصورونهم أشرارا في النار إلى أحد سببين، فإما أنهم صاروا إلى الجنة وهذا يعني أن مقاييسهم وبالتالي موقفهم تجاه أولئك كان خاطئا، أو أنهم موجودون معهم ولكنهم لا يرونهم. ﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ في الدنيا وتبين الآن سلامة خطهم. ﴿أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ فلا نراهم.

ولهذا المقطع تفسير آخر هو: أنهم يعنون الله، بأنه ربما أدخلهم الجنة غفلة واشتباها مع أنهم من أهل النار، وتعالى ربنا أن يضل أو ينسى، بل هم المخطئون في تقييمهم للمؤمنين.

ويبقى السؤال: من هم أولئك الذين تعنيهم الآيات في واقعنا الراهن؟

إنهم الطغاة بلا ريب، وهم حكام الجور المتسلطون قسرا على رقاب العباد، والذين يحكمون بغير ما أنزل الله، ويتجاوزون حدود الله، ويذلون عباد الله، أما جنودهم وأزواجهم فهم الذين يتبعون نهجهم، أو يشاركونهم في ظلمهم. أما الذين يعدونهم من الأشرار فهم الثائرون ضدهم من عباد الله المخلصين، الذين رفضوا عبادة غير الله، واتخاذ الآلهة المزيفة أربابا من دون الله رب العالمين. إن الطغاة وجنودهم من قوى الظلم، وأبواق الضلالة، يكيلون التهم ضد الثائرين عليهم، و يَعُدُّونهم شرا من اليهود والنصارى والمجوس. ولكن هؤلاء الذين عَدُّوهم أشرارا في الدنيا يفتقدونهم في النار، ويعلمون أنهم هنالك في الجنة يحبرون.

وكان أتباع أهل بيت الرسالة من هؤلاء، إذ رفضوا سلطات الجور والقمع والضلال، وطاردتهم قوى الإرهاب، وألصقت بهم أبشع التهم، ولكن أئمة الهدى من آل الرسول عليهم السلام كانوا يُسلّونهم بأنهم سوف يُحبرون في الجنة بينما يُطلبون في النار.

يقول (مُيَسّر) -وهو أحد المؤمنين الرافضين لسلطات الجور-: «دَخَلْتُ عَلَى أَبِي عَبْدِالله عليه السلام فَقَالَ: كَيْفَ أَصْحَابُكَ؟ فَقُلْتُ: جُعِلْتُ فِدَاكَ لَنَحْنُ عِنْدَهُمْ أَشَرُّ مِنَ اليَهُودِ والنَّصَارَى والمَجُوسِ والَّذِينَ أَشْرَكُوا قَالَ وكَانَ مُتَكِئاً فَاسْتَوَى جَالِساً ثُمَّ قَالَ عليه السلام: كَيْفَ قُلْتَ؟ قُلْتُ: واللهِ لَنَحْنُ عِنْدَهُمْ أَشَرُّ مِنَ اليَهُودِ والنَّصَارَى وَالمَجُوسِ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا فَقَالَ عليه السلام: أَمَا وَالله لَا تَدْخُلُ النَّارَ مِنْكُمُ اثْنَانِ لَا والله وَلَا وَاحِدٌ وَالله إِنَّكُمُ الَّذِينَ قَالَ اللهُ عَزَّ وجَلّ: ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ ثُمَّ قَالَ عليه السلام: طَلَبُوكُمْ والله فِي النَّارِ فَمَا وَجَدُوا مِنْكُمْ أَحَداً»[1].

---

(١) الكافي: ج٨ ص٧٨.

هكذا يتعرض المؤمنون الصادقون للضغوط ولكنهم سوف يحبرون في الجنة حين يتخاصم الطغاة و جنودهم وأتباعهم في النار.

[٦٤] بلى، هذا الصراع في النار هو واقع.. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾.

[٦٥] وإنما جاءت رسالات الله لتنقذ الإنسان من هذا المصير الأسود، وذلك من خلال دعوتها له لنبذ الآلهة المزيفة، واتباع التوحيد الخالص في الحياة، فنهته عن عبادة الطغاة بطاعتهم، وعن عبادة الأجيال السابقة باتباع سيرتها الخاطئة. ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ وحتى هذا المنذر يجب أن لا يعبد من دون الله ولو بلغ من العظمة ما بلغ. ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ الذي يقهر الأعداء ويغلبهم، ومن أبرز شواهد القهر ووسائله هو الموت الذي يخضع له الجميع، فلا يقوى أحد على دفعه عن نفسه، ونقرأ في دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام قوله: «فَيَا مَنْ تَوَحَّدَ بِالعِزِّ وَالبَقَاءِ وَقَهَرَ عِبادَهُ بِالْمَوْتِ وَالفَنَاءِ»[1]. ولا ينحصر قهر الله في الموت وحسب بل يدخل في تطبيق كل حق وسنة في الحياة، ومن لا يستجيب لله وللحق الذي تتضمنه رسالاته، وبما ينذر به الأنبياء ومن يتبعهم باختياره وإرادته فسوف يقهره الله عليه بالرغم منه، في الدنيا إن شاء ذلك أو في الآخرة.

[٦٦] وحتى لا يستبد بنا الخوف منه تعالى، يذكرنا برحمته وغفرانه. ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ ورب الشيء هو الأرأف به، والأحرص عليه.

[٦٧-٦٨] ومن العوامل النفسية لارتكاب الخطأ، والوقوع في الضلالة التهاون بهما، والاسترسال فيهما، وعدم الجدية في مواجهتهما، فإن الله يقول: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ أي إن إعراضكم عن عبادة الله، وتوجهكم إلى الشرك أمر عظيم جدا، وهل أعظم من ترك الإنسان رب السماوات والأرض إلى الشركاء المزيفين، ونبذه قيم الحق الفطرية إلى الباطل والضلال؟ إذا لا يجوز أن يستهين الإنسان بالشرك ويسترسل معه، وإلى أين ينحدر به مهوى الشرك؟ إلى الجحيم، وهل يمكن أن نستهين بعذابه الخالد؟ وحين يكون الإنسان جديا في مواجهة الشرك يعرف معانيه، ويتبصّر مهالكه، أو ليس الخروج عن ولاية أئمة الهدى إلى ولاية أئمة الكفر والضلالة شركا، أو ليس اتباع الظلمة أو حتى السكوت عنهم شركا عظيما، هكذا روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في تفسير الآية: «... النَّبأُ الإِمَامَةُ»[2].

[٦٩] ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ويؤكد ربنا على أهمية التوحيد، وأنه

---

(١) بحار الأنوار: ج٨٤، ص٣٣٩، من دعاء الصباح.
(٢) بحار الأنوار: ج٢٣، ص٢٠٣.

محور الحوار الذي دار في الملأ الأعلى حين خلق الله الإنسان الأول، وأسجد له ملائكته، ورفض إبليس السجود تكبرا، وبالتالي أنه هدف خلق البشر، و حكمة سجود الملائكة له، فكيف يجوز التهاون فيه؟!.

[٧٠] ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ إن دور الرسول ﷺ هو الإنذار بوضوح، ومسؤوليته إبلاغ الرسالة إلى الناس كما هي بالضبط، وفي هذا تمهيد للحديث الذي سيتطرق له الدرس القادم حول قضية آدم وإبليس، التي تمثل جانبا من الغيب، حيث يحتاج التسليم لما يقوله الرسول فيها لهذه المعرفة بدور الرسول، ذلك أن الجدل الذي دار عند خلق الإنسان في الملأ الأعلى بين الملائكة وربهم -سبحانه وتعالى- كان حول حكمة خلق الإنسان الذي يفسد في الأرض، ويسفك الدماء، ولكن ربنا قال لهم يومئذ: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾[البقرة: ٣٠]. وكان من علم الله انبعاث الرسل، وإيمان فريق من الناس بهم، وخلوصهم في عبادة ربهم، برغم عواصف الشهوة، ونوازع الكبر والغفلة، وضغوط الطغاة، مما جعل هذا الفريق هم صفوة الخلق الذين باهى بهم الله ملائكته المقربين.

وهكذا نقرأ في النصوص الإسلامية: أن ما اختصم به في الملأ الأعلى الأعمال الصالحة التي بادر إليها المخلصون من البشر، فعن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: «**قَالَ لِي رَبِّي أَتَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلأُ الأَعْلَى؟. فَقُلْتُ: لَا. قَالَ: اخْتَصَمُوا فِي الْكَفَّارَاتِ وَالدَّرَجَاتِ.**

فَأَمَّا الْكَفَّارَاتُ: فَإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ فِي السَّبَرَاتِ، وَنَقْلُ الأَقْدَامِ إِلَى الْجَمَاعَاتِ وَانْتِظَارُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الصَّلَاةِ وَأَمَّا الدَّرَجَاتُ فَإِفْشَاءُ السَّلَامِ وَإِطْعَامُ الطَّعَامِ وَالصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ»[1]. وتضيف رواية ثانية عن النبي ﷺ: «... **وَوَلَايَتِي وَوَلَايَةُ أَهْلِ بَيْتِي حَتَّى الْمَمَاتِ**»[2].

وإذا تدبرنا في سياق الآيات لعرفنا أن أعظم أهداف خلق البشر هو توحيد الله، ولا يتحقق توحيد العبد ربه إلا بالتسليم لولاية الله وولاية من عقد الله له الولاية، ورفض الأنداد والآلهة التي تعبد من دون الله، أما مجرد الصلاة دون التسليم للقيادة الشرعية فإنها فارغة عن جوهر العبادة. أرأيت الطغاة يمنعون عن الصلاة؟ كلا.. بل ترى بعضهم يبادر إلى بناء المساجد، وإقامة الصلوات الحاشدة فيها، ولكنهم يتكبرون في الأرض بغير الحق، فهل تشفع لهم صلاتهم هذه؟ كلا.. لأنهم ينازعون الله رداءه، ويغتصبون الولاية الإلهية ويدعون الناس إلى عبادتهم من دون الله.

---

(١) بحار الأنوار: ج١٨، ص٣٧٥.
(٢) بحار الأنوار: ج٦٧، ص٦.

فسجد الملائكة كلهم أجمعون

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ[1] ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾﴾

هدى من الآيات:

في الدرس الأخير من السورة وكعادة القرآن يؤكد السياق على الموضوع الأساسي فيها، وذلك ضمن بيان ما جرى بين رب العالمين والملائكة ثم بينه وبين إبليس، ومغزاه الكشف عن طبيعة الإنسان، والأسباب الحقيقية التي ترديه، فإذا به وقد كرّمه الله على كثير من الخلق ينتهي إلى أسوأ مصير.

في بداية السورة أكد ربنا على دور العزة والشقاق في ضلال الكفار، حيث يغترون بها

(١) رجيم: طريد مبعد.

لديهم من قوة ظاهرية، فيستكبرون على الحق ويشقون عصا الطاعة لله -عز وجل- بينما نجد في مقابلهم أنبياء الله عليهم السلام فهم بالرغم من الدرجة المعنوية التي أعطيت لهم (النبوة) وما أوتي بعضهم من القوة و الملك، إلا أنهم في أعلى درجات التوبة والإنابة إلى ربهم.

وفي نهاية هذه السورة المباركة يبيّن الله لنا صورة أخرى لهذه المقابلة جرت في الملأ الأعلى، فالعزة بالباطل عند إبليس عليه اللعنة، الذي اعتز بعنصره، ورفض الخضوع لله في قضية آدم من بين كل الملائكة، وبرر ذلك بأنه وهو المخلوق من نار السموم أفضل من آدم الطيني فكيف يسجد له؟ ولكن من قال: إن الأفضلية للطين؟ ثم لو افترضنا ذلك فهل هذا مبرر لمعصية ربِّ العالمين واختيار العاقبة السوء؟ بالطبع كلا.. ولكن إبليس اختار العزة بالباطل متمثلة في العنصرية، ثم راح يغوي الإنسان ويضله ليكون معه في غضب الله وناره.

وفي المشهد الآخر من الصورة نجد ملائكة الله على جلالة قدرهم يخرون ساجدين لآدم تعبدا لله وطاعة وتسليما، ويوصل القرآن بينهم وبين عباد الله المخلصين الذين لم يسمحوا لإبليس أن يغويهم.

ولان سورة محمد صلى الله عليه وآله تتشابه وسورة (الصافات) في نفي ألوهية الملائكة والأنبياء، فإنها تنتهي ببيان سجود الملائكة لآدم عليه السلام الذي خلق من طين والذي يتعرض لإغواء إبليس، وكيف يكون إلها من يسجد لغيره أو يتعرض لإغواء الشيطان؟!

بينات من الآيات:

[٧١] لما بدا لله تعالى خلق آدم أطلع الملائكة على هذه الإرادة. ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ والخطاب هنا يشمل حتى إبليس، لأنه قد رفع جزاء لعبادته لله إلى مقام الملائكة، فملائكيته التي يشمله (إبليس) بموجبها الأمر بالسجود -اعتبارية لا ذاتية- ويبدو أن متعلق قوله: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ هو قوله في آية سابقة.. ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾.

وبما أن أصل خلق البشر طين فلا يجوز أن يتفاخر الناس على بعضهم، كما لا ينبغي أن يفتخر أحد بنفسه وهل لمن أصله الطين فخر؟! والطين عندنا نحن البشر من أرذل العناصر وأقلها قيمة واعتبارا، والناس جميعا خلقوا من طين فلا يجوز أن يتخذ بعضهم بعضا أربابا من دون الله كالسلاطين، ولا أن يصبغ البعض صبغة الألوهية على بعض كما فعل النصارى بابن مريم عليه السلام.

[٧٢] ولم يطلع ربنا الملائكة على ما بدا له لمجرد إضافة معلومة جديدة إليهم بل ليأمرهم

بالسجود له عليه السلام. ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾ وقد اتصل الأمر بالسجود بحالة التسوية ونفخ الروح عند البشر، وهي حسب الظاهر كمال الخلق مما يوحي بأن سجود الملائكة (الذي يدل -ضمنا- على تسخير الطبيعة الموكل بها ملائكة الله)[1] يتعلق بكمال الإنسان، فكلما رقى البشر معارج العلم والإرادة والإيمان والتقوى سخرت له الخليقة أكثر فأكثر. أرأيت كيف سخر الله لداود الجبال والطير ولسليمان الريح؟ ويوحي نفخ الروح من الله في الإنسان وقبل السجود له تخصص البشر بميزات لا توجد في سائر الأحياء، ويبدو أن الروح هنا هي العقل الذي قال عنه ربنا سبحانه في آية أخرى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء: ٨٥].

﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ وهكذا أسس ربنا في حياة البشر مبدأ السجود لله عبر الخضوع والتسليم لخلفائه في الأرض، وهؤلاء الملائكة وهم من أعز خلق الله أسجدهم لمن نفخ فيه من روحه وجعله خليفته في الأرض.

[٧٣] وحيث أمر الله بالسجود لآدم استجاب جميع الملائكة إيمانا منهم بوجوب التسليم المطلق له -عز وجل- وأن أي اجتهاد أو قياس مقابل أمره باطل ولا يرفع المسؤولية عن صاحبه. ﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ ﴾ وكان يكفي أن تنتهي الآية إلى هذا الحد لتبين المطلوب، ولكن ربنا أضاف تأكيدا لذلك قائلا: ﴿أَجْمَعُونَ ﴾ وإنما كانت عظمة الملائكة بخضوعهم لله ولمن أمر الله بالخضوع له.

[٧٤] ثم استثنى ربنا من الساجدين إبليس الذي استكبر واستبدت به العزة والكبرياء، وهو استثناء منقطع، فشق عصا الطاعة. ﴿ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ لقد كان إبليس يسجد لله سجدات طويلة لعل بعضها يمتد أربعة آلاف عام، وقد اقترح على الله بأن يسجد له سجدة مطولة بدل سجوده لحظات لآدم، فرفض طلبه. لماذا هذا الاقتراح؟ ولماذا الرفض؟

أولاً: السجود لآدم بأمر الله -ذلك الطين اللازب الذي يحتقره إبليس- هو معيار الخضوع لله وليس مجرد الوقوع على الأرض باسم السجود لله، ولعل صاحبه يكرس ذاتياته بذلك، وإنما يفعل ما يفعل رياء، ولا يزيده إلا عجبا. وهكذا نحن البشر لا تنفعنا عامة الصلاة والصيام إن لم نسلم لمن أمر الله بالتسليم له من خلفائه في الأرض، وهكذا كانت الولاية سنام الدين، وعمود الشريعة، وأعظم ما في ميزان العبد يوم القيامة لأنها في الحقيقة هي التوحيد

(١) راجع تفسير سورة البقرة آية: ٣٤.

الخالص.

ثانياً: حين لم يسجد إبليس لآدم عُدَّ مستكبرا، وألحق بالكفار بالرغم من أنه كان يؤمن بالله، ولكن إيمانه لم يبلغ درجة التوحيد إذ إنه كان يؤمن قبلئذ بذاته وبعنصره الناري، فلم ينفعه الإيمان ولا سجداته الطويلة شيئا.

[٧٥] فسأله رب العالمين: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ وللمفسرين في كلمة ﴿بِيَدَيَّۖ﴾ تفاسير عديدة أما التفسير الأقرب للسياق -في نظري- أنها القدرة، لأنه سبحانه لا يملك يمينا ولا شمالا. وفي حديث عن الإمام الرضا عليه السلام: «**يَعْنِي بِقُدْرَتِي وَقُوَّتِي**»[1]. وتعبير اليدين كناية عن تمام القوة والقدرة التي تجلت في خلق آدم فالاستكبار وقع على شيء صنعته القدرة الإلهية. ﴿أَسۡتَكۡبَرۡتَ أَمۡ كُنتَ مِنَ ٱلۡعَالِينَ﴾ هل كان السبب أنك تكبرت لمجرد الاستكبار ومن دون سبب واقعي، أم أنك فعلا تجد نفسك جديرا بعدم السجود؟ بمعنى أن فرض كونه من العالين ينفي عنه صفة الاستكبار للترديد بينهما. ولما كان من غير العالين فهو مستكبر. أما العالين فهم الأشباح المحدقة بساق العرش. وقال البعض أن معناه: هل استكبرت الآن أم كنت أبداً من العالين.

[٧٦] إن عدم سجود إبليس كان لاستكباره، وإلا فجوهره في واقع الأمر لا يتميز عن آدم فهو مخلوق مثله، ولا يحق للمخلوق أن يرفض أمر الخالق، ولكن إبليس رأى نفسه متميزا، وسبب ذلك أنه اتبع المقاييس الشيئية لا المقاييس القيمية فانتهى إلى أفضلية النار على الطين، واعتز بعنصره وذاته، فرفض السجود لآدم و الطاعة لله سبحانه، وهذا يدل على بطلان القياس عموما، ذلك لأن قيمة أي شيء ليست بذاته بل بما يضفي عليه الرب من قيمة واعتبار، فالصلاة معراج المؤمن لأن الله جعلها كذلك، والحج جهاد الضعفاء لأن الله شرع ذلك، والأنبياء خلفاء الله لأن الله حملهم رسالاته وجعلهم أئمة وهداة.

ولا يعرف تشريع الله إلا من عنده، أما البشر فإنه إذا أراد أن يتشبث بالقياس فسوف يهبط إلى مستوى مقاييسه الشيئية فهذا إبليس برغم علمه وعبادته هوى إلى أسفل السافلين حين ترك قيمة التوحيد إلى الشرك، ومقياس أمر الله إلى مقياس خلق الله، ولم يعرف أن عظمة خلق الله إنما هي بأمر الله، فالنار كنار لا تعدو أن تكون خلقا خلقها الله بأمره، وأركز فيها خصائص وميزات من الحرارة والإضاءة، وإن شاء الله أعدمها أو أعدم حرارتها، كما فعل لإبراهيم عليه السلام، أو أزال ضوءها كنار جهنم، إذن الشيء كشيء لا قيمة له، إنما قيمته باعتبار أمر الله، وهذا هو السبب الجوهري لبطلان القياس في الدين، والحاجة إلى الرسل.

---

(١) عيون الأخبار: ج١ ص١٢٠.

﴿قَالَ﴾ وهو يبرر موقفه المنحرف. ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ فهو يرى أنه أفضل من آدم عليه السلام لا بالعمل الصالح والطاعة والعبادة المخلصة بل بعنصره الناري. ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ إن المهم في الخلقة ليس المخلوق بذاته، بل ما يعطيه الخالق له من قيمة ومنزلة، ومادام الرب واحدا فإن قيمة المخلوقين من الناحية الجوهرية واحدة، وإنما يتفاضلون بما يحدده الرب من مقاييس للتفاضل، و ليس ثمة قيمة عند الله لأحد بذاته، إنما تقواه وعمله الصالح.

جاء في نهج البلاغة: «الحَمْدُ للهِ الَّذِي لَبِسَ العِزَّ والكِبْرِيَاءَ واخْتَارَهُمَا لِنَفْسِهِ دُونَ خَلْقِهِ وجَعَلَهُمَا حِمًى وحَرَماً عَلَى غَيْرِهِ واصْطَفَاهُمَا لِجَلَالِهِ وجَعَلَ اللَّعْنَةَ عَلَى مَنْ نَازَعَهُ فِيهِمَا مِنْ عِبَادِهِ ثُمَّ اخْتَبَرَ بِذَلِكَ مَلَائِكَتَهُ المُقَرَّبِينَ لِيَمِيزَ المُتَوَاضِعِينَ مِنْهُمْ مِنَ المُسْتَكْبِرِينَ فَقَالَ سُبْحَانَهُ وهُوَ العَالِمُ بِمُضْمَرَاتِ القُلُوبِ ومَحْجُوبَاتِ الغُيُوبِ: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ اعْتَرَضَتْهُ الحَمِيَّةُ فَافْتَخَرَ عَلَى آدَمَ بِخَلْقِهِ وتَعَصَّبَ عَلَيْهِ لِأَصْلِهِ فَعَدُوُّ اللهِ إِمَامُ المُتَعَصِّبِينَ وسَلَفُ المُسْتَكْبِرِينَ الَّذِي وَضَعَ أَسَاسَ العَصَبِيَّةِ ونَازَعَ اللهَ رِدَاءَ الجَبْرِيَّةِ وادَّرَعَ لِبَاسَ التَّعَزُّزِ وخَلَعَ قِنَاعَ التَّذَلُّلِ أَلَا تَرَوْنَ كَيْفَ صَغَّرَهُ اللهُ بِتَكَبُّرِهِ ووَضَعَهُ بِتَرَفُّعِهِ فَجَعَلَهُ فِي الدُّنْيَا مَدْحُوراً وأَعَدَّ لَهُ فِي الآخِرَةِ سَعِيراً ولَوْ أَرَادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ آدَمَ مِنْ نُورٍ يَخْطَفُ الأَبْصَارَ ضِيَاؤُهُ ويَبْهَرُ العُقُولَ رُوَاؤُهُ وطِيبٍ يَأْخُذُ الأَنْفَاسَ عَرْفُهُ لَفَعَلَ ولَوْ فَعَلَ لَظَلَّتْ لَهُ الأَعْنَاقُ خَاضِعَةً ولَخَفَّتِ البَلْوَى فِيهِ عَلَى المَلَائِكَةِ ولَكِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ يَبْتَلِي خَلْقَهُ بِبَعْضِ مَا يَجْهَلُونَ أَصْلَهُ تَمْيِيزاً بِالاخْتِبَارِ لَهُمْ ونَفْياً لِلاسْتِكْبَارِ عَنْهُمْ وإِبْعَاداً لِلْخُيَلَاءِ مِنْهُمْ.

فَاعْتَبِرُوا بِمَا كَانَ مِنْ فِعْلِ اللهِ بِإِبْلِيسَ إِذْ أَحْبَطَ عَمَلَهُ الطَّوِيلَ وجَهْدَهُ الجَهِيدَ وكَانَ قَدْ عَبَدَ اللهَ سِتَّةَ آلَافِ سَنَةٍ لَا يُدْرَى أَ مِنْ سِنِي الدُّنْيَا أَمْ مِنْ سِنِي الآخِرَةِ عَنْ كِبْرِ سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ فَمَنْ ذَا بَعْدَ إِبْلِيسَ يَسْلَمُ عَلَى اللهِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ كَلَّا مَا كَانَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِيُدْخِلَ الجَنَّةَ بَشَراً بِأَمْرٍ أَخْرَجَ بِهِ مِنْهَا مَلَكاً إِنَّ حُكْمَهُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ وأَهْلِ الأَرْضِ لَوَاحِدٌ ومَا بَيْنَ اللهِ وبَيْنَ أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ هَوَادَةٌ فِي إِبَاحَةِ حِمًى حَرَّمَهُ عَلَى العَالَمِينَ»(١)

إن انحراف إبليس لم يكن بجبر من الله إنما باختياره هو نفسه، ومن الحوار الذي جرى بين الله وبينه يتبيّن أنه تعالى أراد هدايته فقد أكثر القول له، وهذا أساس في القرآن والرسالات الإلهية الأخرى، لأن الفلسفات الأخرى القديمة والحديثة كلها تعتقد بالجبر، وأن الشر من الله -تعالى عما يصفون- أو من إله معارض له في الرأي، مساو له في القوة، وهذه الثنائية موجودة بصورة أو بأخرى في كل الفلسفات كالفلسفة الشيوعية التي تؤمن بثنائية الحتمية التاريخية، أو

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٩١.

كالفلسفة التي تعتقد بالثنائية الجنسية.. الخ، وقد تسربت هذه الفلسفة المنحرفة إلى كثير من كتب الديانات ولكن هذه الآيات وأخرى كثيرة تلتقي معها في الموضوع تبين أن إبليس كان حرا في إطار قضاء الله وقدره، فهو غير قادر على مقاومة الإرادة الإلهية إذا أراد الله ذلك، لكنها من جانب آخر تؤكد بأنه تعالى لم يجبره على المعصية والانحراف، بل أعطاه المهلة وحاوره في الأمر إقامة للحجة لعله يهتدي للحق سبيلا.

[٧٧] فلما رفض وأصر على معصيته واعتزازه الباطل بعنصره، طرده الله من رحمته، واسترد منه الاعتبار الذي وهبه له من قبل. ﴿ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ والرجيم هو المطرود الذي لا أمل في رجعته، وربما لو كان ثمة احتمال لعودة إبليس للحق لما أخرجه الله من رحمته، وأمهله أكثر مما أمهله.

وفي القرآن آية تشير إلى الحكمة الإلهية التي مر ذكرها، يقول تعالى في معرض حديثه عن عصيانه إبليس: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ [الكهف: ٥٠]. والآية تشير إلى أنه كان جنيا ولكنه استطاع الوصول إلى مقام الملائكة، وذلك بعبادته وسعيه -كما في الروايات- ثم تشير إلى ترديه ومسيرته التنازلية وأن سببها المعصية لله، وتأكيد الآية على كونه من الجن يهدف تأكيد حريته واختياره، وكيف أنه علا إلى مقام الملائكة بعمله ثم أهبط بسوء اختياره.

وهذه الآية من سورة (ص) والتي تليها تبينان جانبا من العقوبات التي فرضها الله على إبليس وهي:

أولاً: سحب المزايا والاعتبارات التي حصل عليها بعبادته كدخوله الجنة، واعتباره من الملائكة، و شمول رحمة الله الخاصة له.

ثانياً: رجمه من قبل الله، والرجم هو الطرد الذي لا سبيل للعودة بعده -كما مر آنفا- فهو مبعد عن سائر الخلق، ومعنى ذلك أنهم لا يتفاعلون معه، وهذه حقيقة علمية يشرحها القرآن بعبارات بسيطة جدا، يفهمها حتى الطفل المميز، لأن هدف الآيات هو هداية الإنسان إلى الحق التي لا تتحقق بالعبارات الغليظة المعقدة التي لو استخدمها في القرآن لكان لطبقة معينة، وهذه الحقيقة العلمية تتمثل في أن عالم المخلوقات يتفاعل مع الحق ويتعاون معه، أما الشر والباطل فهو شذوذ وشقاق عن مسيرته، وحيث طرد إبليس -وهو رمز الشرك- بالرجم فإنه لا يكون معه ما في السماء والأرض وما بينهما. إن الأصل في الخلائق الخير لا الشر، والذي يطيع إبليس فإنما يطيع عنصرا ضعيفا، والقرآن يصرِّح بهذه الحقيقة عندما يقول: ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي

سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦]. ومن هذا المنطلق جاءت حتمية الانتصار للمؤمنين الصادقين على أعدائهم، ولهذا أيضا قال ربنا في مطلع السورة: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ﴾ [ص: ٢]. وقد فسرنا ذلك بأن الذي يخالف مسيرة الكون هم الكفار الذين يتحرفون عن فطرتهم فهم هالكون، وقد حذرهم الله في هذه السورة من ذلك، وقال: ﴿ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ﴾ [ص: ٣]. كما أكد مخالفة الطبيعة لمسيرتهم، وهزيمتهم الحتمية بقوله: ﴿ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ١٠ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴾ [ص: ١٠-١١].

[٧٨] **ثالثاً**: إلحاق اللعنة به إلى يوم الدين من قبل الله سبحانه، واللعنة تعبير عن عدم الرضا بشخص الملعون وعمله. وهي تعني:

ألف: عدم شرعية أعمال إبليس وأتباعه مهما أخذت أحجاما كبيرة على الطبيعة مؤقتا.

باء: ملاحقة الشيطان وأتباعه بالعذاب، وبالخذلان، وإحباط العمل. ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكَ لَعۡنَتِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ وفي يوم الدين يكون الحكم خالصا للقيم، وتنتهي فيه كل السلطات والحاكميات الأخرى بإرادة الله، و هناك يعني الحكم بعذاب إبليس وتتجلى اللعنة عليه بأوسع معانيها.

[٧٩] وحيث حبطت أعمال إبليس ولاحقته اللعنات عرض على الله طلبا. ﴿ قَالَ رَبِّ ﴾ مادمت خسرت الآخرة، وحبط عملي. ﴿فَأَنظِرۡنِيٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴾ لعله طلب ذلك في مقابل أعماله وعباداته التي قام بها أن يطيل الله عمره، ويمهله إلى يوم البعث.

[٨٠-٨١] فاستجاب الله طلبه ولكنه لم يحدد له موعدا معينا. ﴿ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلۡمُنظَرِينَ ٨٠ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡوَقۡتِ ٱلۡمَعۡلُومِ ﴾ وقد اختلفت آراء المفسرين حول المدة المعينة إلى قولين رئيسيين:

الأول: أن إنظار إبليس يمتد إلى يوم القيامة.

الثاني: أنه ينظر إلى يوم ظهور الحجة (عج).

وربما لم يعلم الله إبليس بساعة معينة للمهلة التي أعطاها إياه لكي يسلبه الاطمئنان، ولعل هناك حكمة أخرى لعدم إعطاء الرب موعدا محددا لنهاية إبليس تتجلى في إعطاء الرب

قدرة محاربة الشر، واقتلاع شأفته للبشر، حيث وهب لهم إمكانية القضاء على إبليس نهائيا في اليوم المعلوم، وربما تلتقي هذه الحكمة مع ظهور الإمام الحجة عليه السلام وظهور الحق على يديه -بإذن الله- حيث إنه بدوره يعتمد في جانب منه على إرادة أهل الحق والله العالم.

[٨٢-٨٣] وعندها استشاط اللعين غضبا وبعد أن اطمئن للوعد الإلهي بالإمهال، أقسم بعزة الله على إغواء أبناء آدم، وإذ يقسم بعزة الرب فهذا دليل على أن معصيته لم تكن عن جهل بعظمته وقدرته تعالى، إنما مارسها عن وعي وعناد.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ والناس أمام إغواء الشيطان على ثلاثة أصناف: فمنهم من يحيط به، ويستجيب له في كل شيء وهم المشركون والكافرون، ومنهم ممن تكون مسيرتهم العامة في الحياة سليمة ولكنهم يخضعون له، ويضعفون أمامه بعض الأحيان وهم أصحاب الدرجات العادية من الإيمان، ومنهم من لا يقدر على تحريفهم أبدا وهم المخلصون الذين تمحضوا في الإيمان كالأنبياء والأولياء، والذي يحدد انتماء الإنسان لأي من هذه الفِرَق هو مدى إيمانه وعمله وإرادته، وهذا الاستثناء من إبليس اعتراف واضح بإرادة الإنسان، ونسف لجميع الحتميات المزعومة، لأن ضغوط الشيطان وإغراءاته مع ذلك يستطيع البشر مقاومتها وقهرها بإرادته.

وهذه هي الفكرة المركزية في سورتي (ص والصافات) إذ تؤكد السورتان: أن من بين عباد الله عباد خلصوا لله من كل العلاقات المادية والشركية، فلا سبيل للشيطان عليهم.

[٨٤-٨٥] وفي مقابل قسم إبليس بإغواء العباد قطع الله على نفسه عهدا أن يدخله ومن تبعه جهنم، وأن يملأها منهم. ﴿قَالَ فَالْحَقُّ﴾ إن الجزاء حق أولا لأنه يجري أساس سنة الجزاء العادل المنسجمة مع سنن الله في الحكمة في الخليقة، وثانيا لأنه واقع لا ريب فيه. ثم أكد هذا التعهد بجملة تأكيدية، وقال: ﴿وَالْحَقَّ أَقُولُ﴾ بلى؛ كلام الرب تعبير دقيق عن حقائق الخليقة بلا أدنى اختلاف. ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ولا تعني هذه الآية أن الله يدخل العباد إلى النار جبرا، إنما هم الذين يختارون طريق الباطل المنتهي إليها، وإنما أشار الله إلى كثرة من يدخلها لعلمه الذي أحاط بالمستقبل إحاطة تامة، وفي القرآن تتكرر الآيات التي تشبه هذه الآية، ومع ذلك يبعد الكثير منا عن نفسه التهمة فيعتقد أن النار خلقت للآخرين، بينما يؤكد الله على امتلاء جهنم بالعاصين حتى لا يصيبنا الغرور والعجب بإيماننا وأعمالنا فنتوقف أو نتوانى في عمل الصالحات، وحتى نظل نسعى جهدنا لإنقاذ أنفسنا من جهنم بدافع الخوف من الخزي والعذاب يوم القيامة، وقد ورد في تفسير الآية الكريمة: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴾ [مريم: ٧١].

عن أئمة الهدى عليهم السلام أن كل العباد يمرون فوق الصراط الذي ينصبه الله على النار، ولا يجوزه إلا المخلصون، أما من تمحض في الكفر والشرك فإنه يخلد فيها أبدا ويبقى الذين عندهم بعض المعاصي والذنوب فيها فترة يُطَهَّرون منها بالعذاب وكل يلبث فيها بقدر انحرافه. ولو بحثنا في الأسباب التي تؤدي بالإنسان إلى جهنم لوجدناها كثيرة جدا، وعلينا باليقظة الشديدة حتى نتقيها، ونتقي بذلك نار جهنم.

[٨٦] والملاحظ في هذه السورة المباركة وبالذات عند الحديث عن قصة إبليس، وهكذا في كثير من موارد القرآن تكرار الابتداء بفعل الأمر ﴿ قُلْ ﴾ ولعل ذلك للأسباب التالية:

الأول: لكي يتأكد لنا بأن القرآن ليس من عند الرسول صلى الله عليه وآله، وإنما هو واسطة بين الله وعباده، ودوره بالنسبة إلى الآيات ينحصر في قراءتها على الناس، فهو ليس بمفتر ولا بإله، إنما هو مبلغ لرسالات ربه.

الثاني: يتركز هذا الأسلوب عند الحديث عن الأشياء الغيبية كقصة السجود لآدم عليه السلام التي وردت في هذه السورة، وذلك لكي لا يعتقد الناس بأنها ضرب من الوهم والخرافة، أو أنها مجرد تصورات إنسان مثلهم محدود العلم فلا يصدقوها.

ولهذا أيضا قدم قول الرسول صلى الله عليه وآله بأمر من الله، حيث أراد الحديث عما جرى في الملأ الأعلى ﴿ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ثم أكد أن ما سوف أقوله لكم عن الغيب هو من عند الله ﴿ إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾ ثم بدأ الحديث عن الغيب، وضمنه في مطلع كل آية -تقريبا- ما يدل على نزوله من الله وهو فعل ﴿ قُلْ ﴾.

الثالث: أن الأمر بالإعلان عن شيء بصيغة ﴿ قُلْ ﴾ أكد من بيانه للعلم. أفلا ترى أن قوله سبحانه: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ أشد تأكيدا من قول: ﴿ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ ذلك لأن من يعلم شيئا قد لا يكلف نفسه أمر الانصياع له أو إبلاغه للآخرين، بخلاف ما لو قيل له ﴿ قُلْ ﴾ فإنه يعني الالتزام بما يقوله، بالإضافة إلى بيانه وتحدي الآخرين به.

وهكذا نجد القرآن هنا يأمر الرسول بالإعلان عن تجرد دعوته من المطامع المادية، وأنه لا يطالبهم بأجر. ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ وإنما يدعوهم إلى الحق، وهذا الإعلان يعكس شخصيّة الرسول صلى الله عليه وآله التي تشهد بصدقه، كما أنه يعتبر التزاما أدبيا أمام الناس بعدم المطالبة بأجر، ثم أمره ببيان أبرز صفاته الحسنى وقال: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ ولماذا يتكلف صاحب الحق وهو يحمل للناس رسالة تتفق مع فطرتهم، وتؤيدها عقولهم وجميع سنن الحياة وقوانينها لأنها رسالة رب العالمين، بلى؛ إن الذي يحتاج إلى التكلف هو صاحب الباطل، لأن ما يأتي به

ليس سوى شذوذ يرفضه كل ما في الحياة، وتأباه النفوس بفطرتها، فلكي يخدع الناس به لا بد أن يتكلف، ويتوسل بأساليب ملتوية، وكمثال على ذلك: الكاذب، فإنه وهو يريد الحديث عن شيء غير واقعي لا يصدقه الناس يضطر إلى زخرفة الكلام، والحلف باليمين المتكررة، أما الصادق فهو واضح في كلامه مطمئن في نفسه.

وحياة الرسول ﷺ تشهد بانسيابه مع الحقائق بالفطرة النقية، والصراحة البالغة، والبصيرة النافذة، فلا يستعجل أمر ربه، ولا يتكلف حكما ما أنزل الله به قرآنا، ولا يجبر الله على شيء لم يبلغوا مستواه، ولا ينازع أحدا حقه أو سلطانه، ولا يجزع، ولا يهلع، ولا يستأثر، ولا يتصنع، ولا يغل، ولا يغش، ولا يطلب سوى صراح الحق، وواضح الرأي.

و جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام فيما يرتبط بهذه الآية أنه قال: «**أَنَّ الْمُسْلِمِينَ قَالُوا لِرَسُولِ اللهِ: لَوْ أَكْرَهْتَ يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ قَدَرْتَ عَلَيْهِ مِنَ النَّاسِ عَلَى الإِسْلَامِ لَكَثُرَ عَدَدُنَا وَقَوِينَا عَلَى عَدُوِّنَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: **مَا كُنْتُ لِأَلْقَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ بِبِدْعَةٍ لَمْ يُحْدِثْ إِلَيَّ فِيهَا شَيْئًا ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾**»[1].

[٨٧] وتعرف الرسالة بالرسول الداعي إليها، فهو الصادق الأمين، الذي لا يطلب أجرا ولا يتكلف أمرا، و تعرف الرسالة أيضا بمحتواها، كما يعرف الرسول بمثل تلك الرسالة. ومن أبرز علامات الصدق في رسالة الإسلام عالميتها فهي تتجاوز الحدود والأطر لتكون لجميع الناس، فلا عشائرية، ولا عنصرية، ولا قومية، ولا طبقية، ولا إقليمية، و....، بلى؛ إن ما نزل من عند رب العالمين يكون لكل العالمين، أما ما انبعث من فكر الإنسان المحدود فهو محدود بحدود ذلك الإنسان. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ والإنسان في كل مكان وزمان فطرته واحدة، والقرآن يشير إلى هذه الفطرة بما تنطوي عليه من تسليم واعتقاد بالحقائق التي تشتمل عليها، وذلك عبر التذكير.

[٨٨] وإذا لم يتذكر البشر ويصدق بما جاء به القرآن فهو قد طمس فطرته، وعطل عقله، وإنما يكتشف صدق الرسالة بعد الموت، أو أثناء الحياة عند التجلي الأعظم له. ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ﴾ وهذا التحذير المبطن يكفي الإنسان خوفا من عواقب التكذيب بالحق، وممارسة الانحراف والمعصية، ويهدي إلى التصديق بالرسالة، وعدم الاسترسال في الغفلة والضلال.

---

(١) بحار الأنوار: ج٥ ص٤٩.

سُورَةُ الزُّمَر

* مكية.

* عدد آياتها: ٧٥.

* ترتيبها النزولي: ٥٩.

* ترتيبها في المصحف: ٣٩.

* نزلت بعد سورة سبأ.

فضل السّورة

عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الزُّمَرِ وَاسْتَخَفَّهَا مِنْ لِسَانِهِ يُبْنَى لَهُ فِي الجَنَّةِ أَلْفُ مَدِينَةٍ فِي كُلِّ مَدِينَةٍ أَلْفُ قَصْرٍ فِي كُلِّ قَصْرٍ مِائَةُ حَوْرَاءَ وَلَهُ مَعَ هَذَا ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ وَ﴿عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ وَعَيْنَانِ [جَنَّتَانِ] ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ وَ﴿حُورٌ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ﴾ وَ﴿ذَوَاتَا أَفْنَانٍ﴾ وَ﴿مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾».

(بحارالأنوار: ج٨، ص١٩١)

***

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَنْ قَرَأَ هذِهِ السوُّرَةَ لَمْ يَبْقَ نَبِيٌّ ولاَ صِدِّيقٌ إلاَّ صَلَّوا واسْتَغْفَرُوا لَهُ، ومَنْ كَتَبهَا وَعَلَّقَها عَلَيْهِ أَو تَرَكَهَا فِي فِرَاشِهِ، كُلُّ مَنْ دَخَلَ عَلَيهِ وَخَرَجَ أَثْنَى عَلَيهِ بِخَيرٍ، وَشَكَرهُ، ولاَ يَزَالُونَ عَلَى شُكرِهِ، مُقِيْمِينَ أَبَداً تَعَطفاً مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ».

(تفسير البرهان: ج ٤ ص ٦٧)

الإطار العام

الإنسان؛ العمل والانتماء

من الناس من ينبهر بتفوق الأنبياء والأولياء على غيرهم بالعزم والتقوى والعلم والاجتهاد، فيزعم أنهم أبناء الله،فتهون في عينه الذنوب، اعتماداً على شفاعتهم.

فبعد أن يوجه القرآن أنظارنا إلى نفسه، وأنه تنزيل من الرب العزيز الحكيم، ينعطف إلى الموضوع الرئيس لهذه السورة، ألا وهو نفي شراكة الأولياء لرب العزة، وضرورة إخلاص العبودية لله الذي له الدين الخالص.

وتتصدى سورة (الزمر) لهذه العقيدة الفاسدة لتكتمل صورة التوحيد النقي لدينا، بعد أن تصدت سورة (الصافات) للعقيدة الفاسدة التي زعمت الملائكة أبناء الله، وسورة (ص) تصدّت لآلهة السلطةوالثروة المزيفين.

كما يبيّن السياق الحديث عن الشرك بالله، وأن الإنسان إذا مسه الضر دعا ربه منيباً إليه دون الأنداد، ويحتج عليه بحجةوجدانية بالغة، هي أن الأنداد لا يضرون شيئاً ولا ينفعون.

ولأن محور سائر العقائد الفاسدة محاولة الهروب من المسؤوليات، فإن هذه السورة تعالج ذلك بحجج تترى، تتخللهاصعقات شديدة تهز أعماق الضمير.

من هنا؛ نجد القرآن العظيم يحدثنا في قضية التوحيد عن ضرورة التخلص من الشرك، وفي كل مرة يحدثنا عن بعض ألوان الشرك، ثم إن الناس في خضوعهم للمادة مختلفون، فمنهم من يخضع بكل صراحة، ومنهم من يستخدم سلاح التبرير. وهكذا كان نسف قواعد التبرير من أبرز الأهداف القرآنية. وبما أن التبريرات تختلف من قوم لآخرين، بل حتى بين الأفراد أنفسهم الذين ينتمون إلى مذهب شركي واحد، لذا؛ يعالج القرآن الحكيم كل تبرير بصفة مستقلةومختلفة.

ويستمر السياق القرآني في هذه السورة في بيان نموذجين من الناس، ويوازن بينهما لنعرف أنهما ليسا سواءً في الجزاء؛ولكي يزيدنا وعيًا بهما وازن بين النور والظلام، والصلاح والفساد، ووضح الفوارق بيَّنهما. كما بينت السورة خصائص القرآن، وكيف تتلقاه النفوس الطيبة، وكيف يضرب الله فيه من كل مثل للناس لعلهم يتذكرون.

وحينما يشرح الله صفات القانتين -وهم أئمة الهدى- وميَّزهم عن أصحاب النار من أئمة الكفر، عاد إلى بيان أشياعهم؛ فهناك من يجتنب الطاغوت، ويستمع القول فيتبع أحسنه، وهناك من حقّت عليه كلمة العذاب.

ثم تذكرنا الآيات بالعقل الذي هو لب الإنسان، الذي يهدي الله به قوماً، فيجعلهم من أصحاب الجنة. ويوقظ العقل بآيات الله في الخليقة، حيث يذكرنا بالدورة النباتية التي تبدأ بنزول الغيث واختزان الماء في الينابيع وإخراج الزروع المختلفة، وتنتهي بالحطام.

وتعالج السورة موضوعاً هاماً آخر، وهو شرح الصدر إلى الإسلام، والتسليم لله ولسننه وشرائعه في الحياة، ليكون الإنسان على نور وبينة من ربه.

وتهبط آيات القرآن كالصاعقة على القلب الغافل، فتفجر فيه طاقات الفهم، وتثير فيه دفائن العقل، فتهديه إلى حقيقةالموت الذي يقف لكل حيٍّ متربصاً، ولكن الموت أهون المراحل التي تنتظره، فوراءه ما هو أعظم، كالاختصام والحساب والكتاب وربما العذاب الأبدي الكبير.

وفي مقطع من مقاطع هذه السورة، يذكّرنا ربنا برحمته الواسعة، وإلى أي مدىً يمكننا الاستفادة منها. أو ليس الله أنعم علينا برزقه الواسع، وأسبغ علينا نعمه ظاهرة وباطنة؟

إن آيات الله في الكون، ليست دليلاً -فقط- للإنسان على وجود الله، بل وطريقاً إلى معرفته المعرفة الأسمى أيضاً. وعلى الفرد أن لايكتفي بدرجة من الإيمان، بل يتابع مسيرته التكاملية حتى يصل إلى درجة العرفان. وللعرفان أيضاً درجات، فكلما تفكر الواحد في آيات الله في الآفاق وفي نفسه، والتحولات والتغيرات التي تحدث لديه، ازداد يقيناً ومعرفة حتى يبلغ الحد به أن يقول كما قال الإمام علي عليه السلام: «**لَوْ كُشِفَ الغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِيناً**»[1].

وبعد ذلك تفتح الآيات لنا باباً من أبواب يوم القيامة الذي لا سبيل للخلاص من عقباته وعذابه إلا بالتوحيد والتقوى.أما الشرك؛ فإنه يحبط أعمال الإنسان ولو كانت من النبي صلى الله عليه وآله

(١) بحارالأنوار: ج٤٠، ص١٥٣.

على عظمة درجته ومنزلته (الآية: ٦٥).

وختاماً؛ نود القول بأن تسمية هذه السورة بالزمر قد تكون بداعي أن الله أراد الإيحاء للناس بطبيعة التفاعل بين أبناءالمجتمع، وأن مقاس الحق هو أعمالهم وانتماءاتهم.. فالناس إما يساقون إلى النار أو إلى الجنة في يوم القيامة. وهذا المقياس أساسي في حياة الإنسان. فهو إذا أراد أن يعرف نفسه، أو أراد الآخرون أن يعرفوه، فما عليه وعليهم إلا معرفة الذين ينتمي إليهم اجتماعيًّا وعمليًّا، فإن كانوا صالحين، كان منهم، وإن كانوا منحرفين، فهو كذلك أيضاً.

ألا للّه الدين الخالص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ (١) إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ[1] ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ (٥) خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (٦)﴾.

هدى من الآيات:

بعد أن يوجه القرآن أنظارنا إلى نفسه، وأنه تنزيل الرب العزيز الحكيم، ينعطف السياق إلى الموضوع الرئيس لهذه السورة.

(١) يكوّر: تشبيه بمن يلف شيئاً على شيء، فإذا جاء الليل كان كأنه لفّ على النهار حتى ستره.

والدرس الأول يشير إلى أهم موضوعات السورة ألا وهو نفي شراكة الأولياء لرب العزة، و ضرورة إخلاص العبودية لله الذي له الدين الخالص.

ويحتج عليهم:

أولاً: باختلافهم الذي يحكم فيه الرب يوم القيامة.

ثانياً: بأن الله لا يهديهم لأنهم قد كذبوا على الله وكفروا بأنعمه.

ثالثاً: بأن الله وليسوا هم الذي يختار ولدا لو أراد أن يتخذ لنفسه ولدا.

ويختم الحديث بتقديس الله عما ينسب إليه المشركون، لأنه الواحد ودليل وحدته قاهريته لكل شيء و شخص.

بينات من الآيات:

[١] ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ توحي كلمة التنزيل بنزول القرآن على مراحل، بينما توحي كلمة الإنزال في الآية التالية بنزوله جملة واحدة، ولا تناقض في ذلك لأن القرآن نزل مرتين: مرة واحدة في ليلة القدر، ومرة بصورة منجمة انسجاما مع الحوادث والظروف المتغيرة ليثبت به فؤاد الرسول ﷺ ويصوغ شخصية الأمة وهو من العزيز الحكيم، الذي بعزته فرض القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [القصص: ٨٥]. و بحكمته جعله قويما، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

[٢] ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ الحق هو وسيلة الكتاب وهدفه، والقرآن ينزل بالحق أي إنه يكشف لنا تلك السنن والقيم والأنظمة الجارية في الخليقة كما أنه يشرع التكاليف الحق، وفيما يأتي من آيات نعرف أن التذكرة بالحق في هذه السورة تهدف فيما تهدف بيان أن المسؤولية حق، وأنه لا يجازى البشر إلا بما عمله خيرا أو شرا. ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي اجعل عبادتك عبادة واقعية وليست عبادة نظرية.

ما هو الدين؟

الدين هو السيادة القانونية على المجتمع، التي يتقبلها الناس طائعين غير مكرهين، وإخلاص الدين لله هو جعله المصدر الوحيد للسيادة والتشريع.

[٣] ولكن لماذا يجب أن نجعل كتاب الله هو المصدر الوحيد للتشريع؟

بالإضافة إلى أنه لا يجوز أن نشرّع من أهوائنا، أو حسب الضغوط النفسية والاجتماعية،

فإن الدين الخالص هو لله وحده ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ فلله السيادة والحاكمية المطلقة على الخلق، فيجب أن تكون العبادة له وحده. إن الله هو الذي يهيمن على الكون، ويجري بقوته الأنظمة والقوانين بصورة خارقة، ولا أحد يشاركه في ذلك لأنه لا يمارس شيئا ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

لماذا إذا يشرك البعض بالله، هل يعتقدون بأن لله شريكا في الأمر؟ كلا.. هؤلاء يشركون بالله لأنهم يعتقدون بأن الشركاء سبل إلى الله. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ النفي والاستثناء دليل الحصر، وإذا كان هدف هؤلاء الوصول إليه فلماذا يختارون طريقا لم يأمر به؟!

ونستوحي من جملة ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أنهم هم الذين صنعوا الآلهة وأضفوا عليها طابع التقديس دون أن تكون لها قدرة مطلقة عليهم أو أن يأمر الله سبحانه بعبادتها. ونستوحي من كلمة ﴿أَوْلِيَآءَ﴾ أنهم أحبوهم واتبعوهم وتقربوا إليهم. و الضمير في كلمة ﴿نَعْبُدُهُمْ﴾ يوحي بأن الأولياء عقلاء، بينما نجد البعض منهم يعبد الأصنام التي لا عقل لها. لماذا؟ ربما لأن تلك الأصنام كانت أيضا تجسيدا لقوى عاقلة - في زعمهم - كالملائكة والأنبياء أو الأولياء الصالحين، وهذا يظهر من الحديث التالي: «... ثُمَّ أَقْبَلَ ﷺ عَلَى مُشْرِكِي العَرَبِ وَقَالَ: **وَأَنْتُمْ فَلِمَ عَبَدْتُمُ الأَصْنَامَ مِنْ دُونِ اللهِ؟!**. فَقَالُوا: نَتَقَرَّبُ بِذَلِكَ إِلَى الله تَعَالَى. فَقَالَ ﷺ: **أَ وَهِيَ سَامِعَةٌ مُطِيعَةٌ لِرَبِّهَا عَابِدَةٌ لَهُ حَتَّى تَتَقَرَّبُوا بِتَعْظِيمِهَا إِلَى اللهِ!**. فَقَالُوا: لَا. قَالَ ﷺ: **فَأَنْتُمُ الَّذِينَ نَحَتُّمُوهَا بِأَيْدِيكُمْ فَلأَنْ تَعْبُدَكُمْ هِيَ لَوْ كَانَ يَجُوزُ مِنْهَا العِبَادَةُ أَحْرَى مِنْ أَنْ تَعْبُدُوهَا إِذَا لَمْ يَكُنْ أَمَرَكُمْ بِتَعْظِيمِهَا مَنْ هُوَ العَارِفُ بِمَصَالِحِكُمْ وَعَوَاقِبِكُمْ وَالحَكِيمُ فِيمَا يُكَلِّفُكُمْ.**

قَالَ: فَلَمَّا قَالَ رَسُولُ الله ﷺ هَذَا اخْتَلَفُوا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الله قَدْ حَلَّ فِي هَيَاكِلِ رِجَالٍ كَانُوا عَلَى هَذِهِ الصُّوَرِ فَصَوَّرْنَا هَذِهِ الصُّوَرَ نُعَظِّمُهَا لِتَعْظِيمِنَا تِلْكَ الصُّوَرَ الَّتِي حَلَّ فِيهَا رَبُّنَا. وَقَالَ آخَرُونَ مِنْهُمْ: إِنَّ هَذِهِ صُوَرُ أَقْوَامٍ سَلَفُوا كَانُوا مُطِيعِينَ للهِ قَبْلَنَا فَمَثَّلْنَا صُوَرَهُمْ وَعَبَدْنَاهَا تَعْظِيماً لله. وَقَالَ آخَرُونَ مِنْهُمْ: إِنَّ اللهَ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ وَأَمَرَ المَلَائِكَةَ بِالسُّجُودِ لَهُ كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ مِنَ المَلَائِكَةِ فَفَاتَنَا ذَلِكَ فَصَوَّرْنَا صُورَتَهُ فَسَجَدْنَا لَهُ تَقَرُّباً إِلَى الله تَعَالَى كَمَا تَقَرَّبَتِ المَلَائِكَةُ بِالسُّجُودِ لِآدَمَ إِلَى اللهِ تَعَالَى..»[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ قالوا: إن ذلك تهديد مبطن لأولئك القوم حيث إنهم سوف يسألون عن أفعالهم وأقوالهم ويحاسبون عليها حسابا عسيرا، ولا يجوز

(١) بحار الأنوار: ج٩ ص٢٦٣.

لهم -إذا- الاسترسال في نسبة الأولياء إلى الله واعتبارهم شفعاء من دون إذنه سبحانه.

ولعل الآية تشير إلى ما اشتهر بين الأمم من تقديس العظماء ونسبتهم إلى رب العزة، كالاعتقاد بأن هذا الملك أو ذاك السلطان هو ظل الله في الأرض من دون الرجوع إلى القيم الإلهية، والمقاييس الرسالية، بينما ليس كل من أوتي فضلا يصير ولي الله بل الذي يعبد الله حقا ويتبع رسله صدقا.

ونتساءل: ما الحكمة في بيان هذه الحقيقة هنا؟

إن الناس يزعمون أنهم لو نسبوا إلى الله أمرا كذبا وجب على الله ردعهم بصورة غيبية، كأن ينزل عليهم صاعقة أو لا أقل ملكا ينذرهم، وإذ لم يفعل مثل ذلك فهم على حق، ولعله لذلك يؤكد ربنا أنه لا يهدي الكذبة والدجالين والذين يكفرون بنعمه ومن أبرزها نعمة الرسالات التي أنزلها بمنه، فليظلوا في ضلالتهم حتى يذوقوا الجحيم جزاء كذبهم وكفرهم بأنعم ربهم. وهكذا بيّن ربنا:

أولاً: أن أهواءهم بعيدة عن الحق الذي عند الله حيث يحكم بينهم يوم القيامة.

ثانياً: أنه لا يهديهم فهم المسؤولون عن ضلالتهم بكذبهم وكفرهم.

ولقد اخترعت أهواء الناس أفكارا باطلة لتوجيه هذه العقائد، فقالوا بنظرية الفيض ونظرية الحلول والغنوص، لتبرير تقديسهم لبعض العناصر وتأليههم لبعض الناس، قالوا بأن الله -سبحانه وتعالى عما يشركون- كالشمس تفيض منها الأشعة، وكالبحر تتصاعد منه السحب، أو الينبوع تجري منه الروافد، أو أنه سبحانه يتنزل إلى مستوى خلقه فيحل في أوليائه حلولا حتى يقول أحدهم في إحدى شطحاته الكفرية: ليس في جبتي سوى الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾.

[٤] ويسفّه الله أحلامهم ويؤكد بأنه ولن يتخذ ولدا، وحتى لو اتخذ فإنه هو الذي يصطفيه اصطفاء. ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ ونستوحي من الآية الحقائق التالية:

أولاً: أن اتخاذ الولد لو تم (وهو لا يتم) فليس عبر أولئك الكذبة، بل الله وحده صاحب هذا الحق، إنه لو تم يكون ولده وليس ولدهم، فهو يختاره دونهم، ولا يحق لأي كافر أن يقول: فلان ابن الله وأقرب الناس إليه، من دون سلطان له على ذلك.

ثانياً: إن الاصطفاء الإلهي يكون عبر القيم الإلهية لا تفاضل الجوهر إذ إن الأشياء كلها

مخلوقات فلا حاجة له إلى واحد منها لأنه كان قبل أن يكون أي شيء فكيف يحتاج إلى شيء لم يكن من الأزل، بل كيف يحتاج إلى شيء هو في وجوده يحتاج إلى خالقه سبحانه؟!.

ثالثاً: أنه لا يتم -لو تم إنجاز الولد- بسبب علاقة نسبية (نشوية) بين الله سبحانه وبين بعض خلقه، إذ كل شيء مخلوق لله، ولا تفاضل في أصل الخلق بين شيء وشيء، فليس بعض الخلق مارس الله حين أنشأه لغوبا، بينما خلق بعض الأشياء بيسر وسهولة، كلا.. ولا هناك مراتب في الخلق كما زعمت الفلاسفة بلا حجة، إنما يكون عبر الاصطفاء. وإنما استوحينا هذه البصائر بالترتيب من الكلمات الثلاث في الآية: ﴿يَتَّخِذَ﴾، و﴿لَّاصْطَفَىٰ﴾، و﴿مِمَّا يَخْلُقُ﴾.

﴿سُبْحَانَهُ﴾ عن نسبة الشريك إليه أو عن اتخاذ الولد حتى من بين خلقه اصطفاء. ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾ فلا يتجزأ بالإفاضة ولا بالتنزل ولا بالحلول، ولا يتجلى في الشمس والقمر والنجوم والسهل والجبل والشجر والبحر والأحياء.. كما ادّعاه الضالون من أنصار وحدة الوجود.

عَنِ الْمِقْدَامِ بْنِ شُرَيْحِ بْنِ هَانِي عَنْ أَبِيهِ قَالَ: «إِنَّ أَعْرَابِياً قَامَ يَوْمَ الْجَمَلِ إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَتَقُولُ إِنَّ اللهَ وَاحِدٌ؟. قَالَ: فَحَمَلَ النَّاسُ عَلَيْهِ وَقَالُوا يَا أَعْرَابِيُّ أَمَا تَرَى مَا فِيهِ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ تَقَسُّمِ الْقَلْبِ!. فَقَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام: دَعُوهُ فَإِنَّ الَّذِي يُرِيدُهُ الْأَعْرَابِيُّ هُوَ الَّذِي نُرِيدُهُ مِنَ الْقَوْمِ. ثُمَّ قَالَ عليه السلام: يَا أَعْرَابِيُّ إِنَّ الْقَوْلَ فِي أَنَّ اللهَ وَاحِدٌ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ: فَوَجْهَانِ مِنْهَا: لَا يَجُوزُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَوَجْهَانِ يَثْبُتَانِ فِيهِ.

فَأَمَّا اللَّذَانِ لَا يَجُوزَانِ عَلَيْهِ فَقَوْلُ الْقَائِلِ وَاحِدٌ يَقْصِدُ بِهِ بَابَ الْأَعْدَادِ، فَهَذَا مَا لَا يَجُوزُ لِأَنَّ مَا لَا ثَانِيَ لَهُ لَا يَدْخُلُ فِي بَابِ الْأَعْدَادِ. أَ مَا تَرَى أَنَّهُ كَفَرَ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ. وَقَوْلُ الْقَائِلِ: هُوَ وَاحِدٌ مِنَ النَّاسِ يُرِيدُ بِهِ النَّوْعَ مِنَ الْجِنْسِ فَهَذَا مَا لَا يَجُوزُ لِأَنَّهُ تَشْبِيهٌ وَجَلَّ رَبُّنَا وَتَعَالَى عَنْ ذَلِكَ. وَأَمَّا الْوَجْهَانِ اللَّذَانِ يَثْبُتَانِ فِيهِ فَقَوْلُ الْقَائِلِ: هُوَ وَاحِدٌ لَيْسَ لَهُ فِي الْأَشْيَاءِ شِبْهٌ كَذَلِكَ رَبُّنَا وَقَوْلُ الْقَائِلِ: إِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَحَدِيُّ الْمَعْنَى، يَعْنِي بِهِ أَنَّهُ لَا يَنْقَسِمُ فِي وُجُودٍ وَلَا عَقْلٍ وَلَا وَهْمٍ كَذَلِكَ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ»[1].

﴿الْقَهَّارُ﴾ ولأنه قهار فهو واحد، إذ لا شيء يتحدى إرادته ويقاوم مشيئته سبحانه. وكما لا يخضع سبحانه لشيء لا يحتم عليه شخص أمرا، فما المسيح بن مريم والعزير إلا عبدان مطيعان له يخضعان لأوامره، ولا يحتمان عليه، وإنه سبحانه قد فرض عليهما عبادته إن لم

---

(١) بحارالأنوار: ج٣، ص٢٠٦.

يكن طوعا فكرها. ومن هنا تتبلور فكرة الشفاعة الحق وهي أن عباد الله المكرمين يدعون الله ليغفر لبعض المذنبين فإن شاء غفر، وإن شاء عذب، وقد قال الله في حق بعض المنافقين: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦]. وقال تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠].

ولكن الرسول وأولي الأمر من بعده يملكهم الله الشفاعة في الدنيا والآخرة، فيغفر لمن يشاء كيف يشاء، ويعذب من يشاء كيف يشاء، ومغفرة الله بواسطة الرسول ﷺ ممكنة ولكن حسب مقاييس محدودة، فلا يملك الرسول ﷺ للمذنبين المصرين، أو الكفار شيئا، ويوجز الله في آية من الآيات فكرة الشفاعة فيقول: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٦٤].

[٥] وقد سبق في الآية الثالثة أن فسرنا قوله: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[الزمر: ٣].فقلنا بأنها تشير إلى السنن التي تحكم في الخليقة بتدبير الله وهيمنته وإرادته، ويوضح الله ذلك بقوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ ويبدو أنه سبحانه بعد نفي العقائد التي يتشبث بها المشركون، ونفي كون الولد له، وأنه لا أحد من الشركاء يقربهم إليه أخذ يذكرنا بنفسه ذلك أن معرفة الله حقا كفيلة بنفي العقائد الباطلة وإزالة الأوهام البشرية التي هي وليدة الجهل بالخالق. ولعل الإشارة إلى ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ هنا لبيان أن تمنيات القوم بالشفاعة الباطلة سراب، لأن أساس الخلق هو الحق، وإنه لا أحد يبلغ الثواب والكمال بالتمني والتظني أو الشفاعة الباطلة بل بالحق والحق وحده.

ودليل أحدية الرب وقاهريته وأنه خلق السماوات والأرض بالحق ما نراه من اختلاف الليل والنهار. ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ وتكوير هذا يتم بزيادته على حساب ذاك وبالعكس، فالله قد قهر السماوات والأرض بحركتهما الدقيقة التي لا يستطيعان مقاومتها قيد شعرة، ثم إنهما يجريان بنظام دقيق مما يهدينا إلى أنه جعل كل شيء بالحق. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ مما يهدينا إلى أنه القاهر. ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وكما أن الله خلق الشمس والقمر، وسخرهما بقدرته، كذلك فإن انتهاءهما بيده، وربما توصل العلماء إلى العمر التقريبي للشمس والقمر بمقدار ما يعطيان من طاقة من النور والحركة. ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ فبعزته أقام النظم في كل شيء، وألزم الشمس والقمر والنجوم أفلاكها، وسخرها لما

خلق لها، و بمغفرته فتح أمام عاصيه باب التوبة حتى لا يقنط من رحمته إلا القوم الكافرون. وصفة العزة تبعث الرهبة بينما صفة المغفرة تبعث الرغبة، وهما معا ضروريتان لاستقامة النفس البشرية.

[٦] ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي جعل من نفس الإنسان زوجه، وهذا يدل على تكاملية الذكر والأنثى.

﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ﴾ هي الأخرى تتزاوج، وثمانية أزواج هي التي ذكرت في سورة الأنعام: ﴿مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ﴾ [آية: ١٤٣]. و﴿وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ﴾ [آية: ١٤٤].

وقد اختلف المفسرون في كلمة ﴿وَأَنزَلَ﴾ فكيف يمكن أن تنزل الأنعام، وهذا مجمل ما قالوا:

١- إن الإنزال بمعنى الإحداث والإنشاء كقوله: ﴿قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٢٦]. وفي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قال في غير مورد مثل هذا: «.. فإنزاله ذلك خلقه إياه»[1].

٢- إنه أنزلها بعد أن خلقها في الجنة، وفي الخبر الشاة من دواب الجنة، والإبل من دواب الجنة.

٣- إنه جعلها نزلا ورزقا، والرزق يأتي من السماء.

إن قضاء الله وتقديره وحكمه موصوف بالنزول من السماء، وإذا عرفنا أن بركات الأرض جميعا -أولا أقل أكثرها- من السماء سواء من أشعة الشمس أو من الماء الذي ينزله الله من السماء، عرفنا أن هذه التأويلات غير ضرورية، والله العالم.

﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ﴾ لا أنت ولا زوجك تعلمان ما في الرحم، وكيف يتكون الجنين، وما هي أطوار خلقه، حتى يصير طفلا، ولكن الله يخلقك ويصورك هناك. ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة. ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ إن الله الذي يصورك في الأرحام في ظلمات ثلاث هو المالك الحق والمليك المقتدر أحق أن تعبده، ولأن له الملك وحده فإنه: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ إلى أين تتجهون، ومن الذي تعبدون من دونه؟!.

(١) بحار الأنوار: ج٩٠ ص١١٤.

ولا يرضى لعباده الكفر

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) ۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ (٨) أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩) قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠) قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣) قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١٥) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (١٦) ﴾.

هدى من الآيات:

يتابع السياق القرآني في هذا الدرس الحديث عن الشرك بالله، وأن الإنسان إذا مسه الضر دعا ربه منيبا إليه دون الأنداد، ويحتج الرب عليهم بحجة وجدانية بالغة هي أن الأنداد

لا يضرون شيئا ولا ينفعون فلماذا الشرك بهم، وهم ينسون نسيانا عند الضرورات، مما يدل على أنهم ليسوا شفعاء إلى الله كما يزعمون، و تكاد آيات القرآن جميعا تحدثنا عن التوحيد ونفي الشرك، وذلك لأن الشرك ليس لونا واحدا، بل ألوانا شتى، إذ الشرك هو الاستسلام لجاذبية المادة بشتى صورها، فقد تكون المادة أرضا أو شخصا أو خوفا أو طمعا، لذلك فإن التخلص من الشرك وأغلاله ينبغي أن يكون بالتخلص عن كل جاذبية تجذب الإنسان نحو الأرض، كي يحلق بعيدا في سماء التوحيد.

من هنا نجد القرآن العظيم يحدثنا في قضية التوحيد عن ضرورة التخلص من الشرك، وفي كل مرة يحدثنا عن بعض ألوان الشرك، ثم إن الناس في خضوعهم للمادة مختلفون، فمنهم من يخضع بكل صراحة، و منهم من يستخدم سلاح التبرير، وهكذا كان نسف قواعد التبرير من أبرز أهداف القرآن الحكيم، وبما أن التبريرات تختلف من قوم لآخر، بل حتى بين الأفراد أنفسهم الذين ينتمون إلى مذهب شركي واحد، لذا يعالج القرآن الحكيم كل تبرير بصفة مستقلة ومختلفة.

وفي هذا الدرس يعرض الله نموذجين من الناس: الكافرين المشركين الذين يجأرون لله بالدعاء حال الشدة والضر، والمؤمنين الذين يقنتون لله آناء الليل ساجدين قائمين، فَرِقِينَ من الآخرة، ويبعدون الله مخلصين، مسلمين له، لكي ينسف التمنيات التي يعتمد عليها البعض في ارتكاب المعاصي، فيزعمون -مثلا- أن الأنداد يشفعون لهم فلماذا التقوى من الذنب؟

بينات من الآيات:

[٧] يبرر بعض المشركين شركهم بالجبر حين يقولون: بأن الله لو لم يكن راضيا عن شركهم إذن منعهم منه، ولأنه لم يمنعهم فهو راض عنه، ولكن الله يقول: كلا.. فأنا لا أرضى لعبادي الكفر. وإذا لم يرض الله الشرك لعباده فلم هم مشركون دون أن يأخذهم أخذ عزيز مقتدر؟!.

ويجيب القرآن: لأن الدنيا دار ابتلاء فقد خوَّل الله العباد، وأعطاهم مهلة لكي يجرب إرادتهم. ﴿ إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ﴾ فكفر الناس لا يسبب له خسارة، وعبادتهم لا تزيد في ملكه مثقال ذرة. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ﴾ أي إن الله يسمح لكم بأن تعبدوا ما شئتم من دون أن يرضه لكم.

ويقسم الحكماء إرادة الله إلى قسمين:

١- إرادة تكوين.

٢- إرادة تشريع.

فمن الناحية التكوينية وفَّر الله للإنسان الحرية ليفعل بها ما يشاء، فأشرك به سبحانه، ولكن من الناحية التشريعية لم يرض له الشرك، وبتعبير آخر لم يجبر الله الناس على التوحيد، ولو فعل ذلك بطل الثواب والعقاب، ولكنه أمرهم ونهاهم ورغبهم وأنذرهم ووفر لهم المشيئة، ولولا المشيئة الإلهية لم يقدر أحد على عصيانه، فهو الذي جعلهم مختارين، وأعطاهم القدرة.

ونستطيع أن نشبِّه هذه الحالة بمن يعطي ابنه دينارا ويأمره بأن يشتري ما ينفعه فيشتري ما يضره، فهو قد اشترى بمال أبيه ما لم يرض به. ورضى الله أو عدم رضاه ليس كما نحن البشر -كما أسلفنا في كثير من السور أن الله تنطبق عليه الغايات لا المبادئ- فرضى الله قد يكون بتوفيقه للإنسان، واستجابة الطبيعة من حوله، لأن كل ما في الحياة يستجيب للتوحيد وينسجم معه، ويتناقض مع الشرك و ينفر منه.

﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْۗ﴾ فالله يرضى الشكر لعباده، وعندما يشكر الإنسان ربه ففي شكره إرادتان: إرادة تكوين، وإرادة تشريع، وهناك من يبرر شركه بإلقاء المسؤولية على غيره، ولكن الله ينفي ذلك، ويؤكد أن كل إنسان يتحمل مسؤولية عمله، ولا يتحمل الآباء أو العلماء أو السلطات من وزره شيئا. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ﴾ الوازرة: النفس التي تحمل ثقلا، فكل إنسان يحمل حملا، ومن عنده حمل لن يرضى أن يحمل حمل الآخرين، إذ له من الحمل ما يكفيه.

وسواءٌ بررنا أم لم نبرر فإن جزاء أعمالنا يوفى إلينا يوم القيامة، حين ينبئ الرب عباده بكل صغيرة و كبيرة عملوها، ولعلهم نسوا أو تناسوا بعضها ولكن كتاب ربنا لا يضل ولا ينسى. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ﴾ وعلم الله لا يقتصر على ظواهر العمل بل ينفذ إلى القلب حيث الدوافع والنيات. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ولعل الآية تشير إلى فعل القلب ومسؤولية الإنسان عنه، والوساوس والتبريرات والعقائد الفاسدة والرضا والبغض كلها من فعل القلب، فمثلا كثيرا ما يزعم الفرد أنه مجبور على عمل وهو غير مجبور و الله يعلم ما في صدره.

[٨] وبعد أن نسف السياق قواعد التبرير، ومَهَّد القلب لتلقي الحجة، أبلغنا بأنفذ الحجج وهو دليل الفطرة والوجدان، حيث ينقطع في أوقات المحنة أمل الإنسان في أي شيء سواه سبحانه، وهنالك يتصل قلبه بالله، إن الله هو ذلك الأمل الذي ينجيك حين لا منجى، ويتعلق قلبك به حين لا تجد خشبة خلاص تتعلق بها، و هذه أحد الأدلة والشواهد التي تهدينا إليه سبحانه، ففي أيام الرخاء تعترينا الغفلة، وننسى الله، إلا أن المصائب حين تأتي تحدث هزات عنيفة ليس لكيان الإنسان وإنما لضميره ووجدانه حيث يرى الله، والمؤمنون غير هؤلاء،

إنهم يرون الله.

﴿ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾ أي يعود إلى الله ويترك الشركاء من دونه، والدعاء والإنابة حالة الضراعة، فهو من جهة يدعو الله كي يخلصه من الضراء ومن جهة أخرى يتوب إليه عما اقترفت يداه. وفي ذلك شهادة فطرية على أن الأنداد الذين اتخذهم شفعاء لا يقدرون لا على كشف الضر عنه ولا على التوسط بينه وبين الله، وإنما الله أقرب إليه من كل تلك الآلهة المزيفة، وإن أمره بالرجوع إلى الرسول أو خليفته الشرعي هو المقياس.

﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ ﴾ خوَّله: ملَّكه وجعله متعهدا للنعمة، وفلان مخوَّل: أي له حق التصرف، إذا أعطاه الله النعمة، وبدل الضراء نعماء ﴿ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ يبدو أن المصاب بضر ولا أمل له بالنجاة فينجيه الله من ضره يكون أسرع في العودة إلى الذنب من الذي يبلغ النجاة عبر الوسائل المادية. وفي التعبير إشارة إلى أنه ينسى كل شيء عن حالته السابقة، ونستوحي ذلك من كلمة ﴿ مَا ﴾ في الآية.

﴿ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا ﴾ فقال لولا صديقي، لولا الطبيب، لولا الصدفة الحسنة، لولا حظي، لولا ذكائي، لكنت قد هلكت، و ينسى أن من أنقذه إنما كان الذي ﴿ يَدْعُوٓاْ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ ﴾ وهو رب العزة. ولعل معنى الجعل هنا اعتبار ذلك للأنداد من خلال إضفاء صبغة القوة الذاتية عليهم، وبتعبير آخر جعل الشرعية لهم مما لا يقتصر أثره فقط على نفسه، بل يتجاوزه إلى الآخرين فيسبب ضلالتهم أيضا. ويشهد على ذلك التعقيب التالي: ﴿ لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ إذ إنه لم يبيِّن للناس أن الله أنقذه حتى يهتدوا إليه بل أخبرهم كذبا أن غيره هو الذي أنجاه فأضلَّهم عن سبيل الله وهو إخلاص الدين له.

هذا من جهة ومن جهة أخرى قلب الإنسان يرفض الفراغ، فلا بد أن يتعلق بشيء، فإذا نسي ربه اخترع لنفسه إلها مزيفا من الشركاء، يستعيض به عن ربه. والدافع النفسي وراء الكفر بنعمة الخلاص من الهلكة هو التخلص من مسؤولية شكر الله، فالذي يقع في الهلكة يحس بتقصيره في جنب الله ويعقد العزم على تلافيه، ويعاهد الله على ذلك إن نجاه من الهلاك، و لكنه الآن وقد ذهبت عنه عاصفة البلاء وزعم أنه استغنى عن ربه عادت إليه عواصف الشهوات تحثه نحو الموبقات وترك الفرائض والخوض في الإباحية، لذلك نسي ربه وكفر بنعمته عليه، ونسب النعمة إلى الآلهة المزيفة، فيقول له الرب: ﴿ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ﴾ فإنك لن تحصل إلا على متاع قليل وفي فترة قليلة تنتهي إما بالمشاكل التي تتجدد عليك أو بالموت. ﴿ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ وهل هي متعة تلك التي تنتهي بصاحبها إلى النار؟ والتعبير بـ ﴿ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴾ باعتبار أن الإنسان يحب صاحبه ولا يتركه، فهو والنار قرينتان لا يفترقان.

[٩] وفي مقابل هؤلاء الذين يجعلون لله أندادا هنالك طائفة أخرى هم المخلصون، يقول الله عنهم: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ قانت لربه في ديجور الليل، صافا قدميه، ساجدا قائما، خائفا راجيا. ويبدو أن الخوف والرجاء قد تساويا في قلبه، فهو يخشى النار وأهوالها، ويرجو رحمة ربه في الجنة. إن هؤلاء دأبهم الإرتياح إلى الله والحنين في الحالات العادية، فكيف إذا مسهم الضر. وهكذا صوَّر السياق نمطين من البشر: من يكفر بعد إنقاذه من الهلكة ووعوده بالتوبة، ومن هو قانت آناء الليل وأطراف النهار، ليكون الفرق واضحا بينهما، وإنه لا يجوز أن نجعل هذا كذاك في الجزاء، و هذا هو الموضوع الأساس في هذه السورة التي أوضحت اختلاف مسيرة الزمر الصالحة والزمر التي تساق الى النار ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ ﴾ أن الله حق، وأن الجزاء حق، وأن الرسول صادق. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ كلا.. لا يستويان مثلا. فلا يجوز الاتكال على شفاعة الأنداد. ولا الاتكاء على التمنيات والظنون. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ فبالرغم من وضوح الفرق بين العالم والجاهل، فإن أكثر الناس لا يهتدون إلى ذلك لأنهم أصحاب القشور والظواهر وأتباع الضجيج، وليسوا أصحاب العقول المتعمقين في جوهر الأمور وألبابها.

وفي الرواية: «سَمِعَ رَجُلٌ مِنَ التَّابِعِينَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ يَقُولُ: نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ فِي عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ قَالَ الرَّجُلُ فَأَتَيْتُ عَلِيّاً لأَنْظُرَ إِلَى عِبَادَتِهِ فَأَشْهَدُ بِاللهِ لَقَدْ أَتَيْتُهُ وَقْتَ المَغْرِبِ فَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ المَغْرِبَ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْهَا جَلَسَ فِي التَّعْقِيبِ إِلَى أَنْ قَامَ إِلَى عِشَاءِ الآخِرَةِ ثُمَّ دَخَلَ مَنْزِلَهُ فَدَخَلْتُ مَعَهُ فَوَجَدْتُهُ طُولَ اللَّيْلِ يُصَلِّي وَيَقْرَأُ القُرْآنَ إِلَى أَنْ طَلَعَ الفَجْرُ، ثُمَّ جَدَّدَ وُضُوءَهُ وَخَرَجَ إِلَى المَسْجِدِ وَصَلَّى بِالنَّاسِ صَلَاةَ الفَجْرِ ثُمَّ جَلَسَ فِي التَّعْقِيبِ إِلَى أَنْ طَلَعَتِ الشَّمْسُ ثُمَّ قَصَدَهُ النَّاسُ فَجَعَلَ يَخْتَصِمُ إِلَيْهِ رَجُلَانِ فَإِذَا فَرَغَا قَامَا وَاخْتَصَمَ آخَرَانِ إِلَى أَنْ قَامَ إِلَى صَلَاةِ الظُّهْرِ. قَالَ: فَجَدَّدَ لِصَلَاةِ الظُّهْرِ وُضُوءاً ثُمَّ صَلَّى بِأَصْحَابِهِ الظُّهْرَ ثُمَّ قَعَدَ فِي التَّعْقِيبِ إِلَى أَنْ صَلَّى بِهِمُ العَصْرَ ثُمَّ أَتَاهُ النَّاسُ فَجَعَلَ يَقُومُ رَجُلَانِ وَيَقْعُدُ آخَرَانِ يَقْضِي بَيْنَهُمْ وَ يُفْتِيهِمْ إِلَى أَنْ غَابَتِ الشَّمْسُ»(١).

[١٠] وبعد أن ينجز السياق إقرار الإنسان بأنه لا يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون، يشرح صفات وجزاء الذين يعلمون ويصوغون شخصيتهم بما يعلمون وذلك بالإيمان والتقوى والإحسان والهجرة (عند الضرورة) والصبر.

(١) بحار الأنوار: ج٤١، ص١٣.

العبودية الخالصة لله

﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ إن الآيات تبيّن طريقة تحقيق العبودية الحقة في أمرين:

الأول: التقوى تجنب المهلكات، وعاقبتها الفلاح، والفوز بالجنة، وأما الإحسان فعاقبته السعادة في الدنيا أيضا، ومعناه أن تكون صبغة حياة الفرد العطاء للآخرين، وقد بلغ الأنبياء عليهم السلام ما بلغوه من شرف الرسالة بالإحسان. أما الهجرة عند الضرورة فهدفها المحافظة على الاستقلال والحرية، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فهو لباب التوحيد وجوهر الإخلاص، ودرع الاستقلال، وأجره عند الله لا يبلغه العادون فهو بلا حساب. هكذا روى الإمام الصادق عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله: «**إِذَا نُشِرَتِ الدَّوَاوِينُ وَنُصِبَتِ الْمَوَازِينُ لَمْ يُنْصَبْ لِأَهْلِ الْبَلَاءِ مِيزَانٌ وَلَمْ يُنْشَرْ لَهُمْ دِيوَانٌ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾**»[1].

[١١] بالرغم من أن الهجرة قائمة إلى يومنا هذا إذا تعرضنا لضغوط، وافتتنا في ديننا، إلا أنه يلزم في بعض الأحيان التحدي. وهكذا يأمر الله نبيه بأن يعلن للناس جميعا إخلاصه لربه، ورفضه للأنداد، مما يعني التمرد على سلطات الجبارين وإمرة المترفين وقيادة الجهلاء. ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ ﴾.

الثاني: الإخلاص لله والتمرد على الآلهة المزيفة. وهذا أمر الله، فلا قداسة ولا شرعية ولا حرمة لهذه السلطات الفاسدة لأن الله لم يأمر بها، بل أمر برفضها حيث قال لرسوله: ﴿مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ مسلما له وحده، خاضعا لمناهجه وشرائعه فقط، ومادام ذلك أمر الله فإن المؤمن بالله يتحمل كل أذى في سبيل تطبيق هذا الأمر الإلهي، والله يعينه عليه، ولا يقدر على تجاوزه دون التعرض لغضب الله و عذابه.

[١٢] ومادام الأمر من الله فلا يستمد شرعيته من الناس فسواء آمن الآخرون أم كفروا، وافقوني على تمردي ضد الأنداد أم خالفوني فإني أواصل دربي. ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أسبقهم إلى التسليم لله، دون النظر إلى الآخرين، كما قال السحرة بعد أن آمنوا: ﴿ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[الشعراء: ٥٠- ٥١]. بالرغم من أنهم لم يكونوا فعلا أول المؤمنين، فقد آمن لموسى ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئه، ولكنهم فتحوا الطريق لغيرهم كي يؤمنوا.

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٧ ص١٠١.

[١٣] ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ وهذا بالغ ذروة الإنذار حيث يخشى رسول الله عذابا عظيما فكيف بنا.

[١٤-١٥] ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ۝١٤ فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ أما أنا فأعبد الله مخلصا له ديني، فاعبدوا ما شئتم. هكذا يتحدى الرسول بأمر الله أولئك الجاهليين الذين اتخذوا أهواءهم آلهة فعبدوا ما شاؤوا، وهذا هو خلاصة الإخلاص وصفوة التوحيد، وحين يبلغ المرء هذا المستوى الأرفع من الإخلاص لا يخشى أحدا ولا يخضع لشيء فإنه:

أولاً: يضمن حريته التامة، واستقلاله الشامل، لأن الأعداء لن يجدوا فيه ثغرة يستعبدونه من خلالها، فلا المال والجاه والثناء يغريه ولا السجن والتهجير والإعدام يخيفه.

ثانياً: إنه يضمن استقامته على الطريق دون تعب، لأن النفس يؤلمها مخالفة الناس، وملامتهم و جراحات ألسنتهم، أما هو فقد تعالى بإذن الله عن لومة اللائمين، ولدغات الجاهلين.

ثالثاً: لا يكون شنآنه وبراءته من الناس بعصبية أو ضغينة، بل لفرط حبه لله وحبه للناس فهو يستقبل من يؤوب إلى الحق بترحاب، وهكذا لا يستمرئ الاعتزال، ولا يجعل بينه وبين الناس حجابا من الكبرياء والعصبية.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ نعم. يخسر الإنسان في ذلك اليوم كل شيء، نفسه حيث لا يتمتع شيئا، ويخسر أهليه فلن يراهم في ذلك اليوم إذا كانوا مؤمنين، ويحرم من شفاعتهم، لأنه لا تنفع الشفاعة إلا لمن ارتضى، وإن كانوا معه في جهنم، فلكل امرئ منهم شأن يغنيه، ويا لها من خسارة كبرى.

[١٦] وبعد ذلك يبيّن الله لنا عذاب أولئك الذين خسروا أنفسهم وأهليهم، إنهم يعيشون في ظلل النار في أسفل طبقاتها، ولعل في هذه إشارة إلى ما في الدنيا فما في الآخرة تجسيد للدنيا، فقد كانوا واقعين تحت الحجب، من حجب الشهوات، إلى حجب الثقافة الجاهلية، والخضوع للطاغوت. ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ إنه محاط من فوقه ومن أسفل منه بالنار، وربما كان قوله: ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ دلالة على أن هناك من هم أسفل منهم في النار مثل أصحاب التابوت وغيرهم. ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ اتقوا عذابي وغضبي، وتجيب الآيات التاليات كيف نجتنب غضبه.

فبشر عباد

﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٨) أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ (١٩) لَٰكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ[1] فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٢١)﴾.

هدى من الآيات:

يستمر السياق في بيان نموذجين من الناس ويوازن بينهما لنعرف أنهما ليسا سواء في الجزاء، ولكي نزداد وعيا بهما فعبر موازنة النور بالظلام نتبصر بحقائقهما، وقد نزل القرآن مثاني يفرق أبدا بين الحق و الباطل، الصلاح والفساد.

وحين شرح الله صفات القانتين -وهم أئمة الهدى- وميّزهم عن أصحاب النار من أئمة الكفر، عاد إلى بيان أشياعهما، فهناك من يجتنب الطاغوت، ويستمع القول فيتبع أحسنه، وهناك من حقت عليه كلمة العذاب.

ويذكرنا الدرس بالعقل الذي هو لب الإنسان، والذي يهدي به الله قوما فيجعلهم من أصحاب الجنة لهم غرف من فوقها غرف، ويوقظ العقل بآيات الله في الخليقة حيث يذكرنا

(١) يهيج: يجف الزرع وييبس، من هاج أي ثار، فكأن النبات يثور عن حاله الأولى.

بالدورة النباتية التي تبدأ بنزول الغيث، واختزان الماء في الينابيع، وإخراج الزروع المختلفة، وتنتهي بالحطام.

بينات من الآيات:

[١٧] من هو الطاغوت؟.

كل من فرض نفسه زورا على الآخرين يُعَدُّ طاغوتا، إذ قد يطغى المرء في حدود نفسه فلا يعبد الله و يتجبر ويتكبر، ويسمى طاغيا، ويقول عنه الرَّب: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦-٧]. وقد يتجاوز حدود ذاته إلى الآخرين، فيحاول منع الناس عن عبادة الله، ويدعوهم إلى عبادته، فيكون قد بالغ في الطغيان، فيسمى بـ (الطاغوت) لأن هذه الصيغة تعني المبالغة، كما نقول ملكوت مبالغة في الملك، وجبروت مبالغة في السيطرة، والرحموت مبالغة في الرحمة.

وما هي عبادة الطاغوت؟.

قليل من الشعوب الخاضعة لحكم الجبابرة كانت تزعم أنهم آلهة فيسجدون لهم تعظيما، إنما كان يستسلم أكثرهم للطاغوت رهبا ورغبا، أو استرسالا، وهكذا عَدَّ طاعتهم لها عبادة وخضوعهم سجودا. قال الإمام الصادق عليه السلام (حسب رواية أبي بصير) وهو يخاطب المؤمنين: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا، وَمَنْ أَطَاعَ جَبَّاراً فَقَدْ عَبَدَهُ**»[1].

وكيف يجتنب الطاغوت؟.

الطاغوت حقيقة قائمة في كل مكان تقريبا، فأنّى توليت وجدت سلطة شيطانية مفروضة، وشبكة فاسدة من أنصاره وتابعيه، والمؤمن هو الذي يجتنب هذا الوضع، ويطهّر نفسه من تأثيراته الفاسدة، فهو إذن يرفض الطاغوت ويتحداه حتى لا تشمله سيئاته، وهذه بعض معاني الاجتناب، ولكن آثار الطاغوت السلبية تنتشر في كل مكان، وتصيب المؤمنين برذاذها شاؤوا أم أبوا، فهذه أنظمته الاجتماعية والاقتصادية، وتلك أفكاره الجاهلية تملأ المحيط الذي يعيشه المؤمنون ولا بد أنهم يخضعون لها حينا من الأحيان.

فماذا يصنعون؟.

إن هذه الآيات الكريمة ترسم برنامجاً للتحرر الثقافي من الطاغوت عبر التالي:

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٣ ص٣٦١.

أولاً: إن عليهم الإنابة إلى الله في كل حين، فكلما هزمتك ضغوط السلطة الفاسدة نفسيا، وملْتَ إليها أو خضعت لقوانينها، أو مالأتها خشية بطشها أو رغبة عطائها فلا بد أن تعود إلى طهرك، وتتوب إلى الله متابا، لتكون لك البشرى على لسان نبيك المرسل، إذن ها هنا أمر عام بالاجتناب. وعن أبي جعفر عليه السلام قال: «**مَنْ أَصْغَى إِلَى نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَهُ**»[1].

﴿**وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ**﴾ ويدخلك الله في حصن عبوديته. ﴿**فَبَشِّرْ عِبَادِ**﴾.

[١٨] لا يفرض الطاغوت على الناس هيمنته حتى ينشر بينهم فلسفته، فهو كمدخنة كبيرة تنفث دائما تيارا من الدخان الأسود فتلوث الأجواء.

إن أجهزة إعلامه السلطوية تبث بين الناس الأفكار الشركية التي تبعدهم عن ربهم، وتشيع فيهم أفكارا باطلة تسلبهم ثقتهم بأنفسهم، وتفرق كلمتهم وتضعهم في هالة من الأمنيات، وتشيع فيهم أنه مرهوب الجانب، وقراراته صائبة، وهو رجل إلهي مقدس. كما أنها تبث فيهم العصبيات العرقية والقبلية والقومية، وتحمد إليهم أصنام التراث وأنصاب المصالح المادية. وحول الطاغوت يتحلق طائفة من تجار الدين والعلم، يوحون إليه بالمكر، ويزينون له باطله، و يلمعون للناس وجهه.

ثانياً: وهكذا يصبح التخلص من دائرة نفوذ الطاغوت عملا عسيرا يحتاج إلى همة واجتهاد، ولعل هذا ما تشير إليه كلمة ﴿**اجْتَنَبُوا**﴾ في الآية السابقة، التي تتخصص في هذه الآية باجتناب الثقافة الطاغوتية إذ يقول ربنا: ﴿**الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ**﴾ وهكذا يصف الذين تجانبوا الطاغوت وتأثيراته الشركية بأنهم لا يتبعون أي قول بل يستمعون بوعي ثم ينتخبون أحسنه وفق معايير الوحي والعقل.

ولكن كيف يتم ذلك؟

أولاً: إن عباد الله يتعاملون مع القول الذي يعبر عن الفكرة باهتمام منهم، لا يسمعونه بل يستمعون إليه، وفرق بينهما كبير، فالسماع لا اهتمام فيه بعكس الاستماع، وهكذا جاء في الحديث: «**قَالَ الْمَسِيحُ** عليه السلام **خُذُوا الْحَقَّ مِنْ أَهْلِ الْبَاطِلِ وَلَا تَأْخُذُوا الْبَاطِلَ مِنْ أَهْلِ الْحَقِّ كُونُوا نُقَّادَ الْكَلَامِ فَكَمْ مِنْ ضَلَالَةٍ زُخْرِفَتْ بِآيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ**»[2].

---

(١) الكافي: ج١ ص٤٣٤.
(٢) بحار الأنوار: ج٢ ص٩٦.

باء: إنهم يمارسون التعقل والتفكر ليعرفوا أحسن الحديث، وبذلك يميزون بين الرديء والجيد وبين الحسن والأحسن، فلا يكتفون بمعرفة الجيد بل يسعون لمعرفة الأحسن وفق قيم العقل والوحي، ذلك أن أحسن القول هو الأصلح لدنياهم حسب هدى العقل والأنفع لأخراهم حسب هدى الوحي.

جيم: فإذا عرفوا الأحسن اتبعوه، ولم يبحثوا عن العلم للعلم بل للعمل، ولم يتعلموا العلم لينقلوه إلى غيرهم بل ليعملوا به أولا.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ إنهما حجتان في حجة، حجة الوحي وحجة العقل، وهما تجليان لنور الله، الذي أودعه بقدر في ضمير كل بشر، وأنزله بهيا عبر رسالاته، وقد تجلى هذا النور في ضمير هؤلاء لأنهم اتبعوا أحسن القول، و هكذا هدى الله يتنزل على قلب من يسعى إليه ويتبعه، أولم يقل ربنا سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]. وباطل أمنية أولئك الذين ينتظرون الهدى من دون سعي وجهاد.

وأستوحي من الآية فكرة أعدُّها مفتاحا لغيب الكتاب الحكيم، وهي: أن كل كتاب ربنا حسن، إلا أن الناس يختلفون في مدى الانتفاع به، فبعضه بالنسبة إلى البعض أحسن من غيره لحاجته الملحة إليه، و مثل القرآن مثل أنواع الطعام متشابه في فائدته وروعته ولذته إلا أن الناس يختلفون في انتفاعهم به. فمثلا: آيات الجهاد تتجلى في عصر التحديات أكثر من آيات الصبر، بينما تتجلى آيات الإنفاق للأغنياء بقدر تجلي آيات العفاف للفقراء.

ومعرفة الظروف الاجتماعية والشخصية تكون بالعقل، فهو ليس دليلا مستقلا بين الأدلة الشرعية بالإضافة إلى الكتاب والسنة والإجماع، بل هو النور الذي يعرف به الكتاب، وبه نميِّز السنَّة، وبه نثق بالإجماع، فلولا العقل كيف نهتدي إلى معاني الكتاب، وكيف نصدق أو نكذب بالرواة الذين نقلوا إلينا السنَّة، وكيف يعكس الإجماع لنا السنَّة؟

[١٩] وبعكس المؤمنين، فإن غيرهم حين استسلم لضلالة الطاغوت حقت عليه كلمة العذاب حين أضله الله، وسلبه هدى عقله بعد أن أساء التصرف معه. ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ وأضله الله وألزمه التيه لأنه لم ينتفع بعقله ولم يتبع هدى ربه. ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ إنه لا يتخلص من النار أبدا، لأن وسيلته الوحيدة للإنقاذ رحمة الله وهو محروم منها.

[٢٠] ذلك كان جزاء الذين اتبعوا الطاغوت. أما الذين اتقوا في الدنيا فهم يحبرون في الجنة. ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ﴾ وهي البيوت المرتفعة. ﴿مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ﴾ مما يشبه العمارات المبنية بإتقان ذات طوابق عديدة ﴿مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ والذي يضمن هذا

الجزاء الحسن لهم هو وعد الله، أترى يخلف الله وعده؟ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴾.

ويشوّقنا الرسول ﷺ إلى تلك الجنة في تفسيره للآية فيقول في جواب الإمام علي عليه السلام حين سأله عن تفسير الآية: «بِمَاذَا بُنِيَتْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: يَا عَلِيُّ تِلْكَ غُرَفٌ بَنَاهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِأَوْلِيَائِهِ بِالدُّرِّ وَالْيَاقُوتِ وَالزَّبَرْجَدِ سُقُوفُهَا الذَّهَبُ مَحْبُوكَةٌ[1] بِالفِضَّةِ، لِكُلِّ غُرْفَةٍ مِنْهَا أَلْفُ بَابٍ مِنْ ذَهَبٍ عَلَى كُلِّ بَابٍ مِنْهَا مَلَكٌ مُوَكَّلٌ بِهِ، فِيهَا فُرُشٌ مَرْفُوعَةٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ مِنَ الحَرِيرِ وَالدِّيبَاجِ بِأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ وَحَشْوُهَا المِسْكُ وَالكَافُورُ وَالعَنْبَرُ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴾.

فَإِذَا دَخَلَ المُؤْمِنُ إِلَى مَنَازِلِهِ فِي الجَنَّةِ وُضِعَ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ المُلْكِ وَالكَرَامَةِ وَأُلْبِسَ حُلَلَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَاليَاقُوتِ وَالدُّرِّ المَنْظُومِ فِي الإِكْلِيلِ تَحْتَ التَّاجِ وَأُلْبِسَ سَبْعِينَ حُلَّةً بِأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ مَنْسُوجَةً بِالذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَاللُّؤْلُؤِ وَاليَاقُوتِ الأَحْمَرِ وَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾، فَإِذَا جَلَسَ المُؤْمِنُ عَلَى سَرِيرِهِ اهْتَزَّ سَرِيرُهُ فَرَحاً فَإِذَا اسْتَقَرَّ لِوَلِيِّ اللهِ مَنَازِلُهُ فِي الجَنَّةِ اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِجِنَانِهِ لِيُهَنِّئَهُ بِكَرَامَةِ اللهِ إِيَّاهُ فَيَقُولُ لَهُ خُدَّامُ المُؤْمِنِ وَوُصَفَاؤُهُ[2]: مَكَانَكَ! فَإِنَّ وَلِيَّ اللهِ قَدِ اتَّكَأَ عَلَى أَرِيكَتِهِ وَزَوْجَتُهُ الحَوْرَاءُ العَيْنَاءُ قَدْ هُيِّئَتْ لَهُ فَاصْبِرْ لِوَلِيِّ اللهِ حَتَّى يَفْرَغَ مِنْ شُغْلِهِ»[3].

[٢١] حين نتأمل في نعم الله المبثوثة حولنا نزداد إيماناً بصدق وعد ربنا بنعم الجنة التي هي أنقى وأبقى. تعالوا إلى الروابي لننظر إلى الغيث حين ينزل على الأرض فينشر الله عليها بركاته. تأملوا في طبقات الأرض، وأمعنوا النظر في القنوات التي جعلها الله فيها وفي الأحواض الكبيرة التي تنتهي إليها فتختزن مياه المطر بعد تنقيتها في جوف الأرض ثم تتفجر ينابيع مستمرة على مدار السنة.. أولا تشهدون يد القدرة الإلهية التي نظمت الخليقة أحسن تنظيم؟! ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ كيف سخر الرياح لحمل السحب الثقيلة من أعالي البحار، وكيف مررها بتيارات باردة، وكيف لقّحها بعواصف الرياح الهوج في جو السماء؟! ثم كيف هداها إلى حيث أمرها بإلقاء حملها؟! تبارك الله رب القدرة والرحمة. والماء هو الماء، ولكنه ينقسم إلى ما يصرف آنيا، وما يختزن في باطن الأرض. ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ من الربيع إلى الخريف، ومن الشتاء إلى قيظ الصيف. ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ فإذا بالماء الواحد يجعله الله نباتات مختلفة. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ فحين تينع الثمار، وتيبس الحبوب، لا

---

(١) حبكه: شده و أحكمه.

(٢) وصفاء جمع الوصيفة: الجارية.

(٣) تفسير القمي: ج٢ ص٢٤٦، بحار الأنوار: ج٨ ص١٢٨.

تستقر في مواقعها، بل تميل إلى الصفرة بعد الخضرة استعدادا لحصادها. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ يابسا تذره الرياح، والحطام ما يتفتت من النبت، أولا ترون آثار القدرة والتدبير في كل هذه الدورة الحياتية السريعة؟! ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ يعرفون الله من خلال آياته، ويعرفون صنع الله فيما يأتي من خلال صنعه فيما مضى، ويعرفون سنة الله الواحدة في الخلق فكما تمر النباتات بالدورة الحياتية يمر الإنسان بالدورة ذاتها، وعليه أن يستعد للرحيل، ويتزود للمسير بالتقوى، ويأخذ من دار الغرور لدار الجزاء.

وكلمة أخيرة: إن هذه الدورة النباتية تعكس النبات في حالتين: عندما يزهو في اخضراره، وحينما يكون حطاما. إنه النبات ذاته يمر بحالتين، كذلك الإنسان قد يكون في ذروة إيمانه وقد يكون في حضيض الكفر. هل يستويان مثلا؟!.

الله نزل أحسن الحديث

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَـٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ (١) تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَـٰكِسُونَ (٢) وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

هدى من الآيات:

من تجليات الإعجاز البلاغي في كتاب ربنا أنه مثاني تقشعر منه جلود الذين آمنوا، ومن معاني المثاني أنه يتابع سلسلتين من الأفكار متداخلتين يتحدث عنهما معا في سياق آياته بنظم دقيق ومنهج متين، ذلك أنه من الله الذي لا يشغله شيء عن شيء.

---

(١) مثاني: جمع مثنى أي إن قصص هذا الكتاب وإخباراته وأحكامه تذكر مثنى مثنى في قوالب مختلفة للتركيز في الأذهان.

(٢) متشاكسون: التشاكس التمانع والتنازع، وأصله من الشكاسة وهو سوء الخلق والاختصام.

وهنا نجد السياق في ذات الوقت الذي يتابع الحديث عن فوارق النمطين من الناس: فهناك من شرح الله صدره للإسلام، وهناك من قسا قلبه من ذكر الله، ويتقي بوجهه سوء العذاب، ويكذب بالله ليلقى جزاءه خزيا في الدنيا، في الوقت ذاته يبين خصائص القرآن وكيف تتلقاه النفوس الطيبة، وكيف يضرب الله فيه من كل مثل للناس لعلهم يتذكرون.

بينات من الآيات:

[٢٢] ما هي المعرفة، وكيف يتخلص البشر من رواسب الجهل، ولماذا نجد البعض يرتفعون إلى أعلى درجات الإيمان بينما يهبط الآخرون إلى الحضيض في الكفر؟.

للقرآن بصيرة واضحة في المعرفة تتلخص في أن محل العلم القلب، فإذا كان منشرحا ازداد معرفة و إيمانا، بينما القلب القاسي لا يتسع للمعرفة. ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾

ما هو الصدر المنشرح بالإسلام؟.

الإسلام هو التسليم لله لسنن الله لشرائع الله وللحق أنى كان، فإذا شرح الله الصدر خشع له ولان لكلمات الله ووسعها كما تخشع الأرض الطيبة لماء السماء، كما تلين التربة الصالحة لنبتة مباركة، كما تستقبل الزهور النسيم العليل، بينما القلب القاسي كالصخرة الصماء لا يتسع لمعارف الحق، ولا يهتز لوابل السماء، ولا ينبت زهرة، ولا يستقبل نسمة. هكذا أوصى نبينا الأكرم ابن مسعود فقال ﷺ له: «يَا ابْنَ مَسْعُودٍ ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فَإِنَّ النُّورَ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ انْشَرَحَ وَانْفَسَحَ.

فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ فَهَلْ لِذَلِكَ مِنْ عَلَامَةٍ؟ قَالَ ﷺ: نَعَمْ، التَّجَافِي عَنْ دَارِ الْغُرُورِ وَالإِنَابَةُ إِلَى دَارِ الْخُلُودِ وَالِاسْتِعْدَادُ لِلْمَوْتِ قَبْلَ نُزُولِ الْفَوْتِ، فَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا قَصُرَ أَمَلُهُ فِيهَا وَتَرَكَهَا لِأَهْلِهَا»[١].

﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ فبالنور الرباني يتصل صدر الإنسان بعالم الحقائق، فيتسع لها، وينشرح بها، ونور الله هو العقل المستضيء بالوحي، ولعل التعبير بـ ﴿عَلَىٰ﴾ للإيحاء بأن المؤمن ماض على صراط مستنير، كقوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: ٥]. ويمكن أن نستوحي من الآية أن للقلب حالتين: فهو ينغلق على ذاته فلا يرى إلا نفسه فيعيش فقط ضمن مصالحها وتمنياتها وأوهامها، ويريد العالم المحيط لذاته، فيكون قاسيا ومع الهوى متقلبا، وبالرين والطبع متلبسا، لا يعترف بقانون، ولا يؤمن بسنَّة، ويكون مثله من يعيش في

(١) بحار الأنوار: ج ٧٤ ص ٩٣.

بيت ويزعم بألا أحد يمكث فيه معه، فيفعل فيه ما يشاء، ويتحلل من كل التزام، وأما الحالة الأخرى فهي الخروج من زنزانة الذات إلى رحاب الحقيقة، حيث يعيش في عالم واقعي يعترف بوجوده، ويسعى للتعرف إليه و التكيف معه. إن مثل صاحبها كمن يدخل بلدا ويعلم أن فيه أناسا لا بد أن يعايشهم، وأن لهم قوانين لا بد من الالتزام بها، وهكذا لا يضيق ذرعا إذا تعرف إليهم وعرف حقوقهم، بل إنه يستقبلهم بترحاب، و يخضع لنظامهم بلا تردد.

وإذا كانت الحالة الأولى تعكس الجمود والتخلف والجهل والفوضى، فإن الحالة الأخرى هي ذروة النشاط والرقي والعلم والالتزام. ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الله الذي وسعت كل شيء آيات رحمته وقدرته وعظمته، مع ذلك ترى قلوبهم قاسية من ذكره، فكيف سائر حقائق الخلق؟ أرأيت من عمي عن ضوء الشمس هل يرى شمعة؟! كذلك حين قسا القلب عن ذكر الله فلا يرجى أن ينشرح لمعرفة شيء. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ يحيط بهم الضلال المبين كما يحيط بأولئك نور الله.

[٢٣] من أبرز معالم شرح الصدر استقبال نور الله في القرآن، فلقد أنزل الله أحسن الحديث، اختصر الجمال والروعة والبلاغة والعلم والهدى والنور، وتجلى فيه الرب حتى رأت فيه قلوب المؤمنين جمال ربهم كما رأت أعينهم جمال صنعه. ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾ إنه مرآة تعكس روعة الخلق وجمال الخالق وأحسن الخلق وأنبل الأعمال.. ﴿كِتَٰبًا﴾ منتظما في وحدة متماسكة، مجموعا إلى بعضه بتماسك لا ثغرة فيه ولا فطور، ولا تناقض ولا اختلاف: ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ بعضه يشهد على بعضه ويفسره ويبينه، وفي الوقت ذاته لا يرقى إلى كنه فهمه عقل، ولا ينفذ في غور علمه أحد، وكلما تلوت آياته استفدت علما جديدا وهدى طارفا، وما أوتيت من علم فهو بالنسبة إليك محكم، ولكن يبقى ما لم تؤت من علم كالمحيط الواسع لا تتناهى عجائبه ولا تنقضي غرائبه. ﴿مَّثَانِيَ﴾ فنجد فيه:

أولاً: مفارقات بين الخالق والمخلوق، بين الحق والباطل، بين المحسن والمسيء، كما يذكرنا بالمفارقات الظاهرة بين النور والظلام، بين الظل والحرور، وبين الحرية والعبودية، و. و. ولعل سورة الزمر قد بلغت الذروة في هذا التميز، بالذات بين الناس حيث تجلت فيها صفة (الفرقان) في معرفة الصالحين وتزيلهم عمن سواهم.

ثانياً: مقارنات بين أزواج الطبيعة، بين الذكر والأنثى، بين السماء والأرض، البر والبحر، الإنسان والحيوان، الزيتون والأعناب، الفاكهة والأب وهكذا.

ثالثاً: شواهد وأمثلة، فما من حقيقة يذكر بها كتاب ربنا إلا وتثنى بتفسيرها ودليلها ومثالها، فما تتلو فيه من آية حتى تجد في السياق عادة أو في موقع آخر تبيانا لها، فإذا ذكرت

عاقبة المتقين ضربت لها أمثلة من جزائهم عند الله وانتصارهم في الدنيا، وإذا ذكرت من صفات المتقين واحدة ثنّيت بشواهدها من حياة النبيين عليهم السلام، وإذا ذكرت حقيقة من حقائق التوحيد توالت شواهدها. فمثلا حين ذكر السياق شرح الصدر بالإسلام بيّن مثله في خشوع قلب المؤمنين لآيات الذكر. وهكذا أشارت الآيات التالية إلى أن القرآن ضرب للناس من كل شيء مثلا، فيكون المثل تثنية كل حقيقة مذكورة في القرآن.

هذه بعض معاني المثاني. ولأنه مثاني تشفع الحجة بالحقيقة فإن قلوب المؤمنين تصعق له، وتسري في أعصابهم رعشة الخشية، فتهتز تبعا -لذلك- جلودهم. ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ عندما تواجه النفس حقيقة أكبر من سعتها تندهش بها وتحصل لصاحبها قشعريرة، إما لاهتزاز الأعصاب أو لتجمع الدم حول القلب كما يحصل في حالات الخوف الشديد. ولأن هذا الفريق يخشون ربهم، ويعرفون شيئا من عظمته وكبريائه، ويعلمون أن الكتاب رسالة الله إليهم، فلا تكاد قلوبهم تستقر لتجلياته الظاهرة في كتابه، ولولا أن الله يؤيدهم في تلك اللحظة بروحه لتصدعت قلوبهم كما اندك الجبل عندما تجلى الرب له أمام موسى فخر موسى عليه السلام صعقا، أرأيت تجلي الله للجبل كان أعظم من تجلياته في كتابه للرسول والمؤمنين. إنما المؤمنون توجل قلوبهم بمجرد ذكر الله، فكيف لا تصعق عندما تتلى عليهم رسالة الله إليهم، إنه الله يتحدث إليهم فكيف يصمدون، بلى؛ أنا وأمثالي الذين أحاطت الشهوات بقلوبنا لا نعرف ذلك، إلا إذا رفع الله الحجب واتصل القلب بنور الرب. ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إذا ذهبت آثار الصدمة، وتغلب العقل بتأييد الله على هول المواجهة، لانت الجلود تعبيرا عن خشوع القلب، واستعدادا لاستقبال ضياء الهدى.

وقال المفسرون: إن قشعريرة الجلد تعبير عن خشيتهم من عذاب الله، أما حين يلين فإنه دليل على طمعهم في رحمة الله، وهكذا يعيش قلب المؤمن بين الخوف والرجاء. وقال الفخر الرازي: إن المقامين المذكورين في الآية: ﴿تَقْشَعِرُّ - تَلِينُ﴾ لا يجب قصرهما على سماع آية العذاب والرحمة، بل ذاك أول المراتب، وبعده مراتب لا حد لها ولا حصر في حصول تلك الحالتين. ثم تناول هذا المفسر الكبير الفرق بين حالة المؤمنين عند تلاوة الكتاب، وحالة الوجد الصوفية عند سماع أشعار الهجران والوصل، وقال: إن الشيخ أبا حامد الغزالي أورد مسألة في كتاب «إحياء علوم الدين» وهي أنا نرى كثيرا من الناس يظهر عليه الوجد الشديد التام عند سماع الأبيات المشتملة على شرح الوصل والهجر، وعند سماع الآيات لا يظهر عليه شيء من هذه الأحوال، ثم إنه سلم هذا المعنى وذكر العذر فيه من وجوه كثيرة، وأنا أقول (أي الرازي): إني خلقت محروما عن هذا المعنى، فإني كلما تأملت في أسرار القرآن اقشعر جلدي، ووقف علي شعري، وحصلت في قلبي دهشة وروعة، وكلما سمعت تلك الأشعار غلب الهزل علي، وما

وجدت البتة في نفسي منها أثرا، وأظن أن المنهج القويم والصراط المستقيم هو هذا، ثم ذكر وجوها في بيان ذلك تتلخص فيما يلي:

أولاً: إن تلك الأشعار لا تليق بمقام الخالق، وإن إثباتها في حقه كفر.

ثانياً: إن قائل القرآن هو الله عبر جبرائيل إلى الرسول إلينا، بينما قائل تلك الأشعار شاعر كذاب مملوء من الشهوة وداعية الفجور.

ثالثاً: إن مدار القرآن الدعوة إلى الحق، ومدار الأشعار الباطل(١).

وأقول: إن تلك الأشعار تثير شهوات البعض، وتدغدغ عواطف الهوى المكبوتة لديهم، بينما تستثير آيات الذكر دفائن العقول، وتجلي القلوب من رين الشهوات، وكل إناء بالذي فيه ينضح.

﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ وإن أولئك الذين يبحثون عن سبل الزلفى إلى الله عبر الأشعار الجاهلية والطرق غير الشرعية لا يهديهم الله إليه، بل يضلهم لأنهم لم يتبعوا الوسيلة التي بينها لعباده.

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ فمن شاء أن يهتدي إلى ربه سبيلا فعليه أن يتوسل به إليه، وبأوليائه الذين جعلهم وسائل رحمته، وألا يخترع لنفسه مذهبا فيضله الله، وأن يعلم أن الله يدل على ذاته بذاته، ولا شيء أظهر دلالة منه ولا شفيع إلا من بعد إذنه، وهكذا يخلص النية لربه، وحاشا لله أن يخيب ظن عبده به.

[٢٤] ويعود القرآن إلى مفارقته بين من يتقي به في الدنيا فينجيه الله من عذاب النار، وبين من لا يتقي ولا يجد هناك شيئا يحتجز به عن النار، فتراه يضطر إلى اتقاء النار بوجهه. ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي عذاب هائل ذلك العذاب، حين تتميز جهنم غيضاً، وتتفجر فيها النيران تفجرا، ويأتي المجرمون لا يملكون من الثواب ما يقيهم النار، فتتعرض وجوههم لها، تلك الوجوه التي اعتزوا بها وبإثمها في الدنيا، وصانوها بأيديهم وبما يملكون. ﴿وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ إن الفواحش التي يرتكبها الظالمون في الدنيا تتجسد في صورة نيران ملتهبة وعقارب وحيات. أرأيت الذي يصنع القنبلة النووية بيده ثم يفجر نفسه والبلاد كيف أنه حين يصنعها لا يتصور بسهولة هول عذابها، كذلك المجرمون حين يزنون أو يغتابون أو يأكلون أموالهم بينهم بالباطل أو يؤيدون الطاغوت لا يتصورون أي

---

(١) راجع التفسير الكبير: ج ٢٦ ص ٢٧٣ والعبارة أوسع.

عذاب شديد يكتسبونه ويعدونه لأنفسهم في يوم القيامة.

[٢٥] وكما هو في الآخرة كذلك في الدنيا، فمن بنى السد وطغى به عُذِّبَ به، كما انهار سد مأرب، و من عبد الحجارة، أو اتخذ من الجبال أكنانا عُذِّبَ بها كما عاد وثمود، ومن عبد الماء أُغرِقَ فيه كقوم فرعون. ﴿ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ فمن كذب بآيات الله وصدف عنها أتاه العذاب من حيث لا يشعر، وعلينا أن نراجع قصص القرآن كيف عذب الله الأقوام، فهل كان يتصور فرعون أن موسى عليه السلام الذي ربّاه في بيته يكون فناء ملكه على يديه؟! كلا.. وهل كان يعلم فرعون وملؤه الذين عبدوا الماء، فكانوا يرمون في النيل بأجمل فتياتهم لإرضائه، وكان فرعون يفتخر بالأنهار التي تجري من تحته، وكانت حضارتهم قائمة عليه، هل كانوا يعلمون بأنهم سوف يغرقون في معبودهم وأساس تحضرهم. إن الذي يكذب بآيات الله يكون هلاكه بالقوة التي يعتمد عليها (يعبدها).

[٢٦] ﴿ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ لأنهم كانوا يستكبرون، ولا يعترفون بشيء غرورا، والآن يجب أن يلاحقهم الخزي والعار، هذا في الدنيا ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ أكبر خزيا وألما، والإنسان يهرب من عذاب الدنيا فكيف لا يهرب مما هو أكبر منه؟!

[٢٧] وبعد ذلك يذكِّرنا الرب بأنه ضرب لنا الأمثال، من قصص الأنبياء وأممهم. وهي وقائع خارجية جسدت القيم التي يبشر بها القرآن وهذا المعنى المثل أي التطبيق الخارجي للحقيقة. ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ والتعبير ﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يدل على أن في القرآن إشارة إلى كل الحقائق، وذلك عبر أمثلة واقعية لها، فأنى تفكرت فيه مما يتصل بالخلق والخالق والصلة بينهما وصلة الخلق ببعضهم وغيرها مذكور في القرآن ومفصل بالأمثلة التي لا تقتصر على حياة الشعوب السابقين بل وتشمل إشارات إلى الطبيعة وأحوالها.

[٢٨] وبعد ذلك يأخذنا الرب إلى صفات ذلك القرآن الذي يضرب فيه من كل مثل، ويذكر له صفات ثلاث:

١ - ﴿ قُرْءَانًا ﴾: مقروءاً، يوصلنا بالماضي، ويفصل لنا الحاضر، ويرسم خريطة المستقبل.

٢ - ﴿عَرَبِيًّا﴾: بلغة مفهومة، فأعرب الكلام أفصح عنه، ويقال أعرب فلان عن استيائه أي بينّه، والعربي هو الذي يكون فصيحاً بليغاً.

٣- ﴿غَيْرَ ذِي عِوَجٍ ﴾: ليس به انحراف يمنة أو شمالا، شرقا أو غربا، ذلك أن من أسباب الانحراف الجهل والهوى والاستسلام للضغوط، وتعالى الله عن كل ذلك، وهكذا

يفصح القرآن عن الحقائق بصورة مباشرة.

﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وهذا هدف القرآن، أنه يريد منا أن نتقي الله ونخافه، ونعمل بمضمون التقوى من إصلاح دنيانا و أخرانا.

[٢٩] ومن أمثلة القرآن التي تقرب إلى أذهاننا قبح الشركاء اشتراك مجموعة في امتلاك شخص. ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ ﴾ هل يستوي عبد يملكه أكثر من مالك وعبد يملكه رجل واحد؟! كلا.. لأن في الأول كل مالك يريد أن يُجيِّره لحسابه على حساب الآخرين، وقد بين الباري ذلك في قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[ص: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢]. وقال تعالى عن استحالة الأشباه والأعضاد: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١].

وهناك مثال من واقعنا: حيث تعيش بعض الدول المستضعفة في إطار ولاءات مختلفة فتتصارع عليها قوى الشرق والغرب، وقد يجري الصراع على أراضيها وبأيديها، ويكون بالتالي الغرم لها والمكاسب للأسياد. وليست الآلهة التي تعبد من دون الله سوى رموز للقوى السياسية والاجتماعية التي تتصارع على استعباد البشر فتجر إليه الويلات، وما يخلصنا سوى التحرر من عبادتها والتمرد على سلطانها للنجاة من مشاكساتها وحروبها التي تطحننا اليوم طحنا.

﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ﴾ كلا.. إن الرجل الذي يقوده شخص واحد باسم الله ولا تتداخل فيه شهوات الآخرين ولا ضغوطهم ولا مصالحهم يعيش دائما في حرية مستقيما في طريق واحد، وتعصف به الاختلافات، ولا تتحكم فيه الفوضى، ولا يواجه مشكلة تعدد الولاءات، إنه لا يخاف الصراعات ولا تنافس القوى عليه، إنه يعيش بعيدا عن أهواء الشياطين وأطماع الحكام. جاء في الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «أَنَا السَّلَمُ لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَل: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ ﴾»(١).

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فلا يفرقون بين الذي يوحد الله ويخضع فقط لأوليائه ومن تستعبده قوى السلطة والثروة. وهكذا ضرب الله لنا مثلا للتوحيد من واقع الحياة الاجتماعية والسياسية، وميَّز بين نمطين من الحياة، حياة الاستقلال وحياة العبودية، وذلك تكميلا لبيان المفارقات في سورة الزمر.

(١) بحار الأنوار: ج٢٤ ص١٦٣.

أليس الله بكاف عبده

﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِن دُونِهِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ ۚ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ ۖ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾

هدى من الآيات:

تهبط آيات القرآن كالصاعقة على القلب الغافل فتفجر فيه طاقات الفهم، وتثير فيه

دفائن العقل، من ذلك ما نجده في هذا الدرس حيث يهدينا إلى حقيقة يحاول ابن آدم إنكارها تكبرا وعلوا حتى أضحت تشبه في إنكار الناس لها الباطل، وتلك هي الموت الذي ينتظر كل حي، ولكن الموت هو أهون المراحل التي تنتظرنا، فما بعده أعظم، كالاختصام يوم القيامة، ذلك لأن الإنسان لا يستطيع في ذلك اليوم حين يقف وحيدا أمام محكمة الحق أن يتهرب من الحقائق، فلا بد إذا أن نهتم بالمعايير الأخروية اليوم وقبل ذلك اليوم. وفي بداية سورة آل عمران قلنا: إن الإيمان بالبعث يمثل حجر الزاوية في فكر الإنسان المسلم، حيث يحافظ على توازنه، ويدعوه إلى الإيمان بحقائق خارج محيط ذاته وإنما هي المحور، وإذا آمن الإنسان بوجود محور في الحياة بحث عنه، وإذا بحث عنه وجده.

وهذا الدرس امتداد للدرس الماضي، حيث ذكرنا هنالك أن القلب الخاشع لله يهديه الله للإسلام، فيعترف بوجود الحق، بعكس القلب القاسي المنغلق على ذاته، الذي لا يعترف إلا بما يعيش داخله، فهو يتمحور حول ذاته.

وفي هذا الدرس يعرض القرآن مفارقة بين من جاء بالصدق وصدَّق به، ومن يكذب على الله ويكذِّب بالحق ويدَّعي الأنداد لله، وبعد ذلك يعلن الله كفايته لرسوله رغم تخويف المشركين له بالذين من دونه، وأنهم لن يستطيعوا إضلال من هداه الله، ولا يستطيع الذين من دونه كشف الضر عنا أو منع الخير.

بينات من الآيات:

[٣٠] من أبرز وأخطر مصيبات البشر انغلاق قلبه عن حقائق الخليقة، وإيمانه بمقاييس ذاتية، يقيم بها الأحداث والأشخاص من حوله، فكيف يتخلص الإنسان من هذه المصيبة التي تعمُّ سائر أبناء آدم، وتعبير آخر كيف يتقي الإنسان شح ذاته، ويخرج من زنزانة نفسه الضيقة إلى رحاب الحق؟

لا ريب أن وعي الموت والنشور ثم الوقوف أمام محكمة الحق أقرب السبل للخلاص من هذه البلية، ذلك أن اعتقاد الإنسان بوجود مقاييس موضوعية ثابتة عند الله، وأنه سوف يعرض عليها بأفكاره وأقواله و أعماله، وسوف يحاكم وفق تلك المقاييس شاء أم أبى، كل ذلك يعيده إلى رشده، وينمي عقله على حساب هواه، ويجعله يبحث عن تلك المقاييس اليوم وقبل فوات الأوان.

هكذا يدعونا الإيمان بالبعث إلى الإيمان بكل الحقائق، وهو كما أسلفنا حجر الزاوية

في بناء صرح المعرفة عند الإنسان، وقبل الإيمان بالبعث لا بد من وعي الموت. ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ فإذا مات الرسول ﷺ رغم عظمته وجلال مقامه فهل يبقى أحد منا؟! قال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤]. ويبدو لي أن الخطاب ليس خاصا برسول الله ﷺ فكل من يقرأ القرآن معني بهذا الخطاب، لأن القرآن نزل على لغة: «إِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةُ». هكذا تبعث هذه الآية في أنفسنا يقظة، وفي أعصابنا رعشة، وفي عقولنا إثارة، وفي أفئدتنا سكينة، فأي هيبة عظيمة للموت، هذا الباب الذي لا يعود منه من دخله، ولا ينجو منه من هرب منه، وأين يذهب أعزَّتنا الذين نحملهم كل يوم إلى المقابر مرغومين، ونقف عند أجداثهم مرهوبين، ويهمس في آذاننا داعية الحق آنئذ قائلا بشعر منسوب إلى الإمام علي عليه السلام [1]:

وإذا حملت إلى القبور جنازة ... فاعلم بأنك بعدها محمول

ويقول الإمام علي عليه السلام: «**لَوْ رَأَى العَبْدُ أَجَلَهُ وَسُرْعَتَهُ إِلَيْهِ أَبْغَضَ الأَمَلَ وَتَرَكَ طَلَبَ الدُّنيا**»[2].

[٣١] وهل تنتهي المشكلة عند الموت؟ كلا.. ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴾ فخلافاتكم في الدنيا تنتقل إلى الآخرة، وربنا سبحانه هو الحكم يومئذ، والموازين والقوانين يومئذ غيرها في الدنيا، وعلينا أن نبحث عنها وأن نطبق حياتنا وفقها إن أردنا الحياة.

[٣٢] ومحور المعايير هنالك الصدق، وأظلم الناس لنفسه من كَذَبَ على الله وكذَّب بالصدق، ولكن كيف يكذب على الله؟ يزعم الإنسان حينما يقسو قلبه، وينغلق عن الحقائق، بأن ذاته هي الحق، ويكون مثله مثل ذلك لما سئل: أين مركز الدنيا؟ فقال: حيث يقف حماره، لقد كان يزعم هو والكثير من أمثاله بأنهم مركز الحياة، فالعالم يبدأ من حيث هم، وليس من حيث هي، ويتصورون أن الحق ما يرونه، والباطل ما يرفضونه، و هذا هو الكذب على الله، وحين يعرفون دين الله تراهم تبعا لهذه الحالة النفسية يحقُّون الباطل ويبطلون الحق، وهكذا يكذبون على الله افتراءا عليه. ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ وبيان الرسول لهذه الحقيقة شاهد على صدقه، إذ من يَكذِبُ على الله يهون على نفسه هذا الذنب ثم يرتكبه، بينما نرى الرسول بالعكس تماما يبيِّن مدى جريمة الكذب على الله. وكثير من الناس يمارسون الكذب

(١) ديوان الإمام علي عليه السلام: ص٣١٨. الصادر عن دار نداء الإسلام للنشر - قم، ١٤١١هـ.
(٢) عيون الأخبار: ج٢ ص٣٩.

على الله وهم لا يشعرون، وذلك حين يقولون: هذا حلال وهذا حرام، دون سلطان من الله أتاهم. وجرم الكاذب على الله عظيم، ولا يعادله إلا تكذيب الصدق الذي يجيء من عند الله، إذ الإنسان مسؤول عن معرفة الصدق والتصديق به، ولا يجوز أن ينطوي على نفسه ويقول: من أين نعرف صدق هذا الداعية؟ ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ وجزاء هذا وذاك الإقامة في جهنم، لأنهما معا كافران. ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ ويترك السياق الجواب عليهم لكي تقر ألسنتهم به.

[٣٣] وفي مقابل هؤلاء يقف الصادقون فحين يخرجون عن ذواتهم يرون الحق بوضوح، لأن مشكلة الذي لا يرى الحق انغلاق نفسه، فهل تدخل الشمس غرفة مغلقة مسدلة الستائر؟! كلا.. فعلى الإنسان أن يفتح صدره، ويزيل الستائر والحجب من ذاته، لكي يدخل نور الله أرجاء قلبه. ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ ﴿جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ أي دعا إليه كالرسول، ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أي التزم بها آمن، فلا يكفي الإيمان بصدق شيء من دون العمل بمضمون هذا الإيمان، والصديق هو الذي يؤمن في الأوقات الحرجة، حيث لا تسمح له السلطات ولا يؤيده الناس.

وجاء في تفسير مجمع البيان: «قيل الذي جاء بالصدق محمد ﷺ وصدّق به علي بن أبي طالب عليه السلام.. و هو المروي عن أئمة الهدى من آل محمد عليهم السلام»[1].

والصديق يتقي بصدقه عذاب الله: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ القرآن عادة ما يربط بين الفكر والعمل برباط التقوى، والتقوى حقيقة تدور حولها كل الحقائق، وهذا ما تشير إليه الآية: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧].

[٣٤] وفي الجنة: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ لأنهم تركوا ما يشاؤونه في الدنيا، فأهواؤهم كانت تدعوهم للخضوع إلى الطاغوت، والميل للمجتمع الفاسد، والانسياق وراء شهوة البطن والفرج.. وهكذا أعطاهم الله ما يشاؤون، أو لأنهم أعطوا للمحتاج ما يشاء أعطاهم الله ما يشاءون. وكلمة ﴿مَّا﴾ تعني الإطلاق، فهم لا يتمنون على الله شيئا إلا أعطاهم. وقيل: إن ما عند ربهم يشاؤونه، فقد أعد الله لهم نعيما في الجنة يشاؤونه، ولا تعارض في المعنيين.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بعد مرحلة التقوى يأتي الإحسان، والإحسان هو العطاء، ونتساءل: هل يمكن أن يعطي الإنسان شيئا دون أن يخرج من قوقعة ذاته؟ كلا.. فالذي يعيش

---

(١) تفسير مجمع البيان: ج٨ ص٦٤٢.

في حدود نفسه وشهواتها لا يستطيع أن يعطي، وإنما يعطي من يفكر في حاجات الآخرين قبل حاجات نفسه، فالإحسان إذن أرفع مراحل التكامل البشري، فقد يكون الإنسان متقيا ولكن لا يعطي إلا بحساب، والمحسن موقن بالخلف فيستسهل البذل. و الظاهر أن الإيمان والتقوى يكتمل بالإحسان، وهو أعلى المراحل في المسيرة الإيمانية.

[٣٥] ويبقى المتقون خائفين من سيئاتهم التي إن بقيت أكلت جانبا من حسناتهم، ولكن الله يطمئنهم حين يَعِدهُم بغفرانها: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ إذا كان الخط العام للإنسان في الحياة سليما فإن هفواته تغتفر له، كما لو كانت استراتيجية القائد سليمة فإن أخطاءه التكتيكية لا تؤثر عليه كثيراً، بعكس ما إذا كانت استراتيجيته خاطئة فإن صواب خططه المرحلية لا ينفعه شيئا. وهكذا إذا كان الخط العام لحياة شخص سليما، فتولى الله ورسوله وأولي الأمر حقا، ونهض بواجباته في التحصن ضد الانحرافات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فلم ينصر ظالما، ولا خذل مظلوما، ولا أكل أموال الناس بالباطل، ولا أدلى بها إلى الحكام، وبالتالي اجتنب فواحش الذنوب، ثم ارتكب اللمم وهي الصغائر، أو حتى الكبائر بلا جحود ولا إصرار، ثم تاب إلى ربه متابا فإنه ترجى له مغفرة الله.

أما من كان خطه العام منحرفا فكان وليا لأعداء الله، معينا للظلمة على عباد الله، فإن كثرة صلاته و صومه لا تنفعه، كذلك لو عاش على الحرام حتى نبت لحمه وعظمه منه. ولعل المعيار الأساس في ذلك ألا تكون السيئة الصادرة من منطلق سيء، إذ قد يرتكب المرء ذنبا ولكن قلبه لا يزال مطمئنا بالإيمان فيمكن تدارك الأمر، ولكن الذي يرتكب الموبقات وهو جاحد بربوبية الرب، مستحل للمحرمات، فإن توبته إلى الله بعيدة. وتشجيعا لحالة الإحسان في الأمة ألغى الإسلام الضمان عن المحسنين الذين يقعون في الخطأ، فقال سبحانه: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ﴾ [التوبة: ٩١]. ومضت هذه الآية قاعدة فقهية استنبط العلماء منها أحكاما كثيرة حيث أسقطوا بها الضمان من الذين يريدون الإحسان ولكنهم يخطئون فيلحقون ضررا بالطرف الآخر، كمن أراد إنقاذ غريق فتسبب جهله بطريقة الإنقاذ إلى المساهمة في غرقه.
﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

[٣٦] ومن العقبات التي تعترض طريق المؤمنين المحسنين خشية الناس، والخوف من مقاطعتهم و هجرهم، ولكن الله وعدهم بكفايتهم شر الناس، والله سبحانه هو الذي يحفظ السماوات والأرض أن تزولا، فكيف لا يحفظ عبده؟! ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ بلى؛ إن الله يكفي عبده شر جور السلاطين، وكيد الحاسدين، وبغي الظالمين. ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ بإثارة الرعب في قلبك ممن هو من دونه سبحانه، أن يضلوك عن سبيله. ﴿وَمَن

﴿يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ لا يعلمون أن المهيمن هو الله، وأن الأنداد من دونه، والسلطات الطاغوتية، والمجتمع الفاسد، و.. . لا تملك أي قوة، ولأنهم توجهوا إلى غير الله فقد سلب منهم الله نور الهداية فأضلهم.

[٣٧] ومرة أخرى يؤكد الله على فكرة الكفاية بقوله: ﴿وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّضِلٍّ﴾ أي لا توجد قوة قادرة على إضلال امرئ إذا أراد الله هدايته. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انتِقَامٍ﴾ إن الله عزيز، ومن عزته انتقامه من الكفار، ومن مظاهر انتقامه إضلاله للمعاندين كما أن من مظاهر عزته هدايته للمحسنين.

[٣٨] ومن أمثلة عزة الله خلقه السماوات والأرض وتدبيره لهما: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ إن الله هو الذي خلق السماوات والأرض، وهما بيده، فلا تنظر إلى محيط دولة يحكمها مخلوق ضعيف، وتقول: هذا ربي. كلا.. فالذي خلق السماوات والأرض ربك وربه، وأنتما تحت سيطرته، وما يملك فهو له سبحانه. ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾ فلو اجتمعت كل سلطات العالم لتمنع عن أحد ضرر فيروس بسيط كفيروس الأيدز مثلا أتراهم يقدرون؟ كلا.. ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ﴾ فلو شاءت إرادة الله إنزال الماء من السماء على بلد معين، وأراد طاغوت هذا البلد منعه فهل يستطيع؟! كلا.. إن مشكلة الإنسان هو خضوعه النفسي للطاغوت، وإذا لم يخضع له نفسيا فهو لا يستطيع أن يفعل شيئا. ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ فالله يكفيني، وعليه توكلي. وهذه الآيات الثلاث تسلية للرسول ومن يحمل رسالة ربه ألا يهن أو يخاف من الكفار وممن يدعون من دونه، فقد ضمن الله ما يلي:

١- كفايته للرسول ومن يحمل رسالته من بعده من تخويف الكافرين له.

٢- إنه سبحانه يضلل الكافرين ومن يدعون من دونه، ولن يهديهم سواء السبيل.

٣- إن الله سوف يهدي الذين آمنوا حين يتمسكون بهداه، ولن يضلهم أعمالهم.

٤- إن الله عزيز ذو انتقام، لا يرد بأسه عن الذين كفروا، فسوف يأخذهم أخذ عزيز منتقم.

٥- إن الله حين يريد بالمؤمنين خيرا فلن تستطيع قوة أن تهزمهم، وإن حمايتهم وحسبهم وكفايتهم على الله، لأن الله أراد ذلك.

[٣٩] وحين يطمئن الله الرسول يأمره بتحديهم. ﴿قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ هذا التحدي من الرسول ﷺ ينبع من روح الاطمئنان

بسبب حماية الله وكفايته وحسب، وهذه الروح يجب أن يتحلى بها الرساليون، ويقولون كما قال الرسول ﷺ: يا قوم ! اعملوا ما شئتم، وامكروا ما شئتم، واظلموا ما شئتم، واقتلوا ما شئتم، إننا ماضون على الطريق فسوف تظهر النتائج سريعا.

[٤٠] وهناك تعلمون: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ففي محكمة العدل الإلهية يتقرر من الصالح ومن المفسد، فهناك الميزان الحق، والمقاييس السليمة.. وتذكرة القرآن بذلك اليوم تحقق التعادل في النفوس السليمة. فلا تأبه بالمعايير المادية الخاطئة.

[٤١] إذن، فمن اهتدى بالكتاب فقد أمن يوم الفزع الأكبر، ومن ضل فقد ضل على نفسه، وهو الخاسر الوحيد، إذ يخسرون في يوم القيامة أنفسهم وأهليهم. ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ القرآن هو ذلك المقياس يوم القيامة، وسيأتي مجسدا يوم القيامة، فلا بد أن نجعله مقياسا لنا في الدنيا. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ﴾ فالهدى له، والضلالة عليه. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ كل إنسان لا بد أن يواجه مصيره بنفسه، ويختار طريقه بإرادته، ويتحمل مسؤولية اختياره، ولا أحد يتحمل مسؤولية أحد، حتى الرسول ليس وكيلا عن قومه، إنما هو نذير.

قل لله الشفاعة جميعا

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ
فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن
دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ
﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ
تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ
﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ
تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ
ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ
يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمۡ
سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا
مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ
عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن
قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا
كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم
بِمُعۡجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ
إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾

هدى من الآيات:

إن آيات الله في الكون التي يشير إليها هذا الدرس، ليست فقط دليلا للإنسان على وجود الله، بل طريقا إلى معرفته المعرفة الأسمى أيضا. وعلى الإنسان أن لا يكتفي بدرجة من الإيمان بل يتابع مسيرته التكاملية حتى يصل إلى مرحلة العرفان، وللعرفان أيضا درجات، فكلما تفكر الواحد في آيات الله في الآفاق وفي نفسه، والتحولات والتغيرات التي تحدث عنده، ازداد يقينا ومعرفة، حتى يبلغ الحد به أن يقول: «**لَوْ كُشِفَ الغِطَاءُ مَا ازْدَدْتُ يَقِينا**»[1]، كما قالها سيد العارفين الإمام علي عليه السلام.

بينات من الآيات:

[٤٢] تقارن الآية الأولى بين النوم واليقظة، وبين الموت والحياة عند الإنسان، فكما لم يكتشف العلم لغز الموت، فإنه لم يكتشف لغز النوم أيضا، وهما أخوان، ولكن بينما ينام الإنسان بخروج جزء من روحه، أو حسب تعبير بعض المفسرين (خروج نفسه وبقاء روحه)، فإن كل روحه تخرج بالموت. ولو فسرنا كلمة النفس بالعقل، فلا ريب أنه في حالة النوم يعيش البشر سباتا عقليا. ويذكرنا الله بأن الله هو الذي يسلب نفس الإنسان ويأخذها في حالتين: حالة النوم، وحالة الموت، فالتي يسلبها في حالة النوم يردها على صاحبها عند اليقظة، بينما يدع تلك الأخرى عنده إلى يوم البعث.

وفي الحديث عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَنَامُ إِلَّا عَرَجَتْ نَفْسُهُ إِلَى السَّمَاءِ وَبَقِيَتْ رُوحُهُ فِي بَدَنِهِ وَصَارَ بَيْنَهُمَا سَبَبٌ كَشُعَاعِ الشَّمْسِ فَإِذَا أَذِنَ اللهُ فِي قَبْضِ الأَرْوَاحِ أَجَابَتِ الرُّوحُ وَالنَّفْسُ وَإِنْ أَذِنَ اللهُ فِي رَدِّ الرُّوحِ أَجَابَتِ النَّفْسُ وَالرُّوحِ**»[2]، وفي حديث آخر قال الإمام الصادق عليه السلام: «**إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَقُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي احْتَبَسْتُ نَفْسِي عِنْدَكَ فَاحْتَبِسْهَا فِي مَحَلِّ رِضْوَانِكَ ومَغْفِرَتِكَ وإِنْ رَدَدْتَهَا إِلَى بَدَنِي فَارْدُدْهَا مُؤْمِنَةً عَارِفَةً بِحَقِّ أَوْلِيَائِكَ حَتَّى تَتَوَفَّاهَا عَلَى ذَلِكَ**»[3].

وربنا في هذه الآية يقول: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا ﴾ وفي اللغة توفى بمعنى أخذ الشيء وافيا. ﴿وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ تلك النفس التي لم تمت يتوفاها الله عند النوم. ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ولا يدعها تعود إلى الجسد، ولعل الآية تشير إلى

(١) بحار الأنوار: ج٦٦ ص٢٠٩.
(٢) بحار الأنوار: ج٥٨ ص٢٧.
(٣) الكافي: ج٢ ص٥٣٦.

أن للنفس ولها بالجسد وتريد العودة إليه، ولكن الله يمسكها إمساكا. ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۚ﴾ أما النفس التي لم تمت بل نامت فإنه تعالى يأخذها ثم يعيدها إلى صاحبها لفترة معينة هي حلول أجله. فإذا حل سلبها منه دون عودة إلا عند البعث.

فما هذه الروح؟ هل هي كامل الروح؟ أم شعاع منها؟ أم شيء آخر؟.

في الواقع إن مسائل الروح لا تزال بعيدة عن إفهامنا. والآية تشير بوضوح إلى الموت وطبيعته، و نحن لم نمت ولم يعد إلينا من مات ليخبرنا عن واقع الأمر، ولكننا ننام، وحيث يخبرنا الرب بأن الموت مثل النوم نستطيع أن نتعرف إليه نسبيا من خلاله.

ويقتبس لقمان من هذه الفكرة حكمة فيقول لابنه وهو يعظه بالموت: «يَا بُنَيَّ إِنْ تَكُ فِي شَكٍّ مِنَ المَوْتِ فَارْفَعْ عَنْ نَفْسِكَ النَّوْمَ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ ذَلِكَ وَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِنَ البَعْثِ فَارْفَعْ عَنْ نَفْسِكَ الانْتِبَاهَ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ ذَلِكَ فَإِنَّكَ إِذَا فَكَّرْتَ فِي هَذَا عَلِمْتَ أَنَّ نَفْسَكَ بِيَدِ غَيْرِكَ وَإِنَّمَا النَّوْمُ بِمَنْزِلَةِ المَوْتِ وَإِنَّمَا اليَقَظَةُ بَعْدَ النَّوْمِ بِمَنْزِلَةِ البَعْثِ بَعْدَ المَوْتِ»[1].

وفي الحديث النبوي المستوحى من هذه الآية الكريمة: «لَتَمُوتُنَّ كَمَا تَنَامُونَ وَلَتُبْعَثُنَّ كَمَا تَسْتَيْقِظُونَ»[2]. فلماذا نحن نتعجب من البعث والنشور، بينما لا نتعجب من اليقظة بعد النوم؟! أوليس القادر على إيقاظ النائم من نومه بقادر على أن يعيد إلى الميت الحياة؟!.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ ولعل المعنى الحقيقي لكلمة التفكر هو تحريك المعلومات وربطها ببعضها وتحليلها، والذين يفعلون ذلك يصلون إلى مغزى الموت والنوم، ويعرفون من وراء التحول من يحول، ومن خلال التدبير من يدبر وهو الله سبحانه وتعالى. وإنهم يعرفون من خلال ذلك الشيء، أن القدرة المهيمنة على نهاية حياة الإنسان، هي التي يجب أن تعبد حقا.

[٤٣] أما الشفعاء المزعومون من دون الله الذين لا يملكون الموت ولا الحياة، وهما أهم قضيتين في حياة الإنسان، فلا يحق لهم أن يتحكموا في حياته، ولا أن يخضع هو لهم أبدا. ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾ وللشفعاء المرفوضين عند الله تفسيران:

الأول: أنهم الشركاء من دون الله، وهم رموز القوى المؤثرة في حياة البشر، كسلطان القوة والمال والشهرة. وينفي القرآن أية قيمة لهذه القوى عند الله، فلا يزعم صاحب السلطان

---

(١) بحار الأنوار: ج٧، ص٤٢.
(٢) بحار الأنوار: ج٧ ص٤٧.

والغنى والشهرة أن ميزته في الدنيا تستمر إلى الآخرة. بل إنه يأتي ربه يومئذ فردا فقيرا مغمورا، ولا يزعم الواحد منهم كما زعم صاحب الجنتين إذ قال لصاحبه وهو يحاوره: ﴿مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦].

الثاني: أنهم الذين يزعم البشر أن باستطاعته التهرب من المسؤولية بسببهم، وذلك بإلقاء مسؤولية ضلاله وانحرافه عليهم، كأن يلقي بمسؤولية انحرافه وضلاله على والديه، أو السلطات الحاكمة، أو المجتمع.

ولكن الله ينسف فكرة الشفاعة عموما فيقول: ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ كالنفع والضر أو الموت والحياة، أو أقل من ذلك. لأن الملك كله لله عز وجل. ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ لأنهم لو كانوا يعقلون لم يكونوا ليأمروا بما يخالف رضى الله تعالى. فهم إذن لا قوة لهم ولا علم. ومن يكون هكذا لا يكون شفيعا.

[٤٤] إن الشفيع الحقيقي هو الله الذي بيده ناصية كل شيء، وإذا كان ثمة آخرون فإنما يشفعون بإذنه. ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ فإذا أراد البشر أن يفر من عذاب الله، فليهرب إليه تعالى، فليس من ملجأ منه إلا إليه كما قال ربنا: ﴿فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وكلنا يخشى من ذنوبه ولكن لن نجد غافرا للسيئات التي احتطبناها سوى الله. ومن عادة البشر أنه إذا أذنب ذنبا حاول تبريره، أو اخترع لنفسه شفيعا يزعم أنه سوف يخلصه من ذنبه، والله يقول: لا، لماذا تذهب هنا وهناك؟! تعال إليَّ، حتى ولو كنت مذنبا تعال، فأنا الذي أخلصك من الذنب، لا أولئك الشفعاء، ولا تلك التبريرات. ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فالله هو الشفيع حقا، لأنه هو السلطان في السماوات والأرض، فهو الذي يدبر الأمور اليوم وإليه المصير حيث الحساب الدقيق والجزاء الأوفى.

[٤٥] ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لأنهم لا يؤمنون بالآخرة، ويحاولون التهرب من المسؤوليات، ويعرفون أنه إذا كانت الآخرة أمرا واقعيا فإنهم سوف يحملون عبء الأمانة، لكل ذلك تراهم يشمئزون فحربهم لفكرة الآخرة إنما هي بدافع نفسي، فهم لا يحبون القيامة لأنهم لا يحبون المسؤولية، والمثال على ذلك: إذا قيل لمجرم: جاء الشرطة يشمئز قلبه، لماذا؟ لأن الشرطة سيأخذونه إلى المحكمة، ومن ثم الجزاء العادل، وأما الرجل المظلوم، الذي يسمع وهو بين يدي من يظلمه، أن جاء الشرطة تراه يحمد ربه، لماذا؟ لأنه سوف يتخلص من يد الظالم.. و هكذا المؤمنون يشتاقون إلى الآخرة، لأنهم يعرفون أن هناك الجزاء الأوفى لحسناتهم، بينما الكافرون تشمئز قلوبهم، إذا ذكر الله وحده،

لأنهم يفتشون عن إله يخلصهم من رب السماوات والأرض، ويخلصهم من ذنوبهم وسيئاتهم.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ فإذا كانوا يتحدثون عن الآباء، والقيم الفاسدة، والشفعاء الموهومين، فإنهم يرتاحون نفسيا. وتجد هذه الآية تطبيقها في كل إنسان، خصوصا في العالم المتخلف، حيث لا نحب نحن البشر الاستماع إلى من يحدثنا عن مسؤولياتنا، أما إذا تحدثوا إلينا عن تبرير وضعنا الفاسد وإلقاء المسؤولية على الدول أو على الخطوط، أو على القضاء والقدر، فإننا نستمع مرتاحين، والسبب هو أن مثل هذا الكلام لا يحملنا المسؤولية.

[٤٦] وفي مواجهة هذا الانحراف الكبير والضلال البعيد يتوكل المؤمن على الله ويدعوه ضارعا ليثبت فؤاده حتى لا يتأثر باشمئزازهم من ذكر الله، وفي ذات الوقت يتحداهم بالمزيد من ذكر ربه. ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ حين ينشق شيء يقال انفطر، والله شق العدم بالخلق فإذا بالسماوات والأرض تخرجان من ضميره. ومن معاني الانفطار أن السماوات والأرض لم تكونا فكانتا مرة واحدة، فأبدعهما من غير مثال يحتذي به، ومن معانيه أنهما كانتا رتقا ففتقهما بقدرته. ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ﴾ إن تعميق الإحساس برقابة الله في نفس الإنسان، وأنه هو الحاكم بين عباده، يجعله لا يعصيه، لأنه لا يمكن له الكتمان عليه أو الكذب عليه يوم القيامة. وإذا كان هو الحاكم بين عباده فما هو دور الشركاء الذين يتخذ منهم الكافر شفعاء، ويتشبث بهم هربا من المسؤولية؟! علما بأن محكمة الله آنئذ تحكم بين الناس بالحق. ﴿فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فهنالك الكلمة الفصل، التي لا ريب فيها، ولا تلبيس، ولا تحيط بها ضلالات الهوى، وتبريرات الشهوات، وكلما تفكر الإنسان في ذلك اليوم، وفي ميزان الحق الذي ينصب فيه، تباعد عن محورية ذاته، وتحصن ضد قسوة القلب وانغلاقه دون فهم الحقائق.

[٤٧] فمن كفر بالله وظلم نفسه أو الناس هلك ولا تنفعه ثرواته شيئا. ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ وفي آية أخرى يقول الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ [آل عمران: ٩١]. بلى، قد يبيع المرء نفسه بثمن بخس فيشتري جهنم بغيبة أو بكذبة، وما أبخس هذا الثمن إذا كانت النار عاقبته! وهكذا يهون علينا القرآن شأن الدنيا حتى لا تخدعنا زخارفها ولو كانت الأرض كلها بأيدينا فهي تعف عنها أنفس المؤمنين بالآخرة، لأن عذابها لا يزول بافتداء كل الأرض ومثلها معها، فما شأن بيت معمور فيها أو زوجة حسناء أو منصب بسيط؟!.

﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾ لأن كتابهم آنذاك لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها مما لم يكونوا يتوقعونه ولم يحتسبوا أن الأمر بهذه الدقة وبهذه الجدية، وفي الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «اتَّقُوا المُحَقَّرَاتِ مِنَ الذُّنُوبِ فَإِنَّ لَهَا طَالِباً يَقُولُ أَحَدُكُمْ أُذْنِبُ وأَسْتَغْفِرُ إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَـٰرَهُمْۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ وقَالَ عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾»[1]. ويبدو من خلال الآية أن الإنسان قد يتصور أن مجرد ذنوبه البسيطة قد لا تسبب له دخول النار، ولكن الحقيقة شيء آخر، إذ تجتمع الذنوب إلى بعضها حتى تكون كالجبل على قلبه. وفي الحديث عن الإمام أبي الحسن عليه السلام: «لَا تَسْتَكْثِرُوا كَثِيرَ الخَيْرِ ولَا تَسْتَقِلُّوا قَلِيلَ الذُّنُوبِ فَإِنَّ قَلِيلَ الذُّنُوبِ يَجْتَمِعُ حَتَّى يَكُونَ كَثِيراً وخَافُوا اللهَ فِي السِّرِّ حَتَّى تُعْطُوا مِنْ أَنْفُسِكُمُ النَّصَفَ»[2].

[٤٨] ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ فالسيئات التي مكروها في الحياة الدنيا بدت لهم على حقيقتها. إذ إن النفس الأمارة والشياطين من الجن والإنس كل أولئك يزينون للبشر سيئات أعماله، حتى تختفي ظاهر سوءاتها وتبدو لهم أنها حسنات، و ذلك بإظهار حسناتها، بيد أنها في القيامة حيث تبلو السرائر تظهر سيئات أعمالهم التي اكتسبوها.

وقد تشير الآية إلى تجسد الأعمال، حيث تصبح السيئات عقارب وحيات ونيران ملتهبة، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي أحاط بهم. ﴿مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ فالرسالة ذاتها التي استهزؤوا بها أهلكتهم، فالقرآن في يوم البعث يقود من اتبعه هنا إلى الجنة هناك، و يسوق من تولى عنه هنا إلى النار هناك. وهكذا كل رسالات الله.

[٤٩] ويمضي السياق قُدُماً في بيان أن الثروة ليست قيمة مطلقة لأنها ليس فقط لا تغني شيئا عن عذاب الله في الآخرة، بل ولا عن بلائه في الدنيا حينما تحيط بالإنسان الضراء فتراه يدعو ربه، ولكنه لا يلبث أن ينسب النعم إلى ذاته، ويزعم بأنه إنما حصل عليها بعلمه. كلا إنها من عند الله ولكنها ليست دليلا على كرامته عنده، بل هي مجرد فتنة يمتحن الله بها خلقه.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ وهذه الآية تكمل الآية الثامنة من هذه السورة، حيث إن الإنسان هناك نسب النجاة إلى الأنداد بينما هنا نسبها إلى نفسه، والفرق واضح، ففي المرة الأولى ألهَ غيره، وفي الأخرى أله نفسه، واعتقد أن ما خوَّله الله به من نعمة إنما هو من ذاته. ولان السياق هناك كان في مقام نفي الأنداد فقد

(١) الكافي: ج٢ ص٢٧٠.
(٢) بحار الأنوار: ج ٧٠، ص ٣٤٦.

عالج حالة الشرك بهم، بينما السياق هنا -فيما يبدو- ينفي قيمة الثروة فإنه عالج عبادة الذات والزعم بأن ما حصل عليه من النعم كانت بعلمه. وتذكرنا الآية بما قاله قارون: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾ [القصص: ٧٦-٧٨].

﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لماذا قال ربنا أولا ﴿نِعْمَةً﴾ وهي صيغة مؤنث حيث استخدم ضمير المذكر ثم عاد إلى صيغة المؤنث؟.

لعل الجواب: أن الأصل في السياق استخدام صيغة المؤنث وإنما انصرف عنه في قوله: ﴿أُوتِيتُهُ﴾، لبيان أن الله إنما خوّله شيئا من النعمة ذلك أن الإنسان يتصور أنه حاز على النعمة جميعا بينما لم يخوّله الله إلا شيئا بسيطا منها، فإذا هو بهذا القليل يطغى فكيف بكل النعم. ويشير السياق إلى أنه ينبغي ألا يرى الإنسان أن النعمة خير له.. بل قد تكون فتنة وابتلاء، بل قد تكون استدراجا من الله له، ففي الرواية عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**يَا ابْنَ آدَمَ إِذَا رَأَيْتَ رَبَّكَ سُبْحَانَهُ يُتَابِعُ عَلَيْكَ نِعَمَهُ وأَنْتَ تَعْصِيهِ فَاحْذَرْهُ**»[1]. وقال عليه السلام: «**كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالإِحْسَانِ إِلَيْهِ ومَغْرُورٍ بِالسَّتْرِ عَلَيْهِ ومَفْتُونٍ بِحُسْنِ القَوْلِ فِيهِ ومَا ابْتَلَى اللهُ سُبْحَانَهُ أَحَداً بِمِثْلِ الإِمْلَاءِ لَهُ**»[2].

وأمرنا الإسلام بأن نكون على حذر شديد من النعم لكي لا تغرّنا، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**أَيُّهَا النَّاسُ لِيَرَكُمُ اللهُ مِنَ النِّعْمَةِ وَجِلِينَ كَمَا يَرَاكُمْ مِنَ النِّقْمَةِ فَرِقِينَ إِنَّهُ مَنْ وُسِّعَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ اسْتِدْرَاجاً فَقَدْ أَمِنَ مَخُوفاً ومَنْ ضُيِّقَ عَلَيْهِ فِي ذَاتِ يَدِهِ فَلَمْ يَرَ ذَلِكَ اخْتِبَاراً فَقَدْ ضَيَّعَ مَأْمُولاً**»[3]. بل يجب أن يكون خوف الإنسان من الغنى أشد من خوفه من الفقر، ومن الصحة أشد من خوفه من المرض، فقد وضع الله سبحانه الحرج عن المريض، ولم يكلف الله نفسا إلا بما آتاها بينما صاحب العافية والثروة تلزمه مجموعة كبيرة من الحقوق لو قصر فيها استحق العذاب، وفي الحديث: «**لاَ يُؤمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ الفَقرُ أَحَبَّ إِليهِ مِنَ الغِنَى، وَالمَرَضُ أَحَبَّ إِلَيهِ مِنَ الصِّحَةِ (العَافِيَةِ)**»[4].

[٥٠] وفي التأريخ عبرة فلقد أهلك الله من القرون من كان يملك الثروات الطائلة،

---

(١) نهج البلاغة: حكمة: ٢٥.

(٢) نهج البلاغة: حكمة ١١٦.

(٣) نهج البلاغة: حكمة ٣٥٨.

(٤) الدر المنثور للسيوطي: ج ٤ ص١١٦ عن ابن مسعود قريب من المعنى.

ويزعم أنها تمنحه الحرية في التصرف حيث يشاء، والتهرب من مسؤولية أعماله السيئة، وقد قال مثل قول هؤلاء أنه حصل على الثروة بعلمه فهو قادر على دفع الضرر عن نفسه. ﴿قَدْ قَالَهَا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فأوغلوا في المعاصي اغترارا بالنعم. ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

[٥١] لقد اعتمدوا على مكاسبهم المادية، وزعموا أنها تحلل لهم السيئات، أو لا أقل يقدرون على دفع العقاب عن أنفسهم ولكن هيهات. ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ ولزمهم عقاب ما اجترحوا من الذنوب وتلك سنة الله تجري في من يأتي كما جرت في من مضى. ﴿وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ جزاء للسيئات التي اكتسبوها. ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي لا يعجزون الله إهلاكهم، أو إحضارهم إلى جهنم.

[٥٢] لقد زعموا أن علمهم كان سبب مكاسبهم، فرد عليهم القرآن:

أولاً: ماذا تغني مكاسبكم عن العذاب.

ثانياً: بأن الرزق من عند الله.

ويبدو أن الرزق يختلف عن الكسب، فالرزق هو ما يعطيه الله سواء بسعي أو بدون سعي، والكسب هو الذي يحتاج إلى سعي، فكل كسب رزق، وليس كل رزق كسبا، والنعم الأولية الفطرية هي رزق من الله مثل السمع، والبصر والفؤاد، والقوة، و الشباب. ولو لم يكن رزق الله هل كان يقدر الإنسان على الكسب؟ لو لم يعطك الله السمع والبصر والفؤاد هل كنت قادرا على السعي وراء رزقك؟ ولا تحصى نعم الله التي توفر للإنسان فرصة لكسب ومن دون واحدة منها لا يقدر عليه فهل بعد ذلك يصح الادعاء بأن علم الإنسان هو سبب غناه؟! كلا.. ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أما غير المؤمنين فتراهم ينسبون الرزق لكل شيء سوى الله. فترى الواحد منهم يربط رزق الله بنفسه، حتى يعتقد أنه هو الذي رزق نفسه، أو يربط رزق الله بالنجوم، فالنجوم هي التي رزقته، ولكنه ليس مستعدا أن يقول: بأن الله هو الذي رزقني، لأنه لو قال لكان عليه أن يؤدي حقوقه ويلتزم بالمسؤوليات.

إن اللـه يغفر الذنوب جميعا

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠)﴾

هدى من الآيات:

يذكرنا ربنا في آيات هذا الدرس برحمته الواسعة، وإلى أي مدى يمكننا الاستفادة منها. أوليس الله أنعم علينا برزقه الواسع، وأسبغ علينا نِعَمَه ظاهرة وباطنة؟!

أوليس الله دعانا للاستفادة من رحمته، وأن لا نقنط منها حين نسرف على أنفسنا بالذنوب؟!

بلى؛ ولكن طالما تحول بيننا وبين رحمة ربنا العقبات النفسية كإسرافنا على أنفسنا بالذنوب، وقنوطنا من رحمته تعالى بسببها، وهكذا بعض العقبات الاجتماعية التي تنتهي إلى ذات المشكلة. وقد جاء هذا الدرس ليعالج جانبا من المشاكل النفسية والاجتماعية عند الإنسان.

بينات من الآيات:

[٥٣] كانت آيات الدروس الماضية شديدة على من اتخذ من دون الله ندا أو شفيعا، أو احتسب الرزق من علمه، حتى تكاد تتفجر لهبا، والذين يتلون الكتاب حق تلاوته توشك قلوبهم أن تتصدع من وقع آيات الزمر عليها، ليس فقط لنفاذ بلاغتها، وقوة صعقاتها المتتالية، وإنما أيضا لبيان جدية الحساب، ومدى دقته مما يضيق الأمر على البشر بحيث لا تتخلص نفس منها، فحتى الصالحون من عباد الله قد يقعون في خطأ نسبة الرزق إلى علمهم أو الزعم بأن هناك من يشفع لهم من دون الله أو يشوب قلوبهم ما يتناف ونقاء نياتهم. ولعل خطر اليأس من روح الله كان قريبا من قلوبهم عند تلاوتهم لهذه الآيات أكثر من أي وقت آخر، فجاءت هذه الآية التي هي الأرجى بين آيات الرحمة في الكتاب لإعادة التوازن إلى نفوسهم. أوليس قلب المؤمن يعيش بين شدة الخوف وشدة الرجاء؟ ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ إنها قمة في الحرمة، أن يدعو الرَّب المسرفين من خلقه بهذه الكلمة (عبادي) التي تختلف عن كلمة (عبد) حيث يختص الخطاب بها بالعباد الصالحين عادة، لكنها هنا تشمل -كما رحمة الله- حتى الذين تجاوزوا الحدود، فلم يلتزموا بالشرائع الإلهية، بل وأسرفوا في المعاصي والذنوب، إلا إن الله لم يطردهم عن باب رحمته التي وسعت كل شيء، إنما فتحه لهم على مصراعيه، ودعاهم إلى التوبة، كما نهرهم عن القنوط واليأس. ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ قالوا: القنوط بذاته هو اليأس من الرحمة، فلما أضيف إلى الكلمة: ﴿مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ كان تأكيدا للأمر.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ كل الذنوب بلا استثناء، وإذا كان في آيات الرجاء في القرآن بعض الاستثناء فإن كلمة ﴿جَمِيعًا﴾ هنا بعد كلمة ﴿ٱلذُّنُوبَ﴾ التي هي أصلا للعموم، تزيد الجملة سعة، مما يشمل الكبائر كالزنا والغيبة، أو القتل و خدمة الظالمين، وأظن الآية تعني بالخصوص الذنوب القلبية، التي تقترب من الشرك بالله، وانعدام الخلوص في الدين، مما سيقت في آيات هذه السورة.

وفي الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَا أُحِبُّ أَنَّ لِيَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا بِهذِهِ الآيَةِ»[١]. وقال أمير المؤمنين عليه السلام وهو يؤكد التفسير المتقدم للآية: «مَا فِي الْقُرْآنِ آيَةٌ أَوْسَعُ مِنْ ﴿۞ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾»[٢].

وفي نهاية الآية نفسها نجد تأكيدا على رحمة الله، ودليلا على سعتها وشمولها إذ يقول

(١) مجمع البيان: ج٨، ص٦٤٨.
(٢) المصدر السابق: ص٦٤٨.

تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وقد تأكدت رحمة الله في هذه الآية ثلاث مرات:

الأولى: عند قوله تعالى ناهيا عن اليأس من الرحمة ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾.

الثانية: عند تعميمه للغفران بأنه لا ينحصر في نوع من الذنوب ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾.

الثالثة: عندما وصف نفسه في نهاية الآية بأنه ﴿ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

وهنا دعنا نقرأ هذه الرواية عن رحمة الله لنزداد ثقة ورجاء في غفرانه تعالى: «دَخَلَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ بَاكِياً فَسَلَّمَ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: **مَا يُبْكِيكَ يَا مُعَاذُ؟**. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ بِالبَابِ شَابّاً طَرِيَّ الجَسَدِ نَقِيَّ اللَّوْنِ حَسَنَ الصُّورَةِ يَبْكِي عَلَى شَبَابِهِ بُكَاءَ الثَّكْلَى عَلَى وَلَدِهَا يُرِيدُ الدُّخُولَ عَلَيْكَ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **أَدْخِلْ عَلَيَّ الشَّابَّ يَا مُعَاذُ**. فَأَدْخَلَهُ عَلَيْهِ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَرَدَّ عَلَيْهِ السَّلَامَ.

ثُمَّ قَالَ ﷺ: **مَا يُبْكِيكَ يَا شَابُّ؟**. قَالَ: وكَيْفَ لَا أَبْكِي وقَدْ رَكِبْتُ ذُنُوباً إِنْ أَخَذَنِيَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ بِبَعْضِهَا أَدْخَلَنِي نَارَ جَهَنَّمَ ولَا أَرَانِي إِلَّا سَيَأْخُذُنِي بِهَا، ولَا يَغْفِرُ لِي أَبَداً. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **هَلْ أَشْرَكْتَ بِاللهِ شَيْئاً؟**. قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أُشْرِكَ بِرَبِّي شَيْئاً. قَالَ ﷺ: **أَقَتَلْتَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ؟**. قَالَ: لَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **يَغْفِرُ اللهُ لَكَ ذُنُوبَكَ وإِنْ كَانَتْ مِثْلَ الجِبَالِ الرَّوَاسِي**.

قَالَ الشَّابُّ: فَإِنَّهَا أَعْظَمُ مِنَ الجِبَالِ الرَّوَاسِي. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **يَغْفِرُ اللهُ لَكَ ذُنُوبَكَ وإِنْ كَانَتْ مِثْلَ الأَرَضِينَ السَّبْعِ وبِحَارِهَا ورِمَالِهَا وأَشْجَارِهَا ومَا فِيهَا مِنَ الخَلْقِ**. فَقَالَ: إِنَّهَا أَعْظَمُ مِنَ الأَرَضِينَ السَّبْعِ وبِحَارِهَا ورِمَالِهَا وأَشْجَارِهَا ومَا فِيهَا مِنَ الخَلْقِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **يَغْفِرُ اللهُ لَكَ ذُنُوبَكَ وإِنْ كَانَتْ مِثْلَ السَّمَاوَاتِ ونُجُومِهَا ومِثْلَ العَرْشِ والكُرْسِيِّ**. قَالَ: فَإِنَّهَا أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ فَنَظَرَ النَّبِيُّ ﷺ كَهَيْئَةِ الغَضْبَانِ ثُمَّ قَالَ: **وَيْحَكَ يَا شَابُّ ذُنُوبُكَ أَعْظَمُ أَمْ رَبُّكَ!**.

فَخَرَّ الشَّابُّ لِوَجْهِهِ وهُوَ يَقُولُ: سُبْحَانَ رَبِّي مَا شَيْءٌ أَعْظَمَ مِنْ رَبِّي. رَبِّي أَعْظَمُ يَا نَبِيَّ اللهِ مِنْ كُلِّ عَظِيمٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **فَهَلْ يَغْفِرُ الذَّنْبَ العَظِيمَ إِلَّا الرَّبُّ العَظِيمُ**. قَالَ الشَّابُّ: لَا واللهِ يَا رَسُولَ اللهِ. ثُمَّ سَكَتَ الشَّابُّ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: **وَيْحَكَ يَا شَابُّ أَ تُخْبِرُنِي بِذَنْبٍ وَاحِدٍ مِنْ ذُنُوبِكَ؟**. قَالَ: بَلَى، أُخْبِرُكَ إِنِّي كُنْتُ أَنْبُشُ القُبُورَ سَبْعَ سِنِينَ أُخْرِجُ الأَمْوَاتَ وأَنْزِعُ الأَكْفَانَ فَمَاتَتْ جَارِيَةٌ مِنْ بَعْضِ بَنَاتِ الأَنْصَارِ فَلَمَّا حُمِلَتْ إِلَى قَبْرِهَا ودُفِنَتْ وانْصَرَفَ عَنْهَا أَهْلُهَا وجَنَّ عَلَيْهِمُ اللَّيْلُ أَتَيْتُ قَبْرَهَا فَنَبَشْتُهَا ثُمَّ اسْتَخْرَجْتُهَا ونَزَعْتُ مَا كَانَ عَلَيْهَا مِنْ أَكْفَانِهَا وتَرَكْتُهَا مُجَرَّدَةً عَلَى شَفِيرِ قَبْرِهَا ومَضَيْتُ مُنْصَرِفاً، فَأَتَانِيَ الشَّيْطَانُ فَأَقْبَلَ يُزَيِّنُهَا لِي ويَقُولُ: أَ مَا تَرَى بَطْنَهَا وبَيَاضَهَا أَ مَا تَرَى وَرِكَيْهَا. فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ لِي هَذَا حَتَّى رَجَعْتُ إِلَيْهَا ولَمْ أَمْلِكْ نَفْسِي حَتَّى جَامَعْتُهَا وتَرَكْتُهَا مَكَانَهَا. فَإِذَا أَنَا بِصَوْتٍ مِنْ وَرَائِي يَقُولُ: يَا شَابُّ وَيْلٌ لَكَ مِنْ دَيَّانِ

يَوْمِ الدِّينِ. يَوْمَ يَقِفُنِي وإِيَّاكَ كَمَا تَرَكْتَنِي عُرْيَانَةً فِي عَسَاكِرِ المَوْتَى ونَزَعْتَنِي مِنْ حُفْرَتِي وسَلَبْتَنِي أَكْفَانِي وتَرَكْتَنِي أَقُومُ جُنُبَةً إِلَى حِسَابِي فَوَيْلٌ لِشَبَابِكَ مِنَ النَّارِ. فَمَا أَظُنُّ إِنِّي أَشَمُّ رِيحَ الجَنَّةِ أَبَداً فَمَا تَرَى لِي رَسُولَ اللهِ؟. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **تَنَحَّ عَنِّي يَا فَاسِقُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ أَحْتَرِقَ بِنَارِكَ فَمَا أَقْرَبَكَ مِنَ النَّارِ.**

ثُمَّ لَمْ يَزَلْ ﷺ يَقُولُ ويُشِيرُ إِلَيْهِ حَتَّى أَمْعَنَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ فَذَهَبَ فَأَتَى المَدِينَةَ فَتَزَوَّدَ مِنْهَا ثُمَّ أَتَى بَعْضَ جِبَالِهَا فَتَعَبَّدَ فِيهَا ولَبِسَ مِسْحاً وغَلَّ يَدَيْهِ جَمِيعاً إِلَى عُنُقِهِ ونَادَى: يَا رَبِّ هَذَا عَبْدُكَ بُهْلُولٌ بَيْنَ يَدَيْكَ مَغْلُولٌ. يَا رَبِّ أَنْتَ الَّذِي تَعْرِفُنِي وزَلَّ مِنِّي مَا تَعْلَمُ. سَيِّدِي يَا رَبِّ إِنِّي أَصْبَحْتُ مِنَ النَّادِمِينَ، وأَتَيْتُ نَبِيَّكَ تَائِباً فَطَرَدَنِي وزَادَنِي خَوْفاً فَأَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ وجَلَالِكَ وعَظَمَةِ سُلْطَانِكَ أَنْ لَا تُخَيِّبَ رَجَائِي يَا سَيِّدِي، ولَا تُبْطِلْ دُعَائِي، ولَا تُقَنِّطْنِي مِنْ رَحْمَتِكَ.

فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ ذَلِكَ أَرْبَعِينَ يَوْماً ولَيْلَةً تَبْكِي لَهُ السِّبَاعُ والوُحُوشُ فَلَمَّا تَمَّتْ لَهُ أَرْبَعُونَ يَوْماً ولَيْلَةً رَفَعَ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وقَالَ: اللَّهُمَّ مَا فَعَلْتَ فِي حَاجَتِي إِنْ كُنْتَ اسْتَجَبْتَ دُعَائِي وغَفَرْتَ خَطِيئَتِي فَأَوْحِ إِلَى نَبِيِّكَ. وإِنْ لَمْ تَسْتَجِبْ لِي دُعَائِي ولَمْ تَغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وأَرَدْتَ عُقُوبَتِي فَعَجِّلْ بِنَارٍ تُحْرِقُنِي أَوْ عُقُوبَةٍ فِي الدُّنْيَا تُهْلِكُنِي وخَلِّصْنِي مِنْ فَضِيحَةِ يَوْمِ القِيَامَةِ.

فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ ﴿ **وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً** ﴾ يَعْنِي الزِّنَى ﴿ **أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ** ﴾ يَعْنِي بِارْتِكَابِ ذَنْبٍ أَعْظَمَ مِنَ الزِّنَا ونَبْشِ القُبُورِ وأَخْذِ الأَكْفَانِ ﴿ **ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ** ﴾ يَقُولُ خَافُوا اللهَ فَعَجَّلُوا التَّوْبَةَ ﴿ **وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ** ﴾ يَقُولُ عَزَّ وجَلَّ: أَتَاكَ عَبْدِي يَا مُحَمَّدُ تَائِباً فَطَرَدْتَهُ فَأَيْنَ يَذْهَبُ وإِلَى مَنْ يَقْصِدُ ومَنْ يَسْأَلُ أَنْ يَغْفِرَ لَهُ ذَنْباً غَيْرِي ثُمَّ قَالَ عَزَّ وجَلَّ ﴿ **وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ يَقُولُ لَمْ يُقِيمُوا عَلَى الزِّنَى ونَبْشِ القُبُورِ وأَخْذِ الأَكْفَانِ ﴿ **أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ** ﴾ فَلَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ خَرَجَ وهُوَ يَتْلُوهَا وهُوَ يَتَبَسَّمُ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: مَنْ يَدُلُّنِي عَلَى ذَلِكَ الشَّابِّ التَّائِبِ؟. فَقَالَ مُعَاذٌ يَا رَسُولَ اللهِ بَلَغَنَا أَنَّهُ فِي مَوْضِعِ كَذَا وكَذَا فَمَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَصْحَابِهِ حَتَّى انْتَهَوْا إِلَى ذَلِكَ الجَبَلِ فَصَعِدُوا إِلَيْهِ يَطْلُبُونَ الشَّابَّ فَإِذَا هُمْ بِالشَّابِّ قَائِمٌ بَيْنَ صَخْرَتَيْنِ مَغْلُولَةٌ يَدَاهُ إِلَى عُنُقِهِ قَدِ اسْوَدَّ وَجْهُهُ وتَسَاقَطَتْ أَشْفَارُ عَيْنَيْهِ مِنَ البُكَاءِ وهُوَ يَقُولُ: يَا سَيِّدِي قَدْ أَحْسَنْتَ خَلْقِي وأَحْسَنْتَ صُورَتِي فَلَيْتَ شِعْرِي مَا ذَا تُرِيدُ بِي أَفِي النَّارِ تُحْرِقُنِي، أَوْ فِي جِوَارِكَ تُسْكِنُنِي. اللَّهُمَّ إِنَّكَ قَدْ أَكْثَرْتَ الإِحْسَانَ إِلَيَّ فَأَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَيْتَ شِعْرِي مَا ذَا يَكُونُ آخِرُ أَمْرِي إِلَى الجَنَّةِ تَزُفُّنِي أَمْ إِلَى النَّارِ تَسُوقُنِي. اللَّهُمَّ إِنَّ خَطِيئَتِي أَعْظَمُ مِنَ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ ومِنْ كُرْسِيِّكَ الوَاسِعِ وعَرْشِكَ العَظِيمِ فَلَيْتَ شِعْرِي تَغْفِرُ خَطِيئَتِي أَمْ تَفْضَحُنِي بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ.

فَلَمْ يَزَلْ يَقُولُ نَحْوَ هَذَا وهُوَ يَبْكِي ويَحْثُو التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ وقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ السِّبَاعُ وصَفَّتْ فَوْقَهُ الطَّيْرُ وهُمْ يَبْكُونَ لِبُكَائِهِ فَدَنَا رَسُولُ الله ﷺ فَأَطْلَقَ يَدَيْهِ مِنْ عُنُقِهِ ونَفَضَ التُّرَابَ عَنْ رَأْسِهِ وقَالَ ﷺ: **يَا بُهْلُولُ أَبْشِرْ فَإِنَّكَ عَتِيقُ اللهِ مِنَ النَّارِ**. ثُمَّ قَالَ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: **هَكَذَا تَدَارَكُوا الذُّنُوبَ كَمَا تَدَارَكَهَا بُهْلُولٌ** ثُمَّ تَلَا عَلَيْهِ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وجَلَّ فِيهِ وبَشَّرَهُ بِالْجَنَّةِ»(1).

ونتساءل: بعد هذا هل يصح لنا أن نغلق باب رحمة الله عن أنفسنا باليأس؟!.

[٥٤] وبعد أن فتح الله للمذنبين بابا من رحمته الواسعة، وهو باب الرجاء، يفتح لهم بابا آخر، هو باب التوبة والعودة إليه. ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ بترك الشركاء المزعومين من دونه، لأنه وحده الرب الحقيقي للخلق. ﴿وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ﴾ بالخضوع والطاعة، لأن رضى الله وأمره ونهيه هو الذي ينبغي له أن يؤثر في شخصية الإنسان، أما العوامل الأخرى كالمال والسلطة، وما يسمى بالحتميات فيجب تجاوزها كلها، وتلك الإنابة وهذا التسليم يجب أن يكونا عن وعي تام بضرورتهما لا بسبب شخوص العذاب الإلهي لأنهما حينئذ لا ينفعان. ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ حيث لا تقدر الآلهة المزيفة على رد عذاب الله عنكم.

[٥٥] ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ وقد اختلف المفسرون كثيرا في معنى الأحسن، فقال بعضهم: إن الأحسن هو الناسخ، لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقال ابن عباس: «**أَيْ مِنَ الحَلَالِ وَالحَرَامِ، والأَمْرِ والنَّهْيِ، وَالوَعْدِ وَالوَعِيدِ، فَمَنْ أَتَى بِالمَأْمُورِ بِهِ، وَتَرَكَ المَنْهِيَّ عَنْهُ، فَقَدْ اتَّبَعَ الأَحْسَنَ**»(2).

وما يبدو لي هو أن الآية تحتمل ثلاثة معاني كلها مهمة:

الأول: هو معرفة الواجبات وتطبيقها على أفضل وجه، لقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

ولتقريب الفكرة نقول: إن الإنسان الذي يمرض شخص عزيز عليه مرضا خطيرا، فإنه لن يبحث عن أي طبيب لعلاجه، إنما سيبحث عن أفضل طبيب ممكن طمعا في حصول الشفاء بأسرع وقت وأفضل صورة، والإنسان في حياته العامة يواجه خطرا مصيريا هو النار، وينبغي له لكي يخلص نفسه من شرها أن يتعرف على الواجبات والمستحبات ويؤديها على أفضل وجه، وكيف لا وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ: «**هَلَكَ العَامِلُونَ إِلَّا العَابِدُونَ وهَلَكَ**

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١١ ص٣٦٣.

(٢) مجمع البيان: ج ٨ ص٦٤٨.

العَابِدُونَ إِلَّا العَالِمُونَ وهَلَكَ العَالِمُونَ إِلَّا الصَّادِقُونَ وهَلَكَ الصَّادِقُونَ إِلَّا المُخْلِصُونَ وهَلَكَ المُخْلِصُونَ إِلَّا المُتَّقُونَ وهَلَكَ المُتَّقُونَ إِلَّا المُوقِنُونَ وإِنَّ المُوقِنِينَ لَعَلَى خَطَرٍ عَظِيمٍ»(١).

الثاني: وقد تقدمت الإشارة إليه عند تفسير قوله تعالى في بدايات هذه السورة: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ [الزمر: ١٨]. وهو أن القرآن كله حسن، ولكن بالنسبة إلى ظروف كل شخص و عصره قد يختلف الأحسن، فعلى سبيل المثال الصلاة والصيام والحج والجهاد و.. و.. كل ذلك مفروض على الناس، ولكن يتأكد على كل شخص أحد هذه الواجبات أكثر من الآخرين، وأكثر من سائر الواجبات الأخرى، فالتاجر ينبغي أن يكون أقرب الناس إلى آيات التجارة والمعاملة وأعرفهم بها، بينما المقاتل يكون الأحسن له معرفته بآيات الجهاد والقتال، أما القاضي فالأحسن له المعرفة بأحكام القضاء والحدود و ما إلى ذلك، وهكذا بالنسبة للظروف التي تحيط بالشخص فإنها تحدد له الأحسن، فمثلا للمجاهد في ظروف التقية ليس الإعلان عن نفسه بل الكتمان والسرية، إذن فموقع الإنسان وظروفه المحيطة هما اللذان يحددان الأحسن.

الثالث: التوحيد الخالص وهو أفضل ما أنزله الله على خلقه، وأعظم شيء يتجلى فيه التوحيد هو اتباع القيادة الرسالية الحقة ورفض القيادات المنحرفة، وفي الخبر في تفسير الآية: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ قال: «مِنَ القُرْآنِ وَوَلَايَةِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عليه السلام وَالأَئِمَّةِ عليهم السلام»(٢).

ويبين القرآن بعد نهيه لنا عن اليأس، ودعوته بالإنابة والتسليم لله، وأخيرا تأكيدا على اتباع الأحسن، خلفيات هذه الموعظة وأهميتها بالنسبة للإنسان فيقول: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ فهذا الإنسان الذي يَسدُر في طرق الضلال، ويسرف في اقتحام الذنوب والموبقات، رافضا الإنابة و التسليم لله، واتباع الأحسن، سوف يجرُّ على نفسه العذاب بألوانه، وسيفاجأ به، ليس لانعدام النذر والعلامات الدالة عليه، بل لأن كثرة ممارسة الذنوب والإصرار عليها يسلب الإنسان أدنى أسباب المعرفة وهو الشعور، إذ يعيش عمق الغفلة والضلال.

[٥٦] هذا في الدنيا أما في الآخرة حيث تنكشف الحقائق للإنسان، فإنه يصل إلى أعلى مراحل الوعي والشعور، فإنه يكاد يذوب حسرة حين يرى ما أعد الله للمؤمنين به الذين استغلوا فرصة الحياة الدنيا مثل الثواب، بينما أغفل هو الاستفادة من هذه الفرصة الثمينة وحين

(١) مستدرك الوسائل: ج١ ص ٩٩.

(٢) تفسير القمي: ج٢ ص٢٥٠، بحار الأنوار: ج٢٤ ص١٩٤.

يرى ما أعده الله من العذاب للكافرين والمشركين والظالمين.

﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ بالإسراف في الذنوب والتقصير في الواجبات وعمل الصالحات. إذن يجب أن نستفيد من فرصتنا في الحياة، وإنها السعيد من اتعظ بتجارب غيره. فإذا كان غيرنا قد مضى من الدنيا مقصرا وبالتالي هلك وتحسر، فلنتعظ به حين يكون الاتعاظ نافعا، لأنه إذا جاء الموت فإننا لا نستطيع أن نُغيِّر من واقعنا شيئا بزيادة أو نقصان. وحيث يصل الإنسان بعد الموت إلى أعلى مراحل العلم وهي عين اليقين فإنه يكتشف مدى ضلالته وانحرافه عن الحق. ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ أي إنني كنت من الساخرين الذين استهزؤوا بالحق وبأهله وأتباعه.

[٥٧] ويُحمِّل الله الإنسان مسؤولية هداية نفسه، بالاستفادة من آياته تعالى، سواء ما تجلى منها في الكون، أو الأخرى المتجلية في رسالاته للناس. ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ بلى؛ إن الله يوفر أسباب الهداية للإنسان كالآيات وكالمصلحين، أما إذا رفضهم فلن يجبره على اختيار الحق، في الحياة الدنيا، لأن الدنيا دار الامتحان والابتلاء، ثم ليس صحيحا أن ينتظر الإنسان الهداية تأتيه إلى بيته إنما يجب عليه هو البحث عنها وتحمل مسؤولياتها.

ونستوحي من الآية إشارة إلى أن بعضا من الناس سوف يتعذرون بهذا التبرير، والله يُبيِّن لهم أنه مرفوض عنده، إذا كنت تريد الهداية فهذا هو الطريق، أن تتغلب على القنوط، وتنيب وتسلم لله قبل العذاب أو الموت، وأن تتبع طريق الحق وأحسن ما أنزل، وإذا فعلت ذلك فسوف تكون مهتديا، أما الطرق الأخرى كالانتظار الساذج أو اتباع المناهج المنحرفة في الحياة، أو الانصياع لقيادة الطاغوت، أو الإصرار على الذنب تحديا أو قنوطا فإنها كلها لا تنتهي إلا إلى الضلال.

[٥٨] ولا بد أن يعرف الإنسان قضية مهمة وحاسمة بالنسبة للحياة الدنيا، وهي أنها الفرصة الوحيدة له التي يستطيع فيها تجربة نفسه وإرادته، فإن فشل فيها فسوف يفشل في الآخرة، وإن أفلح فسوف يفوز هناك بنسبة فشله وفلاحه هنا.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ﴾ الذي لم تره ببصيرة الإيمان حيث كفرت بالحق: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وهكذا يكرر القرآن تأكيده كثيرا على أهمية الإحسان لأنه أرفع درجة يصل إليها البشر، باعتباره يمثل خروج الإنسان عن ذاتياته وأهوائه إلى خدمة الآخرين، ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[التغابن: ١٦].

[٥٩] ونعود للسياق القرآني في هذه السورة بعد هذا الاستطراد لنرى رد القرآن على تلك الأقوال التي تتكرر على لسان أصحاب النار يوم القيامة، يقول تعالى: ﴿ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى ﴾ وكان بإمكانك أن تتجاوز الحسرة والملامة، وأن تهتدي للحق، وأن تنتفع من فرصة الحياة الدنيا. ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا﴾ أولاً. ﴿وَٱسْتَكْبَرْتَ ﴾ على الحق الذي جاءت به ثانياً، وهذه المرحلة من أخطر مراحل المعصية. ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ حيث أنكرت إنكارا تاما ما جاءت به، هذا ثالثاً.

[٦٠] وأهم ما كان يكذِّب به الكافرون هو البعث ويوم القيامة، الأمر الذي جعلهم بعيدين عن تحمل المسؤولية، وهل يتحمل المسؤولية إلا من يؤمن بالجزاء؟؟ ولعله من هذا المنطلق جاء ذكر القرآن لهذا اليوم العظيم. ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ فأشاعوا الضلال، وافتروا على الله كذبا بأنه يأمر بالفحشاء والمنكر. ومن أبرز المصاديق العملية للكذب على الله هو أن يدَّعي الإمامة من ليس أهلا لها، وفي تفسير هذه الآية، هناك حديث مأثور عن سورة بن كليب عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قُلْتُ لَهُ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وجَلّ: ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ قَالَ عليه السلام: مَنْ قَالَ إِنِّي إِمَامٌ ولَيْسَ بِإِمَامٍ؟. قَالَ قُلْتُ: وإِنْ كَانَ عَلَوِيّاً؟ قَالَ عليه السلام: وإِنْ كَانَ عَلَوِيّاً. قُلْتُ وإِنْ كَانَ مِنْ وُلْدِ عَلِيِّ ابْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام؟. قَالَ عليه السلام: وإِنْ كَانَ»[1]. فيجب على الإنسان أن لا يدَّعي شيئا لا يحق له وإلا فهو يرتكب الحرام، وإذا كان ادعاء الإنسان المعرفة بالطب قد يتسبب في قتل عشرات الناس الذين يتعالجون عنده، فإن ادعاءه الإمامة و الرئاسة كذبا سوف يفسد كل النظام، الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والثقافي، فعليه إذن أن يتجاوز مشكلة حب الرئاسة، وأن يتواضع للحق ويسلم لأهله.

والكَذَبةُ لا تسعهم رحمة الله على سعتها اللامتناهية، بل يحشرون يوم القيامة في هيئة مخزية لهم. ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ﴾ بآثار الكذب والمعاصي، وبالتالي بانقطاع نور الله عنها ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

ويستفهم منا السياق فيقول: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ ويتركنا نحن الذين نجيب عنه بأنفسنا فنقول: بلى، لنقر بوجود هذا المثوى في جهنم، فنخاف مما أعده الله للكاذبين من العذاب فلا نتكبر.

(١) الكافي: ج١ ص٣٧٢.

وأشرقت الأرض بنور ربها

﴿ وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣) قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ (٦٨) وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) ﴾.

هدى من الآيات:

تذكرنا آيات هذا الدرس بيوم القيامة الذي لا سبيل للخلاص من عقباته وعذابه إلا بالتوحيد والتقوى، أما الشرك فإنه يحبط أعمال الإنسان ولو كانت من رسول الله ﷺ على عظمته.

كما نجد في الآيات تأكيدا على هيمنة الله على الكون، التي تدعونا لعبادته والتسليم له

تسليما مطلقا، ولا يشرك البشر بشيء إلا إذا اعتقد بهيمنته وسيطرته ولو على جانب من الحياة، وإنما يخضع البعض لأنظمة الطواغيت بسبب هيمنتهم الظاهرية على المجتمع.

بينات من الآيات:

[٦١] حدثنا ربنا في نهاية الدرس السابق عن المتكبرين الذين يحشرون بوجوه مسودة، وفي جهنم يخصص لهم واديا سحيقا يلقون فيه أشد ألوان العذاب، وهذا مما يثير الخوف في النفس فأراد الله تعالى أن يدخل الاطمئنان والرجاء على عباده المؤمنين حيث وعدهم مباشرة بالنجاة من العذاب، وبراحة البال. ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ ﴾ والمفازة من الفوز، ومعناها النجاة، والمؤمنون ينجون بتقواهم. ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ ﴾ وهو أدنى العذاب. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ من طبيعة الإنسان أنه إذا وجد جزاء عمله وكان طموحا فإنه غالبا ما يستقله ويعتقد أن عمله كان أكبر منه، أما المؤمنون فإنهم يجدون أنه جزاؤهم الأوفى فترضى به نفوسهم، ولا يحزنون على ما قدَّموه من عمل أو أنفقوه من مال أو نفس، ذلك أنهم يرون جزاءهم الأوفى في يوم القيامة، وهو أكبر بكثير مما كانوا يتوقعونه فإنهم لا يحزنون.

[٦٢] ويعرِّفنا ربنا نفسه من خلال القرآن. ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ أي حافظ ومهيمن ومدبر، والآية تنسف فكرة التفويض التي تزعم بأنه تعالى خلق الأشياء ثم تركها و شأنها.

[٦٣] ﴿ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ ﴾ يتصرف فيهما كيف يشاء، والمقاليد جمع مقليد أو مقلاد، ومعناه المفتاح، فمفاتيح السماوات والأرض بيده عز وجل، وكون مفاتيح الشيء بيده يدل على أنه متصرف في ذلك الشيء وفيما يحتويه. ولعل كلمة مقاليد تدلنا على وجود سنن وأنظمة تحكم هذا الكون، ومع أن ربنا فوق السنن والأنظمة، إلا أنه بحكمته يهيمن على الخلق من خلالها، ولأن المؤمنون يسلمّون له تعالى، ويتبعون آياته فإنهم وحدهم الذين يفلحون ويفوزون في الحياة، ويسخرونها أفضل من غيرهم لصالحهم. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴾ والآية هي العلامة من الشيء، وآيات الله هي العلامات الهادية للحق والصلاح، وحيث يرفضها الكفار يضلون ولا يبلغون الفوز والفلاح.

[٦٤] ويأمر الله نبيه الأكرم ﷺ بتحدي هؤلاء. ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ ﴾ إنهم يجهلون بالله، ولا يعرفون هيمنته على كل شيء وخلقه له، ويرتكزون في الجهل بصورة أعمق حينما يظنون أن الأنداد التي يزعمونها من دونه تستحق العبادة، ويأمرون الناس بالخضوع لها. وليس شرطا أن تكون هذه الأنداد من الحجارة، بل هي كل باطل يخضع له

الإنسان، سواء تمثل في فكرة يؤمن بها أو طاغوت يخضع له، كما أنه ليس المقصود من العبادة فقط الركوع والسجود أو طقوس عبادية خاصة يقوم بها الإنسان تجاه من يشرك بهم، بل إن إعانتهم وطاعتهم وحتى الرضى النفسي بهم يُعَدُّ عبادة، ويجب على المؤمن أن يرفض ذلك كله.

[٦٥] ثم يبيّن الله الموقف الحاسم من الشرك والمشركين، فيبيّن لنبيه ﷺ بأنه لو افترض أن أشرك بالله فإن جزاءه سيكون كسائر الناس، وإذ يخصص ربنا الخطاب هنا بأقرب الناس إليه وهو النبي محمد ﷺ مع عصمته لكي يبيّن لنا بأن الشرك أعظم الذنوب عنده تعالى.

﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ لأن أعمال الإنسان إنما تكون مقبولة حينما يكون إطارها العام إطارا توحيديا، أما لو عملت الصالحات وأنت تشرك فلن تنفعك أبدا. ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وهذه نتيجة طبيعية لإحباط العمل، ذلك أن ما يجلب للإنسان الفلاح والفوز هو عمله الصالح فإذا أحبط فأنّى له الفوز؟. ولعل هذه الآية من أخوف آيات القرآن الكريم، وتأتي في هذا الدرس تقابل أرجى الآيات وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]. ويدخل اجتماع هاتين الآيتين في سورة واحدة في سياق التوازن القرآني الدقيق. حيث يعيش قارئه معادلة دقيقة طرفاها الخوف والرجاء. وكيف لا تكون هذه الآية من أخوف الآيات، وهي تنذر الإنسان بأنه قد يعمل الصالحات عشرات السنين دون نتيجة بسبب شركه، ومن الشرك خضوعه للحاكم الجائر؟!.

إن التوازن الدقيق الذي ترسمه الآيتان يمكن تلمس بعض آفاقه في الآتي:

١- الخوف أو الخشية درجات فليس الخوف من أذى ذباب أو بعوضة، كالخوف من لدغة الحية أو العقرب، والخشية من عذاب طاغ ليست كالخشية من نار جهنم.

كذلك الرجاء درجات فليس رجاء امتلاك بيت أو سيارة، كالرجاء في رحمة الله بدخول الجنان. والذي يتدبر في آي الذكر يمتلئ قلبه بأقصى درجات الخوف والرجاء، وهكذا تتوفر له حالة الاندفاع بقوة هائلة توازي قوة رجاءه وقوة خوفه.

وإذا كانت سورة الزمر تؤسس للمجتمع الرسالي الخالص من الشرك، والبعيد عن عبادة الطاغوت، والنقي عن تسربات الثقافة الجاهلية، فإننا نتلو فيها آيتين لعلهما تفيدان؛ الأرجى من آيات الرحمة والأشد من آيات العذاب، ذلك لأن ما يحتاجه بناء هذا المجتمع الخالص ليس يسيرا.

٢- والتوازن الحرج الذي يعيشه المؤمن بين الخوف والرجاء يتمثل في بصيرة المؤمن بأن مغفرة الله تسع كل ذنب إذا استغفر و تاب إلى الله متاباً، وإذا لم يتب فإنه لا يغفر الشرك لأنه ظلم عظيم.

ولأن الشرك هو الذي يبتلي به الناس لأنه لا يقتصر فقط بشرك عبادة بل قد يكون شرك طاعة، فإن قلب المؤمن يظل أبداً في خوف شديد من الوقوع في شرك الشرك، وهكذا يصبح أواباً، لكي لا يموت عن شرك، بل يختم حياته بالمغفرة والله العالم.

[٦٦] وفي مقابل دعوة الله نبيه وبالتالي كل مؤمن لرفض الشرك في الآيتين المتقدمتين، يدعوه في هذه الآية لعبادة الله وحده وشكره على توفيقه له لعبادته. لأن ذلك من أكبر نعم الله على الإنسان. ﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ وفي تقديم كلمة ﴿ٱللَّهَ﴾ (المفعول له) على الفعل والفاعل ﴿فَٱعْبُدْ﴾ دلالة على أن العبادة يجب أن تكون خالصة منحصرة لله وحده. وهذا يشبه تقديم الضمير المنفصل ﴿إِيَّاكَ﴾ وهو المفعول على الفعل والفاعل ﴿نَعْبُدُ﴾ في سورة الحمد، أما الشكر المأمور به فهو على عبادة الله التي لا تتم إلا بتوفيق الله أو هو على عموم نعم الله.

[٦٧] ثم -وبصورة أخرى- يؤكد لنا القرآن ضرورة عبادة الله، التي تأتي نتيجة معرفته عز وجل. و المشركون والكافرون إنما عبدوا غير الله بسبب جهلهم به وبقدرته. الأمر الذي جعل تقديرهم له دون مقامه مقام الربوبية. ﴿ وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ يتصرف فيهما وفي من عليهما من الخلق كيف يشاء، فهذه الأرض مع حجمها الكبير في نظرنا، والسماوات السبع التي يعجز العقل عن استيعاب مداها، والخيال عن تصور سعتها، يشبه هيمنته على إحداهما بهيمنة الإنسان على قطعة النقد الصغيرة التي تكون في قبضته، ويشبه الأخرى بالورقة الملفوفة في يمينه، ولا ريب أن قبضته تعالى كما يمينه ليستا بمعنى وجود جارحة لله سبحانه وإنما هما رمز لقدرته وإرادته، كما اليد رمز لقوة الإنسان، وربنا إنما يستخدم التشبيهات المجازية لتقريب المعنى إلى أذهاننا ولو وصف لنا قدرته كما هي لما استوعبت ذلك عقولنا.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ إن من أسباب الشرك عند الإنسان هو عدم معرفته بالله، فيتصوره بعقله المحدود عاجزا محدودا مثله، و يزعم أنه يحتاج إلى الشركاء ليدبر شؤون الخلق. وربنا منزه عن ذلك، فمن هذه قدرته لا يحتاج إلى الشركاء، ولا يجوز لنا بأي حال أن نشرك به. وبخصوص هذه الآية قال الإمام الباقر عليه السلام: «**إِنَّ اللهَ لَا يُوصَفُ وكَيْفَ يُوصَفُ وقَدْ**

قَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿ مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ﴾ فَلَا يُوصَفُ بِقَدَرٍ إِلَّا كَانَ أَعْظَمَ مِنْ ذَلِكَ»[١].

وعن سليمان بن مهران قال: «سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ الله عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾ فَقَالَ عليه السلام: يَعْنِي مِلْكَهُ لَا يَمْلِكُهَا مَعَهُ أَحَدٌ وَالقَبْضُ مِنَ اللهِ تَعَالَى فِي مَوْضِعٍ آخَرَ المَنْعُ وَالبَسْطُ مِنْهُ الإِعْطَاءُ وَالتَّوْسِيعُ كَمَا قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ يَعْنِي يُعْطِي وَيُوَسِّعُ وَيَمْنَعُ وَيُضَيِّقُ وَالقَبْضُ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي وَجْهٍ آخَرَ الأَخْذُ فِي وَجْهِ القَبُولِ مِنْهُ كَمَا قَالَ: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ ﴾ أَيْ يَقْبَلُهَا مِنْ أَهْلِهَا وَيُثِيبُ عَلَيْهَا.

قُلْتُ: فَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾. قَالَ عليه السلام: اليَمِينُ اليَدُ وَاليَدُ القُدْرَةُ وَالقُوَّةُ يَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ ﴾ بِقُدْرَتِهِ وَقُوَّتِهِ ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾»[٢].

[٦٨] ويهدينا القرآن إلى أحد مظاهر قدرة الله وهيمنته، وذلك حينما ينفخ في الصور فيصعق بذلك كل الخلق في أقل من لحظة، ولا يبقى أحد إلا بعض من الناس وبعض من الملائكة يحفظهم الله من ذلك النفخ ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ وبعد هذه النفخة تكون نفخة أخرى تدبُّ بسببها الحياة في الجميع ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ والنظر هنا ينصرف لأحد معنيين، فإما أن يكون بمعنى النظر المتعارف حيث تموت بالنفخة الأولى كل حواس الإنسان ثم تعود لطبيعتها مرة أخرى ومن بينها حاسة النظر، وأما يكون بمعنى الانتظار لأنهم في النفخة الثانية يستنهضون للجزاء فأما إلى الجنة أو إلى النار، وهذا ما يجعل الجميع ينتظر الحكم الصادر بشأنه كقوله تعالى: ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ [النمل: ٣٥].

[٦٩] وينقلنا السياق إلى جانب آخر من يوم القيامة، إذ تشرق الأرض بنور الله، وتوضع الموازين للحساب العدل وتُوفَّى الأنفس أعمالها التي أحصاها الله بعلمه ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ الذي يخلقه ويتجلى من خلاله جلاله وعظمته، وقد يتجلى الله في خلقه الشمس والقمر، وقد يتجلى في إبداع نور تشرق به الأرض ذلك اليوم.

وفي الأخبار عن المفضل بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إِنَّ قَائِمَنَا إِذَا قَامَ

(١) الكافي: ج١، ص١٠٣.
(٢) بحار الأنوار، ج٤، ص٢.

أَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّها وَ اسْتَغْنَى العِبادُ عَنْ ضَوْءِ الشَّمْسِ وَ ذَهَبَتِ الظُّلْمَةُ»[1]. ولا شك أن نهوض إمام الحق وما يتبع ذلك من قيام حكومة العدل الإلهية هو من أبرز تجليات نوره تعالى، أوليس الأنبياء والرسل والأولياء هم نور الله في الأرض؟.

﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ ليحاسب الله الناس على أعمالهم، والكتاب هنا هو الميزان والمقياس ونستوحي من ذلك أن الأشياء تتحول في الآخرة من صيغتها المعنوية إلى المادية، فالكتاب الذي هو ميزان الحق والباطل، وفرقان بينهما في الدنيا، يتحول إلى ميزان محسوس يراه الناس في الآخرة. ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾ وهم ميزان آخر لمعرفة الحق والباطل ومحاسبة الناس، فالأنبياء ميزان بعصمتهم وسلوكهم النموذجي، بينما الشهداء ميزان بمواقفهم وشهادتهم على مجتمعاتهم، حيث كانوا طليعتها، و لعل الشهداء هنا أشمل من أن نحصرها في أولئك الذين يجاهدون من أجل الحق، ويسقطون مضرجين بدمائهم، إنما هم كل من يلتزم بالحق فيصير حجة على الناس. فأيوب عليه السلام حجة على الذين ينهزمون أمام الابتلاء، ويوسف عليه السلام حجة على الذين يغترُّون بجمالهم، كما أن الذين يثورون ويتجاوزون إرهاب الطغاة حجة على القاعدين والخانعين.

وحيث يحضر هذان الميزانان يحاسب الناس بهما وفيهما يتجلى الحق. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ وعدم الظلم نتيجة مترتبة على كون المقاييس حقانية وعقلانية، وإنما يجور الحاكم باتباعه الباطل في قضائه، ومادام الأمر كذلك فالناس إذن هم الذين يظلمون أنفسهم بمخالفتهم الحق إذا قضي عليهم بالعذاب. والله يقول بهذا الشأن: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

[٧٠] ثم يؤكد الله عدالته في الحساب. ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ والسؤال: لماذا لم يقل الله ووفِّي كل شخص، أو ووفِّي كل إنسان، والجواب كما يبدو أنه تعالى يريد بيان حقيقة مهمة، وهي أن الإنسان لا يحاسب على أعماله الظاهرة التي يمارسها بأعضائه وحواسه وحسب، بل يلاقي جزاءه خيرا كان أو شرا حتى على أعمال النفس وتصرفاتها، على فكره، وحبه وبغضه، والحساب الإلهي ليس قائما على الجهل أو الظنون، إنما يقوم على علم الله المطلق ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وعلمه تعالى أدق من علم الإنسان بنفسه بل حتى من حساب الملائكة الحفظة، لأن البشر معرض للزيادة والنقصان في حساباته، وذلك بسبب وقوعه تحت تأثير عوامل كثيرة كالغفلة والنسيان والجهل وغير ذلك ولأن الله قد يخفي حتى عن ملائكته بعض أعمال الإنسان سترا له.

(١) بحار الأنوار: ج٥٢، ص٣٣٧.

وقيل الحمد لله رب العالمين

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا[1] حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

هدى من الآيات:

في هذا الدرس ترد كلمة الزمر التي سميت بها السورة، وقد تكررت مرتين، مرة عند الحديث عن الكفار، وأخرى عند الحديث عن المؤمنين، ذلك أن كلا الفريقين يحشرون إلى مصيرهم زمرا وجماعات.

وربما سميت السورة بهذا الاسم، وأكد القرآن عليه مرتين، من أجل أن يوحي لنا بطبيعة

---

(١) زمراً: جمع زمرة وهي الفوج، أي يساقون فوجاً فوجاً، كل فوجلا مشتمل على متشابهي الأعمال كالزناة والمقامرين وهكذا.

التفاعل بين أبناء المجتمع، فالناس إنما يساقون إلى النار والجنة وفق أعمالهم وانتماءاتهم وهذا المقياس أساسي في حياة الإنسان، فهو إذا أراد أن يعرف نفسه، أو أراد الآخرون أن يعرفوه، فما عليه وعليهم إلا معرفة الذين ينتمي إليهم اجتماعيًا وعمليًا، فإن كانوا صالحين كان منهم، وإن كانوا منحرفين فهو كذلك أيضاً.

والأحاديث المروية تؤكد بأن معرفة الرجال تتم بمعرفة الذين يحيطون بهم، فمعرفة القائد بحاشيته، والشاب بأصدقائه، والنظام بالعاملين فيه، والدولة بالذين يؤيدونها من طبقات المجتمع.

قال سليمان عليه السلام: «**لَا تَحْكُمُوا عَلَى رَجُلٍ بِشَيْءٍ حَتَّى تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ يُصَاحِبُ فَإِنَّمَا يُعْرَفُ الرَّجُلُ بِأَشْكَالِهِ وأَقْرَانِهِ ويُنْسَبُ إِلَى أَصْحَابِهِ وأَخْدَانِهِ**»[1]. وقال الإمام علي عليه السلام وهو يوصي ولده الحسين عليه السلام: «**قَارِنْ أَهْلَ الخَيْرِ تَكُنْ مِنْهُمْ وبَايِنْ أَهْلَ الشَّرِّ تَبِنْ عَنْهُمْ**»[2]. فالحياة إذن ليست أحادية ولا متناثرة، وإنما تسير كتلا وأجناسا (زمرا زمرا) وإذا لم تعرف شخصا بذاته فإنك تستطيع معرفته بالزمرة التي ينتمي إليها، وهذه الحقيقة يؤكدها القرآن في مواضع كثيرة منه، وبصيغ مختلفة كمخاطبته الناس بصورة التجمعات: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في صفة المؤمنين، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في صفة الكافرين، وهكذا المنافقين والمنافقات، والصابرين والصابرات... الخ.

بينات من الآيات:

[٧١] ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أي جماعات على أساس تجانس أعمالهم يسوقهم ملائكة العذاب. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ وأبواب جهنم هي سبعة، حسب الروايات، السبعة يدخل كل جماعة من باب، وقد يكون معنى الأبواب العذاب الذي يتضمنه كل قسم من جهنم، وفي الخصال عن الصادق عن جده عليه السلام: «**إِنَّ لِلنَّارِ سَبْعَةَ أَبْوَابٍ بَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ فِرْعَوْنُ وَهَامَانُ وَقَارُونُ وَبَابٌ يَدْخُلُ مِنْهُ الْمُشْرِكُونَ وَالْكُفَّارُ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ وَبَابٌ تَدْخُلُ مِنْهُ بَنُو أُمَيَّةَ وَهُوَ لَهُمْ خَاصَّةً لَا يُزَاحِمُهُمْ فِيهِ أَحَدٌ وَهُوَ بَابُ لَظَى وَهُوَ بَابُ سَقَرَ وَهُوَ بَابُ الْهَاوِيَةِ تَهْوِي بِهِمْ سَبْعِينَ خَرِيفاً فَكُلَّمَا هَوَى بِهِمْ سَبْعِينَ خَرِيفاً فَارَ بِهِمْ فَوْرَةً قَذَفَ بِهِمْ فِي أَعْلَاهَا سَبْعِينَ خَرِيفاً ثُمَّ هَوَى بِهِمْ كَذَلِكَ سَبْعِينَ خَرِيفاً فَلَا يَزَالُونَ هَكَذَا أَبَداً خَالِدِينَ مُخَلَّدِينَ وَبَابٌ يَدْخُلُ فِيهِ مُبْغِضُونَا وَمُحَارِبُونَا وَخَاذِلُونَا وَإِنَّهُ لَأَعْظَمُ الْأَبْوَابِ وَأَشَدُّهَا**

---

(١) بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٨٨.

(٢) نهج البلاغة: من وصيته عليه السلام لولده الحسن عليه السلام.

خَزَنَتُهَآ»[1]. وعندما يدخل كل فريق من بابه يتلقاه خزنة النار بالشماتة والسؤال.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ﴾ فمن جهة كان الرسل هم الذين جاؤوا إليكم وهذه نعمة كبيرة أن يبعث الله هاديا في المجتمع، ومن جهة أخرى لم يكونوا غرباء عنكم فلقد كانوا من وسطكم الاجتماعي ويتكلمون بلسانكم، ومن جهة ثالثة كانوا يحملون إليكم رسالة ربكم ويهدونكم إلى الآية تلو الآية. ﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ وكان هذا كافيا لهدايتكم وخلاصكم من النار لو اتبعتموهم؟.

ولم يكن يملك أصحاب النار ردا على كل هذه الحجج البالغة إلا بأن. ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ إذن فالهداية ممكنة لو أرادوها فعلا. ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ إن باستطاعة الإنسان أن يكفر بالله، باختياره ولكن بعدئذ يغلق عليه باب الاختيار، ويحاول البعض تبرير كفره بأنه سوف يتوب في المستقبل كعمر بن سعد الذي اختار الكفر بقتل الإمام الحسين عليه السلام ثم انشد:

يقولون إن الله خالق جنة	ونار وتعذيب وغل يدين
فإن صدقوا في ما يقولون إنني	أتوب إلى الرحمن من سنتين

وهذا من أخطر الأشياء على البشر، حين يختار الانحراف ثم يمني نفسه بالتوبة في المستقبل دون أن يدرك سنة الله في الحياة، وهي أن الإنسان قد يختار طريقا بحرِّيته ويتخذ قرارا بكامل إرادته، ولكنه بعد ذلك لا يتمكن من العودة عنه والخروج من المأزق الذي يقع فيه بسبب ذلك الاختيار السيئ. كالذي يقرر أن يلقي بنفسه من جبل شاهق ثم يجد نفسه عاجزا عن الصعود مرة أخرى، فالسقوط يكون باختياره ولكنه لا يتمكن من العروج أنى حاول.

والقرآن يعبر عن هذه الفكرة بصيغ عديدة في آياته، فتارة يسميه بالختم على القلوب والأسماع ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: ٧]. وتارة يسميه بذهاب النور ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧]، وأخرى يسميه باستحقاق الضلالة ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]. أو باستحقاق كلمة الله ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ٣٣]. ويعبر القرآن أيضا عن ذلك بجعل الغشاوة على الأبصار ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ [الجاثية:

(١) بحار الأنوار: ج٨، ص٢٨٥. (و تجدر الإشارة في هذا الحديث إلى أن المذكورين عينات لأصحاب الأبواب السبعة وإلا فهو يدخل معهم كل من جانسهم في العمل، بل إن السبعة قد تكون للتخصيص والكثرة وليس للحصر).

٢٣]. أو بجعل الأكنة على القلوب ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ﴾ [الأنعام: ٢٥]. وهذه التعابير وتلك كلها تسير إلى سلب الله الإنسان حينما يصر على الانحراف والضلال إرادة الهدى فيجد نفسه مجبولا على الفساد والاستمرار في طريق الباطل.

إن الاختيار، والإرادة، والحرية من أكبر نعم الله على الإنسان، وإذا سلبه ربه هذه النعمة فبماذا يختار الحق على الباطل، والمستقبل الأخروي على الحاضر الدنيوي؟ وإن استحقاق الكافرين لكلمة العذاب هو بكفرانهم بنعمة الحرية وتضييعهم فرصة الاختيار على أنفسهم.

[٧٢] ولأنهم حقت عليهم كلمة العذاب بانحرافهم في الدنيا، تحقق ذلك العذاب بواقعه المحسوس في الآخرة. ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا﴾ بتمحضكم في الكفر، وعلى الإنسان أن لا يغتر بأعماله أبدا لأنه قد يستطيع أن يغلق عن نفسه باب الزنا من النار، ولكنه يدخلها من باب الاستسلام للطاغوت والتقاعس عن الجهاد، فيجيب علينا إذن لكي نزحزح عن النار أن نغلق كل أبوابها عن أنفسنا، وذلك بعمل الصالحات وترك الذنوب جميعا التي هي مفاتيح أبواب جهنم، وأهم تلك الأبواب وأخطرها باب المتكبرين الذي يخصصه القرآن هنا بالذكر والذم من بينها كلها. ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾.

[٧٣] وفي الجانب الآخر يحدثنا ربنا عن مصير المؤمنين المتقين الذين يزفون بالترحيب والتحية إلى قصورهم، وحورهم، وعموم جزائهم في الجنة. ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وللجنة ثمانية أبواب كما في الروايات [١]، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لِلْجَنَّةِ بَابٌ يُقَالُ لَهُ بَابُ الْمُجَاهِدِينَ يَمْضُونَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ مَفْتُوحٌ وهُمْ مُتَقَلِّدُونَ بِسُيُوفِهِمْ والْجَمْعُ فِي الْمَوْقِفِ والْمَلَائِكَةُ تُرَحِّبُ بِهِمْ ثُمَّ قَالَ فَمَنْ تَرَكَ الْجِهَادَ أَلْبَسَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ ذُلًّا وفَقْراً فِي مَعِيشَتِهِ ومَحْقاً فِي دِينِهِ إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أَغْنَى أُمَّتِي بِسَنَابِكِ خَيْلِهَا ومَرَاكِزِ رِمَاحِهَا**»[٢]. وقال الإمام الباقر عليه السلام: «**أَحْسِنُوا الظَّنَّ بِاللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ لِلْجَنَّةِ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ عَرْضُ كُلِّ بَابٍ مِنْهَا مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً**»[٣].

وإذا دخل المؤمنون الجنة استقبلهم الملائكة الموكلون بها، يلقون إليهم تحية ربهم عزَّ وجل. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ ولا يطيب الإنسان وبالتالي يدخل الجنة إلا إذا اجتنب الذنوب والمعاصي في الدنيا، فزكى نفسه بذلك وبعمل الصالحات، لأن الجنة دار الطيبين فقط.

---

(١) راجع التعليق الذي مر في الرواية المتقدمة عن النار.
(٢) الكافي: ج٥، ص٢.
(٣) بحار الأنوار: ج٨، ص١٣١.

[٧٤] وحيث يَعُدُّ المؤمنون دخول الجنة من أكبر نعم الله عليهم شكروه على ذلك. ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ قالوا: المراد بالأرض الجنة، والله العالم. ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ وهذه النهاية الحكيمة للآية تؤكد حقيقة مهمة جدا، وهي أن التقوى وإن كانت درع الإنسان وحصنه الذي يقيه العذاب، إلا أنها لا تكفي وحدها من دون العمل، الذي لا ينفك أن يكون جزاء أساسيا منها.

إن الدرع وحدها لا تكفي المقاتل الذي يخوض المعركة، بل لا بد له من سلاح يمارس به عملية الهجوم و الدفاع، وهكذا بالنسبة للمؤمن فهو يتحصن بالتقوى عن ارتكاب الموبقات، ولكنه من جهة أخرى لا يستغني عن العمل لكي يقرِّب نفسه من الجنة ويبني مستقبله الأبدي. ولأن الجنة لا تحصل إلا بالعمل الصالح بعد التقوى، ولأن عمر الإنسان قصير ومحدود فلا بد أن يزيد من تقواه ومن عمله، وأن يستفيد قدر الإمكان من فرصة العمر القصيرة، في سبيل رضا الله وشراء الجنة، وذلك بأن يجعل ذلك هدفا أمامه يسخر كل جهوده لبلوغه.

وعن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: «جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ لِلْجَنَّةِ مِنْ ثَمَنٍ؟ قَالَ ﷺ: نَعَمْ. قَالَ مَا ثَمَنُهَا؟. قَالَ ﷺ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَقُولُهَا العَبْدُ مُخْلِصاً بِهَا. قَالَ ومَا إِخْلَاصُهَا؟ قَالَ ﷺ: العَمَلُ بِمَا بُعِثْتُ بِهِ فِي حَقِّهِ وحُبُّ أَهْلِ بَيْتِي. قَالَ: فَدَاكَ أَبِي وأُمِّي وإِنَّ حُبَّ أَهْلِ البَيْتِ لَمِنْ حَقِّهَا؟. قَالَ ﷺ: إِنَّ حُبَّهُمْ لَأَعْظَمُ حَقِّهَا»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ غُرِسَتْ لَهُ شَجَرَةٌ فِي الجَنَّةِ»(٢). وقال: «لَمَّا أُسْرِيَ بِي إِلَى السَّمَاءِ دَخَلْتُ الجَنَّةَ فَرَأَيْتُ فِيهَا مَلَائِكَةً يَبْنُونَ لَبِنَةً مِنْ ذَهَبٍ وَلَبِنَةً مِنْ فِضَّةٍ وَرُبَّمَا أَمْسَكُوا، فَقُلْتُ لَهُمْ: مَا لَكُمْ رُبَّمَا بَنَيْتُمْ وَرُبَّمَا أَمْسَكْتُمْ؟ فَقَالُوا: حَتَّى تَجِيئَنَا النَّفَقَةُ، فَقُلْتُ لَهُمْ: وَمَا نَفَقَتُكُمْ؟ فَقَالُوا: قَوْلُ المُؤْمِنِ فِي الدُّنْيَا: سُبْحَانَ اللهِ وَالحَمْدُ للهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ»(٣).

ومما يروى من سيرة الإمام زين العابدين عليه السلام أنه خرج ذات مرة في ليلة باردة وقد تطيَّب ولبس الجديد، فرآه بعض أصحابه فقال له: جُعلت فداك؛ في مثل هذه الساعة، على هذه الهيئة، إلى أين؟ فقال الإمام عليه السلام: «إِلَى مَسْجِدِ جَدِّي رَسُولِ اللهِ ﷺ أَخْطُبُ الحُورَ العِينَ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»(٤). إذن فالذي يقيم الصلاة، والذي يجاهد في سبيل الله، والذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، والذي يُقيم أعمال البر ويؤسس التعاون على ما ينفع المؤمنين وهكذا. كلهم

(١) أمالي الشيخ الطوسي: ص ٥٨٣ مجلس يوم الجمعة.
(٢) الكافي: ج٢ ص٥١٧.
(٣) بحار الأنوار: ج١٨ ص٤٠٩.
(٤) بحار الأنوار: ج٤٦.

يبني مستقبله الأبدي بهذه الأعمال.

[٧٥] وصورة ثالثة من يوم القيامة بالإضافة إلى دخول أولئك النار وهؤلاء الجنة، هناك منظر الملائكة الذين يحفّون بعرش القدرة والعزة ويسبحون بحمد الله. ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ وهذا المنظر من أعظم تجليات قدرة الله وعظمته، ثم يشير القرآن إلى انتهاء المحكمة الإلهية العادلة باعتمادها مقياس الحق.

﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ ويبقى أهل الجنة يتذكرون نعم الله عليهم ومن أعظمها نعمة الهداية في الدنيا، والنجاة من النار في الآخرة فيحمدون ربهم، ومن جانب آخر يتجلى عدل الله لأصحاب النار فيدخلونها وهم معترفون بمسؤوليتهم عن هذا المصير وبأن حكم الله فيهم حق وصدق، فيحمدون ربهم. ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾.

سُورَةُ غَافِر

* مكيّة.

* عدد آياتها: ٨٥.

* ترتيبها النزولي: ٦٠.

* ترتيبها في المصحف: ٤٠.

* نزلت بعد سورة الزمر.

فضل السورة

عَنْ أَبِي الصَّبَاحِ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام: «مَنْ قَرَأَ حم المُؤْمِنَ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ وَأَلْزَمَهُ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَجَعَلَ الآخِرَةَ خَيْراً لَهُ مِنَ الدُّنْيَا».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٥٤)

***

عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: «قَالَ الحَوَامِيمُ رَيَاحِينُ القُرْآنِ فَإِذَا قَرَأْتُمُوهَا فَاحْمَدُوا اللهَ وَاشْكُرُوهُ كَثِيراً لِحِفْظِهَا وَ تِلاوَتِهَا إِنَّ العَبْدَ لَيَقُومُ وَ يَقْرَأُ الحَوَامِيمَ فَيَخْرُجُ مِنْ فِيهِ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ الأَذْفَرِ وَالعَنْبَرِ وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَ جَلَّ لَيَرْحَمُ تَالِيَهَا أَوْ قَارِئَهَا وَيَرْحَمُ جِيرَانَهُ وَأَصْدِقَاءَهُ وَمَعَارِفَهُ وَكُلَّ حَمِيمٍ وَقَرِيبٍ لَهُ وَإِنَّهُ فِي القِيَامَةِ يَسْتَغْفِرُ لَهُ العَرْشُ وَالكُرْسِيُّ وَمَلائِكَةُ اللهِ المُقَرَّبُونَ».

(بحار الأنوار: ج٨٩ ص٣٠١)

الإطار العام

عواقب التكذيب بآيات الله

اشتهرت هذه السورة باسمين:

١ - غافر؛ لما فيها من ذكر كرامة الله للمؤمنين، واستغفار حملة العرش لهم.

٢ - المؤمن؛ لما فيها من تفصيل قصة مؤمن آل فرعون، ولما فيها من ذكر إكرام الله له ولسائر المؤمنين.

إن الغاية السامية التي تسعى آيات هذه السورة نحوها بحق، هي التذكرة بأسماء الله الحسنى لتزداد النفوس العامرةبالإيمان عرفاناً بربها الكريم، ولتتم الحجة على الكافرين.

و لقد تجلى ربنا العظيم في آيات كتابه الكريم جميعاً، ولكن كما الشمس -وتعالى الله عن الأمثال - تتجلى في كل أفق تجليات بديعة و جديدة، فإن لكل سورة تجلياتها الخاصة بها. وهكذا في هذه السورة حيث عَرَّفَت فاتحةالسورة ربنا العظيم بأنه غافر الذنب (ومن هنا جاء أحد اسمي السورة)، وأنه قابل التوب شديد العقاب ذوالطول (الآيات: ١-٣) ثم (في الآية: ١٥) ذكر اسم رفيع الدرجات ذي العرش وأنه يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده، ثم جاء (في الآية: ٦٥) أنه سبحانه هو الحي لا إله إلا هو.

و جاء في (الآية: ١٣) و(الآية: ١٨) أنه سبحانه يرينا آياته (ويعرفنا نفسه عبرها). ونتساءل: فلماذا -إذا- لا نعرف ربنا عبر تلك الآيات المبصرات؟! ويعرف الجواب حقاً من يرهف سمعه لكلام ربه، حيث إنَّ منهج القرآن هو تصفية العقبات النفسية قبل إلقاء البصائر ببلاغة نافذة، وحجة تامة،وخطاب فصل مبين.

وقد تركزت آيات السورة في هذا التوجه، حيث نجد التحذير من الجدال في آيات الله

أربع مرات، تُعَدُّ كل مرة عنواناً لسلسلة من البصائر والحديث الشافي الذي يطهر القلب من العقبات التي تمنع من الوصول إلى الإيمان، وذلك عبر الترتيب التالي:

أولاً: في البدء نجد تحذيراً من الجدال عبر التذكير بعاقبة الجدال السوءى، ثم نتلوا بياناً لطائفة من آيات الله التي تهدف إقامة الحجة على الكافر، وزيادة إيمان ومعرفة الذي ألقى السمع، وسلم للحق.

دعنا نستعرض جانباً من هذا المنهج، وفي ذات الوقت نجمل الحديث حول موضوعات السورة، ضمن هذا الإطار،وهو إعداد القلب لتقبل آيات الذكر.

(الآيات: ٤-٦) تنعت المجادل في آيات الله بالكفر والغرور، وتحذر من عاقبة سيئة له مثل التي كانت لقوم نوح والأحزاب.

و(الآيات: ٧-٩) تبشر المؤمنين الذين يسلمون لآيات الله بأنهم مكرمون عند الله وعند حملة العرش من ملائكته، الذين يدعون لهم بالوقاية من النار، ودخول الجنة، وحفظهم من السيئات.

وهكذا لا يكتفي المنهج القرآني بالإنذار، بل يقرنه غالباً بالتبشير.

ويعود السياق إلى التحذير من الكفر (والجدال) بأن صاحبه مخزي ممقوت، وسيندم حيث لا ينفعه الندم (الآيات: ١٠-١٢).

وهكذا تتهيأ النفوس لاستقبال آيات الله من دون الجدال الباطل فيه، فيبيّن السياق طائفة منها مع الأمر بإخلاص الدين له وتوحيده وأنه رفيع الدرجات (أسماء الله) وذلك عبر (الآيات: ١٣-١٥).

ويعود السياق إلى التحذير من مغبة الجدال في يوم القيامة (الآيات: ١٦-٢٠) مع التذكرة بأسماء الله التي تتجلى في ذلك اليوم الرهيب.

و يذكرنا بمصير الكفار في الدنيا، وكيف أخذهم الله -على شدة قوتهم ومكاسبهم الكثيرة- كل ذلك لأنهم جادلوا في آيات الله، وكفروا بالبينات التي جاء بها رسله (الآيات: ٢١-٢٢).

ويضرب القرآن مثلاً على عاقبة الجدال في آيات الله والذي يساوي الكفر مما انتهى إليه أمر فرعون وقومه، كمايضرب مثلاً للذين آمنوا بآيات الله من العاقبة الحسنى التي فاز بها مؤمن آل فرعون.

ويفصل الكتاب ذات الحقائق من خلال حوار ساخن بين موسى عليه السلام (الرسول) وهارون عليه السلام (وزيره) والمؤمن (الذي صدَّق بهما) من جهة، وبين فرعون (الطاغية) وهامان (وزيره) وقارون (الذي اتبعهما) من جهة أخرى، وتحول الحوار إلى صراع، وانتهى الصراع بمصرع آل فرعون، وتدمير حضارتهم، وعذابهم بالغدو والآصال في البرزخ، وإقحامهم والتابعين في جهنم، وساءت مصيراً. (الآيات: ٢٣-٣٤).

وتتجلى في السياق صورة مؤمن آل فرعون مثلاً رائعاً لشخصية المؤمن الصلبة ونفاذ بصيرته، وقدرته الربانية على تحدي الطغيان المادي، مما جعلت اسمه عنواناً لهذه السورة الكريمة.

ثانياً: وخلال الحوار والصراع والتحدي يذكرنا الكتاب مرة ثانية بقضية الجدال في آيات الله وكيف ينتهي بصاحبه أن يطبع الله على كل قلبه، ويمسي كفرعون الذي بلغ به الغرور الأهوج حداً قال لوزيره هامان: ابنِ لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب، ومضى في طريق الغواية حتى النهاية البائسة، بينما دعا الصدِّيق إلى اتباع نهجه الذي هو نهج الرشاد (الآيات: ٣٥-٣٨)، وركزَّ على مسؤولية البشر عن أعماله ومواقفه، ثم فوض أمره إلى الله بعد أن تحداهم بقوة، وكانت العاقبة أن الله وقاه من سيئات ما مكروا، بينما حاق بآل فرعون سوء العذاب، ولم يفلت المستضعفون من العاقبة ذاتها التي كانت للمستكبرين، لأنهم جميعاً جادلوا في آيات الله وعصوارسله (الآيات: ٣٩-٥٠). أما رسل الله والذين آمنوا فإن الله ينصرهم في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد، إلا أن عليهم الصبر والاستغفار وأن يسبحوا بحمد الله بالعشي الابكار (الآيات: ٥١-٥٥).

ثالثاً: وفي المرة الثالثة يحذِّرنا السياق من الجدال في آياته، مبيِّناً -هذه المرة- الجذر النفسي لهذه اللعنة التي تصيب القلب، وهي الكبر الذي لن يبلغه صاحبه. وبعد أن يأمرنا بالاستعاذة بالله العظيم يهدينا إلى عظمة خلق الله للسماوات والأرض، ويوحي إلينا أن الكبر عمى والإيمان بصيرة، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، ثم يأمرنا بالدعاء لأنه شفاء من الكبر (الآيات: ٥٦-٦٠).

وحسب المنهج القرآني الفريد، فإن الله يلقي على الأفئدة السليمة آياته (الآيات: ٦١-٦٢) ثم يحذِّرمن الجحود بها، لأن من يجحد بها يؤفك عن الحق (الآية: ٦٣). ويعود يذكرنا بآياته المبصرة، وبأنه الحي الواحد، ويأمر رسوله بتحدي آلهة الزيف، ويذكرنا بأنه يحيي ويميت (الآيات: ٦١-٦٨).

رابعاً: ينهى عن الجدال في آيات الله (الآية: ٦٩) وينذر الذين كذبوا بالكتاب بأنهم

سوف يعلمون أي جريمة اقترفوا، وذلك حين توضع الأغلال في أعناقهم وفي السلاسل يُسحبون.(الآيات: ٧٠-٧١).

و كذلك يعالج داء الجدال بالتحذير من عاقبته الأخروية (الآيات: ٧٢-٧٦)، ويُجمل السياق في خاتمة السورة بصائرها، من الأمر بالصبر (الآية: ٧٧) اتباعاً لسنة الأنبياء عليهم السلام، والتحذير بعاقبة الاستهزاء (الآية: ٧٨) والتذكرة بآية الله في خلق الأنعام، والأمر بالسير في الأرض للنظر في عاقبة المكذبين، وكيف دُمِّروا فلم يغن عنهم ما كانوا يكسبون، وذلك أنهم حينما أنذرهم الرسل فرحوا بما عندهم من العلم، فحاق بهم ما كانوابه يستهزئون (الآيات: ٧٩-٨٣). بلى؛ إنهم آمنوا في اللحظة الأخيرة حين رأوا بأس الله، ولكن سنَّة الله جرت بألا ينفع الإيمان في ذلك الوقت، وأنه قد خسر هنالك الكافرون (الآيات: ٨٤-٨٥).

وكلمة أخيرة: إن الحقائق الكبرى الثلاث التي تحيط بالخليقة (التوحيد والبعث والرسالة) شواهدها وآياتها مبثوثة في الآفاق والأنفس، إلا إن حجباً سميكة تغطي البصائر عن رؤيتها والتفاعل معها، وتؤدي إلى الجدال في آياتها ودلائلها، والقرآن الكريم شفاء للقلب من تلك الحجب، وفي هذه السورة المباركة نجد نهجاً بديعاً وشفاءً سريعاً، وعلينا فقط أن نلقى السمع إلى آياتها بلا جدال.

غافر الذنب وقابل التوب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ (١) تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ[١] لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (٣) مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ (٤) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟[٢] بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ (٦)﴾.

هدى من الآيات:

المؤمن وغافر هما اسمان لهذه السورة المباركة، التي تبدأ حديثها عن القرآن، أو قل عن نفسها قبل الحديث عن أي قضية أخرى. والسبب هو أن المنهج يسبق الفكر، والذي يريد معرفة شيء ما يجب عليه أولا أن يعرف الطريق المؤدي إليه. والقرآن هو ذلك المنهج الذي نفهم من خلاله الحياة، ونعالج الأمراض النفسية والعقلية، وغير ذلك مما يمنع الفهم الصحيح عن الإنسان.

وأكثر سور القرآن حينما تبدأ الحديث عنه فإنها تنذر بمختلف ألوان النذر أولئك الذين ينكرون الحقيقة استجابة لأهوائهم ولظروفهم، وفي هذه الآيات يبيّن لنا القرآن أن الذين

---

(١) ذي الطول: الطول هو الإنعام الذي تطول مدته.

(٢) ليُدْحِضُوا: ليبطلوا ويزيلوا.

يكفرون بالحق إنما بسبب نفوسهم المريضة التي تنقاد للهوى وتنصاع للمحيط، وليس لنقص في الآيات الدالة عليه فهي بيان واضح للحق بالحق.

بينات من الآيات:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾

وهو الرب الذي يتأله ويجأر إليه، والذي به يستغاث وبه يستعان وإليه يجأر كل مضطر وصاحب حاجة، حيث غرزت الحاجة إليه في فطرة كل مخلوق، وأركز الإحساس بألوهيته في أعمق أعماق شعورنا جميعا، فمهما اختلفنا في الألفاظ والتعابير على اختلاف ألسنتنا ومذاهبنا إلا إننا لا نختلف في الحقيقة التي فطرنا عليها جميعا، إذ كلنا يستعين بالله ويتوسل بأسمائه التي أظهرها لفاقتنا إليها كما في الأخبار.

[١] ﴿حمٓ﴾ من المقطعات القرآنية التي سبق تفسيرها في عدة مواضع[1]. وجاءت روايات بأن (ح) إشارة إلى اسم الحميد و(م) إشارة إلى اسم المجيد فيكون ﴿حمٓ﴾ حينئذ قسما بحاكمية الله التي تقتضي حمده ومالكيته التي تقتضي مجدا على أن القرآن حق، أوليست آيات القرآن تجليات لأسماء ربنا، ولعل السور السبع التي تبتدئ بكلمة ﴿حمٓ﴾ وأولها هذه السورة مظاهر لاسمي الحميد والمجيد.

[٢] والكتاب الذي يتكون من أمثال هذه الحروف تَنَزَّل من رب عزيز عليم. ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ فبعزته يفرضه على الإنسان ويطبق ما فيه على واقع الحياة، وبعلمه الذي أحاط بكل شيء إحاطة مطلقة جعله كله هدى وحكمة ونورا ينسجم مع واقع الحياة والإنسان. ويبدو لي أن الآية جملة مفيدة كاملة، مبتدؤها ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وخبرها ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ وهذا ما يوحي بالمعنى المتقدم.

[٣] وتعرفنا الآيات بربنا من خلال ذكر صفاته، وهذا ينفعنا في تحديد علاقتنا به تعالى. وأول أسماء الله المذكورة هنا أنه غافر الذنب، ومن يغفر الذنوب إلا الله، وأي رحمة واسعة تلك التي تغسل جريمة المعصية، وأي قدرة تستطيع محو الآثار العديدة للمعاصي على النفس والواقع غير رحمة الله وقدرته. وتضفي أسماء الله السكينة على القلب، فهو غافر الذنب وقابل التوب وهو ذو الطول، ولولا هذه السكينة لتصدعت قلوب المؤمنين عند استماعهم لاسم شديد العقاب. ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ والمؤمن حقا يعيش

(١) راجع بدايات السور المماثلة.

متوازنا مباركا، يحثه الرجاء على التوبة والعمل الصالح، ويمنعه الخوف عن المعصية. والخوف من عذاب الله كما رجاء رحمته ليس قضية نفسية وحسب، إنما يعنيان العمل، فنحن يجب أن نتحرك عند الرجاء ولكن ليس في أي اتجاه، إنما في اتجاه مرضاة الله وباتباع هداه، لأن الحياة تشبه حقل الألغام والذي ينجو فيها هو الذي يمتلك خريطة واضحة لها يتبعها بدقة، أما حينما ينحرف الإنسان عن الحق فسوف يضل ويخسر ولن يجد من ينقذه أبدا، لأن الله وحده هو الإله المتصرف الذي يحدد مسيرة الإنسان ومصيره دون أن يكون أحد قادرا على التغيير والتبديل. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فهو الذي يقرره كيف يشاء بإرادته.

[٤] ولكن بعض الناس يرفضون الحق وبكل إصرار، فتراهم يجادلون في آيات الله التي تهديهم إلى الحق. والجدال -حسب اللغة- لف الخيوط الناعمة أو أنسجة الليف على بعضها لتصبح حبلا، وهذا يشبه حال المجادلين الذين يلفون بعض الكلام على بعضه للتغطية على جهلهم. ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ مع وضوحها بما لا يدع مجالا للشك. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لأنهم لا يبحثون عن الحقيقة، ولو كانوا كذلك لاستوجب الأمر قبولهم للآيات باعتبارها بيّنات بينما يسعى هؤلاء لتبرير اتباعهم للباطل ليخدعوا أنفسهم بأنهم على الحق، وليغطوا ضعفهم ويتراؤوا بأنهم أقوياء، ولكن المؤمن الذي يتبع بصائر القرآن لا ينخدع بهم أبدا ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ فمهما تظاهروا بالمقدرة من خلال تنقلهم في البلاد عبر مسيرات عرض القوة، كما تعود الطغاة فعله، أحسوا بالخطر، ولكن على المؤمن ألا تغرّه مظاهر القوة لأنهم ضعفاء بمخالفتهم للحق، فمهما بلغوا من القوة والقدرة وأنّى أزاحوا الحق عن مراسيه، فإن عاقبتهم إلى البوار وإن إلى الله المصير.

[٥] ويضرب لنا القرآن مثلا من واقع التاريخ على أن تقلّب الكفار في البلاد وسيطرتهم المادية الظاهرة ليس دليلا على سلامة خطهم. ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل كفار قريش الذين يجادلونك يا محمد، وقبل كل الطغاة في كل عصر. ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ لأنهم لم يستفيدوا من تجربة قوم نوح. ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ وكم هو مؤسف أن تصل البشرية إلى هذا الحضيض، فإذا بها بدل أن تكرم المصلحين وتتبعهم لأنهم يحملون لها الهدى والسعادة ترفضهم وتسعى لقتلهم والقضاء على خطهم، هذا من الناحية العملية، أما من الناحية النظرية فإنها تحاول إبطال الحق الذي يأتي به الأنبياء.

﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ وهكذا كل كافر لا يملك عقيدة إلا الكفر بالحق، فهو لكي يملأ الفراغ العقائدي في نفسه يبحث عن باطل ليس ليعتقد به إنما ليقاوم به الحق، وإنما ازداد ركام الباطل، وتنوعت مذاهبه، وكثر الكلام فيه لأنه لم يكن يملك رصيدا

من الواقع ولا شاهدا من الفطرة فيحتاج إلى المزيد من السفسطة باسم البرهان، والفلسفة باسم الحكمة، والجدل باسم الحوار. ولكنه مع ذلك كله لا يغني شيئا، وهكذا نهت النصوص عن الجدال في الدين، فقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لُعِنَ الْمُجَادِلُونَ فِي دِينِ اللهِ عَلَى لِسَانِ سَبْعِينَ نَبِيًّا وَمَنْ جَادَلَ فِي آيَاتِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ**»[1].

وإنما يفشل الباطل -رغم الجدال عنه- لأن الله من فوق عرشه وعبر سننه في الحياة يدافع عن الحق، فهو يفشل كل محاولة لدحضه، فالحق هو المنتصر دائما لأنه يملك قوة المنطق ومنطق القوة بتأييد الله. ﴿فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ والأخذ ينطوي على الشدة والمباغتة، وتساؤل السياق عن العقاب ليثير أفكارنا فنبحث عن الإجابة التي فيها العبرة والموعظة.

[٦] ولأن الحديث هنا عن سنّة إلهية تحكم الحياة نجد السياق وبعد تخصيص قوم نوح والأحزاب بالذكر يعمم الحديث ليضم إليهم كل الكافرين في كل مكان وزمان، فهم جميعا ينالهم عذاب الله وانتقامه. ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ففي الدنيا ينالهم انتقام الله، وفي الآخرة عذابه الشديد، فهم خالدون في نار جهنم لأنهم أصحابها.

---

(١) نور الثقلين: ج٤ ص٥١١.

فالحكم لله العلي الكبير

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ (١٠) قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَٱعۡتَرَفۡنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلۡ إِلَىٰ خُرُوجٖ مِّن سَبِيلٖ (١١) ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُۥ كَفَرۡتُمۡ وَإِن يُشۡرَكۡ بِهِۦ تُؤۡمِنُواْۚ فَٱلۡحُكۡمُ لِلَّهِ ٱلۡعَلِيِّ ٱلۡكَبِيرِ (١٢) هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزۡقٗاۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ (١٣) فَٱدۡعُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ (١٤)﴾.

هدى من الآيات:

لكي لا تهزم الظروف الصعبة إرادة المؤمن، وبخاصة إذا كان يتحدى الطغاة وحده، أو يحافظ على إيمانه في سرية، ولكي يطهر المؤمن بالإنابة من درن الشرك أوحى ربنا بأن أعظم خلق الله الذين يحملون عرش القدرة الإلهية يستغفرون للذين آمنوا وأنابوا إلى الله، ويدعون لهم بالمغفرة، وأن يقيهم عذاب جهنم، و يدخلهم جنات الخلود هم ومن صلح من آبائهم

وذرياتهم، وأن يحفظهم من السيئات برحمته.

بينما الكفار يلعنون وينادون بأن مقت الله أكبر من مقتهم أنفسهم حين رفضوا الإيمان، وتراهم يتضرعون يومئذ إلى الله قائلين: إننا بعد أن مررنا بتجربة الموت والحياة مرتين أصبحنا نعترف بذنوبنا، ويسألون: هل نستطيع الخروج من العذاب؟ فيرفض طلبهم لأنهم قد كفروا بالتوحيد وآمنوا بالشركاء، وإنما الحكم لله العلي الكبير لا للشركاء المزعومين.

والله وحده الحاكم في الخليقة فهو الذي يهدي الناس إلى نفسه عبر آياته، ويرزقهم من السماء، ولكن لا ينتفع بآيات الله إلا من ينيب إليه فيتذكر.

وفي ختام الدرس يدعونا الرب إلى إخلاص الدين ونبذ الشركاء برغم الكفار الذين يكرهون التوحيد.

بينات من الآيات:

[٧] تتبع الآيات القرآنية منهجا يتميز عن المناهج البشرية في أنه كالضوء ينتشر من نقطة مركزية واحدة، هي التوحيد لتتسع سائر الحقول. ذلك أن عالم الخلق والحق كما عالم العلم والمعرفة مظهر وتجلٍ لأسماء الله الحسنى، وكل شيء فيه آية تدلنا إلى ربنا الحميد المجيد. ولقد افتتحت هذه السورة بذكر بعض صفات الله التي تتجلى في الخليقة فاسم الله ﴿ٱلرَّحِيمِ ﴾ [الفاتحة: ٣]، الذي يتجلى في قبول الله للتوبة ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ [غافر: ٣]، لها انعكاس على خلق الله، ومن ثم على سلوك الإنسان، وعليه أن يتخذ منه منهجا لتقويم سلوكه.

بل ينعكس هذا الاسم الكريم على الخليقة إذ يحدثنا القرآن عن الملائكة الحافيّن بعرش الله، فهم من جهة يتصلون بالله عبر علاقة التسبيح والإيمان، ويتصلون بالإنسان المؤمن عبر علاقة الحب والرحمة، وربنا إذ يشرح لنا جانبا من هذه العلاقة يبيِّن ذلك في صورة دعاء من قبل الملائكة للمؤمنين التائبين.

ويبقى السؤال: ما هو عرش الله؟.

للعرش معنيان:

الأول: أن الله يملك محلا واسعاً يسمى بالعرش، لا نعرف إلا أنه عظيم يسع السماوات والأرض بل الخلق بأجمعهم. وقد جاء في الحديث المروي عن أمير المؤمنين عليه السلام: «**إِنَّ الْمَلَائِكَةَ تَحْمِلُ الْعَرْشَ وَلَيْسَ الْعَرْشُ كَمَا تَظُنُّ كَهَيْئَةِ السَّرِيرِ وَلَكِنَّهُ شَيْءٌ مَحْدُودٌ مَخْلُوقٌ مُدَبَّرٌ وَرَبُّكَ عَزَّ**

وَجَلَّ مَالِكُهُ لَا أَنَّهُ عَلَيْهِ كَكَوْنِ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ»[١]. وفي الحديث المأثور عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال: «يَا بَا ذَرٍّ مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي أَرْضٍ فَلَاةٍ وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى تِلْكَ الْحَلْقَةِ»[٢].

الثاني: أن العرش هو رمز القدرة والهيمنة، حيث فسرت الآية الكريمة ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ [هود:١١]، بأنه سيطرته وهيمنته تعالى. أما الملائكة الذين يحملون العرش فإنهم وسائط رحمة الله، وتنفيذ إرادته في الحياة. وإلى ذلك تشير الرواية المأثورة عن الإمام الرضا عليه السلام: «الْعَرْشُ لَيْسَ هُوَ اللهَ والعَرْشُ اسْمُ عِلْمٍ وقُدْرَةٍ»[٣]. وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام أنه حين سئل عن قول الله عز وجل ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، قال: «عِلْمُهُ»[٤].

ويحتمل قريباً أن يكون لربنا مقام معلوم حمله علمه وقدرته، ومنه ينطلق تدبيره للخليقة وهو عرشه، وفيه ملائكة الله المقربون. وما يهمنا معرفته أن حملة العرش خلق من خلق الله وليس أنصاف آلهة، وهم مشغولون بالتسبيح والتمجيد.

هذا عن علاقتهم بالله، أما عن علاقتهم بالإنسان فهي التي تكشف عن علاقة الطبيعة بالبشر، إذ الملائكة وسائط أمر الله وتنفيذ إرادته، فهم إذن يمثلون موقف الخلائق من الإنسان، وهو يرتبط بموقف الإنسان من الحق، فإذا كان البشر على فطرته وعلاقته الإيجابية مع ربه فهم معه وإلا فلا، فما على الإنسان حتى يفلح في الحياة إلا أن يتحرك باتجاه تسخير الطبيعة التي من أهم عوامل تسخيرها العبودية لله، وحينها سوف يجد كل شيء يقف معه مؤيدا، إذ الملائكة الموكلة من قبل الله بقوى الطبيعة المختلفة سوف يكونون معه. ولو كان مجمل سلوك الإنسان صالحا فإن هفواته لا تضره إذ سرعان ما يتوب إلى الله منها فتستغفر الملائكة له منها، ولعلهم يسددون خطاه بأمر الله للعودة إلى نقائه وطهره، وقد يعصمونه بإذن الله من الذنوب الجديدة، و يثبتون قلبه، ويحفظونه من تسويلات النفس ووساوس الشيطان، ويبدو أن هذا من علامات قبول التوبة.

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ﴾ وهم من أعظم ملائكة الله، ولعلهم أول من يتلقون أمر الله. والمُشعِر بأنهم ملائكة العطف على: ﴿وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ من الملائكة الآخرين كما في قوله

---

(١) بحار الأنوار: ج٣ ص٣٣٣.
(٢) بحار الأنوار: ج٥٥، ص٥.
(٣) الكافي: ج١، ص١٣٠.
(٤) بحار الأنوار: ج٤، ص٨٩.

تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ [الزمر:٧٥]. لكن يحتمل جدا أن حملة عرش العلم والرحمة هم المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٧].

﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ وأعظم الذكر هو التسبيح الذي يقدس الرب عن الشريك والشبيه والنقص والعجز، ويصحب التسبيح والتنزيه والذي هو نفي ثناء، فهو حمد على الفعل الإلهي الذي هو تجل للرحمة والعلم والحكمة. ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ فتسبيحهم ليس مجرد كلمات يتلفظونها، أو أفعال يمارسونها، إنما يقومون بكل ذلك عن معرفة وقناعة راسخة بوجوبه عليهم. هذا عن علاقتهم بالله، أما عن علاقتهم بالمؤمنين فهي الاستغفار لهم لكي يتوب الله عليهم ويوفقهم في الحياة. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وليس يغفرون، لأنهم ليسوا آلهة، إنما هم عباد مقربون عند الله، وكل ما يستطيعونه لخدمة المؤمنين هو طلب العفو من الله لهم عبر الدعاء.

ومن آداب الدعاء:

أولاً: البدء بحمد الله وتسبيحه والثناء عليه ثم طلب الحاجة، وهكذا فعل الملائكة إذ تراهم سبحوا الله بحمده ثم استغفروا للمؤمنين.

ثانياً: البدء بطلب العفو قبل سائر الطلبات حيث إن رحمة الله قريبة من التائبين، إذ الذنوب تمنع استجابة الدعاء، ونزول الرحمة، وهكذا فعل الملائكة.

﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ﴾ والتوبة هي الشرط الأول لقبول الله عودة العبد إليه. أما الشرط الثاني فهو أن تكون التوبة صادقة يستقيم عليها العبد، فيتبع سبيل الله وحده دون أن يعود إلى سبيل الشيطان. وهذا ما يبصره ربنا الذي أحاط بكل شيء علما. ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ وهذا أهم وأعظم ما يمكن للمؤمن الدعاء به لنفسه ولإخوانه. وهكذا عندما يتوب المؤمن إلى الله فإن الملائكة تكون معه. وبالتالي فإن ما في الحياة يدعو البشر إلى إصلاح نفسه والعودة إلى الطريق المستقيم.

[٨] وحينما يكون الإنسان صالحا فإنه سوف ينفع الآخرين، فإذا بآبائه وأبنائه كما الأشخاص المحيطين به كزوجة يفيدهم بصلاحه ويدخلون معه الجنة، إلا إذا كانوا منحرفين تماما، وهذا يعني أن الحياة قائمة على أساس البناء لا الهدم، والصلاح لا الفساد، والملائكة تدعم هذه المسيرة وتؤيدها بإذن ربها ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ فبعزتك تقدر على استجابة

الدعاء، وبحكمتك تستجيب أو لا تستجيب، وهكذا ينبغي على من يدعو أن لا يحتم على الله بل يقدم دعوته ويثني على ربه وحسب.

ويتوافق هذا الدعاء مع رغبة الإنسان حيث يتطلع إلى العيش مع أحبائه وأعزته في الدنيا والآخرة. و إنما تكتمل النعم عندما يجتمع الأحبة تحت ظلال نعم الله في الجنة.

[٩] ولا يبلغ البشر غاية مناه إلا إذا تخلص من سيئاته التي تتجسد يوم القيامة في صور شتى، فمنها الظلمات الحالكة، ومنها النيران الملتهبة، ومنها العقارب والحيّات، ومنها اقتران الشيطان، وقد تبتلع سيئة واحدة عامة صلاة الفرد وصيامه، وقد تتسبب في حبط أعماله الصالحة ونقص درجاته. وقد جاء في الحديث عن رب العزة أنه سبحانه قال: «**أَنَا المَالِكُ أَنَا الدَّيَانُ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الجَنَّةَ وَلَا لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَعِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ حَتَّى أُقِصَّهُ مِنْهُ**»[١].

وهكذا كان في دعوة الملائكة حفظ المؤمنين من سيئاتهم في ذلك اليوم الذي تتجسد فيه السيئات. ﴿ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٍ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ ﴾ والوقاية هنا بمعنى الحفظ، وإنما يتقي البشر آثار السيئات في الآخرة عندما ينتصر على نفسه في الدنيا و يتجاوز الأهواء والشهوات السلبية. ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ إن الوصول إلى النجاة من النار ودخول الجنة غاية عظيمة، وعمل صعب، وعلى الإنسان المؤمن أن يعقد عزمه ويشحذ إرادته من أجل تحقيقها، إذ كلما كان الهدف عظيما يجب أن تكون الإرادة عظيمة بقدره.

[١٠] هذا عن علاقة الملائكة بالمؤمنين. أما علاقتهم بالكافرين فهي سلبية وتتسم بالدعاء عليهم و التشمت بهم. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوۡنَ﴾ تناديهم الملائكة وكل الطبيعة المفطورة على الحق الذي خالفه هؤلاء.. ﴿لَمَقۡتُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُ مِن مَّقۡتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ إِذۡ تُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلۡإِيمَٰنِ فَتَكۡفُرُونَ﴾ إن الله يريد الخير لعباده وما خلقهم إلا ليرحمهم. أما إذا رفضوا الإيمان به والاستجابة لدعوته، وبالتالي أهانوا أنفسهم وأذلوها بالكفر، فإنه سوف يهينهم أضعافا مضاعفة على إهانتهم لأنفسهم، بإبعادهم عن رحمته، وإدخالهم العذاب. و الإنسان يهين نفسه ولا يحترمها حينما يحتقر الحق ويرفض الاستجابة له. ذلك أن لا قيمة للإنسان إلا بقربه من الحق وتجسيده له في حياته.

[١١] وفي جواب الكفار للنداء بشدة مقت الله لهم: ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثۡنَتَيۡنِ وَأَحۡيَيۡتَنَا ٱثۡنَتَيۡنِ﴾ ونتساءل: متى كانت الموتتان؟!

---

(١) تفسير نور الثقلين: ج٤ ص٥١٦، بحار الأنوار: ج٧ ص٧٨.

لقد اختلف العلماء والمفسرون في بيان هذه الآية، فقال بعضهم: إن الموتة الأولى قبل دخول الإنسان في الحياة الدنيا، حيث كان في عالم الأشباح حيا ثم مات، ثم دخل الحياة الدنيا ثم يموت عند بلوغه أجله ثم يحيى للحساب والجزاء. وقال آخرون: إن الله يحيي الإنسان في قبره بعد الموت ليحاسبه حساب القبر، وبعدها يميته ثم يحييه يوم القيامة للجزاء. وجاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال-في تفسير الآية-: «ذَلِكَ فِي الرَّجْعَةِ»[1].

وهناك تفسير آخر هو: أن الإنسان منذ أن خلقه الله لا يزال حيا، وهذه الحياة الأولى التي وهبها الرب للأرواح تستمر مع الإنسان في الدنيا فلا موت (إماتة) قبل هذه الحياة، ثم يوافي الإنسان أجله المتعارف في الدنيا فيموت، بمعنى: أنه تنفصل روحه عن جسده، وتبقى الروح في حالة الحياة (الحياة البرزخية). وبعد هذا الموت يموت البشر -مرة أخرى- فتنعدم عنه الحياة تماماً -أي تموت الروح- وذلك حينما ينفخ في الصور النفخة الأولى، وقد أشار القرآن الحكيم لهذا المعنى في سورة الزمر حيث قال: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر:٣٩]، وهذه هي الحياة الثانية التي تستمر مع الإنسان خالدة للأبد. وبين الحياتين والموتين تتجلى قدرة الله للبشر حيث لا يملك الكفار سوى الاعتراف بخطئهم، وأنهم قد أحيط بهم من كل جانب بسبب الذنوب التي اقترفوها في الحياة الدنيا، فيسألون الله بضراعة عن مخرج من مأزقهم. ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ وإننا لا نملك من أمرنا شيئا. ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ من النار.

[١٢] وتجيبهم الملائكة بأنه قد كان يوجد مخرج واحد فقط من هذا المأزق، وهو الإيمان بالله الواحد القهار والتسليم له ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق:٦٥]، ولكنكم رفضتم الدخول فيه وضيعتم على أنفسكم الفرصة. ﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِيَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ لأنكم كنتم تريدون إيمانا يبرر لكم شهواتكم، ويعترف بواقعكم الفاسد وتصرفاتكم الخاطئة، وهذا ما لا تجدونه في الدين التوحيدي الخالص، مما يدعوكم لرفضه. ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِيِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ أما الشركاء الذين عبدتموهم من دون الله فلن ينفعوكم أبدا لأنهم لا يملكون شيئا من الحكم.

[١٣] وليس الله بعيدا عن البشر ولا مجهولا لمن يستثير عقله حتى يشرك به الإنسان، فرحمته المعنوية التي تتمثل في الهداية مهيأة لنا في كل شيء وفي كل حين، إذ كل شيء آية تهدينا إلى ربنا، ورحمته المادية التي تتجسد في أنواع الرزق هي الأخرى تتنزل علينا من السماء وتحوطنا من كل جانب. ويبقى الإنسان مع ذلك يشرك بربه ولا ينتفع من كل ذلك، إلا إذا كان مؤمنا

(١) بحار الأنوار: ج٥٣، ص٥٦.

به منيبا إليه. ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾ والمنيب هو الذي يرجع الأمور إلى الله، ويتوب إليه كلما أدركه النسيان أو الخطأ، أما المشرك فإنه لا ينتفع بهذه الآيات ولا بهذه النعم حتى يحصل على معرفة ربه، لأنه ينسب كل ذلك إلى الشركاء، فإذا به يعتقد أن منبع رزقه هو صاحب المال والسلطة، أو يرجع الرزق إلى حتميات وأسباب من عنده فلا يشكر ربه ولا يتذكره بها.

[١٤] ولما كان الشرك يحرف مسيرة الإنسان في الحياة، ويوجهه لغير الله ولغير الحق، أكد ربنا على ضرورة الإخلاص له في الاعتقاد بعيدا عن كل عوامل الشرك. و لأن الضغوط التي يواجهها المؤمن الاجتماعية منها والسياسية والاقتصادية من قبل الآخرين من أهم تلك العوامل وأبلغها أثرا خصصها بالذكر. ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ وهذا ينسجم مع سياق السورة الذي يحدثنا عن مؤمن آل فرعون كمثل لمحافظة الإنسان على إيمانه و إخلاصه لله رغم الضغوط والظروف المعاكسة.

يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ[1] (١٥) يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ (١٦) ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ (١٧) وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ[2] إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ (١٩) وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ (٢٠) ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ[3] (٢١) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ (٢٢) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ (٢٣) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤)﴾

---

(١) يوم التلاق: أصله التلاقي حذف الياء تخفيفاً، أي يوم يلتقي فيه أهل السماء أهل الأرض.

(٢) يوم الأزفة: من أزف بمعنى دنى، ويُسمى يوم القيامة بالآزفة لدنوّه.

(٣) واقٍ: الواق أصله واقي، من وقى بمعنى حفظ، أي لم يكن لهم حافظ يحفظهم من بأس الله وعذابه.

هدى من الآيات:

انطلاقا من النقطة المحورية في توجيهات القرآن الحكيم وهي التذكرة بالله الواحد القهار وبرسالاته الحضارية المنزلة على عباده، يبيّن لنا هذا الدرس بعض ما يتصل بالرؤية التاريخية وما يدور في هذا المجال من الحقائق التي أبرزها انتقام الله انتقاما عمليا للأفكار الحقة ممن يكفر ويستهزئ بها.

بينات من الآيات:

[١٥] بماذا نستدل على ربنا؟ وما هو السبيل إلى المعرفة الأعمق به؟

إن الكون بما فيه من مخلوقات، وظواهر، يهدينا لو تفكرنا فيه إلى ربنا والى الحق، ولكن آيات القرآن أبلغ بيانا وهداية، لأنها حديث الله عن نفسه، كما أنها موضع التجلي الأعظم لله تعالى بصفاته وأسمائه الحسنى، وفي الدعاء عن أمير المؤمنين عليه السلام يخاطب ربه فيقول: «يَا مَنْ دَلَّ عَلَى ذَاتِهِ بِذَاتِهِ»[1]. فلنقرأ كلام الله عن نفسه. ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ إنه المالك لتلك الآفاق والمراتب السامية في الدنيا والآخرة، فهو يرفع المؤمنين به إلى أسمى درجات الكمال والرقي والعزة. أما المعنى الآخر للآية فهو: إن الله ذاته تبارك وتعالى في أرفع الدرجات من الكمال في كل صفاته، فهو مطلق الرحمة، ومطلق العزة والقدرة.. كما أنه مطلق الانتقام والشدة..﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي القوة والسيطرة. وقد تقدم أن للعرش أحد معان ثلاثة:

الأول: المعنى المادي وهو أن العرش خلق عظيم واسع الحجم، ممتد الطول هائل المقام.

الثاني: المعنى المعنوي بأن يكون العرش رمزا للقدرة والعلم والهيمنة.

الثالث: أو أنه الإثنين معاً؛ خلق عظيم جعله الله محلاً للعلم المخلوق والمشيئة والتدبير.

وربنا من تلك الدرجات الرفيعة ينزِّل رسالاته للبشر على من يصطفي من عباده، التي تُعَدُّ في لغة القرآن منبع الحياة الحقيقية للإنسان، لأنها تنقذه من الهلكات، وتنفخ فيه الحركة والتكامل والعروج الإنساني الفاضل، ولعله لهذا السبب سميت الرسالة والملك الذي يتنزل بها وهو جبرائيل عليه السلام بالروح. ﴿يُلْقِي ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ و هنا إشارة إلى أن الروح ليس جزءاً ينفصل من الله لينزل من عنده إلى الأرض، إنما هو مخلوق فهو من أمر الله

(١) بحار الأنوار: ج٨٤، ص٣٣٩، من دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام.

كما هو حال سائر الخلق في كونهم من أمره تعالى، والذي تشير إليه الآية الكريمة ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]، وهذا يعني أن الأنبياء والرسل ليسوا آلهة بما اختصوا به من الوحي إنما هم عباد له تعالى، وما عندهم من الوحي والمنزلة الرفيعة لم يبلغوه بسعيهم المجرد وإنما بمشيئة الله و حكمته.

وتنفي هذه الفكرة فكرة التكامل الطبيعي عند الإنسان، التي يدَّعي أصحابها بأن الإنسان يتكامل بطبعه حتى يعرج إلى السماء أو إلى مقام الرسالة والألوهية. بلى، الإنسان يستطيع أن يهيئ في نفسه أرضية للعروج، ولكن الله هو الذي يكمله، وإذا رفعه إلى مقام الأنبياء فليس معنى ذلك أنه أصبح إلها، أو أنه رفعت عنه المسؤولية. كلا، والدليل أن نزول الروح على أي إنسان يحمّله مسؤولية التبليغ لهداية الناس.

﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ و تلخص هذه الآية كثيرا من العقائد الإسلامية والنظرات الحياتية في القرآن بمفرداتها الأربع:

- ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾.
- ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾.
- ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾.

﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾، ويوم التلاق هو يوم يلتقي الإنسان خصومه، وهو من الأيام الحساسة والمشهودة في حياته، فيلتقي المستكبر بالمستضعف، والظالم بالمظلوم، والغاصب بالمغصوب منه، والكاذب بمن افترى عليه، وكل عامل يلتقي يومئذ عمله، ويلتقي المجرمون الشهود، والناس جميعا يلتقون بالحساب عند ربهم، وهكذا يكون يوما عظيما لا بد أن يرهب مقامه، وينذر به المنذرون.

[١٦] ويضيف القرآن مبيِّنا واقع ذلك اليوم العظيم والحاسم: ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ﴾ في الدنيا يحاول الإنسان جاهدا إخفاء سلبياته وتجاوزاته لحقوق الآخرين، وحتى إنه يحاول خداع ذاته، و إخفاء جرائمه عن ضميره بالتبريرات والأعذار، وقد يستطيع الهرب من يد العدالة، ولكن هل يتمكن من مثل ذلك في الآخرة؟

كلا، لأن اعتقادات الإنسان وأقواله و أعماله كلها تظهر بارزة يومئذ ولا تخفى منها خافية أبدا كما يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]، كبيرة كانت أو صغيرة، وكيف يكون ذلك وقد أوكل الله بكل واحد ملائكة يكتبون له وعليه كل ما يصدر

منه، وهو من ورائهم رقيب؟!

وحينئذ يرتسم في الأفق سؤال عريض ربما ينطق به كل شيء، لأنه سؤال الساحة الذي يقتضيه الحال، وقد ينادي به مناد من عند الله، السؤال هو: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ والإجابة يحكيها لسان الواقع، وهي التي وردت في فاتحة الكتاب التي وصفت الله بأنه ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ وهنا أيضا يقول القرآن مجيبا عن النداء أو السؤال المفترض: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ﴾ فلا يشاركه أحد في الملك والحكم. ﴿ٱلْقَهَّارِ﴾ والقهار هو أبرز سمات الانفراد بالملك، حيث لا شيء يعجز الله ويقهره، ولا أحد ينازعه على الملك إلا وقصمه، بل ما سواه تعالى مقهورا له. وملك الله ليس محدودا بالآخرة وحسب، فهو الملك في الدنيا أيضا، ولكن الكفار يعمون ويصدون عن هذه الحقيقة بعنادهم وبفقدانهم للبصيرة الهادية حيث رفضوا رسالات الله، أما المؤمنون فهم يعرفون هذه الحقيقة بعمق، لهذا يسلّمون لله ولمن يختاره راضين طائعين.

جاء في الأثر في تفسير هذه الآية الكريمة عن يعقوب الأحمر قال: دخلنا على أبي عبد الله عليه السلام نعزيه بإسماعيل فترحم عليه ثم قال: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ نَعَى إِلَى نَبِيِّهِ صلى الله عليه وآله نَفْسَهُ قَالَ ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وقَالَ ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُ فَقَالَ إِنَّهُ يَمُوتُ أَهْلُ الأَرْضِ حَتَّى لَا يَبْقَى أَحَدٌ ثُمَّ يَمُوتُ أَهْلُ السَّمَاءِ حَتَّى لَا يَبْقَى أَحَدٌ إِلَّا مَلَكُ المَوْتِ وحَمَلَةُ العَرْشِ وجَبْرَئِيلُ ومِيكَائِيلُ عليهما السلام قَالَ فَيَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ عليه السلام حَتَّى يَقُومَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ فَيُقَالُ لَهُ مَنْ بَقِيَ وهُوَ أَعْلَمُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَلَكُ المَوْتِ وحَمَلَةُ العَرْشِ وجَبْرَئِيلُ ومِيكَائِيلُ عليهما السلام فَيُقَالُ لَهُ قُلْ لِجَبْرَئِيلَ ومِيكَائِيلَ فَلْيَمُوتَا فَتَقُولُ المَلَائِكَةُ عِنْدَ ذَلِكَ يَا رَبِّ رَسُولَيْكَ وأَمِينَيْكَ فَيَقُولُ إِنِّي قَدْ قَضَيْتُ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ فِيهَا الرُّوحُ المَوْتَ ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ المَوْتِ حَتَّى يَقِفَ بَيْنَ يَدَيِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ فَيُقَالُ لَهُ مَنْ بَقِيَ وهُوَ أَعْلَمُ فَيَقُولُ يَا رَبِّ لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَلَكُ المَوْتِ وحَمَلَةُ العَرْشِ فَيَقُولُ قُلْ لِحَمَلَةِ العَرْشِ فَلْيَمُوتُوا قَالَ ثُمَّ يَجِيءُ كَئِيباً حَزِيناً لَا يَرْفَعُ طَرْفَهُ فَيُقَالُ مَنْ بَقِيَ فَيَقُولُ يَا رَبِّ لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَلَكُ المَوْتِ فَيُقَالُ لَهُ مُتْ يَا مَلَكَ المَوْتِ فَيَمُوتُ ثُمَّ يَأْخُذُ الأَرْضَ بِيَمِينِهِ والسَّمَاوَاتِ بِيَمِينِهِ ويَقُولُ أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا يَدْعُونَ مَعِي شَرِيكاً أَيْنَ الَّذِينَ كَانُوا يَجْعَلُونَ مَعِي إِلَهاً آخَرَ**»[1].

[١٧] ثم يبيّن القرآن أن كون الملك للواحد القهار لا يعني أنه يجور على الناس، تعالى ربنا عن الظلم والحيف، إنما يحاسبهم على أساس المقاييس العادلة التي جاءت ببيانها رسالات الأنبياء. ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ في السر أو العلانية، قليلا كان أو كثيرا، والآية تلغي المقاييس الأخرى الباطلة، كالفداء والشفاعات المزعومة، أو أن ينتفع الإنسان

(١) الكافي: ج٣ ص٢٥٦.

لمجرد انتمائه ظاهرا للحق، وذلك حينما تؤكد المسؤولية ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ وتركز الآية الكريمة هنا على العدالة الإلهية فتقول: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ لأنه مطلق العلم والقدرة، ولأنه يحاسب الناس على ضوء المقاييس والحجج، وإذا كان الإنسان بعلمه و إمكاناته المحدودة قد اكتشف جهاز الكومبيوتر الذي يفحص الأمتعة والحقائب من خلال الشاشة في لحظات فكيف بربنا وهو سريع الحساب؟!

فلا يتوهم البعض أن كثرة عدد البشر وتنوع ما يكتبونه بما لا يحصى يمنع ربنا من الدقة في الحساب أو النَّصَفَ فيه. كلا، إنه سريع الحساب يحصي عليهم حتى أنفاسهم وخفي ضمائرهم فيحاسبهم جميعا على كل ذلك في ساعة يوم القيامة.

[١٨] ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ﴾ وهو أحد أسماء يوم القيامة، ولعل كل اسم من أسماء الآخرة جاء بمناسبة معينة أو بحالة معينة. ولهذا الاسم عدة معان:

منها: أن القيامة قريبة جدا، من أزف الأمر إذا دنا وقته واقترب، وفعلا الساعة قريبة فلا تفصلنا -نحن البشر- عنها عمليا إلا زجرة الموت، وبعده يغفل عن أكثر الناس حتى قيام الساعة فيكونون كمن غط في نوم عميق سحابة نهاره فيتصل عنده أول يومه بآخره ويكون ما يحدث عليه آخر النهار قريبا من أول النهار. أما الذين محضوا الإيمان والكفر فإنهم إذا ماتوا قامت قيامتهم، فتدفع أرواح المؤمنين في الجنان فور انتقالها من أبدانهم، ويعرض على أرواح المعاندين النار غدوا وعشيا كآل فرعون، فالقيامة إذا قريبة منا جميعا. وفي القرآن إشارة إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ۝١٣ فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ﴾ [النازعات:١٣، ١٤].

ومنها: أن العذاب يكون قريبا من الناس في ذلك اليوم، أو أن روح الإنسان يقرب خروجها من جسده لأهوال ذلك اليوم. ﴿إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ﴾ و ربما يكون المقصود من القلب هنا بالإضافة إلى الروح، القلب بواقعة المادي، ذلك أن الإنسان يحس وكأن قلبه يصعد إلى الأعلى عندما يتعرض للفزع، وبالذات إذا كان مفاجئا لا يتوقعه، ولأن الناس كلهم مشغولون بأنفسهم لا يجد الواحد طرفا يمكنه أن ينفعه يظهر له ما في نفسه لذلك يخفي الجميع ما في صدورهم ويكظمون غيظهم، وحتى إذا أرادوا البوح فهل هي إلا ندامة وخسار ! بالإضافة إلى هيبة ذلك اليوم التي تعقل ألسنتهم، وإلى الملائكة الغلاظ الشداد الذين لا يأذنون لهم بالكلام، وإلى خشوع الأصوات جميعا لرب العالمين، فهم لهذه الأسباب وغيرها يضطرون للكظم بالرغم من شدة غيظهم حتى ليكادون يتميزون حنقا.

﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ وهو أقرب الأصدقاء وأحبهم للإنسان، إذ تنقطع بينهم

الروابط والعلاقات. ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ والشفيع هو الوسيط الذي يعرف الشخص ويقضي حاجته عند الآخرين، وقد تعود الظالمون في الدنيا على التوسل بالشفعاء في بلوغ مآربهم وحل مشاكلهم، ولكنهم في الآخرة لا يجدون إلى الشفعاء سبيلا، لأن الذين اعتمدوا عليهم من أئمة الظلم هم بدورهم يريدون من يشفع لهم، ولو افترضنا أن أحدا صالحا أو طالحا تحمّل هذه المسؤولية وحاول الشفاعة للظلمة فإنه لا ينفعهم شيئا، إذ لا تُعَدُّ الشفاعة عند الله للظلمة إنما تنفع من تكون مسيرتهم العامة في الحياة سليمة، فتأتي الشفاعة لترفع عنهم تبعات الذنوب الجزئية. فقد روي عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال: «**مَا مِنْ مُؤْمِنٍ يَرْتَكِبُ ذَنْباً إِلَّا سَاءَهُ ذَلِكَ وَنَدِمَ عَلَيْهِ وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ** صلى الله عليه وآله **كَفَى بِالنَّدَمِ تَوْبَةً وَقَالَ مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَةٌ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَةٌ فَهُوَ مُؤْمِنٌ فَمَنْ لَمْ يَنْدَمْ عَلَى ذَنْبٍ يَرْتَكِبُهُ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ وَلَمْ تَجِبْ لَهُ الشَّفَاعَةُ وَكَانَ ظَالِماً وَاللهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾**»[1].

هكذا نعرف أن الشفاعة إنما هي للتائبين الذين تسوؤهم سيئاتهم فيندمون عليها، وكفى بالندم توبة. وحيث أكد ربنا على أن الشفاعة لا تنفع الظالمين، لأنهم إنما اعتقدوا بالشركاء وبشفاعتهم ليتهربوا من المسؤولية، فأراد الله بذلك تأكيد المسؤولية عليهم، ونفي هذه الذريعة التي يتوسل بها البعض لاجتراح الجرائم.

[١٩] ويمضي السياق مؤكدا مسؤولية البشر بأنه تعالى يحصي عليه كل شيء، ولا تفوته من تصرفاته صغيرة ولا كبيرة، ويكفي بهذا وازعا إياه عن المعصية، ودافعا نحو تحمل المسؤولية. ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ حيث ينظر الإنسان إلى ما حرم عليه أو أن يستخدم نظره في غير أهدافه، كالتجسس على الناس وحسدهم، والنظر إلى أعراضهم وعموم عوراتهم وأسرارهم. وفي الحديث قال الراوي: سألت أبا عبد الله عن قوله عز وجل: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ فقال: «**أَلَمْ تَرَ إِلَى الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلَى الشَّيْءِ وَكَأَنَّهُ لَا يَنْظُرُ إِلَيْهِ فَذَلِكَ خَائِنَةُ الْأَعْيُنِ**»[2].

وجاء في تفسير هذه الآية: أن النبي صلى الله عليه وآله حينما فتح الله له مكة المشرفة أهدر دم بعض المشركين، وكان بينهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فجاء إليه عثمان يستأمنه منه، فسكت النبي طويلا ليقتله بعض المؤمنين، ثم أمّنه بعد تردد المسألة من عثمان، وقال: أما كان منكم رجل رشيد يقوم إلى هذا يقتله؟! فقال عباد بن بشر: يا رسول الله إن عيني ما زالت في عينك انتظارا أن تومي فأقتله، فقال صلى الله عليه وآله: «**إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَا تَكُونُ لَهُمْ خَائِنَةُ أَعْيُنٍ**»[3]. بلى، قد تفوت نظرات

---

(١) بحار الأنوار: ج٨ ص٣٥١.
(٢) بحار الأنوار: ج٤ ص٨٠.
(٣) بحار الأنوار: ج٢٢، ص١٨٩.

الخيانة بني البشر، أما الله فلا يفوته منها شيء.. وكيف يكون ذلك وهو يحيط بنوايا الإنسان وما ينطوي عليه قلبه؟! ولو تعمقنا في هذه الآية الكريمة، واعتبرنا بها لاستطعنا أن ننزع من قلوبنا بذور النفاق وجذور الخيانة، لأن الإنسان حينما يتحسس رقابة الله عليه، ويستشعر حقيقة علمه تعالى بما في قلبه فإنه لن ينافق أو يخون، ولن تأخذه روح اللامبالاة بالذنب. ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ من نوايا يسعى نحو تحقيقها، التي قد تخفى في بعض الأحيان عن الإنسان نفسه.

[٢٠] ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ﴾ وإنما يكون قضاؤه حقا لحكمته وإحاطته بما يحكم فيه، فمهما حاول أحد أن يتعلل ويقدم المعاذير ليفلت من العدالة فلن يستطيع أبدا، لأن الله يعلم الغيب والشهود حتى نوايا الضمير، وعلى الإنسان أن يبحث عن الحق ويلتزم به فهو وحده الذي ينفعه عند الله. وكلمة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ توحي بأن وسائل الحكم ونتائجه كلها حق، فربنا يعتمد الحق في تحديد الموضوع، ويعتمده أيضا في تحديد الحكم وتنفيذه، أما الآخرون الذين يشرك بهم الظلمة وجهال الناس فإنهم لا مقياس لهم في الحياة والحكم فلا يصيبون حتى جزءاً من الحق.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ﴾ في يوم القيامة، أما في الدنيا فهم لا يقضون بالحق، والسبب بالإضافة إلى اعتمادهم الأهواء والشهوات في قضائهم أنهم لا يحيطون بموضوعات الحكم إحاطة تامة، فحكمهم قائم على الشهادات الظاهرية أو الظنون والتخرصات، أما الله فهو يحيط إحاطة مطلقة بكل شيء مما يجعل حكمه حقا تاما. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ الذي يحيط بكلام الناس وما تنطوي عليه نفوسهم. ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ الذي يرى تصرفاتهم وأفعالهم. وفي الآية إيحاء بأن الباطل لا يمثل شيئا. أوليس الباطل كان زهوقا؟ فالشركاء المزعومون يقضون بالباطل الذي لا يمثل شيئا، ويا لروعة الكلمة وبلاغة التعبير، فهم لا يقضون عند الله شيئاً بالرغم من أن الطغاة يتشدقون بألوف القوانين التي يتظاهرون أنهم يقضون بها خلافات الناس، بينما يعقدون بها في -الواقع- أوضاع الناس، ويزيدون بأحكامهم الباطلة هذه الصراعات، فيا لخسارة تابعيهم!

[٢١] إن تحمل أمانة المسؤولية لأشد على قلب الإنسان من حمل الجبال الراسيات، وإنه -في الوقت ذاته- السبيل الوحيد لنجاته، والقرآن يهدينا إلى ذلك بحجج شتى، أبرزها بيان عاقبة أعمال البشر في الآخرة وقد تحدث السياق عنه آنفا، والحجة الثانية بيان عاقبة أعماله هنا، ولكن كيف نعرف ذلك؟ إنما بالنظر في أحداث التاريخ، التي تكشف عن خطأ التكذيب بالحق، وبالتالي ضعف الإنسان أمام إرادة ربه المتجلية في سنن الحياة.

وأصدق كتاب ينبئنا عن حقائق التاريخ -بعد القرآن- آثار الغابرين على الطبيعة، فلا

بد من السير في الأرض وقراءة تلك الآثار. ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني قوة أبدانهم أو عموم أسباب القوة التي اجتمعت عندهم بحيث استطاعوا إعمار الأرض ماديا بما لم يصل إلى مستواه الأقوام الذين يعنيهم القرآن بخطابهم. إلا أن هذه القوة وتلك الآثار لم تكن قائمة على أساس صالح ينميها ويحافظ على كيانها، إنما كانت القوة تزيدهم غرورا، والإعمار يزيدهم كفرا وفسادا، مما دعاهم للإسراف في المعصية اعتمادا عليهما. ﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ ولكن ليس بظلم وإنما بالحق. ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ ولم يكن ثمة أحد ينقذهم من عذاب الله وأخذه. ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ فلم تنفعهم قوتهم وقدراتهم شيئا عند العذاب ولا أولئك الشركاء الذين اعتقدوا بهم، إن الواقي الوحيد هو عمل الإنسان الصالح الذي لم يتزودوا منه بالرغم من وصية ربهم حين قال لنا: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

[٢٢] ويبيّن القرآن السبب في هلاكهم ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ والرسل إنما بعثهم الله ليستنقذوهم من الذنوب وما تنتهي إليه من العذاب، ولكنهم رفضوهم وتمسكوا بقيادة الطواغيت، ورفضوا رسالاتهم وتمسكوا بالعقائد والأفكار المنحرفة، فما بقيت ضمانة لهم تمنع عنهم العذاب. ﴿فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وإذ يصف الله نفسه هنا بالقوة وشدة العقاب فلكي يبيّن لنا نوع العذاب الذي حل بهم، ببيان صفات مُنْزِلَهُ عليهم، ولكي يبيّن لنا من جانب آخر أنه لم ولن يقدر أحد على منع العذاب عن الظالمين والكافرين حين ينزل بساحتهم.

[٢٣] وكشاهد على تكذيب الأقوام تضرب الآيات لنا مثلا من واقع موسى عليه السلام مع قومه الذين كذبوا برسالته. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ ولعل الآيات هي التوراة، وأما السلطان المبين فلعلها المعاجز التي أظهرها الله على يد نبيه عليه السلام كالعصا واليد البيضاء.

[٢٤] وقد جاء موسى عليه السلام لتغيير الواقع المنحرف، ومقاومة الفساد المتمثل في الطاغوت وأعوانه، وكل من يجسد ذلك الواقع ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ﴾ وهؤلاء هم نماذج مختلفة، كل واحد منهم يمثل جانبا من الفساد، فرعون يجسد الطاغوت الحاكم، وهامان يمثل الجهاز الإداري له، بينما يمثل قارون بماله الرأسمالية التي تمتص خيرات الشعوب، وقد جاء موسى عليه السلام لتصفية هذه الأجهزة الثلاثة. ﴿فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ وواجهوا بهذا المنطق الباطل الحجج الظاهرة والبينات فكان عاقبتهم الدمار كما تفصله الآيات التالية.

ومن يضلل الله فماله من هاد

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ (٢٥) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ (٢٦) وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ (٢٧) وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ (٢٩) وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ (٣٠) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ (٣١) وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ[1] (٣٢) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ (٣٣) ﴾.

---

(١) يوم التناد: أصله التنادي، وإنما حذف الياء تخفيفاً، والمراد به: اما يوم نزول العذاب، فإن فيه ينادي كل إنسان صاحبه بالفرار والحذر، وأما يوم القيامة حيث ينادي أهل النار أهل الجنة: ﴿أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ وينادي أهل الجنة أهل النار: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾.

هدى من الآيات:

تتكرر في القرآن قصة موسى مع فرعون وذلك لأسباب شتى من أهمها أن هذه القصة تكشف خلفيات الصراع بين المستضعفين والمستكبرين، الذي ينتهي بانتصار المستضعفين حين يتوسلون بالله، ويتبعون القيادة الشرعية التي تستمد مواصفاتها من الحق المتجلي في رسالة الله.

بينات من الآيات:

[٢٥] حينما جاء موسى بالتوراة وواجه فرعون وأتباعه بالبينات لم يكن عندهم منطق حق لمواجهته، لهذا توسلوا بالإرهاب الذي يمثل منطق القوة. ﴿ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ ﴾ وقد كانوا يريدون من وراء ذلك الضغط عليهم لكي يتنازلوا عن مسيرتهم الرسالية، ويتخلوا عن الجهاد تحت راية الحركة الالهية وقيادتها المتمثلة في نبي الله موسى عليه السلام، وهذا من أهم ما يتوسل به الطغاة في خططهم الرامية لمواجهة الحركات الجهادية عبر التاريخ، ولكن إذا استقامت الجماهير وواجهت طلائعها الضغوط بوعي وحزم استطاعت إفشال خطط الطغاة.

﴿وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴾ والكيد هو الخطة الماكرة التي يستهدف صاحبها النيل من عدوه وربنا يصف كيد الكافرين والطغاة (كفرعون) بأنه لا ينتهي إلى النتيجة التي يتطلعون إليها، بل ربما جاءت النتيجة مخالفة لمصالحهم، لأن أمرهم يشبه من يرمي في الظلام ولا يدري لعله يقتل أقرب الناس إليه. والسبب أن الخط الاستراتيجي العام للكفار خط منحرف، فكلما حاولوا تكتيكيا أن يخططوا لأنفسهم انتهت خططهم للفشل بسبب انحراف أفكارهم، كما لو افترضنا شخصا يريد الذهاب إلى مدينة تقع شمالا ولكنه يتحرك باتجاه الجنوب، فإنه مهما حاول أن يكون تحركه دقيقا ومدروسا فلن يصل إلى هدفه المنشود، وفكر الكفار خاطئ لأنهم يكفرون بالنقطة المحورية في الخليقة وهي الإيمان بالله عز وجل.

[٢٦] فالجانب الأول من خطتهم أن يفصلوا الناس عن الحركة الرسالية من خلال الإرهاب والضغوط، أما الجانب الثاني منها الذي يستهدف القضاء على التحرك الايماني النهضوي في المجتمع فهو القضاء على النبي موسى عليه السلام محور الحركة وقائدها ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ ومن كلمة فرعون ﴿ذَرُونِي﴾ يتضح أن خلافا تفشى في بيته حول تحديد الموقف المناسب من النبي موسى عليه السلام، ولعله كان من رأي جماعة منهم ضرورة الاستماع إلى دعوته ومقارعة الحجة بالحجة، وكان هذا الرأي يمنع فرعون من قتله، وحيث

يعلم هو بخطئه وقصوره عن مواجهة موسى ورسالته بهذا الأسلوب حاول تجاوز هذا الرأي وإقناع أصحابه بقبول خطته القاضية بتصفية موسى عليه السلام تصفية جسدية، وطالما يتكرر بصورة مستمرة في الحركات الرسالية الناهضة أن مفجرها يثير الخلاف في صفوف الطواغيت وقراراتهم تجاه هذه الحركات. ولأن فرعون تبنّى قرار التصفية الجسدية أراد إقناع المخالفين له بصحة رأيه، وذلك بتبرير أن موسى عليه السلام لم يكتف بقوة المنطق وحسب وإنما تسلح أيضا بمنطق القوة. إذن مواجهته بهذا الأسلوب أمر موضوعي في رأي الطاغوت.

﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ الذي تحدانا به كثيرا، وهذا منطق كل الطغاة، إنه لو كان المؤمنون الرساليون على الحق إذن لكانوا أقوياء و لانتصروا لأنفسهم فعلا! إلا أن خلط القوة بالحق، وجعل القوة الظاهرية الآنية مقياسا لمعرفة الحق من الباطل خطأ كبير يقع فيه الطغاة، لأن الحق قانون لا يتحدد بالقوة والإرهاب، فقد يكون الحق ضعيفا لعوامل خارجة عن إرادة أصحابه، وقد يكون الباطل قويا ولكن هذا لا يجعل الباطل حقا والحق باطلا أبدا، وفيما يلي من الآيات نجد المزيد من البيان في خطأ هذه الفكرة التي يعتمدها الطغاة في تضليل الناس لأن هذه الفكرة من الأسس التي تقوم عليها الأنظمة الفاسدة وتعطي لنفسها -لذلك- حق ممارسة الإرهاب والقمع، وتبريره بشتى الحجج، فهذا فرعون يحاول تبرير قراره الإرهابي وتهيئة المعارضين له لقبوله، بقوله: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أي أفكاركم وثقافتكم، وكل أفكار يلتزم بها الناس فهي دينهم، وتبدل ثقافة الناس من ثقافة التخلف والقبول بالطاغوت إلى ثقافة رسالية حضارية من أشد الأمور خطورة على الطواغيت، فهم يخافون من حدوث ذلك كما صرح فرعون بنفسه. أوليس النظام الطاغوتي هو إفراز لثقافة المجتمع وبقاؤه يعتمد على سكوته؟ إذن فأي تغيير إيجابي في هذه الثقافة، يعني تعريض النظام الحاكم للتغيير أيضا.

وحيث أحس فرعون بخطورة الحركة الرسالية سعى بالإضافة إلى ضغطه على تيارها الاجتماعي ومؤيديها لفصلهم عنها، وقراره بقتل قائدها، سعى إلى إثارة الناس ضدها عن طريق الإيحاء لهم بأنها تحارب دينهم وما التزموا به هم وآباؤهم، هذا فيما إذا سكت فرعون، أما إذا لم يبادر إلى القضاء على موسى عاجلا فسيستفحل أمره وتكون المواجهة حتمية لاختلاف النهجين في المستقبل وحينها سوف تقع الفتنة بين الناس، و تسبب في قتل الناس وتدمير اقتصادهم، ويحتمل أن فرعون يصف مشروع التحرر الذي تتضمنه رسالة موسى عليه السلام بالفساد من حيث إنها تهدم ثقافتهم وأنظمتهم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي حقيقتها الظلم والاستغلال للمستضعفين. وهكذا صور فرعون لقومه وقال: ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ وهاتان التهمتان هما في عرف السياسيين اليوم أخطر ما يمكن توجيهه للمعارضة وخاصة في البلاد المحكومة بأنظمة استبدادية جائرة، والقرآن يختصر بهذه العبارات الموجزة

موقف الطغاة من الحركات التغييرية في كل مكان وزمان.

[٢٧] أما موسى عليه السلام فهو في الوقت الذي تحدى هذا الغرور والعنجهية الفرعونية، لم يعتمد على ذاته، ولا على منطق القوة، إنما اعتمد وكسائر الأنبياء والربانيين على قوة ربه وقوة الحق الذي يؤمن به ويجاهد من أجله. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ والتكبر والكفر بيوم الحساب، هاتان الصفتان تنتهيان إلى شيء واحد، هو ضياع المقاييس عند الإنسان، فإذا به يعتقد بأن ما تشتهيه نفسه هو الحق، فبتكبره لا يخضع للحق، وبكفره بالجزاء لا يتحسس المسؤولية. ولمقاومة شر هذا النوع من الرجال لا بد من الاستعاذة بالله:

أولاً: للاستقامة أمام إغرائهم وإرهابهم.

ثانياً: للاستلهام من الوحي سبل مقاومتهم.

[٢٨] وينعطف السياق القرآني ليكشف جانبا من الصراع الداخلي الذي يدور في صفوف الطاغوت، حيث الموقف الرسالي الحاسم لمؤمن آل فرعون من النظام الفاسد، الذي يكشف ظهوره في هذا الموقع من الصراع عن مدى تغلغل الحركة الرسالية في الأجهزة الفرعونية، كما يعكس محتوى الاستعاذة بالله وكيف أن ربنا ينصر رسله برجال ادخرهم لمثل ذلك. ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ ﴾ وهو حزقيل الذي بقي إيمانه طي الكتمان دهرا طويلا حسب بعض الأخبار، وإن دل هذا الأمر على شيء فإنما يدل على أن أساليب النضال ليست واحدة، بل ينبغي لكي مناضل أن يتحرك في جهاده من الخندق المناسب، وإذا كانت خنادق الجهاد تختلف -كما صوره- من شخص لآخر، ومن ظرف لآخر، فإن الهدف يبقى واحدا والمحتوى هو المحتوى، بينما يقتضي الأمر الإلهي أن يفجر موسى عليه السلام صراعا صريحا مع الطاغوت، ويتساقط أتباعه من بني إسرائيل كأوراق الخريف بعاصفة الإرهاب، نجد هذا المؤمن المجاهد يحتفظ بمركزه في بيت فرعون، ليقوم بدور أساسي في هدم نظامه.

فبينما كان الطاغوت جالسا يتباحث أمر موسى عليه السلام مع خاصته ليكيدوا به ويقتلوه، والكل يزعم بأن لا غريب بينهم، وإذا بالمؤمن ينهي فترة الصمت والكتمان ويستنكر عليهم قرارهم المنحرف: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ وهذا هو الحق والواقع. ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ثم إن دعوته لم تكن مجردة، إنما كانت مدعمة بالأدلة والبراهين التي تؤكد صدقها، وإنها ليست من عند موسى نفسه بل من رب الخلائق، ولعل هذا الحدث كان ذا أثر عميق على فرعون وقادة نظامه، أن ينهض من بينهم شخص يؤيد المعارضة وينتمي لها.

من هنا ينبغي لأولئك الذين يتوبون لله من أعوان الظلمة، أن يدركوا أهمية كتمانهم، فلا يظهرون قرارهم بالتوبة، وإنما يبعثون بشخص موثوق أو برسالة، أو يلتقون هم بأنفسهم القيادة الدينية الواعية، و يستطلعون رأيها، ويعرفون مسؤوليتهم والدور المناسب الذي يجب أن يمارسوه، كما فعل نعيم بن مسعود الأشجعي الذي جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «يا رسول الله إني قد أسلمت ولم يعلم بي أحد من قومي فمرني بأمرك، فقال له رسول الله ﷺ: «**إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ فَخَذِّلْ عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ** (يعني ثبِّط الأعداء وجبنهم) **فَإِنَّمَا الحَرْبُ خُدْعَةٌ**». فانطلق نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة فقال لهم: إني لكم صديق والله ما أنتم وقريش وغطفان من محمد بمنزلة واحدة إن البلد بلدكم وبه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم وإنما قريش وغطفان بلادهم غيرها وإنما جاءوا حتى نزلوا معكم فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن رأوا غير ذلك رجعوا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ولا طاقة لكم به فلا تقاتلوا حتى تأخذوا رهنا من أشرافهم تستوثقون به أن لا يبرحوا حتى يناجزوا محمدا. فقالوا له: قد أشرت برأي.

ثم ذهب فأتى أبا سفيان وأشراف قريش، فقال: يا معشر قريش إنكم قد عرفتم ودي إياكم وفراقي محمدا ودينه وإني قد جئتكم بنصيحة فاكتموا علي. فقالوا: نفعل ما أنت عندنا بمتهم. فقال: تعلمون أن بني قريظة قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد فبعثوا إليه أنه لا يرضيك عنا إلا أن نأخذ من القوم رهنا من أشرافهم وندفعهم إليك فتضرب أعناقهم ثم نكون معك عليهم حتى نخرجهم من بلادك. فقال: بلى، فإن بعثوا إليكم يسألونكم نفرا من رجالكم فلا تعطوهم رجلاً واحداً واحذروا.

ثم جاء غطفان فقال: يا معشر غطفان إني رجل منكم ثم قال لهم ما قال لقريش فلما أصبح أبو سفيان، وذلك يوم السبت في شوال سنة خمس من الهجرة بعث إليهم أبو سفيان عكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش، إن أبا سفيان يقول لكم: يا معشر اليهود إن الكراع والخف قد هلكتا وإنا لسنا بدار مقام فاخرجوا إلى محمد حتى نناجزه فبعثوا إليه أن اليوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئا ولسنا مع ذلك بالذي نقاتل معكم حتى تعطونا رهنا من رجالكم نستوثق بهم لا تذهبوا وتدعونا حتى نناجز محمدا. فقال أبو سفيان: قد حذرنا والله هذا نعيم فبعث إليهم أبو سفيان أنا لا نعطيكم رجلاً واحداً فإن شئتم أن تخرجوا وتقاتلوا وإن شئتم فاقعدوا. فقالت اليهود: هذا والله الذي قال لنا نعيم. فبعثوا إليهم: أنا والله لا نقاتل حتى تعطونا رهنا، وخذل الله بينهم وبعث سبحانه عليهم الريح في ليال شاتية باردة شديدة البرد حتى انصرفوا راجعين.

قال محمد بن كعب قال حذيفة اليماني: والله لقد رأينا يوم الخندق وبنا من الجهد والجوع والخوف ما لا يعلمه إلا الله وقام رسول الله ﷺ فصلى ما شاء الله من الليل ثم قال: «أَلاَ رَجُلٍ يَأْتِينَا بِخَبَرِ القَوْمِ يَجْعَلُهُ اللهُ رَفِيقِي فِي الجَنَّةِ». قال حذيفة: فو الله ما قام منا أحد مما بنا من الخوف والجهد والجوع. فلما لم يقم أحد دعاني فلم أجد بدا من إجابته، قلت: لبيك. قال ﷺ: «اذْهَبْ فَجِئْنِي بِخَبَرِ القَوْمِ وَلاَ تُحْدِثَنَّ شَيْئاً حَتَّى تَرْجِعَ».

قال: وأتيت القوم فإذا ريح الله وجنوده يفعل بهم ما يفعل ما يستمسك لهم بناء ولا يثبت لهم نار ولا يطمئن لهم قدر فإني لكذلك إذ خرج أبو سفيان من رحله ثم قال: يا معشر قريش لينظر أحدكم من جليسه!. قال حذيفة: فبدأت بالذي عن يميني، فقلت: من أنت؟. قال: أنا فلان. قال: ثم عاد أبو سفيان براحلته، فقال: يا معشر قريش والله ما أنتم بدار مقام هلك الخف والحافر وأخلفتنا بنو قريظة وهذه الريح لا يستمسك لنا معها شي ء ثم عجل فركب راحلته وإنها لمعقولة ما حل عقالها إلا بعد ما ركبها. قال: قلت في نفسي لو رميت عدو الله فقتلته كنت قد صنعت شيئاً فوترت قوسي ثم وضعت السهم في كبد القوس وأنا أريد أن أرميه فأقتله فذكرت قول رسول الله ﷺ: «... وَلاَ تُحْدِثَنَّ شَيْئاً حَتَّى تَرْجِعَ».

قال: فحططت القوس ثم رجعت إلى رسول الله ﷺ وهو يصلي فلما سمع حسي فرج بين رجليه فدخلت تحته وأرسل علي طائفة من مرطه (يعني الكساء، ولعل الرسول كان يريد أن يخفيه حتى عن المسلمين ليبقى مجهولا في تحركه) فركع وسجد ثم قال ﷺ: مَا الخَبَرُ؟. فأخبرته»[1].

من هذه الرواية التاريخية نعرف مدى أهمية التسلّح بالكتمان في بعض الظروف، والتغلّب على التوجه الشخصي لصالح الحركة الرسالية.

ولا ريب أن الدور الذي مارسه مؤمن آل فرعون (حزقيل) لم يكن بعيدا عن قرار القيادة الرسالية المتمثلة يومئذ في شخص موسى عليه السلام فقد بقي إيمانه طي الكتمان مدة طويلة، كان خلالها حذرا قوي المراوغة، فلم يفتضح أمره أبدا، وكان ثابت العقيدة، راسخ الإيمان، فلم تغيّر المناصب ولا المغريات من موقفه، وهو مع ذلك لم يَعُدُّ الكتمان هدفا في حركته، إنما عَدَّه وسيلة لهدف، لهذا فجر صراعه مع الطاغوت حيث كانت الظروف مناسبة للإعلان عن موقفه الواقعي، وذلك حينما دافع عن موسى عليه السلام وعارض الطغيان الذي مارسه فرعون ونظامه إلى حد رفض الآراء المعارضة ومواجهتها بالقتل والإرهاب، قائلا: بأن الموقف السليم تجاه

(١) مجمع البيان: ج٨ ص٤٤٧، بحار الأنوار: ج٢٠ ص٢٠٦.

آراء الآخرين ليس استخدام منطق القوة وإنما استماعها والإصغاء لصاحبها، فإن كانت خاطئة فليس ذلك مما يضر السلطة إذا كانت على الحق، وإن كانت صادقة وسليمة فيجب اتباعها والانتفاع بها، وإلا فإن العاقبة ستكون غير محمودة إذا رفض الإنسان الحق.

﴿وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ وهو الذي يتحمل مسؤولية رأيه وموقفه. ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ هكذا تساءل مؤمن آل فرعون: لماذا تقتلون موسى؟ فهو إن كان كاذبا لم نخسر نحن شيئا، وإن يكن صادقا فالأمر خطير بالنسبة لكم؟؟ وكان هذا السؤال كافيا لو انطلق منه فرعون وحاشيته أن يوصلهم إلى الحق، ولكن الشك المنهجي لا ينفع الذين حجبت شهواتهم عقولهم، وأرادوا الإسراف في اللذات ثم تبريرها بالأعذار و الأسباب الكاذبة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ فقلبه متجه إلى الشهوات كلية. ﴿كَذَّابٌ﴾ يستخدم لسانه في تبرير شهواته، والخلط بين الحق والباطل وهذه من أخطر المشاكل التي يبتلى بها الإنسان.

[٢٩] ويبين المؤمن السبب الذي جعل فرعون وقومه يكفرون بموسى عليه السلام وهو الخلط بين الحق والقوة، فقد زعموا بأن ما عندهم من قوة ظاهرة تغنيهم عن البحث الجاد من أجل الوصول إلى الحق والالتزام به. ﴿يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فأنتم أصحاب القوة المادية والسيطرة الاجتماعية، ولا أحد ينافسكم، ولكن هل تبقى هذه القوة وتستمر؟ ثم إذا حل غضب الله فهو لا يرد.

﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ وبالطبع سوف تكون الإجابة عن هذا السؤال بالنفي (لا أحد). إذن فما قيمة القوى التي لا تمنع عن أصحابها الأذى؟ وكل هذه الأسئلة والتي ستليها يجمعها سياق واحد هو: محاولة المؤمن من خلالها إثارة الشك المنهجي في النفوس وقيادتها للحق. ولعل المؤمن أفلح في إيجاد جبهتين في صف الحاكمين، مما دفع فرعون للتدخل من أجل حسم الخلاف وإنهائه لصالحه. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ قطع عليهم مسيرة الشك المنهجي والتفكير، قائلا: إنكم لا تحتاجون إلى التفكير، ولا أن تروا شيئا، فأنا أفكر وأرى لكم، ولا أرى إلا الحق ولا أهدي إلا إليه، فيجب عليكم أن تسلموا لي تسليما مطلقا، وهذا هو ديدن الطغاة في كل مكان وزمان، وبالذات في البلاد المحكومة بأنظمة استبدادية جائرة، التي يعتقد حكامها بأن إعلامهم و رأيهم وفكرهم وحده الذي يجب أن تؤمن به الجماهير، ومن هنا نهتدي إلى أن فرعون الذي حاربه موسى لم يكن سوى مظهر من مظاهر الطغيان عبر التاريخ.

[٣٠-٣١] وإذا كان كلام فرعون هذا قد أخضع ظاهرا من كان حوله، فإن المؤمن

بقي متصلبا في نصرته للحق، والتزامه ببصيرة الهدى، رغم تضليل الطاغوت، وهكذا ينبغي للمؤمنين في كل الأمكنة والعصور ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُم مِّثۡلَ يَوۡمِ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ وهم كل جماعة يتحزَّبون على أساس الهوى ضد الحق ومن يمثله، وكمثل لهذه الفئة يشير القرآن إشارة عابرة إلى طوائف منهم ذهبت قصصهم عبرا وأحدوثات في الأمم الغابرة. ﴿مِثۡلَ دَأۡبِ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ﴾ فهؤلاء وإن اختلفوا في تاريخهم وقصصهم وفي عاقبتهم إلا أنهم متشابهون في جحودهم الحق، إذ كذبوا الرسل وخالفوا رسالاتهم، وهذا الربط بين أحداث التاريخ ثم الاهتداء بها إلى سنة الله في الحياة يدل على عمق البصيرة والإيمان عند مؤمن آل فرعون. وبعد أن وجه هذا الداعية العقول إلى عبر التاريخ من خلال أحداثه المأساوية الفظيعة يؤكد على عدالة الله و أن ما يصير إليه البشر نتيجة تفكيرهم وسلوكهم لا نتيجة قدر إلهي ظالم، حاشا لله. ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعِبَادِ﴾ بل العباد هم الذين يظلمون أنفسهم حينما يخالفون الحق وسنن الحياة.

[٣٢-٣٣] ثم تابع تحذيره من يوم غضب الله ﴿وَيَٰقَوۡمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ يَوۡمَ ٱلتَّنَادِ﴾ حيث ينادي كل شخص بالآخرين لعلهم ينقذونه من العذاب. وكلمة ﴿أَخَافُ﴾ التي يقولها المؤمن دليل على شفقته ورأفته بالناس. ثم يبيّن واقع ذلك اليوم. ﴿يَوۡمَ تُوَلُّونَ مُدۡبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾ لأن ما يعصم البشر من عذاب الله ونقمته هو الإيمان والعمل الصالح، وليس عندكم من هذا شيء. ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ فالهداية مرتبة رفيعة لا يصل إليها كل إنسان، ومن يريد الهداية فإنها لا تحصل بالبحث عن الحق وتزكية النفس وحسب، إنها لا بد من التوسل بالله ودعائه، لأن الهدى الحقيقي لا يكون إلا من عنده وبإرادته، و الدليل على ذلك أنه تعالى حينما يضل أحدا بأن يسلبه توفيق الهداية فلا سبيل بعدها لهدايته.

وما كيد فرعون إلا في تباب

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ[1] ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

هدى من الآيات:

يشكل نموذج فرعون في حكم مصر المحور المناقض ليوسف عليه السلام الذي حكم تلك الديار أيضا، وحينما لا يريد الإنسان أن يؤمن فسوف يجادل في آيات الله سواء هبطت على يوسف عليه السلام الملك المقتدر، الذي جمعت فيه الصفات الحسنة المادية والمعنوية، أو أنزلت على موسى عليه السلام الراعي

(١) تباب: هلاك وخسارة، من تبّ بمعنى هلك وخسر.

الفقير والمنتمي إلى طائفة مستضعفة مظلومة. ونموذج فرعون يناقض كلتا الرسالتين، لأن مقياس الإيمان أو الكفر هو القلب فتارة يكون خاشعا يسلّم للحق ولمن يجسده في المجتمع، وتارة يكون متكبرا يكفر بكل ذلك، مهما كان الشخص الذي يمثل الحق، و مهما كانت الآيات بيّنة واضحة.

ويذكر ربنا في هذا الدرس بهذه الحقيقة، فبينما نجد شخصا كمؤمن آل فرعون يكتم إيمانه مزروعا في قلب النظام الطاغوتي، ومحاطا بكل إرهاب فرعون وإغرائه وتضليله، نجد شخصا آخر يعيش في كنف يوسف عليه السلام، حيث الملك والرخاء والهداية، ولكنه يكفر في قلبه بالحق، ولا يؤمن إيمانا حقيقيا بيوسف وبربه.

بينات من الآيات:

[٣٤] يوسف عليه السلام هو أحد الأبناء الاثني عشر ليعقوب عليه السلام الذي يسمى بالعبرية إسرائيل أي عبد الله، ومن صُلْبِ هؤلاء الأخوة انسل بنو إسرائيل في اثني عشر سبطا وقبيلة، ويوسف كان أحد آبائهم الكبار. وقد بُعِثَ يوسف عليه السلام بالرسالة وأصبح ملكا مقتدرا يخضع له أهل مصر، فقد جمعت عنده الكمالات المادية بالملك والسيطرة، والمعنوية بالرسالة، وبالرغم من ذلك كفر به البعض، ولكنهم قالوا في أنفسهم: لا نظهر هذا الكفر بل ننتظر حتى يموت يوسف فنسيطر بعده على الحكم والملك. ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ﴾ أي قبل موسى عليه السلام ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ لأن قلوبكم لا تريد الإيمان، وإلا فالأدلة واضحة. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ مع أنه عليه السلام جاءهم بالخير والفضل، ولا يدل موقفهم إلا على الضلال الذي كتب عليهم بسبب إسرافهم وترددهم في الريب. و الآية توحي بأن شعب مصر أسلم ظاهرا على يد يوسف إلا أنه كان يحبذ العودة إلى ضلالته، لأنه كان فاسدا بالإسراف والارتياب، وسرعان ما عاد إلى كفره بعد هلاك يوسف، وكأنه قد استراح بموت يوسف.. وهناك أحاديث تدل على إسلام الشعب المصري على يده.

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ وهنا تكشف الآية عن سبب موقفهم المنحرف من الحق، وهو إسرافهم من الناحية العملية، فلا يقنعون بما عندهم من الخير والنعمة، وارتيابهم من الناحية النظرية والنفسية، فلا يسلمون للحق والبينات. والاسراف وهو وصف لاحق فرعون في أكثر من موضع في آيات القرآن، وهنا في هذه السورة. إذ الإسراف يخلق شدة ارتباط بين الإنسان وبين الشهوات وتشتد معه حالة الرفض والتكذيب لما يعاكس تيار الشهوات، فتختل مقاييس التفكير السوي، ويتولد الارتياب في الآخرين سواء لمخالفتهم تيار الشهوات حين يتعلل المسرفون بتبريرات ثقافية تزين لهم باطلهم، أو لأن النفسية المنغمسة

في الشهوات تظن أن الآخرين مثلها ينازعونها على الشهوات. وإذا أمعنا النظر لوجدنا كلتا الصفتين «الاسراف، الارتياب» تنتهيان إلى صفة واحدة هي عدم التسليم للحق، وعدم الاكتفاء بما أعطاهم الله، و طلب المزيد، المزيد من النعم إلى حد الإسراف، والمزيد من الأدلة إلى حد الجدل في الآيات الواضحات. وتدل هذه الآية على أنه كانت ليوسف رسالة إلى قوم مصر، وقد وفَّر الله لهم فرصة الهداية بهذه الصورة الفريدة حيث جعل مليكهم الحبيب رسولا إليهم لعلهم يهتدون. ولعل الحكمة في ذلك كانت شدة تعلق الشعب المصري ذات الحضارة النهرية بالسلطة السياسية مما حدا بموسى عليه السلام أيضا إلى التوجه إلى شخص فرعون الحاكم الأعلى لبلادهم.

[٣٥] ونسأل: من هم المرتابون؟ ويجيب القرآن: الذين يجادلون في آيات الله، ويحاولون تحريفها من دون أدنى حجة، والحال أن الذي يخالف فكرة ما لا بد أن يأتي بأخرى مثلها أو أفضل منها. ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ ﴾ وتشمل الآية- كما يبدو- الذين يحرفون آيات الله، ويتصرفون فيها بغير تفويض من الله، فهم يضعون أنفسهم مواضع الحكم بلا سلطان من الله. ﴿كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ ﴾ فالله يمقتهم فيذلهم في الدنيا ويضل أعمالهم ولا يدعهم يفلحون أبدا. أما الذين آمنوا فيمقتونهم فلا ينخدعون بهم ولا يسلمون لقيادتهم. وهاتان عاقبتان سيئتان لهم. أما العاقبة السوأى فهي سلب فرصة الهداية عنهم إلى الأبد، وذلك بإطفاء شعلة الهدى من قلوبهم.

﴿ كَذَٰلِكَ يَطۡبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾ والجبار هو الذي يسعى لقهر الآخرين والتسلط عليهم، وهي من نزعات القيادات والحكام الظلمة. أما المتكبر فهو الذي لا يتواضع للحق، ولا يقتنع بواقعه، إنما يتصور نفسه دائما أكبر من حجمه الحقيقي، وَمَنْ هذه صفته فإن قلبه يصير منغلقا فيختم الله عليه بسلب نور العقل والفطرة منه. والتعبير القرآني دقيق جدا حينما قال: ﴿كُلِّ قَلۡبِ مُتَكَبِّرٖ جَبَّارٖ﴾، ومع أن بعضا من المفسرين قالوا بأنه يساوي قولنا: قلب كل متكبر جبار، إلا أنه يبدو أن السياق القرآني أراد بيان حقيقة مهمة هي: إن الطبع على القلب تختلف نسبته باختلاف الصفات السلبية عند الإنسان، فقد يطبع الله بنسبة خمسين بالمئة على قلب الزاني أو السارق، أما المتكبر الجبار فإنه يطبع على قلبه كله أي مئة بالمائة، وهذا يكفي لبيان الخلفيات السيئة جدا لهاتين الصفتين.

[٣٦-٣٧] ولأن بني إسرائيل والشعب المصري لم يؤمنا إيمانا حقيقيا في ظل يوسف الملك النبي فقد ابتلاهم الله بفرعون يحكم من الأريكة ذاتها، وشتان بين الاثنين، وحقا إنها عاقبة الكفر بالنعمة.

ويوجهنا السياق هنا إلى النهايات السيئة لهذا التحول، لعلنا ننتبه إلى أن الكفر برسالات

الله، والإسراف والارتياب والتكبر والتجبر، وبالتالي التملص من مسؤوليات النظام العادل والحاكم العادل -كيوسف عليه السلام- قد لا تظهر عاقبته في البدء ولكنها عند الختام، حيث يكون مصير المجتمع ما انتهى إليه أهل مصر، إذ ابتلوا بحاكم مثل فرعون. وهكذا علينا ألا تخدعنا المظاهر الخلابة لحضارة الشهوات بل ندرسها من خلال نهاياتها المأساوية، وما قيمة بدء الغرور مع عاقبة السوء. ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ بعد أن فشل فرعون في إقناع من حوله بضرورة قتل موسى عليه السلام، مما أثبت ضعف حجته، حاول الاعتماد على القوة المادية لفرض سيطرته على الجماهير، وهذه مرحلة من المراحل التي تمر بها الحضارات، فهي تبدأ بالقيم قوية حيوية، وتبلغ المظاهر المادية قبل أن تصل نهايتها إما بالدمار الشامل أو حالة العبثية المطلقة والانطواء التام. وهكذا نظام فرعون حينما تبين لهم خواؤه المعنوي وفراغه العلمي، توجه إلى البنايات الضخمة، حيث بنى صرحا عظيما حاول الوصول به إلى إله موسى، وهذا مؤشر واضح على نظرته الشيئية للحياة، وسعيه لتحدي القيم المعنوية بالمظاهر المادية.

إنه سعى نحو مواجهة إله موسى عز وجل، وتحدِّيه سبحانه بما لديه من إمكانات محدودة، كما فعل نمرود حين أمر بإعدام سجين وإطلاق الآخر، وقال لإبراهيم متحديا رب العزة: أنا أحيي وأميت، وهكذا يفعل الطغاة في كل عصر. إنهم يقومون-أمام كل حركة تحررية- باستعراض قوتهم لفرض الهيبة التي تكاد تسقط أمام عاصفة النهضة. وقد يكون فرعون هو الذي بنى بعض أهرامات مصر حسبما توحي به هذه الآية الكريمة، التي كان يسعى من خلالها لتضليل الناس وبلوغ أعلى مكان في نظره وهي أسباب السماوات.

وربما كان التضليل الفرعوني للناس هنا كان يتمحور في اتجاهين: **الأول** إشغال الناس عن التفكير بحقيقة الرسالة بصرفهم إلى الانشغال والتفكير بالصرح المادي الضخم، **والآخر** توجيه التفكير إلى منهجية خاطئة لا توصل إلى الحق: ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ وهذا ديدن الطغاة كفرعون. إنهم يستصدرون الأحكام في مختلف القضايا بعيدا عن المنهجية السليمة حيث يعلم فرعون بأن الإله الحق الذي يدعو إليه موسى عليه السلام لا يدرك بالمقاييس المادية، ولكنه أخذ يستخدم منهجا ماديا بحتا للتعرف إلى الله-سبحانه وتعالى- والنتيجة التي سيصل إليها حتى إذا قدر أنه بلغ السماوات العلى خاطئة، وعلى ضوء هذا المنهج سيكون موسى كاذبا.

ومن المعروف أن فرعون كان يُسخِّر المستضعفين لبناء الصرح سخرة وبلا أجور، وكان الكثير من هؤلاء التعساء الذين كان يحشرهم من مختلف أنحاء مصر يموتون تحت ضغط الكدح، وسوء التغذية، و انتشار الأمراض، و كان قد خصص إلى جنب أهرامات مصر أراضي

واسعة لاستقبال جثث هؤلاء المساكين مما أثار هذا العمل بذاته غضب الجماهير، وهيأ أرضية التحول عند شعب مصر. ﴿وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ بسبب تراكم العادات والممارسات السيئة على قلبه المتكبر الجبار، فكان يرى الباطل حقا والعكس، إلى هذا المستوى الهابط من الاعتقاد، حيث زعم أنه يتحدى بقوته المحدودة إرادة الله. ألم ير الجبال كيف أرساها الرب، وأنه إذا صعد عليها رجل لا يرى السماء إلا بمثل ما يراها على الأرض؟! أولم يعلم أن عاصفة واحدة تكفي لاقتلاع مظاهر قوته في لحظة؟! وقد جاء في الحديث: «فَبَنَى هَامَانُ لَهُ فِي الهَوَاءِ صَرْحاً حَتَّى بَلَغَ مَكَاناً فِي الهَوَاءِ لَمْ يَقْدِرِ الإِنْسَانُ أَنْ يَقُومَ عَلَيْهِ مِنَ الرِّيَاحِ القَائِمَةِ فِي الهَوَاءِ فَقَالَ لِفِرْعَوْنَ: لَا نَقْدِرُ أَنْ نَزِيدَ عَلَى هَذَا وَبَعَثَ اللهُ رِيَاحاً فَرَمَتْ بِهِ»(١).

ومن جملة الآثار النفسية التي يخلفها العناد والإصرار على ممارسة السيئة الصد عن سبيل الله. ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو القيادة الرسالية التي تمثل رسالة الله، والتي تهدي البشر إلى ربه الرحيم، وهل يخضع المتكبر إلى الحق، أو هل يرتضي الجبار العدل؟ كلا.. إذن فهو سوف يتبع الباطل في الحياة، وحيث رفض السبيل إلى الله (القيادة الرسالية) فسوف يحاربها ويكيد لها. ولكن سنة الله وإرادته فوق محاولات فرعون الفاشلة لإطفاء نوره عز وجل. ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ﴾ أي يحوطه الفشل والخسران من كل جانب.

[٣٨] وهنا يبرز على مسرح الأحداث مرة أخرى مؤمن آل فرعون الذي كتم إيمانه ثم تحدى به فرعون في اللحظة المناسبة فحاز على فضيلة الكتمان وفضيلة التحدي معا، وهي كلمة الحق عند السلطان الجائر. ونحن إذا تعمقنا في قصة هذا المؤمن من خلال القرآن الحكيم، نعرف حينها المعنى الحقيقي للتقية في الإسلام، و يجب أن نبلور هذا المفهوم لأن التقاة تحولت لدى الكثير إلى تبرير للتقاعس والنكوص عن الجهاد، بينما التقية (التقاة) في مفهوم الرسالة هي العمل والجهاد المركز والمستمر بعيدا عن أعين الطغاة حتى تحين لحظة التحدي الكبير. وهل يحتاج إلى الكتمان إلا من يجاهد الطغاة؟!

إن البعض يجعل كلمة التقية بديلا عن العمل والتحرك في ظروف القمع والإرهاب، ولكنه لا يتحرك حتى في الظروف المناسبة، ومثال ذلك اولئك الذين يرفضون التجاوب مع الحركات الرسالية ويبرّرون ذلك بوجود الإرهاب، ولكنهم يرفضون الجهاد حتى في المهجر حيث يعيشون حالة الأمان. إن (التقاة) حقا هي أن تحافظ على نفسك وتحركك الجهادي بعيدا عن سطوة الظالم في ظل الإرهاب، لتحتفظ بقوتك ليوم الصراع. وهكذا كان مؤمن آل فرعون (حزقيل) يكتم إيمانه، ويتحرك في ظل توجيهات القيادة الرسالية، منتظرا الساعة

(١) بحار الأنوار: ج١٣ ص١٢٥.

المناسبة لتفجير الصراع مع الطاغوت، وها قد حل أوانها حيث جمع فرعون وزراءه وأنصاره وقوات جيشه وسحرته ليقرروا قتل موسى عليه السلام، فاستبسل من بينهم وتحدى الظلم والظالمين ليضرب لنا مثلا صادقا عن التقية التي يرتضيها الله تعالى، وهي النابعة من الإيمان والإرادة والتخطيط والعمل، وليست الناتجة عن خور العزيمة وخوف الإنسان وحبه للراحة. فهي إذن تمهيد للتحدي، وجمع للقوى، لتفجير الصراع في وقته المناسب.

وهكذا استطاع مؤمن آل فرعون تعويق مؤامرات فرعون التي استهدفت قتل موسى عليه السلام، وبذلك وفي ربنا عهده لرسوله الأمين بنصره وتأييده. ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ فهو من جهة تحدى فرعون، ومن جهة أخرى طالب مَنْ حوله باتّباعه وحمّلهم مسؤولية الثقة برسالته والطموح إلى تغيير حكومة فرعون، وهكذا ينبغي للرساليين أن يثقوا برسالتهم في الحياة، وأن يطرحوا أنفسهم قادة للناس بديلا عن القيادات الفاسدة دون استحياء أو وجل.

[٣٩] وحيث شخص المؤمن جذر الانحراف ونقطة الضعف التي تدعوهم للالتفاف حول فرعون واتباعه، وهي المادية التي تتجسد في اللهث وراء حطام الدنيا، ذكرهم بالآخرة التي تتميز عن الدنيا بنوعية نعيمها الأفضل، بينما الدنيا بما فيها تشبه المتاع الذي يأخذه المسافر معه وهو قليل ومحدود، كما أكد على مفارقة أخرى مهمة هي: أن نعيم الآخرة دائم لا ينتهي حيث يلغى فيها حساب الزمن، بينما الدنيا محدودة جدا. ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴾ وهل يختار العاقل تلك على هذه؟!! كلا..

[٤٠] ويمضي المؤمن في بيان معالم ثقافته الرسالية رغبة منه في إنقاذ الناس من ضلالات الطاغوت، قائلا: ﴿ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ ﴾ عدالة ورحمة من الله بعباده، ولعله أراد من ذلك فضح سياسة فرعون القائمة على الظلم والجور. ﴿وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ ﴾ فالمقياس عند الله هو العمل، أما التمايزات المادية والظاهرية -التي تقرها الأنظمة البشرية الفاسدة- فلا معنى لها أبدا. بلى، هناك أمر واحد يرتكز عليه العمل فلا يقبل إلا به وهو الإيمان. والذين يتوفر لديهم هذان الشرطان (العمل الإيمان) هم الذين يدخلون الجنة. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ إن مشكلة الكثير من الذين يرفضون الإيمان بالحق والعمل به هو أنهم ينظرون له من خلال البلاء والمعاناة التي يستتبعها الإيمان به، وليس من علاج لهذه المشكلة أفضل من التوجيه إلى نعيم الآخرة الذي هو ثمرة الإيمان والعمل. وحيث ركز المؤمن حديثه مع أتباع فرعون الغارقين في المادة أراد علاج هذه المشكلة، فهم يتساءلون: نحن الآن نترك فرعون ونخسر هذا النعيم فماذا نجد باتباع الحق؟.

و أفوض أمري إلى الله

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ (٤١) تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ (٤٢) لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ (٤٣) فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ (٤٤) فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ (٤٥) ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ (٤٦) وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ (٤٧) قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ (٤٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ (٤٩) قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ (٥٠)﴾

هدى من الآيات:

كما البرق الخاطف في جو مدلهمّ في ليل داج، شعّت كلمات المؤمن في بيت فرعون، وهم يتآمرون على حياة صاحب الرسالة موسى بن عمران عليه السلام.

لقد قال لهم: إنني أدعوكم لنجاة أنفسكم من النار التي تحيط بكم، بينما أنتم تدعونني لألتحق بكم في سواء اللهب. بلى، إن الكفر بالله والشرك به (كاتباع سلطة غير شرعية) إن ذلك بذاته النار التي هم فيها، أما هو فإن دعوته إلى النجاة منها بالإيمان بالله العزيز الغفار.

أنتم تدعونني إلى الشركاء الذين لا ينبغي أن يدعو أحد إليهم، لأنهم تافهون حقراء، بينما أنا أدعوكم إلى من إليه مصيرنا جميعا، وأنتم تدعونني إلى الإسراف الذي لا ريب ينتهي بصاحبه إلى النار، بينما أدعوكم إلى التقوى.

وتحدَّاهم حين لم يستجيبوا له- بأنه ينتظر وإياهم عاقبة الأمر حين يستذكرون إنذاره، أما هو فقد فوض أمره إلى الله الذي وقاه سيئات ما مكروا، بينما أحاط بآل فرعون سوء العذاب، ففي عالم البرزخ يعرضون على النار صباحا ومساءً، وإذا قامت الساعة يذوقون في جهنم أشد العذاب.

هنالك حيث لا ينفع الضعفاء تبريرهم بأنهم إنما اتبعوا كبراءهم فلذلك لا بد أن يتحملوا عنهم نصيبا من العذاب، كلا، كل من الضعفاء والمستكبرين في النار بحكم الله الذي لا ينقض حكمه أحد.

بينات من الآيات:

[٤١] لا يطيب الموت في فم أحد إلا أن المترفين أشدُّ هيبة منه، لأنهم أحرص على حياة الدنيا، وأعمق اغترارا بزخارفها، ولا بد أن يضرب الدعاة إلى الله على هذا الوتر الحساس في أفئدة المترفين، ويذكروهم بالموت وما بعده من الجزاء الشديد، وكفى به موعظة لمن يريد هدى وخلاصا. وهكذا فعل مؤمن آل فرعون حين ذكرهم بعاقبة الدعوتين، دعوة الحق ودعوة الباطل. ﴿ ۞ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴾ إنهم الآن في النار وقد أحاطت بهم من كل صوب، السياسة طغيان، والاقتصاد ترف، والتربية انحراف، والإعلام ضلالة، فهم يتقلبون في سرادقات الجحيم، وإنما يدعوهم المؤمن للنجاة، بما تحتاجه من همة و سعي واجتهاد، ولكنهم يدعونه إلى التوغل في النار. والآية تشملنا أيضا، فباستثناء المتقين يعيش الناس في سواء النار، ما دامت الشهوات تقودهم، والفساد يحيط بهم، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿ وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتۡمٗا مَّقۡضِيّٗا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ﴾ [مريم: ٧١-٧٢].

و نتساءل: كيف نحن جميعا في النار إلا المتقين؟.

أرأيت جرثومة السل في المجهر؟ أو سمعت بفيروس الجذام؟ إنهما في الواقع يمثلان المرض ذاته الذي تظهر أعراضه على المسلول والمجذوم، ولكن الخبير وحده يعرف ذلك، أما الجاهل فتراه يستنكر أن تكون هذه الجرثومة وذلك الفيروس هو المرض ذاته.. كذلك خبير المتفجرات يعرف مدى قوة النار الكامنة في كيلوغرام من مادة متفجرة حارقة، أما الجاهل فلعله يحسبها ترابا، كذلك المؤمنون الواعون يعرفون أن مال اليتيم هو ذاته اللهب إذا أكله الغاصب، وأن الكذب رائحته نتنة تخرج من فم صاحبها وتنتظره على باب جهنم، وأن الظلم اليوم ذاته ظلمات في القيامة، وهكذا..

[٤٢] والنار التي يدعو المؤمن للنجاة منها هي الكفر بالله الذي يتمثل بالشرك به. فما هو الشرك؟ إنه الخضوع لأحد من دون أن يأذن الله وينزل عليه سلطانا مبينا. ﴿تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ﴾ لعل قوم فرعون كانوا جاحدين بالله رأسا، أو كانوا مشركين وشركهم دعاهم إلى الكفر، لذلك قال لهم مؤمنهم: ﴿وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ونستوحي من هذه الآية -كما من آيات- أخرى أن مجرد التسليم لما لا يعلم الإنسان يقينا أن الله أمره به شرك. وقد خلق الله الإنسان عبدا له لا لغيره، ولم يأذن له بأن يتنازل عن حريته لأحد أبدا، بل فرض عليه مقاومة من يريد سلب حريته والاعتداء على حرمة استقلاله، وعَدَّ مجرد التسليم للطاغية شركا، وإن الشرك لظلم عظيم. أما دعوة الحق فهي إلى الله: ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ فبعزته يهيمن علينا ويفرض سلطانه، وبمغفرته يقبل التوبة عن عباده المسرفين، الذين طالما سكتوا عن جرائم الطاغوت، وغدوا يأكلون رزق الله ويعبدون عدوه، كما قبل توبة السحرة.

[٤٣] لا ريب أن البشر -أنّى سخر القوى المادية- يحيط به الضعف من كل جهة، فهو محكوم بسنن الله، وإنما يسعى للطغيان لعله يخفف عن ضعفه، لعله يمنع عن نفسه المرض والشيخوخة والموت، فهو أضعف من أن يمنح الآخرين قوة.. وهكذا فهو ليس جديرا بالدعوة إليه. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ إنها مجرد خرافات وأوهام وأماني وغرور. وتفسير كلمة ﴿لَا جَرَمَ﴾ حرفيا: لا قطع، وتعني أنه لا أحد قادر على قطع هذا الكلام أو نقضه، فهو كلام حق، وقد استخدمها مؤمن آل فرعون لمزيد من الثقة بهذه الحقيقة، ولتحدى حالة الخوف والرغبة عند أنصار فرعون الذين فقدوا كل استقلالهم وثقتهم بأنفسهم أمام طغيان فرعون.. وإن كانوا يتفكرون قليلا لعرفوا أن فرعون أضعف من أن يفرض عليهم سلطانه، إن لم يكن أقل منهم قوة فلا ريب أنه كواحد منهم، وإنما يستمد قوته من ضعفهم، و هيبته من ذلهم، ولو أنهم عرفوا قيمة أنفسهم حقا لوجدوه تافها حقيرا، وأنه- بالتالي- ليس له دعوة، ولا فرق بينه وبين صخرة صماء أو بقرة عجماء أو شجرة مسوسة. أرأيت هؤلاء الذين يعبدون صنما أو بقرا أو شجرة هل يعطيهم ما يعبدونه شيئا أم

هم الذين يضفون عليه قداسة ويعطونه القوة على حسابهم؟.

أما الله الذي يدعو إليه المؤمن فإليه مصير الجميع، فهو خير من دُعِيَ وأكرم ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ثم ذكرهم بالحقيقة الفطرية التي أودعت ضمير كل إنسان، تلك هي أن الله الذي خلق كل شيء وقدره تقديرا حكيما، وانبثت آيات عدله وحكمته في كل صغيرة وكبيرة لا يستقبل بترحاب المسرفين الذين تجاوزوا حدودهم، واعتدوا على حقوق الآخرين، إنما يودعهم سجنه الأليم النار وساءت مصيرا ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ لو أيقن الإنسان حقا أنه يُرَّد إلى الله، وأن الله هو الذي يحاسبه ويجازيه، لارتدع عن الجرائم، لأنه يعلم أن ربه بصير بعباده، وأنه لا يمكن خداعه أو اهرب منه، وأنه لا يظلم أحدا، فهو الحكم العدل العزيز الجبار. وهكذا نجد السياق يوصل المرد إلى الله بأن عاقبة المسرفين النار، وهي حقيقة فطرية لا جرم فيها ولا جدال.

[٤٤] إذا عرف المبتلى أن سبب آلامه سوء اختياره، وأنه كان يقدر أن يتقيها بحسن عمله، ازداد إحساسا بالألم. وهكذا ذكرهم داعية الحق بأنهم -في يوم الجزاء- سوف يذكرون ما قال لهم، ويعلمون صدقه، فيضاف إلى ألم أجسادهم عذاب روحي شديد. ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ أما هو فقد بلغ أقصى درجات اليقين، ففوض أمره إلى ربه، لذلك لا يحتمل قلبه الجدل في تلك الحقائق التي سردها. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فهو يعلم ما في صدور المفوضين أمورهم إليه من إخلاص ويقين، ولذلك فهو يأخذ بأيديهم. ولعل ختام الآية يهدينا إلى شرط التفويض، وهو أعلى درجات اليقين، وهو الإخلاص.

وهناك شروط أخرى للتفويض نجدها في الحديث المروي عن الإمام الصادق عليه السلام:
«المُفَوِّضُ أَمْرَهُ إِلَى اللهِ فِي رَاحَةِ الأَبَدِ وَالعَيْشِ الدَّائِمِ الرَّغَدِ وَالمُفَوِّضُ حَقّاً هُوَ العَالِي عَنْ كُلِّ هِمَّةٍ دُونَ اللهِ. كَقَوْلِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام نَظْماً:

رَضِيتُ بِمَا قَسَمَ اللهُ لِي	**وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَى خَالِقِي**
كَمَا أَحْسَنَ اللهُ فِيمَا مَضَى	**كَذَلِكَ يُحْسِنُ فِيمَا بَقِي**

وَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي المُؤْمِنِ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ وَالتَّفْوِيضُ خَمْسَةُ أَحْرُفٍ لِكُلِّ حَرْفٍ مِنْهَا حُكْمٌ فَمَنْ أَتَى بِأَحْكَامِهِ فَقَدْ أَتَى بِهِ التَّاءُ مِنْ تَرْكِ التَّدْبِيرِ وَالدُّنْيَا وَالفَاءُ مِنْ فَنَاءِ كُلِّ هِمَّةٍ غَيْرِ اللهِ وَالوَاوُ مِنْ وَفَاءِ العَهْدِ وَتَصْدِيقِ الوَعْدِ وَاليَاءُ مِنَ اليَأْسِ مِنْ نَفْسِكَ وَاليَقِينِ بِرَبِّكَ وَالضَّادُ مِنَ الضَّمِيرِ الصَّافِي للهِ وَالضَّرُورَةِ إِلَيْهِ وَالمُفَوِّضُ لَا يُصْبِحُ إِلَّا سَالِماً

مِنْ جَمِيعِ الآفَاتِ وَلَا يُمْسِي إِلَّا مُعَافىً بِدِينِهِ»[١].

[٤٥] وحين فوّض حزقيل أمره إلى الله، تولاه ربُّ العزة بأحسن وجه، فحفظه من مكر آل فرعون، بينما أحاط بهم سوء العذاب ﴿ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُواْ ﴾ جاء في بعض التفاسير أنه التحق بموسى عليه السلام وعبر البحر معه إلى بر الأمان، وقال البعض: إنه اعتصم ببعض الجبال وسخر الله الوحوش للدفاع عنه[٢].

وجاء في حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أن عاقبة أمر حزقيل كانت الشهادة، وأن الله سبحانه إنما وقى دينه عن مكر أولئك المفسدين.. قال: «وَاللهِ لَقَدْ قَطَعُوهُ إِرْباً إِرْباً وَلَكِنْ وَقَاهُ اللهُ أَنْ يَفْتِنُوهُ فِي دِينِهِ»[٣]. أجل، قد يختار ربنا هذه الخاتمة الحسنى لبعض الدعاة إليه حين يعرف أن ذلك صلاح لهم وللقضية فيتقبلها هؤلاء بكل رحابة صدر:

أولاً: لأنها غاية مناهم.

ثانياً: لأنها تحقق أهدافهم التي أخلصوا لها، فإذا كان تحقيق الأهداف لايمكن إلا عبر الشهادة فأهلاً بها ومرحبا ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ لقد حق عليهم العذاب السيئ لأنهم ما استجابوا للنذير.

[٤٦] ما هو سوء العذاب الذي حاق بآل فرعون؟ كلنا يعلم أنهم أغرقوا في اليم، وأورث الله بني إسرائيل ديارهم وأموالهم، ولكن السياق هنا يتجاوز ذلك إلى عذاب آخر أشد من الغرق.. لماذا؟.

إن الإنسان يعرف جانبا من أهوال الغرق، وبخاصة إذا شمل مئات الألوف من الناس، كما جرى لآل فرعون. ولكن السياق يذكرنا بأن هذه الأهوال بسيطة إذا قيست بعذاب الآخرة. أوليس الموت مكتوبا على كل نفس؟ وأنى كانت أسبابه فإن مرارته في لحظات. أما النار التي أنذر بها الوحي فهي خالدة. أما في البرزخ فإنها: ﴿ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ﴾ ونستوحي من الآية أن أرواح الكفار تؤخذ كل يوم مرتين إلى النار: أول النهار وآخره، ولعل مجرد زيارة النار تُعَدُّ عذابا سيئا، إذ إنهم يمسهم هيبها، ويردعون بألوان العذاب فيها. أو أنهم يدخلون سواء النار ليعذبوا فيها مباشرة.

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٨ ص١٤٩.
(٢) مجمع البيان: ج٨، ص٦٧٦.
(٣) تفسير القمي: ج٢ ص٢٥٨، بحار الأنوار: ج١٣ ص١٦٢.

وفي رواية أنه قال: رَجُلٌ لِأَبِي عَبْدِالله عليه السلام مَاتَقُولُ فِي قَوْلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ ٱلنَّارُ يُعۡرَضُونَ عَلَيۡهَا غُدُوّٗا وَعَشِيّٗا ﴾ فَقَالَ أَبو عَبْدِالله عليه السلام: مَا يَقُولُ النَّاسُ فِيهَا؟ فَقَالَ: يَقُولُونَ: إِنَّهَا فِي نَارِ الخُلْدِ وَهُمْ لَايُعَذَّبُونَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ، فَقَالَ عليه السلام: فَهُمْ مِنَ السُّعَدَاءِ. فَقِيلَ لَهُ جُعِلْتُ فِدَاكَ فَكَيْفَ هَذَا؟. فَقَالَ عليه السلام: إِنَّمَا هَذَا فِي الدُّنْيَا فَأَمَّا فِي نَارِ الخُلْدِ فَهُوَ قَوْلُه: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾»[1]. وحسب هذا التفسير فإن أرواح الكفار تعذب في البرزخ بعذاب أخف من عذاب الآخرة، ولذلك روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه سئل عن أرواح المشركين؟ فقال: «فِي النَّارِ يُعَذَّبُونَ يَقُولُونَ رَبَّنَا لَا تُقِمْ لَنَا السَّاعَةَ وَلَا تُنْجِزْ لَنَا مَا وَعَدْتَنَا وَلَا تُلْحِقْ آخِرَنَا بِأَوَّلِنَا»[2] ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدۡخِلُوٓاْ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ أَشَدَّ ٱلۡعَذَابِ ﴾.

[٤٧] ويبقى السؤال، لماذا أدخل الله كل آل فرعون أشد العذاب، بينما المجرم الأصلي هو فرعون وجنوده؟

الجواب: إن الضعفاء منهم خضعوا لفرعون، ورضوا به، فشاركوه الجزاء الشديد، ولم ينفعهم تبريرهم بأنهم كانوا أتباعا لفرعون زاعمين أن فرعون والمستكبرين يتحملون عنهم وزر أعمالهم، كلا.. ﴿ وَإِذۡ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمۡ تَبَعٗا فَهَلۡ أَنتُم مُّغۡنُونَ عَنَّا نَصِيبٗا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ هنالك تسقط هذه الأعذار الواهية التي يحاول الضعفاء تبرير سكوتهم عن المستكبرين بها. كما يقال مثلا: أنا جندي وعلي طاعة قيادتي، أو يقال: المأمور معذور، أو يقال: بأن القيادة أعرف وأن الملوك أعلم بالصلاح. كلا.. إن كل بشر مسؤول بصورة مستقلة يوم القيامة عن كل مواقفه وأعماله.

[٤٨] وهكذا يسدل الستار على هذه المحاجة عندما يكشف المستكبرون عن مدى عجزهم. ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا كُلّٞ فِيهَآ ﴾ نحن وأنتم، فكيف نستطيع إنقاذكم ونحن لا نستطيع إنقاذ أنفسنا منها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدۡ حَكَمَ بَيۡنَ ٱلۡعِبَادِ ﴾ ولا أحد بقادر على أن يفر من حكومة الله. وهكذا كشف السياق بأن الذين يدعون من دون الله ليست لهم دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأنهم جميعا في النار، كما بيّن السياق: نهاية الخضوع للطاغوت أنها المشاركة معه في النار، بينما عاقبة الثائرين عليه، أن الله يحفظهم من مكر الطاغوت، كما وقى مؤمن آل فرعون سيئات ما مكروا.

[٤٩] وبعد أن يقنط أهل النار من شفاعة بعضهم، يدفعهم الألم إلى التوسل بخزنة جهنم، وهم الملائكة الغلاظ الشداد الذين وكلوا بهم، وكلفوا بالإشراف على تعذيبهم، فيتوسل

---

(١) تفسير القمي: ج٢، ص٢٥٨، بحار الأنوار: ج٦، ص٢٨٥.

(٢) الكافي: ج٣، ص٢٤٥.

بهم أصحاب النار لعلهم يشفعون لهم عند ربهم ليخفف عنهم يوما من النار. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ سواء المستكبرون منهم والضعفاء. ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ وحفظة الجحيم. ﴿ٱدْعُواْ رَبَّكُمْ﴾ ونتساءل: لماذا لم يبادروا بالدعاء بأنفسهم؟ يبدو أنه لا يحق لهم يومئذ التحدث مباشرة مع رب العزة كما كان يحق لهم في دار الدنيا، وإنها لفرصة نادرة ينبغي أن ننتهزها اليوم قبل فوتها غدا، وقد جاء في الدعاء المأثور: «اللَّهُمَّ أَذِنْتَ لِي فِي دُعَائِكَ وَمَسْأَلَتِكَ، فَاسْمَعْ يَا سَمِيعُ مِدْحَتِي، وَأَجِبْ يَا رَحِيمُ دَعْوَتِي»[1].

وسوف نتحدث إن شاء الله عن الدعاء وفضيلته قريباً.

﴿يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ فبعد أن فشلوا في إلقاء جانب من العذاب على بعضهم بحجة أنهم السبب فيه، حاولوا التخفيف في برهة زمنية، مثلا بمقدار يوم من أيام الدنيا، وهل كان ينفعهم التخفيف في يوم لو عادوا مرة أخرى إلى النار؟! كلا.. ولكن لسوء العذاب وشدة الألم كانوا يحاولون التخلص منه بأية حجة، ولكن عبثا.

[٥٠] لقد جاء رفض الخزنة لطلبهم كالصاعقة صدعت أفئدتهم ألما، ليس فقط لأن بصيص الأمل الوحيد تبدل عندهم إلى اليأس، وإنما أيضا لأنه حفل بالشماتة، مما أضاف ألما نفسيا إلى آلامهم الجسمية. ﴿قَالُوٓاْ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ لقد عذبوا بعد الإنذار، والإنذار تم بوضوح كاف حيث حمله إليهم رسل الله مدعوما بالآيات البينات. ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ فاعترفوا بعدالة حكم الله عليهم بالعذاب. ﴿قَالُواْ فَٱدْعُواْ﴾ ما شئتم كثيرا أو قليلا، ولكن اعلموا أنه عبث. ﴿وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ فكما أن الضال كلما جد في السير لم يبلغ هدفه، كذلك دعاء الكافر الذي أضاع فرصته في الدنيا للتوبة، و أخذ يدعو في الآخرة.

(١) البلد الأمين: ١٩٣، من دعاء الافتتاح من أدعية شهر رمضان.

فاصبر إن وعد الله حق

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّـٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

هدى من الآيات:

في إطار الحديث عن صلابة الشخصية، واستقامتها عند المؤمن، إلى درجة نراه يعيش في كنف الطاغوت وهو يكتم إيمانه عنه سنين عديدة، ثم يتحدّاه في ساعة المواجهة مفوّضا أمره إلى الله.. في هذا الإطار تحمل آيات هذا الدرس وعدا من الله بنصرة رسله والمؤمنين بهم بنصرة أهدافهم المقدسة.

ويضرب لنا من قصة موسى مثلا حين أنزل عليه الهدى، وضمنه في كتاب أورثه بني إسرائيل، ولكن النصر يأتي بعد عدة أمور يوفرها المؤمن:

أولاً: الصبر انتظارا لوعد الله الحق.

ثانياً: الاستغفار من الذنوب (وإصلاح النفس حتى تتهيأ لاستقبال النصر).

ثالثاً: تسبيح الله آخر النهار وأوله.

رابعاً: التسليم للحق، والاستعاذة بالله من الكبر الذي يبعث البعض نحو المجادلة في آيات الله بغير سلطان أتاهم، ذلك أن هذا الكبر الذي ينشأ من النزوع نحو الربوبية- لا يبلغه الإنسان أبدا، وما قيمة الإنسان حتى يتكبر على ربه؟! أولا يرى أن الله خلق السماوات والأرض وهن أكبر منه؟! ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

خامساً: العمل الصالح، ذلك لأنه لا يستوي الأعمى والبصير، كما لا يستوي المسيئون والصالحون، و أن الله يجازي كلا بعمله يوم تقوم الساعة، وبالرغم من أنها لا ريب فيها إلا إن أكثر الناس لا يؤمنون.

بينات من الآيات:

[٥١] لقد وعد الله -﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء:١٢٢]- أن ينصر رسله الذين حملهم مسؤولية بلاغ وحيه، وأمرهم بأن يتوكلوا عليه، ويفوضوا أمورهم إليه، وهيهات أن يخلف معهم وعده أو يخذلهم بعد أن أمرهم بالتوكل عليه، أو يتركهم بعد أن فوضوا أمورهم إلى حسن تدبيره. وهذا النصر يمتد إلى تابعي الرسل من المؤمنين، لأنهم جميعا يشتركون في المسؤولية والعاقبة. ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ولكي لا يزعم البعض أن نصر الله مخصوص بالآخرة فقد أكد أن نصره يمتد من الدنيا إلى الآخرة: ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾والقرآن الكريم كله شاهد على مسيرة النصر، شروعا من نوح عليه السلام وانتهاء بمحمد صلى الله عليه وآله ومرورا بسائر النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، صلى عليهم جميعا مليك السماء.

وإذا سرنا في الأرض، وأثرنا ذخائر المدن، وبحثنا عن بقايا الحضارات البائدة، وجدنا شواهد التاريخ تدلنا أيضا على تلك الحقيقة. أما كتب التاريخ فبالرغم من أنها تأثرت بطبيعة المؤلفين لها إلا أن من قرأ فيها الحقائق وترك التفسيرات يجد بين ثناياها ألف دليل ودليل على تلك الحقيقة. وبكل المقاييس لا تزال حوادث الدنيا اليومية تشهد امتدادا لحركة الأنبياء، عبر

توسع الديانات السماوية و المزيد من التوجه إلى تعاليمها. بلى، إننا قد نجد مصير بعض الدعاة الشهادة أولا أقل الاعتقال والتهجير، فأين النصر منهم؟! أولم يقتل السبط الشهيد بكربلاء؟! كما قتل المئات من أنصار الحق بعد استتباب الأمر للأمويين؟! بلى، ولكن النصر المطلوب ليس دائما انتصار الأشخاص، بل قد يفدي الشخص نفسه لدينه وقيمه راضيا مسرورا، وقد عبر أحد الشعراء عن هذه الحقيقة فيما يتصل بالإمام الحسين سيد الشهداء عليه السلام:

إن كان دين محمد لم يستقم إلا بقتلي فيا سيوف خذيني

وعندما سقط بطل الطف عن جواده مثخنا بالجروح البليغة، وحوله تناثرت جثث أهل بيته وأصحابه، وفي الأفق صيحات أطفاله: العطش العطش، وعويل النساء والثكالى، حينذاك جمع حفنة من التراب، و وضع خده عليها، وناجى ربه قائلا: «**إلهي صَبْراً عَلَى قَضَائِكَ لاَ مَعْبُودَ سِواكَ يَا غِيَاثَ الْمُستغِيثِين**»[1]. بلى؛ إنه كان يعلم أن السبيل الوحيد لحمل الرسالة إلى القلوب هو استشهاده، وأن قطرة الدم أبلغ أنباء من الكتب والخطب. ولا يزال السبط الشهيد عالما يستلهم منه أبناء أمتنا البطولات، وينتصرون لدينهم بأنفسهم، وكأين من مؤمن اعتلى عرش المشانق مطمئنا راضيا لتنتصر قيمه المقدسة، وكأين من مجاهد آثر الشهادة على الحياة ليعلوا بناء الحق والعدل، ولتقوض أركان الظلم والفساد.

وسؤال أخير: كيف ينتصر الرَّب لرسله والمؤمنين؟.

ليس بالضرورة أن يكون بصورة غيبية، مما نجدها في طوفان نوح، وتحول النار لإبراهيم إلى برد وسلام، وعصا موسى، وإحياء الأموات عند عيسى، وتأييد رسولنا الأكرم بالملائكة المسومين، صلى الله عليهم جميعا. بل قد يكون عبر السنن الجارية في الخليقة، ذلك أن سنن الله الحاكمة في الكائنات قائمة على أساس الحق، إذ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام:٧٣]، ورسالات الله تهدينا إلى ذلك الحق، ورسل الله والمؤمنون مستقيمون عليه، وتلتقي أفكارهم وأعمالهم عند نقطة الحق مع حركة الخلائق جميعا، فلا جرم ينتصرون، أرأيت لو أخبرت خصمك اللجوج أن الشمس تشرق بعد ساعة وكان حقا إنباؤك، فعند الشروق تنهار مقاومته، لأنها سنة الله، ألا تتأخر الشمس عن شروقها لمجرد أن شخصا لجوجا يجادل في ذلك، كذلك حين أنبأت رسالات الله أن عاقبة الظالمين الدمار بالرغم من أنهم يجادلون في ذلك، إلا أنه في ساعة الدمار لا أحد قادر على إنكار الحق، هكذا سنن الله تجري في الاتجاه الذي تهتدي إليه رسالات الله ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٦٢].

(١) ينابيع المودة: ج٣، ص٨٢.

والتجلي الأعظم لحقيقة رسالات الله لا يكون إلا عند قيام الساعة، ذلك لأن الدنيا دار ابتلاء، وستبقى فيها فرصة الإنكار أو الجدل لمن حقت عليه كلمة الضلال، فحتى عصا موسى التي ابتلعت حبال السحرة لم تفحم فرعون الجاحد بل قال للسحرة: ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه:٧١]، ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف:٥٤]. وهكذا ذكرتنا الآية هنا: أن النصر الشامل للرسل يكون عند انتهاء وقت الامتحان وحلول ساعة الجزاء. ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ هنالك الولاية لله والشهادة لأوليائه، حيث يرى الناس المقام الكريم والمقام المحمود للرسل والمؤمنين حيث يقومون بالشهادة لهذا فيدخل الجنة وعلى هذا فيدخله الله النار.

[٥٢] أما الظالمون فهم الخاسرون إذ لا تنفعهم الأعذار التي عادة يبررون بها ظلمهم في الدنيا، كما أنهم يلاحقون بلعنة الله والطرد عن بركاته ورحماته، كما أن مستقرهم الأخير يكون النار. ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾.

[٥٣] لقد نصر الله المؤمنين من بني إسرائيل عندما هيأ لهم قائدا كريما كموسى بن عمران، وزوده بالتوراة، فيها هدى يحتوي على جملة القيم والتعاليم المباركة، وفيها ذكرى ومواعظ لمن شاء أن يزداد قربا من ربه ووصولا إلى الحقائق التي هي اللباب والجوهر. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ويبدو أن الوراثة هنا توحي إلى أمرين:

الأول: أن الكتاب أعظم رأسمال وأكبر مجد، وكان بمثابة المحور الثابت الذي تدور حوله فاعليات الأمة.

الثاني: أن الكتاب ظل بينهم يرثه الجيل بعد الجيل بينما رحل عنهم قائدهم موسى عليه السلام.

[٥٤] ولم يكن وجود الكتاب بين بني إسرائيل بذاته مفخرة لهم بل الاهتداء به والتذكر بآياته وهذا كان خاصا بأولي الألباب. ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

[٥٥] ماذا ينبغي أن يقوم به الرسل والمؤمنون تمهيدا لنصر الله، بل وثمنا مدفوعا سلفا لهذه النعمة الكبرى؟.

أولاً: لابد من الصبر، الذي يعني -بمعناه الشامل- الصبر في تنفيذ الأوامر، والصبر عند الشدائد، وبكلمة: السعي والاجتهاد الآن انتظارا للنتائج المستقبلية، فمن كان عجولا، وكان يفتش عن نتائج سريعة، فإنه لن يبلغ مناه.. ورأسمال الصبر الإيمان بوعد الله، وأنه حق لا ريب فيه. ﴿فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾.

ثانياً: الاستغفار الذي يسقط سدود الذنوب التي تمنع النصر الإلهي، ويهيئ أرضية الفتح، ويوجه الإنسان إلى نواقصه الذاتية لكي يصلحها ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾.

ثالثاً: التقرب إلى الله بالمزيد من التسبيح والتقديس لمقام ربنا الكريم، حتى لا نظن بربنا ظن السوء فيوسوس الشيطان في قلوبنا الشكوك حول وعده أو نفقد خلال المسيرة شيئا من عزمنا في تأييد دينه.

رابعاً: التقرب إلى الله بحمده عشيًّا وبكوراً، ذلك أن حمد الله يجعلنا تتبصر النعم التي أسبغها علينا فتمنع عنا القنوط والنظرة التشاؤمية ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَـٰرِ﴾ إن حمد الله يؤدي إلى تسبيحه، فمن عرف أن ما تصيبنا من حسنة فمن عنده وما تصيبنا من سيئة فمن عند أنفسنا نزَّه ربه من النقص ونسبة السيئات إليه سبحانه. ولعل هذا أحد معاني الباء في قوله ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فيكون الحمد وسيلة التقديس لربنا العظيم، وهو أقرب من أن نجعل معنى الباء مجرد المعية ليكون المفهوم سبح واحمد ربك.

[٥٦] ولا بد أن نسلم لرب العالمين، ومعنى التسليم له الإيمان بآياته والاحتراز من الجدل فيها، فمن يجادل فيها انطلاقا من أهوائه وبغير سلطان مبين وحجة واضحة من عقله فقد استحوذ عليه الشيطان، وأثار في نفسه الكبر الذي انطوت عليه حيث نازعت رب العزة رداء الألوهية فأخزاه الله ولعنه وأبعده عن تحقيق مناه. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَـٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ المجادل في آيات الله يغلق منافذ قلبه عن النور. أوليست آيات الله في الطبيعة وآياته في الكتاب تجليات لظهوره وأمواج نوره، فمن نظر إليها نظرة ذاتية دون أن يجعلها وسيلة لبلوغ غيرها أصيب بالعمى. أرأيتم الذي ينظر إلى المرآة ليعرف طولها وعرضها، ولا يمكن أن ينظر إلى صورته فيها، أورأيت الذي يلاحظ في علامات السير طبيعة خطها وطريقة صنعها، لا ينتفع بإشاراتها، كذلك عالم الطبيعة الذي يركز نظره في خصائص المادة دون أن يجعلها معبرا إلى أسماء الله.

ومن الناس من عقد عزمه على ألا يعرف الحقيقة، لأن الحقيقة تخالف ما انطوت عليه نفسه من الكبر، بل إن مجرد التسليم لها يتنافى وحالة الكبر التي في قلبه. بلى، إنما يجوز الجدال في آيات الله إذا كان يملك الإنسان الحجة الكافية من الله، حينئذ يمكن تفسير آية أو تأويلها انطلاقا من تلك الحجة، وأخذا بمبدأ النسخ في الآيات كما قال ربنا: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ﴾ [البقرة: ١٠٦]. أما من لا يملك حجة وسلطانا، فلا يجوز له إلا التسليم ﴿بِغَيْرِ سُلْطَـٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ ويبدو أن المراد منه الوحي ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَـٰلِغِيهِ﴾ ما هو ذا الكبر الذي لا يبلغوه؟ هل هو مطلق الكبر وحب الذات، وهو النفس؟ أم إنه أكبر من ذلك؟

يبدو لي أنه نزعة الألوهية في النفس، حيث يزعم الإنسان أنه قادر على بلوغ درجة الألوهية بإمكاناته المحدودة، وبعمره القصير.. ولعل سائر الخصال الذميمة تنبع من هذا الإحساس الخاطئ، وبالرغم من أن الإنسان لن يحقق هذه الرغبة فإنه يتعب نفسه من أجلها حتى يكون من الهالكين، وأبرز مثل لهذه النزعة الفراعنة والطغاة الذين ينازعون الله رداء العظمة، وإنما أثار إبليس هذه النزعة في نفس آدم أبي البشر حين أطمعه في الخلود والملك الدائم.

وكفار قريش وكل الكفار في التاريخ والحاضر يتبعون هذه النزعة حين يرفضون التسليم للحق، لأن تسليمهم للحق يفرض عليهم التسليم لقيمه وشرائعه، ولمن يمثل تلك القيم وينفذ الشرائع من القيادات الإلهية. وإن العلم -أي علم- يفرض على صاحبه مسؤولية ولذلك فهو صعب مستصعب، لأن احتمال المسؤولية أمر عظيم، لذلك ترفض النفس البشرية الانفتاح أمام حقائق العلم إلا بصعوبة بالغة. ولكي نتخلص من جذر الفساد في النفس وهو هذا الكبر، علينا أن نستعيذ بالله، لأن الشيطان غوي مضل مبين، وهو يتقن أساليب المكر والخداع، ويعرف من أين يدخل في قلب هذا البشر الساذج، ولولا الاستعاذة بالله تضعف النفس أمام وساوسه وأمانيه. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ فهو يسمع أقوال المتكبرين والمجادلين ويبصر أعمالهم، كما يسمع همسات المناجين ربهم المستعيذين من مكر الشيطان ويبصر أعمالهم.

ونتساءل: كيف نستعيذ بالله؟.

أولاً: بالدعاء والمناجاة. والملاحظ أن المؤمن قد تهجم عليه أمواج البلاء أو صنوف الإغراء فيتردد قليلا في الأمر، ولكنه بمجرد أن يدعو الله حتى يعطيه القوة الكافية لمقاومة الشيطان.

ثانياً: بمعرفة الله والتقرب إليه بذكره وتسبيحه والثقة بنصره.

[٥٧] ومن الوسائل الناجحة لمحاربة كبر النفس النظر في عظيم خلق الله وقيامه بذاته، فهل أنا المتكبر أكبر أم الجبال أم الأرض أم الشمس والقمر؟! وأساسا: من أنا بالقياس إلى هذا الخلق العظيم؟! ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ تعالوا لننظر إلى ملكوت السماوات والأرض، لنتعرف إلى الحجم الحقيقي لأنفسنا، أنا واحد من مليارات البشر يمشون اليوم فوق كوكبنا، والإنسان واحد من ألوف الأحياء، والأحياء نوع من عشرات الأجناس غير الحية، ثم كل ما في الأرض لا تحتل إلا مساحة محدودة منها، ثم إني لا أعيش عليها إلا سنين معدودات، لو قيست بالملايين من سني عمر الأرض لكانت كلحظة خاطفة.

ثم الأرض هذه تابع صغير للشمس، فحجمها أقل من واحد إلى مليون من حجم أمها، وهي لا تزار تعيش على مقربة منها كالرضيع لا يبتعد عن أمه، ولكن مع ذلك تبلغ المسافة بين كوكبنا والشمس حوالي ثلاثة وتسعين مليون ميل!!

أما الشمس فهي نجم من مجرة تحتوي على نحو من مائة مليون شمس.. ولكن هذه المجرة ليست الوحيدة في هذا الفضاء الأرحب، بل هي واحدة من عشرات الملايين من المجرات اكتشفها البشر، وكلما اخترعوا أجهزة جديدة اكتشفوا ملايين جديدة من المجرات، حتى شاعت بين علماء الفضاء فكرة تقول: إن الكون يشهد ولادة مجرات جديدة لا تستطيع أن تلاحقها أجهزتنا المتطورة.. الله أكبر.. من أنا أمام هذا الحشد من المجرات!

هكذا قال رسولنا الأكرم لزينب العطارة التي زارته في بيته قائلة: «**وَإِنَّمَا أَتَيْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ عَظَمَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ: جَلَّ جَلاَلُ اللهِ سَأُحَدِّثُكِ عَنْ بَعْضِ ذَلِكَ. ثُمَّ قَالَ: إِنَّ هَذِهِ الأَرْضَ بِمَنْ عَلَيْهَا عِنْدَ الَّتِي تَحْتَهَا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي فَلاَةٍ قِيٍّ**[1] **وَهَاتَانِ بِمَنْ فِيهِمَا وَمَنْ عَلَيْهِمَا عِنْدَ الَّتِي تَحْتَهَا كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ فِي فَلاَةٍ قِيٍّ وَالثَّالِثَةُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى السَّابِعَةِ وَتَلاَ هَذِهِ الآيَةَ** ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢].

ومضى الرسول ﷺ يبيّن طبقات الأرض وما وراءها، وأن الواحدة منها بالنسبة إلى تاليتها كحلقة فلاة واسعة، إلى أن قال عن السماء: «**وَسَمَاءُ الدُّنْيَا بِمَنْ عَلَيْهَا وَمَنْ فِيهَا عِنْدَ الَّتِي فَوْقَهَا كَحَلْقَةٍ فِي فَلاَةٍ قِيٍّ وهَاتَانِ السَّمَاءَانِ وَمَنْ فِيهِمَا وَمَنْ عَلَيْهِمَا عِنْدَ الَّتِي فَوْقَهُمَا كَحَلْقَةٍ فِي فَلاَةٍ قِيٍّ وهَذِهِ الثَّلاَثُ بِمَنْ فِيهِنَّ وَمَنْ عَلَيْهِنَّ عِنْدَ الرَّابِعَةِ كَحَلْقَةٍ فِي فَلاَةٍ قِيٍّ حَتَّى انْتَهَى إِلَى السَّابِعَةِ وهُنَّ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَنْ عَلَيْهِنَّ عِنْدَ الْبَحْرِ الْمَكْفُوفِ عَنْ أَهْلِ الأَرْضِ كَحَلْقَةٍ فِي فَلاَةٍ قِيٍّ**»[2].

ومضى النبي ﷺ يبين عظمة خلق الله حيث إن بعض خلقه أعظم من بعض كما الحلقة الصغيرة في الصحراء المترامية، وهو أقرب مثل لاتساع المنظومات الشمسية والمجرات وما أشبه. فهل يحق لنا أن نتكبر على ربنا الواسع الذي وسع كرسيه السماوات والأرض أو ندعي مقامه سبحانه؟! هذا في أفق المكان وامتداده. أما عن الزمان وامتداده فنحن لسنا أول ما خلق الله، ولن نكون آخر خلقه سبحانه، جاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق: ١٥]. قال: «**يَا جَابِرُ تَأْوِيلُ ذَلِكَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَفْنَى هَذَا الْخَلْقَ وَهَذَا الْعَالَمَ وَأَسْكَنَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلَ النَّارِ النَّارَ جَدَّدَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَالَمًا غَيْرَ هَذَا الْعَالَمِ وَجَدَّدَ** خلق [**عَالَمًا**] **مِنْ غَيْرِ فُحُولَةٍ وَلا**

(١) القفر من الأرض.
(٢) بحار الأنوار: ج٧٥ ص٨٣.

إِنَاثٍ يَعْبُدُونَهُ وَيُوَحِّدُونَهُ وَخَلَقَ لَهُمْ أَرْضاً غَيْرَ هَذِهِ الأَرْضِ تَحْمِلُهُمْ وَسَمَاءً غَيْرَ هَذِهِ السَّمَاءِ تُظِلُّهُمْ لَعَلَّكَ تَرَى أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِنَّمَا خَلَقَ هَذَا العَالَمَ الوَاحِدَ وَتَرَى أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَمْ يَخْلُقْ بَشَراً غَيْرَكُمْ بَلَى وَاللهِ لَقَدْ خَلَقَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَلْفَ أَلْفِ عَالَمٍ وَأَلْفَ أَلْفِ آدَمٍ أَنْتَ فِي آخِرِ تِلْكَ العَوَالِمِ وَأُولَئِكَ الآدَمِيِّينَ»[1].

وأخيرا، يرى بعض علماء النفس أن أفضل وسيلة لتربية الإنسان أن يعطى له عند بلوغه مبلغ الرجال جهازين يرى بهما عظمة الخلائق، جهاز ميكروسكوب يرى به عجيب لطف الصنع في خلقة الموجودات المتناهية في الصغر، وجهاز تلسكوب يرى به عظيم القدرة في خلقة الأجرام المتناهية في الكبر.

[٥٨] هل يستوي من يستوعب هذه الحقائق ببصيرة قلبه فيكون كالبصير، والذي هو أعمى حتى لو اقتربت منه حقائق الكون جميعا لا يعيها ولا يستوعب دروسها، وتراه كالشرنقة لا يزال في تلك الزنزانة الضيقة من نسيج أهوائه وشهواته ووساوس الشيطان.

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ﴾ أرأيت الذي قضى عمره في جزيرة مهجورة لا يعلم عن الدنيا شيئا، هل يختلف بالنتيجة عمن يعيش في غرفة ضيقة في وسط أضخم العواصم قد حجب نفسه عن كل ما حوله؟ كلا.. كذلك الكافر الذي تحيط به حقائق الكون فلا يستوعبها، ولا يعيش قلبه في أجوائها ولا تعيها بصيرة نفسه، بل هو في ظلام جهله وجهالته، لا يعترف بشيء غير نفسه وأهوائها، إنه أشد عمى ممن فقد عينيه. أليس كذلك؟ وكم هو فرق بينه وبين من يعيش عوالم الخلق جميعا في ضميره ووعيه، ويرى نفسه منها ولا بد أن يتناغم سلوكه وسننها، لأنه يؤمن بربها العظيم، ويعمل الصالحات التي أمر بها كما أمر سائر العوالم بمثلها ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾.

[٥٩] وفي خاتمة الدرس يلخص السياق عبرة الحقائق التي ذكر بها أنها الساعة حيث يتبدل النظام القائم هنا على أساس الابتلاء، بنظام يقوم على أساس الشهود والجزاء. ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ وكيف يرتاب في يوم تدل كل حقائق العالم على أنه المنتهى، فحكمة الله التي تتجلى في كل خليقة صغيرة أو كبيرة تدلنا بوضوح كاف على يوم الجزاء. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ فلا تتبع سلوكهم، وذرهم يخوضوا في لهوهم، وأنقذ نفسك من المصير الذي ينتهون إليه بكفرهم بها.

---

(١) بحار الأنوار: ج٨ ص٣٧٤.

وقال ربكم ادعوني أستجب لكم

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ (٦٠) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٦٧)﴾

هدى من الآيات:

لكي نعالج الكبر الذي انطوت عليه النفوس، لا بد:

أولاً: أن ننظر إلى حجمنا بالقياس إلى عظمة الخلائق.

ثانياً: إذا اطمأنت النفس إلى عظمة البارئ الذي خلقها وأتقن صنعها، التجأت إليه بالدعاء، وخلعت رداء التكبر، وارتدت ثوب العبودية لرب العالمين، أما الذين يستكبرون عن عبادة الله، وعن الدعاء وهو مخ العبادة، فسيدخلون جهنم داخرين.

ثالثاً: نشكر ربنا على نعمه التي تحيط بنا، ولولا واحدة منها انعدمت حياتنا وتحولت إلى جحيم لا يطاق، فهو الذي جعل الليل سكنا والنهار معاشا، إنه فضل عظيم: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ ولذلك تجدهم يستكبرون.

ولماذا ينحرف البشر عن صراط الله الذي ربّاه ونعّمه، وهو خالق كل شيء، ولا سلطان إلا سلطانه، ولا إله إلا هو الواحد الأحد؟ لأنه يجحد بآيات الله. وهكذا عاد السياق إلى موضوع رئيس في السورة، وهو التعامل مع آيات الله، وآيات الله - التي هي السبل إلى معرفته وعبادته- مبثوثة في الآفاق وفي أنفسنا، فهو الذي جعل الأرض قرارا والسماء بناء، وهو الذي صور الإنسان في أحسن تصوير، وأغدق عليه من رزقه الطيب. إنه ربنا ربُّ العالمين تبارك وتعالى.

وهو الحي الذي تفرد بالألوهية فإليه لا بد أن يجأر الإنسان خالصا له الطاعة والانقياد، وإن له الحمد كله، لأنه رب العالمين، لأنه هدانا إليه بالبينات التي أرسلها، ويتجلى حمدنا له في تحدي الكفار الذين يدعون الأنداد، وكذلك في تسليمنا له. أوليس قد أسلم له كل شيء في العالمين؟

مَنْ هذا الإنسان المسكين الذي يتكبر على ربه، وينازعه رداء العزة؟! إنه مخلوق كان أصله التراب فجعله الله نطفة ثم علقة ثم أخرجه طفلا ورعاه حتى أضحى بالغا رشيدا، وأحاطت به نعم الله حتى أمسى شيخا، بينما البعض توفاهم الله من قبل، كل قد حدد له أجلا، كل ذلك بهدف أن يعرفوا ربهم من خلال تطورات حياتهم ويعقلوا.

وبيده -لا بيد غيره- الحياة والموت، وهو مطلق القدرة، فعال لما يريد، وأمره - إذا قضى شيئا- بين الكاف والنون.

بينات من الآيات:

[٦٠] الذين يعيشون في غياهب السجون، أو في ظلمات الحكم الطاغوتي، أو في ذلِّ المهاجر بعيدين عن الأهل والوطن، إن مثل هؤلاء سوف تهجم عليهم سحب اليأس والقنوط، ويتعرضون لموجات من الشك والارتياب. أحقا نحن على حق أم هم؟ فلماذا نراهم

ذوي الطول والسلطان، وإلى متى؟، وأكثر من هؤلاء جميعا، أولئك الذين يتحصنون بالتقاة، ويعيشون داخل الكيان الطاغوتي، حيث يتعرضون لعمليات غسل الدماغ المستمرة، وترتبط مصالحهم ورغباتهم ومجمل وشائج حياتهم بعجلة النظام، وفي الوقت ذاته يكتمون إيمانهم، وتكاد صدورهم تتفجر ضيقا بالأسرار التي يحملونها، فما الذي ينقذهم من هذا الوضع؟ وأي وقود إيماني يمدهم بطاقة الاستمرار وقدرة الاستقامة.. حيث لا صلة بالقيادة، ولا تفاعل مع المجتمع الإيماني، ولا مجالس للذكر تجدد الروح، ولا برامج اجتماعية، ولا مصالح مشتركة مع المؤمنين؟

لقد فتح الله لهؤلاء وأولئك جميعا باب الدعاء حيث تتصل قلوبهم بنور ربهم مباشرة، وينهلون من نبع التوحيد الأصفى ما يمدهم بالرجاء والثقة والاستقامة فقال ربنا: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ما هو هذا الدعاء؟ قال المفسرون: إنه طلب الحاجة من الله، وتفرد ابن عباس بتفسير آخر حيث قال أنه توحيد الله، ويبدو لي أن ابن عباس[1] التقط إشارة خفية من الآية حيث أرهف سمعه إلى ضمير ﴿ادْعُونِي﴾ وعرف أن المعنى لا تدعو من دوني أحدا، وحقا، إن الإنسان إما أن يدعو ربه أو يدعو الأنداد.. والله يأمرنا بدعوته دون الأنداد، وسوف نرى- إن شاء الله- كيف أن الدعاء أسمى درجات التوحيد.

وعندما وعد ربنا الاستجابة فإن ذلك يكون شرطا ضمنيا بأن يكون الدعاء خالصا لله، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. ولعل في كلمة ﴿إِذَا دَعَانِ﴾ إشارة إلى هذه الحقيقة، كما نجد تصريحا بذلك في قوله ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾.

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ لماذا عُدَّ الدعاء عبادة؟ و لماذا أوعد الله على تركه النار؟ لكي نعرف الإجابة: دعنا نتساءل: ماذا كان محور الخلاف الأصلي بين الموحدين والمشركين، هل كان في وجود الله؟ كلا، هل كان في أسماء الله التي تتعلق حسب المصطلح بذاته سبحانه؟ كلا، بل إن المشركين كانوا يعترفون بالله هو الخالق، وقد قال ربنا: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف:٩].

إنما جوهر الخلاف ومحوره الأصيل في كلمة: إن الموحدين يقولون: إن الله هو المهيمن

---

(١) مجمع البيان: ج٨، ص٨٢٣.

المدبر لأمور الله، فهو القابض الباسط، المحيي المميت، المعزّ المذلّ، وهو الذي يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل، ويدبِّر الأمر ساعة بساعة ولحظة بلحظة، بينما كان يرى المشركون عوامل حتمية أخرى غير مشيئة الله في تدبير شؤون الخليقة، فيتوجهون إلى تلك العوامل من دون الله. على أن المشركين قلوبهم شتى، وآراؤهم في ذلك مختلفة، إلا أن أبعدها ضلالة ما قالته اليهود بأن يد الله مغلولة، اتباعا لفلاسفة اليونان حيث زعموا بأن الله قد فرغ من أمر الخلق واستراح ولا يمكن له التأثير في الخلق أبدا.

وتتناقض رسالات الله عن فلاسفة البشر في هذا المحور، حيث بشَّرت البشرية بأن ربهم قريب منهم، يهيمن على حياتهم، ويسمع نداءهم، ويستجيب دعاءهم، وتوضحت هذه البصيرة الإلهية عبر آيات الذكر، وفي تفسير أهل بيت النبي ﷺ لكلمة (البداء) التي تعني أن لربنا سبحانه مطلق المشيئة في فعل ما يريد، والذي تشير إليه الآيات القرآنية:

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧].

- ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٥، ١٦].

- ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الاحزاب:٣٧].

- ﴿كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران:٤٠].

- ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الاعراف:٥٤].

أما الآيات التي تبين أن ربنا استوى على العرش وأنه المدبر والمهيمن والحاكم وما أشبه مما تشير إلى هذه الحقيقة بصورة ما فهي كثيرة، بل هي -في الواقع- المحور الأساس للقرآن كله. وقد بينت آيات محكمات واقع البداء في عدة سور.. في آيات عدة:

- ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة:١٠٦].

- ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة:٦٤].

- ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٨-٣٩].

و جاء في تفسير أهل البيت لبصيرة البداء في القرآن الكثير من الأحاديث الشريفة،

فقد روي عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال لسليمان المروزي: «مَا أَنْكَرْتَ مِنَ الْبَدَاءِ يَا سُلَيْمَانُ وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا﴾، وَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ويقول: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾، وَيَقُولُ: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ وَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ وَيَقُولُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾»[١].

وجاء في حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال في تفسير قول الله عزّ وجلّ: «﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾: لَمْ يَعْنُوا أَنَّهُ هَكَذَا وَلَكِنَّهُمْ قَالُوا قَدْ فَرَغَ مِنَ الْأَمْرِ فَلَا يَزِيدُ وَلَا يَنْقُصُ فَقَالَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ تَكْذِيباً لِقَوْلِهِمْ: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ أَ لَمْ تَسْمَعِ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾»[٢].

وذكر الفخر الرازي في تفسير الآية وجوها جاء في الرابع منها: «لعله كان فيهم من كان على مذهب الفلسفة، وهو أن الله تعالى موجب لذاته وأن حدوث الحوادث عنه لا يمكن إلا على نهج واحد، وأنه تعالى غير قادر على إحداث الحوادث غير الوجوه التي عليها يقع فعبّروا عن عدم الاقتدار على التغيير والتبديل بغل اليد»[٣].

إن معرفة الله بأنه قادر على كل شيء، وأنه فعال لما يريد، وأنه كما أبدع الخلائق بعد أن لم تكن شيئا، قادر على أن يبدع ما يشاء، هي المعرفة الحق، وهي التي تبعث على الثناء عليه وتوصيفه بالحمد والشكر، وأي حمد أو ثناء لمن لا يقدر على تغيير شيء حسب ما يزعمون. ولذلك كان الاعتراف بهذه القدرة للرَّب أي بالبداء أعظم عبادة وأفضل تعظيم. جاء في الحديث عن زرارة عن أحدهما (الباقر أو الصادق عليهما السلام): «مَا عُبِدَ اللهُ بِشَيْءٍ مِثْلِ الْبَدَاءِ»[٤]. وفي حديث آخر عن هشام بن سالم عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَا عُظِّمَ اللهُ بِمِثْلِ الْبَدَاءِ»[٥]. وقال عليه السلام: «لَوْ عَلِمَ النَّاسُ مَا فِي الْقَوْلِ بِالْبَدَاءِ مِنَ الْأَجْرِ مَا فَتَرُوا عَنِ الْكَلَامِ فِيهِ»[٦].

ومن مظاهر الإيمان بالبداء الدعاء، ذلك أن في الدعاء اعترافا بسلطان الله الفعلي والمباشر

---

(١) بحار الأنوار: ج٤، ص٩٥.
(٢) بحار الأنوار: ج١٠٤، ص٤.
(٣) مفاتيح الغيب: ج١٢، ص ٣٩٤. دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٠هـ.
(٤) الكافي: ج١، ص١٤٦.
(٥) المصدر السابق: ص١٤٦.
(٦) المصدر السابق: ص١٤٨.

على الخليقة، وأنه القادر على أن يصنع ما يشاء فيما خلق، وأنه المستعان على بوائق الدهور ونوائب الحياة، ولذا أضحى الدعاء العبادة الأسمى، وقال ربنا سبحانه: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان:٧٧]. وقد استعرض السياق القرآني كيف أن الرجال العظام بلغوا الدرجات السامية بالدعاء، شروعا من آدم أبي البشر حيث استغفر ربه (بالدعاء) فغفر له، وآتاه النبوة والصفوة، حتى نوح حيث دعا على قومه فأعانه الله عليهم بالطوفان العظيم، وإلى إبراهيم الذي ما ونى عن الدعاء في كل موقع حتى اتخذه الله خليلا وجعله للناس إماما، وإلى موسى الذي نصره الله على فرعون بالدعاء، وكذلك سائر النبيين، الذين ما فتئوا يدعون ربهم ويستجيب لهم الله بخرق سنن الطبيعة، فمثلا حين يرزق مريم من عنده، يتذكر كفيلها زكريا حاجة قديمة في نفسه، فيدعو زكريا ربه ويطلب منه ذرية، فيرزقه الله يحيى وكانت امرأته عاقرا، وقد بلغ من الكبر عتيا.. وهكذا يعرف من خلال حياة الأنبياء مقام العبد من ربه، وكيف أنه مقام الطلب والدعاء، وهو من أبرز ما يستفيده المؤمن من قصص قدواته الصالحة الأنبياء والأولياء، وقد جاء في الأثر عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير قوله سبحانه: «﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة:١١٤]، قال: **الأَوَّاهُ الدَّعَّاءُ**»[١]. وجاء في حديث آخر عن الإمام الرضا عليه السلام أنه كان يقول لأصحابه: «**عَلَيْكُمْ بِسِلَاحِ الأَنْبِيَاءِ فَقِيلَ وَمَا سِلَاحُ الأَنْبِيَاءِ قَالَ الدُّعَاءُ**»[٢].

وللدعاء فوائد عاجلة نتذكر معا بعضها:

ألف: إنه أفضل دواء لداء الكبر في النفس البشرية. وإذا عرفنا أن الاستكبار أعظم حجاب بين العبد وربه، وهو العقبة الكأداء في سبيل الصلاح والفلاح، وهو مصدر أكثر الفواحش والذنوب، فسوف نعرف أهمية الدعاء. وهكذا نجد في السياق القرآني هنا ما يوحي بأن من يستنكف عن الدعاء فقد استكبر عن عبادة ربه، وأنه سوف يدخل جهنم داخرا، كما نجد هذه الآية تأتي في سياق معالجة كبر النفس الذي لن تبلغه، إلى جانب سائر طرق العلاج التي سبقت أو تأتي في هذه الآيات.

باء: الدعاء يلهم الأمل ويرفع اليأس، ويعيد إلى القلب حيويته ونشاطه وعنفوانه. أرأيت أعظم الهزيمة هزيمة القلب، وأعقد المشاكل انهيار النفس؟ بلى، والدعاء هو الدواء. كيف؟ إن الداعي يرجو ربه الكبير أرحم الراحمين فكيف يعتريه اليأس؟ وهل يظمأ من يرد على حياض مترعة؟ وقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إِنَّ الدُّعَاءَ يَرُدُّ القَضَاءَ المُبْرَمَ بَعْدَ مَا أُبْرِمَ إِبْرَاماً فَأَكْثِرْ مِنَ الدُّعَاءِ فَإِنَّهُ مِفْتَاحُ كُلِّ رَحْمَةٍ وَنَجَاحُ كُلِّ حَاجَةٍ وَلَا يُنَالُ مَا عِنْدَ اللهِ**

(١) بحار الأنوار: ج٩٣، ص٢٩٣.
(٢) الكافي: ج٢، ص٤٦٨.

إِلَّا بِالدُّعَاءِ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ بَابٍ يَكْثُرُ قَرْعُهُ إِلَّا أَوْشَكَ أَنْ يُفْتَحَ لِصَاحِبِهِ»[١]. وروي عنه عليه السلام: «الدُّعَاءُ كَهْفُ الإِجَابَةِ كَمَا أَنَّ السَّحَابَ كَهْفُ المَطَرِ»[٢].

وقد جاء في حديث -قدسي- مفصل عن النبي صلى الله عليه وآله عن جبرائيل عن رب العالمين أنه قال: «يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْأَلُونِي الهُدَى أَهْدِكُمْ، وكُلُّكُمْ فَقِيرٌ إِلَّا مَنْ أَغْنَيْتُهُ فَاسْأَلُونِي الغِنَى أَرْزُقْكُمْ، وكُلُّكُمْ مُذْنِبٌ إِلَّا مَنْ عَافَيْتُهُ فَاسْأَلُونِي المَغْفِرَةَ أَغْفِرْ لَكُمْ، ومَنْ عَلِمَ أَنِّي ذُو قُدْرَةٍ عَلَى المَغْفِرَةِ فَاسْتَغْفَرَنِي بِقُدْرَتِي غَفَرْتُ لَهُ ولَا أُبَالِي ولَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وحَيَّكُمْ ومَيِّتَكُمْ ورَطْبَكُمْ ويَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا عَلَى اتْقَاءِ قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي لَمْ يَزِيدُوا فِي مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ولَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وحَيَّكُمْ ومَيِّتَكُمْ ورَطْبَكُمْ ويَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا عَلَى إِشْقَاءِ قَلْبِ عَبْدٍ مِنْ عِبَادِي لَمْ يَنْقُصُوا مِنْ مُلْكِي جَنَاحَ بَعُوضَةٍ ولَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وآخِرَكُمْ وحَيَّكُمْ ومَيِّتَكُمْ ورَطْبَكُمْ ويَابِسَكُمْ اجْتَمَعُوا فَيَتَمَنَّى كُلُّ وَاحِدٍ مَا بَلَغَتْ أُمْنِيَّتُهُ فَأَعْطَيْتُهُ لَمْ يَتَبَيَّنْ ذَلِكَ فِي مُلْكِي كَمَا لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ مَرَّ عَلَى شَفِيرِ البَحْرِ فَغَمَسَ فِيهِ إِبْرَةً ثُمَّ انْتَزَعَهَا ذَلِكَ بِأَنِّي جَوَادٌ مَاجِدٌ وَاجِدٌ عَطَائِي كَلَامٌ فَإِذَا أَرَدْتُ شَيْئاً فَإِنَّمَا أَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ»[٣].

جيم: الدعاء يزيد العبد حبا لربه، والحب أفضل علاقة تصل قلب الإنسان برب العالمين. إنه يغمر القلب صفاء وعطاء، وحبا للناس وحبا للحياة، وبهجة وسكينة.. كذلك الدين ليس إلا الحب، وما أغلى قيمة الحب إذا كان الحبيب ربّ السماوات والأرض. وهل يشعر بوحشة من يعيش بقلبه في حضرة ربه؟ وهل يحس بالفقر من يجد مليك السماوات والأرض، وهل يجد الذل سبيلا إلى قلب جليس جبار السماوات والأرض؟ ومن أحب ربه سارع إلى طاعاته، بلا تكلف ولا توان ولا حزن، وكانت الصلاة قرة عينه، و الزكاة مطية قربه، والشهادة غاية مناه، لأن فيها لقاء ربه. وإن أولئك الذين من الله عليهم بحبه لا يبيعون لحظة مناجاته بملك الدنيا، لأن في تلك اللحظة وجدان الحقيقة ولذة العمر، وحلاوة اللقاء بالحبيب.

وهكذا جاء في النصوص أن الله يحب الدعاء ويحب الداعين، وهل يحب الله أحدا ثم لا يرزقه حبه، وهو أعظم نعمة؟! قال النبي صلى الله عليه وآله: «مَا مِنْ عَبْدٍ سَلَكَ وَادِياً فَيَبْسُطُ كَفَّيْهِ فَيَذْكُرُ اللهَ وَيَدْعُو إِلَّا مَلَأَ اللهُ ذَلِكَ الوَادِيَ حَسَنَاتٍ فَلْيَعْظُمْ ذَلِكَ الوَادِي أَوِ لْيَصْغُرْ»[٤]. وقال الإمام الباقر عليه السلام: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَحَبَّ إِلَى اللهِ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ»[٥]. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «الدُّعَاءُ سِلَاحُ

(١) مستدرك الوسائل: ج٥، ص١٦٦.
(٢) الكافي: ج٢، ص٤٧١.
(٣) مستدرك الوسائل: ج٥، ص١٦٣.
(٤) وسائل الشيعة: ج٧، ص١٦٧.
(٥) مستدرك الوسائل: ج٥، ص١٦٣.

الْمُؤْمِنِ وعَمُودُ الدِّينِ ونُورُ السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ»[1]. وقال النبي ﷺ: «لاَ تَعْجِزُوا عَنِ الدُّعَاءِ فَإِنَّهُ لَمْ يَهْلِكْ مَعَ الدُّعَاءِ [أَحَدٌ] ولْيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَتَّى يَسْأَلَهُ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ واسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنَّهُ يُحِبُّ أَنْ يُسْأَلَ»[2]. وقال ﷺ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُلِحِّينَ فِي الدُّعَاءِ»[3].

دال: الدعاء يوفر نية المؤمن لمتابعة مسيرته نحو الأهداف الصالحة، إذ مع طول الأمد يخبو الهدف في نفس صاحبه، خصوصا إذا واجهته الصعاب، فيتساءل: لماذا نسعى من أجله؟ وهل هو يستحق كل هذه التضحيات؟ فيأتي الدعاء ليكرس الغايات النبيلة في النفس، خصوصا الأدعية المأثورة التي ترسم لنا خريطة متكاملة للأهداف السامية، فإذا بنا نزداد تعلقا بها كلما كررناها.

هـاء: الدعاء يساهم في تزكية النفس والتقوى، ذلك أن الإنسان ليعلم بفطرته أن دعاءه لا يستجاب إذا كانت بينه وبين ربه حجب الذنوب أو لم يف بعهد الله، وهكذا ينشط - بالدعاء - لتنفيذ واجباته. جاء في الأثر عن الإمام الصادق عليه السلام: «أَطِبْ كَسْبَكَ تُسْتَجَبْ دَعْوَتُكَ فَإِنَّ الرَّجُلَ يَرْفَعُ اللُّقْمَةَ إِلَى فِيهِ حَرَاماً فَمَا تُسْتَجَابُ لَهُ دَعْوَةٌ أَرْبَعِينَ يَوْماً»[4]. وروي عنه عليه السلام أنه قال: «قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: خَمْسٌ لَا يُسْتَجَابُ لَهُمْ رَجُلٌ جُعِلَ بِيَدِهِ طَلَاقُ امْرَأَتِهِ وهِيَ تُؤْذِيهِ وعِنْدَهُ مَا يُعْطِيهَا ولَمْ يُخَلِّ سَبِيلَهَا ورَجُلٌ أَبَقَ مَمْلُوكُهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ولَمْ يَبِعْهُ ورَجُلٌ مَرَّ بِحَائِطٍ مَائِلٍ وهُوَ يُقْبِلُ إِلَيْهِ ولَمْ يُسْرِعِ الْمَشْيَ حَتَّى سَقَطَ عَلَيْهِ ورَجُلٌ أَقْرَضَ رَجُلًا مَالًا فَلَمْ يُشْهِدْ عَلَيْهِ ورَجُلٌ جَلَسَ فِي بَيْتِهِ وقَالَ اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي ولَمْ يَطْلُبْ»[5].

والعامل المشترك بين هؤلاء جميعا: الاكتفاء بالدعاء عن السعي.

وكلمة **أخيرة**: إن من الناس من يحجم عن الدعاء بمجرد تباطؤ الإجابة عنه وهو لا يعلم:

أولاً: أن توفيقه للدعاء أعظم مما يطلبه، وأن أجره عند الله أكبر بكثير من تحقيق رغباته العاجلة، حتى إن المؤمن يتمنى يوم القيامة أن لو كانت أدعيته جميعا غير مستجابة في الدنيا لما يجد من الثواب العظيم لمن لم يستجب دعاؤه.

---

(١) الكافي: ج٢، ص٤٦٨.
(٢) مستدرك الوسائل: ج٥، ص١٦٠.
(٣) المصدر السابق: ص١٩٣.
(٤) المصدر السابق: ص٢١٧.
(٥) وسائل الشيعة: ج٢٢، ص١١.

ثانياً: قد يدعو الإنسان بما يضره فيرحمه الله بعدم استجابته، ويبدله بما هو خير له.

ثالثاً: بعض الدعاء يستدعي تغيير سنن الله التي لا تتبدل، كأن يدعو المرء توقف الأرض عن الحركة أو ألا يموت أبدا أو أن ينتهي الصراع القائم بين الناس أو تتهاوى صروح الظالمين بلا جهاد وتضحيات، فإذا لم يستجب له يصيبه اليأس.

رابعاً: أن تأخير الاستجابة لا يعني التعرض للقنوط إذ إن الله قد جعل لكل شيء قدرا.

ولعل الله سبحانه قد أمر له بالاستجابة ولكن وفق سننه الجارية مما يحتاج إلى بعض الوقت، وجاء في رائعة دعاء الافتتاح ما يهدينا إلى حكمة التباطؤ في الاستجابة: «**مُدِلّاً عَلَيْكَ فِيمَا قَصَدْتُ بِهِ إِلَيْكَ فَإِنْ أَبْطَأَ عَنِّي عَتَبْتُ بِجَهْلِي عَلَيْكَ ولَعَلَّ الَّذِي أَبْطَأَ عَنِّي هُوَ خَيْرٌ لِي لِعِلْمِكَ بِعَاقِبَةِ الأُمُورِ فَلَمْ أَرَ مَوْلًى كَرِيماً أَصْبَرَ عَلَى عَبْدٍ لَئِيمٍ مِنْكَ عَلَيَّ يَا رَبِّ**»[1].

[٦١] حين تأوي الخلائق إلى مساكنها عند هبوط الظلام، وتستريح إلى السكون والهدوء، وتعيش خلايا الجسم والأنسجة في سبات بعيدا عن آثار أشعة الشمس، تتجلى نعمة الليل التي جعلها الله سكنا، فلولاه لما تجلت نعمة النهار للإنسان حين تستيقظ الطبيعة، نباتها وأحياؤها، وتلبس الكائنات حلة الضياء حتى لكأن بعضها يبصر بعضا، إذ سبات الليل وسكونه يمهد لنشاط النهار وحركته وضيائه. ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ إنه الله الذي قدر الليل والنهار بهذه الدقة المتناهية، فلولا حركة الأرض حول نفسها في مواجهة الشمس لما تعاقب الليل والنهار، ولو دارت بسرعة أكبر مما عليها لتناثر ما عليها وتفككت و أصبحت كهشيم يذرى في الفضاء الأرحب، ولو دارت حول نفسها أبطأ مما عليها الآن لانعدمت الحياة بالبرد الشديد حينا وبالحر الشديد حينا، فسبحان الذي قدر الليل والنهار وما أعجب حال الذي يستريح في كنف الليل ويتقلب في كف النهار ثم يتكبر على ربه؟!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ إنهم لا يتذكرون عظيم نعم الله عليهم ليل نهار، وأنه لا حق لهم فيها، إنما هي فضل من الله عليهم ومنة، وحق عليهم أن يشكروا ربهم الذي من عليهم بهذا الفضل، وأوفى الشكر أن يعرفوا بأنه هو المنعم، فتخشع قلوبهم لذكره، ثم تسعى جوارحهم إلى أوطان تعبده.

[٦٢] انظر إلى ما حولك من الكائنات. أولا ترى في كل شيء آثار قدرة الله، ولطيف صنعه، و واسع علمه وخبره، وبالغ حكمته، وحسن تدبيره؟ بلى؛ كل شيء يسبح بحمد ربنا

(١) البلد الأمين: ص١٩٣، من دعاء الافتتاح.

العظيم، وكل شيء ينطق بأفصح لغة بأن الله خالقه ومدبر أمره، فهل خلقت الأشياء بذاتها أم وجدت صدفة وبلا علة ولا حكمة ولا تدبير؟! أي عقل يتقبل ذلك أم أي وجدان؟! ثم أين ينحرف البشر عن خالق كل شيء؟! أإله من دونه يتجهون إليه، أم يتيممون صوب الضلال البعيد؟! ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أو يستقيم أن نقول: إن الله خالق كل شيء، ولكن من يهيمن على الأشياء هو غيره؟!

﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ والإفك هو الانحراف، وإنما سميت الرياح الهوج بالمؤتفكات لانحرافها، وإنما جاءتها الكلمة بصيغة المجهول للدلالة على أن العوامل الخفية التي تصرف البشر عن صراط الله تجري بخلاف مصالحه حتى لكأنها تجبره على ذلك جبرا. وإنه لو اعتصم الإنسان بالله لما قدرت تلك العوامل على إضلاله عن سبيل ربه ورب الكائنات.

[٦٣] وإنما تهيمن عوامل الإفك على البشر، لأنه لم يسلم لآيات الله بالرغم من وحي الفطرة ودلالة العقل. ﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ فليس من سبيل هدى إلا في آيات الله، فإذا جحدها الإنسان فإنه ينحرف بفعل العوامل المضلة. ولا ريب أن من آيات الله كتاب الله ورسوله، فمن لم يسلم لهما لم يعتصم بحبل الله، ومن لم يعتصم بالله تقاذفته أمواج الفتن يمنة ويسارا، وحرفته عوامل الضلالة إلى التيه البعيد. إن سبيل الله واحد، وهو الكتاب والإمام، فمن جحدهما ألزمه الله التيه إلى يوم القيامة. وإن سبيل الله شرعة العقل المنور بالوحي، فمن اتبع أهواءه، وظن أن لله طرقا بعدد أنفاس الخلائق، فقد افترى على الله بهتانا عظيما. أرأيت معالم الطريق وإشارات المرور لو لم تأبه بها في سيرك، أين ينتهي بك المطاف؟ كذلك الذي لا يهتدي بمعالم الحق التي وضعها الله لعباده، ولم يتبع رسالاته ورسله وأولياءه الذين يدعون إلى رسالاته ويجسدون هدى رسله.

وكلمة أخيرة: تبيَّن لنا خواتيم الآيات في هذا السياق درجات المعرفة وهي العلم والتذكر والإيمان والتسليم والشكر، كما تبين ما يخالفها من الإفك والجحود، وهي في الوقت ذاته الذي تعالج حالة الكبر، تبيَّن الموقف السليم من آيات الله، وهو موقف الانفتاح والتسليم، وتحذر بشدة من الجحود بها الذي ينتهي إلى الانحراف، وهذا التحذير نجده بصفة مكررة في هذه السورة.

[٦٤] لا ينبغي لمن يتقلب في نعم الله أن يتكبر على ربه أو يجحد بآياته، فالله هو الذي جعل الأرض للإنسان قرارا، فلو كانت جاذبية الأرض أقل أو أكثر إذا صعبت الحركة فيها أو استحالت، «والأوكسجين الذي يوجد في الهواء هو جزءٌ من هذا الضغط، وهو بمعدل نحو ثلاثة أرطال على البوصة المربَّعة. وكلُّ الباقي من الأوكسجين محبوسٌ في شكل مركباتٍ في

قشرة الأرض، وهو يكوِّن (٨ , ٠) من جميع المياه في العالم. والأوكسجين هو نسبة الحياة لكلِّ الحيوانات التي فوق الأرض، وهو لا يمكن الحصول عليه لهذا الغرض إلا من الهواء.

ولو كان الأوكسجين بنسبة (٥٠٪) مثلاً أو أكثر من الهواء بدلاً من (٢١٪)؛ فإنَّ جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال، لدرجة أنَّ أوَّل شرارةٍ من البرق تصيب شجرةً لا بدَّ أن تلهب الغابة حتى لتكاد تنفجر. ولو أنَّ نسبة الأوكسجين في الهواء قد هبطت إلى (١٠٪) أو أقل؛ فإن الحياة ربما طابقت نفسها في خلال الدهور..»[1]. هذه الأرض التي كيَّفها الله حسب حاجات الإنسان، أو إن شئت قلت خلق الإنسان بحيث يعيش عليها بتناسق دقيق، إنها قرار الإنسان. أما البناء الذي يرتفع فوقه فهو السماء التي جعلها الله سقفا محفوظا ونحن عن آياتها معرضون، فلا علم لنا حتى اليوم بجميع أسرارها، بَلْهَ المساهمة في صنعها إنما هو فضل من الله ومنة.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ ثم خلق الإنسان في أحسن صورة وأفضل خلق، فما من شيء مخلوق من جماد أو نبات أو حيوان إلا وفضل الله الإنسان عليه تفضيلا في قوة بدنه وصلابة أعضائه وقدرة احتماله للصعاب، وزوده بالعقل، والعلم وسائر الطاقات التي يسخر بها الطبيعة. لقد زود الإنسان بالحياء ليكون وسيلة تعايشه مع نظرائه والتصاقه بقيمه. أوليس يقري الضعيف بالحياء، ويفي بالوعود بالحياء، ويقضي الحوائج، ويتحرى الفضائل، وينشد الكمال، ويتنكب الرذائل والقبائح بفضيلة الحياء التي خص بها دون سائر الخليقة؟[2]. وزود بالنطق ليكون وسيلة التفاهم، ونقل التجارب، وتواصل المعارف، وتنامي العلوم المختلفة. فإنه لو لم يكن له لسان مهيءٌ للكلام، وذهن يهتدي به للأمور، لم يكن ليتكلم أبدا، ولو لم يكن له كف مهيأة، وأصابع للكتابة، لم يكن يكتب أبدا، وعُدَّ بذلك من البهائم التي لا كلام لها ولا كتابة[3]. وزود بالعلم عبر العقل والوحي، وسخرت به الطبيعة له حتى أصبح سيدا مطاعا بين موجودات الأرض، هذا إلى جانب جمال الصورة، وحسن الوجه، وتناغم الأعضاء. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾.

إن نظرة إلى الإنسان وإمكاناته وطبائعه وحاجاته، ثم إلى السماء والأرض وآياتها وعطائها، والأنظمة الجارية فيهما، تهدينا إلى وحدة الخالق. وأنه هو ربنا، وهو رب العالمين، للتطابق الدقيق والتناغم التام بين تصميم الكائنات وتصوير الإنسان الذي خلقت له. ولا

---

(١) العلم يدعو للإيمان: كريسي موريسون، ص٤٣. دار وحي القلم، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ.
(٢) اكتسبنا الأفكار من كلمات الإمام الصادق عليه السلام في: (توحيد المفضل)، وبحار الأنوار: ج٣ ص ٨١.
(٣) راجع: بحار الأنوار: ج٣، ص٨٢.

يفوتنا عندما نمعن النظر أن نسبح بحمد الله، ونتذكر أن خيره عظيم وثابت، وأنه قد تضاعفت بركته، وتكامل خلقه، وحسن تدبيره.

[٦٥] ولكن حاجة الكائنات إلى بعضها، وحاجة الإنسان إليها، دليل عجز الخلائق ومحدوديتها، وبالتالي إنه يكشف وجود نسبة من الموت ومن العدم فيها. فهذا الإنسان حي بعشرات الملايين من السنن التي تحيط به وقائم بها ومن دونها فهو ميت، دعنا نأخذ الطعام مثلا، أويعيش البشر من دونه؟ وكذلك الهواء لو انعدم انعدمت حياته. أفلا يدلنا على أنه ميت لولا الطعام والهواء؟ من ذلك نهتدي إلى حاجة كل الطبيعة إلى حي يزودها بحاجاتها، ويدبر أمورها، وهو الله الحي. ولكن يتجه البعض إلى المخلوقين في قضاء حوائجهم. أفلا يرون أنهم بدورهم محتاجون؟ ﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ ﴾ حياته بذاته، وحياة غيره به، حياته سبقت الموت، ووجوده سبق العدم. ﴿لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فلا حياة إلا به، وإذا لا سلطان إلا سلطانه، فمن طلب حاجة أو أراد عزا فليجأر إليه خالصا له الدين. ﴿فَـٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وسلموا له، واحمدوه حتى يستجيب لكم. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ فقد جاء في الحديث المروي عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «إِذَا قَالَ أَحَدُكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَلْيَقُلِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ...»[1]. بلى، إذا عرفنا ربنا بأسمائه الحسنى، وأخلصنا له النيات، فإنه يستجيب الدعاء بفضله، جاء في حديث قال قوم للإمام الصادق عليه السلام: ندعوه فلا يستجاب لنا؟ قال: «لِأَنَّكُمْ تَدْعُونَ مَنْ لَا تَعْرِفُونَهُ»[2].

[٦٦] لقد تدرج السياق معنا في مراتب الكمال خطوة فخطوة، فعالج الكبر الذي يحجب صاحبه من الاهتداء بالآيات، ويبعثه نحو الجدل فيها، وبسط القول في آيات الله في الآفاق وفي أنفسنا، ثم أمرنا بالتسليم لله رب العالمين. وها هو الآن يأمرنا بمواجهة الأنداد، ذلك أن الإيمان الحق يتبيّن عندما يحنف صاحبه عن البيئة الفاسدة، ويتطهر من دنس الشرك والخضوع لغير الله، ويكون خالصا دينه لله.. ولن يكون ذلك مع مداهنة المشركين، بل يجب تحديهم. ﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ ورفضي للآلهة المزيفة نابع من إيماني الخالص بالله والذي هداني إليه الله بالأدلة البينة. ﴿لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَـٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ وإننا نجد تأكيدا مجددا على أن الله هو رب العالمين لتصفية ما تبقى من آثار الكبر في النفس، وهل يفكر عاقل بمنازعة رب هذه السماوات الواسعة والأرضين التي نشاهد عن قرب عجزنا عن مواجهة بعض قواها؟!.

[٦٧] ويستعرض السياق تدرج الإنسان في مراحل الخلق طورا بعد طور، وكيف أنه

---

(١) بحار الأنوار: ج٩٠، ص٢٠٠.
(٢) مستدرك الوسائل: ج٥، ص١٩١.

يتقلب في كف السنن الربانية مذ كان ترابا إلى أن خلقه الله من نطفة ثم متقادما من خلق إلى خلق حتى أضحى بشرا سويا، ثم ينكسه الله في الخلق بعدئذ حتى يبلغ أرذل العمر، فهل يجوز لمثل هذا الإنسان أن يستكبر أو يتكبر؟! ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ عندما خلقنا الله جميعا في صورة ذرٍّ من تراب الأرض مع أبينا الأكبر آدم أبي البشر. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أمشاج بين الذكر والأنثى. ولو قدر لنا أن نرى النطفة هذه لاحتقرناها، واستصغرنا قدرها، ولكنها- بالتالي- طور من أطوار خلقنا. ﴿ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ حينما تجتمع الخلايا إلى بعضها وتتنامى حتى تبدو في صورة قطعة دم عالقة بالرحم. ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ ناشئا بحاجة إلى حنين الأم وحماية الأب، والمحافظة من عشرات الأخطار التي تحيط به لضعف بنيته وصغر حجمه. ﴿ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ والله وحده يعلم كم هي السنن التي تساهم في بلوغ ذلك الوليد الصغير مرحلة الشباب والفتوة! ﴿ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ و تمر بكم ألوف الأخطار التي ينقذكم الله منها حتى يضحى الإنسان شيخا، ولكن البعض يختطفهم ملك الموت قبلئذ ليكونوا عبرة لمن يعي. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ فلا يموت الشخص حتى يستوفي أجله في الدنيا. وكم من مريض دفن أو معارض للسلطات القوية أو محارب في ميادين القتال، يتطاول به العمر متجاوزا مئات العقبات، بينما يموت الشاب الصحيح الذي يحيط نفسه بكل الموانع، ليكونا معا دليلا على أن الأجل نعم الحارس. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ و تعلمون أن مراد ربكم من تطورات الحياة أن تتعرفوا عليه، وأن تسلموا له، وألا تشركوا به شيئا.

كذلك يضل الله الكافرين

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

في إطار معالجة داء الكبر الذي يحجب الحقائق عن الإنسان، ويبعثه نحو المجادلة في آيات الله، يذكرنا الله بأن الحياة والمهات بيده، وأن قدرته لا تحد، وأن عاقبة الكبر في الآخرة هي السوأى، إذ الأغلال في أعناقهم، والسلاسل تحيط بهم، ويسحبون إلى مأواهم الأخير عبر مياه حامية، ويقذف بهم في النيران كما يقذف بالوقود في التنور.

وخلال التعذيب الشديد يكبتون ليتم تعذيبهم نفسيا، ويقال لهم: أين ما كنتم تشركون من دون الله وتظنون أنهم ينقذونكم من نار جهنم لو ارتكبتم السيئات؟!.

قالوا: ضلوا عنا (فلا نرى لهم أثرا) ثم قالوا: إنهم في الواقع لم يكونوا سوى أوهام وتخيلات، فيقال لهم: إذا ذوقوا عذاب الله جزاء فرحكم (النفسي) ومرحكم (العملي) فيدخلونهم

-بعد أن يتم تعذيبهم في القيامة- أبواب جهنم التي هي المثوى البئيس للمتكبرين.

والملاحظ أن السياق الذي يذكرنا منذ (الآية: ٣٥) عن الجدال في آيات الله بين أولا جزاء المجادلين في آيات الله جزاءهم في الدنيا بالختم على قلوبهم، ثم بين أن دافعهم الكبر، وعالجه في (الآيات: ٦٠-٦٧) بتبيان حقيقة الإنسان وعجزه، وها هو هنا يُكمل الصورة العلاجية ببيان جزاءهم الأخروي.

بينات من الآيات:

[٦٨] كلما قضيت على نسبة الكبر في قلبك اقتربت من حقيقة نفسك وحقائق الكائنات من حولك، واقتربت من معرفة ربك وأسمائه الحسنى التي تتجلى في الخلائق، فهذه الحركة النشيطة من الموت إلى الحياة ومن الحياة إلى الموت التي تقربنا إلى كشف جوانب من ذلك اللغز الكبير في الموجودات الذي نسميه بالحياة، هي أعظم مدرسة لمن طلب الحقيقة.

إننا أقرب شيء إلى الحياة، فكلنا والحمد لله أحياء نعيش الحياة بكل جوارحنا وجوانحنا وأحاسيسنا ومعارفنا، ولكن- في الوقت ذاته- أبعد شي عنها. ما هي الحياة حقا؟ لعل هناك فروقا نتعرف إليها بين الحي والميت، ولكن حقيقة الحياة هل عرفنا عنها شيئا؟ كلا.. ثم ما هي القدرة المطلقة لربنا العظيم الذي يحيي ويميت؟ وكيف نتلمس يد الغيب تحرك هذه الكائنات بين الموت والحياة؟ عندما تدبّ الحياة في أشجار الحديقة القريبة منك في أيّام الربيع، هل تدبرت فيها لتقترب من لغز الحياة؟ عندما استقبلت لأول مرة وليدك الجديد وهو يحاول أن يتكيف مع الدنيا الجديدة، هل فكرت فيمن أحياه كما أحياك من تراب ثم من نطفة؟ وأكثر من ذلك حين تقف على جثمان فقيد، هل تصورت الموت بجلاله ورهبته كيف اختطفه من بينكم، وما الذي جرى عليه؟

إن بيننا وبين حقائق الخلق حجبا من كبر أنفسنا وغرورها، تعالوا نخرقها لنعرف جانبا مما حولنا، وليعرفنا الرَّب نفسه. ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ﴾ كيف يحيي ويميت؟ إن قدرته لا تحدّ فإذا قضى شيئا يكفي أن يلقي بأمره إليه فينفذ فورا. ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ولعل هذه الخاتمة جاءت لبيان عظمة الإحياء والإماتة، وأنهما يتحققان بأمر غيبي.

[٦٩] إذا كان موقف الإنسان من آيات الحقيقة وشواهدها سلبيا منذ البدء لم يستطع بلوغ المعارف. أرأيت الذي يجحد أصلا بوجود المصباح، كيف يستضيء بنوره؟ وهذه هي مشكلة أكثر الناس، فهم يجادلون في آيات الله، فلا يفتحون لها أفئدتهم، بل ولا أبصارهم،

وذلك بسبب حواجز نفسية. ترى كيف ينبغي ثنيهم عن هذا الموقف؟.

الجواب: تجده في منهج القرآن عندما يدعو إلى الله وعندما يذكرنا بآيات الله. إنه في البدء يعالج هذا الموقف السلبي تجاه الآيات الذي يسميه بالمجادلة فيها، ثم يستعرض الآيات بعدئذ. ففي هذا السياق مثلا نجد القرآن قد بصَّرنا في (الآية: ٣٥) بعاقبة الجدال في آيات الله، وكيف أن الله يطبع على كل قلب متكبر جبار، وضرب لنا مثلا من تكذيب فرعون، وكيف زين له سوء عمله، وصد عن السبيل، وفي (الآية: ٥٦) عاد مرة أخرى إلى قضية الجدل في آيات الله، وبيَّن كيف أنه ينبعث من الكبر الذي لن يبلغه البشر، ثم نسف أساس هذا الكبر المزيف ببيان عظمة الخلق، ثم عاد للمرة الثالثة إلى الموضوع ذاته في هذه الآية ليبيِّن عاقبة الجدل وجزاءه في الآخرة. وفي كل مرة نرى السياق بعد أن يحذر من مغبة المجادلة في آيات الله، يبين طائفة منها لتعمر القلب -الذي طهر من حجب المعادلة والموقف السلبي تجاه الآيات- بضياء المعرفة. ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ إلى أي واد ضلال تسوقهم شهواتهم؟ و يبدو أن الآيات عامة تشمل كل علامة تهدينا إلى الحقيقة، إلا أنها هنا جاءت بمناسبة الحديث عن أدلة النشور وشواهد الجزاء والمسؤولية فهي تمهد لذكر تلك الآيات.

[٧٠] أولئك الذين كذبوا بالكتاب وبما أوحى الله إلى رسله من أحكام ينتظرهم جزاؤهم العادل. ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ﴾ لعل ذكر الرسل هنا للدلالة على ضرورة التسليم للحق، وأيضا للشخص الذي يمثله وهو الرسول والإمام، ذلك أن كل الوحي ليس مفصلا في الكتاب، بل منه ما يبيِّنه الرسول في سنته، وإن من كذب رسولا واحدا أو بكتاب واحد فكأنما كذَّب بالكتاب كله وبالرسل جميعا. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ و يعرفون أي عذاب شديد يجزون به.

[٧١] إنهم يسحبون بالأغلال التي في أعناقهم والسلاسل التي قيدوا بها. ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ يا للخزي ! هكذا يقيِّدهم الله بعد أن منحهم في الدنيا الحرية فلم ينتفعوا بها، بل قيدوا أنفسهم بأغلال الشهوات وسلاسل الأنظمة الشركية.

[٧٢] ولكن.. في أي واد يسحبون؟ ﴿فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ يجرون في ماء حار محموم ثم إلى أن يبلغوا النار التي يلقون فيها حتى تلتهب بأجسادهم كما يسجر التنور بالوقود.

[٧٣-٧٤] كل ذلك -كما يبدو- يجري عليهم في يوم القيامة، وقبل أن يقتحموا في نار جهنم يقرأ عليهم الحكم الصادر بحقهم، والجرم الذي استحقوا به ذلك الحكم. ﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ

﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لقد آمنوا بالطاغوت، وخضعوا للمجتمع الفاسد، للمترفين وأدعياء العلم و الدين، وزعموا أن ركونهم إلى تلك الآلهة المزيفة تنجيهم من عذاب الله فسئلوا عنهم. ﴿قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ فلا نجد لهم أثرا. بلى، إنهم ضلوا عن الحق في الدنيا اعتمادا عليهم، ولكنهم اليوم قد ضلوا عنهم. ﴿بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُواْ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ هل إنهم شرعوا في الكذب على ربهم بعد أن وجدوا صرامة الجزاء، وعنف التبكيت، وخزي الشماتة، أم إنهم بينوا حقيقة طالما أخفوها في الدنيا، وهي أن الكافرين لا يعبدون إلا أسماء، وإنما الآلهة خيالات وأوهام. ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حتى يعبدوا مجرد أوهام، لأنهم كفروا بآيات الله، وكذلك يذهب سعيهم في الحياة الدنيا سدى فلا يستفيدون منه في الآخرة.

[٧٥] لقد أذهبوا طيباتهم في الدنيا، وسعوا نحو اللذات العاجلة دون الأهداف السامية. ﴿ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ الذي لا يؤمن بالحساب يمتلئ غرورا، ويسعى في الأرض بالباطل، دون كوابح أو ضوابط، ودون أن يأبه بمستقبل حياته أو عاقبة أفعاله، ولعل هذا هو معنى وإذا فاض غرور المرء طفق يمرح، وينشط في اتباع الشهوات، ويسرف في اللهو والطرب، ويبتدع وسائل جديدة لقضاء الوقت.

[٧٦] وجزاء هذا الانسياق مع رياح الشهوات، والترف في الملذات، هو ذلك الحميم، والسجر بالنار، والتبكيت، والخلود في جهنم. ﴿ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ ولماذا لا يدخلون من باب واحد؟ هل لكثرة عددهم أم لتنوع جرائمهم، حتى أدخل كل فريق من باب مختلف عن غيره؟ كل ذلك جائز، وعلينا أن نسعى جاهدين لإغلاق كل أبواب النار من دوننا، وذلك بتجنب كل طرق الضلال وسبل الفساد.

﴿فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ وإن جذر سائر المفاسد هو الكبر الذي يتعالى به البشر عن سنن الله، وجزاء المتكبرين الخلود أبدا في جهنم، وساءت مصيرا.

وخسر هنالك المبطلون

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِىَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

ما هو موقف الرسول والرساليين من هؤلاء المجادلين في آيات الله الذين بيّن السياق فيما مضى من الآيات انغلاق قلوبهم، وكبر صدورهم، وعاقبة أمرهم؟

إن عليهم الصبر بانتظار وعد الله الحق، وسواء أراهم الله بعض الجزاء الذي وعد أعداءهم أو توفاهم قبلئذ فإن الأمر بيده، وهذه سنة الرسل الماضين، سواء منهم الذين قَصَّ علينا القرآن عنهم شيئا أو لم يقصص، فحتى الآيات التي تجلت على أيديهم إنما كانت بإذن الله، ولم ينزل العذاب على أممهم إلا بعد أن جاء أمر الله فقضي بينهم بالحق، فنجى المؤمنون، وخسر هنالك المبطلون.

ويذكر السياق بآيات ربنا، وكيف جعل في الأنعام ألوانا من النعم، نركبها ونأكل منها، ونستفيد من أشعارها وأوبارها ونتزيَّن بها، ونشبع عبرها حب التملك والسيطرة التي في أنفسنا، وتحمل أثقالنا كما تحمل السفن.. وأعظم نعمة أنه يرينا بها آياته حتى نحظى بمعرفة خالقنا العزيز، فماذا ننكر من آيات ربنا؟!

ولكي يرفع القرآن حجاب الغرور الذي يمنع الاهتداء بآيات الله، يذكرنا بعاقبة الكافرين بها، و يأمرنا بأن نسير في الأرض لننظر كيف كان عاقبة الذين من قبلنا. أولم يكونوا أكثر عددا منا وأشد قوة وأعظم آثارا في الأرض، ولكنهم دمروا شر تدمير لما كذبوا، ولم تشفع لهم مكتسباتهم المادية؟! إنهم أنذروا عبر الرسل، ولكنهم فرحوا بما لديهم من علم ضئيل واغتروا به فلم يستجيبوا للنذر، فأحاط بهم ما كانوا به يستهزؤون.

واستمروا في غيهم حتى رأوا بأس الله، هنالك قالوا: آمنا بالله وحده، وكفرنا بالشركاء من دونه.. ولكن هل نفعهم إيمانهم؟ كلا.. جرت سنة الله بعدم ذلك، وخسر هنالك الكافرون.

أفلا نعتبر بمصيرهم، ونستجيب لنذر الله، ونستمع إلى رسله؟!.

بينات من الآيات:

[٧٧] حين شاء الله خلق السماوات والأرض لم يخلقهما فجأة بل قدر لذلك ستة أيام، وهكذا كان عالمنا عجينا بالزمن، وهكذا جرت سنة الله في سائر ما يقضيه من شؤون الدنيا، ولو افترضنا جدلا أن كل شيء يتحقق فورا لكانت ملامح عالمنا مختلفة جدا عن واقعنا اليوم، ولما تحققت حكمة الرب في الابتلاء، فهل كان مجرم يقترف ذنبا لو كان جزاؤه عاجلا، أم كان بشرا يني من السعي نحو المكرمات لو جاء ثوابها فورا؟!.

لا بد -إذا- من الصبر حتى يمضي الأجل المحدد، ويبلغ الكتاب نهايته، وهنالك لا يتأخر الجزاء ساعة واحدة، فلو تكاثفت وتركزت جهود أهل الأرض جميعا لتمديد حكم ظالم بلغ أجله لحظة واحدة لما قدروا. ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ سوف يدمر الظالمون شر

تدمير، وسوف تلاحقهم لعنة اللاعنين، وسوف ينتصر الرب لرسالاته، ويمكن المستضعفين في الأرض، كل ذلك وعد من الله، ولن يخلف الله وعده، ولكنه بحاجة إلى الصبر. ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ بما أن الرسول ومن يتبع نهجه لا يبحث عن النصر لنفسه، بل لرسالته، فإن النتيجة عنده واحدة سواء انتصرت مبادئه في حياته أو بعد وفاته.

إن الرسول والمؤمنين قد شروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله، ولا يبحثون عن تشفي نفوسهم بالانتقام من أعدائهم، بل يفوضون أمرهم إلى ربهم فسواء انتصروا أم توفوا، فإنهم قد أدوا واجبهم. حقا إنه أعلى درجات الإيثار، يؤدب الله بها من اصطفاهم من عباده الأكرمين!

كم هي صعبة (وعظيمة في الوقت ذاته) أن يستخلص قلب الداعية من كل رغبة خاصة حتى ولو كانت رغبة الانتقام من أعداء الله. ولكن هذا هو المطلوب في حركة أتباع الأنبياء، ولولاه لكانت تزيغ عن الصراط المستقيم، ولانعدم الاطمئنان إليها وإلى حملتها، ولم تقم الحجة على عباد الله حيث إن طلاب المناصب كثيرون، ولو وضع هؤلاء أيضا المنصب نصب أعينهم لاشتبه الأمر على عامة الناس، فلعل هؤلاء أيضا اتخذوا الدين وسيلة للسلطة، كلا.. إن هؤلاء من نمط آخر، فحتى لو سعت إليهم السلطة سعيا ابتعدوا عن لذاتها و بهارجها، فهذا قدوتهم المثلى سيد البشر محمد بن عبد الله وخاتم النبيين ﷺ سعت إليه قريش يعرضون عليه أجمل نسائهم، وأصفى أموالهم، والملك عليهم، فرفض إلا تبليغ دعوته. ولو خالط حب الدنيا قلب الداعية أثر من حيث يدري أو لا يدري على قراراته الاستراتيجية، ذلك أن عمل الإنسان إنما هو تجسيد لنياته، وقد قال ربنا: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]، فشخصية الإنسان الداخلية تبرز من خلال أعماله شاء أم أبى، وهكذا تنحرف الرسالة عن مسيرها القويم، إذا لم يخلص حملتها نياتهم لله.

وإن فريقا من المنتمين إلى الحركات الرسالية يزعمون أنها حركات سياسية ولكن بصبغة إلهية، فإذا زويت عنها المكاسب العاجلة لمصلحة سائر السياسيين اتهموا قادة الحركة بالسذاجة والانطواء، وحين يطول انتظارهم للنصر تراهم يرتابون في القيم رأسا، وينسحبون عن الساحة؛ كلا.. إنها حركات دينية أولا، وسياسية ثانيا، ذلك أنهم لا يصوغون استراتيجيتهم وفق المتغيرات السياسية، بل حسب الواجبات الدينية، وأعينهم مسمَّرة على أجر الله ورضوانه قبل أن ترمق ملامح نصره، ولذلك تراهم لا يداهنون أعداءهم، ولا يتنازلون عن قيمهم، لا يخادعون الناس، ولا يمالئون المترفين على حساب دينهم، ولا يخشون قوة كبرى، ولا يظلمون قوة صغرى. فهذا الإمام علي عليه السلام حين أشار عليه قومه ببعض الحيل السياسية نهرهم قائلا:

«أَتَأْمُرُونَنِي أَنْ أَطْلُبَ النَّصْرَ بِالجَورِ فِيمَنْ وُلِّيتُ عَلَيهِ؟!»[١].

والحكمة في ذلك أن الهدف الأول لأنصار الرسالة تكريس بالحق وإنذار الناس به، وقد لا تكون السلطة أفضل وسيلة لذلك، إذ قد يكون أثر حركة معارضة في توجيه الحالة الاجتماعية أشد وأبقى من تأثير السلطة الحاكمة. وقد يكون المطلوب إيجاد قوة رسالية ضاغطة باتجاه القيم في مواجهة قوة كافرة تضغط باتجاه الضلال، وفي هذا الوقت تكون السلطة غير مناسبة لإيجاد تلك القوة. وقد يخشى أن يولد الانتصار في غير أوانه فيكون ناقصا، ويجهض سريعا، وبتعبير آخر قد يمنع النصر العاجل المحدد نصرا آجلا أرسخ جذورا وأوسع فروعا. وقد تكون شهادة الرسالي أقوى حجة لسلامة خطه وصحة دعوته من انتصاره، فتكون هي الغاية السامية له.. لذلك نجد الإمام الحسين عليه السلام اندفع للشهادة قائلا: «خُطَّ المَوْتُ عَلَى وُلْدِ آدَمَ مَخَطَّ القِلاَدَةِ عَلَى جِيدِ الفَتَاةِ وَ مَا أَوْلَهَنِي إِلَى أَسْلاَفِي اشْتِيَاقَ يَعْقُوبَ إِلَى يُوسُفَ»[٢]. ثم ناضل أعداء الرسالة، حتى إذا قدم كل أنصاره وأهل بيته وحتى طفله الرضيع، واحتمل جسده عشرات الجراحات، وخرّ على الأرض صريعا، قال: «إِلَهِي صَبراً عَلَى قَضَائِكَ لاَ مَعبُودَ سِوَاكَ»[٣].

[٧٨] تلك هي سنة الأنبياء جميعا، إنهم يتجردون لرسالات ربهم، ويخلصون لله نياتهم وأعمالهم، وحتى الآيات التي تنزل عليهم كانت بإذن الله. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ﴾ ولأنك في خطهم وعلى سبيل الذي مضوا عليه فلا بد أن تهتدي بسيرتهم، وتنظر إلى سنة الله فيهم. ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ جاء في حديث مأثور عن الإمام الرضا عليه السلام عن الرسول صلى الله عليه وآله: «خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ مِائَةَ أَلْفِ نَبِيٍّ وَأَرْبَعَةً وَعِشْرِينَ أَلْفَ نَبِيٍّ أَنَا أَكْرَمُهُمْ عَلَى اللهِ وَلَا فَخْرَ وَخَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ مِائَةَ أَلْفِ وَصِيٍّ وَأَرْبَعَةً وَ عِشْرِينَ أَلْفَ وَصِيٍّ فَعَلِيٌّ أَكْرَمُهُمْ عَلَى اللهِ وَأَفْضَلُهُمْ»[٤]. وجاء في حديث مأثور عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «بَعَثَ اللهُ نَبِيّاً أَسْوَدَ لَمْ يَقُصَّ عَلَيْنَا قِصَّتَهُ»[٥].

وكل أولئك الرسل مضوا على هذه السنة، وهي: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فحتى الآيات التي تشهد على صدق نبوته ليست بإذنه وإنما بإذن الله سبحانه. ﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ﴾ الذين أعرضوا عن رسالة الله وخالفوا رسله، وهكذا حين فوّض الرسل أمورهم إلى الله سبحانه أحسن الله تدبيره، وانتقم

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٢٦.
(٢) بحار الأنوار: ج٤٤، ص٣٦٦.
(٣) ينابيع المودة: ج٣، ص٨٢.
(٤) بحار الأنوار: ج١١، ص٣٠.
(٥) بحار الأنوار: ج٤٠، ص١٧٠.

بشدة ممن خالفهم، بعد انقضاء أجلهم.

[٧٩] الآيات الخارقة التي كان المبطلون يزعمون أنهم إنما يؤمنون بالرسالة إذا وقعت، ليست في الواقع مختلفة عن آيات الله المبثوثة فيما حولهم، إلا أنهم تعودوها فلم تعد تثير فيهم الإعجاب، وإنهم لو شاؤوا الإيمان لكفتهم هذه الآيات شواهد على توحيد الله، ولكن قلوبهم كانت عليلة، وهم بحاجة إلى استيعاب عبرة الأمم الذين خسروا حين جاءتهم الآيات التي طالبوا الرسل بها. وهكذا نجد السياق ينذر من طرف خفي بمصير أولئك الغابرين كل من لا يفتح أبواب فؤاده لآيات الله في الخليقة. ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا ﴾ فهي ذات الأنعام ولكن الله جعل فيها فوائد عظيمة للبشر فمنها ركوبكم. ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ والمسافة شاسعة بين حاجة الأكل وحاجة الركوب، فبينما الأكل طعام الإنسان لا بد أن يكون متناسبا مع متطلبات جسده ولينا، وقابلا للقضم والهضم، نجد مركبه ينبغي أن يكون قويا ومتناسبا وطبيعة الأرض سهلها وحزنها وجبلها وحرتها!

دعنا نقيس السيارات التي اخترعناها لسيرنا، هل تتشابه وخلق الله؟ إنها بحاجة إلى وقود لا يوجد في كل أرض، بعكس طعام الأنعام النابت من كل أرض توجد فيها، وهي بحاجة إلى مصانع، بينما الأنعام تتوالد، وهي ليست قابلة للأكل بعكس الأنعام.. وأخيرا فهي بحاجة إلى طرق معبدة، بينما تسير الأنعام في أشد السبل وعورة. أولا يدل ذلك على حسن تدبير الله لحياة الإنسان؟!

وبالرغم من أن مكاسب الحضارة الحديثة بدورها شاهدة على عظمة الله، لأنها بالتالي تهدينا إلى عظيم خلق الإنسان الذي سخر الله له الطبيعة بالعلم والقدرة، إلا أنها تكشف أيضا عن خبايا الطبيعة المحيطة بنا، التي هي خليقة الله، ومن أحسن منه خلقا وتدبيرا.

[٨٠] وفي الأنعام منافع أخرى في جلودها وأوبارها وأشعارها وحتى في فضلاتها، واليوم حيث أغنى الله الإنسان بوسائل السير السريعة عن الأنعام لازلنا بحاجة ماسة إلى تلك المنافع. ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾ قالوا: تحمل أثقالكم إلى بلاد بعيدة، وتقضون بها حوائجكم، ويبدو لي أن في الآية إشارة إلى الزينة التي جعلها الله للإنسان في الأنعام، حيث قال ربنا سبحانه: ﴿ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴾ [النحل:٦]. ومعروف العلاقة الحميمة التي تنشأ بين الأنعام ومالكيها بسبب وجود هذه الحاجة في الصدر. ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ فالله الذي خلق الإبل ليطوي به الإنسان المفاوز البعيدة، هو الذي أجرى سننه في البحر، وسخر للإنسان الفلك ليحمله عبر المحيطات إلى البلاد البعيدة.

[٨١] فهذه آيات الله يستعرضها ربنا في كتاب الخليقة وفي ثنايا كتابه المرسل، ليعرِّف نفسه إلينا من خلالها، حتى لا نكاد نقدر على إنكارها لشدة وضوحها وكثرتها وتنوعها، فإذا ضل الإنسان فإنما يضل على نفسه، وبعد كمال النعمة وإتمام الحجة. ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ﴾.

[٨٢] وماذا يغني الإنكار -لو أنكرتم- عنكم شيئا؟! إن الحجة قد تمت، والإنذار قد كان بالغا، والانتقام شديد، ولكم في حياة الغابرين عبرة لا ينبغي تجاوزها، أولئك أيضا أنكروا اعتمادا على قوتهم و غروراً بما لديهم من علم، واستهزؤوا بالحقائق إيغالا في اللهو واللعب، فانظروا كيف كانت عاقبة أمرهم، فما راعهم إلا وبأس الله على رؤوسهم، فأعلنوا الإيمان لعله يدفع عنهم قضاء الله، ولكن هيهات!

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لينظروا مصارع عاد وثمود وأصحاب الأيكة، وليقرؤوا على بقايا قلاع بعلبك، وأهرامات مصر، وأطلال مدينة بابل، وما في المدائن و.. وتاريخ الظالمين. بلى، ساروا وقرؤوا وحفظت كتب التاريخ، ومتاحف البلاد، وروايات الناس كثيرا من هذه الحقائق، ولكن الاعتبار هو المهم. ﴿فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ وهل أنهم انتهوا لقلة عددهم، أو ضعف عدتهم، ومحدودية آثارهم بالقياس إليهم؟ كلا.. ﴿كَانُوٓاْ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لقد عمروا الأرض بإثارة التراب وتغيير ملامحه أكثر مما فعل هؤلاء فما أغنت عنهم القصور الشامخة، والقلاع المنيعة، والمنائر الضاربة في السماء ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾.

[٨٣] لقد اعتمدوا على منطق القوة فرفضوا المنطق السليم، وأرادوا دعم منطقهم بأموالهم وآثارهم في الأرض، زاعمين أنهم على حق لأنهم الأقوى ظاهرا، وأن علمهم هو الأفضل لأنهم أكثر عددا وعدة ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ ولعل معنى الفرح هنا: الاستغناء به عن العلوم الأخرى، كمن يعتز برأيه، وهذا يوجب الانغلاق دون الأفكار الجديدة، وهذه في الواقع عادة الظالمين حيث إنهم يصابون بالتعصب والتقليد حتى لكأن قلوبهم في أكنة، يخشون من كل جديد، وينغلقون دون كل دعوة. وهذا ليس من حكمة العلماء إنما هي صفة أصحاب القوة، فالعلم بذاته يدعو إلى التواضع، ويهدي صاحبه إلى آفاق جهله، وآماد المعارف التي يجب عليه السعي إليها، وقد شبه بعضهم العلم بحلقة في صحراء الجهل كلما اتسعت حدودها لامست مساحات جديدة من هذه الصحراء، لذلك ترى أحد العلماء يقول عند موته عندما يسأل: ماذا علمت؟ يقول: علمت بأني لا أعرف شيئا.

بلى، إننا نجد بعض الجهلاء اليوم يفتخرون بعلم العلماء (لا علمهم هم) ويرفضون

رسالة الله اعتمادا على تقدمهم العلمي، بينما نجد علماءهم يزدادون تواضعا للحقائق كلما ازدادوا علما. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ لقد استهزؤوا بالحقائق فأهلكتهم، واليوم حيث يستبدّ بالمستكبرين في الأرض غرور القوة، ويفرحون بما لديهم من العلم، وينغلقون دون دعوات الإصلاح التي يحملها أنصار الرسالة، ويستهزئون بالإنذار تلو الإنذار الذي يبلغه أصحاب الرسالة بأن عاقبة هذه الحضارة ليست بأفضل من عاقبة الحضارات المادية السابقة، وأن الجهل، والأنانية، والظلم، والترف، والغفلة، وسكر الغنى، وغرور القوة، وكل الصفات الرذيلة التي انتشرت في الأرض عاقبتها الدمار، إما بحرب ثالثة لا تبقي ولا تذر، أو بصاعقة منشؤها ارتطام كوكب بكوكبنا، أو زلزال مدمر كالذي يتنبأ به بعض العلماء فيما يتعلق بغرب أمريكا أو ما أشبه.. وإذا كان كل ذلك الإنذار يذهب سدى فإننا نخشى من مصير رهيب نسأل الله العلي القدير أن يرحم البشرية، وأن يهدينا والعالم إلى نور الإسلام الحق.

[٨٤] هؤلاء يعرفون الحقائق، ولكنهم ينكرونها غرورا، لذلك تراهم يؤمنون بالله عندما ينزل عليهم بأسه. ﴿فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ من سلطان ومال وضلال. إن غرورهم بالقوة والثروة، وتعصبهم لضلالاتهم، يسمى كل ذلك شركا في هذه الآية، وقد كفروا به ولكن بعد فوات الفرصة.

[٨٥] إن الكفر بالأنداد، ورفض الآلهة المزيفة، كان ينبغي أن يسبق البلاء حتى يكون نافعا، لأن الدنيا دار ابتلاء، ووقت الابتلاء ينتهي عند رؤية العذاب. ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إن الإيمان ينفع قبل حلول البلاء، تلك سنة لا تتحول فيمن مضى وفيمن يأتي.

سُورَةُ فُصِّلت

* مكيّة.

* عدد آياتها: ٥٤.

* ترتيبها النزولي: ٦١.

* ترتيبها في المصحف: ٤١.

* نزلت بعد سورة غافر.

فضل السورة

عن أبي عبدالله عليه السلام قال: «مَنْ قَرَأَ ﴿حمٓ﴾ السَّجْدَةَ كَانَتْ لَهُ نُوراً يَوْمَ القِيَامَةِ مَدَّ بَصَرِهِ وسُرُوراً وعَاشَ فِي الدُّنْيا مَحْمُوداً مَغْبُوطاً».

(وسائل الشيعة: ج٦ ص٢٥٤)

***

عن أبي عبدالله عليه السلام: «إِنَّ العَزَائِمَ أَرْبَعٌ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ و﴿وَٱلنَّجْمِ﴾ و﴿تَنزِيلُ﴾ السَّجْدَةُ، و﴿حمٓ﴾ السَّجْدَةُ».

(وسائل الشيعة: ج٦، ص٢٣٩)

الإطار العام

العلاقة بين آيات الطبيعة وعبر التاريخ

تفتتح السورة ببيان عن القرآن الذي فصلت آياته ببلاغة نافذة تنفع العلماء الذين تبشرهم بالحسنى، كما تنذر المعرضين الذين لا يسمعون آياته.

وتلخص هذه الفاتحة المحاور الآتية للسورة:

المحور الأول: الجحود والإعراض والاستكبار الذي ابتلي به أكثر القوم حتى زعموا أن قلوبهم في أكنة فلن تهتدي أبدا، ويذكر السياق عوامل هذه الحالة الشاذة، ويعطي وصفة العلاج لها.

ويقارن الذكر بين هذه الحالة الموغلة في الضلالة، وما عليه المؤمنون الذين استقاموا فنزلت عليهم الملائكة، واشتغلوا بالحمد والتسبيح لله بلا كلل ولا سأم. وتكاد تكون هذه المقارنة أبرز سمات هذه السورة المباركة، فإذا تلونا في (الآية: ٥) قول الجاحدين ﴿قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ متحدِّين بكل صلافة الرسالة الإلهية، فإننا نتلو في (الآية:٦) التالية، قوله: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ ليتحدى المؤمنون صلافة الجاحدين بما يفوق إصرارهم، ويهزم عنادهم!

وحين نقرأ في (الآية: ٢٥): ﴿۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ حيث يبيِّن القرآن مدى شقاء هذه الطائفة الجاحدة حتى لزمتهم كلمة العذاب، فإننا نقرا في (الآية:٣٠): ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾. فهناك قرناء السوء، وهنا أولياء الرحمة. وأخيرا حين يبيِّن السياق في (الآية:٣٨) استكبار أولئك الجاحدين، يبيِّن أن من عند الله لا يسأمون عن التسبيح.

ولمعالجة حالة الإعراض عن الذكر والجحود في آيات الله ينذرهم الرَّب في دنياهم

بصاعقة مثل صاعقة عاد وثمود (الآيات: ١٣-١٨)، كما ينذرهم في عقباهم بنار السعير في يوم تشهد عليهم جوارحهم (الآيات: ١٩-٢٢).

ويشير السياق إلى بعض عوامل الإعراض كالظن السيئ بالله، وقرناء السوء، واللغو في القرآن (التضليل)، ويحذر مرة بعد مرة من العذاب الشديد الذي ينتظر الجاحدين حتى إنهم يبحثون هنالك عمن أضلهم من الجن والإنس ليجعلوهم تحت أقدامهم (الآيات: ٢٣-٢٩). كما يبشر الذين يذكرون ويستقيمون على الذكر بالسداد والنصر في الدنيا، والجنة والرضوان في الآخرة.

المحور الثاني: التذكرة بآيات الله في الآفاق وفي أنفسهم، حيث يبين القرآن هنا قصة خلق الكائنات في أيام أو مراحل (الآيات: ٩-١٢) وأن من آياته الشمس والقمر حيث يدعو إلى نبذ السجود لها، و إنما التوجه إلى خالقها بالسجود والتسبيح، وأن من آياته إحياء الأرض بعد موتها، وهو الذي يحيي الموتى (الآيات: ٢٧-٣٩) ويرد إليه علم الساعة، وما تخرج من الثمرات من أكمامها (الآية: ٤٧). ويستعرض جانبا من أطوار النفس البشرية حيث ترى الإنسان لا يسأم من دعاء الخير، ولكنه إذا مسه الشر تراه يؤوسا قنوطا، وحين يرزق نعمة يفقد من الفرح توازنه، وإذا أصابه السوء فهو ذو دعاء عريض (الآيات: ٤٩-٥١).

وكما هو منهج القرآن البديع في سائر السور حيث يوصل الآيات الشاهدة على الحق بالإنذار من الإعراض عنها، ذلك أن بيان الآيات لا يجدي الجاحد نفعا، فلا بد إذا من استصلاح الأرض قبل أن يزرع فيها الحب، كذلك نجد في هذه السورة كيف تتماوج الآيات بين إنذار المعرضين عن الآيات و بين بيان آيات الله في الآفاق والأنفس، مثلا بعد (الآية: ٣٩) التي تلفت النظر إلى خشوع الأرض قبل أن ينزل الله عليها الماء فتهتز وتربو وتحيا، وقبل (الآية: ٤٧) التي تبين علم الله بالساعة و بالثمرات التي تخرج من أكمامها، نجد (الآيات: ٤٠-٤٦) تنذر الذين يلحدون في آيات الله أنهم لا يخفون على الله، وأن الذين كفروا بالذكر لا يفلحون، لأنه كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ثم يذكر بعض أعذار الجاحدين من قبل ومن بعد الرسول.

وتتميز السورة بقوة الطرح، وشدة نبرات السياق، وبخاصة فيما يتصل بالإعراض والجحود في آيات الله، كما تتميز بالمفارقة الحادة بين طرفي الصراع، بين من يصر على الجحود ومن يستقيم على الطريق.

فاستقيموا إليه واستغفروه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ(١) مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ(٢) وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ(٣) ﴿٨﴾﴾

هدى من الآيات:

يفتتح القرآن سورة (فصلت) بما يمهِّد للحقائق التي تذكر بها السورة.

أولاً: تبصر الناس بحقيقة القرآن، وأنه كتاب فصلت آياته بإحكام، وقد أوحي بلغة عربية تبيِّن الحقائق للذين يعلمون، فهو كتاب علم ومعرفة كما هو كتاب حكمة وتربية تبشر وتنذر، إلا أنه هدى للذين يستمعون إليه، أما الذين لا يهتدون إليه فقد أعرضوا عنه حتى قالوا: قلوبنا في أغطية، وآذاننا ثقيلة، وعلى أبصارنا غشاوة، وأن المسافة بيننا وبينك قد سدت

---

(١) أكنة: أي أغطية فإن أكنة جمع كن وهو الغطاء.

(٢) وقر: أي ثقل عن استماع القرآن.

(٣) غير ممنون: أي غير مقطوع، فإن ﴿مَمْنُونٍ﴾ منّ بمعنى قطع أو من (المنّ) بمعنى الأذى الذي يكدِّر الإحسان، أي غير مكدّر بالمن.

بحجاب، ثم تحدوا الرسول ﷺ بأنهم عاملون حسب أفكارهم فليعمل حسب أدائه لينظروا لمن العاقبة. هكذا ذكر السياق في فاتحة السورة بالمنهج الحق للانتفاع بالقرآن، وهو منهج التسليم لا الإعراض والتحدي.

ثانياً: تجرد الرسل عما يتصل بذاتهم من أجل الرسالة شاهد صدق عليها، فهم يدعون إلى الله وحده؛ لا إلى أنفسهم أو قوميتهم أو إقليمهم أو ما أشبه، ويأمرون بالاستقامة في طريقه، ويعدون بالرحمة عبر الاستغفار، وينذرون المشركين؛ الذين يعبدون الطاغوت أو سائر الأنداد بالويل والثبور. والمشركون هم الذين يمنعون الزكاة ويكفرون بالآخرة، وبإزاء هذا الإنذار تأتي البشارة للذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم أجرا لا ينقطع. وهكذا تتجلى صفات القرآن ودعوته في هذه الكلمات البليغة.

بينات من الآيات:

بنور الله الذي يرشه على الأشياء فيجعلها مخلوقات مدبرات بأمره، بنور الله الذي يفيضه على الإنسان فيجعله خليفته في أرضه، ويمنحه به العقل والهدى والمعرفة والمشيئة، وبنوره الذي يوحيه إلى أنبيائه فيجعلهم السرج المنيرة في ديجور الحياة.. بذلك الاسم العظيم والنور الباهر يبتدئ الوحي رسالته، وبه نتلو تلك الرسالة.

﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

[١] ﴿حمٓ﴾ مرة أخرى تستقبل أفئدتنا هذه الكلمات المتقطعة التي تستثير عقولنا، فهل هي أسماء للسورة التي تبدأ بها؟ أم هي إشارات إلى ذات القرآن وهي بمثابة هذه الأحرف أو هذه الكلمات أو هي رموز بين الله والراسخين في العلم من عباده؟ كل ذلك محتمل، ولا ضير في أن يكون كل ذلك مراد القرآن، لأن للقرآن تخوما وعلى تخومه تخوم، ويبدو أن كلمة ﴿حمٓ﴾ مبتدأ أسند إليها قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ﴾، فيكون المعنى: هذا تنزيل من الله.

[٢] تتجلى في كتاب الله الرحمة الإلهية التي تتجلى في خلقه، تلك الرحمة التي تتسم بالشمول والاستمرار. ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ هل استطاع العادُّون إحصاء رحمات الله؟ كلا.. ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل:١٨]، فهو الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء وأحاطت بكل شيء، ورحماته مستمرة منذ أن خلقنا من تراب، ثم من نطفة، والى أن يوارينا الثرى، وهي تستمر بالنسبة إلى المؤمنين إلى الجنة. أفلا ينبغي أن نسارع إلى هذا الكتاب الذي أنزل من عند ذلكم الرب الرحمن الرحيم؟ بلى؛ أولسنا بشرا وقد أودع الله فينا

حب المحسن إلينا، وشكر من أنعم علينا؟ أولا نريد المزيد من الرحمة؟ دعنا إذا نبادر إلى قبول رسالته التي تتسم بالرحمة.

[٣] التنوع والاختلاف سمة بارزة للمخلوقات، والعلم الحق هو الإحاطة بمعرفة خصائص الأشياء واختلافاتها ونسبة بعضها إلى البعض الآخر وحاجات الإنسان هي الأخرى شديدة التنوع وعظيمة الاختلاف، سواء منها النفسية أو الجسمية، ولكل شيء حد إذا تجاوزه بطل، وهكذا حاجات البشر ذات مقدار فإذا أسرف فيها أفسد، وإذا قتر أفسد، فنحن إذا بحاجة إلى خريطة مفصلة لوجود الكائنات ووجود الإنسان بينها، فأين نجدها؟ أوليس في كتاب ربنا الحكيم؟ بلى؛ ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ إنه كتاب (ثابت)، و إنه مفصل قد أحكمت آياته وتشابهت وتناسقت، لا تجد فيها عوجا ولا ثغرة ولا اختلاف، وهذا بذاته شاهد على صدقه، فكل آياته تنبعث من التوحيد الخالص، وتدعو إلى الحق والعدل والجزاء. والكتاب قرآن عربي جاء بهذه اللغة الفريدة التي سمت على كل اللغات في إعرابها عن نوايا المتحدث بكل دقة وبلاغة. ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا﴾ وإنه لشرف عظيم لهذه اللغة وللناطقين بها عبر التاريخ أن وحي الله قد امتطى متنها، ولعلنا نستوحي من هذه الإشارة: أن شرف العروبة باللغة، ولذلك فكل من تحدث بها واعتنق المبادئ السامية التي جاء بها الذكر فهو عربي، وإنما تتفاوت عروبة الناس بمدى التزامهم بتلك المبادئ، وأكرم الناس جميعا أتقاهم. ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ القرآن كتاب علم ولا يبلغ آماده إلا العلماء، وإذا قصر عن وعيه إنسان فلنقص في معارفه.. وكلما تقدم علم البشرية اقتربوا من محتوى القرآن وعرفوا عظمته، إلا إن ركب الإنسانية يسير قدما نحو التكامل ويبقى القرآن أمامه أبدا، كالشمس ضوؤها قريب والوصول إليها مستحيل.

وهذا الاستفتاح يتناسب والحقائق العلمية التي تشير إليها هذه السورة لكي لا تنكر بعضها عندما تجهل أبعادها، فليس من خصائص الإنسان العاقل أن ينكر مالا يعرفه، بل يسعى من أجل معرفته.

[٤] والى جانب أنه كتاب علم، فهو كتاب حكمة، تنفذ بصائره في الفؤاد، وتستثير عقل الإنسان من سباته، وتنهض إرادته، وتشحذ عزائمه، وتربيه وتزكيه، كل ذلك بما يحتوي من بشارة وإنذار. ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ ولا يدع الكتاب نافذة على القلب إلا وينفذ منها، ولا وترا حساسا إلا ويضرب عليه. إنه يرغبهم في ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة بألوان من الترغيب لا تكاد تحصى، كما وينذرهم بألوان من عذاب الدنيا وعذاب الآخرة. ولكن هل يعني ذلك أن القرآن يؤثر في كل الناس؟ إذا بطلت حكمة الابتلاء. ولا يصبح الناس جميعا على هدى. ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ لقد أعرضوا عن ذكرهم، ولم تشأ حكمة

الرَّب إكراههم، فهم لا يسمعون الموعظة ولو سمعوها حقا لاهتدوا إذ لا نقص أبدا من جانب القرآن، بل قد وفر الله وسائل الهداية، ولكن ما ذنب الشمس لو كان الإنسان أعمى؟

[٥] وكان من ملامح إعراضهم أنهم زعموا أن قلوبهم موضوعة في أوعية مغلقة، فهي لا تستجيب للحقائق الجديدة، وأن بينهم وبين الرسول حجابا لا يمكنهم رؤية الرسول من ورائه. ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ﴾ لقد عقدوا عزمات قلوبهم على الكفر بما جاء به الرسول، والتعصب الأعمى لما كان عليه آباؤهم، فزعموا أن هناك سواتر وأغطية عديدة تلف أفئدتهم عن الدعوة الجديدة، بلى؛ الغفلة والجهل والكبر والعناد كلها أكنة على قلوبهم، فكيف تخترقها الرسالة؟!

ثم قالوا: وحتى ولو كانت قلوبنا سليمة فإن آذاننا لا تسمع لما فيها من ثقل، وأبصارنا لا ترى وجوارحنا لا تحس لأن المسافة التي بيننا وبينك قد سُدَّت بالحجاب. ﴿وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ فمن أعرض قلبه ثقل سمعه عن استقبال الدعوة، كما علت عينه غشاوة. ثم كشفوا عن غاية تعصبهم وشدة جحودهم إذ قالوا: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ ﴾ فلم يطيقوا الحوار فقطعوه، وقالوا: اعمل أنت بما ترى، ونعمل بما نعتقد، والمستقبل يحكم بيننا وبينك، وإذا كنت تخطط للمواجهة فنحن مستعدون !! هكذا أعرضوا عن الذكر، فهل يلام على ضلالتهم غيرهم؟

[٦] في مواجهة الدعوات الصادقة يلتجئ المتعصبون إلى مكر شيطاني، وذلك بأن يخلطوا بين الدعوة وبين صاحبها فيتهموه بحب السلطان أو الجاه وما أشبه، ومن هنا كان من أقوى الحجج التي اعتمدها الرسل عليهم السلام التجرد للرسالة عن شخصياتهم، وأنهم لا يطالبون الناس بأجر؛ اللهم إلا ما يكون نفعه للناس- وأنهم لا يبحثون عن جاه أو سلطة أو ثروة، وأنهم لا يدعون التميز عليهم إلا بالوحي. ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ﴾ وأن دعوتهم خالصة لله، وأنهم يسلمون أمرهم لذلك الرب الواحد الذي يدعون الناس للتسليم له.

﴿أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ وهذه هي الميزة الأساسية لرسالات الله عن كل دعوات الباطل، أن تلك الدعوات تسعى لإخراج الناس من ظلام إلى ظلام، ومن عبودية إلى عبودية، ومن غل إلى غل آخر، بينما رسالات الله تدعو إلى النور، إلى الحرية، أي فك الأغلال جميعا. ولولا حجاب الجهل والعصبية والعناد فإن نور الصدق يتجلى في دعوات الأنبياء ومن اتبع نهجهم. ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ ﴾ وهذه ميزة أساسية ثانية: إن دعوات الباطل تجرُّ أصحابها من انحراف إلى انحراف ومن ظلم إلى ظلم ومن إسراف إلى تقتير ومن إفراط إلى تفريط، بينما رسالات الله تدعو الإنسان إلى الحكمة والاعتدال والاستقامة، في طريق الله. وبما أن الاستقامة

إلى الله تعني مقاومة شهوات النفس، وضغط المجتمع، وسلبيات الماضي، وإرهاب الطغاة، فإن البقاء عليها يشبه المستحيل، ولذا قال ابن عباس عن آية الاستقامة: «مَا نَزَلَ عَلَى رَسُولُ اللهِ ﷺ آيَةٌ كَانَتْ أَشَدَّ عَلَيهِ وَلاَ أَشَقَّ مِنْ هَذهِ الآيَةَ[1] ولِذلِكَ قَالَ ﷺ -لأصحَابهِ حِيْنَ قَالوا لهُ: أسرعَ إِلَيكَ الشَّيْبَ يَا رَسُولَ اللهِ!- شَيَّبتني هُودٌ»[2]. ولذلك أمرنا الله بعد الاستقامة بالاستغفار. ﴿وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ فكلما دفعتك أعاصير الضغوط ذات اليمين وذات الشمال عد إلى طريقك المستقيم، فإن على أطراف طريق الجنة حفر النيران فلا تسترسل مع الرياح إلى نهايتها المريعة.

﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ وهم الذين انجرفوا مع رياح الضغط حتى وقعوا في حفر الشرك فلحقهم الويل، ونستوحي من الآية أن من لم يستغفر ربه بعد الانحراف عن خط الاستقامة ينتهي به المطاف إلى الشرك والكفر، كما قال ربنا في آية أخرى: ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الروم:١٠].

[٧] وقد يكون الإنسان مشركا دون أن يعرف، لاعتقاد أكثر الناس أن مجرد الشهادة بالتوحيد لفظيا تكفي علامة على الإيمان، بلى، إنه كاف في مجال التعامل الاجتماعي إذ يحسب من المسلمين ظاهرا، وتحل ذبيحته، ويجوز مصاهرته ولكن لا يكفي عند الله الذي ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩].

إن الإيمان وقر في القلب، وأثر على السلوك وممارسة للطقوس.. ومن أبرز علائمه الزكاة والإيمان بالآخرة، فمن منع زكاة ماله واعتبره مغرما وارتاب في الآخرة فهو مشرك حتى ولو لهج لسانه بالتوحيد. ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي زكاة هذه؟ هل هي النصاب المعروف أم مطلق الإنفاق في سبيل الله؟ يبدو أن الثاني أقرب لكون الآية مكية.

﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ فلولا كفرهم بالآخرة لما منعوا زكاة أموالهم. جاء في الأثر المروي عن الإمام الصادق عليه السلام أن النبي ﷺ أوصى عليا عليه السلام فقال ضمن وصيّته: «يَا عَلِيُّ كَفَرَ باللهِ العَظِيمِ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ عَشَرَةٌ وعَدَّ مِنْهُمْ مَانِعَ الزَّكَاةِ ثُمَّ قَالَ يَا عَلِيُّ ثَمَانِيَةٌ لا يَقْبَلُ اللهُ مِنْهُمُ الصَّلَاةَ وعَدَّ مِنْهُمْ مَانِعَ الزَّكَاةِ ثُمَّ قَالَ يَا عَلِيُّ مَنْ مَنَعَ قِيرَاطاً مِنْ زَكَاةِ مَالِهِ فَلَيْسَ بِمُؤْمِنٍ ولَا بِمُسْلِمٍ ولَا كَرَامَةَ يَا عَلِيُّ تَارِكُ الزَّكَاةِ يَسْأَلُ اللهَ الرَّجْعَةَ إِلَى الدُّنْيَا وذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وجَلَّ حَتَّى إذا جاءَ أَحَدَهُمُ المَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ»[3].

---

(١) يعني قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ [هود: ١١٢].
(٢) مجمع البيان: ج٥ ص٣٤٢.
(٣) وسائل الشيعة: ج ٩ ص٣٤.

[٨] أما المؤمنون الذين يعملون الصالحات فإنهم ينفقون زكاة أموالهم طلبا لأجر الله الذي لا ينقطع. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ ويبقى سؤال أخير: ما هو صراط الله الذي يجب أن نستقيم عليه؟

إنه يتمثل في كتاب الله الذي أوحي إلى الرسول ﷺ فيكون الشرك هو مخالفة كتاب الله المتمثلة في مخالفة الرسول. و مخالفة الرسول تعني اليوم مخالفة القيادة الشرعية التي تدعو إلى الله وتنفذ كتابه، هذا ما نقرؤه في تفسير أهل البيت هذه الآيات[1].

(١) راجع نور الثقلين: ج٤ ص٥٣٩ نقلا عن الإمام الصادق عليه السلام في حديث مفصل.

وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام

﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ (١٠) ﴾.

هدى من الآيات:

ربط الحقائق الكون بعضها ببعض، ربطا متناسقا، ومؤثرا في قلب الإنسان، من الميزات التي يتسم بها القرآن الحكيم في منهجه التربوي والتعليمي، فبينما يحدثنا في هذا الدرس عن العالمين، عن الأرض كيف نظم شؤونها، وقدَّر فيها أقواتها، وعن السماء كيف استوى إليها، ووجه لها وللأرض الأوامر، وكيف قضاهما سبعا، وكيف أوحى في كل سماء أمرها، نجده يحدثنا -في الوقت ذاته- عن التاريخ ودروسه وعبره، عن تلك المجتمعات المقتدرة التي دمرها الله شرَّ تدمير، بسبب اغترارها بقوتها المادية، ثم تحدثنا الآيات الحكيمة -بصورة مباشرة- عن ضرورة معالجة الأمراض النفسية التي تعتري الفرد هكذا توصل آيات الذكر آفاق السماء وأبعاد الأرض بأعماق التاريخ وأغوار النفس لتصنع منها جميعا منهجا تربويا بديعا، كما أنها تمهد- فيما يبدو- فؤاد الإنسان لاستقبال الوحي الإلهي بالطريقة المناسبة.

فالذي بسط الأرض وقدَّر فيها أقواتها، والذي سمك السماوات وجعلهن سبعا، وأوحى في كل سماء أمرها، هو الذي هدى الإنسان إلى القرآن الحكيم، بركة للإنسان وسلاما ورحمة، وإن الإعراض عن منهاج القرآن خطير، كما الإعراض عن سنن الله في السماوات والأرض، وكما الإعراض عن عبر التاريخ.

إن سنة الله في القرآن كسنته في الخليقة.. فهل تستطيع أن تكفر بسنة الجاذبية فتلقي بنفسك من قمة جبل دون أن يصيبك سوء، وهل تضرب رأسك بصخرة وتنتظر السلامة،

وهل تقدر على الاستغناء عن الهواء، عن الغذاء؟ كذلك لا يمكنك الاستغناء عن وحي الله بله الإعراض عنه.

وهل يستطيع أن يقول أحد إني أريد تنظيم الكون تنظيما جديدا، وسلب الأرض جاذبيتها، والهواء رطوبته، والغازات خصائصها؟ كلا.. إن من يريد أن يفعل ذلك لا بد أن يجد طريقه يوما إلى دار المجانين! كذلك الذي يريد مخالفة وحي الله، وسنته في التربية في الاقتصاد، والسياسة، والاجتماع.

بينات من الآيات:

[٩] قد يأتي على إنسان عشرات السنين ينشغل فيها عن كبريات الحقائق التي تحيط به بأتفه الأشياء، فيرى الأرض بما فيها من آيات عظيمة، ولكنه لا يتساءل: كيف خلقت، وكيف سطحت، كيف قدر فيها أقواتها، وتهيأت لاستقبال الحياة هذه النعمة الكبيرة والسر العظيم؟

ويأتي القرآن يذكرنا بأمنا الأرض، ويشير إلى سنن الله فيها، وأنه خلقها في يومين، لعلنا نهتدي إلى رب القدرة. ﴿ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَاداً ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ من خلال السياق نستوحي عظمة الأرض لعلنا نهتدي إلى عظمة الخالق الذي خلقها فقط في يومين، وهكذا نعرف مدى خطورة الكفر بربنا العظيم!! ولكن تتوارد التساؤلات الواحد بعد الآخر حول هذه الآية: كيف تم الخلق؟ وما هما اليومان اللذان خلقت الأرض فيهما؟ ولماذا التأكيد عليهما؟.

أولاً: تقول بعض النظريات الحديثة: إن الأرض انفصلت عن الشمس قبل حوالي ألفي مليون عام، فهل هذا هو معنى خلق الأرض في يومين؟ أم معنى خلقها تهيئتها بصورتها التي استعدت لاستقبال شروط الحياة، فقد مرت مدة طويلة حتى بردت الأرض وتصلب قشرها بعد أن كانت كرة ملتهبة مثلما هي اليوم باطنها حيث لازالت المواد تنصهر هناك في حرارة شديدة.

وجاء في حديث مأثور عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام فيما يتصل بخلقة الأرض: **«كَبَسَ الأَرْضَ عَلَى مَوْرِ أَمْوَاجٍ مُسْتَفْحِلَةٍ ولُجَجِ بِحَارٍ زَاخِرَةٍ تَلْتَطِمُ أَوَاذِيُّ أَمْوَاجِهَا وتَصْطَفِقُ مُتَقَاذِفَاتُ أَثْبَاجِهَا وتَرْغُو زَبَداً كَالفُحُولِ عِنْدَ هِيَاجِهَا فَخَضَعَ جِمَاحُ المَاءِ المُتَلَاطِمِ لِثِقَلِ حَمْلِهَا وسَكَنَ هَيْجُ ارْتِمَائِهِ إِذْ وَطِئَتْهُ بِكَلْكَلِهَا وذَلَّ مُسْتَخْذِياً إِذْ تَمَعَّكَتْ عَلَيْهِ بِكَوَاهِلِهَا فَأَصْبَحَ بَعْدَ اضْطِخَابِ أَمْوَاجِهِ سَاجِياً مَقْهُوراً وفِي حَكَمَةِ الذُّلِّ مُنْقَاداً أَسِيراً وسَكَنَتِ الأَرْضُ مَدْحُوَّةً فِي لُجَّةِ**

تَيَّارِهِ ورَدَّتْ مِنْ نَخْوَةِ بَأْوِهِ واعْتِلَائِهِ وشُمُوخِ أَنْفِهِ وسُمُوِّ غُلَوَائِهِ»[١]. و يبدو أن حديث الإمام يتصل بمرحلة واحدة من أطوار الأرض، وكيف هيأها الرب لسكن الأحياء، حيث مرّت الأرض بأطوار عديدة تشير إليها سائر النصوص لمأثورة كما توضحها النظريات الحديثة.

ثانياً: وما هما اليومان اللذان مرت بهما الأرض؟ لقد اختلف المفسرون في ذلك اختلافا كبيرا حيث إنهم قالوا: «إذا كان تقدير اليوم بحركة الأرض فكيف نتصور اليوم قبل وجودها؟ فقال البعض: إن المراد منها الأوقات، كما قال سبحانه: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ ﴾ [الأنفال: ١٦]، أي حينئذ أو وقتئذ، وقال بعضهم: إن المناط في تقدير الأيام إنما هو بحركة الأفلاك التي كانت قبل خلقة الأرض، وقال ثالث: ما يكون بقدر الأيام في فرض وجودها، وقال الرازي: المراد بالأيام الأحوال المختلفة..»[٢]، ويبدو هذا التفسير أقرب، ذلك لأن أقرب المعاني لليوم هنا برهة من الوقت وحين من الدهر، وما نتصوره من اختلاف وقت عن وقت وحين عن حين هو اختلاف الأحوال، فمثلا نحن نميز بين اليوم الأول من الربيع عن اليوم الثاني منه، بفاصل الطلوع والغروب بينهما، كذلك كانت هنالك فواصل معينة بين الوقت الأول والوقت الثاني (أو إن شئت قلت اليوم الأول واليوم الثاني) بتطور الأحوال.

وفي القرآن يصرح بهذا التطور حيث خلق الله الكائنات بصورة ماء فكان عرشه عليه، ثم خلقها دخانا، ثم خلق السماوات والأرض، ولا بد أن مرت دهور متطاولة بين مرحلة ومرحلة حتى اليوم، كم مرت هذه الدهور بقياساتنا المحدودة؟ حتى الآن لا نمتلك نظريات حاسمة في هذا الحقل، بالرغم من أن بعض العلماء يقدر ذلك بخمسة عشر مليار عام مرت من بداية ما يزعم انفجارا هائلا وموجها حدث في هذا الكون، وتمددت المادة الأولية المخلوقة في صورة مجرات.. ومن أطرف ما قرأته حول هذه المدة في النصوص ما جاء في حديث مأثور عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام بعد أن سأله رجل قائلا: فكم مقدار ما لبث الله عرشه على الماء من قبل أن يخلق الأرض والسماء؟ فأجاب: أتحسن أن تحسب؟ قال: نعم، قال: لعلك لا تحسن!، قال: بلى، إني لأحسن أن أحسب، قال علي عليه السلام: «**أَرَأَيْتَ إِنْ صُبَّ خَرْدَلٌ فِي الأَرْضِ حَتَّى يَسُدَّ الهَوَاءَ وَمَا بَيْنَ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ثُمَّ أُذِنَ لَكَ عَلَى ضَعْفِكَ أَنْ تَنْقُلَهُ حَبَّةً حَبَّةً مِنْ مِقْدَارِ المَشْرِقِ إِلَى المَغْرِبِ وَمُدَّ فِي عُمُرِكَ وَأُعْطِيتَ القُوَّةَ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى نَقَلْتَهُ وَأَحْصَيْتَهُ لَكَانَ ذَلِكَ أَيْسَرَ مِنْ إِحْصَاءِ عَدَدِ أَعْوَامِ مَا لَبِثَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَخْلُقَ اللهُ الأَرْضَ وَالسَّمَاءَ وَإِنَّمَا وَصَفْتُ لَكَ عُشْرَ عُشْرِ العَشِيرِ مِنْ جُزْءٍ مِنْ مِائَةِ أَلْفِ جُزْءٍ وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ عَنِ التَّقْلِيلِ وَالتَّحْدِيدِ**»[٣].

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٤، ص١١١.
(٢) نقلًا عن بحار الأنوار: ج٥٤، ص٦-١٠، بتصرف يسير.
(٣) بحار الأنوار: ج١٠، ص١٢٦.

ولعل أيام خلق الأرض والسماء، وتوفير فرص الحياة على الأرض، هي التي أشارت إليها آيات الذكر من:

١- خلقة الماء، حيث كان عرش القدرة مستويا عليه، ولعله كان أصل الكائنات مادة تشبه الماء[1].

٢- خلقة الدخان، ولعله الحالة السديمية في الكائنات.

٣- تكون المجرات والشموس والكرات الأخرى، وانفصال الأرض عن الشمس.

٤- حالة دحو الأرض وتصلب قشرتها، حيث نجد إشارة إلى ذلك في آي الذكر كثيرا.

٥- حالة توفر عوامل الحياة عليها من ماء وهواء ومواد ضرورية أخرى.

ثالثا: ويبقى السؤال: ما هي الحكمة التي نستفيدها من بيان هذه الحقيقة؟

والجواب:

ألف: بيان قدرة الله وعظمته المتجلية في تكوين الخلائق وتطويرها مرحلة بعد مرحلة وتدبير أمورها في كل مرحلة، حتى انتهى المطاف بها إلى صورتها الحالية، وهي لا تزال تسير في ركب التطور إلى حيث يشاء الله، وهنا نجد إشارة إلى هذه الحكمة حيث يذكرنا الرب بقدرته بعد بيان خلق السماء في يومين.

حقا: إننا حين نتصور الكائنات تتقلب في كف القدرة الإلهية تلك الدهور المتطاولة التي لا يعلمها إلا الله سبحانه، ونتصور -مثلا- ذلك الانفجار المهيب الذي يرى بعض العلماء أنه وقع في الكون قبل (١٥) مليار عام ولا تزال أصداؤه تدوي في جنبات العالم الرحيب بالرغم من هذه الدهور المتطاولة، لا بد أن تتضاءل نفوسنا أمام قدرة الرب، وندع التكبر والغرور والمعاصي، وجدير بنا أن نقرأ خطب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام التي تصف الكائنات وتطوراتها، وتعظ الناس بالتواضع واجتناب الكبر والمعاصي.

باء: لعلنا نستوحي من خلقة الله الخلائق في الزمن أن انقضاء الأجل وتقدم المدة

---

(١) في الكافي: ج٨، ص٩٥: «جَاءَ رَجُلٌ إِلَى أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام مِنْ أَهْلِ الشَّامِ مِنْ عُلَمَائِهِمْ فَقَالَ يَا أَبَا جَعْفَرٍ:... فَإِنِّي أَسْأَلُكَ عَنْ أَوَّلِ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ خَلْقِهِ. فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام:... **وَخَلَقَ الشَّيْءَ الَّذِي جَمِيعُ الْأَشْيَاءِ مِنْهُ وَهُوَ الْمَاءُ الَّذِي خَلَقَ الْأَشْيَاءَ مِنْهُ فَجَعَلَ نَسَبَ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى الْمَاءِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِلْمَاءِ نَسَباً يُضَافُ إِلَيْهِ**..».

وصيرورة التكون من حقيقة الكائنات المحدثة، ذلك أن أول الشواهد وأبلغ الحجج على أولية الخالق زوال الكائنات وعلى قدمه حدوثها، وعلى حدوثها صيرورتها وتقلباتها، واكتمالنا بعد النقص، وانتقاصها بعد الكمال. جاء في الحديث عن الإمام علي عليه السلام: «**الحَمْدُ لله الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ وبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ**»[1].

وبتعبير آخر: إن الزمن جزء من حقيقة الأشياء، وإن هذا آخر ما توصل إليه علماء الفيزياء ابتداء من كبيرهم أينشتاين[2].

إن بركات الله ورحماته مستديمة على الكائنات فهي تنتقل من طور إلى طور أفضل بفضل الله فتتكامل، ولكنها قد تنتكس إلى الأسفل إن هي تجبرت وتكبرت، ولعل هذه هي البصيرة في التكامل والتطور، ونستوحيها من قوله سبحانه في سورة الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[الأعراف:٥٤]. فقد ختمت الآية باسم ﴿تَبَارَكَ﴾ بعد بيان خلقة الكائنات في ستة أيام، مما بصَّرنا بالتكامل الذي تفضل الله به على الخلائق ببركته وخيره العميم المستمر. وفي سياق هذه الآيات نجد قوله تعالى: ﴿وَبَارَكَ﴾.

جيم: وإن علينا أن نعيش وعي الزمن في تقييمنا لما في الكون ليكون تقييما سليما، فمن لم يضع في حساباته (الزمن) يتكاسل دون أن يعرف أن عمره هو هذا الزمن الذي يستهين به، ولا يرى إلا ما يجري أمامه فيصاب بالعجلة والجزع، ولا تحركه النتائج البعيدة، فهو يزداد نشاطا إذا أوتي جزاءه الحسن عاجلا، ويخمل كلما ابتعد زمن الجزاء. ولعل وعي الزمن واحد من الغايات التربوية السامية في كثير من آي الذكر، ولقد ذكرنا بذلك مكررا.

[١٠] لقد وفر الله شروط الحياة في الأرض، وأولها استقرار الأرض بالجبال الراسيات، التي تتصل ببعضها وتمنع الميلان، الناشئ من الرياح الهوج أو الغازات المتجمعة في مركز الأرض التي تسبب الزلازل ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا﴾ يقول العلماء: «إن كل حدث يحدث في الأرض في سطحها أو فيما دون سطحها يكون من أثره انتقال مادة من مكان إلى مكان يؤثر في سرعة دورانها، فليس المد والجزر هو العامل الوحيد في ذلك، حتى ما تنقله الأنهار من

---

(١) بحار الأنوار: ج٥٤، ص٢٧.

(٢) ألبرت أينشتاين (Albert Einstein) (عاش ما بين ١٤ آذار (مارس) ١٨٧٩ إلى ١٨ نيسان (أبريل) ١٩٥٥). عالم في الفيزياء النظرية، ولد في ألمانيا. يشتهر آينشتاين بأنه واضع النسبية الخاصة والعامة الشهيرتين اللتين حققتا له شهرة إعلامية منقطعة النظير بين جميع الفيزيائيين.

مائها من ناحية إلى ناحية تؤثر في سرعة الدوران، وما ينتقل من رياح يؤثر في سرعة الدوران، وسقوط في قاع البحار، أو بروز في سطح الأرض هنا أو هنا يؤثر في سرعة الدوران، ومما يؤثر في سرعة الدوران أن تتمدد الأرض أن تنكمش بسبب ما، ولو انكماشا أو تمددا طفيفا لا يزيد في قطرها أو ينقص منه إلا بضع أقدام»[١].

وهذه الحساسية البالغة بحاجة إلى أثقال تحافظ على الأرض، سواء من تأثير الهواء المحيط بها أو الغازات المحتبسة فيها لكي لا يختل توازنها. والمعروف أن الجبال هي النتوءات الظاهرة للقشرة الصخرية التي تحيط بكرة الأرض، وكأنها درع حديدي برز بعض جوانبه بينما تبقى سائر جوانبه غائرة في الماء أو مدفونة بالتراب. هكذا أشار الإمام علي عليه السلام إلى هذه الآية الإلهية حين قال: «**وعَدَّلَ حَرَكَاتِهَا بِالرَّاسِيَاتِ مِنْ جَلَامِيدِهَا**[٢] **وذَوَاتِ الشَّنَاخِيبِ الشُّمِّ**[٣] **مِنْ صَيَاخِيدِهَا**[٤] **فَسَكَنَتْ مِنَ المَيَدَانِ لِرُسُوبِ الجِبَالِ فِي قِطَعِ أَدِيمِهَا وتَغَلْغُلِهَا مُتَسَرِّبَةً فِي جَوْبَاتِ خَيَاشِيمِهَا ورُكُوبِهَا أَعْنَاقَ سُهُولِ الأَرَضِينَ وجَرَاثِيمِهَا**»[٥].

﴿وَبَـٰرَكَ فِيهَا﴾ لقد خلق الله الأرض طورا بعد طور، حتى تكاملت وتهيأت لاستقبال الحياة، فبعد أن تصلبت قشرة الأرض خلق الله فيها الماء «من اتحاد الهيدروجين بنسبة ٢ والأكسجين بنسبة ١ ومن اتحادهما ينشأ الماء.

والهواء والماء على أرضنا هذه قد تعاونا على تفتيت الصخر وتشتيته، وحمله وترسيبه، حتى كانت من ذلك تربة أمكن فيها الزرع، وتعاونا على نحر الجبال والنجاد، وملء الوهاد، فلا تكاد تجد في شيء كان على الأرض أو هو كائن إلا أثر الهدم واثر البناء»[٦].

ومرت العصور المختلفة، وفي كل يوم بل كل لحظة تتطور الكرة الأرضية أكثر فأكثر بـإذن الله، و يبارك فيها، فحينا بالثلوج التي غطت وجه البسيطة، وحينا بالطوفان، وآخر بالأعاصير، ورابع بالشروق المستمر للشمس، وكذلك بتلقي أشعة تنطلق من النجوم البعيدة، وبألوان العوامل الأخرى.. وخلال ملايين السنين بارك الله في الأرض. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾

---

(١) في ظلال القرآن: ج٥، ص٣١١١، نقلا عن كتاب: (مع الله في السماء)، لمؤلفه أحمد زكي، الناشر: دارالشروق: بيروت- القاهرة، ١٤٠٥ هـ.
(٢) الجلاميد: الصخور.
(٣) الشناخيب الشم: القمم المرتفعة.
(٤) الصياخيد: الصخور الشديدة.
(٥) بحار الأنوار: ج٥٤ ص١١٢.
(٦) في ظلال القرآن: ج٥، ص٣١١١، نقلا عن كتاب: (مع الله في السماء)، لمؤلفه أحمد زكي، الناشر: دارالشروق: بيروت- القاهرة، ١٤٠٥ هـ.

ومن مصاديق البركة الأقوات التي قدَّرها الرب في الأرض، حيث أودع التربة المواد الكيماوية النافعة للزراعة، كما خزن في الجبال المعادن المختلفة من الحديد والذهب والفضة وأنواع الأحجار الكريمة والصخور المفيدة، كما خلق في أعماق الأرض بحيرات النفط والغاز، كما أودع فيما حول الأرض حاجتنا من الهواء الذي نتنفس من أوكسيجينه، ويتغذى النبات من كربونه، ومن أكسيد كربونه، كما ضمنه النتروجين الذي يخفف من وطأة الأوكسجين، وأجرى فيه تيارات رطبة لتلطيف الجو.. وأرسل الرياح في الجو مبشرات برحمته، حيث تحتمل السحب المتراكمة إلى الأراضي المتباعدة ليسقيها الرب حاجتها من الماء.

﴿فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ﴾ قالوا: معناه يومان لخلقة الأرض ويومان لتوفير الأقوات فيها، ويحتمل أن تكون خلقة الأرض قد تمت في يومين، وقد تمت خلقة السماء وتهيئة الأرض في يومين بالتزامن، ثم استمرت عملية تمهيد الأرض ليومين آخرين، فيكون المجموع ستة أيام، حيث إن الآيات القرآنية صريحة في أن خلقة السماوات والأرض قد تمت في ستة أيام، والله العالم.

وهنا وقفة اعتبار، لقد خلق الأرض على عظمتها في يومين فقط، بينما قدَّر فيها أقواتها في أربعة أيام. أفلا يدل ذلك على أن نعمة تهيئة الأرض للحياة أعظم من نعمة خلقها، بلى، فقد اكتشف العلماء مزيدا من الأجرام السماوية، ولكن حتى هذه اللحظة لم يكتشفوا شيئا من آثار الحياة فيها، مما يهدينا إلى عظمة النعم التي أسبغها الرب لأهل الأرض حتى تهيأت لحياتهم. أفلا نشكره سبحانه؟!

﴿سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ فكل المحتاجين إلى الأقوات يتساوون في الحصول عليها، لأنها متوفرة في كل مكان، فليس الهواء والأرض والمعادن قليلة حتى يستأثر بها قوم دون آخرين، بل الناس فيها شرع سواء. كما أن معرفة هذه الحقيقة متوفرة لكل السائلين. و يحتمل أن يكون التساوي في الأيام التي هي الدورات التي مرت بالأرض، والله العالم.

قالتا: أتينا طائعين

﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ ﴾.

هدى من الآيات:

لا تزال الآيات الأولى من هذه السورة -التي تأمر الإنسان بالسجود لرب العزة كما سجدت له السماوات والأرض- تستعرض خلق الكائنات، حيث قام ربنا القدير بأمر الخلق بعلمه ومشيئته، فقال للسماء وهي دخان وللأرض التي خلقها من قبل ائتيا فأتيتا طائعتين، وهكذا كل شيء مستجيب لمشيئته طوعا.

فخلقهن سبع سماوات خلال يومين (أو دورتين) وأوحى في كل سماء منها ما يتعلق بها من شؤون، وزين السماء الدنيا وهي أقربهن إلى الأرض بمصابيح هدى للناس في ظلمات الليل وزينة، وجعلها حصنا للأرض. إن ذلك من تقدير الرب ذي القدرة الفاعلة والعلم النافذ سبحانه.

بينات من الآيات:

[١١] بعد أن خلق مادة الأرض قبل دحوها أو بعدها قصد ربنا المقتدر بمشيئته النافذة إلى السماء، وكانت آنئذ مجرد دخان، وفرض عليها طاعته، فاستجابت: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾

ألف: وتساءل المفسرون: لماذا استخدم حرف ﴿ ثُمَّ ﴾ وهو للتعقيب والتراخي، فهل تم

خلق السماء بعد الأرض، بينما النظريات العلمية ترى العكس، ويقول ربنا في سورة النازعات: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٣١].

أجاب البعض: إن ثم للتعقيب البياني، أي ثم اسمع قصة السماء وهي كيت وكيت.

وقال البعض: إن الله خلق الأرض أولا وخلق السماء ثانيا، ولكنه إنما دحا الأرض بعد خلق السماء، كما تدل الآية في سورة النازعات، وعلى ذلك تدل أيضا بعض النصوص الإسلامية.

ويبدو لي أن المراد من ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ هنا الهواء المحيط بالكوكب وليست الأجرام الموجودة في السماء.. ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ ذات طبقات سبع، ولكل طبقة أمرها، وعلى ذلك فيكون خلقها بعد خلق الأرض، ويكون معنى قوله سبحانه في الآية التالية: ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا﴾ أن الله جعل السواد المحيط بالكرة الأرضية بطريقة نرى النجوم التي خلقها في صورة مصابيح، كما جعلها حفظا بما خلق فيها من غازات خاصة.

بـاء: وتساءلوا: ماذا يعني ﴿ٱسْتَوَىٰٓ﴾ فقالوا: إن ربنا قصد وتوجه إلى السماء، ويبدو لي أن كلمة الاستواء تعني معنى القيام والاهتمام والقصد (بإضافة معنى إلى) والهيمنة، وكلها مرادة في هذه الجملة، ولكن بالطبع من ملاحظة استخدام الكلمة في مقام الربوبية المقدس عن أية همهمة أو تجوال فكرة أو حركة، سبحانه.

جيم: ثم تساءلوا عن الدخان فقالوا: إنه غازات، وإذا قلنا بأن المراد من الآية كل ما في السماء، فإن الآية تشير إلى المرحلة السديمية السابقة لتكون الأجرام الفضائية، حيث تجمعت وتركزت بعد ذلك في صورة نجوم، ولا تزال كميات كبيرة منها منتشرة في الفضاء يقدرها الخبراء بمثل الكمية التي خلقت منها النجوم، ولا تزال النجوم تكنس الفضاء من هذه الجزيئات السديمية باجتذابها إليها، ولكنها أكثر بكثير من قدرتها على الجذب!.

﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ ولماذا لا تستجيب السماء والأرض لمشيئة الله الذي خلقهما بفضله، وأودع فيهما آياته، وجعلهما محلا لعبادة المكرمين من ملائكته وأرواح أوليائه، بلى؛ إنهما وسائر الكائنات تستجيب للرب طواعية، سعيا وراء مرضاته، وامتنانا لرحماته، وشكرا لبركاته، قبل أن تستجيب له خشية غضبه، ومخافة سطواته، وقد يقول: تجلي رحمة الله في الخلائق أبهى من تجلي عزته، وقد سبقت رحمته غضبه، سبحان الله رب العالمين.

ولعل الآية تشير إلى أن ربنا كان يجري سننه في الخليقة شاءت أم رفضت، ولكنها خشعت لأوامر الله طوعا لا كرها!! فجرت سننه فيها بلا إكراه.. ويا ليتنا وعينا عبرة هذه الحقيقة، وأجرينا أحكام الله على أنفسنا طوعا ورغبة في مرضاة الله.

ونتساءل: هل كان للسماء والأرض شعور حتى يخاطبهما الرب بهذه الصورة؟ ينفي البعض ذلك بشدة، ويؤولون كل الآيات التي توحي بذلك إلى خطاب الحال، مثلا في هذه الآية يقولون: المعنى: أمرهما بالتشكل فامتثلتا طائعتين، ويبقى سؤال: ماذا كان إذا الخيار الآخر أي أن تأتيا كرها؟ أفلا يدل التقسيم إلى اختلاف طرفيه، فهناك حركة طوعية وأخرى كرهية، لم أجد من يجيب عن هذا النقاش، ولكن باب التأويل لديهم واسع، بيد أن الأقرب حمل الآيات التي توحي بإحساس الخلائق على ظاهرها أو صريحها، لأن ما يدعونا إلى تأويلها مجرد استبعاد، فلأننا لا نعرف كيف تم خطاب الله للأرض والسماء نقول لم يتم هذا الخطاب أبدا، وأما ذلك أسلوب بلاغي في القرآن، ولأننا لا نفهم كيف تسبح السماوات والأرض، نقول: إن أهلها هم الذين يسبحون، ولأننا لا نعي كيف عرض الله أمانته على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، قلنا كلا.. إنه كان مجرد افتراض.

إن عشرات الآيات القرآنية وأضعافا منها من الأحاديث المأثورة عن المعصومين عليهم السلام ظاهرة أو صريحة في وجود الشعور -بقدر ما- لسائر الخليقة، يتجلى في يوم القيامة عندما يستنطقها الله، فهل يجوز أن نضرب بها عرض الجدار لمجرد أننا لا نعرف كيف ذلك؟ إن من الجهل أن ننكر شيئا لأننا لم نحط علما بتفاصيله، ومن العقل أن نؤمن به ثم نبحث عن تفاصيله بروح إيجابية.

بلى، إننا كبشر لا يمكننا بالوسائل المتاحة لنا -الآن- أن ندرس الأحياء والأشياء من باطنها، بل من خلال الظواهر التي تهدينا إلى واقعها وحتى فيما بيننا كبشر هل يستطيع زيد أن يدرس نفسية عمرو كما يدرس هو نفسيته؟ كلا.. إنها الظواهر تدل عليها، وإذا اتبعنا هذا المنهج لعلنا نبلغ الواقع.. فما هو الشعور؟ وما هي الظواهر التي تدل عليه؟ يبدو أن الشعور هو الجهاز المنسق بين الشيء والمحيط الذي هو فيه، فنحن نملك هذا الجهاز بفضل الحواس التي تنقل إلى المخ الإشارة عبر الأعصاب، وهناك تقوم مجموعة أجهزة الدماغ بتحليل الإشارات وإصدار الأوامر المناسبة بشأنها، ولا ريب من وجود مثل هذا الجهاز -ولو كان غير متطور- عند سائر الأحياء، بل وفي النباتات التي تنسق وضعها -بصورة و بأخرى- مع بيئتها بفضل نواتها المركزية، بلى، نحن لم نكتشف مثل هذا الجهاز عند الجمادات، ولكن يحق لنا أن نتساءل عنه بعد علمنا بوجود قدر كاف من التنسيق بين جميع الكائنات، ولو افترضنا قوة الجاذبية

-مثلا- إحدى ظواهر هذا الجهاز لم نجاف الحقيقة.

[١٢] ويمضي السياق يبين قدرة الله المتجلية في هذا الخلق العظيم، لقد خشعت له السماوات والأرض وجاءتا إليه طائعتين، فقدر وقضى أن تكون السماوات سبعا بحكمته البالغة وبمشيئته التي لا ترد، فاستجابت السماوات الهائلة بلا تردد، وأضحت سبعا خلال المدة التي قررها الرب لها، وهي يومان أو دورتان. ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ ما هي هذه السماوات السبع؟ هل هي طبقات سبع حول أرضنا تشكل السماء المحيطة بنا؟ أم هي سبع مجاميع من المجرات، والمجرة الواحدة كالتي نحن فيها المسماة بسكة التبان يبلغ قطرها مئة ألف مليون سنة ضوئية؟ أم كل ما في المجرات التي نعرف عنها من شموس وأجرام تقع في السماء الأولى، وأن لله سماوات أخرى غيرها فيها ما لا يعلمها إلا الله من كائنات عظيمة؟.

وعلى أي تفسير فإن قضاء الله جرى خلال يومين، أو حسب تفسير سابق دورتين، لا نعرف عنهما شيئا.

﴿فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ يبدو أن أمر كل سماء قيادتها ونظامها وما يتعلق بها من شؤون التدبير أن كل تلك قائمة فيها كما لو كانت وحدة إدارية، ولعل من أمرها ملائكة الله التي فيها. ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ ما هي هذه السماء الدنيا؟ فإذا كانت السماء المحيطة بالأرض فإن زينتها بسبب طريقة تموج النور فيها، حيث لا ترى النجوم خارج الفضاء المحيط بهذه الصورة الجميلة، ولكن القول المعروف عند المفسرين أن السماء الدنيا هي جانب من الفضاء الأرحب، وعلى ذلك نستوحي أن كل النجوم التي ترى تسبح ضمن السماء الدنيا، وأن هناك سماوات لا نرى أجرامها. ﴿وَحِفْظًا﴾ فالغازات المحيطة بالأرض تحفظ الأرض من ملايين الشهب التي تتساقط عليها كل يوم، كما أن الله يحفظ الأرض بالمصابيح من الشياطين. ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ تعالـوا لننظر إلى لطف صنع الله، وحسن تدبيره، وجمال خلقه، وبديع تقديره. أفلا يهدينا كل ذلك إلى عزته وعظمة قدرته في الخلق والتدبير؟! أفلا يهدينا إلى أنه العليم الذي لا يعزب عن علمه شيء؟ وأي قدرة وأي علم لربنا الذي سخر الشمس التي هي أكبر من أرضنا بمليون مرة في مدارها المحدد دون أن تفسق عن مسارها قيد شعرة؟! وأي قدرة وعلم لربنا الذي أجرى في قلب الذرة المتناهية في الصغر سننه النافذة التي لا تغيير فيها؟!.

وقالوا لجلودهم: لم شهدتم علينا

﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ (١٣) إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا [1] فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨) وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ [2] (١٩) حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١)﴾.

هدى من الآيات:

بمستوى الإجرام الذي يبلغه الإنسان حين يكفر بالله العظيم يكون مستوى الإنذار

(١) ريحاً صرصراً: وهي الريح الباردة، من الصر بمعنى البرد، أو هي الريح العاصفة ذات الصوت الشديد، واشتقاق الصرصر من الصرير، وضوعف اللفظ إشعاراً بمضاعفة المعنى.

(٢) يوزعون: أي يحبس أوّلهم ليلحق بهم آخرهم، من وزع بمعنى حبس ومنع، والمعنى إذا حشروا حبسوا هناك على حافة النار قبل دخولها، وفيه زيادة إهانة وإرهاب.

والعذاب، فليس هيِّنا تمرد البشر هذا المخلوق الضعيف المحدود على سنن الله التي استجابت لها السماوات والأرض طوعا! كذلك ليس هينا الصاعقة التي ينذر بها -إذ ذاك- فهي مثل الصاعقة التي أخذت قوم عاد وثمود !.

إنها واحدة من السنن التي أجراها الله في الكائنات، والتي لا تغيير فيها ولا تبديل كما تقدير العزيز العليم في خلق السماوات والأرض.

لقد جاءتهم الرسل قبل وبعد انحرافهم وأنذروهم من عاقبة الشرك بالله، فكفروا بالرسالة زاعمين أن الله لو شاء لأرسل إليهم ملائكة، واستكبرت عاد في الأرض بغير الحق اغترارا بقوتهم التي قهرت كل قوة في الأرض، ولكنهم لم يروا أن الله الذي خلقهم أشد منهم قوة، وهكذا جحدوا بآيات الله اغترارا بقوتهم. فأرسل الله عليهم ريحا عاصفة، ذات صوت وصرير، في أيام سيئات نحسات، وعذبهم بعذاب الخزي والهوان في الحياة الدنيا، وكان ذلك بين يدي عذاب أخزى في الآخرة.

أما ثمود فقد هداهم الله حين جاءتهم الناقة مبصرة، ولكنهم استحبوا العمى على الهدى، وكان جزاؤهم الصاعقة التي تمثلت في العذاب المهين.. كل ذلك بما كانوا يكسبون من جرائم وموبقات! ولم تكن صدفة تلك الصواعق، بل تنفيذا لسنة إلهية جارية، وأبسط الأدلة على ذلك؛ أن الله سبحانه أنقذ الذين آمنوا وكانوا يتقون، فلم يرتكبوا تلك الموبقات.

بينات من الآيات:

[١٣] إن ذلك العذاب الإلهي الذي نزل على قوم عاد وثمود فساء صباحهم يمكن أن ينزل على أي قوم كافر، إذ لم ينزل على الأمم صدفة بل ضمن سنة إلهية، وكذلك كل ما يُعدُّه الناس صدفة. إن عثرة الرجل في الطريق، أو انتشار مكروب في جسم أحد الأشخاص دون صاحبه، وحوادث السير والزلازل والبراكين والسيول والحروب وما إلى ذلك، قد يتصور الإنسان أنها مجرد صدفة، بينما ليس في هذا الكون بأكمله شيء بلا سبب، بلى؛ هناك حوادث نعرف أسبابها وقوانينها، و أخرى لا نعرف فنرميها بالصدفة. ونحن بصفتنا مؤمنين نعتقد بأن كل حادثة كبيرة أو صغيرة، تجري ضمن سنة إلهية، ولهذا نعتقد أن الصدقة تدفع البلاء، وأن الدعاء يرد القضاء وقد أبرم إبراما، وأن صلة الرحم تزيد في العمر، وأن الإحسان يرفع البلاء، كما ونعتقد أن من يمارس الأعمال الشريرة يصاب بتلك الحوادث التي نسميها صدفا، وما هي بصدف، وقد قال ربنا: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان:٢].

لذلك أخبرنا الرب بأن إعراض العرب -لو تم- يوم دعاهم الرسول إلى القرآن لا يختلف عن إعراض عاد وثمود، فإن العاقبة واحدة لأن السنة الإلهية واحدة. ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ إن العرب يتقسمون إلى ثلاث طوائف: العرب العرباء (عرب اليمن) والعرب المستعربة (العرب من نسل إسماعيل عليه السلام) والعرب البائدة (كقوم عاد وثمود)، والسؤال: هل بادت عاد و ثمود صدفة أم لأسباب ومبررات، وهي تتجدد (السنة) فيما لو تجددت تلك الأسباب والمبررات؟ بلى، إنها بادت لأسباب ومبررات.

[١٤] ويجمع كل تلك الأسباب والمبررات الكفر، وفي الآية الكريمة التالية توضيح لذلك: ﴿إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ كانت تلاحقهم من كل جانب، وتأتيهم بكل طريقة، وتحاول هدايتهم بكل كلمة بليغة، وبكل أسلوب سليم، كانت تأتيهم ﴿مِن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي تقول لهم قبل الانحراف: لا تنحرفوا، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أي تقول لهم بعد الانحراف: لماذا انحرفتم؟ دعوا الانحراف.

لقد جاؤوهم ودعوهم إلى تلك الحقيقة المهمة التي هي خلاصة رسالات الأنبياء جميعا، وهي: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ ولكن، ماذا كان جوابهم؟ لقد زعموا أن الله ينبغي أن يبعث ملكا رسولا، إما أن يكون رسولهم واحدا منهم يأكل الطعام، و يمشي في الأسواق، ولا يملك خزائن الأرض فلا.. ﴿قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ فكفروا بالرسالة لاعتمادهم على منهج مادي بحت لمعرفة الحق، فهم كفروا بما أرسل به الأنبياء قبل أن ينظروا فيه، بل لمجرد أن المبعوث به ليس ملكا.

[١٥] ماذا كانت عاقبة كفر أولئك الناس من أسلاف العرب؟

﴿فَأَمَّا عَادٌ﴾ تلك الحضارة القوية، التي هلكت في عز شبابها، وعنفوان قوتها. ﴿فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ كانوا يستكبرون، أي يحسبون أنفسهم كبارا فيظلمون الناس، ويغصبون حقوقهم لمجرد أنهم أوتوا قدرا من القوة. ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ ولكن من لا يستطيع أن يمنع عن نفسه عاديات الطبيعة، كعادية الريح والبركان، كيف يسمح لنفسه بأن يتعالى على الله رب الريح والبركان؟! كيف يستطيع أن يتكبر على النظام الذي يسير كل جزء من كيانه، شاء أم أبى؟! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أولم يعرفوا هذه الحقيقة الواضحة؟ بلى، جحدوا بها برغم توافر الآيات عليها. ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ وهذا الجحود كان نتيجة للاستكبار، لأن الاستكبار يصبح حجابا سميكا بين الإنسان وبين الحقيقة.

[١٦] ولكن هذا الجحود، وذلك الاستكبار، سببٌ في إرسال العذاب المهين عليهم، متمثلا في ريح عاصفة ذات صوت وصرير.. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ وتلك هي المعادلة الحاكمة في الخلق، من لم يستجب طوعا لرسول الرحمة والإنذار، يستجيب كرها لرسل العذاب والعاصفة.. ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ لم يكن فيها ذرة من السعد.. ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ هكذا كان العذاب في الدنيا مخزيا مهينا، لأنهم كانوا يستكبرون ويتجبرون، وأما العذاب في الآخرة فهو أعظم خزيا، وأبقى ألما. وإن شدة عذاب الله في الدنيا، وهول وقعه على الكافرين، تهدينا إلى أمرين:

أولاً: هول عذاب الله في الآخرة، وتناهي شدته بما لا يمكننا تصوره.

ثانياً: صرامة سنن الله وكيف تدمر الذين يكفرون بالله شر تدمير، بلى، لقد جاءت السماء والأرض لربها طوعا قبل أن يؤتى بهما كرها، فهلا نأتي ربنا طائعين من قبل أن تذهب بنا ريح صرصر عاتية؟!.

[١٧] ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ﴾ فقد بعث الله إليهم الأنبياء، وزودهم بالآيات المبصرة، ومن عليهم بالهداية.. ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ لقد بعث الله إليهم صالحا فآمنوا به، ولكنهم انحرفوا بعدئذ عن طريق الرشاد. بلى، إن الطريق كان واضحا أمامهم، والحقيقة ظاهرة كالشمس في كبد السماء، ولكنهم أغمضوا أعينهم، وقالوا: نحن لا نرى، فماذا كان مصير كفرهم بعد الإيمان؟ ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ نزلت عليهم -كما نزلت على عاد- صاعقة العذاب، المشبعة بالخزي والإهانة، والسبب واضح: ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ لا لضآلة في مغفرة الله، لأنها أعظم من ذنوبهم، ولا لضيق في رحمته، لأنها وسعت كل شيء، ولكن لأنهم أبعدوا أنفسهم عن الرب الرؤوف الرحيم بما اجترحوه من سيئات.

ونستوحي من هذه الآية أن كفر ثمود يختلف عن كفر عاد، فعاد كفروا بكل شيء، رأسا، وأما ثمود فآمنوا بالرسول والرسالة، ولكنهم فعلوا ما يتناسب والكفر، من عقر الناقة، ومخالفة أوامر الرسول فيما يتعلق بها، فما كسبوه كان خاطئا. ولهذا يقول الله سبحانه: ﴿فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ أي اهتدوا فكريا ونظريا ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ﴾ أي انحرفوا عمليا وسلوكيا، وهذا يُعَدُّ عمى، كالذي زوده الله بالبصر، ولكنه لا ينتفع به فيقع في الحفرة. ومن هنا نعرف أن عذاب الله يقصم ظهر من يخالف سننه في الخليقة التي تكشفها أحكامه في الشريعة، سواء آمن بها وخالفها، أم كفر بها رأسا، فالذي يناطح الصخرة ينفلق رأسه سواء آمن بهذه الحقيقة أو كفر بها. وفي ذلك تحذير لأمة النبي محمد ﷺ أن مخالفتهم لرسالته نظريا أو عمليا تجر إليهم الويلات.

[١٨] وبين هؤلاء المنحرفين -الكافرين عمليا- كانت هناك مجموعة من المؤمنين الصادقين، أنجاهم الرب، وكان سبب نجاتهم هو تقواهم واجتنابهم ما ارتكبه الآخرون من الجريمة والفحشاء. ﴿ وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ ويذكر الرواة في تفسير هذه الآية قصة مفيدة هي كما روى ابن إسحاق وابن المنذر والبيهقي في الدلائل وابن عساكر: «أَنَّ عُتْبَةَ بنَ رَبِيعَةَ، وَكَانَ أَشَدَّ قُرَيْشٍ حُلْماً، قَالَ ذَاتَ يَوم وَهُوَ جَالِسٌ فِي نَادِي قُرَيْشٍ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ جَالِسٌ وَحْدَهُ فِي المَسجِدِ: يَا مَعْشَرَ قُرَيشٍ، أَلاَ أَقُومُ إِلَى هَذَا فَأُكَلِّمُهُ فَأَعْرِضُ عَلَيهِ أُمُوراً لَعَلَّهُ أَن يَقبَلَ مِنْهَا بَعْضَهُ، وَيَكُفَّ عَنَّا؟ قَالُوا: بَلَى يَا أَبَا الوَلِيدَ. فَقَامَ عُتْبَةُ حَتَّى جَلَسَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَذَكَرَ الحَدِيثَ، فِيمَا قَالَ لَهُ عُتْبَةُ، وَفِيمَا عَرَضَ عَلَيهِ مِنَ المَالِ والمُلْكِ وَغَيرَ ذَلكَ، حَتَّى إِذَا فَرَغَ عُتْبَةُ قَال رَسُولُ اللهِ ﷺ: **أَفَرَغْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ؟** قَالَ: نَعَم.

قَالَ ﷺ: **فَاسْمَعْ مِنِّي**، قَالَ، أَفْعَلُ .فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾. فَلَمَّا سَمِعَهَا عُتْبَةُ أَنْصَتَ لَهَا، وَأَلقَى يَدَيهُ خَلْفَ ظَهْرِهِ، مُعْتَمِداً عَلَيهِمَا يَسْتَمِعُ مِنْهُ، حَتَّى انْتَهَى رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى المَسْجِدِ فَسَجَدَ فِيهِ، ثُمَّ قَالَ ﷺ: **سَمِعْتَ يَا أَبَا الوَلِيدِ؟** قَالَ: سَمِعْتُ، قَالَ ﷺ: **أَنْتَ وَذَاكَ**. فَقَامَ عُتْبَةُ إِلَى أَصحَابِهِ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعضٍ: نَحْلِفُ بِاللهِ لَقَدْ جَاءَكُمْ أَبُو الوَلِيدِ بِغَيرِ الوَجْهِ الذِي ذَهَبَ بِهِ، فَلَمَّا جَلَسَ إِلَيهم قَالُوا: مَا وَرَاءَكَ يَا أَبَا الوَلِيدِ؟ قَالَ: وَاللهِ إِنِّي قَدْ سَمِعْتُ قَولاً مَا سَمِعْتُ بِمِثْلِهِ قَطُّ، وَاللهِ مَا هُوَ بِالشِّعْرِ، وَلاَ بِالسِّحرِ، وَلاَ بِالكَهَانَةِ، وَاللهِ لَيَكُونَنَّ لِقَولِهِ الَّذِي سَمِعْتُ نَبأً»[١].

[١٩] وأما العذاب في الآخرة فهو الأكبر والآلم، والأشد والأبقى، وما أصاب الكافرين من عذاب في الدنيا، لا يقاس بذرة من عذاب الآخرة إطلاقا، لأنها تحمل عنصري الشدة والبقاء ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧].

من تطوَّف في المستشفيات وبالذات التي تأوي الحالات الصعبة، أو زار ساحات القتال وشاهد المناظر الرهيبة، ثم دار على المناطق المنكوبة ببركان تفجر فسال لعابه النحيس على القرى المحيطة فأذابها، أو بسيول عارمة اقتلعت في طريقها الأشجار و دمرت القرى.. أقول مثل هذا الإنسان يعي -بعض الشيء- معنى العذاب في الدنيا، وفظاعته، و بشاعة مناظره.. ولكن كل ذلك العذاب، وكل تلك الويلات والمآسي، تُعَدُّ تافهة إذا ما قيست بعذاب الآخرة، وهول ما يجري فيها، ودوامه. بلى، إن عذاب الدنيا يهدينا إلى وجود العذاب الأخروي، وجانبا من حقيقته.. الحمى وآلامها التي قد تعتري الجسم فتحوله إلى خرقة بالية ! ليست سوى لفحة من

---

(١) الدر المنثور للسيوطي: ج٥، ص٣٦٤.

نار جهنم. وهذه النار التي تذيب الحديد، صورة مخفضة سبعين مرة عن نار جهنم. ولعله حتى الحرارة التي يولدها تفجير قنبلة ذرية هائلة فتحول الصخور دخانا خلال أقل من ثانية ليست سوى لهيب من نار جهنم، التي هي أشد حرا مما نتصوره في الدنيا.. وحتى الحرارة الموجودة في مركز الشمس المتناهية الشدة لا تقاس بنار جهنم. أوَلا نقرأ في النصوص أن الشمس تلقى في جهنم فتصرخ من حرها؟!.

فهل تتحمل العظام الناعمة، والأجسام الترفة، والجلود الرقيقة، والأعصاب الحساسة، ذلك العذاب الرهيب الذي يحول ساكنيه إلى شعلة متقدة؟! نعم، هكذا يفعل العذاب بالكافرين، فهم لا يموتون فيها ولا يحيون، يقول تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ﴾ [طه: ٧٤]، كما وإنه لا يغمى عليهم، كما يحدث للمعذب أو المصاب بآلام في الدنيا، ولا يعطون إجازات يتخلصون فيها من عسر البلاء، ولا تجري لهم عمليات جراحية ليتماثلوا للشفاء من أمراض العذاب، ولا تقدم لهم مهدئات لتسكن نفوسهم ويكفوا عن الصراخ. ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ آنئذ سيلاقون العذاب الأكبر. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يتقسمون، ويلقى كل واحد منهم في سجنه المخصص له.

[٢٠] كل ذلك العذاب الغليظ المهين ينتظر أولئك الذين عادوا ربهم، فلم يتبعوا رسله، وخالفوا أوامره وسننه، وتجاوزوا حدوده، في الوقت الذي أطاعت الكائنات جميعا ربها، واتبعت سننه التي قدرها فيها. وحتى أعضاء جسد الإنسان تتبع سنن ربه، لولا أنه قد سخرت له بعض الأيام في الدنيا لينظر كيف يعمل بها، وفي يوم القيامة حيث يسلب منه هذه الحرية المحدودة تنقلب عليه أعضاء جسده فتكون شاهدة عليه على شفير جهنم. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ إن من الذنوب ما ترتكب بالأذن، كسماع الغيبة والغناء، وما يرتكب بالعين، كالنظر إلى المحرمات، وقراءة كتب الضلال، وما ترتكب عن طريق الجلد، كالزنا، وهذه الجوارح ستشهد على الإنسان يوم القيامة.

[٢١] يا هول المفاجئة، ويا لصدق الشاهد! ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ كيف تشهدون علينا؟! كيف ونحن حملناكم مدى حياتنا؟! كيف ونحن نلبس الملابس الناعمة من أجلكم؟! كيف ونحن كنا نحميكم من شدة البرد في الليالي القارصة؟! كيف ونحن كنا نقيكم الحر؟! ﴿قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ ومن هذا المقطع في الآية يتضح أن لكل شيء شعورا -كما قلنا- وإذا شاء الله أعطاه القدرةَ على النطق بلغة الإنسان حتى يفهم، وإلا فهو يملك شعورا. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم

﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ(١) فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ (٢٣) فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟(٢) فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ (٢٤) ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ (٢٥) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ (٢٩)﴾.

هدى من الآيات:

أفضل باعث للإنسان إلى التقوى تحسسه بأن الله يسمعه ويراه، وأنه أقرب إليه من حبل الوريد، ثم رؤيته بحقيقة الإيمان، والحضور في مقام قربه، ومقعد الصدق عنده، وبالتالي تلمس شهوده وشهادته على كل شيء، وأنه بحوله يكون كل حول وبقوته تقوم كل قوة، وبحياته كل

(١) أرداكم: أهلككم.

(٢) يستعتبوا: يطلبوا العتبى (رضا الله)، والإعتاب الإرضاء، وأصل الإعتاب عند العرب استصلاح الجلد بإعادته في الدباغ، ثم استعير فيما يستعطف به البعض بعضاً لإعادة ما كان من الألفة.

شيء حي.

ولقد ذكرتنا فاتحة هذا الدرس بهذه البصيرة، وأن الردَى الذي هوى إليه أولئك الخاسرون كان بسبب ظنهم السيئ بربهم فلم يقدروه حق قدره، ولم يعرفوه كما ينبغي، وأنه ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر:١٩]، وأنه ﴿لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه:٨٢]. و الآن لا يجديهم الصبر راحة، ولا العقاب خلاصا، بل النار مثواهم أبدا. وبذلك الظن قيض الله لهم قرناء السوء من الشياطين، من الأمام والخلف يزينون لهم سوء أعمالهم، حتى لا يهتدوا أبدا. ذلك لأنهم تركوا الاعتصام بحبل الله المتين، وقالوا لبعضهم: ﴿لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ بإحداث أصوات مزعجة لكي لا يسمعه الآخرون وذلك لغاية ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾.

وحين يفرغ القلب من ذكر الله تهجم عليه الشياطين، وهكذا يذيق الله الذين كفروا عذابا شديدا، ويجزيهم أسوأ عمـل عملوه حين تتمثل السيئات بألوان من العذاب، وذلك جزاؤهم بما عادوا ربهم أنهم يدخلون النار خالدين فيها، لأنهم جحدوا بآيات الله بعد أن استيقنتها أنفسهم. وفي الدنيا تراهم يطيعون قرناء السوء من الجن والإنس، بينما هم في الآخرة يبحثون عنهم ليجعلوهم تحت أقدامهم ليكونوا من الأسفلين لشدة غضبهم عليهم وبراءتهم منهم.

بينات من الآيات:

[٢٢] لم يكن الكافرون يخافون -حين عصيانهم- من شهادة سمعهم وأبصارهم وجلودهم عليهم، بل إنهم لم يكونوا يتصورون شهادتها عليهم، إذ كيف تشهد عليهم هذه العين المطيعة لأوامرهم، وتلك الأذن والجلود التي راعوها وحافظوا عليها؟!.

بلى، إنها لن تسمع أوامرهم في الآخرة، بل وستشهد عليهم شهادة الحق. ثم إنهم حتى ولو عرفوا في الدنيا بشهادة الجوارح عليهم لا يقدرون على التخلص من رقابتها، لأن الإنسان يتمكن من ستر أعماله وحجب تصرفاته حتى عن أمه وأبيه، ولكن كيف يسترها عن عينه أو يده أو جلده؟.

من هنا: إذا كانت شهود الله على الإنسان أعضاؤه، فلا بد أن يخاف مقامه، ويتقيه على نفسه. ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ يبدو أن معناه: إنكم لم تستتروا، ولا كنتم قادرين على أن تستتروا. ولنفترض جدلا: أن الأعين والآذان والجلود لن تشهد على الإنسان أثناء الحساب، فهل يعقل أن لا يكون الله شهيدا؟! كلا.. فالله محيط علما

بالبشر، ومطلع على خفياته التي ليس لأحد سبيل إلى معرفتها سواه سبحانه.

إن الله سميع بصير، عليم خبير.. ولو شعرنا بذلك، وأنه يحصي أنفاسنا، ويعلم خطرات قلوبنا، وأن كل كبير و صغير مستطر، لما ارتكبنا السيئات.. وإنما يفلت من شَرَكِ الخطايا ذلك المخلص المتحسس رقابة الله عليه، وعلم يقينا أنه عز وجل أقرب إليه من حبل الوريد، فيحوطه الله بالتوفيق. فالسبيل أن نتذكر شهادة الله حتى نفوز برقابة ذاتية على أنفسنا فلا ننحرف. وأما الكافرون فهم بعيدون عن هذه الحقيقة، فهم يظنون بربهم ظن السوء، فمثلا قد يظنون أن الله يعلم فقط ظاهرا من أقوالهم وأعمالهم فيزعمون أنهم قادرون على تبرير سيئات أفعالهم وفاحش أقوالهم أمام ربهم، بأن يقول الواحد منهم: إنني كنت مجبورا، أو مضطرا إلى السيئة، أو عملتها من دون وعيي وإرادتي. كذلك يبرر المجرمون قبل ارتكاب الموبقات سيئاتهم لأنفسهم، ويختلقون الأعذار التي يزعمون أنها تغنيهم عن العقاب أو الجزاء، ولو عرفوا أن الناقد بصير، وأنه لا تخفى عليه خافية، لارتدعوا.

ومادام الإنسان يعلم أن تبرير عمله للناس ليس بحق لأن الله يعلم به، فهو يرجى صلاحه، لأن في قلبه لا تزال مسافة بين الحق والباطل، وأما إذا وصل إلى مستوى يختلط في قلبه الحق والباطل، وأن التبرير الذي يختلقه للناس يستطيع أن يخدع به ربه، فقد هوى ولا أمل في نجاته. ومثل هذا الصنف كثير، وإنهم ليأتون يوم القيامة ربهم، فيوقفهم للحساب، فيشرعون في طرح أعذارهم التي تشبثوا بها في الدنيا، بعضهم يقول: كنت مكرها، ويقول الآخر: كنت مستضعفا، و يقول ثالث: لم أرد إلا الخير، وهكذا، ومن الناس من ينكر كل أفعاله السيئة، ويحلف على ذلك بالأيمان، يقول الرب: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣،٢٢].

وعن المبررين يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:٩٧].

﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ لعل مرادهم أن الله لا يعلم السر والخفيات، وإنما يرى ظاهر أعمالهم، وقد ذكر المفسرون أن فريقا من الكفار اجتمعوا عند الكعبة، فقال بعضهم: أتظنون أن الله يسمعنا؟ فقال الآخر: بلى، إذا رفعتم أصواتكم سمعكم، وقال الثالث: إن من يسمع النداء يسمع النجوى، فنزلت الآية.

وتحتمل الآية تفسيرا آخر هو عدم اهتمام أولئك القوم بشهادة الله عليهم، فمن لا يأبه بشيء كان كمن لا يؤمن به.

[٢٣] ولكن تلك الظنون أمطرت عليهم الويلات، ودفعت بهم إلى أسفل الهاوية. ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ شخصية الإنسان تصاغ حسب ظنه بربه، فمن أحسن به ظنا حسنت سريرته، وطاب سلوكه، وصلح عمله، ومن أساء بربه الظن ساءت سريرته، وخبث سلوكه، وفسد عمله.. وهكذا ينبغي أن يحسن العبد ظنه بربه ما استطاع، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِنَّ آخِرَ عَبْدٍ يُؤْمَرُ بِهِ إِلَى النَّارِ فَيَلْتَفِتُ فَيَقُولُ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ أَعْجِلُوهُ فَإِذَا أُتِيَ بِهِ قَالَ لَهُ عَبْدِي لِمَ الْتَفَتَّ فَيَقُولُ يَا رَبِّ مَا كَانَ ظَنِّي بِكَ هَذَا فَيَقُولُ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ عَبْدِي مَا كَانَ ظَنُّكَ بِي فَيَقُولُ يَا رَبِّ كَانَ ظَنِّي بِكَ أَنْ تَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي وتُدْخِلَنِي جَنَّتَكَ قَالَ فَيَقُولُ اللهُ جَلَّ جَلالُهُ مَلائِكَتِي وعِزَّتِي وجَلالِي وآلائِي وارْتِفَاعِ مَكَانِي مَا ظَنَّ بِي هَذَا سَاعَةً مِنْ حَيَاتِهِ خَيْراً قَطُّ ولَوْ ظَنَّ بِي سَاعَةً مِنْ حَيَاتِهِ خَيْراً مَا رَوَّعْتُهُ بِالنَّارِ أَجِيزُوا لَهُ كَذِبَهُ وأَدْخِلُوهُ الْجَنَّةَ»[١].

[٢٤] ﴿فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ إن صبرهم في الآخرة يختلف عن صبرهم في الدنيا، فصبرهم في الدنيا على الطاعات وعن المعاصي يعقبه الفرج والجزاء الحسن، ولكن حتى وإن صبروا في الآخرة فإن النار هي مثواهم للأبد. ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ وإن يتوبوا إلى الله لا تقبل توبتهم، بعكس الدنيا حيث توفرت لهم فرصة التوبة.

[٢٥] عوامل الانحراف عديدة، وتختلف من إنسان لآخر، وفي حياة الشخص الواحد تختلف من مرحلة لأخرى، ففي مرحلة الطفولة يستهوي الإنسان عامل واحد هو اللعب، أما في مرحلة الشباب فإن أصدقاء السوء من أشد عوامل الانحراف تأثيرا على النفس، بينما في مرحلة الرجولة يتدرج البشر عبر عوامل المال والبنين والتفاخر.

وهنا يشير القرآن إلى أصدقاء السوء الذين يحيطون بمن ابتعد عن هدى ربه فيزينون له سوء عمله، حتى لا يكاد يجد سبيلا للهداية. إن الضلالة- كما الهداية- تبدأ من اختيار الإنسان نفسه، ولكنها تخرج تقريبا عن حدود سيطرة الإنسان بعد ذلك، إذ تتكاثف حوله عوامل الانحراف وأغلال الضلال حتى يكاد يصبح عاجزا عن الانفلات منها، فترى قلبه يقسو مع استمرار ارتكاب الفواحش، ومحيطه الاجتماعي يخلو من الصالحين الذين كانوا ينصحونه، ويتمحض في قرناء السوء، ويكون مثله مثل دودة القز يختنق في شرنقته التي صنعها لنفسه!

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٢٣١.

وقرناء السوء نوعان:

الأول: ظاهر، وهو الصديق السيئ الذي يصاحب الإنسان ويرافقه، وحين ينحرف الإنسان يجد نفسه في جماعة المنحرفين، وإن الطيور على أشكالها تقع.

الثاني: باطن، وهو الشيطان الذي يزيِّن له السيئات.

﴿ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ ﴾ قالوا: أصل كلمة (القيض) بمعنى القشرة المحيطة بالبيضة، وأن إيحاء (قيَّض) التسلط الكامل، والإحاطة التامة، ولكن يبدو لي أن معنى قيَّض انتخاب الشيء المناسب، فإن حجم قشرة البيض مناسبة لذات البيضة، كذلك يتم اختيار القرين المتناسب للشخص: ﴿فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ من أعمال الفساد التي لم يرتكبوها.

﴿وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ من الأعمال التي ارتكبوها. وقالوا: ما بين أيديهم الدنيا، وما خلفهم الآخرة، وقيل العكس.

ولكن يبقى **سؤال**: لماذا يقيض الله قرناء السوء لهؤلاء؟.

الجواب: لأن الله قد غضب عليهم، و فرض عليهم الضلالة بسوء اختيارهم أولا، كما فعل بأسلافهم من الأمم السابقة، ويا لسوء العاقبة. إن الرب الرحمن الرحيم الذي هو السبب الوحيد للهداية يريد إضلالهم وتعذيبهم! ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ ولعل المراد من الجن هنا الشياطين الذين يقيِّض الله منهم قرناء للخاسرين.

[٢٦] ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ والغوا فيه: أي أثيروا اللغو حينما يقرأ القرآن لصرف النظر عن أفكاره الحقة. وفي كل عصر ومصر هناك محاولات خاصة للغو في القرآن، ففي بدء الدعوة الإسلامية كانوا يحضرون القصاص بجانب الرسول ليرووا للناس القصص التاريخية الخيالية، وكان هناك من لا يفرق بين القرآن وتلك القصص التافهة، فيجلس عند القصَّاص ليستمع إليها، ويَدَع الرسول ﷺ ورسالته الحضارية، وفي بعض الأحيان كان يقوم أحدهم بالتصفيق عند تلاوته أو التصفير.. وكل ذلك بهدف جذب انتباه الناس لكي لا يفهموا حقائق الرسالة، وأما في هذا العصر فقد تطورت أساليب اللغو الذي يثيره الكفار في القرآن، إذ إن عشرات الألوف من الصحف المأجورة، والإذاعات، ومحطات التلفاز، ومراكز صناعة الأفلام، تمثل اليوم ظاهرة اللغو الذي يثيره الكفار بين الناس لمنعهم من الاستماع إلى القرآن.

والهدف من كل ذلك اللغو الجاهلي الأول، وهذا اللغو الجاهلي العريض هو التغلب على الساحة، والاستكبار في الأرض بغير الحق، مما يعني أن بناء الكفار الثقافي قائم على أساس اللغو والتشويش على بصائر الحق. و نستوحي من الآية عدة حقائق:

أولاً: أن كل ما يبثُّه الطغاة من خلال أجهزتهم الدعائية ضلالة ولغو، وإنما الحق ما يبيِّنه الوحي الإلهي.

ثانياً: أن البناء الثقافي للطغاة قائم على أساس مواجهة الحق، والتشويش عليه، أوليست الضلالة هي الانحراف عن الهدى، فهي ليست أصلا أو محورا أو بناءً متكاملا، وهكذا فضح القرآن أهم استراتيجيات الدعاية الكافرة، وهي معاكسة الإعلام الحق، وإثارة الضوضاء والصخب من أجل صرف الأنظار عنه.

ثالثاً: من خلال الهدف الذي يتوخاه الفرد نعرف طبيعة عمله، أوليست الأعمال بالنيات؟ وإن هدف أجهزة الدعاية الكافرة هو الاستكبار في الأرض، والغلبة في الصراع مع الحق، ومن كان هذا هدفه كيف يستطيع أن يهدي الناس إلى الحق؟! إن الهدف هو الذي يحدد مسيرة العمل، واستراتيجية التحرك، بل كيف يهدي إلى الحق من لم يهتد بنفسه إليه.

وحين يكون هذا هدف مجمل التحرك الدعائي عند الكافرين، فإنه ينعكس على أدوات هذا التحرك و الأفراد المشاركين فيه، فكل فرد من العاملين في هذا الجهاز يسعى نحو هدف مصلحي خاص به، فترى الواحد يحلم في الشهرة، والثاني يبحث عن الثروة، والثالث يتمنى أن يكون ذا خطوة عند السلطان، وكيف تهدي أقلام هذه الشراذم إلى الحق؟!

[٢٧] بلى، إنهم يضلون الناس عن الحق، ويمنعونهم عن بلوغ الحقائق، ويحجبون عنهم النور الإلهي، وبحجم الخسارة التي يلحقونها بالناس يكون حجم العذاب الذي ينتظرهم. ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ ولعل هذا هو عذابهم في الدنيا. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ لعل جزاءهم أسوأ من أعمالهم باعتبار تحديهم لرب العزة، أو تحملهم لعذر الآخرين. ولعل المعنى أنهم يجازون بأسوأ أعمالهم فيكون بالطبع جزاءً سيئا، والله العالم.

[٢٨] لماذا هذا الجزاء الشديد؟ لأنهم أعداء الله، وليس هيِّنا عداوة هذا المخلوق الضعيف لخالقه القوي العزيز. ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ يا له من عذاب عظيم، النار أبدأ ساءت مستقرا ومقاما ! ونتساءل: كيف أنهم أضحوا أعداء الله؟ بلى، حين عادوا رسالاته، وألغوا في القرآن، فقد عادَوا الله عز وجل. ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ إن الكفر بالرسالة بعد أن استيقنتها أنفسهم يدل على عداوتهم لربهم.

[٢٩] وفي نهاية المطاف يكفر هؤلاء بقرناء السوء الذين أضلوهم عن سبيل الله، سواء كانوا من الإنس الظاهرين كأصدقاء السوء، أو الجن كالشياطين الذين زينوا لهم سوء أعمالهم.
﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ ولكن ماذا ينفعهم لو جعلوهما تحت أقدامهم في ذلك اليوم بينما جعلوهما قدوة لهم في الدنيا؟!.

قالوا ربنا اللّه ثم استقاموا

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ نَزْغٌ[1] فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾.

هدى من الآيات:

في آيات مضت بيّن القرآن نموذجا من الناس تحدوا سلطان الرب، فقيض لهم قرناء السوء، واختار لهم أسوأ المصير. وهنا يبين النموذج المعاكس له تماما، وهم الرجال الذين تحدوا القوى الاجتماعية وأعلنوا إيمانهم بالله، ودعوا الناس إلى ذلك، ثم استقاموا، حيث ينزل الله عليهم الملائكة تنزيلا، يزيلون عنهم الخوف والحزن، ويبشرونهم بالجنة، ويطمئنونهم بأنهم أولياؤهم، يؤيدونهم في الدنيا، ويسعدونهم في الآخرة، هنالك حيث يتوفر ما يشتهونه أو يتمنونه، في تلك الدار التي يستضيفهم الرب الغفور الرحيم.

---

(١) نزغ: النزغ هو النخس بما يدعو إلى الفساد، فإن الشيطان ينخس الإنسان ويهيّجه للباطل وبخاصة عند الخصام وفي المعركة.

بلى، إن أحسن القول هو الدعوة إلى الله المقرونة بالعمل الصالح والتسليم، والمقرونة كذلك بالخلق العظيم الذي يختار صاحبه أحسن السبل فإذا بالعدو يصبح وليا حميا.

وإنها لذروة الفضيلة لا يبلغها إلا الصابرون من ذوي الحظوظ العظيمة ! وقد يدفع الشيطان أحدهم إلى الوراء قليلا، ولكنهم يستعيذون بالله من شره فيستجيب الله دعاءهم.

بينات من الآيات:

[٣٠] كما يمكن أن يتسافل الإنسان إلى الحضيض حيث يقيِّض له الله سبحانه قرناء يزينون له سوء عمله فلا يهتدي أبدا إلى السبيل، كذلك يستطيع أن يسمو ويسمو حتى يصبح فؤاده مأوى لملائكة الله، فئة تهبط وفئة تعرج متى؟ حين يكفر بالطاغوت، ويعلن توحيده على الملأ، ويقول: ربي الله، لا الأصنام لا الأنداد لا المجتمع الفاسد لا السلطة الطاغية. إنه لا يكتفي بالإيمان في قلبه بربه، بل يعلنه متحديا القوى المادية، وبذلك يشق للناس طريق التوحيد بين أوغال الشرك. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ إنهم قالوا ذلك، والقول بذاته تحدي، والتحدي بدوره دعوة. إنه دعوة بكسر حاجز الصمت، و الخوف، ومقاومة حالة اليأس والسلبية.

إننا أمرنا بأن نعلن البراءة من المشركين، ومما يشركون به، أفلا نتلو سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١]!. إن المطلوب منا أن نقول كلمة التوحيد بما تحمل من مخاطر الرفض والتمرد، وهي حقا أعظم كلمة في عالم الإنسان، لأنها مفترق الطريق بين العبودية والتحرر، بين الذلة والعزة، بين النار والجنة.

﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾ وماذا تعني كلمة التوحيد من دون الاستقامة؟ أوليس التوحيد بمعنى رفض الأنداد، رفض سلطة الطغاة، والمترفين، وحمير الأسفار، فإذا عاد الإنسان وخضع لهؤلاء الأنداد فإنه ينفي أصل التوحيد. ويبدو أن الله سبحانه يهدي العبد إلى معرفته، ويدله على ذاته بذاته، ثم يبتليه بألوان الفتن، تارة في ماله، وأخرى في جسده، وثالثة بتسليط الجبابرة عليه، وهكذا ليمتحن إيمانه، فإذا انهار وكله إلى نفسه، وأما إذا استقام نَزَّل عليه ملائكته ليثبتوه. وهكذا تتركز صعوبات الاستقامة في أيامها الأولى، حيث لا تتنزل الملائكة، وحيث يتساوى الناس في درجة الضغط الذي يتعرضون له لامتحان قوة إيمانهم، أما في المرحلة التالية فإن من استقام تهون عليه الضغوط لنزول الملائكة عليه بالسكينة والتأييد. ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ﴾ من المستقبل وما يحمله لكم من آلام، وهكذا يزيل الملائكة عن قلب المستقيم أثر أمضى سلاح تستخدمه قوى الشرك وهو سلاح الإرهاب. وحين نسير في الأرض نرى الخوف أعظم دعامة لحكم الطغاة والمستكبرين، فإذا تجاوز إنسان أو شعب حاجز

الخوف استعاد حقوقه وحريته واستقلاله.

﴿وَلَا تَحْـزَنُوا۟﴾ على ما مضى من الخسار، فلا تدع الملائكة قلوب أولي الاستقامة من المجاهدين والمهاجرين في سبيل الله عرضة لأمواج التشكيك التي يبثها الشياطين فيها، قائلين: إلى متى نقدم التضحيات؟ ألا ترى سائر الشعوب كيف تنعم بالهدوء؟ أولا تنظر إلى صاحبك قد غدا غنيا، و زميلك بالدراسة أصبح اليوم خبيرا مرموقا، وجارك أضحى وزيرا؟ فإلى متى تعيش الغربة والهجرة والحرمان؟.

إن هذا النوع من الكلام يولد الحزن، وبالتالي يسبب تراكم السلبيات، ويوهن عزائم المؤمنين العاملين، لولا تدخل الملائكة لإزالته، ولكن كيف؟ إن الملائكة يزيلون أثر الخوف والحزن من أفئدة المستقيمين بأن يبشروهم بالجنة ونعيمها. ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ ولأن المؤمنين يتعرضون لضغوط مختلفة، حيث يجرب الطاغوت وأعوانه من المترفين والمضللين كل وسائل الضغط عليهم، فإن الملائكة لا تزال تتنزل عليهم باستمرار، فكلما تعرضوا لنوع من الضغط بشرتهم الملائكة بما يقابله من النعمة عند الله، حتى يزول أثر الضغط ولعل أمير المؤمنين عليه السلام يشير إلى ذلك حين يقول: «**فَمَنِ اشْتَاقَ إِلَى الْجَنَّةِ سَلَا عَنِ الشَّهَوَاتِ وَمَنْ أَشْفَقَ مِنَ النَّارِ رَجَعَ عَنِ الْمُحَرَّمَاتِ وَمَنْ زَهِدَ فِي الدُّنْيَا هَانَتْ عَلَيْهِ الْمُصِيبَاتُ وَمَنْ رَاقَبَ الْمَوْتَ سَارَعَ إِلَى الْخَيْرَاتِ**»[1]. فكل إغراء أو ضغط أو إرهاب في الدنيا يقابله من شؤون الآخرة ما يعاكسه، ويزيل أثره النفسي، حتى يستقيم المؤمن تماما. و جاء في الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وهو يأمر بالاستقامة، ويفسر الآية الكريمة: «**قَدْ قَالَهَا نَاسٌ ثُمَّ كَفَرَ أَكْثَرُهُم، فَمَنْ قَالَهَا حَتَّى يَمُوتُ فَهُوَ مِمَّنْ اسْتَقَامَ عَلَيهَا**»[2].

وأبرز مظاهر الاستقامة الولاية، واتباع الخط السياسي المستقيم في ظل القيادة الشرعية، ذلك لأن أعظم ما يتصارع عليه أبناء آدم هو قيادة المجتمع السياسية، وللمؤمنين خطهم السياسي الواضح الذي يدعون إليه، والمتمثل في قيادة الصالحين، والاستقامة على هذا الخط تعني محاربة كل قوى الشرك والجهل والنفاق في المجتمع، التي تتركز عادة في اتباع نهج أئمة الكفر والضلال، وكذلك حين يأتي أحد المجاهدين الرساليين إلى الإمام الرضا عليه السلام و يسأله عن الآية يقول له الإمام: «**هِيَ وَاللهِ مَا أَنْتُم عَلِيهِ**»[3]. كذلك يقول الإمام الباقر عليه السلام لرجل من المؤمنين الأبرار[4].

(١) الكافي: ج٢، ص١٣١.
(٢) تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٥٤٧.
(٣) المصدر السابق: ص٥٤٧.
(٤) المصدر السابق: ص٥٤٧.

[٣١] من ارتقى ذروة الإيمان عاش هنالك وحده، ويخشى عليه وحشة الانفراد، فهاهم أصدقاؤه يتفرقون عنه لأنه يستقيم على الحق، وهم يتساقطون تحت وطأة الضغوط، حتى يقول مثلما قال أبو ذر: «مَا تَرَكَ الحَقّ لِي صَدِيْقاً»[1]. وها هم أسرته يتخلون عنه، ويقولون له لا تحملنا ما لا طاقة لنا به.. وها هو المجتمع الفاسد أو اللامسؤول يواجهه، أو لا أقل يتخلى عنه في ساعة المواجهة، حتى لتكاد الدنيا تضيق به على رحبها.. هنالك تتنزل عليه ملائكة الله ليعلنوا ولاءهم له ومساندتهم إياه. ومن عاش مع الملائكة الموكلين بشؤون الكائنات لا يبقى غريبا. إنه يمشي في الاتجاه الصحيح مع كل الخليقة، إنما أعداء الحق هم الغرباء، لأنهم يعيشون ضد سنن الله في خلقه، وفي الاتجاه المضاد لحركة الكائنات. ﴿ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ لقد عاش إبراهيم عليه السلام وحده في ذروة التوحيد، فهل كان غريبا؟ وكيف يكون غريبا يتنزل عليه جبرائيل وميكائيل وإسرافيل؟ وحين وضع في المنجنيق ليرمى به في النار، هرعت إليه سائر الملائكة الموكلين بشؤون الطبيعة، وعرضوا عليه دعمهم له، فلم يقبل، إنما سلم أمره إلى الله، فجعل الله النار بردا وسلاما عليه. ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ عندما تبلغ النفس التراقي، وتهبط على ابن آدم كربة الموت، ويقف أحباؤه حياله عاجزين عن تقديم أي عون له، هنالك تهبط ملائكة السلام على من استقام من المؤمنين فيبشرونه بالجنة. الله أكبر، ما أحلاها من بشارة، وما أعظمها من نعمة.

وعندما يوضع الإنسان في لحده، ويتفرق عنه أبناؤه وأحباؤه، وقد تركوه تحت التراب وحيدا غريبا، تهبط ملائكة الله بالبشرى على المؤمن، ويزيلون وحشته، و يرافقونه حتى النشور، وعندما يبعث الناس إلى ربهم في صحراء المحشر ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ﴾ [عبس:٣٤-٣٦]، و﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا ﴾ [النحل:١١١]، وحينها ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس:٣٧]، هنالك يتقدم ملائكة الرحمة لمرافقة المؤمنين إلى ربهم.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ﴾ لقد زهدوا في الدنيا وشهواتها، فعوضهم الله بنعيم الآخرة، وإذا كانت شهوات الدنيا مشوبة بالآلام، ومشحونة بالمصائب والنكبات، وهي سريعة الزوال، فإن نعيم الآخرة التي تشتهيها نفوسهم صافية لا زوال لها. بلى؛ إن الدنيا والآخرة ضرتان، فمن رغب في الآخرة زهد في الدنيا، ومن أذهب طيباته في هذه الحياة الزائلة، فسوف لا يجد نعيما في تلك الحياة الأبدية.

لقد رُئِيَ على إمام المتقين علي بن أبي طالب عليه السلام إزار خلق مرقع، فقيل له في ذلك،

---

(١) بحار الأنوار: ج٣١ ص١٨٠.

فقال: «يَخْشَعُ لَهُ القَلْبُ وتَذِلُّ بِهِ النَّفْسُ ويَقْتَدِي بِهِ المُؤْمِنُونَ إنَّ الدُّنْيَا والآخِرَةَ عَدُوَّانِ مُتَفَاوِتَانِ وسَبِيلَانِ مُخْتَلِفَانِ فَمَنْ أَحَبَّ الدُّنْيَا وتَوَلَاهَا أَبْغَضَ الآخِرَةَ وعَادَاهَا وهُمَا بِمَنْزِلَةِ المَشْرِقِ والمَغْرِبِ ومَاشٍ بَيْنَهُمَا كُلَّمَا قَرُبَ مِنْ وَاحِدٍ بَعُدَ مِنَ الآخَرِ وهُمَا بَعْدُ ضَرَّتَانِ»[1].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾ الدنيا دار السعي، والآخرة دار الجزاء، وفي الدنيا لا يمكن أن تتحقق كل أماني البشر، ولا يمكن أن يرضي أحد أحدا، لأن ادعاءات ابن آدم أكبر من حجم الدنيا نفسها، وتمنياته أوسع من حياته على الأرض، فكيف تتحقق جميعا؟ بينما الآخرة دار واسعة، أكبر من طموحات البشر وتطلعاته، وهكذا تتحقق أماني المؤمنين بلا جهد أو سعي. جاء في حديث مأثور رواه الإمام الباقر عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله: «ولَيْسَ مِنْ مُؤْمِنٍ فِي الجَنَّةِ إِلَّا ولَهُ جِنَانٌ كَثِيرَةٌ مَعْرُوشَاتٌ وغَيْرُ مَعْرُوشَاتٍ وأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ وأَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ وأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ فَإِذَا دَعَا وَلِيُّ اللهِ بِغِذَائِهِ أُتِيَ بِمَا تَشْتَهِي نَفْسُهُ عِنْدَ طَلَبِهِ الغِذَاءَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُسَمِّيَ شَهْوَتَهُ»[2].

[٣٢] وأعظم النعم لأهل الجنة أنهم في ضيافة الرحمن رب السماوات والأرض رب العرش العظيم.. ﴿نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ﴾.

[٣٣] ومثلما الإيمان بالله ذروة الكمال وسبيل كل خير، فإن الدعوة إليه أحسن المقال، و طريق كل صلاح وإصلاح، ولأن الدعاء إلى الله خير الأعمال فقد اجتبى له الرب خير خلقه، وهم الرسل ثم الأمثل فالأمثل من عباده الصالحين. وحين يرفع الإنسان صوته بالدعوة تتساقط الأوهام التي يبثها الشيطان في روع البشر، كما تهتز الأصنام التي يصنعها في المجتمع!!.

الدعاء إلى الله يعني محاربة الجبت ومحاربة عبادة الذات، كما يعني مواجهة الطاغوت وعبادة أولي القوة والثروة. الدعاء إلى الله ينطوي على تزييف الدعوات الكاذبة إلى القومية والعنصرية والإقليمية وما إليها من ضلالات الشرك. الدعاء إلى الله يستدعي زكاة النفس ألا تسترسل مع الشهوات، ولا تستفز بهمزات الغضب الشيطانية.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أحسن قولا: لأن محتوى قوله الدعوة إلى الغفور الرحيم. وأحسن قولا: لأن أسلوب دعوته سليم، فلأنها مجردة عن ذاته لا تتأثر بالمصالح الشخصية، أو بالظروف المتغيرة، فيختار أفضل السبل للدعوة، يتواضع للناس، ويحسن إليهم، ولا يتجبر عليهم ولا يبحث في دعوته عن شهرة أو سمعة، ولا يتأثر بعصبية. إن دعوته بذاتها

---

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٣٠.

(٢) الكافي: ج٨ ص٩٩.

خير عظيم حظي به فهو يحمد الله أبدا على هذا التوفيق، فلا يطلب على دعوته أجرا من الناس أو شكرا، وإذا واجه إعراضا أو كفورا لا يلويه ذلك عن سبيل الدعوة، لأن دعوته مدفوعة الثمن سلفا من عند ربه. ثم إن دعوته ليست مجردة عن سلوكه. إنه يسارع إلى تنفيذ شرائع الله، والعمل الصالح، والتسليم للقيادة الشرعية، والرضا بها، مما يشهد بصدقه في دعوته، كما يشهد على صدق دعوته، فمن دعا إلى الله حقا فقد عرف ربه، ومن عرف ربه صلحت أفعاله، ولم يطلب علوا في الأرض ولا فسادا، بل سلم الأمر لله ولأولى الناس برسول الله.

﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ فهو أول من يسلم وجهه لربه، ويعلن عن ذلك، ويتحدى بدعوته الطغاة والجبابرة، كما ويجابه بها شيطان نفسه النزاعة إلى الرئاسة والسلطة. وهكذا تبصّرنا الآية -بكلمات وجيزة بليغة- بشواهد الصدق في الدعاة، وكيف أنهم الأحسن قولا، والأسبق إلى تهذيب النفس من شوائب الهوى في الدعوة، وتهذيب أسلوب الدعوة من الرعونة و الخشونة والكلمات النابية.. إن من الناس من يدعو إلى الله، ويختار وسيلة معينة لهذه الدعوة، مثلا ينتمي إلى جماعة رسالية ناشطة، أو ينخرط في سلك العلماء والخطباء، أو يصدر صحيفة، أو يفتح دارا للنشر وهكذا.. ويقف الشيطان له بالمرصاد فيضله عن السبيل فيحرف اهتمامه من الله إلى تلك الوسيلة التي اختارها، فإذا به يجعل تنظيمه أو جماعته أو مؤسسته محور دعوته، ويصارع من أجلها سائر الدعاة إلى الله، و بدل أن يذوب نفسه في بوتقة الدعوة تراه يذوب دعوته في بوتقة نفسه، ويضل ضلالا بعيدا.

ولعل خاتمة الآية تعالج هذه الحالة، إذ الإسلام هو التسليم، والتسليم يتنافى والصراعات المصلحية عند الدعاة يقول أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام: «**لَأَنْسُبَنَّ الْإِسْلَامَ نِسْبَةً لَا يَنْسُبُهُ أَحَدٌ قَبْلِي وَ لَا يَنْسُبُهُ أَحَدٌ بَعْدِي إِلَّا بِمِثْلِ ذَلِكَ إِنَّ الْإِسْلَامَ هُوَ التَّسْلِيمُ وَ التَّسْلِيمَ هُوَ الْيَقِينُ وَ الْيَقِينَ هُوَ التَّصْدِيقُ وَ التَّصْدِيقَ هُوَ الْإِقْرَارُ وَ الْإِقْرَارَ هُوَ الْعَمَلُ...**»[١].

[٣٤] الذي يدعو إلى الله يختار أحسن القول، فما هو الأحسن؟ هناك الحسنة والسيئة والفارق بينهما كبير، ولكن للحسنة درجات متصاعدة، كما أن للسيئة دركات متسافلة، والداعي إلى الله يختار الأحسن بين درجات الحسنة.. ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ﴾ قال الشيخ الطبرسي: والمعنى: «أن الحسنة والسيئة متفاوتتان في أنفسهما، فلا تستوي الأعمال الحسنة والأعمال السيئة، فخذ بالحسنة التي هي أحسن من أختها إذا اعترضتك حسنتان»[٢].

﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ وحسب هذا التفسير، معناه: اختر من الحسنات أفضلها،

(١) الكافي: ج٢، ص٤٥.
(٢) جوامع الجامع: ج٢ ص٤٨٢.

ومن الوسائل أبلغها أثرا ﴿ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ إن الداعي إلى الله يدل الناس إلى ذروة الكمال، ولا يوفق لهدفه إلا إذا اكتملت نفسه أولا، واستطاع أن يتعالى على غضبه ومصالحه، فإذا كانت بينه وبين أحد من الناس عداوة لا يستغل مركزه لتحطيمه، بل يسعى إليه ليهديه حبا له، وحبا لدعوته، إذ إن وجود حزازات بين الناس وصاحب الدعوة تؤثر سلبيا على الدعوة، ولكن ماذا يملك الداعية في هذا السبيل؟ إنه يملك نفسه فيسخو بها لربه ولدعوته، فإذا به يتنازل عن حقوقه، وعما يسمى عند الناس بالكرامة الشخصية، ويطفق بالإحسان إلى أعدائه. ثم يستخدم حكمته في اختيار السبيل الأحسن، ذلك أن التدبير وحسن الإرادة في الدعوة إلى الله ذو أهمية كبيرة، بالرغم من صعوبتها البالغة، إذ إن حسن الإدارة بحاجة إلى علم غزير، وتفكر مستمر، ومقدرة فائقة في تنفيذ المهام، مثلا يستدعي التدبير- عادة- الكتمان، وإتباع السبل الخفية في العمل على ما نحمل من مشاق كبيرة، ولكن أنى كانت الصعاب فإن الكتمان وسيلة مهمة لإنجاح مهام الدعوة. أولم يقل الرسول ﷺ: «**اسْتَعِينُوا عَلَى أُمُورِكُمْ بِالكِتْمَانِ**»؟[1]. وهنا نعرف عمق تفسير أهل البيت عليهم السلام حيث جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «**الحَسَنَةُ التَّقِيَّةُ والسَّيِّئَةُ الإِذَاعَةُ**»[2]. ثم إن طموح الداعية عال حيث لا يسعى إلى تجنب أذى العدو، بل إلى جعله وليا حميا له. إنه يسعى أبدا لكسب الناس لدعوته.

[٣٥] إنها القمة السامقة في الخلق الرفيع، لن يبلغها إلا من تميز بأمرين: الصبر والحلم. ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ فمن تجرع مرارة الصبر أوتي الخلق الرفيع. والصبر في جملة معانيه التطلع إلى المستقبل، ومعايشة أحداثه، بتجاوز اللحظة الراهنة. وهناك علاقة قريبة بين الصبر والحلم، فمن أحاط معرفة بالمستقبل، وطبيعة سير الأحداث، لم يستبد به الحدث الحاضر ومؤثراته، ولعله لذلك قال ربنا سبحانه: ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ فمن كان حظه عظيما من اليقين والحكمة حَسُنَ خلقه، وصبر على المكاره. والآية تشير إلى أن من يرد الإساءة بالإحسان يكون مجمل حظه عظيما، حيث جاءت الكلمة مطلقة، مما يعني أنه ينتصر في صراعه مع منافسيه وأعدائه، ويتمتع بالسلام الداخلي -النفسي-، فيتمتع بالتقدم والرقي في كافة الحقول.

[٣٦] لأن الاستقامة، وردّ الإساءة بالإحسان، والصبر، صعب مستصعب، فإن

---

(١) بحار الأنوار: ج٧٤، ص١٥٣.
(٢) الكافي: ج٢ ص٢١٧.

الإنسان الذي خلق من ضعف قد يسقط تحت الضغوط، فلا ينبغي اليأس والاسترسال في الهبوط، بل لا بد من تجديد العزم، وتجاوز حالة الضعف، والاعتصام بحبل الله، والاستعاذة به. ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ﴾ أي دفعك الشيطان دفعا إلى الانحراف في حالة من حالات الضعف الذي يعتري البشر عادة.. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ذلك أن ضعف البشر لا يجبره سوى قوة الرب، فحين تذكر ربك، وتتجه إليه بقلبك، يصلك المدد من الملائكة الذين يثبت الله بهم أقدام المؤمنين عند مظنة الزلل. إن الشيطان الغوي يجند لمحاربتك جنوده، ويوسوس إليك بأمانيه وغروره، والريب واليأس، ولكن إذا أقبلت إلى ربك، وذكرته في سرك، هرب إبليس وجنوده، و خرجت منتصرا.

كلمة أخيرة: إن سياق الآيات في هذا الدرس يهدي إلى أنها تعالج وضع الدعاة في أشد الظروف، حيث يحتاجون إلى الاستقامة، ورد الإساءة بالإحسان والصبر، ولا ريب أن الدرع الحصين لهم هو التقية، وهي بحاجة إلى أناة وحكمة، وصبر عظيم، وإن كثيرا من الحركات الرسالية لم يحالفها النجاح ضد الطغاة بسبب فقدان بند أو أكثر من هذا البرنامج في حياتهم، وذهبت تضحياتهم الكبيرة سدى، فعلينا ألا نستهين ولا بواحدة من هذه الوصايا، بل نتمسك بها جميعا وبقوة حتى يأذن الله لنا بالنصر.

لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ [1] ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ [2] إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ ﴾.

(١) لا يسأمون: من سأم بمعنى تعب، أي لا يتعبون عن التسبيح والعبادة.

(٢) ربت: ارتفعت لدخول الماء والهواء خلالها.

هدى من الآيات:

من المحاور الرئيسة لسورة فصلت بيان الصلة السليمة بين البشر والخليقة من حوله، المتمثلة في أنهما جميعا خلق الله، وخاضعان طوعا أو كرها لمشيئته، فلا ينبغي أن يتخذ الإنسان آيات الله أندادا من دون الله، فيسجد للشمس أو للقمر، إنما السجود (والتعبد) لله وحده. أليس هو الخالق للكائنات جميعا، وهكذا تسبح ملائكة الله ومن هم عند الله لرب العالمين ليلا ونهارا بلا سأم أو ملل. كذلك الأرض تراها خاشعة كأنها في حالة تعبد لربها وانتظار لبركاته المتمثلة في الغيث، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت وربت، وكان في إحيائها بعد موتها شهادة حق على إحياء الموتى للنشور، وأن ربنا على كل شيء قدير. كل ذلك من آيات الله، ولكن ماذا عمن يلحد فيها؟.

إن الملحدين لا يخفون على الله، وهم لا يستوون مع من يستجيب لها بالتصديق والعمل. أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة!. ولا يعني تأخير العقوبة جهلا و تهاونا، كلا.. فليعملوا ما شاؤوا فإن الله بصير بهم.

من هم الملحدون في آيات الله؟. إنهم الذين يكفرون بذكرهم المتمثل في القرآن لما جاءهم، بينما هو كتاب عزيز يستمد قوته من ربه، وإنه كتاب حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. أوليس قد أنزله الحكيم الحميد، فكيف يأتيه الباطل؟، وما يجادلون به حول آيات الله وذكره باطل.

ولا يقال للرسول إلا ما قد قيل للرسل السابقين.. فأخذهم الله بأليم عقابه، بعد أن أمهلهم بمغفرته. إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم. وكان من بين ما قالوا أن من يعلم الرسول ﷺ أعجمي، بينما القرآن عربي مبين، ولو جعله الله أعجميا لطالبوا بأن يكون عربيا مبينا قد فصلت آياته تفصيلا، ولكن هل هذا هو مقياس الحق والباطل، والهدى والضلال؟. كلا.. إن المقياس هو الإيمان، فمن آمن بالقرآن كان له هدى و شفاء، بينما الذين لا يؤمنون كان في آذانهم وقر، وهو عليهم عمى، كمن ينادى من بعيد.

والله سبحانه لا يعاجلهم بالعقوبة، كما لم يفعل بالأمم السالفة، فقد آتى موسى الكتاب فاختلف فيه فمنهم من آمن ومنهم من كفر، ولكن الله أمهلهم ليبتليهم، ولولا أنه قدر الابتلاء في الدنيا لقضي بينهم.

إلا أن تأجيل القضاء لا يدل على إلغائه، بل الإنسان مسؤول عن أفعاله، فمن عمل صالحا فلنفسه، ومن أساء فعليها.

بينات من الآيات:

[٣٧] بين البشر وسائر الخليقة أكثر من صلة، وحين يكتشف الإنسان آماد هذه الصلة لا يزداد وعيا بما حوله فقط، ولا يزداد قدرة على تسخير الطبيعة فحسب، بل ويزداد إيمانا بربه، ومعرفة بأسمائه الحسنى التي تتجلى في السماوات و الأرض.

فإذا نظرنا إلى الليل والنهار والشمس والقمر راعتنا عظمتها وكبر حجمها ودقة نظمها، ولكن حين نجد أنها مسخرات بأمر الله، وخاشعة لمشيئته، محاطة بعلمه وقدرته، هنالك يهتدي المؤمنون إلى ربهم، ويعرفون شيئا من عظمته، فيخرون ساجدين لله وحده الذي له الحمد والمجد والكبرياء والعظمة. ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ اختلاف الليل والنهار بما فيه من دقة التدبير وحسن النظم شاهد على عظمة مقدرهما و مدبرهما، كما أن حركة الشمس ذات الأبعاد الثلاث المتناهية في الدقة، و دورات القمر المتصلة ذات الأثر البالغ في مقدرات الأرض، كل ذلك آية من آيات قدرة الله، فمن الضلالة تقديس الشمس والقمر من دون بارئهما!

﴿لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ وكانت من عادات الجاهلية، التي لا تزال شائعة عند بعض الأمم، ولعلها ناشئة من النظرة السطحية إلى آيات الخليقة التي لا تنفذ إلى ما ورائها من حقائق الغيب. ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وكان بعضهم يزعم أن السجود للشمس والقمر وللأصنام التي تنحت كرمز لهما ولغيرهما من مظاهر القوة والجمال في الخلق يُعَدَّ عبادة لله، أوليس كل أولئك من خلق الله، ومن مظاهر قوته و جماله؟ فنهرهم الرب بأن عبادة الله لا تتم إلا بالسجود له وحده، فإن كانوا يريدون الله فليعبدوه وحده، ذلك أن السجود للشمس وللقمر ولكل مظهر من مظاهر القدرة والجمال يبهر البشر وبالتالي الاستسلام للسلطة والثروة، وما إليهما من زينة الحياة الدنيا. كل ذلك أصل الفساد في حياة الإنسان، وإن من عبادة الله تحصين البشر من هذا الفساد الكبير. وبعضهم أخذ يفلسف هذا الفساد، ويزعم أن آيات الله هي عين ذاته، وأن الوجود والموجود واحد، وأن الخالق والمخلوق واحد، وأن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق. كلا.. لا تعايش عند الله بين عبادة الله والسجود للشمس والقمر، فمن سجد لهما خرج عن إطار عبادة الله.

[٣٨] ولكن لماذا يترك الإنسان عبادة الله إلى عبادة مخلوقاته؟.

لأن في عبادة الخالق استشعار الذلة والصغار، والتحسس بالمخلوقية والعبودية، وبالتالي الالتزام برسالات الله وما فيها من قيم وشرائع، واتقاء شح النفس، ومخالفة أهوائها،

والتحليق في سماء العقل، والعبور من واقع الشهود إلى حقائق الغيب، وما إلى ذلك من الكمال الرفيع الذي يستصعب على البشر فتراه يتكبر، فكيف يشافي المنهج القرآني حالة الاستكبار؟. بتذكير البشر بأن الملائكة وهم أفضل منه، وأقرب إلى ربهم، وأعظم قوة وسلطانا، يتعبدون الله وحده، ويقدسونه من الشركاء الموهومين، وأن المقربين من عباد الله الصالحين الذين يحظون بقرب الله يسبحونه، وأن طريق التعالي هو الخضوع، وأنه لا يتسامى البشر من دون كسر حاجز الاستكبار في نفسه. ﴿ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ ﴾ وأخذوا يشركون بالله خلقه، ويسجدون للشمس والقمر، ويخضعون لزينة الحياة الدنيا، و يزعمون أن ذلك طريق الكمال، تكريسا للأنانية، وإبقاء للجهل والجهالة، فليعلموا أنهم لم يهتدوا إلى سبيل التقرب إلى الله.

﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكة والمقربين، ولعل هناك خلق غيرهما لا نعلمه، هؤلاء الذين حظوا بمقام القرب من الله حتى صاروا عنده، ويحتمل أن يشمل المقربين وهم أحياء في الدنيا، لأنهم عند ربهم بأرواحهم وقلوبهم، وليس لربنا مكان محدد، فالقرب منه قرب معنوي. ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ فآيات الله لا تستبد بمشاعرهم، بل تذكرهم بعظمة ربهم. أوليس الليل يزول، والله دائم لا يزال؟ أوليس النهار ينسلخ، والله حي قيوم؟ فهم ينظرون إلى الجوانب السلبية في الخليقة فينزهون بارئها منها، كما أنهم ينظرون إلى الجوانب الإيجابية فيزدادون حبا لربهم وشوقا، وهذا المنهج في النظر إلى الليل والنهار يلهمهم المزيد من معرفة الله باختلاف الليل والنهار، فلا يتعبون من تسبيحه، لأن النظر الإيماني يعطيهم الطاقة والنشاط في كل ساعة. ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ ترى المؤمنين يستقبلون يومهم بمثل هذا الدعاء الذي يعكس بصيرتهم التي ينظرون من خلالها إلى ظواهر الخليقة، يقولون: «**اللَّهُمَّ يَا مَنْ دَلَعَ لِسَانَ الصَّبَاحِ بِنُطْقِ تَبَلُّجِهِ وَسَرَّحَ قِطَعَ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ بِغَيَاهِبِ تَلَجْلُجِهِ وَأَتْقَنَ صُنْعَ الْفَلَكِ الدَّوَّارِ فِي مَقَادِيرِ تَبَرُّجِهِ وَشَعْشَعَ ضِيَاءَ الشَّمْسِ بِنُورِ تَأَجُّجِهِ**»[1].

فالطبيعة تجليات لأسماء الله، والنظر إليها يهديهم إلى تلك الأسماء. ويعكس دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة هذه المنهجية في تفكير أولياء الله حين يقول: «**إِلَهِي عَلِمْتُ بِاخْتِلَافِ الْآثَارِ وَتَنَقُّلَاتِ الْأَطْوَارِ أَنَّ مُرَادَكَ مِنِّي أَنْ تَتَعَرَّفَ إِلَيَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى لَا أَجْهَلَكَ فِي شَيْءٍ**»[2]. و إذا أشرق نور معرفة الله على قلب مؤمن انسحب منه ظلام الأغيار، فلا شيء ولا شخص يشارك الرب في القلب. يقول الإمام الحسين عليه السلام في الدعاء ذاته: « **أَنْتَ الَّذِي أَشْرَقْتَ الْأَنْوَارَ**

---

(١) بحار الأنوار: ج٨٤، ص٣٣٩، من دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام.
(٢) بحار الأنوار: ج٩٥ ص٢٢٥.

فِي قُلُوبِ أَوْلِيَائِكَ حَتَّى عَرَفُوكَ وَوَحَّدُوكَ وَأَنْتَ الَّذِي أَزَلْتَ الأَغْيَارَ عَنْ قُلُوبِ أَحِبَّائِكَ حَتَّى لَمْ يُحِبُّوا سِوَاكَ وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى غَيْرِكَ أَنْتَ المُونِسُ لَهُمْ حَيْثُ أَوْحَشَتْهُمُ العَوَالِمُ وَأَنْتَ الَّذِي هَدَيْتَهُمْ حَيْثُ اسْتَبَانَتْ لَهُمُ المَعَالِمُ مَا ذَا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ وَمَا الَّذِي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ»[1].

وكلمة أخيرة: اختلفت المذاهب في موضع السجدة في هذا السياق بعد اتفاقهم على وجوبها، وأنها من العزائم، فقال فقهاء الشافعية والمالكية: تجب السجدة عند قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ﴾، بينما قال الحنفية والحنابلة: إن موضع السجود الواجب عند قوله: ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، وذهب الشيعة إلى هذا الرأي تبعا لروايات أهل البيت عليهم السلام.

ولا يجب ذكر مخصوص في السجود، ولكن يستحب أن يقول ما ذكر في رواية «من لا يحضره الفقيه» قال: وروي أنه يقول في سجدة العزائم: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ حَقّاً حَقّاً لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ إِيمَاناً وَتَصْدِيقاً لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ عُبُودِيَّةً ورِقّاً سَجَدْتُ لَكَ يَا رَبِّ تَعَبُّداً ورِقّاً لَا مُسْتَنْكِفاً ولَا مُسْتَكْبِراً بَلْ أَنَا عَبْدٌ ذَلِيلٌ خَائِفٌ مُسْتَجِيرٌ»[2].

[٣٩] القرآن بصيرة لا بصر، ورؤية لا نظر، إنه منهج تفكير لمن يعقل، وهدى وعبرة لمن يعي ويعتبر. إنه يقول لك كيف تصبح متعلما في مدرسة الحياة وفيها من معارف الرب، ومعالم الحق، ومشاهد النفس ما يكفيك حكمة وعلما.

ولو اتخذنا آيات القرآن بصيرة للنظر إلى ما حولنا لنطقت الطبيعة بألف درس ودرس، وبأكثر من لغة، لغة العواطف والأحاسيس، لغة العلم والحكمة، لغة الضمير والوجدان، وفوق كل ذلك لغة الشهود والإيمان.

انظر إلى الأرض. أولا ترى خشوعها لربها، وكيف تتعطش حبات التراب للغيث، وكأنها تناجي ربها طالبة أحيائها؟! ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ لا مستكبرة ولا متجبرة، وحق لها أن تخشع لربها الجبار، ومن دون خشوعها لا يمكن أن تنتفع ببركات ربها، وكذلك القلب الخاشع يهبط عليه نور ربه العظيم فيحييه بالمعرفة والإيمان. ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ﴾ وكذلك القلوب الطاهرة تهتز لآيات ربها. ﴿وَرَبَتْ﴾ لقد تنامى عليها الزرع والورق والثمر فإذا بالأرض قد علت عن مستواها الأول، وكذلك كل من تواضع لله يعلو، ومن يخشع يربو ومن تزكى ينمو. ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ﴾ وهكذا بهذه البساطة يحل القرآن أعقد لغز حيرَّ البشر، أوليست العقول تقف على شاطئ الحياة متسائلة: ما هي؟ كيف

(١) بحار الأنوار: ج٩٥، ص٢٢٦.

(٢) من لا يحضره الفقيه: ج١، ص٣٠٦.

وجدت؟ وكيف تعود حين تذهب؟ بلى، إنك إن سمحت لنظراتك أن تعبر حاجز الظاهر إلى حقيقة السنن فإنها تغور في ألغاز الخليقة.

لا بد أن تلامس رافد الحقيقة عن كثب، أما إذا وقفت على الشاطئ باسطا كفيك إليه ليبلغ فاك فلن يبلغه، خُضِ البحر حتى تحظى بالجوهر، ألقِ الحجاب عن عينيك ترى قدرة الله تتجلى في البساط الأخضر الذي يفرشه الربيع -بإذن الله- على الأرض من ملايين النباتات المفعمة بأسرار الحياة. إن تنوع النباتات، وسرعة التهاب الحياة في جنباتها، وانسياب القدرة من أطرافها، يهدينا كل ذلك إلى أن إحياء الموتى على الله يسير، والبشر بدوره كنبتة واحدة بين ملايين النباتات. بل يهدينا ذلك إلى أن القدرة الإلهية لا تحد، لأن شدة التنوع، وكثافة الخلق، وعظمة التدبير، وسرعة التطوير، لا يدع كل ذلك مجالا للشك في أن الله واسع القدرة، ولا شيء يعجزه أبدا.

﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ جاء علي بن فضال إلى الإمام الرضا عليه السلام يسأله: لم خلق الله الخلق على أنواع شتى، ولم يخلقه نوعا واحدا؟ فأجابه قائلا: «**لِئَلَّا يَقَعَ فِي الأَوْهَامِ أَنَّهُ عَاجِزٌ فَلَا تَقَعُ صُورَةٌ فِي وَهْمِ مُلْحِدٍ إِلَّا وَقَدْ خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ عَلَيْهَا خَلْقاً، وَلَا يَقُولُ قَائِلٌ: هَلْ يَقْدِرُ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ عَلَى صُورَةِ كَذَا وَ كَذَا إِلَّا وَجَدَ ذَلِكَ فِي خَلْقِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فَيَعْلَمُ بِالنَّظَرِ إِلَى أَنْوَاعِ خَلْقِهِ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**»(1).

[٤٠] قلب البشر كالأرض، إذا خشع لربه واستجاب لآيات الله أحياه الله بالإيمان أما إذا استكبر ولم يستجب لآيات الله كان كالصخرة الصماء التي لا تهتز للغيث. وبما أن الخليقة تفيض بآيات الله فإن الكفار يسعون جاهدين التخلص من آثارها على نفوسهم، فتراهم يلحدون فيها، ويحرفونها عن مواضعها، ويبحثون لأنفسهم عن تبريرات لكي لا يؤمنوا بها، ولكن هل تنطلي تبريراتهم وخدعهم على ربهم؟ كيف وهو الذي خلقهم وأحاط بهم علما؟

إنهم سوف يلقون في نار جهنم يوم القيامة، لقد فروا من مسؤوليات الإيمان إلى ظل الإلحاد (التبرير) زاعمين أنه ينجيهم من العقاب، بينما النجاة كانت في التسليم لآيات الله، وتقبل مسؤولياتهم.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا ﴾ جاءت هذه الآية بعد ذكر الآيات، لأن كثرة الآيات لا تنفع من يتهرب من التأثر بها، وقال فريق من المفسرين: إن معنى الإلحاد هو ما كانوا يفعلونه من المكاء والتصدية، وكأنهم نظروا إلى ظاهر كلمة الإلحاد الذي يدل على الفعل المتعدي إلى الغير،

---

(١) بحار الأنوار: ج٣، ص٤١.

ويعني حرف الآخرين عن الإيمان كمن يحرف آيات الله، وقالوا: إن الآية نزلت في أبي جهل، بينما ذهب مفسرون آخرون إلى أن المعنى: الذين يميلون عن آياتنا، ويبدو هذا المعنى أقرب إلى السياق. ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ بالرغم من أن الملحد يتشبث بالتمحلات البعيدة، ويحاول إخفاء رفضه للآيات بابتداع نظريات وفلسفات وأفكار باطلة وتخرصات واهية تُغَلِّف إلحاده، إلا أن كل ذلك قد يخدع الناس، وقد يخدعهم أنفسهم، ولكنه لا يخفى على الله، لأن الله محيط علما بنياتهم الخبيثة، ويجازيهم عليها بالنار.

﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ميزة الإنسان عن سائر الأحياء تطلعه إلى مستقبل أفضل. ألا ترى كيف تبحث البشرية اليوم إلى التقدم الحضاري؟ لماذا؟ لأنهم يريدون أمن المستقبل، ولكنهم يغفلون عن أعظم أمن لا بد أن يسعوا إليه، وهو أمنهم يوم القيامة، الذي لا يتوفر إلا لمن ألقى السمع إلى آيات ربه، واستجاب لها بخشوع. ولأن الاستجابة لآيات الله تتم بوعي وشدة عزم من قبل المؤمنين فإنهم يأتون بأنفسهم إلى ساحة المحشر آمنين، بينما الإلحاد يتم استسلاما للهوى فإن الملحدين يلقى بهم في نار جهنم إلقاء.

﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ لقد سمح الله لعباده بقدر محدود من الحرية في الدنيا ليتحملوا مسؤولياتهم كاملة يوم القيامة، ولكنه حذرهم من مغبة الإلحاد، والالتواء، والتبرير، وخداع الذات، لأنه بصير بما يعملون، فيعلم فعلهم، ولماذا يفعلون؟

[٤١] الكتاب الذي أنزله الله لعباده يعكس آياته المبثوثة في الخليقة، فمن أعرض عنه فقد أعرض عن حظه، لأن الكتاب ذكر يستثير ما نسيه البشر من حقائق هامة. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ﴾ إنهم هم الملحدون في آيات الله، وإن مصيرهم الدمار، لأنهم أعرضوا عن كتاب مقتدر. ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَـٰبٌ عَزِيزٌ﴾ وكيف لا يكون عزيزا وقد وعد رب العزة أن يحفظه، وينصر من ينصره، وأن يبارك في العاملين به، وإنه ليعكس سنن الله التي تنتقم ممن خالفها بشدة، وقد أنبأ الرسول ﷺ عن عزة الكتاب حيث قال عنه: «**وَمَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الجَنَّةِ وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ**»(١). وقال المفسرون: إن خبر المبتدأ هنا محذوف لدلالة السياق، كما لو قلنا: إن من يعادي زيدا و إن زيدا لقوي، أي إنه لا يفلح لأن من يعاديه قوي.

[٤٢] وعزة القرآن تتجلى أيضا في أنه حق، والحق منتصر. ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ﴾ فلا إخباره عما مضى يشوبه الباطل، ولا إنباؤه عما يأتي. معارفه ووصاياه؛

(١) الكافي: ج٢، ص٥٩، تفسير العياشي: ج١، ص٢.

بصائره وشرائعه، كل ذلك حق لا يعتريه الباطل لا في ذاتها ولا في تطبيقاتها. إنه كتاب العصور جميعا. أوليس يبيّن محض السنن، ولباب الحقائق، وعبر القصص، وهي لا تختلف من عصر لعصر، كما قال الإمام الرضا عليه السلام عنه: «**هُوَ حَبْلُ اللهِ المَتِينُ وَعُرْوَتُهُ الوُثْقَى وَطَرِيقَتُهُ المُثْلَى المُؤَدِّي إِلَى الجَنَّةِ وَالمُنْجِي مِنَ النَّارِ لَا يَخْلُقُ مِنَ الأَزْمِنَةِ وَلَا يَغِثُّ عَلَى الأَلْسِنَةِ لِأَنَّهُ لَمْ يُجْعَلْ لِزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ بَلْ جُعِلَ دَلِيلَ البُرْهَانِ وَحُجَّةً عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ**»[1].

﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ الله الذي شهدت آفاق الخليقة بحكمته البالغة هو الذي نزل الكتاب، فهو الناطق عن تلك الحكمة التي نراها في خلقه سبحانه. وهو الحميد الذي نشرت محامده على كل أفق مبين، لأن رحمته وسعت كل شيء، وقد بعث آخر الأنبياء رحمة للعالمين، وأنزل معه كتاب رحمته.

[٤٣] إن طبيعة النفس البشرية واحدة عبر التاريخ، وتبريرات الملحدين في آيات الله والمعرضين عن ذكرهم اليوم هي ذاتها التي قالوها للرسل من قبل، كما أن سنة الله في إمهالهم برحمته إلى أجل ثم أخذهم إن لم يتوبوا بعقاب أليم جارية في من يأتي كما جرت فيمن مضى. ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ فلا تحزن عليهم. إنها عادة الملحدين الذين يعرضون عن الذكر، ويتقولون على الرسل تبريرا لإلحادهم وإعراضهم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ فعلى الرسول ومن يتبعه أن يوسع صدره، ويتعامل مع خلق الله برفق. ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ فلو أعرضوا فإن لهم عذابا أليما أعده الله لهم، فلا يستعجل الداعية العذاب، ولا يحمل هَمَّ إنكارهم.

[٤٤] القرآن ذكر، وقد توافرت فيه شروط الهداية لولا أنهم أعرضوا عنه، لو جعله الله أعجميا لبرروا إعراضهم بأنه غير مفهوم، أو قالوا: كيف يتحدث نبي عربي بقرآن أعجمي؟! ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾ ويحتمل قريبا أن يكون المراد من الأعجمي الكتاب غير المبين بقرينة ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾، كما لو كانت آياته كلها فوق مستوى عقولهم فلم يستوعبوه، هنالك كانوا يطالبون بأن يكون واضحا قد بينت آياته.

وينهرهم القرآن أن القضية ليست في أن يكون عربيا أو أعجميا، بل في أن يكون القلب مستعدا لتقبله. ﴿ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ وقال المفسرون: إن هذا الكلام تكميل لقوله ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَاتُهُ﴾، أي يكون الكتاب أعجميا بينما الرسول عربي، أو يكون الكتاب مختلطا بين العربي

(١) بحار الأنوار: ج١٧ ص٢١٠.

والأعجمي. ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ يهديهم إلى الحق، ويشفي قلوبهم من أمراضها، أما المعرضون عنه فإنهم لا ينتفعون بالكتاب. إن في آذانهم وقرا من الأفكار الباطلة، والمسبقات الذهنية الخاطئة. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ قالوا: معناه أنهم محجوبون عنه حتى صاروا بالنسبة إليه كالأعمى، ولعل معناه أنهم يزدادون به ضلالا وطغيانا كما قال ربنا: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢]. ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ ذلك أن المسافة واسعة بين القرآن وهداه وشفائه وقلوبهم المغلفة التي غلفتها الشهوات والكبر والأحقاد.

[٤٥] وقصة الجحود طويلة، فلقد أنزل الله التوراة على موسى عليه السلام فاختلف فيها الناس على الرغم من أنها كانت هدى ونورا. وأمهلهم الله حتى يمتحنهم، ولولا أنه قد قدر امتحان البشر في الدنيا لقضى بينهم، وأخذ الجاحدين أخذا شديدا، لأنهم قد جاؤوا إفكا مبينا، ولا يزال البعض يشك في التوراة شكا مقلقا. ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ فاختلافهم في القرآن ليس دليلا على نقص فيه، حاشا لله ! إنما هو بسبب وقر آذانهم، وعمى أبصارهم، وكما أن الله لم يعجّل على أولئك بالعذاب، بالرغم من عظيم إفكهم، كذلك لم يعجّل العذاب على هؤلاء. كل ذلك لأن الله قد قدر الدنيا دارا للفتنة والبلاء.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ ونزل عليهم العذاب، ولكن الله قد سبقت كلمته أن يمهل الجاحدين إلى أجل مسمى فلا يغرهم المهل، ولا يتخذ البعض ذلك دليلا على أن الله لا يعز كتابه أو لا ينصر رسله.

﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ قالوا: المعنى أن العرب لا يزالون في شك من القرآن، وقال البعض: بل اليهود لا يزالون في شك من التوراة، ويبدو أن هذا أقرب إلى السياق الذي فيه تسلية للرسول ليتسق المعنى، هكذا: لا يحزنك -يا رسول الله- شك قومك في القرآن فبنو إسرائيل لا يزالون في شك من التوراة. وقالوا: الريب هو أفظع الشك، فالمعنى -على هذا- أنهم في شك فظيع. وقالوا: الريب هو الشك المقرون بسوء الظن. ويحتمل أن يكون معنى الريب هو الشك المفزع، فقد جاء في اللغة: أراب خلافا أقلقه وأزعجه، وفي حديث فاطمة: «يريبني ما يُرِيبُها»[1]. ولعل الفارق بين الشك المريب وغيره: أن من يهتم بأمر يشك فيه يريبه الشك ويزعجه، بينما الذي لا يهتم بأمر لا يزعجه الشك فيه.

(١) النهاية في غريب الحديث: ابن الأثير: ج٢، ص٢٨٧، مواهب الجليل: الحطاب الرعيني: ج٥، ص١٢، تحفة الأحوذي: المباركفوري: ج٥، ص٤٢٥.

سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم

﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا(١) وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ(٢) مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا(٣) بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾ ﴾.

(١) أكمامها: أكمام جمع كم وهو الغلاف، يقال تكمم الرجل بثوبه إذا تلفّف به.

(٢) آذناك: أعلمناك، والمعنى نعلمك ونعترف لك.

(٣) نئا: بعد بجانبه عن الاعتراف بالله وشكره.

هدى من الآيات:

إن المنهج القرآني يربط بين ما في الطبيعة وما في النفس البشرية، والآية ما قبل الأخيرة من هذه السورة تؤكد هذه العلاقة الوثيقة، وكلما ازداد الإنسان وعيا بآفاق الطبيعة ازداد معرفة بأعماق النفس. أوليست النفس عالماً كبيراً في حجم محدود، وسواء اهتدى الإنسان إلى غيب الطبيعة الذي هو الحق، أو اهتدى إلى غيب النفس الذي هو الحق أيضا، فإنه سيهتدي بإذن الله إلى خالق الطبيعة والنفس معا، وهو الله عز وجل.

وفي الدرس تذكرة بالغة للإنسان بنفسه التي هي الأقرب إليه، ولكنه يغفل عن آمادها التي لو انتبه إليها أحس بعمق العبودية التي أركزت فيها. أولا ترى كيف تجزع إن مسها شيء من السوء، و تفقد توازنها إن أصابها شيء من الخير؟، أولا ترى حرصها على النعم الذي يمنعها من العطاء، و شدة يأسها وقنوطها؟، إن أطوار النفس وتغيراتها شاهدة على أنها مخلوقة مدبرة، وتلك آية من آيات الله في الخليقة.

بينات من الآيات:

[٤٦] ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ تبيّن الآية المسؤولية الإنسانية: أن من عمل صالحا فإنما لنفسه يعمل، ويلقى جزاءه الحسن وافيا، وأن من عمل سيئا فإنما على نفسه، ويجد جزاءه كاملا. وكلمة ظلّام تدل على المبالغة في الظلم، وربنا ليس فقط لا يظلم كثيرا عبيده، بل أيضا لا يظلمهم قليلا. إذا فلماذا ينفي الرب ظلمه بصيغة المبالغة فيقول: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾!. وسبب هذا التساؤل هو التشابه الذي سيحدث بنفي المبالغة، فلو قلت: فلان لا يأكل، فهذا يعني أنه لا يأكل كثيرا ولا قليلا، وأما لو قلت: وما فلان بأكول، فهذا يعني أنه لا يأكل كثيرا، ولكنه قد يأكل قليلا، فنفي المبالغة نفي للكثرة فقط.

ذكر جملة من المفسرين أن ذلك باعتبار أن المولى الحق عدل فقليل الظلم في ساحة قدسه كثير، أو باعتبار أن الظلم القليل مهما كان قليلاً مع الكثرة التي لا تحصى من الخلائق فإنه سيكون كثيرا جدا، أو للإشعار بأنّ من فعل الظلم وإن قلّ -وهو عالم بقبحه، وبأنّه غنيّ عنه- لكان ظلاما.

والجواب -في ما يبدو لي- أن هذا الدين يقرر مبدأ الحرية والمسئولية، أي مبدأ التبعة الفردية. ومن جهة أخرى فإن الإنسان مسؤول عن واقعه الفردي والاجتماعي وإصلاحه،

فهو محاسب عن ذلك. إن الله القدير الحكيم لم يخلق الدنيا الا ليعلم من يصمد أمام امتحاناتها ومن ينهار.. إذا فالابتلاءات ضرورية إلى حد ما لفلسفة هذا الكون ذلك لأن للابتلاء غايات عديدة وأسباب مختلفة. ومن مبدأ الحرية وسنة الابتلاء فالحياة الدنيا دار بلاء وامتحان وقد ترك الله الناس يختارون ما يشاؤون حتى يختاروا طريقهم بأنفسهم ويحصلوا على الجزاء المناسب. وأجرى الرب تعالى سننا في الخلق ربطت تداعيات الحوادث بين أسباب ونتائج، وأوشجت عرى العلائق بين البشر حيث يكون لأفعالهم تأثير بالغ على بعضهم البعض، والأمر ذاته بين البشر وعالم الطبيعة؛ فالسماء تدر خيرها أو تحبسه بتقدير العزيز الحكيم ومن سنن التقدير أفعال العباد.

فنلاحظ هنا أن المرء مسئول عن إصلاح نفسه ومحيطه الاجتماعي. إلا أن المحاسبة الأخروية على السعي الفردي في الإصلاح، بيد أن نتائج سعيه إيجابا أو سلبا يغنمها أو يصطلمها في حياته الدنيوية، فهو لم يطالب بالسعي لتغيير الواقع إلا لكون الواقع هو صنيعة الأفعال البشرية في إطار السنن الربانية. ومن جهة أخرى أن المحاسبة الأخروية تعتمد تفاعل (السعي، الواقع) من حيث إمكانيات السعي وفرص النجاح. فلو لم يربط ربنا سبحانه بين عمل الإنسان وبين واقعه، وبين سعيه وبين جزائه لكان ظلاما -تعالى علوا كبيرا-. فليس من الظلم أن يصبح شخص رئيسا تهدى إليه خيرات الأرض و بركاتها، ويصبح ويمسي شخص آخر وهو لا يجد ما يقتاته؟! بلى، إنه ظلم، وظلم كبير لو لم نلحظ الحكمة الإلهية والسنن التي تربط بين أفعال البشر وواقعهم ومصيرهم.

وحيث نعرف أن الله الذي خلق السماوات والأرض وما فيهن وما بينهن بالحكمة البالغة، و التقدير العادل الموزون، ووضع كل شيء موضعه المناسب، ليس بظلام، نعرف يقينا أن درجات الإنسان في الدنيا والآخرة مقدرة حسب حكمة بالغة، ترتبط باختياره وسعيه، و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]، و﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

فربُّنا لم يسلط هتلر على الشعب الألماني أبدا، ولكنهم هم الذين سوَّدوه على أنفسهم، بجهالتهم و بتركهم مسؤولياتهم، وهكذا بالنسبة لسائر الشعوب.

[٤٧] وهناك تساؤل آخر تجيب عنه الآية الآتية، هو: إننا في كثير من الأوقات لا نكتشف الأسباب في حدوث الأشياء، فنقول مثلا: من الذي جعل الطغاة يحكمون البلاد؟، وتلك الأمراض والأوبئة، وتلك الحوادث التي تكتنف حياة البشر.. كيف تحدث ولِمَ؟. وإذا كنا -معشر البشر- لا نعلم ذلك فكيف يكون الانسان مسئولا عما يُحيط به!.

بلى؛ قد يجهل البشر العلاقة بين الأشياء، وكيف ولِم، لكن:

أولاً: العلاقات السننية قائمة، والله سبحانه هو الذي قدرها وهو الذي يجريها.

ثانياً: المسئولية البشرية مرتبطة بنطاق إمكان السعي والمعرفة البشريين.

ثالثاً: أن حقيقة الهيمنة الإلهية وغاية الخلق وسنة الابتلاء تفترض وجود جملة من المعميات على البشر.

﴿ ۞ إِلَيۡهِ يُرَدُّ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِۚ ﴾ متى تقوم قيامة هذا الكون؟! لا أحد يدري، فهذا غيب غائر في المجهول، وحتى الأنبياء لا يعلمون ذلك، فعند الله علم الساعة يقررها متى يشاء، وكيف يشاء، وقد تقوم غدا، أو بعد غد، وفي بعض النصوص: أن الله لم يقدر للساعة وقتا، وإنما جعل لنفسه فيها البداء.

﴿وَمَا تَخۡرُجُ مِن ثَمَرَٰتٖ مِّنۡ أَكۡمَامِهَا ﴾ فهو المحيط علما بما في أكمام الثمرات من فواكه. قف على شجرة قبل أن تظهر ثمراتها، إنك سترى أزهاراً كثيرة، ولكن كم تحمل من ثمرة؟ وكم زهرة منها ستسقط وتتلاشى؟ وكم ثمرة ستسقط قبل النضج؟ وكم ثمرة ستواصل الرحلة إلى الأخير؟ إنك لا تعلم، ولا أحد يعلم، ويبقى الله هو العالم بخفايا الأمور، وخبايا الطبيعة، مما يشكل رزق البشر الأساسي. أما عن أبنائه فالله هو المحيط علما بهم.

﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ ﴾ هل تحمل هذه الأنثى أم لا، وماذا تحمل؟ أنثى أم ذكر؟ وهل يولد حملها سويا، وما هي انعكاسات الطبيعة على جسده ونفسه؟ كل ذلك يرد علمه إلى الله.

إن الآية السابقة بيَّنت مسؤولية البشر عن أفعاله، وأن الله ليس بظلام لعبيده، وقد جاءت هذه الآية لتأكيد المسؤولية:

أولاً: بأن الله محيط علما بواقع البشر، فإليه يرد علم الساعة عندما يقوم للحساب، وهو عالم برزقه، وعالم بأبنائه.

ثانياً: بنفي الشركاء الذين يزعم البشر أن التوسل بهم يبعده عن عذاب ربه، فيؤكد القرآن أن الإنسان يضحي يوم القيامة متبَرِّئا من الشركاء لأنهم لم يغنوا عنه شيئا.

﴿وَيَوۡمَ يُنَادِيهِمۡ أَيۡنَ شُرَكَآءِي قَالُوٓاْ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٖ ﴾ يقول لهم الله: أين الشركاء الذين كنتم تزعمون؟ فيعلنون له إعلانا: والله لا ندري أين الشركاء، ولا ندري أين ولَّوا.

[٤٨] ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ﴾ عرفوا أنه ليس للشركاء المزعومين دخل في الأمر. ﴿وَظَنُّواْ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ المحيص هي تلك الحفرة الصغيرة التي يحفرها الطير -كالقطا مثلا- بجؤجؤته أي بصدره في الأرض، وهؤلاء المشركون يظنون أي يعلمون يقينا أنهم لا يقدرون على التزحزح عن مسؤولياتهم ولا بهذا المقدار، ولعل الظن بمعنى التصور، وهو هنا يقع معنى تجسد الحقيقة أمام أعينهم.

[٤٩] في أعماق نفس البشر آيات باهرة تهديه إلى ربه، ولو تدبر الإنسان في ذاته، وكيف تطرأ عليه الحالات المختلفة من طمع لا يحد، ويأس لا يوصف، لعرف حاجته إلى الخالق، وأنه قد أركس في العجز والفقر والمسكنة إركاسا. إن البشر حين ينازع ربه رداء كبريائه يحتجب عن نور الله، لأنه قد جهل نفسه، ولم يعرف آماد عجزها وضعفها، وشدة فقرها وفاقتها، أما حين يتصور حالاته المختلفة يعرف نفسه، ومن ثم يعرف ربه.وربنا يرينا آياته في أنفسنا فيقول: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ إنه عميق الإحساس بالحاجة إلى الخير من الغنى والعافية، والأولاد، وسواء دعا ربه أم دعا الشركاء فهو محتاج، والمحتاج فقير ذليل عاجز، وهو بالتالي ليس بإله ولا نصف إله. إنه محض عبد، صفر اليدين. إنه يتوب إلى ربه الغني، ويعلم بفطرته أنه غناه، والتقرب إليه مناه حقا، وأنه قد ضل الطريق، وأن حرصه على الدنيا لا يشبع طموحه، ولا يشفي غليله، إنما الأوبة إلى ربه غاية تطلعه، ونهاية منيته.

يقول الإمام السجاد عليه السلام وهو يناجي ربه: «**إِلَيكَ شَوقِي، وَفِي مَحَبَّتِكَ وَلَهِي، وَإِلَى هَوَاكَ صَبَابَتِي، وَرِضَاكَ بُغْيَتِي، وَرُؤْيَتكَ حَاجَتِي، وجِوَارِكَ طَلَبِي، وَقُربُكَ غَايَةُ سُؤْلِي، وَفِي مُنَاجَاتِكَ رُوحِي وَرَاحَتِي، وَعِندَكَ دَوَاءُ عِلَّتِي، وَشِفَاءُ غُلَّتِي، وَبَردُ لَوْعَتِي، وَكَشْفُ كُرْبَتِي -إِلَى أَنْ يَقُولَ:- وَلاَ تَبْعُدنِي عَنْكَ، يَا نَعيمِي وَجَنَّتِي، وَيَا دُنْيَايَ وَآخِرَتِي**»[١].

وهذه النفس الواسعة التي تتطلع إلى امتلاك الدنيا وتزيد قد تضيق بها الآفاق حتى يطبق عليها اليأس من أطرافها. أوليس ذلك دليلا على فقر البشر، وشدة حاجته، وسفاهة تكبره على ربه. ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ ولعل اليأس هو قطع الأمل قلبيا، بينما القنوط هو التوقف عن السعي بسبب اليأس، والكلمتان مثل لفظتي اليوم والنهار إذا اجتمعتا افترقتا، وإن افترقتا اجتمعتا، فلو استخدمنا لفظة اليأس فقط أعطت معنى القنوط، وهكذا العكس، ولكن حينما نستخدمهما فإن لكل واحدة منهما معنى. وقال البعض: يؤوس شدة اليأس من الخير، وقنوط من الرحمة، وقال: اليؤوس من إجابة الدعاء، قنوط يسيء الظن بربه.

---

(١) الصحيفة السجادية: مناجاة المريدين.

[٥٠] ومن تسولات النفس في الهروب من المسؤولية والإعراض عن آيات الله هو الغرور بالنعم، مما يعالجه القرآن هنا.. ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ من عادة مؤلفي الروايات تصوير أبطالهم في حالات نفسية متناقضة، فيصورون مثلا: أحد المجرمين في لحظة جريمته، يعيش قمة الغرور، فيقع فجأة في الفخ، أو يصورون: أحد المغرورين يتصور أنه يمتلك الشمس بيمينه والقمر بيساره، وإذا به يبصر، يرى شرطيا أمامه فيصبح كالخرقة البالية. وهذا التصوير يساعد في كشف خبايا النفس، وأبعاد الخداع الذاتي الذي يعيشه الإنسان، وإنما يكتشف عبر الظروف المتغيرة التي يعيشها.

والقرآن -هنا- يصور لنا الحالة النفسية الأولى التي يعيشها المفتون، حيث يتذوق رحمة الرب و نعمته بعد أن عاش ظرفا صعبا، وضيقا وشدة، وتعبيرا عن فرحته يبادر قائلا: «هذا لي» كالطفل الذي يشتري له والده لعبة جديدة، فيذهب مسرعا إلى أترابه قائلا: عندي لعبة جديدة، هذه لي..، مأخوذا بنشوة الغرور، وهذا ما تفعله جِدة النعم بصاحبها، فهي هاوية يجب الحذر من السقوط فيها، تسبب في تغير حالة الإنسان النفسية، ولهذا كان الإمام الصادق عليه السلام ينبه داود الرقي قائلا: «**يَا دَاوُدُ تُدْخِلُ يَدَكَ فِي فَمِ التِّنِّينِ إِلَى الْمِرْفَقِ خَيْرٌ لَكَ مِنْ طَلَبِ الْحَوَائِجِ إِلَى مَنْ لَمْ يَكُنْ فَكَانَ**»[1].

ثم إن ذلك المغرور المفتون لا يقتصر على الزهو والفخر الذي يغمره، بل يتصور الحياة متلخصة في تلك اللحظة التي يعيشها، وفي ذلك المكان الذي يتنعم فيه، ثم بعد ذلك يخطر على باله أن لو كانت هناك ساعة وجزاؤه كان له عند ربه الحسنى، أوليس الله قد أنعم عليه في الدنيا، فهو لا بد أن ينعم عليه في الآخرة ! وهكذا يزعم السلاطين والمترفون والمفسدون، إنهم يتصورون أن الله إنما فتح عليهم أبواب النعم الدنيا لحبه إياهم، أو لأنهم عباده الذين اختارهم -وهذه هي العنصرية-، في حين أن الله إنما أعطاهم تلك النعم ليمتحنهم، ويبلوهم أيهم أحسن عملا، أو حتى يستدرجهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾[آل عمران:١٧٨]. ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟﴾ وأما ربنا سبحانه فلا يحاسب الناس على أساس فقرهم وغناهم، وكبرهم وصغرهم، وإنما على أساس كفرهم أو إيمانهم، كفرانهم أو شكرهم، وبالتالي أعمالهم، إن خيرا فخير وإن شرا فشر. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ وسوف يكون العذاب غليظا بقدر التأثيرات السلبية للنعمة في نفسه وآثار تلك السيئة على سلوكه.

---

(١) تهذيب الأحكام: ج٦، ص٣٢٩.

[٥١] تقدّم أطوار نفس الإنسان دليلا وجدانيا على عجزه وحاجته إلى الخالق وإلى الرسالة التي تربيه وتزكيه، ولو عاد الإنسان إلى حرم نفسه لشاهد فيها من آيات الله بما يراها في آفاق السماء و الأرض. ومن تلك الأطوار مدى تأثره بحالة الغنى والفقر، والعافية والمرض. ﴿وَإِذَآ أَنۡعَمۡنَا عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ أَعۡرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ إنه في حالة الرخاء والنعمة يعرض عن ذكر الله، ويتجنب الداعين إلى الله، بجعل جانبه مواجها لهم، ثم يتولى عنهم. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ وأما إذا أصابه شر فإنه يعتكف في المسجد ليبدأ مرحلة التبتل والدعاء، وهذا التوجه إلى الدعاء العريض من بعد ذلك الإعراض دليل ضعفه عن مواجهة المشاكل، ومعرفته بأن الله هو المتفضل بالنعمة عليه، ولكنه لضيق نفسه ومحدودية استيعابه تاه في غرور النعمة، وفقد سيطرته عليها، وجعلها حجابا بينه وبين الله. وهذا الإنسان الذي تتحدث الآية عنه قد يكون هو أنا وأنت ونحن، لذلك لا بد أن نعي ونتنبه، لا بد أن نعقل ونحذر.

[٥٢] بعد أن ألقى السياق الضوء على مدى العجز والفاقة والمسكنة التي أركست فيها نفس الإنسان حتى تراها تتأثر إلى حد التطرف بالمؤثرات الخارجية، مما يهديه إلى سفاهة الكبر ويشعره بضرورة العودة إلى فطرته في التسليم لربها، بعدئذ أخذ -السياق- يذكره بضرورة أخذ الحيطة لنفسه، وقال: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كَانَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرۡتُم بِهِۦ مَنۡ أَضَلُّ مِمَّنۡ هُوَ فِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ أي لو كان القرآن حقا ثم كفرتم به، ولم تقوموا بالاحتياط الكافي لأنفسكم، فإنكم سوف تصبحون في ضلال بعيد عن جادة الحق.

إن الإنسان يبحث فطريا عن الأمن، ولولا الكبر الذي انطوت نفسه عليه والغرور والحجب لاستمع إلى إنذار الرسل، وقال في نفسه: لو كان هذا الإنذار صحيحا لوجب أخذ الحيطة لنفسي بالاستماع إلى شواهد المنذرين وآيات الله التي تتجلى على أيديهم، ولو فعل ذلك وألقى السمع من دون وقر الكبر والعجب اهتدى إلى الحق. ثم إن عقل الإنسان يهديه بضرورة أخذ الحيطة حتى بمجرد افتراض صحة ما يقوله الرسل، بهذا ذكر الإمام الصادق عليه السلام أحد الملحدين الذي طال جداله في الدين، فبعد أن رأى عبد الكريم ابن أبي العوجاء الإمام في الحج، وطلب منه العودة إلى النقاش، رفض الإمام قائلا: «**لَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ**. وَنَفَضَ رِدَاءَهُ مِنْ يَدِهِ وَقَالَ عليه السلام: **إِنْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ** -وَ لَيْسَ كَمَا تَقُولُ- **نَجَوْنَا وَنَجَوْتَ، وَإِنْ يَكُنِ الْأَمْرُ كَمَا نَقُولُ** -وَهُوَ كَمَا نَقُولُ- **نَجَوْنَا وَهَلَكْتَ**. فَأَقْبَلَ عَبْدُ الكَرِيمِ عَلَى مَنْ مَعَهُ فَقَالَ: وَجَدْتُ فِي قَلْبِي حَزَازَةً فَرُدُّونِي فَرَدُّوه فَمَات»[١].

[٥٣] وأما الطريق إلى الحقيقة فهو بديع الخلق وحقائق النفس.

---

(١) الكافي: ج١، ص٨٧.

لقد حملنا السياق القرآني ومنذ فاتحة السورة إلى آفاق السماوات والأرض، وأرانا آيات الله فيها، من بديع الصنع، وعظيم الخلق، ولطيف التدبير، وحسن التقدير، ثم ذكرنا بأعماق النفس التي لو خضنا غمارها لرجعت النفس تائبة إلى فطرة العبودية. أرأيت جزعها حين يمسها سوء؟ هل وجدت يأسها وقنوطها بعد حرصها وطمعها؟ إذا لم تكن هذه شواهد العبودية فما هي إذا شواهدها؟! لقد أشار القرآن إلى بعض هذه الشواهد التي يجدها كل واحد منا في نفسه وجدانا، ثم قال مشيرا إليها والى آياته في الآفاق التي ذكرت من قبل: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ ومن هذه الآية نستوحي بأن الله سبحانه يتجلى للإنسان في آفاق الخلق حينا وحقائق النفس حينا بالرغم من الحجب السميكة التي يغلف بها قلبه، ولو في لحظة من لحظات عمره، لكي تتم الحجة عليه، وحتى أئمة الكفر والطغيان والفساد في الأرض يتم الله حجته عليهم، ويبيّن لهم الحق بشكل لا يسعهم الإنكار، فإذا كفروا بعد ذلك أخذهم بعذاب بئيس، إذ إن كفرهم ليس عن غفلة، إنما عن جحود.

والآيات الشريفة السابقة توضح الآيوية حيث تبيّن التقابل بين الفقر والغنى، وحيث تقلب حال البشر يدلل على الفقر. فإذا لم تكن الذات البشرية غنية بالعلم والوجود كما هو الحق، فلا بد أن نهتدي إلى أنها من طبيعة العدم والجهل. فنعرف أن ما بها من وجود وعلم هو من الغني الحميد. وأن هذه الحقائق تهدينا إلى أن ما في الآفاق وما في أنفسنا من آيات الكمال والجمال فهي دالة على ما لواهبها من كمال ذاتي لا محدود وجمال تام لا متناهي وأن ما فيها من معالم الضعف والنقص فهي دالة على تعالي خالقها منها وتساميه عنها وبهذا نهتدي إلى ما لله من أسماء حسنى وما هو منزه عنها من صفات المخلوقين.

﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ فالله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى شهادة شيء، بل هو الشاهد على كل شيء. فبنوره أشرقت السماوات والأرض، وبضيائه عرف الخلائق أنفسهم، وبذاته دل من يشاء على ذاته، سبحانك يا رب: «كَيفَ يَستَدِلُّ عَلَيكَ بِمَا هُوَ فِي وُجُودِهِ مُفْتَقِرٌ إِلَيكَ!. أَيَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظهُورُ مَا لَيْسَ لَكَ، حَتَّى يَكُونَ هُوَ المُظْهِرُ لَكَ!. مَتَى غِبْتَ حَتَّى تَحتَاجَ إِلى دَلِيلٍ يُدلُّ عَلَيكَ!. وَمَتَى بَعدَتَ حَتَّى تَكُونَ الآثَارُ هِيَ التِيّ تُوصِلُ إِلَيكَ!. عَمِيَتْ عَينٌ لا تَراكَ عَلَيهَا رَقِيباً»[1].

إنَّ التجلي الإلهي لا يكاد يخفى، فتأمل تجد أن: حياتنا الشخصية، مستقبلها، بل ماذا تكسب غدا ومتى تموت مُحاطة بتدبير فوقي. ولو تدبرت قليلا لوجدت أن صدفا ما غيرت مسيرة حياتك، وحوادث ما جعلتك تغير أفكارك، بل إنك في لحظات اضطررت أن تختار طريقا

(١) بحار الأنوار: ج٦٤، ص١٤٢، من دعاء الإمام الحسين عليه السلام في يوم عرفة.

مختلفا عن آمالك، بل اخترته بصورة فجائية لم تسبقك إليه بادرة أبدا. ولقد عبرت عن الحقيقة آية شريفة تعبيرا لطيفا، فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾[الأنفال:٢٤].

وفي حالات عديدة يرتبط وجداننا بقوة غيبية نتيقن في تلك الأحوال بأنها مهيمنة ورحيمة فنتضرع إليه بقلوبنا فإذا الحياة المستصعبة تيسرت، وإذا تلك الشديدة انكشفت، لا نعلم أين هي وكيف هي، بل لا نعرف عنها إلا أنها قادرة على إنقاذنا.

وقد تصفو النفس إلى درجة تحسب أنها ترى الله، بل هو أشد من الرؤية وضوحا آنذاك، ولو يتذكر الإنسان تلك اللحظات لعرف إن الله لا ريب فيه فاطر السماوات والأرض الرؤوف الرحيم. وهكذا يعرّف الله نفسه للإنسان مرة بعد أخرى ويظهر في كل شيء ظهورا، وإنما تراه القلوب البصيرة النافذة التي تخترق ظواهر الحياة إلى حقائقها.

وهذه شهادة الله لرسوله؛ فقد تحدى النبي ﷺ كل البشر بما هم من مبادئ وأفكار وبما ينتحلون من شرائع وأديان: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ﴾ [الأنعام:١٩]. فقد اصطفاه من بين الأميين وبعثه بالكتاب الذي لا يأتيه الباطل، وأردفه بالتأييد والتسديد والنصر واستجابة الدعاء. وهكذا فالاحاطة القيومية تتكشف لمن يلقي السمع، بل هي تتكشف لكل إنسان في صور مختلفة في تجارب وتضاعيف الحياة.

[٥٤] ولكن العمى في الكفار هو الذي يجعلهم لا يرون الله عز وجل، وسبب العمى هو الكفر بالبعث، ونكران النشور. إن الريب في يوم الآخرة وبالتالي في المسؤولية يبرر للنفس التهاون، وإذا استبد بها التهاون لم يهتم بالحق، ولم يستمع إلى داعيه، ولم ينتفع بآيات الله التي تتجلى في الآفاق والأنفس. ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ إنهم يشكون في يوم القيامة وساعة الحساب، بينما الرب يحيط بهم إحاطة كاملة، وسوف لا يفلتون من قبضته، لأنه لا منجى منه إلا إليه، ولا مهرب من سطواته.

سورة الشورى[1]

* مكيّة.

* عدد آياتها: ٥٣.

* ترتيبها النزولي: ٦٢.

* ترتيبها في المصحف: ٤٢.

* نزلت بعد سورة فصلت.

فضلُ السُّورة

روي عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «مَنْ قَرَأَ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ بَعَثَهُ اللهُ يَوْمَ القِيَامَةِ وَوَجْهُهُ كَالثَّلْجِ أَوْ كَالشَّمْسِ حَتَّى يَقِفَ بَيْنَ يَدَي اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُولُ عَبْدِي أَدَمْتَ قِرَاءَةَ ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ وَلَمْ تَدْرِ مَا ثَوَابُهَا أَمَا لَوْ دَرَيْتَ مَا هِيَ وَمَا ثَوَابُهَا لَمَا مَلِلْتَ قِرَاءَتَهَا وَلَكِنْ سَأُخْبِرُكَ جَزَاكَ أَدْخِلُوهُ الجَنَّةَ وَلَهُ فِيهَا قَصْرٌ مِنْ يَاقُوتَةٍ حَمْرَاءَ أَبْوَابُهَا وَشُرَفُهَا وَدَرَجُهَا مِنْهَا يُرَى ظَاهِرُهَا مِنْ بَاطِنِهَا وَبَاطِنُهَا مِنْ ظَاهِرِهَا وَلَهُ فِيهَا جِوَارٍ أَتْرَابٌ مِنَ الحُورِ العِينِ وَأَلْفُ جَارِيَةٍ وَأَلْفُ غُلَامٍ مِنَ الوِلْدَانِ المُخَلَّدِينَ الَّذِينَ وَصَفَهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ».

(ثواب الأعمال: ص١٢٣)

الإطار العام

الشورى علاج الاختلافات

في الوقت الذي تختص كل سورة في القرآن بمحور يفردها عن بقية السور، تراها كلها تلتقي حول محور مشترك واحد، لذلك فإن من الصعب على المتدبر أن يميز بينها، لأنها جميعاً تنطلق من قاعدة واحدة؛ لتنتهي إلى هدف واحد، تنطلق من معرفة الله، وتنتهي إلى الإيمان به وعبادته، فآياتها متشابهة كما يصف القرآن نفسه بذلك، إلا أن المتدبر يجد لكل سورة محوراً يتميز بما يلي:

أولاً: إن كل القضايا المتعلقة واقعياً بذلك المحور تكون مبحوثة في السورة، بالرغم من أنها -وبالذات في السور الطويلة- تبدو مختلفة أو حتى متباينة، إلا أنها مادامت تتصل بذلك المحور تبحث في السورة، لأن المعالجة القرآنية للمحاور هي معالجة شاملة تسع جميع جوانب القضية.

ثانياً: إن القرآن لا يعالج القضايا معالجة نظرية، بل يودع ضمن آياته الكريمة القوة التنفيذية اللازمة لعلاجها؛ فهو لا يكتفي ببيان القانون العلمي أو الحكم الشرعي للقضية مجرداً، بل يشفعه بتوجيه الإنسان وتذكرته، مستخدماً من أجل ذلك شتى الوسائل، ومن أبرزها التذكرة بالله وبالآخرة، وإثارة العقل، والترهيب، والترغيب، وحتى التصوير الفني،الذي يدعو قارئ القرآن إلى تطبيق أوامره وتعاليمه.

ونجد محور هذه السورة معالجة الخلافات البشرية.. لماذا يختلف الناس؟ وما هي حدود الاختلافات الطبيعية بين البشر؟ وما هي جذور الخلاف؟ ثم ما هو علاج الخلاف؟.

وإنما سميت هذه السورة بالشورى، لأن الشورى تُعَدّ بعد الوحي أفضل علاج للاختلاف.

والقرآن لا يبدأ السورة بالحديث عن الشورى، بل يبدؤها بالحديث عن الوحي، لأن الوحي هو محور المجتمع الإسلامي، وأساس وحدته، ذلك لأن أي مجتمع يقوم على أساسين:

الأول: وجود شريعة، أو كتاب، أو منهج متكامل، وفي أمتنا الإسلامية يجسد القرآن هذا الأساس.

الثاني: وجود القيادة الصالحة التي تحدد معاني الكتاب، وتستنبط الأحكام منه، وترسم المنهج السليم للحياة به.

وهذا ما يفسر ابتداء السورة بذكر القرآن وانتهائها إلى ذكر الرسول، وبين هذا المبتدأ وذلك المنتهى تبصّرنا آياته بلطائف القيم المباركة في الوحدة. وفيما يلي نستوحي تفصيلاً لهذا الموجز:

فاتحة السورة تذكرنا بالوحي الذي يلقيه الله العزيز الحكيم مليك السماوات والأرض العلي العظيم، وكفى بالوحي عظمة أن السماوات والأرض يكدن يتفطرن من فوقهم من عظمة ربهن أو من كلماته. أما الملائكة فهم يسبحون بحمد ربهم، ويشفقون على من في الأرض -بالذات المؤمنين منهم- فيستغفرون لهم، لأنهم يرون جانباً من عظمة ربهم، والله غفور رحيم (الآيات:١-٧).

وهذه الفاتحة تنسجم مع خاتمة السورة التي تبين صفات الوحي، حيث لا يتلقاه البشر إلا إلهاماً أو من وراء حجاب أو عبر رسول من عند الله، وأنه قد هبط إلى الرسول الروح، ومن قبل لم يكن النبي يدري ما الكتاب ولا الإيمان، أما اليوم فعنده نور يهدي به الله من يشاء إلى صراط مستقيم، وهو صراط الله الذي إليه ترجع الأمور (الآيات: ٥١-٥٣).

وبين هذه الفاتحة وتلك الخاتمة اللتين تتحدثان عن محور المجتمع الإسلامي وصبغته الأساسية، وهو الوحي، تجري آيات الذكر في تبيين أسس الوحدة في الأمة، بل وترسي هذه الأسس ببصائرها ونذرها وبشائرها. كيف؟.

ألف: تقسم (الآية: ٨) الناس فريقين؛ من هداه وأدخله في رحمته، والظالمين الذين مالهم من ولي ولا نصير. وبعد أن يحدد القرآن الصفة الرئيسة للظالمين وهي الشرك بالله -الذي يُعَدّ جذر كل فساد- يثبت مبدأ التحاكم إلى الله في الاختلاف، وبالذات إلى وحي الله ومن نزل عليه الوحي أو استوعبه، والإنابة إليه، والتوكل عليه (الآيات: ٩-١٠).

بـاء: ويذكرنا السياق -بعدئذ- بأن الله الذي فطر السماوات والأرض، خلق الناس

والأحياء أزواجاً ليكون نسل الناس بذلك. فالاختلاف حقيقة واقعة، وهو في حدود التكامل مفيد. كما أنه سبحانه بسط الرزق بين الناس بقدر ما يشاء حسب حكمته، فلا يجوز أن نسعى للتساوي المطلق بينهم (الآيات: ١١-١٢).

جيم: والدين محور الوحدة، ولكن بشرط ألا نتفرق فيه، وهذه وصية النبيين أولي العزم نوح ومحمد وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام. أما سبب الاختلاف فليس هو الدين، بل أهواؤهم التي تنزع نحو البغي، وما أعظمها من جريمة تنزل نقمة الرب لولا أنه أخرها إلى أجل مسمى، ويبقى الرسول ومن بعده خلفاؤه محوراً للوحدة، وعليه أن يستقيم على الحق بعيداً عن أهوائهم المختلفة، مؤمناً بكل الكتب، وعادلاً في الحكم بينهم، وألا يكرههم، بل يلزمهم بما ألزموا أنفسهم به (الآيات:١٣-١٥).

دال: أما الذين يجادلون في آيات الله ويرفضون أحكامه من بعد ما استجاب المؤمنون له، وأقاموا المجتمع المسلم، فإن حجتهم داحضة، وعليهم غضب من الله، ولهم عذاب شديد، وتطالهم العقوبات إذ رفضوا أحكام الله، أوليس قد رفضوا الكتاب الذي أنزله الله، والميزان الذي جعله سبيلاً للعدالة؟ وهو الإمام أو أحكام القضاء أو قيم العقل أو هي جميعاً؟

وبعد أن يحذِّرهم الله الساعة التي يشفق منها المؤمنون، ويقول: بأن الشاكين فيها في ضلال مبين، يذكر بأن الله هو الرزاق، وأن مخالفة الحق لا تجلب رزقاً، وأن من يترك الحرام من الدنيا، ولا يثير الصراع من أجل لقمة الحرام، يعُوضه الله في الآخرة كما يرزقه في الدنيا، بينما الآخر لا نصيب له في الآخرة وربما يفقد الدنيا أيضاً. وهكذا عالج السياق جذراً أساسياً للخلاف الاجتماعي (الآيات ١٦-٢٠).

هـاء: ولأن من الناس من يشرع بأهوائه، وهو يسبب الاختلاف الكبير، أنذر الله أولئك الذين اتخذوا من دون الله شركاء، يزعمون أنهم يشرعون من الدين ما لم يأذن به الله، ويسنون القوانين الوضعية، بأنه لولا كلمة الفصل لقضي بينهم، وأن لهم بالتالي عذاباً أليماً يوم القيامة، حيث ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا دون أن تجديهم الشفقة نفعاً، لأنه واقع بهم، بينما ترى المؤمنين في روضات الجنات.

واو: ويرسم القرآن الخط المستقيم في الأمة بالأمر الناجز بمودة أولي القربى التي هي الحسنة الكبرى، لأن بمودتهم يتكرس الخط القيادي السليم. ولأن القضية القيادية أهم قضية وأكثر قضية إثارة للخلاف اتهموا الرسول بالافتراء على الوحي، وأدحض الله فريتهم بأن الله لو شاء لختم على قلب الرسول، وأنه يمحو الباطل، ويحق الحق بكلماته.. وبَيّن أنه سبحانه يقبل

التوبة عن عباده لأن الانحراف عن الخط القيادي كثيراً ما يقع، فلولا قبول التوبة هلك خلق كثير. وبَيّن السياق أخيراً بأن الذين آمنوا يستجيبون لهذا الأمر، بينما الكفار الذين لا يستجيبون لهم عذاب شديد (الآيات: ٢١-٢٦).

زاء: ولأن حب الدنيا والتكاثر من متعها يُعَدُّ أحد الجذور الرئيسة للاختلاف، بعد الاختلاف الطبيعي المشروع، والتفرق في الدين، والتشريع بغير إذن الله، فقد عالجته عدة آيات بينت حكمة تحديد الرزق، فلو بسط الله الرزق بسطاً لبغى الناس في الأرض، فقدره تقديراً حكيماً يتناسب ومقدرة الناس على الاستيعاب، والرزق بيد الله، ولا يجوز الاختلاف عليه، فهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا، ومن أسباب التقتير في الرزق الذنوب. وما أصاب الناس من مصيبة فبما كسبت أيديهم، ولعل من الذنوب الاختلاف الذي يمنع الرزق، وإذا قدر الله العذاب لأمة لا يقدر أحد على دفعه عنها. ومظهر آخر لرزق الله، الرياح التي تنقل سفن التجارة. فهذه الجواري في البحر كأنهن الجبال إن يشأ الله يسكن الريح فيظللن رواكد أو يهلكهن بذنوبهم.. كل ذلك ليعلم الذين يجادلون في آيات الله، وينكرون هيمنة الله أو عذابه أنه لا مفر لهم من عذابه. وبعد كل ذلك، ما هي الدنيا؟ إن هي إلا متاع؛ إذا قيست بها عند الله للمؤمنين في الآخرة الذي هو أفضل وأدوم (الآيات:٢٧-٣٦).

حـاء: وفي هذا المنعطف يبلغ السياق المحور الأساس في السورة المتمثل فيما يبدو في الشورى التي تكشف التجارب البشرية، ويبيِّنه القرآن ضمن صفات مختلفة للمؤمنين الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ويغفرون حين الغضب، وقد استجابوا لربهم (بالتسليم للقيادة الشرعية) وأقاموا الصلاة، وأمرهم شورى بينهم، يتبادلون بها خبراتهم، ومما رزقناهم ينفقون(الآيات: ٣٧-٣٨).

طـاء: تلك كانت طائفة من صفات المؤمنين تتعلق بعلاقاتهم بينهم، وهناك طائفة أخرى منها تتصل بمواقفهم من أعدائهم، فهم الذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون، ولا يخضعون للبغاة؛ بل يحاربونهم، ولكنهم لا يعتدون على الناس، بل جزاء سيئة سيئة مثلها عندهم (الآيات: ٣٩-٤٠).

ويبين القرآن هنا فضيلة التعافي عندما لا يكون مضراً، ويدحض اتهام مرضى القلوب والسلطات لمن ينتصر للحق، بأنهم مسؤولون عن ويلات الحرب، ويقول: لا سبيل على من ينتصر بعدما يُظلم، إنما السبيل على الظالم. ثم يأمر بالصبر والغفر، ويقول بأنه من عزم الأمور أي الذي يستدعي عزيمة شديدة، ويسوق الحديث في عاقبة الظلم:

الأولى: الضلالة، ويقول: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِيٍّ﴾.

الثانية: العذاب الشديد، حيث يقول الظالمون لما رأوا العذاب: هل نستطيع أن نعود إلى الدنيا لنعمل صالحاً، هنالك تراهم خاشعين من الذل حين يعرضون على النار، وقد خسروا أنفسهم وأهليهم، وليس لهم من الذين أضلوهم أولياء ينصرونهم (الآيات: ٤١-٤٦).

يـاء: وفي خاتمة السورة يأمرنا القرآن مرة أخرى بالمبادرة بالاستجابة لله والتسليم للقيادة من قبل يوم القيامة، حيث لا مرد له من الله ولا ملجأ يومئذ ولا من ينكر (الآية: ٤٧).

و يبيّن أن مسؤولية البحث عن الإمام الحق تقع على عاتق الإنسان نفسه، وأنهم إن أعرضوا فما أرسل الله نبيه عليهم حفيظاً إن عليه إلا البلاغ.

ثم يبيّن مدى ضعف البشر وحاجته إلى هدى ربه والقيادة الربانية، ويقول: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ وخرج عن طوره، وأصابه الغرور وإن تصبهم سيئة بذنوبهم يكفرون بنعمة الله، وإن لله ملك السماوات والأرض، وهو الذي يهب أو يمنع حسب حكمته؛ فيرزق من يشاء ذكوراً ومن يشاء إناثاً، أو يهب الذكور والإناث معا، بينما يجعل البعض عقيماً، إنه عليم قدير (الآيات: ٤٨-٥٠).

ثم ينهي القرآن السورة بالحديث عن الوحي كما افتتح به، أوليس الوحي أساس وجود الأمة؟ (الآيات: ٥١-٥٣).

وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ (١) عٓسٓقٓ (٢) كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ (٣) لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ (٤) تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ [1] مِن فَوْقِهِنَّ ۚ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (٥) وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ (٦) وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ [2] وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ (٧)﴾.

هدى من الآيات:

تفتتح سورة الشورى -التي تنظم العلاقة بين المسلمين لكي لا يخوضوا في صراعات داخلية عقيمة- بذكر القرآن الذي هو مرجع كل خلاف، فهو الوحي الذي يكمل الرسالات -التي أوحى بها الله العزيز الحكيم- بعزته عزة الوحي، ومن حكمته أنه الحق المبين.

إنه المالك لما في السماوات وما في الأرض، فله الحاكمية التي تتجلى في حاكمية رسالاته و رسله، وهو العلي العظيم، ومن آيات مجده، وشواهد عظمته أن السماوات تكاد تتفطر من فوقهن. أما الملائكة فهم لا يشاركونه في الألوهية، بل يسبحون بحمده أن يكون له شريك.

---

(١) يتفطرن: يتشققن.
(٢) أم القرى: مكة.

وتراهم يستغفرون لمن في الأرض وبالذات المؤمنين منهم، دون أن يقدروا على دفع الضر عنهم، بلى؛ استغفارهم ينفع الناس، فالله هو الغفور الرحيم.

أما الذين اتخذوا من دونه أولياء ويحسبون أنهم ينقذونهم من مسؤولية أعمالهم فهم في ضلال مبين، إذ إن الله حفيظ عليهم؛ فهو يحفظ عليهم أعمالهم، وما أنت عليهم بوكيل، فهم وحدهم يتحملون مسؤولية أعمالهم وما عليك سوى إبلاغهم الرسالة وإنذارهم بها.

وهكذا أوحى الله إليك القرآن العربي لإنذار أم القرى ومن حولها -ومن ثم العرب جميعا ثم العالمين- إنذارهم جميعا بيوم الجمع حيث الخلائق كلهم قائمون عند ربهم للحساب لا ريب فيه، وهنالك ينقسم الناس فريقين: أصحاب الجنة، وأصحاب النار.

كذلك بيّن القرآن في فاتحة سورة الشورى عظمة الوحي ومقام الرسالة، وتبعا لها مقام من يبلغها ويجسدها ويحكم باسمها لتكون الرسالة محور المجتمع الذي إليه يردون خلافاتهم ومنه ينطلقون نحو تطلعاتهم.

بينات من الآيات:

[١-٢] ﴿حمٓ ۝١ عٓسٓقٓ﴾ راجع تفسير الأحرف المقطعة في السور السابقة. ومما ذكر فيها أن الحروف هذه تشير إلى ذات السورة، أو أنها إشارة إلى أسماء الله الحسنى. أو أنها تشير إلى مفاهيم معينة في السورة وعموما تشير كلمة كذلك إلى هذه الأحرف، وكأنه يقال: هكذا الوحي من خلال هذه الأحرف، وما تشير إليه من معاني عظيمة.

[٣] ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ مهما اختلفت الأمم الذين تتنزل عليهم الرسالات الإلهية أو تفاوتت سمات الذين يبلغونها فإنها تشترك في منهجها وأهدافها، كما تلتقي على نقطة مركزية واحدة وهي أنها كلها من عند الله، وليست من صناعة البشر حتى تتأثر بطبائعه أو ميزات بيئته أو متغيرات حياته.

والرسالة الإسلامية تأتي ضمن سلسلة متكاملة من الرسالات، فهي تكمل المسيرة المتصاعدة للبشرية المستجيبة لربها، وهي كأية سنة إلهية لا بد من التصديق بها حينما تتكرر ضمن إطار محدد، وهي بالتالي مفروضة على الناس، لأن الذي أوحى بها هو الله العزيز المطلق في قوته مما يجعل وحيه نافذا شاء الناس أم رفضوا ذلك، والحكيم الذي أتقن الرسالة فجعلها مرآة أهداف الحياة وسنن الخليقة.

[٤] ويحدثنا ربنا عن نفسه، في إطار تذكرته برسالته. لماذا؟ لأن معرفته تعالى هي أساس كل معرفة، وتسبق في الأولوية الإيمان بكل الحقائق. ومن هذا المنهج يستوحي الإمام علي أمير المؤمنين عليه السلام بصيرته حين يقول: «**أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصدِيقُ بِهِ، وَكَمالُ التَّصدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمالُ تَوْحِيدِهِ الإِخْلاَصُ لَهُ**»[1].

فمن دون معرفة الله، وهيمنته على كل شيء وإحاطته به، وملكه للدنيا والآخرة، لا يستطيع الإنسان أن يؤمن بالوحي الذي هو سنة إلهية خارقة للمألوف عند البشر، وليس تكاملا يبلغه الإنسان بعبقرية.

ولقد أشارت الآية السابقة إلى اسمي العزيز الحكيم لرب العالمين، لأن العزة تعني القدرة الفاعلة أو انعكاس القدرة على الخلق، وهو يستدعي بعث الرسل ليكونوا مظاهر قدرة الله وهيمنته وعزته وحاكميته، كما قال ربنا عنهم: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [النساء:٦٤]. أما الحكمة فهي انعكاس العلم على الفعل، ولأن ربنا حكيم فهو لا يترك الناس سدى، وتتجلى عزة الله في الوحي القرآني الذي يهدينا إلى أسباب القوة، كما تتجلى حكمته في مناهجه الرشيدة. ثم يشير ربنا هنا إلى حاكمية الرب في السماوات والأرض، مما تستوجب فطريا حاكميته على الناس بالوحي، فيقول: ﴿ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ومن يشك في رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله فهو لم يعرف ربه حقا، إذ إنه لو عرف عزته وحكمته ومالكيته التي يهيمن بها على الحياة لما شك في وحيه ورسالته، ذلك أن خالق الكون هو نفسه الذي خلق المنهج الذي يهدينا إلى تسخيره في صالحنا.

ولأن السبب في كفر الإنسان بالبعث وبكثير من الحقائق الأخرى التي يهتف بها الوحي، هو عدم إيمانه بقدرة الله حيث يشك في عودة رميم العظام بشرا سويا، يؤكد القرآن صفات الله الحسنى فور حديثه عن الوحي أو البعث أو.. أو..، ذلك أننا إذا آمنا بقدرة الله وحكمته وعلمه فسوف نؤمن بكل ما يصدر عنه وما يأمر به إيمانا واعيا، ونعمل به بلا تكلف، لأننا آنئذ نعرف عظمته. أوليس قد أوحى به العظيم، وأن فيه صلاحنا؟ أوليس قد أنزله ربنا الحكيم ونزداد يقينا بصدق أنبائه، مما يبعث فينا العزيمة والأمل، وتستعد للدفاع عنه بأموالنا وأنفسنا، لأنه هبط من عند ربنا القدوس.

وهكذا ينبغي أن نسلك إلى معرفة الوحي طريق معرفة الخالق حتى نجعله في مقامه الأسمى، ولا نقيسه بسائر الكلام أبدا، ولا نرضى بأن يتخذ البعض مصدر تشريعاتهم من

(١) نهج البلاغة: خطبة ١.

غيره، أو يتحاكموا إلى قانون بشري ناقص، كلا.. إن ربنا مليك السماوات والأرض، ووحيه تجل لحاكميته التامة علينا، وأي تنكب عن ذلك شقاق وضلال.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ ما معنى العلو؟ وما معنى العظمة؟ العلي المرتفع في المكان، فهل الله موجود في أعلى قمة في الكون؟ كلا.. تعالى ربنا عن الحلول في مكان، وهو شاهد حاضر ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، والعظيم في اللغة مشتقة من العظم، وصاحب العظم الغليظ يسمى عظيما، فهل لله عظم سبحانه وتعالى؟!.

عند تفسير هذه الألفاظ القرآنية، وهكذا سائر أسماء الله يجب أن نأخذ الغايات ونترك المبادئ، ذلك أن لكل لفظة مبدأ يكسبها مدلولا حسيا ماديا، وغاية تعطيها مدلولا معنويا وقدسيا بالنسبة إلى الله، فإذا كانت كلمة العلي تدل على علو المكان حسيا، فهو يشير إلى السيطرة والتمكن، وربنا عليٌّ بهذا المعنى، كما أنه عظيم بمعنى القوة والشدة والهيبة. وإنما نستخدم هذه الألفاظ عند الحديث عن الله لسببين:

الأول: عدم وجود ألفاظ بديلة تدلنا على تلك الغايات، وحيث يريد القرآن تقريب تلك المعاني المطلقة لأذهاننا المحدودة التي عجزت حتى عن الإحاطة بالخلق استخدم هذه الألفاظ.

الثاني: لكي لا ننبهر بمخلوق حاز شيئا من القوة أو الهيبة أو.. أو.. فنعبده من دون الله، فإذا بنا نخضع لفلان لأنه صاحب ثروة أو قوة أو جمال أو هيبة، بل نتذكر صاحب الملك والعظمة الحقيقي، وهو الله عز وجل الذي خلقه من بعد العدم فنسلم له أكثر فأكثر، وبتعبير آخر لا بد أن ننطلق في تقييمنا للحياة من الإيمان بالله، لأن كل ما فيها مخلوق له سبحانه، وإذا اشتمل على شيء من الحسن فهو قبس صغير من أسمائه الحسنى.

[٥] ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ ربما يتصور البشر أن أقوى وأكبر شيء في الكون هو السماوات بعلوها وقصور علمه عنها، حتى إن علماء الفلك كلما أجهدوا أنفسهم في اختراع أنواع المناظر ذات القوة الهائلة اكتشفوا المزيد من الكواكب والمجرات حتى انتهى بعضهم إلى النظرية القائلة بتوسع الكون المستمر..والقرآن هنا يهدينا إلى هذه السماء التي هي أعظم شيء في نظرنا تكاد تتفطر من خشية الله. ومع أن السماوات جمع مؤنث لغير العاقل، والذي يناسبها هو كلمة (تتفطر)، نجد الآية هنا تعبر عنها كما لو كانت من ذوي العقول: ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ ذلك للدلالة على أنها في مقام العبودية لله والخضوع له شأنها شأن سائر العقلاء، فهي تخشاه. وكيف لا تتفطر السماوات إذا تجلى الرب لها أو اخترقها وحي الله، وهي مشفقة من

الساعة، منتظرة لأمر الله لطويها كطي السجل للكتب، ولا تزال زجرات ملائكة الله تلاحق الأجرام السابحة فيها ألا تحيد عن أمر ربها قيد شعرة.

أعرفتم ماذا يعني وحي الله، وما هي عظمة رسالات الله، وأي مقام كريم ينبغي أن نجعلها فيه؟.

سبحانك اللهم افتق عقولنا بنورك حتى نعرف قدر وحيك، ولا نخسر الدنيا والآخرة بالإعراض عنه أو الاستهانة بأحكامه.. وقال المفسرون: إن تفطرُ السماوات بسبب هبوط الوحي عبرها، كما قال ربنا: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]. وقال بعضهم: بل بسبب صعود أنباء شرك الناس من خلالها، كما قال ربنا: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٠-٩١]. ويبدو لي أن الأهم من كل ذلك عظمة الله وخشية عقابه، فهي التي تكاد السماوات يتفطرن منها، وتسبح بحمده وتعبده، وإن كنا لا نرى ذلك أو نسمعه.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وهم القوى العاقلة التي تشرف على جميع الأجرام السماوية والأنظمة والسنن الكونية تراهم يخشعون أمام جبروت الله وعزته، ويقدسونه وينزهونه عما لا يليق به، ويتم التسبيح بما أعطاهم الله من نعمة الهداية ومن التوفيق للتسبيح، ولعل هذا أحد معاني «بحمده» فإن معرفة الله لا تكون إلا بذاته، وكمال معرفته تنزيهه عن الشريك والشبيه، وهو معنى التسبيح الذي لا يبلغه العبد إلا بحمد الله، أي بما يوجب الحمد من نعم الرب، وتوفيقه، ويعطي هذا التركيب ﴿بِحَمْدِ﴾ معنى المقارنة أيضا، لأن ربنا تعالى هو كما جاء في الدعاء: «يَا مَنْ هُوَ فِي شَرَفِهِ عَزِيزٌ، يَا مَنْ هُوَ فِي عِزِّه عَظِيمٌ، يَا مَنْ هُوَ فِي عَظَمَتِهِ مَجِيدٌ، يَا مَنْ هُوَ فِي مَجْدِهِ حَمِيدٌ»[1].

فهو في عين علو مقامه وقدسه ومجده وغناه حميد له الحمد كله والمحامد جميعا، لأنه تعالى شأنه لم يترك الخلق وشأنهم بل تعهدهم بفواضل نعمائه وسوابغ آلائه، فكان له الحمد كما كان له المجد. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ هذه علاقتهم بالله، أما علاقتهم بمن في الأرض فهي الاستغفار لهم عند الرب حيث ترى الملائكة أن سكان الأرض لا يقدرون الله حق قدره بما يعصون ويذنبون. ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إيمانا منهم بسعة رحمة الله. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ولو لم يكن كذلك لما ترك على وجه الأرض من دابة بما عصوا الله، ولعل الآية تبيّن حقيقة مهمة هي أن الله هو الذي يغفر ويرحم من يشاء ومتى أراد، وخطأ الاعتقاد بألوهية الملائكة أو أنها أنصاف آلهة، بينما لا يعدو دورها الاستغفار للمؤمنين عند ربهم الذي

(١) البلد الأمين: ص٤٠٥، من دعاء الجوشن الكبير.

يقرر قبول توبة أولئك و شفاعة هؤلاء أو لا يقبل حسب مشيئته التي لا يسأل عنها وهم يسألون.

[٦] وعجيب أمر البشر. إنهم لا يستفيدون من واسع رحمة الله، بل يتخذون الشركاء من دونه، ويزدادون بعدا عنه كلما توالت نعمه عليهم ! وربنا يتوعد هؤلاء بأنه يكتب كل ما تعمله أيديهم و جوارحهم ليعاقبهم عليه عاجلا أو آجلا. ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ ﴾ يعتقدون أنهم هم الذين يرزقونهم، ويمنعون عنهم الأخطار، ويخطئون لأن الله هو الذي يرعاهم ويحفظهم. ﴿اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ يحفظهم برحمته الواسعة التي تشمل العاصي والمطيع، ويحفظ عليهم كل ما يصدر منهم، وهم وحدهم يتحملون مسؤولية أعمالهم ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ فما على الرسول إلا البلاغ.

[٧] إنما تتلخص مسؤولية الرسول وكل مصلح في تبليغ رسالته للناس بإيصال صوت الوحي إلى أكبر عدد ممكن منهم. ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ وهذا من رحمة الله ورأفته أن يبعث للناس نذيرا بالوحي من أجل هدايتهم للحق. ونقف قليلا عند ﴿عَرَبِيًّا ﴾ لنتساءل: لماذا يؤكد القرآن في كثير من المواضع على عربيته؟

والجواب: إنما يؤكد الله على عربية القرآن

أولاً: ليقيم الحجة على الذين كفروا به حينما جاءهم الرسول يتلوه عليهم، وذلك ببيان أن كفرهم لم يكن لغموض في الوحي فهو بلغتهم. وتعبير ﴿عَرَبِيًّا ﴾ لا يدل على لغة القرآن وحسب بل على وضوحه أيضا، كما تدل كلمة أعجمي في البلاغة على الغموض.

ثانياً: لأن اللغة الوحيدة التي يمكنها أن تتسع لمعاني القرآن أكثر من غيرها هي اللغة العربية، بعمقها ومرونتها، ومن هنا يجب أن نعلم بأن السبيل الأفضل لإيصال معاني القرآن لغير العرب ليس ترجمة القرآن، لأنها تضيق بمعانيها، وإنما تعليمهم اللغة العربية أو ترجمة تفسيره على الأقل.

﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ وإنما يختار الله عواصم البلدان محلا لتبليغ الرسالة، لأنها من الناحية الإعلامية أكثر وأشمل تأثيرا، حيث تُعَدُّ المركز لسائر الناس، فأي حدث أو حديث يقع فيها يكون خبره أكثر شياعا مما لو وقع في غيرها، ثم إنها تحتل مركزا سياسيا واجتماعيا مهما بين القرى الأخرى، ففتح العاصمة يؤدي في الأغلب إلى فتح سائر القرى والمواقع الأخرى، بالذات إذا كانت كمكة في عهد الرسول ﷺ مركزا لتجمع القوى الدينية والسياسية والعسكرية والاقتصادية، التي تسيطر عليها آنذاك قريش، وتتحكم من خلالها في

شبه الجزيرة.

وتدل الآية على أن الرسالة الإلهية كانت ذات أمواج متلاحقة، فقد افتتحت بأمر الرسول بالقراءة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١]؛

ثم أمرته بإنذار الأقربين: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]؛

وتوسعت إلى قومه ﷺ بقوله سبحانه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ﴾ [الزخرف:٤٤]؛

وتواصلت حتى شملت العالمين فقال ربنا سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[الفرقان:١].

ومع أن الرسالة كانت منذ البدء عالمية إلا أنها كانت واقعية أيضا تسعى نحو العالم عبر موجات متلاحقة بين الناس، الأقرب فالأقرب، وأحق الناس بها وبحمل مسؤولياتها الرسول وأهل بيته الذين نزلت في بيوتهم ﴿وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ﴾ وفي الأثناء لا بد للرسالي بأن يستوعب الحياة بواقعياتها، فلا ينتظر من الناس أن يؤمنوا جميعهم برسالته، فإذا ما كفروا بخع نفسه، وشكك في جهوده ورسالته، فذلك من طبيعة البشر، إنهم بالتالي ينقسمون إلى مؤمنين وكافرين ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ وهم الذين يؤمنون بالرسالة، ويعملون بمضامينها. ﴿وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ وهم الكافرون والعاصون.

وفي هذه الجملة ﴿فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ إشارة إلى الخلاف البشري الذي يقسمهم إلى خطين: خط الحق، وخط الباطل.. وسوف تبين الآيات القادمة هذه النقطة، وتميزها عن الاختلاف في الرؤى ووجهات النظر بين أهل الحق أنفسهم، الذي يجب ألا يبلغ حد الصراع بينهم.

أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ[1] فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

هدى من الآيات:

ما هي علة اختلاف الناس؟ وكيف ينبغي أن نعالجه؟ ومن هو الولي حقا يرد إليه ما اختلف الناس فيه؟.

هذه محاور الدرس من هذه السورة التي تعالج الخلافات الاجتماعية.

---

(١) يذرؤكم: ذرأ بمعنى أوجد أي يخلقكم أنتم والأنعام ﴿فِيهِ﴾ أي في هذا الجعل، فإن امتداد نسل الإنسان والحيوان إنما هو بجعل الأزواج، ولذا ينقطع من لا زوج له.

كان من الممكن أن يخلق الله البشر بصورة واحدة لا اختلاف بينهم، وأن يجعلهم كلهم من أصحاب الجنة، ولكنه تعالى ترك الإنسان يختار مصيره بإرادته بعد أن أوضح له سبيل الغي، وهداه إلى سبيل الرشاد.

وهكذا يؤكد القرآن مبدأ الحرية التكوينية التي جعلها الله للبشر، والتي صبغت حياتهم بصبغة الصراع الأبدي بين الحق والباطل. فبينما يتبع فريق منهم ولاية الله، يتبع الفريق الآخر الظالم لنفسه ولاية الشركاء المزعومين، فالسبب الرئيسي لضلالة البشر وما يثير بينهم الخلاف من الحروب التي تنتهي إلى الدمار والتخلف هو تركهم ولاية الله، وتشبثهم بالأولياء من دونه.

أما الخلافات الخارجة عن إطار صراع الحق والباطل - كالخلاف بين أهل الحق أنفسهم - فهي غير مشروعة، إذ لا بد من حلها بالعودة إلى قيم الرسالة ومن يمثل ولاية الله في الأرض، ومن الناس من يدعي الإيمان ولكنه يتولى غير الله، وإنما آية إيمان المرء أن يرد ما تنازع فيه إلى الله والى رسالته ورسله، ثم يتحدى الضغوط، ويتوكل على الله، ويتضرع إليه و يتعوذ بحوله وقوته من شياطين الإنس والجن الذين ينزغونه في الاتجاه الخاطئ.

وولاية الله في المجتمع تجل لولايته في الكائنات فهو الذي فطر السماوات والأرض، وخلق البشر أزواجا وكذلك الأنعام بهدف تكثير الخلق وانتشارهم، وهو المحيط بهم علما وبيده مفاتيح الرزق، فيبسط لمن يشاء، ويقدر على من يشاء بحكمته البالغة، لأنه بكل شيء عليم.

بينات من الآيات:

[٨] الاختلاف بين أهل الحق و أهل الباطل جزء من سنة الله في الحياة، ليس لأنه تعالى يريد أن يكون بعضهم من أصحاب النار والبعض الآخر من أصحاب الجنة، بل لأنه أعطاهم حرية الاختيار، ومقتضى هذه الحرية أن يتبع البشر أحد الخيارين. ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ وهذا لا يتفق مع طبيعة الحياة وسننها، وهدف الخلق. ﴿وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ وهم المؤمنون الذين يأخذون بأسباب الهداية فيوفقهم الله لبلوغها، والآية تحذرنا من الاغترار بإيماننا، وذلك بالتأكيد على كونه من عند الله وبتوفيقه.

كما تبيّن لنا الآية بأن الآخر الذي يختار طريق النار، إنما يدخلها بإرادته، وبإيكال الله له إلى نفسه حيث يمنع عنه توفيقه، فلا يحفظه من نوازغ الشيطان، ولا من ضغوط الحياة، كما هو

شأنه مع المؤمنين فإذا به ينقلب على عقبيه.

وهذا الإنسان قبل اختياره لطريق السعير كأي بشر فيه الخير والشر، ولكنه بهذا الاختيار الخاسر يسلب منه عون الله وتوفيقه فيتمحض في الشر، ولهذا ترى أولياء الله المخلصين يلحّون على الله بأن لا يكلهم إلى أنفسهم، ولا يقطع عنهم توفيقاته. يقول ابن أبي يعفور: «سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِالله عليه السلام يَقُولُ وَهُوَ رَافِعٌ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ: رَبِّ لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبَداً»[1].

﴿وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيٍّ﴾ يشفع لهم، ويخلصهم من العذاب.. ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يعينهم، ولعل في هذا المقطع من الآية إشارة إلى حقيقة مهمة: أن الظالم لا يضر بنفسه فقط عندما يتخذ من دون الله أولياء، ويتبع الجبابرة، بل ويظلم الآخرين أيضا، ذلك لأنه باتباعه الظالم -بل محض السكوت عنه- يساهم في سيطرته على الآخرين. ولعل الآية تهدي أيضا - عندما استخدمت كلمة الظالمين- أن لا عدالة في غير ولاية الله، وأن لا نجاة من الظلم إلا بالعودة إليها، فما للظالمين من ولي ولا نصير.. فمن رضي بحكومة الظالمين اكتوى بنارهم، ولا يستجاب دعاؤه في الخلاص منها. وبالرغم من أن لفظة الظالم قد يتسع مدلولها ليشمل كل منحرف إلا إن انتخابها متناسب والسياق الذي يحدثنا عن الولاية، وبتعبير معاصر أي القيادة وما تتبعه من فض الصراعات إما بعدالة أو بظلم.

[٩] بلى، إن الكافرين والمشركين اتخذوا أولياء من دون الله، ولم يدركوا بأنه وحده الولي الحقيقي للإنسان، وصاحب القدرة المطلقة. ﴿أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ﴾ لأن إليه مصيرنا، وهو القاهر علينا. ﴿وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أما الأولياء والأنصار المزعومون فإنهم لا يقدرون على شيء إلا بقدر ما يريده الله لهم، فهم محدودون، والأولى بالعاقل أن ينتمي إلى صاحب القدرة المطلقة فعنده تتحقق طموحاته، ويصل إلى أهدافه.

[١٠] ويبيّن ربنا معنى الانتماء الحقيقي لولاية الله، بأنه ليس مجرد الادعاء، والتمني في القلب، وحتى طاعة الله في الأمور الاعتيادية التي لا تكلف الإنسان جهدا ولا مصلحة ولا تنازلا، إنما التسليم لهذه الولاية في كل شأن، وبالذات عند الصراع، حيث يتشبث الواحد بفكرته وموقفه، وتثار فيه ذاتياته وعصبياته. ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ﴾ أنى كان هذا الشيء، وفي أي جانب من جوانب الحياة.. ﴿فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ يستوحى من كتاب الله، ومن أودع قلبه علمه من أئمة الهدى عليهم السلام وأتباعهم الفقهاء، العلماء بالله الأمناء على حلاله وحرامه.

ثم يقول القرآن عن لسان الرسول وكل مؤمن يسلم لآياته: ﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ

(١) الكافي: ج٢، ص٥٨١.

تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ وهذا تأكيد لانتمائه إلى ولاية الله في مقابل اتخاذ أولئك الأولياء من دونه، إذن فهو على عكسهم يستجيب لحكم الله، ونتساءل: لماذا يؤكد القرآن ضرورة التوكل على الرب هنا؟.

والجواب: لأن الكثير من الناس يزعمون بأنهم حينما يتنازلون للآخرين عند الاختلاف استجابة لحكم الله وأوليائه، فإنهم يعرضون أنفسهم للمخاطر، لأن الطرف الآخر عندها سوف يتصرف من موقع صاحب الحق، ويستغل انتهاء الخلاف في صالحه والإضرار بهم. إن هذا الشعور من وساوس الشيطان الذي يريد من خلالها تضخيم الاختلافات الاجتماعية، وتفتيت الأمة الواحدة، وكم من مظلوم أصبح أكثر جورا من ظالمه بسبب هذا الشعور الذي يثير في الإنسان ذاتياته السلبية!.

ولكي يقاوم الإنسان هذا الضغط يحتاج إلى قوة نفسية كبيرة حتى لا يخشى من المستقبل بتطبيق الحق، وهذه القوة يستمدها المؤمن من التوكل على الله والعودة إليه. ومن جهة أخرى إن التسليم لولاية الله يقتضي مواجهة الحكومات الظالمة، وهي بدورها بحاجة إلى استقامة عبر التوكل على الله.

[١١] ويعالج القرآن الاختلاف من زاوية أخرى حينما يذكرنا بأنه من طبيعة الحياة، التي تأبى اللون الواحد، الأمر الذي يجعل الإنسان غير قادر على صبغها كلها لمزاجه وطبيعته الخاصة، ولكنه عبثا يسعى لبلوغ هذه الغاية فترى البعض يريد التحدث لكل الناس بلغته القومية، أو أن يقلدوا عاداته، فإذا لم يستجيبوا له أبغضهم. فالرومان صاروا يسمون غيرهم بالبرابرة أي المتوحشين، واليهود عَدّوا أنفسهم الشعب القارئ بينما عَدُّوا الآخرين أميين لا يفقهون شيئا، أما مدَّعو الحضارة الحديثة فإنهم يعتقدون بوحشية الشعوب غير الآرية. هذا من طبيعة الإنسان فهو يريد العالم كله لونا واحدا هو لون شخصيته وتطلعاته، والقرآن يؤكد هنا الاختلاف الطبيعي في الحياة، ويذكر الإنسان بعجزه عن رفع أقرب الاختلافات إليه، وهو اختلافه مع زوجه. ولكن القرآن الكريم يقرر مبدأ الاختلاف بين حقائق الخلق، وعلينا الاعتراف به، والتعرف إلى حكمة الله فيه، والسعي وراء تلك الحكمة، وحكمة الاختلاف التكامل، وليس الصراع، فلقد جعل الله البشر شعوبا وقبائل بهدف التعارف وليس التدابر والتباغض، وخلق الزوجين الذكر والأنثى ليتكاملا، ولعل هذا أبرز أمثلة الاختلافات الفطرية.

﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًاۖ﴾ وهذا في صالح الإنسان، وبيان القرآن لانشطار الأنثى من نفس الذكر، جاء لضرب الأفكار

الجاهلية التي تزعم بأن الأنثى ذات روح حيوانية، فبهذا الاختلاف يكون التنامي والتناسل، ولكن لو تحول هذا الاختلاف إلى خلاف بين الطرفين، وانتهى بالتالي إلى الطلاق والعداء. أفلا تنقرض البشرية من على وجه الأرض؟! بلى، وهكذا لو اختلفت القبائل والشعوب، وسعت لفرض عاداتها وطبائعها على الآخرين، لأن الله خلق كل مجموعة بشرية لتحقق هدفا خاصا في الحياة، أما لو تصارع الجميع لفرض شخصيتهم على بعضهم فسوف ينتفي التعارف والتعاون والتكامل مما يجعل الحياة جحيما لا تطاق. ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ﴾ أي يجعل تكاثركم وانتشاركم بسبب هذا الاختلاف، ولعل من الحكم الأخرى للاختلاف إشعار الإنسان بعجزه الذي تدل عليه حاجته للآخرين، التي هي بدورها تدل على حاجته إلى الله، لأنه الصمد الذي لا كفو له ولا شريك ولا شبيه.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ونتساءل: لماذا أضيف كاف التشبيه على «مثل»، في الوقت الذي كان يكفي أن يقال: ليس مثله شيء؟ هل الكاف هنا زائدة كما قال بعض المفسرين؟ أم أن في المعنى لطفا بديعا!. نحن نميل ألا ننسب الزيادة إلى كلام ربنا، وبعبارة أن ما درج عليه النحاة من اعتبار الزيادة قد يصح نحويا لا دلاليا. اللهم إلا التي تكون للتأكيد، ولا معنى ظاهر للتأكيد هنا، فنعود ونتساءل: إذا ما معنى الكاف؟. التفت بعض المفسرين إلى معنى المثل الذي يختلف ظلاله عن كلمة (ند) أو شبه و مساوي وشكل، حيث إن ظلال كلمة المثل توحي بجانب القيم و الصفات والأسماء، بينما ظلال الند توحي بالتشابه في الجوهر، وظلال (الشبه) توحي بالتماثل في الكيفية، أما كلمة (المساوي) فتوحي بالتشابه في الكمية، وإيحاء (الشكل) هو التماثل في المساحة[1]. فإذا قلنا: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ﴾ أي لا يشابه صفاته وأسماءه أحد، فالكاف بمعنى التشبيه، والمثل بمعنى مجمل الصفات والأسماء، والله العالم.

﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ فلا يزعم أحد أنه مادام ربنا لا شبيه له ولا كفو فهو بعيد عنا لا يسمع ولا يرى، كلا.. إن تعاليه لا يتنافى وقربه إلى درجة أنه يسمع ما نقول، ويبصر ما نفعل، فهو رفيع الدرجات وهو أقرب إلينا من حبل الوريد.

[١٢] وهو الذي يرزق من يشاء ما يشاء، فيعطي لشعب الطاقات والمعادن، ولآخر العلم و الإرادة، فإذا بالناس يختلف بعضهم عن بعض لتتعاون البشرية مع بعضها، كما أن ربنا يفتح للبشرية أبوابا متعددة من الرزق، وإذا ما نفذ شيء منه تلطف عليهم بآخر يحل محله، فإذا بالآفاق الواسعة تتفتح بقدرة الله أمام البشرية لتجدد الطاقات البديلة عن النفط الذي بات مهددا بالنضب. وما يدرينا لعلهم يهتدون إلى تحويل الماء إلى طاقة محركة كما اهتدوا من قبل إلى

(١) راجع: مفردات غريب القرآن: ص٤٦٢.

تفكيكه بقدرته تعالى!.

﴿ لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ فلماذا يحسد الناس بعضهم، ويسعى كل واحد للتفرد بالنعم، وربنا العليم ينزل من القدرات على من يشاء من البشر بقدر، حسب حكمته البالغة؟. ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ وبالتالي فهو يبسط الرزق للناس، ويعلم ما يحتاجون مما يقوم حياتهم. ويختلف الرزق عن الكسب بأن:

الأول: هو ما يتفضل به الله على الإنسان، بينما؛

الثاني: هو ما يسعى إليه بنفسه، وهو تعالى يهب لكل واحد نوعا من الرزق، وعلى الإنسان أن يسعى (ويكسب) ليجلب رزقه، فالأرض والأنهار والنشاط والعقل كلها رزق من الله، أما الكسب فهو تسخير هذا الرزق ليتحول إلى حقول مزروعة.

وما يتفاضل به الناس ليس الرزق بل الكسب، لأن الله رزقهم بصورة عادلة فهو إذا سلب من أحد رزقا أعطاه رزقا آخر يتفضل به على غيره، فشبه الجزيرة العربية التي جعلها الرب حارة رطبة أودع فيها (٨٠٪) من احتياطي النفط في العالم، بينما جعل استراليا الفاقدة للنفط بلادا زراعية فإذا بها تغطي قدرا كبيرا من احتياجات العالم، وهكذا قسم الموارد الزراعية والطبيعية بين البشر، وعليهم أن يسعوا لتسخيرها لمصلحتهم!.

[١٣] ولكن الناس حولوا اختلافاتهم إلى خلاف وصراع لا يكتسب شيئا من الشرعية، لأن رسالات الله كلها واحدة، وجاءت لتحل مشاكل الناس، ومن أهمها مشكلة الخلاف، وربنا إنما بعث الأنبياء لتوحيد البشرية على أساس المبادئ؛ ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ﴾.

في الأحاديث المأثورة بعض التفصيل في شريعة الله التي نزلت على الرسل، وفي الدين الذي أمرنا بإقامته، ونختار منها حديثا مأثورا عن السيد عبد العظيم الحسني أنه قال: «قَالَ دَخَلْتُ عَلَى سَيِّدِي عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ عليه السلام فَلَمَّا بَصُرَ بِي قَالَ عليه السلام لِي: مَرْحَباً بِكَ يَا أَبَا القَاسِمِ أَنْتَ وَلِيُّنَا [حَقّاً]. قَالَ قُلْتُ يَا ابْنَ رَسُولِ الله: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْرِضَ عَلَيْكَ دِينِي فَإِنْ كَانَ مَرْضِيّاً ثَبَتُّ عَلَيْهِ حَتَّى أَلْقَى اللهَ عَزَّ وَجَلَّ. فَقَالَ عليه السلام: هَاتِ يَا أَبَا القَاسِمِ. فَقُلْتُ: إِنِّي أَقُولُ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَاحِدٌ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ خَارِجٌ مِنَ الحَدَّيْنِ:

- حَدِّ الإِبْطَالِ؛

- وَحَدِّ التَّشْبِيهِ؛

وَإِنَّهُ لَيْسَ بِجِسْمٍ وَلَا صُورَةٍ وَلَا عَرَضٍ وَلَا جَوْهَرٍ بَلْ هُوَ مُجَسِّمُ الأَجْسَامِ وَمُصَوِّرُ الصُّوَرِ، وَخَالِقُ الأَعْرَاضِ، وَالجَوَاهِرِ وَ: ﴿رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ وَمَالِكُهُ وَجَاعِلُهُ وَمُحْدِثُهُ وَإِنَّ مُحَمَّداً ﷺ عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ.

وَأَقُولُ إِنَّ الإِمَامَ وَالخَلِيفَةَ وَوَلِيَّ الأَمْرِ بَعْدَهُ: أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ثُمَّ الحَسَنُ ثُمَّ الحُسَيْنُ ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ الحُسَيْنِ ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ ثُمَّ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ ثُمَّ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ ثُمَّ عَلِيُّ بْنُ مُوسَى ثُمَّ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ ثُمَّ أَنْتَ يَا مَوْلَايَ فَقَالَ عليه السلام: وَمِنْ بَعْدِي الحَسَنُ ابْنِي فَكَيْفَ لِلنَّاسِ بِالخَلَفِ مِنْ بَعْدِهِ. قَالَ فَقُلْتُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا مَوْلَايَ؟.

قَالَ عليه السلام: **لِأَنَّهُ لَا يُرَى شَخْصُهُ وَلَا يَحِلُّ ذِكْرُهُ بِاسْمِهِ حَتَّى يَخْرُجَ فَيَمْلَأَ الأَرْضَ قِسْطاً وَعَدْلًا كَمَا مُلِئَتْ ظُلْماً وَجَوْراً**. قَالَ فَقُلْتُ: أَقْرَرْتُ وَأَقُولُ إِنَّ وَلِيَّهُمْ وَلِيُّ اللهِ وَعَدُوَّهُمْ عَدُوُّ اللهِ وَطَاعَتَهُمْ طَاعَةُ اللهِ وَمَعْصِيَتَهُمْ مَعْصِيَةُ اللهِ، وَأَقُولُ إِنَّ المِعْرَاجَ حَقٌّ، وَالمُسَاءَلَةَ فِي القَبْرِ حَقٌّ، وَإِنَّ الجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ، وَالصِّرَاطَ حَقٌّ، وَالمِيزَانَ حَقٌّ: ﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ﴾. وَأَقُولُ إِنَّ الفَرَائِضَ الوَاجِبَةَ بَعْدَ الوَلَايَةِ الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ وَالصَّوْمُ وَالحَجُّ وَالجِهَادُ وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ. فَقَالَ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ عليه السلام **يَا أَبَا القَاسِمِ هَذَا وَاللهِ دِينُ اللهِ الَّذِي ارْتَضَاهُ لِعِبَادِهِ فَاثْبُتْ عَلَيْهِ ثَبَّتَكَ اللهُ بِالقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ فِي الآخِرَةِ**»[1].

﴿أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ﴾ لأن إقامته بتطبيق أحكامه تماما كفيلة بتنظيم حياة الناس وإسعادهم، ثم نهى ربنا عن التفرق في الدين بسبب الأهواء والشهوات فقال: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ لأننا لو أقمنا الدين حقا فلن يكون هناك مجال للتفرق، فالدين كله واحد وإن اختلفت الرسالات في صياغتها، وهذه من أعظم وصايا الأنبياء للأمم وللبشرية جمعاء. جاء في الحديث عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عن النبي ﷺ أنه قال: «**قَالَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ مَا آمَنَ بِي مَنْ فَسَّرَ بِرَأْيِهِ كَلَامِي وَمَا عَرَفَنِي مَنْ شَبَّهَنِي بِخَلْقِي وَمَا عَلَى دِينِي مَنِ اسْتَعْمَلَ القِيَاسَ فِي دِينِي**»[2].

﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ ولو تدبرنا عميقا في هذا المقطع لاكتشفنا مدى علاقته بالمقطع السابق من الآية، فهو يبيّن لنا بأن اختلاف الديانات السماوية ناشئ من تسرب ثقافات الشرك المحيطة بها إليها، فجوهر الدين واحد ولكن الرواسب والأفكار الغريبة التي دخلت إليه هي التي أسست الخلاف بين رسالة وأخرى، وهذه القاعدة تنطبق حتى على الرسالة الواحدة، فالقرآن مثلا واحد وكله حق، ولكن لماذا صار كل فريق من المسلمين يدعي

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١٢، ص٢٨٣.

(٢) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص٤٥.

أنه وحده يمثل القرآن؟. لأن بعضهم أضاف إليه إضافات من أفكاره ومن الثقافات الغريبة عليه فلم يُقِم الدين، ولأن هذه الأفكار والشهوات تختلف من فريق لفريق بل من شخص لآخر دب الخلاف بينهم، بل بدا القرآن نفسه مختلفا للناس. ثم إن التحدي الكبير الذي يعيشه المؤمنون دائما على مر العصور في مواجهتهم لقوى الشرك يدعوهم للوحدة بينهم، لكي لا يجد الأعداء ثغرة للتسلل إلى صفوفهم، والإفساد بينهم من الداخل.

وفي ظروف التحدي تحتاج الأمة إلى المزيد من الاستقامة على طريق الدين وإقامة الدين كله دون أن يختلفوا فيه، والسبب هو أن الشيطان قد يوسوس إليهم بأن يتنازلوا عن بعض بنود الدين لكسب المزيد من الأنصار، بناء على سلم الأولويات أو التدرج في تطبيق الشريعة، وقد يؤدي ذلك إلى الانحراف في الدين، مثلما حصل عند النصارى في التاريخ حيث كانت الديانة المسيحية نقية طاهرة فلما رأى الأحبار قلة المنتمين إليها صمموا على الاقتباس من أفكار الفلسفة القديمة الرائجة يوم ذاك ليؤمن الناس، ومن بين ما أدخلوه عليها بعض الأفكار المقتبسة من الفلسفة المعروفة بـ (النيوافلوطينية)، فصارت الديانة التي عليها كثير من النصارى اليوم مشوبة بها.

واليوم نجد الناس يضيفون الثقافة القومية أو الوطنية أو الاشتراكية أو الرأسمالية إلى الفكر الإسلامي، وما هي سوى ألوان من الشرك إذا عرفنا جوهرها المتمثل في التسليم لغير الله.

إذا يجب علينا أن ندعوا إلى الدين الخالص بلا أية إضافة، فإن استجاب الناس وإلا فواجبنا بذل المزيد من الجهد، وبدل أن ننزل ديننا إلى مستوى الناس يجب أن نرفعهم إلى مستواه، وليس علينا بعد الدعوة والتبليغ مسؤولية الهداية، لأن الهداية من عند الله.

﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ﴾ من رسله، كالذين سبق ذكرهم من أولي العزم الذين فضلهم الله على سائر أنبيائه، وهم نوح شيخ المرسلين الذي قدمه السياق لأنه أول نبي عقد عزمات قلبه على إبلاغ رسالة التوحيد، بتلك الصعوبات المعروفة وعبر (٩٥٠) عاما، وذكر بعده نبينا محمد ﷺ لأنه الأعظم من بين أولي العزم، ثم جاء ذكر الأنبياء الثلاثة بالترتيب الزمني إبراهيم ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام.

﴿وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ من سائر عباده. ولكي نصل إلى هذا المستوى لابد أن نتد غرور أنفسنا، ونقاوم كبرياءها، ونزكيها تزكية نستطيع من خلالها أن نخرج عن شحها، وحينئذ سوف يجتبينا الله.

واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم

﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ (١٤) فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ (١٥) وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ٱسۡتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمۡ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ وَلَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٌ (١٦) ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ (١٧) يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ[1] فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ (١٨)﴾.

هدى من الآيات:

انطلاقا من محور الوحدة يبيّن لنا هذا الدرس سبب الخلاف بين البشر، وهو ظلم الإنسان للآخرين مما يسميه القرآن بالبغي، حيث يبدأ بسلب حقوقهم الأمر الذي يجر إلى تنامي الصراعات، وبالرغم من أن كل ظالم يغلف بغيه بمختلف التبريرات، بل يصنع لنفسه ثقافة ودينا يزعم أنه يدافع عنها ويذب عن قدسيتها، إلا أنه كذاب، لأن الاختلاف لا يكون

(١) يمارون: يجادلون، من المراء أي الجدال.

من أجل القيم، فالقيم لا اختلاف فيها، وإنما الاختلاف نتيجة للبغي والسعي وراء حطام الدنيا.

وعندما يجد الإنسان الخلافات الاجتماعية، يكاد ينكر هيمنة الخالق على الخلق، ويظن أنه تعالى فوَّض الأمور إليهم، ويتساءل: إذن لماذا لا يحكم الرب بين عباده، ويفض الخلافات؟ ولماذا لا ينصر أصحاب الحق؟.

وما هي إلا وسوسة شيطانية لفصل الخلق عن هيمنة الله، إذ إنها تدفع الإنسان لاختيار وسائله الكفيلة بتحقيق مصالحه، ولا يهمه بعد ذلك لو ترك الدين جانبا، والآية الأولى من هذا الدرس تؤكد أنه قد سبقت كلمة تقضي بتأجيل الحسم في الخلافات، وأن ذلك لا يدل على التفويض أو الإهمال، من قبل الله ! بل مجرد إعطاء فرصة للابتلاء، ولولا ذلك لكان يأخذ الظالمين أخذ عزيز مقتدر.

ويعتمد الاختلاف على أرضية الشك بالقيم الحقيقية المتمثلة في الكتاب، ولذلك لا تختلف الأمم حين تعتمد الكتاب محورا لوحدتها، ومرجعا لخلافاتها وصراعاتها، ولكنها حينما تفقد الإيمان بالكتاب، وتبحث عن مصالحها على حساب الآخرين، تتنامى صراعاتها، لأن الضمانة التي تحجز عن دفع الصراعات نحو التطرف هو الإيمان بالقيم والاعتصام بحبل الله، وإلا فما أسرع تأثر البشر بالأحداث الاجتماعية والسياسية من حوله - فهو وبسبب نفسه الأمارة بالسوء- يسعى للتطرف في الرد على من يخطئ عليه أو يقصر تجاهه، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة:٨]، إشارة صريحة لهذه الطبيعة في الإنسان، وإنما يستطيع أن يتجاوزها باليقين والاستقامة، فلا تدفعه الأهواء ولا الدعايات الضالة إلى المواقف المتطرفة تجاه الآخرين، وهذا أمر صعب أن يقول الإنسان الحق، سواء كان معه أو ضده، وهذا ما أمر به الله نبيه ﷺ أن يعدل بين الناس، لأن العدل ينتهي في الأخير إلى صالح الإنسان، ثم إن كل فرد مسؤول أمام الله عن أعماله في الحياة، فلا داعي إذن لفرض أحد آرائه على أحد، فالكل يتحمل مسؤولية عمله، ويتلقى جزاءه.

ثم يؤكد القرآن بأن الله لا يهمل الصراعات إلى الأبد، وإن كان سبحانه لا يتدخل فيها بصورة مباشرة، فيد الغيب تتدخل إلى جانب الحق، في الوقت المناسب لتدحض حجة الباطل، ولكن متى يكون ذلك؟.حينما تهبط الرسالة يؤمن بها مجموعة من الناس، ويلتفون حول صاحبها، بينما يخالفهم فريق آخر وبحجج واهية، فينصر الله المؤمنين على أعدائهم، ولا شك أن الرسالة وحدها لا تنتصر، إنما تنتصر الرسالة التي يلتف حولها الناس ويدافعون عنها.

إن البعض يستعجل فض الخلافات، ويريد ذلك في أسرع وقت، ولذلك يبيِّن القرآن هنا فكرة سبق أن بيَّنها في أكثر من موقع، وهي عدم استبعاد الساعة، وإنما توقعها في كل حين.

بينات من الآيات:

[١٤] إن العامل الأقوى في اختلاف الناس وتفرقهم ليس هو الجهل بالحق، لأن الحق غالبا ما يكون واضحا بيِّنا، وإنما يختلفون بسبب شهواتهم وأهوائهم التي تقودهم للبغي على بعضهم، فهم المسؤولون عن الخلافات التي بينهم. أوليس قد جاءهم من الله العلم حتى يقضي عليها؟

والمشكلة الرئيسة التي يعاني منها الإنسان؛ وهي أن الإنسان يريد أن يسرق جهود غيره؛ ولذلك نجد أن أكثر أسباب التفرق تنبع من هذه الطبيعة البشرية غير المهذبة. فإذا رضي كل إنسان بما يعمله وينتجه لما حدثت مشكلة في العالم، ولكن كل واحد يريد أن يأخذ من الآخرين زيادة على ما يمتلكه. فكل إنسان يتصور أنه أعلى وأسمى من الآخرين، وكل واحد يظن أن حقوقه أكثر من الآخرين، وأنه يستحق أكثر مما يعطى له. وهنا يستغل الشيطان هذه الثغرة في نفس الإنسان ليوسوس، وليوحي إليه إن حقه مهضوم، وأن الآخرين لا يقدِّرونه حق تقديره.. في حين أن هذا التصور مغلوط من الأساس، لأن الإنسان لا يستطيع أن يقيّم نفسه حسبما يشاء.

ولو استطاع الإنسان أن يتجاوز هذه المشكلة في ذاته لزالت جميع الاختلافات، لأن القرآن الكريم يقول: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ﴾ وربنا يمهل الناس في تفرقهم، ولكنه لا يهملهم إذ سبقت منه كلمة أن يعطيهم الفرصة لاختبار إرادتهم، ولولا ذلك لكان ينهي الصراعات إلى صالح الحق في أسرع وقت، ويهلك أهل الباطل بلا إمهال.

﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ ومن أسباب تفرُّق الناس أيضا: ابتعادهم عن القيم التي تمثل ضمان الوحدة.. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ﴾ فبينما كان الكتاب وسيلة للوحدة عند الأجيال الملتزمة التي آمنت به وعملت بآياته، أصبح الشك فيه عاملا خطيرا في التمزق والتفرقة.

ونستنتج من هذه الآية الكريمة أن نهاية البغي تتمثل في خسارتين:

الأولى: هي خسارة الدنيا؛ أي إن الله تبارك وتعالى سوف يأخذ هؤلاء أخذاً شديداً، وينهي حضارتهم، ويقضي عليهم لأنهم تفرقوا، ولأنهم بغوا على بعضهم.

الثانية: تتمثل في أن الله جلت قدرته يسلب منهم حلاوة اليقين أي إنهم يعيشون دائماً حالة الشك، فالإنسان الذي يفكر في نفسه وقضاياه وأموره ومصالحه الشخصية، وتَرِدُ إلى ذهنه الكثير من الأفكار الشيطانية، فإنه يفقد حلاوة المناجاة والصلاة والتعبد، لأن قلبه مشغول دائماً بنفسه. وهكذا أوصت الآية بالعلاج الجذري للخلافات البشرية التي تنبعث من اتباع الأهواء والظلم على بعضهم (البغي) ذلك هو روح اليقين في الكتاب، والابتعاد عن حالة الشك والتردد فيه، كما أشارت إلى سنة التراخي عن اليقين بسبب طول الأمد، حيث يختلف الالتزام بالكتاب بين الجيل الذي هبط فيه الكتاب، وبين الذين أورثوا الكتاب، والشك المريب هو الشك المتعلق الذي يثير الاضطراب.

[١٥] وحيث قضى الله سبحانه في كتابه بالحق، يجب على الرسول وعلى كل مؤمن أن يدعو إليه، ويستقيم على نهجه بالتحصن ضد الأهواء والصراعات، لأنه لو زاغ المؤمن إلى جانب من جوانب الصراع لانتهى دوره في الهيمنة على الخلافات الاجتماعية. ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ إنما اتبع الهدى الموحى إليك من ربك، بعيدا عن الضغوط والدعايات. هنا يأمر القرآن الرسول ومن خلاله كل من اتبعه:

أولاً: بالدعوة، وإعلان الكلمة الصادقة ومن ثم إعلان المواجهة مع الكفر.

ثانياً: بالاستقامة، بالصبر على الأذى الذي يلحقه من جراء الدعوة.

ثالثاً: بجعل القرآن منهاجا للعمل.

رابعاً: عدم التنازل عن الدعوة تحت ضغوط الآخرين الذين يتبعون أهواءهم، لكي يبقى الدين خالصا لله.

﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ لأن الميزان هو الوحي، وكما أوحى الله الكتاب على نبيه محمد ﷺ فقد أوحى إلى موسى وعيسى عليهما السلام، وإعلان الرسول أنه مؤمن بسائر الرسالات الإلهية شاهد على أن دعوته لا تشوبها ذرة من الذاتية، إنما هي دعوة خالصة إلى الله وإلى كتبه ورسالاته جميعا، وهكذا ينبغي أن يكون محور الإنسان هو الحق، سواء كان متمثلا في ما عنده أو عند الآخرين.

﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ على ضوء منهاج الكتاب، لأن العدالة وحدها الكفيلة برفع أنواع الخلافات فيه. أليس البغي جذر كل خلاف؟ كذلك العدل أرضية الوحدة، وحين لا يكون العدل يتهاوى عرش التجمع على أطرافه! يقول الإمام علي عليه السلام: «**وإِنَّ أَفْضَلَ قُرَّةِ عَيْنِ**

الوُلَاةِ اسْتِقَامَةُ العَدْلِ فِي البِلَادِ»[١].

﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ وما دمنا متساوين أمام الله لأننا خلقه وهو ربنا، فإننا متساوون أمام القانون وهو كتابه عز وجل، ومن هذا المنطلق ترتكز العدالة على تحمل كل إنسان جزاء عمله لا الآخرين. ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ فكل واحد يتحمل تبعة عمله، دون أن يقدر على إلقائها على الآخرين بعذر أو بآخر. وهذه البصيرة ذات أثر عظيم في إثارة وتحريك الفكر، ووقف حالة الاسترسال. ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لا جدال ولا خصومة فقد بان الحق وظهر أمر الله، ولسنا نريد أن نكرهكم على قبول الحق، لأن قبول الحق ينفعكم قبل أن ينفعنا، ورفضه يضركم ولا يضرنا. وتوحي الآية بأنه لا يمكن للإنسان إخضاع الآخرين بالجدل لأفكاره. ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ غدا عند الميزان الحق، ويفصل بين الخلافات. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيجازي المسيء، ويثيب المحسن. فعلى المؤمن أن يبلغ رسالته إلى الناس دون جبر أو إكراه، فإن قبلوا اهتدوا، وإن رفضوا و كفروا فإنهم جميعا سوف يحضرون يوم القيامة للحساب حيث يقرر الرب مصير الجميع.

[١٦] ولكي لا يتصور البعض أن ترك الجدال الذي أمر به في خاتمة الآية السابقة يعني أن الجميع على حق، بيَّن السياق عاقبة المجادلين بالباطل، ليدحض هذه الفكرة الفاسدة التي وجد لها أنصار في التاريخ، حيث زعموا صواب كل القضاة الذين يحكمون في موضوع واحد بفتاوى مختلفة، وقد فنَّدَ الإمام علي عليه السلام هذه الفكرة حيث قال: **«تَرِدُ عَلَى أَحَدِهِمُ القَضِيَّةُ فِي حُكْمٍ مِنَ الأَحْكَامِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِرَأْيِهِ ثُمَّ تَرِدُ تِلْكَ القَضِيَّةُ بِعَيْنِهَا عَلَى غَيْرِهِ فَيَحْكُمُ فِيهَا بِخِلَافِ قَوْلِهِ ثُمَّ يَجْتَمِعُ القُضَاةُ بِذَلِكَ عِنْدَ الإِمَامِ الَّذِي اسْتَقْضَاهُمْ فَيُصَوِّبُ آرَاءَهُمْ جَمِيعاً وَإِلَهُهُمْ وَاحِدٌ وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ وَكِتَابُهُمْ وَاحِدٌ أَ فَأَمَرَهُمُ اللهُ تَعَالَى بِالاخْتِلَافِ فَأَطَاعُوهُ أَمْ نَهَاهُمْ عَنْهُ فَعَصَوْهُ»**[٢]. إن للحق والباطل مقاييس ثابتة وواضحة، والله عز وجل ينصر الحق عندما يحين الأجل المسمى عنده.

﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ أي يحاجون الرسول صلى الله عليه وآله في مناهجه ورسالاته الإلهية وقد تبيَّن لهم أنه على الحق بعد استجابة الله له. ﴿حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ يدحضها بالمقاييس والسنن الثابتة، وبإرادته المطلقة منطقيا وعمليا، حيث ينتقم منهم في الدنيا والآخرة. ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ لقد تجلى الحق على يد الرسول صلى الله عليه وآله بأظهر شواهده وأسنى آياته، ولقد بادر أصحاب القلوب الزكية إلى الاستجابة للرسالة،

---

(١) نهج البلاغة: كتاب ٥٣.

(٢) نهج البلاغة: خطبة: ١٨.

واستجاب الله دعواته الخالصة بالنصر. ألم يعدهم بذلك حين قال: إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم؟ فما بقي عذر لهؤلاء الذين يحاجون في الله، ولا يسلمون أمرهم لرسوله، وحان ميعادهم، فحجتهم داحضة، ليس فقط لأنها باطلة، بل وأيضا لأن الاستجابة للرسالة هيأت أرضية نصر الله لها.. وسوف تتوالى عليهم الهزائم الفكرية بدحض حجتهم، والهزائم الدنيوية والسياسية بأن عليهم الغضب المتمثل في الفشل، والأخروية بأن لهم العذاب الشديد. ومن هنا نعرف أنه حين يستجيب فريق للرسالة فإنه يقترب ميعاد نصرها من عند الله، وتكون حجة المعاندين داحضة، وسعيهم في ضلال.

[١٧] ومن المقاييس التي يعرف الحق بها القرآن بآياته البينة الواضحة ثم الميزان. ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ ﴾ جملة الحقائق، ابتداء من التذكرة بالله وأسمائه الحسنى وآياته في الأنفس والآفاق، واستمرارا مع تبصرة الإنسان بنفسه وشفاء أدوائه، وانتهاء بالأحكام التي تفصل بين الناس بالعدل. ﴿وَٱلْمِيزَانَ ﴾ وقد أنزله الله علينا حين هدانا إليه لنطبق العدل بيننا. وقد اختلف المفسرون في معنى الميزان، فقال البعض: إنه مجمل الأحكام الشرعية التي جاءت بها الرسالات. أوليست تفصل بين العباد، وتحدد حقوق وواجبات كل واحد بالنسبة إلى الآخرين، وأن المعنى أن الله أنزل الميزان في الكتاب، الذي ليس فقط يشتمل على الحق بل ويفصله ضمن موازين أي أنظمة عادلة. وقال أكثر المفسرين: إنه العدل، ولكن لم يذكروا كيف أنزله الله. وقال البعض: إنه هذا الميزان الذي يقيس به الناس أشياءهم، ولم يحدد هو الآخر كيف أنزله الله.

ولكن يبدو لي أن الميزان -هنا- شيء آخر أنزله الله إلى جانب الكتاب، ويشهد على ذلك أنه لم يعطف كلمة الميزان إلى الحق بأن يقول: أنزل الكتاب بالحق وبالميزان.

وقد قال ربنا في سورة الحديد: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾ [الحديد:٢٥].

وقال سبحانه في سورة الرحمن: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴾ [الرحمن:٧-٨].

وقال تعالى في سورة [الأعراف:٨٥]: ﴿فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ ﴾.

فالميزان -إذا- قيم الكتاب، وأوضح معانيه هذا الذي يتعارف الناس عليه في قياس سلعهم، وفي تحديد حقوق بعضهم على البعض، ويبقى السؤال: كيف أنزله الله؟.

الجواب: إن الله أنزل على الإنسان العقل، وضمنه مقاييس ثابتة، وعلمه كيف يعكس هذه المقاييس العقلية على أجهزة وأدوات وقوانين وتشريعات يقيس بها الأشياء، وأمر في كتابه الناس إلى الالتزام بها تعارفوا عليه بعقولهم. وإنها بعث الرسل ليوقظوا العقل من سباته، ويحرروه من أغلاله، ويضعوا عن عقول الناس أقفالها، ويرفعوا حجبها.

وهكذا وجب الاهتمام بالقسطاس، قال الله سبحانه: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء:١٨٢]. إن إقامة الميزان من حقائق القرآن، ومن تجليات الرحمة الإلهية، وهي -إلى ذلك- تتناسب ونظام الخلقة. فالله سبحانه الذي رفع السماء بنظام وموازين، لولاها لفسدت السماء والأرض، يأمر بإقامة الميزان، لأن الخلل فيه طغيان ويسبب الفساد. فالنظام في الطبيعة قائم على التقدير، ومن خالف الميزان خالف القسط وهو في طريق الفساد. قال الله سبحانه: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[هود:٨٥].

وحين توافق الكتاب والميزان، عرف الناس بما لديهم من ميزان إلهي (وهو العقل) صدق الرسالة، وعلموا بهداية عقولهم أن دعوة الرسل صادقة، لأنها تتناغم وما يجدونه بنور عقولهم وسنن الكون.

والرسل عليهم السلام وأوصياؤهم الصادقون يمثلون بحق هذا الميزان في الشؤون الحياتية، لأنهم يهدون بالحق، و يسعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويخالفون أهواءهم، ويلتزمون بدقة متناهية بالأحكام التي يأمرون الناس بها، فهم الميزان الصادق بين الحق و الباطل، وهم القضاء العدول بين الناس، وهم القسطاس المستقيم في المعارف الإلهية.

ومن هنا قال بعض المفسرين: إن المراد بالميزان النبي محمد صلى الله عليه وآله (١). ولعل التفسير الشائع بين المفسرين يعود إلى هذا المعنى حيث قالوا أن الميزان هو العدل، إلا أنهم لم يذكروا كيف يقام العدل. أوليس بحاكم عادل يأمر الله باتباعه، والتحاكم إليه، والتسليم لقضائه، كما قال سبحانه: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥].

كما إن ذكر الميزان في سياق سورة الشورى التي تمحورت حول فض الخلافات يدل على أهمية القيادة العادلة في القضاء على الصراعات الاجتماعية. ولا تتم معرفة الله إلا بالعقل، جاء في الحديث المأثور عن الإمام الكاظم عليه السلام: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَكْمَلَ لِلنَّاسِ الْحُجَجَ

(١) فتح القدير: ج٤ ص٥٣١.

بِالعُقُولِ وَنَصَرَ النَّبِيِّينَ بِالبَيَانِ وَدَلَّهُمْ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ بِالأَدِلَّة»(١). كما لا تتم معرفة الإمام الصادق عليه السلام الناطق عن الله إلا بالعقل أي بتلك الموازين الثابتة التي أودعها الله في ضمير كل واحد من أبناء البشر. جاء في الحديث عن الإمام الكاظم عليه السلام: «**نُصِبَ الخَلْقُ لِطَاعَةِ اللهِ ولَا نَجَاةَ إلَّا بِالطَّاعَةِ والطَّاعَةُ بِالعِلْمِ والعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ والتَّعَلُّمُ بِالعَقْلِ يُعْتَقَدُ ولَا عِلْمَ إلَّا مِنْ عَالِمٍ رَبَّانِيٍّ ومَعْرِفَةُ العَالِمِ بِالعَقْلِ**»(٢).

إن الكتاب والرسول حجة الله الظاهرة، ولا يمكن الإهتداء إليها إلا بالعقل، الذي هو حجة الله الباطنة، والى ذلك أشار الحديث المروي عن الإمام الكاظم عليه السلام: «**إِنَّ للهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ حُجَّةً ظَاهِرَةً وحُجَّةً بَاطِنَةً فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ والأَنْبِيَاءُ والأَئِمَّةُ عليهم السلام وأَمَّا البَاطِنَةُ فَالعُقُولُ**»(٣).

أنّى ذهبت وأيَّ شخص سألت فسوف تجد المقاييس العقلية ذاتها عنده، التي يؤمن بها جميع البشر، وهي الحجة القائمة بينهم، الصدق والشجاعة والوفاء والإيثار والعدل والعفو والإحسان إنها فضائل لا يختلف فيها الناس.. وذلك هو الميزان الذي أنزله الله للناس ليقوموا بالقسط، وبهذه المقاييس الثابتة يختار الناس إمامهم العادل ليطبق العدالة بينهم، ففي حوار مفصل بين ابن السكيت (إمام اللغة المعروف) وبين الإمام الرضا عليه السلام يسأل ابن السكيت: «فَمَا الحُجَّةُ عَلَى الخَلْقِ اليَوْمَ؟ فَقَالَ الرِّضَا عليه السلام: **العَقْلُ تَعْرِفُ بِهِ الصَّادِقَ عَلَى اللهِ فَتُصَدِّقُهُ والكَاذِبَ عَلَى اللهِ فَتُكَذِّبُهُ** فَقَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ: هَذَا هُوَ واللهِ الجَوَابُ»(٤).

ولكن تبقى مشكلة البشر الغفلة وعصيان ما تأمر به العقول، ولعلاج هذه الحالة لا بد من إيقاظ العقل بالإنذار.. وهكذا ذكر السياق بالساعة بعدما بين الميزان، لأن تذكر الساعة حيث يفصل الله بين عباده، وحيث أخر الله الموازين القسط إليها، يهز أعماق البشر. وأعظم ما في الساعة إخفاؤها. متى تقوم الساعة؟، ومتى تقوم قيامة كل واحد منا بالموت الذي لا يفصله عن الساعة شيء؟. ألا ترى كيف يتساءل الناس في يوم البعث: كم لبثتم؟ فإذا بهم يقولون: يوما أو بعض يوم، وهم قد لبثوا إلى يوم البعث؟!.

وما دام يوم البعث خفيا عنا فلا بد من الاجتهاد أبدا ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ وكفى بالموت الذي يزور البشر في أية لحظة واعظا، وهذا من أهم أهداف ستر الأجل عن

---

(١) الكافي: ج١، ص١٣.
(٢) المصدر السابق: ص١٣.
(٣) المصدر السابق: ص١٣.
(٤) المصدر السابق: ص٢٤.

الإنسان، وفي الحديث قال الإمام علي عليه السلام: «مَا أَنْزَلَ الْمَوْتَ حَقَّ مَنْزِلَتِهِ مَنْ عَدَّ غَداً مِنْ أَجَلِهِ»[1].

[١٨] ولو تدبر الإنسان في الساعة أصلح نفسه، بينما لا تعني شيئا بالنسبة للآخر الضال، بل يزداد بسبب ذكر الآخرة ضلالا، لأنه لا يعي حقيقة الساعة. ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّۗ ﴾ فترتعد فرائصهم من خوف هولها، بينما تتعمق عقيدتهم في الحق وبصيرتهم في الحياة بذكرها، والخشية ميزان العقل ففي وصفه للمتقين يؤكد الإمام عليه السلام على عمق خوفهم من الله إذ يقول: «فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً وتَطَلَّعَتْ نُفُوسُهُمْ إِلَيْهَا شَوْقاً وظَنُّوا أَنَّهَا نُصْبَ أَعْيُنِهِمْ وإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ وظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جَهَنَّمَ وشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وأَكُفِّهِمْ ورُكَبِهِمْ وأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ يَطْلُبُونَ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ -هذا عن بعض حالهم في الليل- وأَمَّا النَّهَارَ فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ قَدْ بَرَاهُمُ الْخَوْفُ بَرْيَ الْقِدَاحِ يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى ومَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ ويَقُولُ لَقَدْ خُولِطُوا»[2].

هذا هو حال المؤمنين، وهذا هو خوفهم من الساعة، وهو يكفي لنا مقياسا لمعرفة مدى ضلال الكافرين والمشركين وغيرهم ممن لا يتعظ بذكر القيامة، بل ويتخذ الحياة لعبا ولهوا. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِي ٱلسَّاعَةِ لَفِي ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴾ وهذا بسبب شكهم في القيامة والجزاء، وكل إنسان يشك في جزاء أعماله لا يتحمل المسؤولية تجاهها، بل ويعيش متهاونا في حياته مما يعمق الضلالة عنده، حتى يصل إلى حد بعيد في الضلال لا يمكنه معه الاهتداء إلى أدنى مراتب الحق.

(١) الكافي: ج٣ ص٢٥٩.
(٢) نهج البلاغة: خطبة: ١٩٣.

أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين

﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩) مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢١) تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٢)﴾.

هدى من الآيات:

خشية الإنسان من أن يفوته رزقه، وبالتالي سعيه من أجل الحصول عليه، وكذلك اتباعه الشرائع البشرية الضالة، هما من العوامل الأساسية التي تفرق المجتمعات عن الدين الحق، وإذ بيّن القرآن خطورتهما يعالج مرض النفس ببعث الاطمئنان فيها عبر التأكيد على ضمان الله للرزق، كما أنه يداوي مرض الحرص بالتحذير من أهوال الساعة، والترغيب في نعيم الآخرة.

بينات من الآيات:

[١٩] لقد تكفل ربنا بالرزق لعباده بما وفر لهم من وسائل العيش في الحياة، ولو تدبرنا في رزق البشر لعرفنا لطف ربنا، وحسن تدبيره. ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾ قالوا: اللطيف العالم بخفيات الأمور والغيوب، والمراد به هنا: الموصل المنافع إلى العباد من وجه يدق إدراكه، وذلك في الأرزاق التي قسمها الله لعباده، وحرف الآفات عنهم، و إيصال السرور والملاذ إليهم،

وتمكينهم بالقدرة والآلات[١].

و يبدو لي أن معنى اللطيف أنه تعالى يدبر شؤون خلقه بدقة ويسر وتنوع حكيم إلى حد قد يسير الإنسان في تطبيقها بدوافع لا تبدو واضحة له، كما أشار القرآن إلى ذلك بقوله: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

والكثير من الناس يخططون لأنفسهم، ولكنهم عند تطبيق ما رسموه يكتشفون عقبات جديدة لم يحتسبوها، بينما يأتيهم ما تمنوه سعيا من حيث لم يحتسبوا، مما يدل على أن ما يدبره الرب من شؤونهم أكبر بكثير مما خوّل إليهم منها. وهذا من آيات لطف الله في تدبير الأمر، وإليه أشار الإمام علي عليه السلام: «عَرَفْتُ اللهَ سُبْحَانَهُ بِفَسْخِ العَزَائِمِ وحَلِّ العُقُودِ ونَقْضِ الهِمَمِ»[٢].

ومن تدبر حياة الناس وجد الكثير ممن يتمنون مستقبلا معينا ينتهون إلى غيره، فالذي قدر أن يصبح مهندسا أضحى عالما بالدين أو تاجرا، لأن الله لم يجعل رزقه إلا في هذه المهنة أو تلك، فلماذا يختلف الناس إذن، ويشعلون نار الصراعات بينهم من أجل لقمة العيش التي يقدرها الله؟! ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ﴾ وما دام الرزق مضمونا من عند الله فلماذا اكتساب الموبقات، وابتداع المذاهب الباطلة، والشرك بالله عبر تأييد السلطات الظالمة؟.

إن دوافع الشرك كثيرة، ولكن من أبرزها طلب الرزق، والحديث المأثور بالتالي يقص علينا حياة واحد من الذين أشركوا بربهم طلبا للرزق الحرام، وكانت نهايتهم السوأى، وفيه عبرة مؤثرة: قال الإمام الصادق عليه السلام: «كَانَ رَجُلٌ فِي الزَّمَنِ الأَوَّلِ طَلَبَ الدُّنْيَا مِنْ حَلَالٍ فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا وطَلَبَهَا مِنْ حَرَام فَلَمْ يَقْدِرْ عَلَيْهَا فَأَتَاهُ الشَّيْطَانُ فَقَالَ لَهُ يَا هَذَا إِنَّكَ قَدْ طَلَبْتَ الدُّنْيَا مِنْ حَلَالٍ فَلَمْ تَقْدِرْ عَلَيْهَا فَطَلَبْتَهَا مِنْ حَرَامٍ فَلَمْ تَقْدِرْ عَلَيْهَا أَفَلَا أَدُلُّكَ عَلَى شَيْءٍ تُكْثِرُ بِهِ دُنْيَاكَ وتُكْثِرُ بِهِ تَبَعَكَ فَقَالَ بَلَى قَالَ تَبْتَدِعُ دِيناً وتَدْعُو إِلَيْهِ النَّاسَ فَفَعَلَ فَاسْتَجَابَ لَهُ النَّاسُ فَأَطَاعُوهُ فَأَصَابَ مِنَ الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّهُ فَكَّرَ فَقَالَ مَا صَنَعْتُ ابْتَدَعْتُ دِيناً ودَعَوْتُ النَّاسَ إِلَيْهِ ومَا أَرَى لِي تَوْبَةً إِلَّا أَنْ آتِيَ مَنْ دَعَوْتُهُ فَأَرُدَّهُ عَنْهُ فَجَعَلَ يَأْتِي أَصْحَابَهُ الَّذِينَ أَجَابُوهُ فَيَقُولُ إِنَّ الَّذِي دَعَوْتُكُمْ إِلَيْهِ بَاطِلٌ وإِنَّمَا ابْتَدَعْتُهُ فَجَعَلُوا يَقُولُونَ كَذَبْتَ هُوَ الحَقُّ ولَكِنَّكَ شَكَكْتَ فِي دِينِكَ فَرَجَعْتَ عَنْهُ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ عَمَدَ إِلَى سِلْسِلَةٍ فَوَتَدَ لَهَا وَتِداً ثُمَّ جَعَلَهَا فِي عُنُقِهِ وقَالَ لَا أَحُلُّهَا حَتَّى يَتُوبَ اللهُ عَلَيَّ فَأَوْحَى اللهُ عَزَّ وجَلَّ إِلَى نَبِيٍّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قُلْ لِفُلَانٍ وعِزَّتِي وجَلَالِي لَوْ دَعَوْتَنِي حَتَّى تَنْقَطِعَ أَوْصَالُكَ مَا اسْتَجَبْتُ لَكَ حَتَّى تَرُدَّ مَنْ مَاتَ عَلَى مَا دَعَوْتَهُ إِلَيْهِ فَيَرْجِعَ عَنْهُ»[٣].

---

(١) مجمع البيان: ج٩ ص٢٧.
(٢) نهج البلاغة: قصار الحكم: ٢٥٠.
(٣) بحار الأنوار: ج٧٢، ص٢١٩.

ولو أن الإنسان اتبع منهاج الرسالة لرزقه الله بصورة أو بأخرى، قال الله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢-٣].

﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ العزيز هو المهيمن، والسلطان المقتدر الذي يفرض أمره على الناس.

[٢٠] ولكي يهذب القرآن دوافع الكسب عند الإنسان حتى لا يبعثه نحو الشرك بالله والصراع مع أقرانه، يقارن بين ما يكتسبه الإنسان لدنياه وما يسعى إليه لآخرته، فيقول: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ حيث يبارك الله له في سعيه الأخروي، ويضاعف له الجزاء عند الحساب، فإذا بعمله يتنامى من حين قيامه به حتى يجزى عليه، أولم يقل ربنا: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

ولكن الذي يريد الدنيا بسعيه فإنه لا يحصل على كل أمانيه وإنما يحصل على جزء منها، ثم إنه يعدم أي نصيب له في الآخرة. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ إذن فعليه أن يسعى من أجل الآخرة عبر القرآن الذي ليس فقط يهدي إلى العلاج السليم بل و أيضا يتضمن العلاج بذاته، وهنا يعالج حرص النفس البشرية على الدنيا بإيصال فكر الإنسان بالآخرة من خلال التذكير بها، وحثه على أن لا يجعلها همه الأكبر فيختلف بسببها مع الآخرين، أو يتصورها محور الحياة الذي يؤول الأمور على ضوئه.

إنه لا يمكن علاج مشاكل الإنسان السياسية والاجتماعية وغيرها إلا إذا ترَّفع عن التبعية المطلقة للدنيا ولشهواتها، ولو تساءلنا عن علة نمو الرأسمالية في أي بلد، الذي ينتهي إلى تسلط الأغنياء على الأمم، لوجدناه حب المال الذي يجعل الناس عبيدا وأصحاب الثروة آلهة مزيفة. ومن جهة أخرى يمهد للحكم الطاغوتي، فإذا بمجموعة من الناس يتسلطون على الناس من خلال سيطرتهم على خيرات الشعوب ومواردها الاقتصادية، الأمر الذي ينتهي إلى الفساد السياسي، ولو فكرنا عميقا في عوامل الفساد في السياسة، لرأينا الطمع والخوف والجهل من أبرز هذه العوامل. ولعل عامل الطمع الناشئ من حب الدنيا في رأس القائمة، لا فرق في ذلك بين النظام الرأسمالي والاشتراكي، ففي النظام الرأسمالي يحتكر أصحاب الثروة -وهم في الواقع أرباب السلطة الحقيقية- المال باسم الملكية الفردية، بينما نجد في النظام الإشتراكي يحتكر أصحاب السلطة الثروة -وهم في الواقع الرأسماليون الجدد- باسم الملكية الجماعية، وهنا وهناك المال. وحتى سبب خضوع الشعب واحد وهو حبه للمال، سواء كان هذا المال بيد الدولة أو كان بيد أصحاب الثروة.

فمن أجل تلافي معظم الصراعات البشرية لا بد من معالجة نقطة الضعف الرئيسة عندهم وهي عبادة الثروة لكي لا تصبح أداة السلطة الفاسدة، وسببا للحروب التي أفنت لحد الآن أضعاف ما أفنته سائر أسباب الوفاة كالمجاعات والأمراض، والكوارث الطبيعية، ولو حاولنا التقرب إلى هذه الفكرة أكثر يجب أن نعرف بأن التعبير السائد اليوم: (مصالح القوى الكبرى) أو ما إلى ذلك هو التعبير الواضح عن اللهث وراء الدنيا، أولم تدفع هذه المصالح الظالمين لقتل الملايين من الناس هنا وهناك؟.

[٢١] ثم هل يكتفي الإنسان بخوض الصراعات، وإفساد البلاد والعباد، وحسب؟ كلا.. بل يسعى لتبرير تصرفاته ومواقفه من خلال دين يصطنعه لنفسه، ولو درسنا الواقع الثقافي والإعلامي في عالم اليوم لانتهينا إلى نتيجة واحدة، هي أن أكثر النظريات والثقافات منتزعة من الواقع المصلحي للإنسان، فمن أجل حماية مصالحهم تجد هذه الدولة أو ذلك الحزب يبتدعون الأفكار والنظريات المختلفة، فإذا بالصعاليك يؤسسون نظرية الصراع الطبقي، بينما يبتدع المترفون نظرية النخبة، والقرآن يستنكر هذا النهج ويَعُدُّه صورة من صور الشرك. ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ إن الشريعة التي ينبغي للإنسان اتباعها والخضوع لها هي الموحاة من الله وحده، أما الشرائع والقوانين التي يبتدعها البشر ولا يرتضيها الرب فإن إتباعها شرك به عز وجل، والتدبر العميق في هذه الآية يهدينا إلى أن الذي يُشِّرع قانونا مخالفا لشرع الله إنما يُنصِّب نفسه إلها من دونه، والذي يسمى في القرآن دينا ليس القوانين الفيزيائية والكيميائية، إنما القوانين السياسية والاجتماعية و الاقتصادية و.. التي تحكم الناس، وهذه لا يجوز لأحد أن يسنَّ منها شيئا إلا على ضوء شرع الله، ومن خلال رسالته.

وبعد أن يهدِّد القرآن -في آية سبقت- الذين يثيرون الصراعات السلبية، أو يشرعون القوانين، يتوعدهم ربنا في هذه الآية بعذابه الأليم، محذرا لهم من أن تأجيل العذاب ليس دليلا على الإهمال، إنما لأنه وعدهم بإعطائهم الفرصة لبيان طبيعتهم، التي لولاها لأخذهم بالعذاب فور المعصية. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وتكاد تتميز هذه الكلمات إنذارا، فلولا عهد الله على نفسه بإعطاء الفرصة لهم لكفت هذه الجريمة -أي ابتداع نظرية في غير إطار الشريعة- سببا للقضاء عليهم قضاء تاما، ولكن تلك الكلمة وذلك العهد يؤجل العذاب العظيم ولا يرفعه أبدا، وإن الشرك ظلم بذاته وهو ينتهي إلى الظلم أيضا، إذ لا يمكن للنظام الشركي أن يكون عادلا أبدا، ونستوحي هذه البصيرة من تبديل كلمة الظالمين بالمشركين.

[٢٢] وفي يوم القيامة حيث تنصب الموازين الحق للجزاء يخاف الظالمون من أعمالهم

السيئة التي اجترحوها في الدنيا، فهي حينئذ تصير ألوانا من العذاب، ولكن هل يمنع هذا الخوف عنهم شيئا، كلا.. بلى؛ لو أنهم خافوا من ارتكاب المعاصي في الدنيا لنفعهم خوفهم لأنه حينذاك يصير سببا للتقوى، أما يوم القيامة فلا.. ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي ينزل عليهم سواء أشفقوا أم لم يشفقوا.

ويأخذنا القرآن في المقابل إلى منظر مناقض آخر، هو منظر المؤمنين الذين تحول إيمانهم وعملهم الصالح إلى جنة ورضوان من الله. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ وأي رياض هذه التي يرزقها المؤمنون؟! دعنا هنا نقرأ شيئا من كلام أمير المؤمنين عنها حيث يقول عليه السلام: «فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا لَعَزَفَتْ نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى الدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا وزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا ولَذَهِلَتْ بِالفِكْرِ فِي اصْطِفَاقِ أَشْجَارٍ غُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُثْبَانِ المِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا وفِي تَعْلِيقِ كَبَائِسِ اللُّؤْلُؤِ الرَّطْبِ فِي عَسَالِيجِهَا وأَفْنَانِهَا وطُلُوعِ تِلْكَ الثِّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلُفِ أَكْمَامِهَا تُجْنَى مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ فَتَأْتِي عَلَى مُنْيَةِ مُجْتَنِيهَا ويُطَافُ عَلَى نُزَّالِهَا فِي أَفْنِيَةِ قُصُورِهَا بِالأَعْسَالِ المُصَفَّقَةِ والخُمُورِ المُرَوَّقَةِ قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ الكَرَامَةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ القَرَارِ وأَمِنُوا نُقْلَةَ الأَسْفَارِ فَلَوْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ أَيُّهَا المُسْتَمِعُ بِالوُصُولِ إِلَى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ المَنَاظِرِ المُونِقَةِ لَزَهِقَتْ نَفْسُكَ شَوْقاً إِلَيْهَا ولَتَحَمَّلْتَ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى مُجَاوَرَةِ أَهْلِ القُبُورِ اسْتِعْجَالاً بِهَا جَعَلَنَا اللهُ وإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَى بِقَلْبِهِ إِلَى مَنَازِلِ الأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ»[1].

(١) نهج البلاغة: خطبة: ١٦٥.

لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (٢٤) وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٢٥) وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦)﴾.

هدى من الآيات:

في إطار معالجة القرآن الحكيم للاختلاف معالجة شاملة، وبعد أن يردع من إتباع الشركاء الذين لم يأذن الله لهم بالتشريع، يأتي السياق ليبيّن:

أولاً: جزاء الصالحين الذين يجتنبون الطاغوت.

ثانياً: القيادة الشرعية البديلة المتمثلة في أقرب الناس إلى الرسول نهجا ونسبا، ويبشر الرب الذين يقترفون حب آل الرسول بزيادة في الأجر، وأن يشملهم بمغفرته الواسعة وشكره الجزيل.

ثم يبيّن القرآن الحكيم لنا بأن طاعة الله ومودة القربى سوف تجلب للإنسان حسنات في الدنيا و الآخرة، وبعد أن يحدثنا ربنا عن مقالة افتراها الكفار في شأن الرسول يبين بأن هذا الكلام فاشل و باطل، والسبب أن الله سبحانه وتعالى هو الذي بعث بالرسالة، ولو شاء لمحا هذه الآية وجاء بآية أخرى، فالله هو صاحب الرسالة وليس الرسول.

ثم يبيّن طائفة من أسماء الله سبحانه وتعالى وصفاته الحسنى، منها: قبول التوبة، والعفو عن السيئات، والعلم بأعمال الناس ونواياهم القلبية.

بينات من الآيات:

[٢٣] من العوامل الأساسية التي تؤدي إلى الفرقة بين أبناء المجتمع، هو مرض الحرص على الدنيا الذي يعالجه القرآن في هذه السورة الكريمة بطرق شتى.. ومنها أنه يعظم في نفوس المؤمنين الآخرة وما فيها من نعم وخلود حتى يسلون عن طعام الدنيا.

ونتساءل: لماذا القرآن الحكيم كلما عالج انحرافا في حياة الإنسان بيّن حقائق عن الآخرة؟

يجيب عن ذلك حديث كريم مروي عن الإمام زين العابدين عليه السلام يعكس العلاقة بين معالجة النفس وبين التذكرة بالآخرة، فيقول: «حُبُّ الدُّنْيَا رَأْسُ كُلِّ خَطِيئَةٍ»[1]، وبالمقابل يكون استصغار الدنيا وتهوينها رمزا لكل فضيلة، ومدخلا لكل خير. كما أن طريق السيطرة على الدنيا والهيمنة عليها وعلى ما فيها من خيرات، هو الاستهانة بها. إنك مثلا لا تستطيع أن تسيطر على دابة جموح تخشى منها، وكذلك إذا خفت من سلطان ظالم فإنك لن تتمكن من القضاء عليه، فالهيبة قرنت بالخيبة، وقرن الخوف بالفشل، وهكذا الدنيا حينما نخشاها، وندور في فلكها، فإننا لن نستطيع السيطرة والهيمنة عليها. أما إذا عكسنا الأمر، واستهنا بالدنيا، وهوناها في أنفسنا، وعظمنا في المقابل أنفسنا وأكرمناها، فآنئذ نستطيع أن نسيطر عليها من دون إسراف أو طغيان.

﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِي يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يبشرنا الله بفضل كبير، وبجنات فيها كل ما نريد، وأكرم به وعدا صادقا، وفضلا كبيرا، ولكن هذا الفضل الكبير مقترن بعمل كبير هو المودة في القربى التي جعلت بمثابة أجر على الرسالة، فقال ربنا: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ونتساءل:

أولاً: ما هو المفهوم من كلمة القربى؟.

ثانياً: لماذا جاء هذا الموضوع في سياق موضوعات الوحدة في القرآن الحكيم؟.

ثالثاً: لماذا لم يأمر القرآن بطاعة ذوي القربى بل بمودتهم؟.

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٣٠.

أولاً: من هم القربى؟

وقد استفاضت الأحاديث حول هذه الآية وتفسيرها وكيف نزلت، وبالرغم من أنها تعالج قضية القيادة التي كانت ولا تزال محورا لخلافات المسلمين، إلا إن تفسير الآية حظي بقدر كبير من الاتفاق بين علماء المسلمين حسب النصوص التالية التي ننقلها من تفسير (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) للعلامة السيوطي، ولأهميتها البالغة نفيض في بيانها مفصلا:

- أخرج ابن جرير وابن حاتم وابن مردويه من طريق مقسم عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ الأَنْصارَ قَالُوا: فَعَلْنَا وَفَعَلْنَا كَأَنَّهُمْ افْتَخَرُوا، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَنَا الفَضْلُ عَلَيْكُمْ فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وآله فَأَتَاهُمْ فِي مَجَالِسِهِمْ فَقَالَ صلى الله عليه وآله: **يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَلَمْ تَكُونُوا أَذِلَّةً فَأَعَزَّكُمُ اللهُ بِي**؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ صلى الله عليه وآله: **أَلَمْ تَكُونُوا ضُلَّالاً فَهَدَاكُمُ اللهُ بِي**؟. قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ صلى الله عليه وآله: **أَفَلا تُجِيبُونِي**؟ قَالُوا: مَا نَقُولُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ صلى الله عليه وآله: **أَلا تَقُولُونَ: أَلَمْ يُخْرِجْكَ قَوْمُكَ فَآوَيْنَاكَ؟ أَوَلَمْ يُكَذِّبُوكَ فَصَدَّقْنَاكَ؟ أَوَلَمْ يَخْذُلُوكَ فَنَصَرْنَاكَ**؟ قَالَ: فَمَا زَالَ يَقُولُ حَتَّى جَثَوْا عَلَى الرُّكَبِ وَقَالُوا: أَمْوَالُنَا وَمَا فِي أَيْدِينَا للهِ وَلِرَسُولِهِ، فَنَزَلَتِ الآيَةُ»[١].

- وأخرج الطبراني في الأوسط وابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير قال: «قَالَتِ الأَنْصارُ فِيمَا بَيْنَهُمْ لَوْلاَ جَمَعْنَا لِرَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله مَالاً يَبْسُط يَدَهُ لاَ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحَدٍ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا أَرَدْنَا أَنْ نَجْمَعَ لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿**قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ**﴾ فَخَرَجُوا مُخْتَلِفِينَ، فَقَالُوا: لِمَنْ تَرَوْنَ مَا قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا قَالَ هَذَا لِنُقَاتِلَ عَنْ أَهْلِ بَيْتِه وَنَنْصُرَهُم، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿**أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا**﴾... إلى قوله: ﴿**وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ**﴾ فَعَرَضَ لَهُمْ بِالتَّوبَةِ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ**﴾ هُمُ الَّذِينَ قَالُوا هَذَا أَنْ يَتُوبُوا إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ»[٢].

- وأخرج أبو نعيم والديلمي من طريق مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيهِ أَجْراً إِلاَّ المَوَدَّةَ فِي القُرْبَى أَنْ تَحْفَظُونِي فِي أَهْلِ بَيْتِي وَتَوَدُّوهُم بِي**»[٣].

- وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني وابن مردويه بسند ضعيف من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿**قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ**﴾ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ قَرَابَتُكَ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ وَجَبَتْ مَوَدَّتُهم؟ قَالَ صلى الله عليه وآله: **عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ**

---

(١) الدر المنثور: ج٦، ص ٦.

(٢) المصدر السابق: ص٦.

(٣) المصدر السابق: ص٧.

وَوَلَدَاهَا»[١].

- وأخرج سعيد بن منصور عن سعيد بن جبير ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قال: «قُرْبَى رَسُولَ الله ﷺ»[٢].

- وأخرج ابن جرير عن أبي الديلم قال: «لَمَّا جِيءَ بِعَلِيٍّ بْنِ الحُسَيْنِ فَأُقِيمَ عَلَى دَرَجِ دِمَشْقَ، قَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ الَّذِي قَتَلَكُمْ وَاسْتَأْصَلَكُمْ وَقَطَعَ قَرْنَ الفِتْنَةِ، فَقَالَ لَهُ عَلِيٌّ بْنُ الحُسَيْنِ عليه السلام: أَقَرَأْتَ القُرْآنَ؟ قَالَ: نعَمْ، قَالَ عليه السلام: أَقَرَأْتَ: الـ﴿حمٓ﴾؟ قَالَ: لا، قَالَ: أَمَا قَرَأْتَ: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ قَالَ: فَإِنَّكُمْ لأَنْتُمْ هُمْ؟ قَالَ عليه السلام: نَعَم»[٣].

- وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس: «﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ قَالَ: المَوَدَّةُ لآلِ مُحَمَّدٍ ﷺ»[٤].

- وأخرج أحمد والترمذي وصححه والنسائي والحاكم عن المطلب بن ربيعة رضي الله عنه قال: «دخل العباس على رسول الله ﷺ فقال: إنا لنخرج فنرى قريشا تحدث فإذا رأونا سكتوا، فغضب رسول الله ﷺ ودر عرق بين عينيه، ثم قال ﷺ: وَاللهِ لَا يَدْخُلُ قَلْبَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ إِيمَانٌ حَتَّى يُحِبَّكُم للهِ وَلِقَرَابَتِي»[٥].

- وأخرج مسلم والترمذي والنسائي عن زيد بن أرقم: أن رسول الله ﷺ قال: «أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي»[٦].

- وأخرج الترمذي وحسنه وابن الأنباري في المصاحف عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُم مَا إِنْ تَمَسَّكتُم بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعظَمُ مِنَ الآخَرِ: كِتَابَ اللهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّماءِ إِلَى الأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيتِي وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوضَ، فَانْظُرُوا كَيفَ تُخلِفُونِي فِيهِمَا»[٧].

---

(١) الدر المنثور: ج٦، ص٧.
(٢) المصدر: ج٦، ص٧.
(٣) المصدر: ج٦، ص٧.
(٤) المصدر: ج٦، ص٧
(٥) المصدر: ج٦، ص٧
(٦) المصدر: ج٦، ص٧.
(٧) المصدر: ج٦، ص٧.

- وأخرج الترمذي وحسنه والطبراني والحاكم والبيهقي في الشعب عن ابن عباس: قال: قال رسول الله ﷺ: **«أَحِبُّوا اللهَ لِمَا يَغْذُوكُم بِهِ مِنْ نِعْمِهِ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ الله، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي»**(١).

- وأخرج البخاري عن أبي بكر قال: «ارْقُبُوا مُحَمَّداً ﷺ فِي أَهْلِ بَيْتِهِ»(٢).

- وأخرج ابن عدي عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: **«مَنْ أَبْغَضَنَا أَهْلَ البَيْتِ فَهُوَ مُنَافِقٌ»**(٣).

- وأخرج الطبراني عن الحسن بن علي قال: قال رسول الله ﷺ: **«لاَ يَبْغُضُنَا أَحَدٌ وَلاَ يَحْسِدُنَا أَحَدٌ إِلاَّ ذِيدَ يَومَ القِيَامَةِ بِسِيَاطٍ مِنْ نَارٍ»**(٤).

- وأخرج أحمد وابن حبان والحاكم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: **«وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لاَ يَبْغُضُنَا أَهْلَ البَيتِ رَجُلٌ إِلاَّ أَدْخَلَهُ اللهُ النَّارَ»**(٥).

- وأخرج الطبراني والخطيب من طريق ابن الضحى عن ابن عباس قال: «جَاءَ العَبَّاسُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: إِنَّكَ قَدْ تَرَكْتَ فِينَا ضَغَائِنَ مِنْذُ صَنَعتَ الَّذِي صَنَعْتَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **لاَ يَبْلغُوا الخَيرَ أَو الإِيمَانَ حَتَّى يُحِبُّوكُم**»(٦).

- وأخرج الخطيب عن طريق أبي الضحى عن مسروق عن عائشة قالت: «أَتَى العَبَّاسُ بنُ عَبدُ المُطَّلِبِ رَسُولَ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنَّا لَنَعرِفُ الضَّغَائِنَ فِي أُنَاسٍ مِنْ قَومِنَا مِنْ وَقَائِعَ أَوْقَعْنَاهَا، فَقَالَ ﷺ: **«أَمَا وَالله إِنَّهُم لَنْ يَبلُغُوا خَيراً حَتَّى يُحِبُّونَكُم لِقَرَابَتِي. تَرجُو سُلَيمٌ شَفَاعَتِي وَلاَ يَرْجُوهَا بَنُو عَبْدَ المُطَّلِبِ؟!»**(٧).

حكمة طلب الأجر

ويتساءل البعض: كيف طلب رسول الله على رسالته أجرا، أفلم تكن له أسوة بسائر الأنبياء عليهم السلام الذين اتفقت كلمتهم على ألا يطالبوا أممهم بأجر، قال الله سبحانه على لسان

(١) الدر المنثور: ج٦ ص٧.
(٢) المصدر: ج٦، ص٧.
(٣) المصدر: ج٦، ص٧.
(٤) المصدر: ج٦، ص٧.
(٥) المصدر: ج٦، ص٧.
(٦) المصدر: ج٦، ص٧.
(٧) المصدر: ج٦، ص٧.

أكثر من نبي: ﴿وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ ونجد الآية ذاتها مكررة في سورة الشعراء[1].

وقد حدا هذا الاعتراض ببعض الرواة إلى تغيير التفسير السابق إلى تفاسير أخرى، بعضها بعيدة عن قيم الرسالات الإلهية. ولكن إذا عرفنا أن الإسلام هو آخر تجل لنور الرسالة، وأنه كان بحاجة إلى قيادة شرعية نابعة من قيمه الربانية، تحافظ عليه من زيغ المترفين، وإلحاد الطغاة، وضلالة الجاهلين، وأن الله الذي أحكم تدبيره في خلقه قد اختار لرسالته من يحمل مشعلها من أهل بيت الرسول ﷺ كما اجتبى من آل إبراهيم وآل يعقوب من يحمل مشعل الرسالة من بعدهما.. إذا عرفنا كل ذلك فإننا نهتدي إلى الحكمة البالغة وراء جعل المودة في القربى أجرا للرسالة، إذ إن الهدف منها ولاء القيادة الشرعية التي تحمل مشعل الرسالة، وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا﴾ [الفرقان:٥٧]، فالأجر هو السبيل إلى الله، والأجر في الآيات الشريفة هنا هو ﴿ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾، فإذن هو في معنى اصطفاء آل ابراهيم وآل عمران لحمل الرسالة.

فمن أراد أن يشكر رسول الله على الأذى الكبير الذي يتحمله من أجل تبليغ الرسالة حتى قال ﷺ: «مَا أُوْذِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ مَا أُوْذِيْتُ»[2]، فلا شكر أفضل من محبة أهل بيته الذين يحملون ذات الرسالة ويبلغونها للناس.. وهكذا يكون أجر الرسالة في مصلحة الناس أنفسهم، ولهذا قال ربنا سبحانه: ﴿قُلۡ مَا سَأَلۡتُكُم مِّنۡ أَجۡرٖ فَهُوَ لَكُمۡۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٞ﴾ [سبأ:٤٧].

ولأن البعض لم يستوعبوا هذه الحكمة تكلفوا في تفسير الآية بما لا يتناسب وسياقها، وأُثيرت تساؤلات نتوقف عند بعضها:

الأول: التكلف في التفسير؛ فقالوا، لأن نبينا ﷺ كان من أوسط قريش نسبا، وكانت له قرابة في أكثر قبائلها، فقد سألهم أن يودوه لأجل قرابته معهم، وقد نقل هذا التفسير عن ابن عباس في الحديث التالي: «إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ كَانَ وَاسِطَ النَّسَبِ فِي قُرَيْشٍ، لَيْسَ بَطْنٌ مِنْ بُطُونِهِمْ إلاَّ وَقَدْ وَلَدُوْهُ فَقَالَ اللهُ: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ عَلَى مَا أَدْعُوكُمْ إِلَيْهِ ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ تَوَدُّونِي لِقَرَابَتِي مِنْكُمْ، وَتَحْفَظُونِي بِهَا»[3].

---

(١) راجع الآيات: (١٤٩، ١٢٧، ١٤٥، ١٦٤، ١٨٠).
(٢) بحار الأنوار: ج٣٩، ص٥٥.
(٣) الدر المنثور: ج٦، ص٦.

وعندي أن هذه النصوص لا تصلح تفسيرا للقرآن للأسباب التالية:

١- إن الآية من محكمات الذكر التي لا تدع شكا في معناها لمن تدبر فيها وفي سياقها من الآيات، والمحكم لا ريب فيه، ولا يجوز أن نتحول عنه اعتمادا على الحديث.

٢- إن دعوة الرسول كانت خالصة لله وطاهرة من كل قيمة مادية وعصبية عشائرية فكيف يدعو قومه لاتباعه باسم العصبية ولأنه ينتسب إليهم، فهل تصلح لداعية من سائر الدعاة اليوم أن يدعو ابنه إلى اتباعه لأنه أبوه مثلا، أو يدعو عشيرته لقبول الإسلام لأنه قريب نسبيا إليهم، وأكثر الأنبياء كانوا من بني قومهم، فلماذا لا نجد مثل هذا الكلام من أي واحد منهم، وإنما نجد الجميع يؤكدون بأنهم لا يطالبون من قومهم أجرا.

٣- إن الكلام في الآية ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰۗ﴾ حسب تلك النصوص لا يبدو متناسقا!، فما هي العلاقة بين أجر الرسالة وبين قبول الدعوة بسبب المودة في القربى، أليس هذا يشابه كلام من يأمر بالصلاة ويقول: لا أسألكم أجرا إلا أن تصلوا لأني أخوكم؟!.

ولعدم تناسق المعنى نجد الذين يذهبون إلى هذا الرأي يحتارون في كيفية ربط معنى الأجر بفكرة قرابة الرسول مع قريش.

٤- وأخيرا إن الأحاديث التي رويت في تفسير الآية بمودة آل بيت الرسول أكثر عددا، وأقوى سندا، وأشد تماسكا، لو قسناها بالروايات الأخرى التي لا تماسك بينها، إذ إنها مختلفة اختلافا كبيرا، بينما تفسر الآية بهذا المعنى أي أن يطالب ﷺ قريش بمودته لقرابته، أو بأن الرسول طالبهم بطاعة الله، أو فسرها بأن تودوا الله، وأن تتقربوا إليه بطاعته[1]. ومن جهة على هذا ينبغي البحث عن كيفية استفادة تلك المعاني من كلمة المودة في القربى.

وبتفصيل أكثر: الروايات التي وردت عبر مختلف الفرق الإسلامية حول تفسير هذه الآية بآل البيت عليهم السلام تبلغ أكثر من (٤٤) حديثا، روي زهاء (١٩) منها عن طريق أهل البيت عليهم السلام وفي كتب شيعتهم[2] وروي (٢٦) حديثا من سائر كتب الحديث. بينما يبلغ مجمل الروايات المعارضة لها (٦) أحاديث فقط، وفيها اختلاف كبير، بل نجد في رواية منها ينسب إلى سعيد بن جبير الرأي المشهور المخالف لتلك النصوص. فهل يجوز ضرب (٤٤) حديثا موحدا في المعنى بـ(٦) أحاديث مختلفة فيما بينها أشد الاختلاف؟.

---

(١) راجع تلك الأحاديث في كتاب الدر المنثور.

(٢) راجع تفسير نور الثقلين: ج٤، ص٥٧٠-٥٧٦.

أن كلمة ﴿ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ وردت في (١٥) موضعا من القرآن بمعنى أقارب الفرد، مما يؤيد ذات المعنى المختار هنا أيضا. وأن هذه الأحاديث (٦) المنافية للمختار ليست نصوصا شرعية، لأنها لم ترو عن رسول الله ﷺ، وإنما هي اجتهادات الجيل الأول من المفسرين -إن صحت النسبة-، بينما الطائفة الأولى من النصوص مروية في الأغلب عن شخص رسول الله ﷺ.

ومن هنا نجد المفسر المعروف الشوكاني يقول في تقرير هذا المعنى: ولكنه يشد من عضد هذا. أنه تفسير مرفوع إلى رسول الله ﷺ وإسناده عند أحمد في المسند هكذا: حدثنا حسن بن موسى حدثنا قزعة بن سويد عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس: أن النبي ﷺ... فذكره، ورواه ابن أبي حاتم عن أبيه عن مسلم بن إبراهيم عن قزعة به، وأخرج ابن المبارك وسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني و ابن مردويه وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب[1].

الثاني: هل ينبغي طلب الأجر على التبليغ؛ وتساءل الإمام الرازي كيف يجوز للرسول أن يطلب الأجر من أمته على تبليغ الرسالة، أفلا اقتدى نهج أخوته من المرسلين؟ فأجاب قائلا: الجواب عنه من وجهين:

الأول: إن هذا من باب قوله:

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم		بها من قراع الدارعين فلول

المعنى أنا لا أطلب منكم إلا هذا، وهذا في الحقيقة ليس أجرا لأن حصول المودة بين المسلمين أمر واجب، قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ﴾[التوبة:٧١]، وقال ﷺ: «المُؤْمِنُونَ كَالْبُنيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُم بَعْضاً»[2]. والآيات والأخبار في هذا الباب كثيرة، وإذا كان حصول المودة بين جمهور المسلمين واجبا فحصولها في حق أشراف المسلمين وأكابرهم أولى، وقوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ تقديره والمودة في القربى ليست أجرا، فرجع الحاصل إلى أنه لا أجر البتة.

الثاني: في الجواب: أن هذا استثناء منقطع، وتم الكلام عند قوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾، ثم قال: ﴿إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ أي لكن أذكركم قرابتي منكم، وكأنه في اللفظ أجر وليس بأجر.

---

(١) تفسير فتح القدير: ج٤ ص٥٣٧.
(٢) جامع الأخبار: ص٨٥.

ومضى المفسر المعروف قُدُما في تقرير الجواب وقال: نقل صاحب الكشاف عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَاتَ شَهِيداً، أَلا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَاتَ مَغْفُوراً لَهُ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَاتَ تَائباً، أَلا وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ مُؤمناً مُسْتكمِلَ الإِيمانِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ بَشَرَّهُ مَلَكُ المَوتِ بِالجَنَّةِ ثُمَّ مُنْكَرٌ وَنكِيرٌ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ يُزَفُّ إِلى الجَنَّةِ كَمَا يُزَفُّ العَرُوسُ إِلى بَيتِ زَوْجِها، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ فُتِحَ لَهُ فِي قَبْرِه بَابَانِ إِلى الجَنَّةِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ جَعَلَ اللهُ قَبْرَهُ مَزارَ مَلائِكةِ الرَّحْمَةِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى حُبِّ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ عَلَى السُّنَةِ وَالجَماعَةِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ جَاءَ يَومُ القِيامَةِ مَكْتُوباً بَيْنَ عَينَيهِ آيسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ مَاتَ كَافِراً، أَلاَ وَمَنْ مَاتَ عَلَى بُغْضِ آلِ مُحَمَّدٍ لَمْ يَشَمَّ رَائِحَةَ الجَنَّةِ».

ويضيف الامام الرازي: هذا هو الذي رواه صاحب الكشاف، وأنا أقول آل محمد ﷺ هم الذين يؤول أمرهم إليه، فكل من كان أمرهم إليه أشد وأكمل كانوا هم الآل، ولا شك أن فاطمة وعليا والحسن والحسين كان التعلق بينهم وبين رسول الله ﷺ أشد التعلقات، وهذا كالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل، وأيضا اختلف الناس في الآل فقيل هم الأقارب وقيل هم أمته، فإن حملناه على القرابة فهم الآل، وإن حملناه على الأمة الذين قبلوا دعوته فهم أيضا آل، فثبت أن على جميع التقديرات هم الآل، وأما غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل؟، فمختلف فيه، وروى صاحب الكشاف: أنه لما نزلت هذه الآية قيل: «يَا رَسُولَ اللهِ مَنْ قَرَابتُكَ هَؤُلاَءِ الَّذِينَ وَجَبَتْ عَلَينَا مَودتُهم، فَقَالَ: عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَابْنَاهُمَا»، فثبت أن هؤلاءِ الأربعة أقارب النبي ﷺ، وإذا ثبت هذا وجب أن يكونوا مخصوصين بمزيد التعظيم، ويدل عليه وجوه:

الأول: قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ﴾، ووجه الاستدلال به ما سبق.

الثاني: لا شك أن النبي ﷺ كان يحب فاطمة عليها السلام، قال ﷺ: «إِنَّمَا فَاطِمَةُ بَضْعَةٌ مِنِّي يُؤْذِينِي مَا آذَاهَا»[1].

وثبت بالنقل المتواتر عن محمد ﷺ أنه كان يحب عليا والحسن والحسين، وإذا ثبت ذلك وجب على كل الأمة مثله لقوله: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف:١٥٨]، ولقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ [النور:٦٣]، ولقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران:٣١]، ولقوله سبحانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٩ ص٣٣٦ عن البخاري ومسلم.

أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ [الأحزاب:٢١].

الثالث: أن الدعاء للآل منصب عظيم، ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهد في الصلاة، وهو قوله: اللهم صل على محمد وآل محمد، وارحم محمدا وآل محمد، وهذا التعظيم لم يوجد في حق غير الآل، فكل ذلك يدل على أن حب آل محمد واجب، وقال الشافعي ﷺ [1]:

يا راكبا قف بالمحصب من منى	واهتف بساكن خيفها والناهض
سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى	فيضا كما نظم الفرات الفائض
إن كان رفضا حب آل محمد	فليشهد الثقلان أني رافضي

ثانيا: مودة القربى في سياق الوحدة

لماذا أمرنا بمودة القربى في هذا السياق يحدثنا عن نبذ الخلاف، والتمسك بالوحدة؟

حين نتدبر في مجمل آيات الذكر نجد سياقها لا يذكرنا بالداء إلا ويشفعه ببيان الدواء، فإذا كان داء الاختلاف ناشئا من التشريع البشري، كما قال ربنا: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ فإن دواء الاختلاف هو مودة القربى الذين هم امتداد قيادة الرسول، فأفضل الناس أقربهم إلى الرسول منهجا وعملا، وهم أهل بيته ثم العلماء من أمته الأمثل فالأمثل، وهم البديل الإلهي للشركاء الذين يشرعون بغير إذن الله. فمن اتبع القيادة الشرعية التي أمر الله باتباعها كان كمن ركب سفينة نوح أمن ونجا، ومن خالفها فقد تخلف عن السفينة فغرق في طوفان الشرك والهوى. ونجد هذا المنهج في قول ربنا سبحانه في سورة آل عمران: ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران:١٠٣]. فلا بد إذا من حبل الله نعتصم به حتى نوحد صفوفنا، وهو قيادة الرسل و أوصيائهم، ثم الأمثل فالأمثل من شيعتهم والتابعين لنهجهم.

ومن هنا نعرف أن المودة هنا هي ضمان الطاعة، فلو لا حب الله ما تيسرت للعبد طاعته، ولولا حب الرسول ما سهل على المسلمين اتباعه، ولولا حب آل الرسول ما تسنى للمؤمنين التمسك بهم، ذلك لأن الحب هو ذلك الانسجام النفسي الذي يحدث بين شخصين، وهو يقتضي الطاعة للحبيب بشوق وبلا تكلف، يقول الشعر الحكيم[2]:

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي: ج٢٧ ص١٦٥ - ١٦٦.

(٢) وسائل الشيعة: ج١٥، ص٣٠٨.

تَعْصِي الإِلَهَ وأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَذَا مُحَالٌ فِي الفِعَالِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقاً لأَطَعْتَهُ ... إِنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

وجاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «هَلِ الدِّينُ إِلَّا الحُبُّ»[1].

وكثيرة آيات الذكر وأحاديث الرسول التي تأمر بطاعة القيادة الشرعية المتمثلة في أهل البيت عليهم السلام كقوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾[النساء:٥٩]، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣]. وقول الرسول صلى الله عليه وآله: «النُّجُومُ أَمَانٌ لِأَهلِ الأَرْضِ مِنَ الغَرَقِ، وَأَهْلُ بَيْتِي أَمَانٌ لِأُمَّتِي مِنَ الاخْتِلَافِ فِي الدِّينِ»[2]، ومثل حديث الثقلين المجمع عليه: «إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ كِتَابَ الله وعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي»[3].

إلا أن النصوص التي استفاضت بها كتب التفسير والحديث والتاريخ هي التي تبيِّن فضيلة حب أهل البيت، لأن الحب أعظم درجة من الطاعة، فقد تطيع شخصا مكرها، ولكن إذا أحببته فإن طاعتك له تكون أيسر وأسمى. ألا ترى كيف أن الله يصف أفضل عباده -وهم حزبه المفلحون- بأنهم يحبون الله ويحبهم الله فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة:٥٤]، وليس الحب إلا الطاعة: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١]. بلى، حُبُّ الله أسمى درجات الإيمان، وحُبُّ الرسول وأهل بيته أسمى درجات التسليم للحق و التمسك بحبل الله، وبالتالي أفضل ضمان للوحدة.

ثالثاً: لماذا المودة بالذات؟

ويستدرجنا السياق إلى السؤال الثالث: لماذا أمرنا السياق هنا بالمودة للقربى بينما كلمة الطاعة أكثر صراحة وأقرب إلى حسم الخلاف؟ ولعل الإجابة الصحيحة تلخص في أمرين:

أولاً: لأن جذر الاختلاف بين الناس كامن في القلب، وأعظم أسبابه الحب والبغض، فالكبر و الحسد والعصبيات القبلية والقومية والسياسية والأحقاد المتوارثة والجهالات العقيمة

---

(١) الكافي: ج٨ ص٧٩ عن الإمام الباقر عليه السلام، تفسير العياشي: ج١ ص١٦٧ عن الإمام الباقر عليه السلام.
(٢) المستدرك للحاكم النيسابوري: ج٣، ص١٤٩ حيث عقب عليه بقوله: «هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه». أي البخاري ومسلم.
(٣) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص٣٣.

هي وراء أكثر الاختلافات، وإذا لم تزك القلوب من آثارها فإن الخلاف لا يقضى عليه حتى في إطار الأهداف الواحدة والمصالح المشتركة. ومما يساهم في تصفية جزء كبير من أمراض القلب حب أولياء الله حيث يغمر نوره القلوب فيفيض حتى يشمل طائفة المحبين جميعا. إن حب الرسول يجعلنا نحب كل تابعيه، وحب أهل بيته يسري إلى محبيهم حتى يصبحوا حزبا إلهيا واحدا، ويتحابوا في الله، ويتزاوروا في الله، ويتعارفوا في سبيل الله. هكذا شبه الرسول حبهم بسفينة نوح التي وحدت بين راكبيها، كما حملتهم إلى بر الأمان. إنهم الحبل الذي يشد أزر المتمسكين ببعضهم، إنهم النجوم التي توحد مسيرة المهتدين بهم. ولأن طاعة أهل البيت، والتمسك بالقيادة الشرعية الرائدة، تقتضي جهاد المشركين، ومقاومة الطغاة والمترفين، وتحدي تيار الفساد والضلال، وبالتالي تقتضي هذه الطاعة الجهاد والإيثار والشهادة، فقد جعل الله منطلقه الحب الذي به يسهل كل صعب، بل ويتلذذ الحبيب بما يبذله في سبيل من يحب.

ألم يأتك نبأ أهل الإيثار[1] في سوح القتال، كيف استساغوا شراب الموت، وكان عندهم أشهى من العسل، لأنهم اتبعوا نهج إمامهم الحسين عليه السلام الذي قال وهو يعالج سكرات الموت تحت ركام من السيوف والخناجر والسهام والحجارة، وقد اشتد به العطش، ووتر بأفضل أهل بيت وأبر أصحاب، قال: «**إِلَهِي صَبْراً عَلَى قَضَائِكَ لاَ مَعْبُودَ سِوَاكَ**»[2].

وقالوا على لسانه:

تركت الخلق طرا في هواك	وأيتمت العيال لكي أراك
فلو قطعتني بالحب إربا	لما مال الفؤاد إلى سواك

ثانياً: الطاعة الحقيقية هي لله، وأما المودة ففي القربى، نحن لا نطيع القيادة لذاتها أنى كانت، إنما نطيعها لأنها امتداد لولاية الله سبحانه و تعالى. الطاعة ليست إلا لله ولمن أمر الله، وهذا يتناسب وأجر الرسالة،، لأن أجر الرسول هو أن يستمر نهجه، حيث كان يتطلع نحو بقاء خطه الرسالي في الأمة، وهذا كان أهم أجر تقدمه الأمة الإسلامية لرسول الله؛ الذي ما ونى لحظة عن تبليغ رسالات ربه، ولا ادخر وسعا حتى أمره الله بألا يهلك نفسه حزنا عليهم، وقال: ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا** ﴾ [الكهف:٦]، وقال: ﴿**طه ۝١ مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ**﴾ [طه:١-٢].

---

(١) أصحاب الإمام الحسين عليه السلام المستشهدين بين يديه في واقعة كربلاء سنة ٦١هـ، في العاشر من محرم الحرام.

(٢) ينابيع المودة: ج٣ ص٨٢.

وإني أعتقد بأن كثيرا من أبناء الأمة الإسلامية قد أقروا عيني رسول الله ﷺ، فالذين استشهدوا في صفين مع الإمام علي عليه السلام، والذين استشهدوا في كربلاء مع الإمام الحسين عليه السلام، و الذين دافعوا عن خط الرسالة على امتداد التاريخ وخلال (١٤) قرنا وحتى اليوم.. والمعذبون في السجون، وشهداء الحق، والمجاهدون في كل حقل، هم شهود على ما أقول. إنهم قدموا لرسول الله الأجر، وليس من الصحيح أن ننظر إلى الجانب السلبي من التاريخ، فليس من المنطقي أن نفتش في الليل عن الظلام فكل العالم ظلام، ولكن يبهر أبصارنا فيه نور القمر، ويلفت انتباهنا ضياء النجوم.

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ توجد في هذه الجملة لفتة فنية بالغة اللطف والدقة تتركز في كلمة ﴿يَقْتَرِفْ﴾، فهذه الكلمة عادة ما تأتي مقارنة للسيئة وليس للحسنة، حتى قالت العرب «الاعتراف يزيل الاقتراف»، فما هو السر في استعمالها هنا؟. إن الاقتراف معناه السعي المكثف للقيام بشيء صعب، وأصل الكلمة نزع لحاء الأشجار أو الجلد الإضافي من الجسم، ولعلها استخدمت هنا لأن السياق يهدي إلى طاعة أولي القربى ومودتهم وهي حسنة بالغة الصعوبة، فمن أجل تطبيق هذه الآية الكريمة أريقت دماء، وأطيحت برؤوس، فليس كل إنسان أهلا لأن يكون من أصحاب المودة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي إن الله سوف يقدر هذا العمل البطولي الشجاع، ويغفر لصاحبه ذنوبه. وهكذا روي عن الإمام الحسن المجتبى عليه السلام أنه قال: «**فَاقْتِرَافُ الحَسَنَةِ مَوَدَّتُنَا أَهْلَ البَيْتِ**»[1]. كما روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**إِنَّمَا نَزَلَتْ فِينَا خَاصَّةً أَهْلِ البَيْتِ فِي عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ وَالحَسَنِ وَالحُسَيْنِ أَصْحَابِ الكِسَاءِ** عليهم السلام»[2]. وروي مثل ذلك عن ابن عباس.

وكلمة أخيرة: لماذا اختار الله أولي القربى لقيادة الأمة؟. هل لأنهم من صلب الرسول، وقد أراد ربنا إكرام نبيه العظيم بذلك، وإيتاء بعض أجره في الدنيا، ليبقى ذكره العطر فواحا في كل عصر، ولكي يتحقق بالتالي ما بشر ربنا به الرسول حين قال: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر:١]، ونهر أعداءه حين قال، ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر:٣]، فهذه سلالة الرسول تزين مجالس المسلمين في كل عصر!.

بلى، ولكن ليس هذا سبب اختيارهم قادة، لأنه ليس كل من انتسب إلى الرسول ﷺ يصلح للإمامة، إنما كان أشخاص معيّنون بالصفات والأمثال اجتباهم الله لإمامة المسلمين، وأشارت إليهم الآيات، وذكرتهم النصوص، وكانوا هم الأقربون إلى رسول الله نهجا وسلوكا،

---

(١) بحار الأنوار: ج٢٣، ص٢٥١.
(٢) بحار الأنوار: ج٤٠، ص٩٤.

قبل أن يكونوا الأقربين إليه نسبا وصهرا، وهم علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، وحين نستقرئ كتب التاريخ والحديث لمختلف الفرق الإسلامية نجدها تؤكد بأن أقرب الناس خلقا وخلقا وعلما و عملا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله هم أهل بيته الذين نزلت فيهم الآية، وسماهم الرسول اسما اسما، كما سبق في النصوص المتقدمة، وليس كل من انتسب إلى رسول الله بنسب الدم والقرابة.

فإذا أكرمنا الصديقة فاطمة الزهراء فليس فقط لأنها بنت رسول الله -وهو شرف عظيم-، وإنما القيمة المثلى فيها هي أنها الصديقة الكبرى التي جسدت رسالة النبي في حياتها، وكذلك الإمام علي عليه السلام، فنحن لا نكرم العباس عم النبي بقدر ما نكرم ابن عمه علي بن أبي طالب لأنه الأقرب إليه نهجا وسلوكا. وكذلك أولاد علي عليه السلام، فله سبعة عشر ولدا نكرم بينهم الإمامين الحسن والحسين ليس فقط لأنهما سبطا رسول الله صلى الله عليه وآله وابنا فاطمة الزهراء عليها السلام، بل لأنهما سيدا شباب أهل الجنة بما قدماه للإسلام من عطاء.. ومن هنا ننطلق إلى الحلقة الثانية وهم الأقرب إلى خط الرسول صلى الله عليه وآله من أصحابه، والأقرب إلى خط الإمام علي عليه السلام من أصحابه، والأقرب إلى خط الحسن والحسين و فاطمة الزهراء والأئمة عليهم السلام من أصحابهم، ثم الأقرب إلى خطهم في التاريخ، ومن هنا جاء في الحديث المعروف: «**الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاء**»[1].

من هم العلماء الذين يشير إليهم هذا الحديث؟ إنهم أولئك الذين يسيرون في خط رسول الله و أهل بيته، لأن القرآن يقول: ﴿**إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [آل عمران:٦٨]. فأولى الناس بإبراهيم عليه السلام ليس أبناء إبراهيم عليه السلام، وإنما هم الذين اتبعوا إبراهيم عليه السلام. وكذلك أولى الناس بمحمد وآله هم الذين اتبعوهم واتخذوهم قدوة لهم، ومن هنا جاء في الحديث المأثور عن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام: «**وَلَايَتِي لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ** عليه السلام **أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ وِلَادَتِي مِنْهُ لِأَنَّ وَلَايَتِي لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ فَرْضٌ وَوِلَادَتِي مِنْهُ فَضْلٌ**»[2].

بلى، حين يريد الله أن يجعل رسالته في ذرية طيبة بعضها من بعض، يختار ذرية الرسول أكرم الخلق عنده، وأفضلهم لديه، فيطهرهم من الدنس، ويذهب عنهم الرجس، ويصطفيهم لدينه، كما اصطفى آل إبراهيم وآل عمران شخصا شخصا. وهكذا اجتبى ربنا أئمة هذه الأمة من آل الرسول صلى الله عليه وآله.

---

(١) الكافي: ج١، ص٣٢.
(٢) بحار الأنوار: ج٣٩، ص٢٩٩.

[٢٤] كلما ذكرنا ربنا بأمر عظيم نَهَرَ المكذبين بالقرآن الذين اتهموا رسوله بالافتراء، لماذا؟، لأن التبرير الشائع الذي يلتجئ إليه مرضى القلوب للهروب من مسؤوليات قبول أوامر الرسالة المستصعبة هو التكذيب بها. وهكذا حين جاء الأمر بأداء أجر الرسالة في المحافظة عليها عبر مودة القربى ثارت عصبية البعض، وقالوا: إنما قال هذا لنقاتل عن أهل بيته وننصرهم، فأنزل الله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾[1].

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ إنه لقول عظيم، كيف ينسبون إلى رسول الله الصادق الأمين الكذب، وبالذات حين يتمثل في الافتراء على الله، وهم يعرفون مدى تفانيه في الله؟ ثم هل من المعقول أن يدع الله رسوله الذي اختاره بعلم، وأسبغ عليه نعمة الرسالة، وأولاه بالنصر، وأظهر على يده الآيات، هل يدعه يتقوَّل عليه؟! كلا.. إنه إن يشأ يعاقبه، وأبسط العقاب هو سلب رسالته منه، بأن يختم على قلبه فلا يكاد يعرف شيئا. ﴿فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ ونستوحي من الآية: أن من يفتري على الله يعاقبه الله بالختم على قلبه، فيسلبه حلاوة مناجاته، ولذة التقرب إليه.

ومن سنن الله في الحياة إزهاق الباطل، وإحقاق الحق.. وهذا دليل على أن رسالة الله حق، ورسوله صادق أمين. ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ إن من أدلة صحة الرسالة أن كلمات الله في القرآن ليست من أجل الرسول أو من أجل قومه و عشيرته أو مصالحه، أو مصالح فئة معينة، إنما من أجل الحق، تتطابق مع السنن الجارية في الخلق، فهي باقية، بينما الثقافات الأخرى تنتهي حينما تزول عوامل نشوئها، فإذا كانت ناشئة الطبقية أو العنصرية أو القومية زالت حين تتبدل الدولة الحاكمة، وإذا كانت ناشئة الخرافات والجهالات والعصبيات زالت بزوالها، وهكذا ترى كلمات الله في القرآن لا تؤثر فيها المتغيرات أنّى كانت، لأنها ناشئة الحق الذي لا يتغير، مما يدل على أن هذا القرآن هو الصحيح، وأن تلك الثقافات هي الباطلة.

﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ إن الله يعلم ما في صدورنا لذلك فهو يعالج الجوانب السلبية مما في صدورنا بالجوانب الإيجابية، يعالج شهواتنا وأهواءنا بما أركزه في قلوبنا من العقل والمعرفة.

[٢٥] مهما كان الإنسان حذرا فإنه لا يمكنه اتقاء السقطات، وهذا دليل على أن الإنسان ليس بإله، وأن الضعف طبيعة فيه، لذلك فإن الله يقبل التوبة عن عباده. أوليس هو الخالق

(١) الدر المنثور: ج٦، ص٦.

ويعلم تكوين الإنسان الجسمي والنفسي، وأنه ضعيف أمام أمواج الشهوات، وضغوط الحياة؟ ولكن المؤمنين هم الذين يستعيدون إيمانهم بسرعة، وينهضون من سقطتهم، بالتوبة إلى الله، لما يعرفونه من عظيم مغفرته، وواسع رحمته. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ فإذا عادوا إليه استقبلهم بترحاب. ﴿وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ فحينما تفعل سيئة بعد سيئة فإن السيئات تتراكم على ذهنك، ويكون لها آثار سلبية على واقعك، ولكن رحمة الله الواسعة تأتي لتطهر قلبك منها. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فأنت بين التوبة إلى ربك أو انتظار عقابه لأنه يعلم ما تفعل فلا تستطيع كتمانه.

[٢٦] ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ ماذا يستجيب لهم؟ السياق يوحي بأن المؤمنين بولاية الله والمسلمين لإمامة الحق يتعرضون لضغوط هائلة، فإذا انهاروا ثم تابوا قبل الله التوبة منهم، وعفا عن سيئاتهم، وإذا طلبوا من ربهم النصر انتصر لهم، وزادهم من فضله. وهذا أحد مصاديق الآية، إلا أن الآية تسع كل دعوات المؤمنين، وبالذات حين تكون لبعضهم البعض، وقد وردت رواية بذلك حيث فسرت الآية بالشفاعة في ما بين المؤمنين، ولا ريب أن دعاء المؤمنين لبعضهم نوع من الشفاعة، بل هو الشفاعة. فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله في قوله: ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ **الشَّفَاعَةَ لِمَنْ وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ مِمَّنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ فِي الدُّنْيَا**»[1]. ويحفّزنا هذا التفسير على المزيد من التعاون بين بعضنا البعض، لأن آثار التعاون تمتد من الدنيا حتى الآخرة، ولعل الواحد منا قد استحق النار بعمله إلا أن ربنا يغفر له بدعاء إخوانه. أما أولئك الذين لم يستجيبوا لنداء الله ودعوة الحق فليس لا يستجيب الله دعاءهم فحسب، وإنما هم يعرضون أنفسهم أيضا لعقاب الله وعذابه الأليم ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٤ ص٤٩.

ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض

﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ (٢٧) وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ (٢٨) وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ (٢٩) وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ (٣٠) وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٣١) وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ[1] فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ[2] (٣٢) إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٣٣) أَوْ يُوبِقْهُنَّ[3] بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ (٣٤) وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ (٣٥) فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) ﴾.

هدى من الآيات:

لتطهير القلب من درن الحرص والكبر، ولاقتلاع جذور البغي والخلاف، يذكرنا ربنا- في هذه الآيات- بأن الله إنما ينزل الرزق بقدر لأن الناس يبغون على بعضهم لو بسط الله لهم الرزق. فتقدير الرزق من الله، ولا داعي للحرص، ولا للصراع من أجله، وتحديده من أجل

(١) الجوار: جمع جارية وهي السفينة سميت بها لجريها في الماء.

(٢) كالأعلام: جمع علم وهو الجبل الطويل.

(٣) أو يوبقهن: أي يهلك السفن بأن يجعل الريح عاصفة حتى تغرقها، والإيباق الإتلاف والإهلاك.

مصلحة البشر. وحري بالإنسان التوكل على الله. ألا يرى كيف يرزقه؟.

وهو الذي ينزل عليه الغيث في أوقات المحنة حيث يستبد به القنوط، فهو الولي الحميد، ولا بد من النزوع عن الحرص، وتفويض الأمور إليه.

وكلما عظم الخالق في قلب الإنسان تضاءل ما سواه في عينه، وتواضع للحق أكثر فأكثر، انظر إلى آثار عظمة ربك وهو الذي خلق السماوات والأرض ونشر فيهما أنواعا لا تحصى من المخلوقات المتحركة، وحين يشاء يجمعهم بقدرته.

ورزق الإنسان كما سائر جوانب حياته يخضع لسعيه ونوعية عمله، وما أصاب أحدا من مصيبة فبما كسبته يداه، بينما يعفو عن كثير، فلو عاجلهم بذنوبهم لأفناهم جميعا. ولا أحد يقدر على منع الكوارث عن نفسه إذا أراد الله أن يأخذ بذنوبه، ولا أحد يدافع عنه أو ينصره من دون الله. وإن قدرة الله محيطة بالبشر، فإذا ركبوا في البحر وجرت الرياح بهم إلى أعالي البحار أرأيت لو شاء الله وأسكن الريح أليس تبقى سفنهم هنالك دون حراك؟!. وإنما يعي هذه الحقيقة الذي يتعالى عن ضغط النقمة وإغراء النعمة أي الصبار الشكور.

والله قادر على أن يهلك الناس بسفنهم في عرض البحر بسبب ذنوبهم، ولكنه يعفو عن كثير من خطاياهم. إذا لماذا الجدال في أمر الله وتحدي أحكامه؟. إن كل ذلك يكفي آية لهؤلاء المجادلين في آيات الله أنهم لا يملكون عن ربهم مهربا.

ثم لماذا الحرص على الدنيا والصراع من أجلها وهي لا تساوي شيئا!، فما أوتيتم من شيء ليس سوى متاع الحياة الدنيا التي لو قيست بالآخرة لم تكن شيئا، لأن الآخرة أفضل وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، فينزعون جلباب الكبر، ويتعالون على الحرص، ولا يثيرون الخلاف من أجل الدنيا.

بينات من الآيات:

[٢٧] إذا كان الرب يحب عباده فلماذا لا ينشر رحمته عليهم أكثر فأكثر؟، ولماذا لا يملأ الأرض رحمة ورخاء؟.

ذلك لأنه عالم بطبيعة البشر، فلو أعطاهم أكثر من قدرتهم على الاستيعاب لبغوا في الأرض، و انحرفوا عن الحق، فمن رحمة الله على العباد أنه لا يرزقهم دفعة واحدة، وإنما يرزقهم قدر حاجتهم واستيعابهم.. ﴿ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ إن

نفس الإنسان قبل ترويضها بالقيم السامية جموحة، وقد كبح الله جماحها بالحاجة إلى الرزق، ولولاها لدفعها البغي إلى الفساد والشقاء، كما نجدها تطغى حين تشعر بالاستغناء، حتى وإن كان هذا خاطئا، حسب ما قال ربنا: ﴿ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴾ [العلق:٦-٧].

﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ ومن أخبر من الله بعباده، الذين خلقهم حسبما شاء، وأركز في وجودهم الغرائز كيفما أراد، وهيمنته العلمية بالغة فهم على عينه وبصره سبحانه. وكل فرد يجري له الرب الرزق بقدر لا يدعوه إلى الطغيان، وقد جاء عن أنس عن النبي ﷺ عن جبرائيل عن الله جل ذكره: «**وَإِنَّ مِنْ عِبَادِيَ الْمُؤْمِنِينَ لَمَنَ لاَ يَصْلُحُ إِيمَانُه إِلاَّ بِالفَقْرِ وَلَو أَغْنَيْتُهُ لأَفْسَدَهُ ذَلِكَ وإِنَّ مِنْ عِبَادِيَ الْمُؤْمِنِينَ لَمَنَ لاَ يَصْلُحُ إِيمَانُهُ إِلاَّ بِالغِنَى وَلَوْ أَفْقَرْتُهُ لأَفْسَدَهُ ذَلِكَ وإِنَّ مِنْ عِبَادِيَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَنَ لاَ يَصْلُحُ إِيمَانُه إِلاَ بِالسُّقْمِ وَلَو صَحَّحْتُ جِسْمَهُ لأَفْسَدَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ مِنْ عِبَادِيَ الْمُؤْمِنِينَ لِمَنَ لاَ يَصْلُحُ إِيمَانُه إِلاَّ بِالصِحَّةِ وَلَوَ أَسْقَمْتُهُ لأَفْسَدَهُ ذَلِكَ إِنِّي أُدَبِّرُ عِبَادِيَ بِعَلمِي بِقُلُوبِهِم فَإِنِّي عَلِيمٌ خَبِيرٌ**»[١].

وعن الإمام الحسن عليه السلام قال: «**أَرْزَاقُ الخَلاَئِقِ فِي السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ تَنْزِلُ بِقَدَرٍ وَتُبْسَطُ بِقَدَرٍ**»[٢]. وقال الإمام الصادق عليه السلام: «﴿ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ **لَو فَعَل (أَيْ بَسَطَ رِزقَهُ) لَفَعَلُوا (أَيْ لَبغَوْا فِي الأَرْضِ) وَلَكِنْ جَعَلَهُم مُحْتَاجِينَ بَعْضُهُم إِلَى بَعْضٍ وَاسْتَعْبَدَهُم بِذَلِكَ وَلَو جَعَلَهُم كُلَّهُم أَغْنيَاءَ لَبَغوُا فِي الأَرْضِ** ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ﴾ **مِمَّا يَعْلَمُ أَنَّهُ يُصْلِحُهُم فِي دِينِهِم وَدُنيَاهُم** ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾»[٣].

[٢٨] ومظهر آخر لحكمة الله في تدبير الحياة، الغيث الذي يمنعه عن العباد أو يرسله إليهم حسب حاجتهم واستحقاقهم واستيعابهم، فبعد أن يجتاحهم القنوط، وتكبح صفة الكبر من أنفسهم، و تمنع عنه صفة الطغيان، لأنهم لم يقدروا على تحصيل الماء بطريقة أخرى، بعدئذ يرسل الغيث، وينشر عليهم رحمته من خلال الغيث.. وهذه آية من آيات الهيمنة والحكمة. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُواْ﴾ وختم اليأس على أفئدة الناس جميعا. وهنا تتجلى بوضوح بلاغة القرآن حيث تتوازى فيه كلمة الغيث التي تعني في ما تعني الإغاثة مع كلمة القنوط الذي تثيره شدة الحاجة. ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الحاكم المطلق الذي يتولى تدبير الخلق.. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ لا يفعل إلا الفعل المحمود، وإنما ينشر الرحمة بعد القنوط لكي ينبه الناس من غفلتهم وضلالهم، ولو أنهم عرفوا رحمة الله -وهو وليهم- بهم، وحكمته البالغة في تدبيره

---

(١) التوحيد: ص٣٩٨.
(٢) تفسير القمي: ج٢، ص٢٧١، بحار الأنوار: ج١٠، ص١٣٤.
(٣) تفسير القمي: ج٢، ص٢٧٦.

لشؤون الخلق، لاكتشفوا أسباب انقطاع الغيث عنهم التي قد تكون بسبب ذنوبهم، بل ولعرفوا أيضا حكمة عودته إليهم ليعرفوا قدر ربهم فيعبدونه لا يشركون به شيئا.

[٢٩] وليست هذه الآية الوحيدة التي تهدينا إلى الله، وإنما هي آية من بين الآيات التي لا تعد ولا تحصى.. ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ على سعتهما، ومتانتهما، وعظمة خلقهما.. ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ كالطيور والحيوانات ومختلف الأحياء المتناثرة هنا وهناك. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴾ لا يعجزه شيء لأن له مطلق الإرادة، وإن الاختلاف في طبائعها وشرائع حياتها و انتشارها في الكون لا يدل أبدا على تحررها من إرادة الله، وخروجها عن المنهج الذي عينه الله لها، أو السنن التي تحكم الخليقة، فمتى ما شاء ربنا جمعهم في صف واحد للحساب.

[٣٠] ويؤكد على الصلة بين سعي الإنسان وواقعه مرتين، مرة عن طريق العوامل المادية الظاهرة التي تربط بين السعي والنتيجة، فهو إذا سعى وناضل وصل إلى أهدافه، فالصحة بعد المرض والغنى بعد الفقر، والأمن بعد الخوف، كل ذلك رهين سعيه في السبيل القويم الذي جعله الله.. وهذا ما يؤكده القرآن في آيات عديدة كقوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم: ٣٩]، و قوله: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة:٧-٨].

ومرة عبرة العوامل الغيبية غير الظاهرة، حيث يؤكد الإسلام أن أي عمل يقوم به الإنسان ينعكس على واقعه شاء أم أبى، وليس بالضرورة أن يكتشف البشر كيفية ذلك، بل كثيرا ما تكون العلاقة بين العمل والعاقبة غير معروفة ومثيرة للتساؤلات، فما هي العلاقة بن صلة الرحم وطول العمر، وبين انتشار الزنا وانتشار موت الفجأة، وبين انحراف قوم لوط والصاعقة التي دمرتهم، وبين يقظة الإنسان بين الطلوعين وبين سعة رزقه، وبين قيام الليل وطول العمر، وبين الصدقة ودفع البلاء، وبين الزكاة والنماء الاقتصادي، وبين الصدق والأمانة وبين العزة في المجتمع؟!.

كل هذه العلاقات قد تبقى مجهولة لدى الإنسان، ولكنها حقائق واقعة في الحياة عرفناها أو جهلنا بها. من هنا بدل أن يدفعنا الحرص إلى الصراعات الاجتماعية دعنا نطبق المناهج الإلهية فهي كفيلة بتحقيق طموحاتنا المشروعة، سواء عرفنا حكمتها وبالتالي علاقتها بتلك الطموحات أم لم نعرف، لأننا لا بد أن نعترف بعجزنا عن الإحاطة علما بدين الله، أليس دين الله آية علمه، فهل يزعم أحد بأن يبلغ بعلمه مستوى علم ربه؟ ومن هنا جاء في الحديث: «**إِنَّ دِينَ الله لَا يُصَابُ بِالعُقُولِ النَّاقِصَةِ**»[1].

(١) مستدرك الوسائل: ج١٧، ص٢٦٢.

وبهذه الرؤية العميقة والواقعية للحياة يتقدم الإسلام خطوة على المادية، وخطوتين على القدرية، فالقدرية تعتقد بانعدام العلاقة بين سعي الإنسان وواقعه، منكرة بذلك عقلائية الأنظمة الحاكمة على الكائنات، أما المادية العمياء فتعتقد بأن نظام الكون عقلائي، ولكنها لا تعترف إلا بالعلاقات الظاهرة في هذا النظام، منكرة العلاقات الخفية التي يكشفها الغيب. بينما الإسلام بواقعيته يؤمن بعلاقة أكيدة بين سعي الإنسان وواقعه، مرة عن طريق العوامل المادية الظاهرة، وأخرى عن طريق العوامل الغيبية، وذلك انطلاقا من الاعتقاد بأن كل ما يجري على الإنسان، بل كل ما يجري في الحياة، إنما هو بعلم الله وبإذنه، وهو لا يمنع أو يأذن إلا بحكمة بالغة يعلمها عز وجل، وهو القائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد:١١].

وتؤكد آيات القرآن هذه الحقيقة ببيان هيمنة الله على نظام الكون، فالسحب التي تجمعها الأقدار، والمطر الذي يهطل على الأرض الجرداء فيبعث فيها الحياة من بعد ما يقنط الإنسان، كل ذلك لا يصير عبثا، إنما بحكمة إلهية دقيقة، فإذا قل الصدق بين الناس وتضاءل تعاطفهم على بعضهم، وإذا ساد الظلم والضلالة، وإذا كثرت الذنوب والفواحش، بعدت رحمة الله المتمثلة في الغيث، كما أن لنجاة أصحاب السفينة التي تمخر عباب البحر أو غرقهم علاقة بركابها، فإذا كانوا أهل صلاح وسعي، ساقتهم الريح الطيبة إلى سبل السلام، أما إذا كانوا ظالمي أنفسهم وقد انتهى أجلهم ابتلعتهم العواصف الهوج.

هكذا يبيّن ربنا العلاقة بين واقع الإنسان وعمله فيقول: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ أيا كان نوع هذه المصيبة وطبيعتها. ﴿وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ ولو لم يكن الله رحيما بعباده لانتهت بهم أعمالهم إلى الهلاك، لأنهم يكسبون كل يوم ما يستوجب غضبه سبحانه. جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «**أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِرْقٍ يَضْرِبُ وَلَا نَكْبَةٍ وَلَا صُدَاعٍ وَلَا مَرَضٍ إِلَّا بِذَنْبٍ**»[1]. وجاء في حديث آخر عنه عليه السلام: «**إِنَّ الذَّنْبَ يَحْرِمُ الْعَبْدَ الرِّزْقَ**»[2]. وجاء في رواية مأثورة عن أبي الحسن عليه السلام: «**حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ لَا يُعْصَى فِي دَارٍ إِلَّا أَضْحَاهَا لِلشَّمْسِ حَتَّى تُطَهِّرَهَا**»[3]. فلكي لا تصيبك ألوان العذاب تجنب الذنوب، هكذا أوصانا أمير المؤمنين عليه السلام حين قال: «**تَوَقُّوا الذُّنُوبَ، فَمَا مِنْ بَلِيَّةٍ وَلَا نَقْصِ رِزْقٍ إِلَّا بِذَنْبٍ حَتَّى الْخَدْشَ وَالْكَبْوَةَ وَالْمُصِيبَةَ**، ثم قرأ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ

---

(١) الكافي: ج٢، ص٢٦٩.
(٢) المصدر السابق: ص٢٧١.
(٣) المصدر السابق: ص٢٧٢.

﴿أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾»[(١)]، وقال عليه السلام: «أَوْفُوا بالعَهْدِ إذا عاهَدْتُمْ فَمَا زَالَتْ نِعْمَةٌ وَلاَ نَضارَةُ عَيْشٍ إلّا بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوا إنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ وَلَوْ أَنَّهُمُ اسْتَقْبَلُوا ذَلِكَ بِالدُّعَاءِ وَالإِنَابَةِ لَمَا تَنْزِلُ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذَا نَزَلَتْ بِهِمُ النِّقَمُ وَزَالَتْ عَنْهُمُ النِّعَمُ فَزِعُوا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ وَلَمْ يَهِنُوا وَلَمْ يُسْرِفُوا لَأَصْلَحَ اللهُ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ وَلَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ صَالِحٍ»[(٢)]. وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام: «تَجَنَّبُوا البَوائِقَ يُمَدَّ لَكُمْ فِي الأَعْمَارِ»[(٣)].

وروي عن الإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّ العَبْدَ لَيُذْنِبُ الذَّنْبَ فَيُزْوَى عَنْهُ الرِّزْقُ»[(٤)]. وقال: «إِنَّ العَبْدَ يَسْأَلُ اللهَ الحَاجَةَ فَيَكُونُ مِنْ شَأْنِهِ قَضَاؤُهَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ أَوْ إِلَى وَقْتٍ بَطِيءٍ فَيُذْنِبُ العَبْدُ ذَنْباً فَيَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى لِلْمَلَكِ لَا تَقْضِ حَاجَتَهُ وَاحْرِمْهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ تَعَرَّضَ لِسَخَطِي وَاسْتَوْجَبَ الحِرْمَانَ مِنِّي»[(٥)].

[٣١-٣٢-٣٣] ويذكّر الله الناس بأن عدم أخذه لهم على كثير من الذنوب ليس عن عجز، وإنما هو رحمة منه بعباده.. ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي لو أراد أن يأخذهم على ما تكسب أيديهم، لأنه تعالى الولي الحقيقي للإنسان ولا ولي غيره وهو ذو القوة المطلقة، فلا أحد يستطيع نصر نفسه أو الانتصار للآخرين عليه سبحانه. وهذه هي الأخرى من آيات رحمة الله وقدرته: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ وهي السفن الشراعية التي تجري في البحار بدفع الرياح، والتي لو شاء الله لأوقفها فلا تتحرك. ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ أي على سطح البحر.. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عند البلاء، فلا ينحرف عن الحق والطاعة لله بسبب الضغوط السلبية في الحياة.. ﴿شَكُورٍ﴾ يذكر الله ويحمده عند النعمة، وعلى كل حال، وهذا يخالف طبيعة الإنسان الذي يجزع عند البلاء، ويكفر عند الرخاء، بسبب علاقته الخاطئة بالحياة، إذ يعيش لحظته الراهنة فقط ولا ينظر للمستقبل، وهذا الأمر هو الذي يجعله ييأس ويستسلم للواقع، بينما ينظر المؤمن ببصيرة ربانية ثاقبة إلى خلفيات الحوادث، ومستقبل الأمور، فلا تبطره النعمة، ولا يؤيسه البلاء.

[٣٤] وإذا أراد الله أن يبتلي أحداً أو ينزل عليه العذاب فهو قادر على ذلك وبطرق متعددة، فهو تارة يوقف الرياح لتقف السفن التي نستقلها، أو ربما أرسلها بشدة فإذا بها تهيج

(١) بحار الأنوار: ج١٠، ص٩٤.
(٢) بحار الأنوار: ج١٠، ص١٠٢.
(٣) بحار الأنوار: ج٦٥، ص١٩.
(٤) الكافي: ج٢، ص٢٧٠.
(٥) المصدر السابق: ص٢٧١.

أمواج البحر فتبتلع سفننا، وإلى جانب هذه القدرة الإلهية توجد في الطرف الآخر الأسباب والمقومات لإنزال النقمة، وهي ذنوبنا التي نكتسبها كل يوم.. ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ يغرقها، ويهلك من فيها.. ﴿بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ برحمته ولطفه، لذلك ينبغي المبادرة إلى الاستغفار ليل نهار حتى نأمن من سطوات الرب الجبار، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ سَطَوَاتِ اللهِ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ**. قَالَ: قُلْتُ لَهُ: وَمَا سَطَوَاتُ اللهِ؟ قَالَ عليه السلام: **الأَخْذُ عَلَى المَعَاصِي**»[1].

[٣٥] ولا بد أن يعلم أولئك الذين يكذبون بآيات الله، ويتشبثون بثقافة الجدال والتبرير من أجل ردها والتهرب من مسؤولية الإيمان بها، أنهم محاطون بعلم الله وقدرته، ومن ثم فإن جدالهم فيها لن يرفع عنهم المسؤولية.. ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ أي مهرب ومفزع من الله. قالوا: إن نصب ﴿وَيَعْلَمَ﴾ جاء لأنه عطف على تعليل محذوف، وكأنه قال: ينتقم منهم ويعلم الذين يجادلون.

[٣٦] وكخاتمة لهذا الدرس الذي يحدثنا عن دور الحرص في الصراعات الاجتماعية كفكرة أساسية، يصغر القرآن الدنيا ويهونها في أعيننا وأنفسنا، لكي لا تكون من المنزلة عندنا بمكان تثيرنا نحو الصراع والبغي على بعضنا. ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ مهما كان حجمه وقدره فإنه لا يعدو كونه بسيطا وضئيلا نسبة إلى متعة الآخرة ونعيمها.. ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ وأفضلية نعيم الآخرة على متاع الدنيا من ناحيتين: فهو أفضل في كيفيته، وأدوم في بقائه و متعة الإنسان به.

ولعل خاتمة الآية تهدينا إلى أن التوكل على الله هي الصفة المقابلة للحرص على الدنيا، وإنما لا يتسامى القلب عن الانجذاب إلى الدنيا لضعفه، الذي ينجبر بالتوكل على الله سبحانه.

(١) الكافي: ج٢ ص٢١٩.

وأمرهم شورى بينهم

﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَٰئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣)﴾.

هدى من الآيات:

يتكلم القرآن في هذا الدرس عن المحور الذي سميت السورة باسمه وهو الشورى، ولكن بعد أن يجعله في إطار الحديث عن أبعاد الشخصية الإيمانية. لماذا؟ لأن الصفات خيرها وشرها تنبع من حالة في شخصية المجتمع، وتترادف مع بعضها، فالصدق يستتبع الإحسان، والأمانة تستتبع الوفاء، وهكذا، لأن أصل صفات الخير البصيرة والإيمان، كما أن الصفات الرذيلة يلحق بعضها بعضا، لأن جذرها واحد ألا وهو مرض القلب.

وصفة الشورى التي يتركز حولها هذا الدرس تمثل العلاقة الإيجابية بين أفراد الأمة على صعيد اتخاذ القرارات العامة. ولا تتحقق إلا إذا كانت العلاقات الاجتماعية عبر مختلف الأصعدة المتدرجة طاهرة وإيجابية وبمستوى التبادل الفكري، إذ لا فائدة للشورى في مجتمع الظلم والطبقية والعنصرية، ولا في المجتمع الذي لا يعتقد بالعقلانية والمنهجية العلمية في حياته ولا يبحث عما يثير عقله ويزيده علما، والحال إن الشورى أحوج ما تكون لتؤتي أكلها إلى مجتمع فاضل يتحلى بالصفات النفسية التي تدعم تطبيق المناهج العلمية التي تصدر على ضوئها.

ولعله لذلك بدأت هذه الآيات ببيان جانب من صفات المؤمنين كاجتناب كبائر الإثم والتجاوز عن المسيء قبل بيان صفة الشورى، ثم بعد بيانها يذكرنا القرآن بجانب آخر منها كالانتصار بعد الظلم، و الصبر الذي هو من عزم الأمور.

بينات من الآيات:

[٣٧] هناك بعض المجتمعات تحصر الدين في اتباع بعض الطقوس دون التوجه إلى القضايا المصيرية المهمة التي تكلفهم الإيثار والجهاد والشهادة، ففي الوقت الذي يبنون المساجد ودور العلم تراهم لا يتورعون عن ظلم بعضهم، ولا يدافعون عن أحكام الله، وإنما يهتم القرآن ببيان صفات المجتمع المسلم في كثير من سوره وبصورة مجتمعة لكي يعطينا صورة متكاملة عنه نعيش بها مجتمعنا، ونعرف مدى قربه وبعده من المجتمع الذي يبشر به القرآن.

ومن أبرز صفات المجتمع الإسلامي السعي من أجل اجتناب كبائر الإثم والفواحش، حيث يجب أن يتنظف المجتمع المسلم من الجاهلية بكل أبعادها الثقافية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية. ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ﴾ وهي -كما يبدو- الذنوب الاجتماعية والاعتداء على حقوق الناس. وقيل بأنها الشرك، ولا ريب أن الشرك أفحش ظلم، وأعظم ذنب، وهذا التفسير نسب إلى ابن عباس، وقيل بأنها البدع والشبهات، وبالتالي الضلالة الثقافية، وهي بدورها من الذنوب الاجتماعية، وقال البعض بأنها مطلق الذنوب التي أوعد الله عليها النار في القرآن أو ثبت بحجة قوية أنها من كبائر الذنوب. والمعنى اللغوي لـ (الكبيرة) الذنب الذي يكون كبيرا، وبلا ريب أن توعد العذاب عليه، أو فرض حد لمرتكبه من كواشف أهميته.

ومن جهة أخرى فإن القرآن أطلق وصف الكبيرة على جملة من الذنوب. منها شرب الخمر والميسر:

- ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]،

- ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٣١].

- ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء:٢].

ومن الآيات الجامعة: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا

تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥١].

والفواحش هي المعصية الشنيعة النكراء وقد عد تعالى منها الزنا واللواط قال:

- ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً ﴾ [الإسراء: ٣٢].

- ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ [النمل: ٥٤].

- ﴿ وَلَا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٢٢].

وخص التجنب بكبائر الإثم، وبكبائر الفواحش- إشارة إلى أن الصغائر معفوّ عنها، فضلا من الله وإحسانا، كما يقول سبحانه: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ [النجم: ٣٢].

﴿وَالْفَوَاحِشَ ﴾ ومن خلال طبيعة الذنوب والتوصيف لها فإنه يمكن القول بأن الآثام الكبيرة ذات طابع اجتماعي، وبأن الفواحش هي الذنوب الشخصية، كالزنا، واللواط، واجتنابها هذه من أهم الصفات التي يجب توفرها في مجتمع المؤمنين الفاضل.

﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾ إنهم حينما يختلفون مع بعضهم أو مع الآخرين، وحينما يسيء أحد إليهم، يؤثر ذلك في نفوسهم، ولكنهم لا يحوّلون تلك الآثار إلى صراع، بل يعودون إلى القرآن وإلى سائر التعاليم، ليجعلوا ذلك حكما فاصلا بينهم، فتراهم بدل أن يختلفوا فيه يختلفون إليه. ولعل من العوامل الأساسية التي تجعلهم يتجاوزون سَوْرةَ الغضب إلى سعة الصدر وسماحة الحلم أهدافهم السامية، فهم يؤمنون بأن غضبهم وحدتهم يجب أن يصرفا في الصراع مع العدو، بينما الذين تتضاءل أهدافهم في أعينهم تراهم يصبون جام غضبهم على أنفسهم، ويساهمون في تحطيم مجتمعهم بأيديهم. والعفو صفة سامية جدا لأن هناك من لا يملك نفسه عند الغضب فتراه يتجاوز حدود الشرع والعقل والأعراف، ويهدم في لحظة ما بناه في عقد من الزمن.

والمؤمن ليس فقط لا يخرجه رضاه وغضبه عن حدود الله بل ويتجاوز غضبه إلى العفو. جاء في الحديث المروي عن الإمام الباقر عليه السلام: «**مَنْ كَظَمَ غَيْظاً وهُوَ يَقْدِرُ عَلَى إِمْضَائِهِ حَشَا اللهُ قَلْبَهُ أَمْناً وإِيمَاناً يَوْمَ القِيَامَةِ**»[1].

---

(١) الكافي: ج٢، ص١١٠.

وقال الإمام الصادق عليه السلام «مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ إِذَا رَغِبَ وَإِذَا رَهِبَ وَإِذَا اشْتَهَى وَإِذَا غَضِبَ وَإِذَا رَضِيَ حَرَّمَ اللهُ جَسَدَهُ عَلَى النَّارِ»(١). وروي عن رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله أنه قال: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ خَلَائِقِ الدُّنْيَا والآخِرَةِ العَفْوُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ وتَصِلُ مَنْ قَطَعَكَ والإِحْسَانُ إِلَى مَنْ أَسَاءَ إِلَيْكَ وإِعْطَاءُ مَنْ حَرَمَكَ»(٢).

[٣٨] ومن صفات مجتمع الشورى إيمان أفراده بخط واحد، فلا يسمى اجتماع خليط من المذاهب المختلفة بمجلس شورى، إذ كيف يشترك من يكفر بإله الكون أو يشرك به مع من يؤمن بالتوحيد وبالإسلام؟!.

نعم يقول الرب سبحانه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ [المائدة:٤٨]. وفي هذه الآية دلالة على ضرورة التنافس حتى بين أتباع المذاهب المختلفة، ليتركوا جميعاً الجدل العقيم، ويثبت كل جدارته في ميدان العمل وليقدم الصورة الأمثل للحياة، لكن هو اختلاف في إطار الاستجابة لربهم.

وحين يأمر الله الرسول صلى الله عليه وآله بالشورى، يقدم حكمتها في أنها تزيد المجتمع تلاحماً، فيقول سبحانه: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴾[آل عمران:١٥٩]. إن المشاركة في القرار تساعد على تنفيذه، وبالذات حينما يدخل المجتمع في حلبة التنافس الإيجابي الذي قام على أساسه العالم، إذ إن التنافس يمتص طاقة الصراع السلبي، ويوظفها في العمل الإيجابي مما يدفع عجلة المجتمع إلى الإمام دفعاً عظيماً.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ ﴾ فهم يلتقون في خط واحد هو خط الإمام المطاع بإذن الله. ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ بطقوسها وقيمها.. ثم يؤكد ربنا مباشرة على صفة التشاور كأبرز صفة للمؤمنين.. ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ ﴾ وإنما تقدم ذكر الاستجابة لله، وإقامة الصلاة بشروطها، لأنهما ضرورتان لكي تكون الشورى ذات فاعلية إيجابية في المجتمع.

(١) وسائل الشيعة: ج١٥، ص١٦٢.
(٢) الكافي: ج٢، ص١٠٧.

كلمات في الشورى

أولاً: الشورى تستند إلى أمرين:

الأول: ضرورة تراكم الخبرة وتكثّف التجارب، لأن الناس هم معدن الحكمة التاريخية، ومرتكز التجارب المتواردة.

الثاني: إن الحياة سلسلة من الخيارات والاختيارات، والعاقبة فيها للحسنى، قال سبحانه: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [الأعراف:١٤٥].

ثانياً: انتخاب الأحسن ليس مجرد حق للإنسان يقتضيه وجود العقل عند الإنسان، بل هو أيضاً واجب ومسؤولية، أوَليس انتخابه يؤثر في حياته؟!، أوَ ليس الإنسان مسؤولاً عن حياته، فكيف لا يختار؟!.

إن هاهنا ثلاث نظريات في الشورى:

الأولى: تقول بأن الشورى (حق).

الثانية: ترى أنها (واجب).

الثالثة: تجمع بين النظريتين، وبالذات في المسائل العامة التي تتعلق بمصير الأمة وشؤونها. وعلى ضوء هذه النظرية (الشورى حق وواجب) لا يجوز لحاكم الشرع ولو كان الفقيه العادل أن يجري الأمور في إدارته للأمة كما يريد، وإنما يجب عليه أن يستشير الآخرين، ويجمع علمهم وعقلهم إلى ما عنده، ثم يتخذ القرار على أساس هذه المشورة، كما يجب من جهة أخرى على الآخرين أن ينصحوه، ومن أبرز الواجبات الإسلامية النصيحة لولي الأمر.. وهكذا روي عن الرسول الأعظم ﷺ: **«مَا مِنْ رَجُلٍ يُشَاوِرُ أَحَداً إِلاَّ هُدِيَ إِلَى الرُّشْدِ»**[1].

ثالثاً: ولأن الشورى انعكاس لروح الإيمان فهي تتسع لسائر مرافق حياة الجماعة المؤمنة، ابتداء من الأسرة، وانتهاء بالدولة، ومرورا بالمرافق الاجتماعية والاقتصادية، والشؤون البلدية والقروية. إنها أكثر من مجرد نظام سياسي، بل تشكل جوهر العلاقة بين المؤمن وأخيه المؤمن، لأنها نابعة من احترام المؤمن ورأيه ثم التسليم للحق، والبحث عنه أنى وجد.

---

(١) مجمع البيان: ج٩، ص٥٧.

ومن خلال النصوص الإسلامية التي تأمر بالاستشارة نتبيّن أن أفضل الأنظمة الاقتصادية في الإسلام هي التي تجمع أكبر قدر من صفة الشورى، ولعلها التعاونيات الاقتصادية التي نستوحي أهميتها أيضا من مجمل القيم الإيمانية كالتعاون والإحسان والإيثار وحرمة الترف وحرمة سيطرة الأغنياء على مقاليد السلطة. وقد حددت النصوص معالم الشورى في الحياة الاجتماعية، فقد روي عن رسول الله ﷺ: «**اسْتَرْشِدُوا العَاقِلَ ولَا تَعْصُوهُ فَتَنْدَمُوا**»(١). وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**اسْتَشِرْ فِي أَمْرِكَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ**»(٢). وقال رسول الله، وهو يوصي أمير المؤمنين عليه السلام: «**يَا عَلِيُّ لَا تُشَاوِرْ جَبَاناً فَإِنَّهُ يُضَيِّقُ عَلَيْكَ المَخْرَجَ وَلَا تُشَاوِرِ البَخِيلَ فَإِنَّهُ يَقْصُرُ بِكَ عَنْ غَايَتِكَ وَلَا تُشَاوِرْ حَرِيصاً فَإِنَّهُ يُزَيِّنُ لَكَ شَرَّهَا وَاعْلَمْ يَا عَلِيُّ أَنَّ الْجُبْنَ وَالْبُخْلَ وَالْحِرْصَ غَرِيزَةٌ وَاحِدَةٌ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ**»(٣).

ومثلما أمر الإسلام بالمشورة أمر المستشار بالنصح، فحرام أن يمحضك أخوك المؤمن ثقته ثم تخونه بالرأي الباطل والرأي الفطير.. قال الإمام الصادق عليه السلام فيما روي عنه: «**مَنِ اسْتَشَارَ أَخَاهُ فَلَمْ يَنْصَحْهُ مَحْضَ الرَّأْيِ سَلَبَهُ اللهُ عَزَّ وجَلَّ رَأْيَهُ**»(٤). وبين الإسلام كيف ينبغي أن يشير من يطلب منه الرأي، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «**لَا تَكُونَنَّ أَوَّلَ مُشِيرٍ وَإِيَّاكَ وَالرَّأْيَ الفَطِيرَ**(٥) **وَتَجَنَّبِ ارْتِجَالَ الكَلَامِ وَلَا تُشِرْ عَلَى مُسْتَبِدٍّ بِرَأْيِهِ وَلَا عَلَى وَغْدٍ**(٦) **وَلَا عَلَى مُتَلَوِّنٍ وَلَا عَلَى لَجُوجٍ وَخَفِ اللهَ فِي مُوَافَقَةِ هَوَى المُسْتَشِيرِ فَإِنَّ الْتِمَاسَ مُوَافَقَتِهِ لُؤْمٌ وَ سُوءَ الاسْتِمَاعِ مِنْهُ خِيَانَةٌ**»(٧).

رابعاً: وحين تكون الشورى صبغة المجتمع المسلم تضمن حرية الرأي، وحق الانتخاب، وواجب المساهمة في صنع القرار السياسي، بل وتكون كل هذه المفاهيم ذات هدف مقدس. ولقد رسم الدين منهج الحكم في قيادة أولى الناس بالنبي ﷺ، وهم الأكثر علما والأتقى عملا و الأكفأ إدارة، وجعل على الناس واجب التعرف إلى هذا القائد، وانتخابه حاكما عليهم، فإذا فعلوا وجبت طاعته ضمن إطار المشورة.

إن النظام الاجتماعي والدولة المنبثقة منه ضرورة علائية، لأن جملة ضرورات هامة

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٢، ص١٩.
(٢) المصدر السابق: ص٤١.
(٣) بحار الأنوار: ج٧٢، ص٩٩.
(٤) وسائل الشيعة: ج١٢، ص٤٤.
(٥) قالوا: الرأي قبل التروي والتعمق.
(٦) الدني: الضعيف رأيا وعقلا.
(٧) بحار الأنوار: ج٧٢، ص١٠٤.

تعتمد عليه، كالدفاع عن النفس وحماية الضعيف عن بطش القوي، وترتيب أمور المعيشة وما أشبه. وإذا كانت الدولة ضرورية فإن أقرب الأنظمة إلى المفاهيم الشرعية هو دولة الإمامة أو الولاية حيث تجتمع فيها مصالح العباد وحقوق الله سبحانه. قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة:٥٥]. وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:٨٣]. وجاء في الحديث الشريف: «مَنْ كَانَ مِنَ الْفُقَهَاءِ صَائِناً لِنَفْسِهِ حَافِظاً لِدِينِهِ مُخَالِفاً عَلَى هَوَاهُ مُطِيعاً لِأَمْرِ مَوْلَاهُ فَلِلْعَوَامِّ أَنْ يُقَلِّدُوهُ»[1]. وعن الصادق عليه السلام قال: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ كَانَ مِنْكُمْ قَدْ رَوَى حَدِيثَنَا وَنَظَرَ فِي حَلَالِنَا وَحَرَامِنَا وَعَرَفَ أَحْكَامَنَا فَارْضَوْا بِهِ حَكَماً فَإِنِّي قَدْ جَعَلْتُهُ عَلَيْكُمْ حَاكِماً»[2].

ويجدر التنبيه للأمور الآتية:

ألف: استحقاق الإمامة بتوفر جملة شروط بيّنها الشرع وقبلها العقل من الفقاهة والعدالة والكفاءة الإدارية. ولا يترك الجماهير الحاكم بعد اختياره يعمل فيهم ما يشاء. لأن ولاية الفقيه ليست مطلقة إنما هي مقيدة بشروط استحقاقها، وهنا تتجلى مسؤولية الأمة أن تراقبه لكي يبقى أميناً لمبادئ الفقه، عادلاً في الرعية، كفئاً في إدارة الأمن.

بـاء: أن الإسلام قام على أساس المسؤولية، ولم يعترف أبداً بأي حتمية أنى كانت صفتها، وبالذات الإكراه في السلطة فإنه مرفوض عند الإسلام بتاتاً، بل يربّي الإسلام المؤمن على رفضه بكل إصرار. إنه الطاغوت بذاته الذي يتحكم في رقاب الناس بغير حق، وجوهر تعاليم الدين رفض الطاغوت، الذي هو الوجه الظاهر للجبت، والكفر بالجبت والطاغوت تمهيد للإيمان بالله، والقلب المحجوب بحب الجبت، أو الخوف من الطاغوت لا يدخله نور التوحيد، إنه قلب مغلّف بالشرك مغلف بالظلم، مغلف بظلام الهوى والشهوات، وأنّى له الهدى والإيمان؟.

فالمجتمع هو المسؤول عن نظامه السياسي، فإن أفراده قصروا فقد ظلموا أنفسهم، وإن هم خضعوا للظلم ولم يثوروا ضد المتسلطين عليهم فقد خانوا أمانة الله، ونكثوا عهد الله معهم ألاّ يعبدوا غيره سبحانه.

---

(١) وسائل الشيعة: ج٢٧، ص١٣١.
(٢) الكافي: ج١، ص٦٧.

ونتساءل: أَنَّى لعامة الناس أن يراقبوا تصرفات الخاصة، وبالذات ذلك الفقيه العارف بالدين، والمضطلع في أحكامه؟ بل حتى ولو افترضنا انحرافه عن جادة الحق، فإنه قادر على تغليف انحرافه بتبريرات دينية. أو لم تكن سلطات الجور عبر التاريخ تُؤِّل الدين حسب أهوائها؟!.

للإجابة عنه لابد أن نلفت لدور القيم التي تشكل محددات ثقافة الإنسان ومنبع تلك القيم والمعارف. فمنبع المعارف القرآن هو الكتاب المعجز الذي تحدى الله به عباده ولا يزال يتحداهم أربعة عشر قرناً، ولم يستطع أحد الاستجابة لهذا التحدي الأعظم، هذا القرآن ليس فقط الأكثر تلاوة بين الكتب، بل وأيضاً الأبلغ تأثيراً. وقد صاغ القرآن، شخصية الأمة المؤمنة بالقيم الإيمانية حتى أصبحت جزءاً منها. ورأس القيم توحيد الله، واتباع رسل الله، وولاية أوليائه، وتكريم المؤمنين والأخوة معهم، وتجاوز العصبيات.. والعدل والصدق والأمانة، والإنصاف والإحسان وسائر المبادئ السامية، وهي الميثاق الإلهي بين الحاكم والرعية، فمن اتبعها كان حرياً بقيادة الأمة.. ومن خالفها وجب عليها القيام ضده. ومن هذه القيم، بل من أعظمها؛ رعاية حق الأمة في الانتخاب، فمن صادرها بأي تبرير، حق للأمة القيام ضده. ومن هنا فإن مقياس الأمة الواعية التي تستحق الحياة الكريمة أن يحافظوا على حقهم في تنحية الحاكم عن كرسي الحكم.. وما القيم التي يبرر بها الحكام استمرار سلطانهم، إلاّ أفكاراً جاهلية، وإيحاءات شيطانية، أتعب الحكام الفاسدون أنفسهم في اختراعها، وأنفقوا أموالاً طائلة في بثها بين الناس، واشتروا ضمائر الكتاب التافهين وأدعياء الدين، حتى كرسوها بين العوام. وهنا بالذات حلبة الصراع الأساسي بين العدل والسلام، والحرية والتقدم، وبين القيم الجاهلية، وعلى طليعة الأمة من المجاهدين والمثقفين والصالحين ألاّ يألوا جهداً في بث قيمة الحرية في الأمة، وأن يحددوا الجناة الذين يبغون مصادرتها، ويعلموا الناس كيف يدافعون عن حقهم.

جيم: أن الشورى ليست في أحكام الله وإنما في أمور الناس. فبعد أن يؤمن الناس بدين الله فإنهم يُسلِّمون لحكمه وشرائعه. نعم إن أمور الناس في مستويين؛ أولهما يتصل بالمتغيرات والحوادث واستنباط التشريعات المناسبة من ثوابت الدين. والشورى هنا في مقام النبي ﷺ وخلفائه عليهم السلام غير واردة، وهي في غير المعصوم عليه السلام شورى أهل الخبرة بالفقه وبالواقع الخارجي وموضوعاته. وثانيهما يتصل بالبت والقرار وإدارة الحياة العامة والشورى فيها عامة.

وجوهر الشورى هو فهم المتغيرات. لأن الشورى لا ارتباط لها بالصورة العامة للقوانين، بل ترتبط بأمورنا العامة، وأمورنا هي متغيرات الإنسان: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ

ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [المائدة:٨٣].

فولاية الفقيه تمثل الثوابت وتمثل الحسم في حالة الخلافات.. تمثل النظام الذي يمنع المشاكل، تمثل الإطار العام الذي يمنع الخلاف ويمنع الفوضى وما أشبه. وبعد استشارة الأمة، يكون العزم على رأي والتوكل على الله في تنفيذه، كما قال ربنا: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [آل عمران:١٥٩]. وهكذا كان يفعل النبي ﷺ والأئمة من أهل بيته عليهم السلام حسب ما روى معمر بن خلاد عن الإمام الرضا عليه السلام قال: «هَلَكَ مَوْلًى لِأَبِي الْحَسَنِ الرِّضَا يُقَالُ لَهُ سَعْدٌ فَقَالَ عليه السلام: أَشِرْ عَلَيَّ بِرَجُلٍ لَهُ فَضْلٌ وَأَمَانَةٌ. فَقُلْتُ: أَنَا أُشِيرُ عَلَيْكَ؟ فَقَالَ شِبْهَ الْمُغْضَبِ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَسْتَشِيرُ أَصْحَابَهُ ثُمَّ يَعْزِمُ عَلَى مَا يُرِيدُ»[1]. إن الرأي الأخير يكون للقائد المنتخب الذي يجتهد في سبيل استنباطه من قيم الدين، ولكن لا يتعجله بل يسعى إليه عبر مشورة الرجال، يروي في ذلك: عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ عَلِيِّ بْنِ مَهْزِيَارَ قَالَ: «كَتَبَ إِلَيَّ أَبُو جَعْفَرٍ عليه السلام: أَنْ سَلْ فُلَاناً أَنْ يُشِيرَ عَلَيَّ وَيَتَخَيَّرَ لِنَفْسِهِ فَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَجُوزُ فِي بَلَدِهِ وَكَيْفَ يُعَامِلُ السَّلَاطِينَ فَإِنَّ الْمَشُورَةَ مُبَارَكَةٌ قَالَ اللهُ لِنَبِيِّهِ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ فَإِنْ كَانَ مَا يَقُولُ مِمَّا يَجُوزُ كَتَبْتُ أَصَوِّبُ رَأْيَهُ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ ذَلِكَ رَجَوْتُ أَنْ أَضَعَهُ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ إِنْ شَاءَ اللهُ»[2].

وكلمة أخيرة: إننا نسعى جميعا نحو رحاب الحرية، ونطالب أولي الأمر بها. أفلا نبدأ بأنفسنا و نشبع أجواءنا بعبق الحرية، ونبادل الرأي فيما بيننا؟ أفليس أحق الناس بالخير الدعاة إليه؟ أوليس أقرب السبل إلى الحرية جعلها واقعا يعيش بيننا؟ أوليست الحرية سلاحا نستخدمه ضد من يصادرها، وهي قوة تهاب، وجمال يستهوي اللباب؟

دعنا إذا نبدأ بأنفسنا وداخل أطر التحرك الديني بالذات، فنتشاور في سائر شؤوننا، ذلك لأن الحاجة إلى المشورة تزداد عندما تخوض الأمة صراعا حضاريا مع الكفار والمنافقين.. فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَا يَمْنَعُ أَحَدَكُمْ إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ مَا لَا قِبَلَ لَهُ بِهِ أَنْ يَسْتَشِيرَ رَجُلًا عَاقِلًا لَهُ دِينٌ وَوَرَعٌ. ثُمَّ قَالَ أَبُو عَبْدِ اللهِ عليه السلام: أَمَا إِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ لَمْ يَخْذُلْهُ اللهُ بَلْ يَرْفَعُهُ اللهُ وَرَمَاهُ بِخَيْرِ الْأُمُورِ وَأَقْرَبِهَا إِلَى اللهِ»[3].

---

(١) وسائل الشيعة: ج١٢، ص٤٤.
(٢) تفسير العياشي: ج١ ص٢٤.
(٣) وسائل الشيعة: ج١٢، ص٤٢.

وقال الرسول ﷺ: «الحَزْمُ أَنْ تَسْتَشِيرَ ذَا الرَّأْيِ وتُطِيعَ أَمْرَهُ»(١).

وقال الإمام علي عليه السلام: «الِاسْتِشَارَةُ عَيْنُ الهِدَايَةِ وقَدْ خَاطَرَ مَنِ اسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ»(٢).

ثم وبعد التعرض للشورى يسرد لنا القرآن مجموعة أخرى من صفات المؤمنين التي تتكامل وصفة الشورى فيقول: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ سواء كان رزقا ماديا كالمال والثروة، أو معنويا كالحكمة والعلم، فإن المؤمنين ينفقون منه في سبيل تقدمهم جميعا، ولا ريب أن المجتمع البخيل الذي ينحصر أبناؤه في حدود أنفسهم ومصالحهم لا يستفيد من الشورى، لأن تبادل الأفكار والمعلومات والخبرات يستدعي تبادل المنافع، ودائما يكون وراء مبادلة الخبرات التي تنفع اقتصاديا مبادلة للأفكار، إذ لولا وجود حالة العطاء والكرم، وبالتالي الخروج عن نطاق الذات، إذن لما أمكن الإنسان الجلوس والتفاوض مع الآخرين، ولذلك جاء لنا التأكيد القرآني على الإنفاق بعد الحديث عن الشورى.

[٣٩] وهناك مسألة أخرى تتصل بموضوع الشورى اتصالا متينا وهي قضية الكرامة في حياة المجتمع والفرد، التي من خلالها يتحدد مصير الحرية، ذلك أن تحسس الإنسان بكرامته هو الذي يدعوه للتحرر ورفض الضيم. والمجتمع الذي يبقى يدور في حدود المطالبة بالحرية زاعما بأنها ستأتيه على طبق من الذهب لا يفلح أبدا، لأنه عندما يستجديها ممن سلبها منه فإنه يثبت له بأنه ليس أهلا للحرية ولا للكرامة، و إنما أهل الحرية هم الذين يأخذون حريتهم بالقوة، ويستعيدون كرامتهم بدمائهم، ولذلك أكد القرآن وفي هذا المقطع بالذات على فكرة هامة هي أن الشورى التي تعد تعبيرا عن الحرية والكرامة لا تعطى للمجتمع، وإنما يجب أن تؤخذ بالقوة، وهذا يهدينا إلى ضرورة الجهاد والتضحية من أجلها.

﴿وَالَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ الْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ والضمير المنفصل ﴿هُمْ﴾ يأتي هنا للتأكيد على أن المؤمنين لا ينتظرون أحدا لينتصر لمظلمتهم، وإنما يسعون بأنفسهم لرفع البغي عن أنفسهم، وفي الآية فكرتان:

الأولى: أن هؤلاء يقاومون البغي ويستعيدون حقوقهم بالقوة.

الثانية: أنهم ينصر بعضهم بعضا في هذه المقاومة، فإذا سعى الظالم للبغي عليهم وقهرهم وقفوا جميعهم صفا واحدا ضده.

---

(١) مستدرك الوسائل: ج١ ص٣٤٢.

(٢) وسائل الشيعة: ج١٢، ص٤٠.

ويتساءل البعض: لماذا أمرنا الله -إذا- بالعفو في آيات عديدة؟.

والجواب: إن التعافي إنما هو بين المؤمنين، أما إذا كان العفو سببا لتمادي الظالم في ظلمه فإنه لا يكون حسنا، جاء في الحديث المأثور عن الإمام زين العابدين عليه السلام: «**وحَقُّ مَنْ أَسَاءَكَ أَنْ تَعْفُوَ عَنْهُ وإِنْ عَلِمْتَ أَنَّ العَفْوَ يَضُرُّ انْتَصَرْتَ قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وتَعَالَى ولَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولئِكَ ما عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ**»[1].

[٤٠] وحيث توجد بعض الجوانب السلبية في نفس الإنسان، فإذا به وهو يجاهد لمقاومة الظالم يصبح أظلم منه، أو ينشر الفساد والبغي تحت راية المقاومة، أكد القرآن على ضرورة التقوى في المقاومة، وأن لا يتعدى المؤمنون حدود الله في جهادهم للظلم والظالمين، بل ويدعوهم للعفو والإصلاح ما استطاعوا إليه سبيلا. ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ فالمقابلة مشروعة ولكنها محدودة بالتماثل إذ قال ربنا: ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ [البقرة:١٩٤]. وهذا التأكيد من قبل الله على التماثل مهم جدا، لأن النفس البشرية تزلزلها ردات الفعل وتخرجها من حد المعقول، فإذا بالضربة الواحدة تقابل عندها بعشر ضربات مثلها تشفيا وانتقاما و علوا واستكبارا، وهذه المعادلة مرفوضة بتاتا في كتاب الله. لذلك ينبغي ومن أجل الاحتياط وعدم مخالفة قانون التماثل في القصاص، أن يأخذ الإنسان أقل من حقه ولو بقليل، والمثل الذي يقول: «نرُد الصاع بصاعين» لا يصلح قاعدة للقصاص عند الإسلام، وإنما الصاع ينبغي أن يقابل فقط بصاع، كما قال القرآن الحكيم في معرض حديثه عن بني إسرائيل: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾ [المائدة:٤٥].

ويرتفع الإسلام بأتباعه إلى قمة الفضيلة والإحسان بدعوته للعفو. ﴿فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ و الدعوة للعفو هنا لا تدل على أن ربنا يأمر بغض النظر عن الظالمين، أو أنه سبحانه يدافع عنهم، كلا.. فهو لا يحب الظالمين كما تشير إلى ذلك خاتمة هذه الآية الكريمة، ولكن الإنسان لا يمكنه أن يحكم قطعيا على الآخرين بالظلم من خلال تعامله اليومي مع الناس، فبرغم أن فلانا ظالم استنادا إلى بعض ممارساته فيقع فيما وقع فيه الظالمون من البغي على الناس زعما بأنهم إنما يستردون منهم حقوقهم المسلوبة فينبغي له أن يعفو عن الناس ما أمكنه ذلك، وبالذات إن العفو في كثير من الأحيان يكون نفسه دافعا قويا للمسيء نحو التوبة والاعتذار، وبالتالي الإصلاح، وهذا الأمر هو الذي يجعل من العافي مصلحا، حسبما تشير الآية إليه. أما الذين يتسرعون ويغضبون لأتفه الأسباب، أو لمجرد بعض الأخبار

(١) من لا يحضره الفقيه: ج٢، ص٦٢٥.

التي ينقلها المغرضون، فيثيرون النزاع بين المؤمنين، فإنهم لا يقاومون الظلم في الواقع، لأنهم لن يستأسدوا إلا على الضعفاء، بينما يستسلمون للأقوياء، فهم كما قال الشاعر: «أسد علي وفي الحروب نعامة»، بينما المجتمع الفاضل هو الذي تسود علاقاته الداخلية فضيلة التعافي والإيثار، ويدَّخر قوته وغضبه لمقاومة الظالمين والجبابرة.

وما أحوجنا اليوم ونحن نعيش ظروف الصراع مع أعداء الدين إلى التعافي بيننا، ولو عرفنا ما في العفو من ثواب عظيم لاستصغرت في أعيننا المكاسب الجزئية التي ترتجى من صراعنا الداخلي أو انتصارنا من بعضنا البعض، هكذا جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**عَلَيْكُمْ بِالعَفْوِ فَإِنَّ العَفْوَ لَا يَزِيدُ العَبْدَ إِلَّا عِزّاً فَتَعَافَوْا يُعِزَّكُمُ اللهُ**»[1]. ولعل العزة تأتي عبر انتصارهم على عدوهم بما يوفرّه التعافي عن بعضهم من التماسك الداخلي، وربما تشير الرواية التالية إلى هذه الحقيقة، فعن الإمام أبي الحسن عليه السلام: «**مَا التَقَتْ فِئَتَانِ قَطُّ إِلَّا نُصِرَ أَعْظَمُهُمَا عَفْواً**»[2].

[٤١] وينقض القرآن جانبا من الأفكار السلبية التي ينشرها البعض في الأمة، من قبيل أن مقاومة الظالمين والثورة ضد الانحراف هي السبب في اضطراب الأوضاع وانحسار الأمن، بينما السبب هو ظلم السلطة الحاكمة وانحرافها، فالظلم هو السبب في انعدام الأمن، وليس رد الظلم من قبل المجاهدين. ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ فلا يجوز إذن أن نلقي باللوم عليهم، لأنهم يطالبون بحقوقهم المشروعة، وبهذا يقطع القرآن الكريم ألسنة ضعفاء النفوس ومرضى القلوب الذين يقفون دائما مع القوي ضد الضعيف.

[٤٢] إذن فعلى من يقع اللوم؟ ومن هو المسؤول عن الواقع الفاسد؟. إنما المسؤول الأول عن مشاكل الصراع هم الحكام الظلمة الذين يريدون السيطرة على الناس ونشر الفساد. ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فالقوى الاستكبارية التي تسعى لبسط سلطانها الفاسد على الشعوب المقهورة هي المسؤولة عن مشاكل الشعوب ومآسيها، أما دفاع الناس عن أنفسهم وعن مصالحهم فهو جهاد مشروع لاسترداد الحقوق الضائعة.. والإرهاب والظلم والإفساد هو السياسة التي يقوم بتطبيقها المستكبرون والحكّام المرتبطون بهم، وليس ما يضطر إليه المصلحون والمدافعون عن حقوقهم من جهاد ملتزم بالضوابط الشرعية.. ويتوعد ربنا الطغاة بأشد العذاب. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قد يرونه في الدنيا وربما يتأخر إلى الآخرة.

---

(١) الكافي: ج٢ ص١٠٨.
(٢) المصدر السابق: ص١٠٨.

[٤٣] وإذا كنا نريد الانتصار على هؤلاء الظلمة فنحن بحاجة ماسة إلى الصبر:

أولاً: الصبر والاستقامة أمام إغراءات العدو، فالظالم يبث في المجتمع ألوانا من الأحلام و الأماني وكلها كاذبة.

ثانياً: الصبر لتحدي إرهاب العدو وقمعه.

ثالثاً: الصبر لمقاومة الاستعجال والارتجالية في أنفسنا وعند إخواننا، فما أحوجنا لذلك ونحن نسعى لتنظيم أنفسنا وأمورنا استعدادا لمحاربة العدو.

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ والعزم في الأمور هو أن لا يأخذ الإنسان الأمور مأخذا هينا دون التخطيط الدقيق لها والسيطرة عليها، بل الحسم والإرادة القوية لتحقيق الأهداف المنشودة، بعيدا عن روح التشفي، وذلك لا يتأتى إلا بالصبر والحلم. ويبدو أن هذه الآيات وبالذات الأخيرة منها تهدف -فيما تهدف- تربية نفوس المؤمنين على مقاومة الترف والتعجيل وفورات الغضب التي تصيبهم في لحظات الضعف فتذهب بحلمهم وأناتهم ورفقهم وتلطفهم، وربما كشفت عن واقعهم، وأفسدت خططهم الرسالية. بينما حاجة المؤمنين إلى الصبر بانتظار اللحظة المناسبة حاجة مضاعفة، من أجل ذلك أوصى أئمة الهدى المجاهدين ضد الطاغوت بكظمهم الغيظ، وعدُّوا ذلك من الحزم الذي يساهم في نجاح المهمات الصعبة. قال الإمام الصادق عليه السلام: «**كَظْمُ الغَيْظِ مِنَ العَدُوِّ فِي دَوْلَاتِهِمْ تَقِيَّةٌ حَزْمٌ لِمَنْ أَخَذَ بِهِ وَتَحَرُّزٌ عَنِ التَّعَرُّضِ لِلْبَلَاءِ فِي الدُّنْيَا وَمُعَانَدَةُ الأَعْدَاءِ فِي دَوْلَاتِهِمْ وَمُمَاظَّتُهُمْ**[١] **فِي غَيْرِ تَقِيَّةٍ تَرْكُ أَمْرِ اللهِ فَجَامِلُوا النَّاسَ يَسْمُنْ ذَلِكَ لَكُمْ عِنْدَهُمْ**[٢] **وَلاَ تُعَادُوهُمْ فَتَحْمِلُوهُمْ عَلَى رِقَابِكُمْ فَتَذِلُّوا**»[٣]. ويبلغ بالإمام زين العابدين التأكيد على كظم الغيظ تقية درجة يقول: «**وَدِدْتُ واللهِ أَنِّي افْتَدَيْتُ خَصْلَتَيْنِ فِي الشِّيعَةِ لَنَا بِبَعْضِ لَحْمِ سَاعِدِي النَّزَقَ وقِلَّةَ الكِتْمَانِ**»[٤].

وتزداد صفة العفو أهمية عند المقدرة، وبالذات عند سيطرة فريق على آخر، وما أحوج حكام المسلمين اليوم إلى هذه الصفة الإيمانية التي كانت رمز بقاء الإسلام وانتشار نوره، أفلا تأسوا برسولهم الكريم الذي عفا عن قريش بعد أن شنت عليه (١٧) حربا بكلمة واحدة قائلا: «**اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ**»[٥] وعفا عن قاتل حمزة عمه الكريم، بالرغم من أن قتله أحدث في فؤاده

---

(١) المماضة: شدة الخلق و المنازعة.

(٢) أي ينمي قدركم عندهم.

(٣) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٤٠٩.

(٤) الخصال: ج١، ص٤٤.

(٥) الكافي: ج٣، ص٥١٢.

جرحا نازفا، بل وعفا عن تلك المرأة اليهودية التي سمَّته، وتسبَّبت -بالتالي- في وفاته حسب بعض النصوص، ويروي الإمام الباقر عليه السلام قصة عفوه عن اليهودية هكذا: «**إِنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وآله أُتِيَ بِاليَهُودِيَّةِ الَّتِي سَمَّتِ الشَّاةَ لِلنَّبِيِّ صلى الله عليه وآله فَقَالَ لَهَا: مَا حَمَلَكِ عَلَى مَا صَنَعْتِ؟.**

فَقَالَتْ: قُلْتُ إِنْ كَانَ نَبِيّاً لَمْ يَضُرَّهُ وإِنْ كَانَ مَلِكاً أَرَحْتُ النَّاسَ مِنْهُ. قَالَ فَعَفَا رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله عَنْهَا»[1]. إن خلق الرسول كان من أعظم أسباب انتشار نور الإسلام وعزة المسلمين، وقد قال صلى الله عليه وآله: «**مَا أَعَزَّ اللهُ بِجَهْلٍ قَطُّ ولَا أَذَلَّ بِحِلْمٍ قَطُّ**»[2].

(١) الكافي: ج٢ ص١٠٨.

(٢) المصدر السابق: ص١١٢.

ألا إن الظالمين في عذاب مقيم

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ (٤٤) وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ (٤٥) وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ (٤٦)﴾.

هدى من الآيات:

في إطار بيان مبدأ (الشورى) الذي يتجلى في النظام السياسي الكفيل باحترام الرأي، والتسليم للحق، وإتماما لما ذكر في الآيات السابقة من واجب مقاومة الظالمين والانتصار منهم، يبصرنا السياق بالعاقبة السوأى للظلم. أوليس الظلم أكبر عقبة في طريق النظام الشوروي الصالح التي لا بد للمؤمنين من تصفيتها؟

الأولى: السيئات التي تلحق الظالمين الضلالة ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:١٩].

الثانية: الندم البالغ حينما يرون العذاب فإذا بهم يتساءلون بذل: هل إلى رجوعٍ سبيل؟

الثالثة: خشوعهم الذليل عندما يعرضون على النار، حتى إنهم ينظرون إليها من طرف خفي ذلة وصغارا.

الرابعة: التبكيت الذي يلاحقهم من عند المؤمنين حيث يذكرونهم بأنهم خسروا أنفسهم و أهليهم يوم القيامة.

الخامسة: خلودهم في العذاب.

ولقد فقدوا أنصارهم الذين التفوا حولهم في الدنيا فلا أحد ينصرهم هنالك في الآخرة.

بينات من الآيات:

[٤٤] في فاتحة الدرس وخاتمته نقرا عن ضلالة الله، وأن من يضله الله لا ولي له ولا سبيل أمامه، ولا ريب أن فقد الهداية أعظم مصيبة وأكبر خسارة، وأن الله لا يضل أحدا إلا بسبب ارتكابه جريمة كبيرة. أوَليس الله بأرحم الراحمين، فكيف يحجب نور هدايته عن البشر وهو لا يملك هاديا سواه؟

وهنا يطرح السؤال التالي، لماذا لا تكون الهداية إلا عبر النهج الإلهي؟

إن للهداية شروطا ثلاثة وهي:

أولاً: وجود نور من عند الله يهدي الإنسان إلى الطريق.

ثانياً: وجود إرادة عند البشر يتغلب بها على شهواته وسائر العقبات التي تمنعه من رؤية النور.

ثالثاً: انعدام الحجب التي تمنع النور، كما الرؤية لا تتم إلا بضياء وبصر وألا يكون بينهما حجاب ساتر.

ولا تتوفر هذه الشروط لبشر إلا بإرادة الله تعالى. دعنا نفصّل القول في ذلك، فعن:

الأول: نقول: من الذي يهب لنا العقل والعلم؟ من الواضح أن العلم بوسائله القديمة والحديثة عجز عن إصلاح ألياف المخ التي تتلف، فكيف يعطي الإنسان نورا؟ كما لا يزال الجنون لغزا أمام الطب والعلم البشري إلا بعض أنواعه البسيطة.. كما أننا نمر في حياتنا بعهود ثلاثة يتضح لنا من خلالها أن العقل والعلم من عند الله عز وجل، ففي عهد الطفولة يولد الإنسان وهو لا يعلم شيئا ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل:٧٨]، وفي عهد القوة عندما يكون المرء في عز شبابه، وحيث قواه العقلية والجسمية والنفسية في أوج قوتها، لا يكتشف إلا بعض الأمور، وقد يفقد علمه بالنسيان وعقله بغلبة الغضب، ثم يبدأ مسيرته المتكسة علميًّا وجسميًّا ونفسيًّا، فإذا به ينقص علمه ﴿وَمَن نُّعَمِّرۡهُ نُنَكِّسۡهُ فِي ٱلۡخَلۡقِۚ أَفَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ [يس:٦٨]. ومن الأمور التي تتكرر لكل بشر في جانب العلم من حياته أنه قد تبدو له بعض الأمور واضحة ولكن عقله يعجز عن استيعابها و إذا به يلهمها ألهاما، وإلى هذه الحقيقة يشير

أكثر المفكرين والمبتكرين في كلامهم عن كيفية وصولهم إلى المعرفة، وإن كانت مذاهبهم تختلف في تفسير ماهية الإلهام ومصدره.

وفي النصوص الإسلامية نجد بيانا لحقيقة العلم، ففي سورة العلق نقرأ: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:١-٥]. إذن فالقراءة وهي إحدى طرق العلم والمعرفة لا تكون إلا بالله الذي يتكرر ذكر اسمه في أول كل سورة تذكيرا بذلك، والحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام يقول: **«لَيْسَ العِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ إِنَّمَا هُوَ نُورٌ يَقَعُ فِي قَلْبِ مَنْ يُرِيدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَهْدِيَهُ فَإِنْ أَرَدْتَ العِلْمَ فَاطْلُبْ أَوَّلًا فِي نَفْسِكَ حَقِيقَةَ العُبُودِيَّةِ وَاطْلُبِ العِلْمَ بِاسْتِعْمَالِهِ وَاسْتَفْهِمِ اللهَ يُفْهِمْكَ»**[1].

وحينما نعود إلى تجاربنا الشخصية في الحياة والى وجداننا وفطرتنا نكتشف بأن العلم ليس من ذات أنفسنا، كما أنه ليس من ذات الأشياء، وإنما هو حالة في قلوبنا مستجدة، وبالرغم من وجود إثارات خارجية له إلا إنه غير تلك الإثارات، بل مثله مثل العين التي تثيرها الأشياء بما فيها من أنوار إلا أننا لو لم نملك عينا لم تنفعنا إثارة الأشياء أبدا، كذلك الإثارات التي تبدو عندنا أسبابا للعلم فمن دون حالة العلم لما نفعتنا شيئا. إذا العلم من عند الله.

الثاني: من الذي جعل لكل شيء علامة تدل عليه، أوَليس الله؟ كما العين تبصر ولكن بشرط وجود النور المنعكس من الأشياء عليها، كذلك العلم يكتشف الحقائق بشرط وجود دلالة منها عليها، والله هو الذي جعل لكل شيء دلالة عليه. وكل شيء يكشف عن نفسه من خلال إمارات وعلامات ظاهرة، فآبار النفط، وعيون الماء، والمناجم، جعل الله لها جميعا آية تدل عليها، فمثلا قديما كانوا يكتشفون المياه بواسطة غصن أخضر يمشون به في عرض الصحراء، فإذا مال إلى جهة ما تأكدوا من وجوده فيها. من الذي جعل هذه العلاقة بين الغصن والماء؟ إنه ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]. والأمارات والآيات التي أودعها الله في الخلق بمثابة النور الذي يكشفها للإنسان، وقد قال رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله: **«إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً»**[2].

ولو أخفى الله شيئا، ولم يجعل بينه وبين علم الإنسان علاقة، فمن الذي يمكنه أن يهدينا إليه؟ وفعلا أخفى الله عن علم الإنسان أكثر مما أظهر.

الثالث: ولأن الإنسان يفقد قدرته على الرؤية والتمييز في بعض الحالات، كالغضب

---

(١) بحار الأنوار: ج١، ص٢٢٤.

(٢) بحار الأنوار: ج٦٩، ص٣٠٤.

الشديد، أو الاهتمام بقضية معينة، أو عند الشهوة، إذ ينعدم حينها شعوره الداخلي، فهو بحاجة إلى إرادة قوية يتغلب بها على تلك الحالات، والإرادة من الله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]. كما أن قوة الإرادة وضعفها بيد الله، ولولا تأييده لخارت أمام الضغوط، وإذا لم يهتد أبدا.

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن وَلِيٍّ مِّن بَعْدِهِ﴾ يستطيع هدايته أو إنقاذه من مصيره الأليم. فإذا كان يستحق النجاة فإن الله أحق بنجاته، لأنه خالقه وبارئه وأرحم به من كل شخص، فمن لا يرحمه أرحم الراحمين، ومن لا يسعه حلم الله الواسع وكرمه العظيم، ترى هل من رحمة تسعه أو حلم أو كرم؟!.

ونقرأ في سورة الرعد: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤]. والذي يتبع السبل الأخرى غير سبيل الله المتمثل في رسالاته وأوليائه، فإنه يكتشف خطأه وضلاله البعيد يوم القيامة، أو حتى في الدنيا عند الجزاء.

﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ﴾ وقد انتهت الفرصة التي أعطيت لهم ليجربوا بها إرادتهم. ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ إنهم وقد انتهى بهم الظلم إلى نار جهنم يتمنون الكرَّة ليختاروا هدى الله على ضلالات الشيطان، ولكن هيهات، هل تعود عقارب الزمن إلى الوراء، هل الشباب يرد إلى العجوز المتهاوية، أم تعود نضارة الطفولة إلى من عركته السنين، وبلغ من العمر عتيا؟! حقا تثير هذه الحقيقة النفس من أعماقها، فأي خسارة كبرى تلحق بالظالمين، بل أي ثمن يستحق في مقابل هذه الخسارة التي لا تعوض؟!.

[٤٥] وتتواصل الآيات في بيان عاقبة الظالمين الذين لو تسنى لهم لماتوا ملايين المرات حسرة على التفريط في جنب الله، وهم يتعذبون نفسيا وجسديا، نفسيا لأنهم يشعرون بالذلة والمهانة بعد العلو والتكبر في الدنيا، وجسديًا لأنهم سيصيرون حطبا لجهنم. ﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ﴾ إن أهم العقبات النفسية التي تعترض طريق الإنسان إلى الهداية هو التكبر، الذي أخرج إبليس من الجنة، ولازال يخرج به إبليس أبناء آدم من رحمة الله إلى غضبه وعذابه، وعلى الإنسان أن يقاوم جموح النفس المتكبرة، بتصور تلك اللحظة التي يعرض فيها المتكبرون على النار، خاشعة نفوسهم من الذل.

وهذا الخشوع السلبي لا يتجاوزه الإنسان إلا بخشوع الإيمان الإيجابي، ولذلك جاء في

الدعاء: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خُشُوعَ الإِيمَانِ قَبْلَ خُشُوعِ الذُّلِّ فِي النَّارِ»(١).

وحيث تبلغ الذلة بالظالمين ذروتها يوم القيامة فهم لا يستطيعون الالتفات إلى من حولهم بكامل نظرهم وأعينهم، وبالذات أولئك الذين أظهروا أنفسهم مظهر المؤمنين، وخدعوا الناس في الدنيا، ولذلك فإنهم حينما يريدون الالتفات إلى الناس، أو حتى مجرد رفع طرفهم نحو الآفاق، يختلسون النظرات ذلة ومهانة. ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ بحيث لا يرون أحدا، وهذه من طبيعة المجرم، أو الإنسان حينما يصعد عنده الشعور بالذل.

وقال البعض: إن شدة العذاب تمنعهم من النظر إلى النار، ولكنهم ينشدون إليها خوفا منها وَفَرَقا، ولذلك تراهم ينظرون إليها من طرف خفي، كالذي حكم عليه بالإعدام ينظر إلى المشنقة نظرا خفيا، بعكس الذي ينظر إلى روضة غناء فإنه يملأ منها عينيه.

أما الصالحون فإنهم يستفيدون من هذا الموقف موعظة وعبرة.. ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بسبب ظلمهم وضلالهم. لقد وفّر الله سبحانه فرصة عظيمة للإنسان حيث أعطاه قوى نفسه، ومتعة بأهليه، والظالمون يفقدون هذه الفرصة، فلا يعملون بأنفسهم عملا صالحا حتى يستفيدوا من طاقاتهم يوم القيامة، ولا يربون أهليهم على العمل الصالح حتى يستفيدوا من حسنات ذريتهم يومئذ، وهكذا تكون خسارتهم مضاعفة في ذلك اليوم الرهيب. ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ أي دائم لا يخرجون منه.

[٤٦] كما أن الظالمين يخسرون أنصارهم وأعوانهم يوم القيامة، حيث تنقطع كل العلاقات والروابط التي منعتهم في الدنيا من الاستقامة على الطريق.. ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا المعنى يتكرر عشرات المرات في القرآن، ولكن لماذا تؤكد الآيات على أن الذين يعتمد عليهم الإنسان ويتوسل بهم ويعبدهم، كالطواغيت، وأصحاب القوة والمال، وأصحاب العلم الضال والشهرة لن ينفعوه؟. ذلك لأن من أعظم عوامل الضلالة أصحاب السوء الذين يغتر بهم الظالم فيتوغل في اغتصاب حقوق الناس اعتمادا عليهم. أفلا يتفكر أنهم لا ينفعونه شيئا يوم القيامة؟!.

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن سَبِيلٍ﴾ إلى الهداية، لأن السبيل الوحيد إليها هو سبيله.

وأخيرا: نتساءل: ما هي علاقة هذه المجموعة من الآيات والأفكار المستوحاة منها بموضوع الوحدة ومعالجة الاختلافات الاجتماعية؟.

(١) بحار الأنوار: ج٩٥، ص٩٥.

إن القرآن الحكيم يسعى لمعالجة جذور الفساد والاختلاف، ومن أهمها الضلالة، ذلك أن البعض يعرف الحقيقة بينما يجهلها البعض الآخر، الأمر الذي ينتهي إلى الخلاف في أغلب الأحيان، والقرآن يعالج الضلالة البشرية مؤكدا بأن سببها الابتعاد عن منهج السماء، فإذا ما عاد إلى الله واستجاب لدعوته اهتدى إلى الحق، وابتعد عن التكبر الذي يقف بصورة أو بأخرى خلف الصراعات الاجتماعية.

جعلناه نورا نهدي به من نشاء

﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ[1] ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَـٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَـٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَـٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَـٰنُ وَلَـٰكِن جَعَلْنَـٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾.

هدى من الآيات:

تتواصل خاتمة آيات السورة لتطهير الأفئدة من غفلتها عن الرسالة، واتكالها على الرسول، وغرورها بما تملك، وجزعها مما تفقد، كيف.؟.

---

(١) وما لكم من نكير: أي منكر ينصركم، أو إنكار: بمعنى إنكم لا تقدرون على الاستنكار لشدة الهول والفزع أو لما ترون من عدم الفائدة في إنكاره.

يهزُّ مطلع الدرس القلب هزًّا عنيفا بعد أن يأمره بالاستجابة للرسالة فينذره بيوم عظيم لا يرده شيء، هنالك حيث لا ركن يلجؤون إليه، ولا نصير ينكر ما يفعل بهم.

ثم ينسف فكرة الاتكال في الهداية، فحتى الرسول لا يتحمل المسؤولية إلا بقدر تبليغ الرسالة.

ويحطم غرور الإنسان، ويعريه على ضعفه، وكيف يهتز فرحا برحمته، ولا يلبث أن يتميز كفرا ويأسا إذا أصابته سيئة، أفلا يهديه ذلك إلى أنه لا يملك من أمره شيئا، وأن لله ملك السماوات و الأرض، وأنه يخلق ما يشاء، وأنه الذي يقسم رحمته بين عباده كيفما يشاء، فيهب لهذا ذكرانا، ولذلك إناثا، ويجعل الثالث عقيما؟.

ويكرم من يشاء بأعظم مكرمة وهي الوحي ثم يمضي السياق في بيان حقائق عن الوحي، فتكتمل السورة التي تبين جوانب عن النظام السياسي في المجتمع المسلم بالحديث عن الوحي. أوَليس هو محور هذا المجتمع، وقيمة نظامه السياسي؟.

بينات من الآيات:

[٤٧] أعظم ما يعاني منه البشر الغفلة، حيث تحيط بهم مشاكل يومية تنسيهم قضاياهم المهمة، وعادة تحجب الشجرة الناس عن رؤية الغابة المترامية.. ويعالج الذكر هذه الحالة بالإنذار الصاعق من يوم القيامة حيث لا يمكن الفرار من أهواله. ﴿ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم ﴾ بالاستماع إلى داعيه، والتسليم للحق الذي نزل معه، والطاعة للقيادة التي أمر بها. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ﴾ وهل يرد أحد ما يريده الله تعالى؟. ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ ﴾ فلا أحد ينصر أحدا ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴾.

[٤٨] ويعالج القرآن -في أكثر من آية- عقبة نفسية أمام تحمل مسؤولية الإيمان، حيث ترى الإنسان ينتظر من يحمله الإيمان تحميلا، ويزعم أنه ما دام لا يوجد من يكرهه على الإيمان فهو معفي عنه وعن التزاماته.

كلا.. الإيمان مسؤوليتك قبل أي شخص آخر. أو ليست فائدته لك، وخسارته -إن خسرته- عليك، فماذا تنتظر؟ إن الرسول ليس إلا مبلغ، فإن شئت آمنت بحريتك، وإن شئت اشتريت العذاب بما اخترته لنفسك من الكفر. ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ وهذا دور كل قائد رسالي في أي مجتمع وأي زمان، وكفى بذلك مسؤولية كبيرة يتحملها. وإذا ما أعرض الناس عما يدعوهم إليه فلا يدل ذلك على قصور في الرسالة،

ولا تقصير في القائد، بمقدار ما يدل على ابتعادهم عن ميزان العقل الثابت، واتباعهم لطبائعهم المتقلبة، التي تتأثر بالضغوط والعوامل الخارجية، والتي يستعرضها السياق هنا ليهدي الإنسان إلى مراكز ضعفه، لكي لا يستبد به الغرور فيكفر.

إن ضعف الإنسان يتمثل في تقلب حالته النفسية مع تقلبات الظروف الخارجة عن إرادته، فهل تكون هذه الحالة ميزانا صالحا لتقييم الحق والباطل، أو منهجا سليما للسلوك، أم لا بد من اتباع الرسول. ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ وتوقف عند حدود النعمة دون التفكير فيما يترتب عليها من مسؤولية، وقد نهى الله عن الفرح قائلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦]. وقال في موضع آخر: ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ [آل عمران:١٨٨]. والفرح المنهي عنه هو حالة الإشباع التي تؤدي إلى الغرور أو نفي المسؤولية والوصول إلى الكمال. وهذا الشعور يوقف مسيرة التقدم عند الإنسان، وعلى العكس من ذلك لو أشعر نفسه بأن أمامه مسؤوليات أخرى لم يؤدها، فإنه يستشعر الحزن في نفسه لاعتقاده بالتقصير في عمله.

وهكذا أوصانا الإمام أمير المؤمنين عليه السلام حين قال: «**واعْلَمُوا عِبَادَ اللهِ أَنَّ المُؤْمِنَ لَا يُصْبِحُ ولَا يُمْسِي إِلَّا ونَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ فَلَا يَزَالُ زَارِياً عَلَيْهَا ومُسْتَزِيداً لَهَا فَكُونُوا كَالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ والمَاضِينَ أَمَامَكُمْ قَوَّضُوا مِنَ الدُّنْيَا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ وطَوَوْهَا طَيَّ المَنَازِلِ**»[1]. وأوصى الإمام الكاظم عليه السلام بعض ولده بذلك قائلا: «**يَا بُنَيَّ عَلَيْكَ بِالجِدِّ لَا تُخْرِجَنَّ نَفْسَكَ مِنَ حَدِّ التَّقْصِيرِ فِي عِبَادَةِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ وطَاعَتِهِ فَإِنَّ اللهَ لَا يُعْبَدُ حَقَّ عِبَادَتِهِ**»[2].

وهناك جانب آخر من طبيعة البشر هو اليأس عند المصيبة والابتلاء، حيث ينسى نعم الله عليه بسبب مصيبة يتعرض لها في حياته، مما يدل على مدى ضعفه. ولماذا يكفر بالنعم؟ لأنه فقد بعض المال أو أصابه شيء من المرض، أفلا فكر في سائر نعم الله التي لا يزال يتقلب فيها، ألا تذكر أيام الرخاء والراحة عندما كان يفرح بالنعم ويحسب أنها دائمة لا تزول عنه أبدا؟!

بلى، ينبغي أن يركز المبتلى نظره في سائر نعم الله عليه، فيستعيد شخصيته، و يثق بربه، ويسرع في مقاومة البلاء بروح إيجابية، كما ينبغي أن يتذكر أبدا نعم الله السابقة عليه فيزداد بالله أملا وله حمدا كثيرا، كما فعلت امرأة أيوب حيث حاول إبليس إغواءها عندما أحيط بها البلاء، فنهرته واستقامت على صبرها وتجلدها حتى فرج الله عنها.. جاء في الحديث: إنه جاءها ذات

---

(١) بحار الأنوار: ج٦٨، ص٢٣١.

(٢) الكافي: ج٢، ص٧٢.

يوم «فَقَالَ لَهَا أَ لَسْتِ أُخْتَ يُوسُفَ الصِّدِّيقِ عليه السلام؟. قَالَتْ: بَلَى. قَالَ: فَمَا هَذَا الجَهْدُ وَمَا هَذِهِ البَلِيَّةُ الَّتِي أَرَاكُمْ فِيهَا؟. قَالَتْ: هُوَ الَّذِي فَعَلَ بِنَا لِيُؤْجِرَنَا بِفَضْلِهِ عَلَيْنَا لِأَنَّهُ أَعْطَاهُ بِفَضْلِهِ مُنْعِماً ثُمَّ أَخَذَهُ لِيَبْتَلِيَنَا، فَهَلْ رَأَيْتَ مُنْعِماً أَفْضَلَ مِنْهُ فَعَلَى إِعْطَائِهِ نَشْكُرُهُ وَعَلَى ابْتِلَائِهِ نَحْمَدُهُ، فَقَدْ جَعَلَ لَنَا الحُسْنَيَيْنِ كِلْتَيْهِمَا فَابْتَلَاهُ لِيَرَى صَبْرَنَا وَلَا نَجِدُ عَلَى الصَّبْرِ قُوَّةً إِلَّا بِمَعُونَتِهِ وَتَوْفِيقِهِ، فَلَهُ الحَمْدُ وَالمِنَّةُ مَا أَوْلَانَا وَأَبْلَانَا»[1].

هكذا يوجِّه المؤمنون الابتلاء والمصيبة، ويقاومون وساوس الشيطان الذي يحاول تحريف مسيرتهم، بينما يكفر سائر الناس بسبب الابتلاءات التي يتعرضون لها، والتي لو درسناها لوجدنا أكثرها تحل بهم لذنوبهم وما قدمته أيديهم من سيئات. ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ﴾ يكفر بالنعم القديمة كما يكفر بسائر النعم التي تحيط به الآن، فتظلم الدنيا في عينيه، ويفقد القدرة على مقاومة البلاء والتمتع بالرخاء.

[٤٩] هذا ضعف الإنسان، وخور عزمه، أفلا اتصل بالقوة التي لا تقهر، وبالملك الذي لا يحد، وبالعزة التي لا تغلب، بالله القوي العزيز؟. ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومَنْ أوسع ملكا ممن يملكهما، ومن أنفذ ملكا ممن خلقهما؟ أوَليست السماوات مطويات بيمينه؟ ثم إن ملكه لا يحد بالسماوات والأرض، لأنه: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ دون أن يحق لأحد الاعتراض عليه أو السؤال. وتتجلى هذه المشيئة في مختلف جوانب الحياة، ومن بينها تصرفه في أعظم ما خوله للإنسان من الملك وهو الولد. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ﴾ فلا الذي يريد الله أن يكون نسله كلهم إناثا قادرٌ على إنجاب الذكور، ولا العكس. ولعل تقديم الإناث على الذكور كان للدلالة على أن البنت هي الأخرى هبة من الله عظيمة، أو لأن الجاهليين كانوا لا يحبون الإناث، ولكن الله- بالرغم من ذلك- يهب الإناث، فهو الواهب لما يشاء، كيف يشاء، أفـلا يدل ذلك على سعة ملكه، وشدة هيمنته؟

[٥٠] ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ﴾ أي يجعل النسل من الجنسين الإناث والذكور ويجعل من يشاء عقيماً. فلا يهب له شيئا، وهذه المشيئة ليست اعتباطية، وإنما تدخل ضمن حكمة الله وإرادته المطلقة. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ ولو أنه يعطي الناس كيفما أرادوا لربما فسد العالم، فقد يتمنى الجميع أو الأكثرية الذكور أو العكس، بينما لا بد من التنوع والتوازن للحفاظ على الجنس البشري، ومن جانب آخر يجعل ربنا البعض عقيما لحكمة يعلمها، فربما يفسد العقيم لو أعطي ذرية. ومعرفة هذه الحقيقة تبعث السكينة في النفس، فمن علم بأن الله هو الوهاب لأفضل النعمة وأشدها تأثيرا على النفس، وهي نعمة

(١) بحار الأنوار: ج١٢، ص٣٥٢.

الذرية التي تهش لها نفس كل حي، لا يستبد به الفرح حتى يدخله في الغرور، كما أنه لو فقد شيئا من النعمة لا يستبد به اليأس حتى يدخله في الكفر بالنعم، لأنه يعلم بأن المقدر لكل ذلك هو الله الذي لا يظلم ولا يجور سبحانه وتعالى.

[٥١] وفي سياق الحديث عن آماد ضعف البشر، وأبعاد حاجته، وضرورة اتصاله بمعدن القوة، وينبوع الغنى برحمة الله الذي له ملك السماوات والأرض يهدينا الرب إلى نعمة الرسالة، ويتصل الحديث عن الرسالة بالجو العام لسورة الشورى التي تختم بهذه الآيات اتصالا متينا، ذلك لأن الشورى -كما أسلفنا- متممة للنظام السياسي للأمة، ومحور هذا النظام بل وأساس الأمة هو الوحي الذي يضفي على المجتمع المسلم صبغة الله، ويحييه بكلمة التقوى، ويوحده حول محور القيادة الرسالية المتمثلة في الرسول ﷺ وذوي القربى من أهل بيته المعصومين ومن اتبع نهجهم من الفقهاء الصالحين!.

ولم يمن الله على عباده بنعمة أعظم ولا أروع ولا أنفع من الوحي. إنه التجلي الأعظم لرحمة الله التي وسعت كل شيء، وأي تقدير أو أي احترام أكبر من أن يتلقى الإنسان كلمات جبار السماوات و الأرض؟!. وأي قلب عظيم هذا الذي يتلقى هذا الأمر الثقيل فلا يتصدع.؟! أي سماء تحلق بها هذه النفس الكريمة التي تستقبل كلمات الله التي لو ألقيت على الجبال لتصدعت ولو وجهت إلى الموتى لتكلموا أو إلى الأرض لسارت سيرا.؟!.

ولكن كيف ينزل الله كلماته على البشر؟ بواحدة من السبل التالية: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا ﴾ ما هو الوحي؟ حسب اللغة وموارد استخدام الكلمة أنه قذف الحقيقة في القلب قذفا. قال الشيخ المفيد: «... وأصل الوحي هو الكلام الخفي، ثم قد يطلق على كل شيء قصد به إفهام المخاطب على الستر له من غيره والتخصيص له به دون من سواه، وإذا أضيف إلى الله كان فيما يخص به الرسل عليهم السلام خاصة دون سواهم على عرف الإسلام وشريعة النبي.. »[1]. وروي عن الإمام أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال في معاني الوحي: «فَأَمَّا تَفْسِيرُ وَحْيِ النُّبُوَّةِ وَالرِّسَالَةِ فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ ۞ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ ... ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ.

وَأَمَّا وَحْيُ الإِلْهَامِ فَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿ وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ أَنِ ٱتَّخِذِي مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعۡرِشُونَ ﴾ وَمِثْلُهُ ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ فَإِذَا خِفۡتِ عَلَيۡهِ فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ ﴾.

(١) بحار الأنوار: ج١٨ ص٢٤٨.

وَأَمَّا وَحْيُ الإِشَارَةِ فَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾»[1]. وما يجمع هذه المعاني وغيرها لكلمة الوحي هو الإلقاء إشارة وبنحو من التخصيص والستر.

ونتساءل: كيف يتم الوحي من الله للبشر؟. قبل الإجابة لا بد أن نعرف أنه لا ينبغي السؤال عن الكيفية في الجانب الألوهي، لأن علمه محجوب عنا، وقد ضل كثير من الناس حين تفكروا في الذات الألوهية وما يتصل به سبحانه من حقائق، بلى؛ يحق لنا أن نسأل عن الجانب الآخر حيث يتم التلقي والاستجابة والأخذ، والقضية هنا هينة إذ إن لها أمثلة: فنحن البشر لم نعلم شيئا حين خلقنا الله من بطون الأمهات ثم قذف في قلوبنا العلم، كما إن كثيرا من البشر يقذف الله في أفئدتهم نور معرفته و روح الإيمان به، وكل ذلك نظائر للوحي. ولكن حين يكلم الله أحدا بالوحي فإن ذلك لا يعني مجرد قذف نور العلم بصورة مجملة، بل وأيضا بيان تفاصيل العلم، وبينات الهدى، لأن القضية هنا قضية التكلم، والتكلم يعني وجود كلمات، والكلمات تعني المفصلات من العلم.

ويبدو أن الوحي هو اتصال مباشر بين الرب وعبده المنتخب، ولعله أسمى درجات التكلم، وقد كان نبينا ﷺ يعيش في لحظات التجلي وضعا خاصا كان يسمّيه المسلمون (برحاء الوحي).. سأل زرارة من الإمام الصادق عليه السلام قائلا: «**جُعِلْتُ فِدَاكَ الغَشْيَةُ الَّتِي كَانَتْ تُصِيبُ رَسُولَ اللهِ ﷺ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ، قَالَ: فَقَالَ عليه السلام: ذَلِكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ أَحَدٌ ذَاكَ إِذَا تَجَلَّى اللهُ لَه**»[2]. وجاء في حديث آخر: «**كَانَ جَبْرَئِيلُ إِذَا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ قَعَدَ بَيْنَ يَدَيهِ قَعْدَةَ العَبْدِ وَكَانَ لاَ يَدْخُلُ حَتَّى يَسْتَأْذِنَهُ**»[3].

من هنا فإن بَرحاء الوحي إنما كانت تنتاب النبي عندما يتم تجلي الله له بالوحي المباشر، وليس عندما يبعث إليه رسولا من عنده (وهو جبرائيل عليه السلام) الذي كان يتمثل في أجمل صورة وهو صورة دحية الكلبي المعروف بصباحة وجهه، ولم ينزل عليه بصورته الأصلية إلا مرتين، حسب بعض النصوص.. ماذا كانت برحاء الوحي، ولماذا؟.

روي أنه كان إذا نزل عليه الوحي يسمع عند وجهه دوي كدوي النحل. وروي أنه كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه يتفصد عرقا[4]. وروي أنه

(١) بحار الأنوار: ج٩٠ ص١٦.
(٢) بحار الأنوار: ج ١٨، ص٢٥٦.
(٣) علل الشرائع: ج١، ص٧.
(٤) أي إذا انتهى عنه الوحي تصبب عرقا، بحار الأنوار: ج١٨، ص٢٦١.

كان إذا نزل عليه كرب لذلك، ويربد وجهه، ونكس وجهه، ونكس أصحابه رؤوسهم منه[1]. وفي الحديث: «أَنَّهُ ﷺ أُوحِيَ إِلَيْهِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ فَبَرَكَتْ وَ وَضَعَتْ جِرَانَهَا[2] بِالأَرْضِ فَمَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَتَحَرَّكَ وَأَنَّ عُثْمَانَ كَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ﴿لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ﴾ الآيَةَ وَفَخِذُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى فَخِذِ عُثْمَانَ فَجَاءَ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللهِ: إِنَّ بِي مِنَ الْعُذْرِ مَا تَرَى. فَغَشِيَهُ الْوَحْيُ فَثَقُلَتْ فَخِذُهُ عَلَى فَخِذِ عُثْمَانَ حَتَّى قَالَ: خَشِيتُ أَنْ تَرُضَّهَا فَأَنْزَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ﴾»[3]. وحق للنبي أن يتكأده ثقل الوحي، ولولا توفيق الله لتصدع قلبه لتجليات ربه. أوَليست السماوات يكدن يتفطرن من خشية الله. ما أعظم هذا القلب الذي يتحمل كلمات الله، و يتلقى أمره مباشرة!. إنه حقا آية عظمى من آيات الله!.

ولعل توفيق الله وتسديده للرسول الذي تكتمل مقدرته على احتمال حالة الوحي وتجلي الله العظيم ثم احتمال علم الله وكلماته، لعل هذا التوفيق يتمثل في روح القدس التي أنزلها الله على نبيه، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام قال مفسرا قوله تعالى: ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ **خَلْقٌ أَعْظَمُ مِنْ جَبْرَئِيلَ وَمِيكَائِيلَ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مَعَ الأَئِمَّةِ وَهُوَ مِنَ الْمَلَكُوتِ**»[4].

وقال عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ **خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَعْظَمُ مِنْ جَبْرَئِيلَ وَمِيكَائِيلَ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُخْبِرُهُ وَيُسَدِّدُهُ وَهُوَ مَعَ الأَئِمَّةِ مِنْ بَعْدِهِ**»[5].

﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ كما كلم الله نبيه موسى بن عمران عليه السلام تكليما، ولكن دون أن يرى شيئا، وماذا تحتمل العين من عظمة الله، أرأيت كيف تتلف أنسجة العين، وتعطب أعصابها، لو تعرضت لومضة شديدة من النور الذي خلقه الله، أو يزعم أحد بأن الله أقل نورا من تلك الومضة وقد أشرقت السماوات والأرض بنور ربها؟! لقد تجلى ربك للجبل فجعله دكا، وخر موسى صعقا، فإذا لم يصبر موسى على تصدع الجبل فهل كان يتحمل تجلي الله له مباشرة؟!.

﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ كما كان ربنا يبعث جبرائيل لرسله، ولكن كيف كان يتلقى جبرائيل

---

(١) بحار الأنوار: ج١٨، ص٢٦١.
(٢) مقدم العنق.
(٣) بحارالأنوار: ج١٨، ص٢٦٣.
(٤) المصدر السابق: ص٢١٥.
(٥) المصدر السابق: ص٢٦٤.

وحي ربه؟ حسب رواية عن أمير المؤمنين عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله أنه: «سَأَلَ جَبْرَئِيلُ قَائِلاً: يَا جَبْرَئِيلُ هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ جَبْرَئِيلُ: إِنَّ رَبِّي لا يُرَى، فَقَالَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: مِنْ أَيْنَ تَأْخُذُ الوَحْيَ؟ فَقَالَ: آخُذُهُ مِنْ إِسْرَافِيلَ، فَقَالَ: وَمِنْ أَيْنَ يَأْخُذُهُ إِسْرَافِيلُ؟ قَالَ: يَأْخُذُهُ مِنْ مَلَكٍ فَوْقَهُ مِنَ الرُّوحَانِيِّينَ، قَالَ: فَمِنْ أَيْنَ يَأْخُذُهُ ذَلِكَ المَلَكُ؟ قَالَ: يَقْذِفُ فِي قَلْبِهِ قَذْفاً»[1].

﴿فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ ولا يحق لأحد يتلقى الوحي أن يتصرف فيه كثيرا أو قليلا، بل لا بد أن يكون الوحي حسب ما أمر الله، وفي الوقت الذي يأذن الله.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ ومن علو مجده تساميه من القلوب المريضة، والنفوس المليئة بالأحقاد والأغلال وآثار الذنوب، إنما الذين يصطفيهم الله لوحيه من طهرت أنسابهم وأحسابهم، وصفت قلوبهم، و تسامت نفوسهم، فالله أعلم حيث يجعل رسالته يختار لها أكرم خلقه، وأشدهم تسليما وطاعة وإخلاصا.

من هنا لا ينبغي للناس أن يختاروا لقيادتهم إلا الأعلم الأتقى. أوَليس الله هو المخصوص بالطاعة؟ فلا بد أن يكون أقرب الناس إليه هـو الذي يطاع بين الناس بإذن الله.

[٥٢] وهكذا عقد لواء القيادة في هذه الأمة لرسولنا الأكرم لأنه تلقى الوحي من أمر الله.. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ بمثل هذه السبل الثلاث: بالوحي المباشر، وبالتكلم من وراء حجاب، وببعث الرسول، تلقى الرسول كلمات ربه. ﴿أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ ما هو ذا الروح الذي أوحى الله إلى الرسول؟. قالوا إنه روح الحياة. أوَليس القرآن حياة القلوب، وفيه ما يضمن للبشر الحياة الأخروية، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤].

ولكن يبدو أن الروح في منطق الكتاب هو روح القدس، وقد قال ربنا سبحانه:

١- ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة:٨٧].

٢- ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النحل:١٠٢].

٣- ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر:١٥].

٤- ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا﴾ [النبأ:٣٨].

والروح -حسب الآية الأخيرة- غير الملائكة، وهو يلقى على الرسل حسب الآية

(١) بحار الأنوار: ج١٨، ص٢٥٧.

الثالثة، وهو يحمل الرسالة حسب الآية الثانية، ويؤيد به الرسل حسب الآية الأولى.

وفي النصوص أنه خلق أعظم من الملائكة، وهو الذي ينزل في ليلة القدر، ويصعد مع الملائكة في يوم القيامة كما ذكر في الآية الرابعة. وهو بأمر الله ومن أمره، فهو إذا من عالم الملكوت المهيمن على المخلوقات، وبتعبير آخر: إنه من عالم الأنوار المتعالية عن عالم الأجسام اللطيفة كالملائكة أو الكثيفة كالبشر، إنه في أفق العلم والعقل، والحياة والقدرة، وبذلك فهو من عالم الأمر، حيث ينزل منه القدر، ويكون به القضاء.

ويكفينا أن نعرف من الروح هذا القليل الذي يشير إلى آياته وعلائمه ومظاهر وجوده وليس إلى ذاته، كما في سائر الأنوار العالية التي لم نعرف علمها إلا بقدر معرفة آثارها، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء:٨٥]. وهكذا يبدو أن الروح -كما العقل والإرادة- هو نور إلهي ينزله الله على قلب من يشاء من عباده، ليشبع فيه سكينة الإيمان، ونور اليقين، وسداد التوفيق، وكلمة التقوى والعصمة. وقد أعطى ربنا المؤمنين من عباده درجة من هذا الروح وهو روح الإيمان والتقوى، بينما أكمل لنبيه محمد ﷺ وآله عليهم السلام درجات هذا الروح، وأبلغهم درجة اليقين التام والعصمة. ولولا هذا الروح لم يكن يعرف الأنبياء أن ما ينقر في آذانهم أو يقذف في أفئدتهم أو تراه أبصارهم هو من عند الله وليس من نزغات الشياطين أو أوهام النفس. كما أنه لولا نور العقل لم يقدر الإنسان على التمييز بين الحق والباطل، بين ما تراه عينه من ماء وما يتراءى له من سراب. ولولا روح القدس لم يهزم النبي الشيطان كليا، كما أنه لولا روح الإيمان لم يتغلب المؤمن على الشيطان في الأغلب.

وبتعبير آخر: بروح القدس تتكامل نفس النبي حتى تستعد لتلقي وحي الله، كما بالعقل تتكامل نفس سائر البشر لتلقي المعارف والعلوم. إنه إذا الجانب المتصل بالنبي من الوحي، بينما الرسالة هي الجانب المتصل بالحق الذي يوحى، وكلاهما من الله سبحانه، ولهذا جاءت كلمة الروح هنا بعد الوحي، وكأنه أوحي به بينما هو من أمر الله، وبه يسود النبي لتلقي الوحي.

ونستوحي هذه الفكرة من بعض الأحاديث التي ذكرنا طائفة منها سابقا، والتي تبين أن الروح خلق أعظم من الملائكة، ونتلو معا الطائفة الثانية:

- روي عن زرارة قال: «قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام: كَيْفَ لَمْ يَخَفْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيمَا يَأْتِيهِ مِنْ قِبَلِ اللهِ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ مِمَّا يَنْزَغُ بِهِ الشَّيْطَانُ؟ قَالَ: فَقَالَ عليه السلام: إِنَّ اللهَ إِذَا اتَّخَذَ عَبْداً رَسُولًا أَنْزَلَ عَلَيْهِ السَّكِينَةَ وَالوَقَارَ فَكَانَ يَأْتِيهِ مِنْ قِبَلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مِثْلُ الَّذِي يَرَاهُ بِعَيْنِهِ»[1].

(١) بحار الأنوار: ج١٨ ص٢٦٢.

- روي عن محمد بن مسلم ومحمد بن مروان عن أبي عبد الله الإمام الصادق عليه السلام: «**مَا عَلِمَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله أَنَّ جَبْرَئِيلَ عليه السلام مِنْ قِبَلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا بِالتَّوْفِيقِ**»(١).

- في تفسير هذه الآية بالذات سبق وأن روينا حديثا عن الإمام الصادق عليه السلام أيضا أنه قال (عن الروح في هذه الآية): «**خَلْقٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ عَزَّ وجَلَّ أَعْظَمُ مِنْ جَبْرَئِيلَ ومِيكَائِيلَ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله يُخْبِرُهُ ويُسَدِّدُهُ وهُوَ مَعَ الأَئِمَّةِ مِنْ بَعْدِهِ**»(٢).

- جاء في تفسير الآية ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾ [الإسراء:٨٥]، عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «**خَلْقٌ أَعْظَمُ مِنْ جَبْرَئِيلَ ومِيكَائِيلَ لَمْ يَكُنْ مَعَ أَحَدٍ مِمَّنْ مَضَى غَيْرِ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وهُوَ مَعَ الأَئِمَّةِ يُسَدِّدُهُمْ ولَيْسَ كُلُّ مَا طُلِبَ وُجِدَ**»(٣).

ولكي يزداد الأنبياء عليهم السلام يقيناً بأن الله يؤيدهم بروح منه ويزدادوا قربا منه بالإنابة إليه والتوبة فإن الله يكِلَهُم إلى أنفسهم لحظات فتهتز قناعاتهم أو يرتكبون مالا يليق بهم، كما هَمَّ يوسف بها لولا أن رأى برهان ربه، وكما دعا يونس على قومه وكان الأولى أن يصبر عليهم، وكما سارع داود بالقضاء فذكرته الملائكة فأناب إلى الله. وقد جاء في حديثين يكمل الثاني منهما الأول ما يلي: عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام «فِي قَوْلِ اللهِ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ ﴾ [يوسف:١١٠]. مُخَفَّفَةً قَالَ عليه السلام: **ظَنَّتِ الرُّسُلُ أَنَّ الشَّيَاطِينَ تَمَثَّلَ لَهُمْ عَلَى صُورَةِ المَلَائِكَةِ**»(٤). وعن أبي شعيب عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «**وَكَلَهُمُ اللهُ إِلَى أَنْفُسِهِمْ أَقَلَّ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ**»(٥).

هكذا نعرف أن نعمة الروح التي يسدد بها النبي ويعصم من أن ينطق بهوى ليست بأقل من نعمة الوحي إن لم تكن أعظم.

﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ ﴾ ذلك أن الكتاب ليس من عبقرية محمد صلى الله عليه وآله بل من وحي الله. ﴿ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾ فلولا الوحي لم يكن النبي يدري شيئا من كتاب ربه، ولولا روح القدس لم يبلغ درجة الإيمان، لأن الإيمان يتم بروح منه. ولا ريب أن الرسول كان مؤمنا قبل الرسالة، ولكن هذا الإيمان كإيمان أي بشر آخر كان بالله وبروح منه. ألم يقل ربنا سبحانه: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات:١٧].

---

(١) بحار الأنوار: ج١٨، ص٢٥٦.
(٢) الكافي: ج١ ص٢٧٣.
(٣) المصدر السابق: ص٢٧٣.
(٤) بحار الأنوار: ج١٨ ص٢٦١.
(٥) المصدر السابق: ص٢٦٢.

أما الرسول محمد ﷺ فقد سدَّده الله منذ نعومة أظفاره بروح القدس، حسب ما يبدو من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: «ولَقَدْ قَرَنَ اللهُ بِهِ ﷺ مِنْ لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ المَكَارِمِ ومَحَاسِنَ أَخْلَاقِ العَالَمِ لَيْلَهُ ونَهَارَهُ»[1].

فإذن الرسول كان يدري الإيمان لكن بتأييد (روح القدس)، فالنفي نفي لذاتية المعرفة والإيمان وإثبات أن ما لدى رسول الله ﷺ أنه من الله تعالى.

وثمة تفسير آخر وهو أن متعلق الإيمان هو تفصيل الكتاب، الذي هو -قبل الوحي- لم يكن معروفا.

﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ إنه من الله، ولأجل كل من يشاء الله هدايته، وليس من الرسول أو خاصا به فقط. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

[٥٣] فالنور الذي أوحى به الله يهدي إلى السبيل المستقيم ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ وهل صراط الله خالق الكون ومالكه أفضل، أم صراط الشياطين والطواغيت الذين يشرعون مناهج منحرفة تتنافى مع القوانين الطبيعية والسنن الكونية فيضلون ويضلون؟! وهل مَنْ تصير إليه الأمور أحق بالطاعة والاتباع أم من لا يملكون شيئا حتى من أمور أنفسهم؟!.

وقبل الختام نورد حديثا في فضل هذه الآية نقله جابر بن عبد الله عليه السلام عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: سمعته يقول: «وَقَعَ مُصْحَفٌ فِي البَحْرِ فَوَجَدُوهُ وقَدْ ذَهَبَ مَا فِيهِ إِلَّا هَذِهِ الآيَةَ أَلا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الأُمُورُ»[2].

---

(١) بحار الأنوار: ج١٤، ص٤٧٤.

(٢) الكافي: ج٢، ص٦٣٢.

المحتويات